

دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة المجلد ٢

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

نيتوتشكا نرفانوفا
الغالب الأبيض . بروخارتشين
جارية . المهرج
الشريف . البطل الصغير
ه في تسع رسائل
عيد الميلاد والزواج
رجل، زوج تحت السرير





الاعمال الأدبية الكاملة
المجلد الثاني

دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

دار الكتب العربي للطباعة والنشر

القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر

بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو

ص.ب: ٥٥٣٧ / ١٤ - هاتف: ٢٥٢٨٣٣

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتورك - إيطاليا ١٩٨٥

- نيتوتشكا نرقانونا
- اللبالي الببضاء
- بروحنارثين
- البجارة
- الممصتج
- السارق الشريف
- البطل الصغير
- قصة في تسع رسائل
- شجرة عيد الميلاد والزواج
- زوجة آخر.. وزوج تحت السرير

جميع الحقوق محفوظة

تقديم

يضم هذا المجلد الثانى من « أعمال دوستويفسكى الادبية » رواية واحدة هى « ليتولشكا نزانوفا » ، وقصصا تسعا تتفاوت طولا وقيمة .

ليتولشكا نزانوفا

١٨٤٩

هذه الرواية التى كتبها دوستويفسكى فى عامى ١٨٤٧ و ١٨٤٩ ، كان مقدرها لها أن تكون رواية كبيرة تشتمل على ستة أجزاء ، غير أن ما نشر منها لا يضم الا ثلاثة أجزاء جعل لها دوستويفسكى العناوين الفرعية التالية : « طفولة » ، « حياة جديدة » ، « السر » . ذلك أن اعتقال دوستويفسكى فى الثالث والعشرين من شهر نيسان (ابريل) ١٨٤٩ قد قطع عليه عمله فلم ينجز كتابة روايته ، ثم لم يعد الى هذا العمل من أعمال شبابه بعد ذلك أبدا . وحين أعدها لطبعة أعماله سنة ١٨٦٠ ، حذف العناوين الفرعية ، وحذف فصلا من الجزء الثانى هو فصل تلتقى فيه ليتولشكا ، فى بيت الأمير ، بصبى يتيم صغير اسمه لاريا كان الأمير قد ضمه اليه من باب الرأفة والبر والاحسان . ان مصير هذا الصبى البائس

الذى مات أبواه فى أسبوع ، يشبه مصير نيتوتشكا ، ولكن فكرة غريبة كانت تحاصر ذهنه وتستبد بعقله ، وهى أن أبويه قد ماتا حزنا وكمدا لأنه لم يكن يحبهما . ولعل هذا اليتيم كان سيعود الى الظهور فى نهاية الرواية على نحو ما تصورها دوستويفسكى قبل أن يعتقل فينقطع عن اتمامها ، فلما لم يتم الرواية عمد الى حذف هذا الفصل أصلا فى طبعة عام ١٨٦٠ .

تتألف رواية « نيتوتشكا نرفانوفا » ، فى صورتها الحالية ، من ثلاث فصول فى الواقع ، لا تكاد تجمع بينها أو لا تجمع بينها فعلا الا شخصية البنت التى تروى ذكرياتها فيها . فاما القصة الأولى فهى قصة الموسيقى ، يافيموف ، وأما الثانية فهى قصة حياة الفتاة فى منزل الأمير وصداقتها مع ابنته كاتيا ، وأما الثالثة فهى قصة السر فى حياة الكسندرين ميخائيلوفنا ، وهذه القصة الثالثة لم تكتمل .

يقول الكسندر سولوفيف : « ان قصة يافيموف ، العازف على الكمان ، تذكر بشخصية كرايزلر ، البطل الذى وصفه هوفمان تجسيدا للصورة الرومانسية عن الموسيقى المجنون الذى تسحره آلة شيطانية ؛ ولا شك أن شخصية باجانينى الشهيرة قد ساهمت مساهمة كبيرة فى رواج هذه الصورة ، وأغلب الظن ، عدا ذلك ، أن دوستويفسكى قد قرأ قصة بالزاك التى عنوانها « جامبارا » وفيها يصور بالزاك موسيقيا شبه مجنون يحاول أن يخلق موسيقى جديدة ، فيطوف أوروبا كلها فى صحبة زوجته الوفية ، ويظل الناس لا يفهمونه ، ثم تشمت عليه وطأة الفقر فيهبوى الى الجنون » . فكان سولوفيف يريد أن يقول ان دوستويفسكى قد تأثر ، فى كتابة هذه الرواية ، بقصة هوفمان أو قصة بالزاك ؟ . ولكن أيكفى أن يكون يافيموف والبطلان اللذان وصفهما هوفمان وبلزاك موسيقيين أشباه مجانين حتى نزع أن دوستويفسكى قد تأثر بهذين الكاتبين ؟ الحق ان يافيموف كان يمكن أن لا يكون موسيقيا ، ثم هو يبقى يافيموف نفسه بوجهه النفسى الخاص : بعذابه وتناقضاته ، بطموحه وشراسته ، بقروره وصلفه ، بزهو وعجزه ، بادمانه على الحمرة وعزوفه عن العمل تكبرا وكسلا ، وبالقائه تبعة أخفاقه على غيره ، بحبه تعذيب الآخرين وتعذيب نفسه فى آن واحد ، مع وجود بعض بنور الخير فى قرارة ذاته . . . انه ، سواء كان موسيقيا أم غير موسيقى ، هو الانسان الذى تمرقه المسافة الكبيرة بين ما يطمح اليه وما يقدر عليه ،

الانسان الذى يضمنه الشعور بالمقدرة والعجز مجتمعين ، ويعانى من عقدة النقص وعقدة التفوق فى آن واحد ، ثم لا يعرف كيف يحل التناقض أخيرا الا بالهروب . . . بالهروب الى الادمان على الحمرة يفرق فيها أحزانه ، والى القسوة يبرهن بها على قيمته ، ثم الى اليأس فالموت خاتمة للمطاف ونهاية للعذاب . . . الأحداث فى قصة يافيموف بسيطة ، ولكن الأغوار النفسية التى يهبط اليها دوستويفسكى فيها عميقة غاية العمق . البطل موسيقى يعزف على الكلارنيت فى أوركسترا خاصة يملكها سرى من سراة القوم ، ويلتقى يافيموف بإيطالى عجيب يورثه قبل موته كمانا شيطانية . وبطرفة ليس لها تعليل ظاهر ، يصبح العازف على الكلارنيت عازفا على الكمان من الطراز الأول ، ولكنه يصبح فى الوقت نفسه متكبرا سىء الطبع خبيث النفس وقحا سليلط اللسان ، وما يلبث أن يهجر مولاه الذى أحسن اليه وأنعم عليه قائلا له اننى لم أعد أطيق الحياة عندك ، فان الشيطان قد سحرني ، ولسوف أحرق بيتك اذا أنا مكثت فيه . . . وتستبد بالرجل قوة الزهو بنفسه والغيرة من غيره . . . وها هو ذا يبدد كل المال الذى نفحه اياه مولاه الطيب ، وها هو ذا يفقد جميع الوظائف التى يعين لها بعد ذلك ، وها هو ذا ينقطع عن العمل آخر الأمر انقطاعا تاما ، ويدمن على الشراب ادمانا يقضى على البقية الباقية من عافية روحه وجسمه . وتظل أحلام المجد تسكن رأسه رغم ذلك ، بل هى تزداد من ذلك قوة وعنف . ويتزوج يافيموف أرملة شابة تحمل اليه بائة صغيرة ، فما يلبث أن يتلف المال . وتصبح الزوجة الشابة كبش الفداء للموسيقى التبعيس ، فهو لا ينفك يلقي عليها تبعة ما يلقاه من اخفاق ، فلسولاها لازدهرت عبقريته ، وذاع صيته ، وعرف نبوغه . والزوجة امرأة « حاملة كثيرة الحماسة » جمة النشاط مهدمة الروح من قسوة القدر ، وهى الى ذلك مصابة بالسل الذى سوف يقضى عليها .

نحن هنا أمام حالة من الحالات التى يمكن أن يتخلها عالم النفس أدلر مثالا على عقدة النقص كيف تفعل بصاحبها . هاهنا يسبق حدس دوستويفسكى دراسات أدلر سبعين عاما أو يزيد . ولكن دوستويفسكى لا يسبق أدلر فحسب ، بل يسبق فرويد أيضا . . . ولا عجب أن عده فرويد نفسه رائد التحليل النفسى قبله . وهو انما يسبق فرويد حين يصف لنا البنية نيتوتشكا ، راوية هذه الذكريات . . . والحق أن

دوستويفسكى لا يسبق فرويد وآدلى كليهما فى هذه الرواية ، بل هو يصلح بينهما أيضا . ان من شأن النظرة العلمية أن تنظر الى الواقع من خارج ، تترى جانبا منه تضع له القوانين ، ولا كذلك الحدس الفنى والأدبى ، فانه يعايش الواقع من داخل ، ويراه لذلك دفعة واحدة بكل الحياة التى تنبض فيه ، الحياة الدافقة التى لا يمكن حصرها فى إطار قانون عام شامل يصدق على جميع الأفراد . ان الحدس الأدبى يرى الواقع كله جملة واحدة ، متداخلا متناغما متشابكا ، متعدد الجوانب على انسجام ، متكرر الوجوه على وحدة هى وحدة الحياة النفسية التى تترقق فيه .

قلنا ان دوستويفسكى يسبق فرويد حين يصف لنا هذه البنية نيتوتشكا ، رواية ذكرياتها . ان نيتوتشكا تحب أباه (زوج أمها) وتكره أمها . « شعرت نحوه بحب لا حدود له ، حب ليس فيه شئ من طفولة » . هذه عقدة أوديب . تكاد وأنت تقرأ قصة نيتوتشكا ان تتساءل : ماذا بقى لفرويد أن يقوله ؟ ولكن عقدة أوديب ليست تنفصل فى رواية دوستويفسكى عن مجرى التاريخ الفنى الحافل الذى تعيشه الصبية . هى تحب أباه وتبغض أمها ، كما قد يقول لنا فرويد . ولكنها تحل عقدة النقص فى الوقت نفسه ، يجرحها التناقض بين فقر المسكن الذى تقيم فيه مع أبويها وبين المنزل الفنى ذى الستائر الحر الذى يقابل هذا المنزل ، وتصدق أباه حين يزعم لها أن أمها هى السبب فيما هم فيه من ضعة الشأن وسوء الحال وادقاع الفقر وخمول الذكر . فيزداد كرهها لأمها ، حتى لتسرق مال أمها التى تدخره الأم لإقامة الأود وسد الرمق ، وتعطيه أباه يشتري به تذكرة حضور حفلة موسيقية يحييها موسيقى مشهور من العازفين على الكمان . وكان حضور هذه الحفلة هو الضربة القاضية على يافيموف ، فقد اكتشف يومئذ ما هى الموهبة الحقة ، عاد من الحفلة مهدم النفس ، فوجد امرأته ميتة . وتناول كمانه وأخذ يعزف ، ولكن الموسيقى التى تخرج من الكمان لا تزيد على أن تكون آهات ونحيبا وعذابا وقلقا وحسرات . ويوافيه الجنون ، فيترك البيت مع البنية الصغيرة يطوف فى الشوارع المفطاة بالثلج ، ويظل يطوف الى أن تنهار قواه ، ثم يموت فى أحد المستشفيات . لقد قتله أن اكتشف الموهبة الصادقة ، وأن اكتشف أن أحلامه باطل كقبض

الريح • كذلك يسبق الحدس الأدبي عند دوستوفسكي نظرية فرويد ونظرية آدلر ، بل ويصالح بين النظريتين في ادراك للحياة من الداخل •

ويصالح دوستوفسكي بين فرويد وآدلر في الجزء الثنائي من الرواية حين ينقل نيتوتشكا الى بيت أمير يضمها اليه رحمة وشفقة • فهناك تتعرف الصبية بابنة الأمير •• وتنشأ بين الفتاتين عاطفة هي حب الفرد فردا من جنسه ، هي الحب المثلّي الذي يحدثنا عنه فرويد : قبلات وعناق ونجوى ومسارات •• وتنشأ بينهما في الوقت نفسه صلات تصلح تجسيدا لنظرية آدلر في « عقدة النقص » أو « مركب الدونية » •

وتشعر الأميرة زوجة الأمير بما قد يكون للصبية اليتيمة العجيبة من تأثير سييء على ابنتها ، فسرعان ماتفترق الحبيبتان : ترسل كاتيا بنت الأمير الى موسكو ، ويعهد بنيتوتشكا الى سيدة تمت الى الأمير بقرى هي الكسندرين ميخائيلوفنا • وهكذا ينتهي الجزء الثاني من الرواية على حين بفتة •

ويبدأ الجزء الثالث • انه « قصة جديدة » • ان السيدة التي تحسن الى الصبية اليتيمة فتضمها اليها ، تحب هذه الصبية حبا صادقا ، لتبادله الصبية الحب • ولكن نيتوتشكا تشعر بوجود شيء ما وراء ذلك الهدوء الظاهر الذي يبدو على سيدة البيت • فانها تلاحظ أن السيدة تقترب من القلق والاضطراب والخوف كلما بدت أسعد حالا واحداً بالآ • ثم تكتشف نيتوتشكا السر : تعثر في كتاب لوالتر سكوت على رسالة قديمة أرسلها الى الكسندرين ميخائيلوفنا شاب يعترف لها بحبه ، ويشكر لها « عاطفتها الأخوية » ، ويتركها الى الأبد لأن الناس من حولهم أخذوا يروجون الأقاويل • وتفهم نيتوتشكا السر في حزن « الخاطئة البريئة » • وكان بطرس الكسندروفتش ، زوج السيدة ، يتظاهر بأنه غفر لامراته ، ولكنه كان يضطهدا ويسومها سوء العذاب بتذكيرها بخطيئتها • وكان هذا الرجل الذي أحدث في نفس نيتوتشكا منذ أول الأمر أثرا مؤلما يحاول أن يخفي نظراته عامدا بنظارتين زرقاوين • وتكتشف الفتاة في الرجل الوقور الرصين أنسانا طاغية يعذب « القلب الضعيف » ، امراته • فكانت تسائل نفسها : ماهذا العذاب الذي لا مخرج منه ؟ ماهذا الخوف الذي لا نهاية له ؟ ماهذه التضحية تبذل في مذلة

بلا تدمر ولا تملل ؟ ٠٠ وكانت الفتاة تحس أن هذه التضحية هدر ٠٠
أمجرم يغفر خطايا يرى ؟ ٠٠ وكان ذلك يمزق نفسها تمزيقا ٠ وتنتهى
القصة بمشهد ميلودرامى : يفاجئ بطرس الكسندروف فتش الفتاة وهى
بسبيل قراءة تلك الرسالة ، فيشتبه فى أن تكون قد تلقت رسالة من
عشيق ٠ ان نيتوتشكا مستعدة لأن تتحمل هذه التهمة ، كما فعلت ذلك
من قبل فى سبيل كاتيا ٠ ولكن هاهى ذى الكسندرين تعترف أثناء
مناقشة حامية بينها وبين زوجها بأنها هى أيضا « خاطئة » ، وبأنها
مستعدة لأن تترك المنزل مع نيتوتشكا ٠ وتكشف نيتوتشكا عن الحقيقة
للزوج الغيور ، فتطلعه على سر الرسالة ، وتأخذ تقرر فيه صلفه وكبرياه
وانانيته وقسوته ونفاقه ، وتصفه بأنه انسان يحسب نفسه مبرا من كل
خطيئة ، فهو لا ينفك يعذب الآخرين ٠ وبهذا الانفجار الذى تنفجره
نيتوتشكا تنتهى الرواية مبتورة ٠

الليالى البيضاء

١٨٤٨

ان هذه القصة التى كتبت سنة ١٨٤٧ ونشرت فى كانون الأول
ديسمبر ١٨٤٨ تكاد تروى فصلا من حياة كاتبها ٠ ان البطل الذى لا اسم
له فى هذه القصة ، والذى يروى أحلامه وانفعالاته وحبه الرقيق الحنون ،
يصف جانباً من طبع الكاتب الشاب دوستوفسكى ، ويقص حياته
الانعزالية ومشاعره العنيفة وأحلامه الرومانسية ٠ بماذا يحلم هذا
الكاتب الشاب ؟ ٠ انه يحلم بكل شيء ٠ يحلم بدور الشاعر المغفور
أول الأمر ، المتوج بأكاليل المجد بعد ذلك ، يحلم بصداقة مع هوفمان(*) ،
بليلة سان بارتلمى ، بديان فرنون ، بالسلوك البطولى الذى أظهره ايفان
سيليفيتش عند الاستيلاء على قازان ، بكلازا موفبراى ، بافى ديلز ،
بأخبار المجمع البابوى وأمامهم هوس ، بيقظة الموتى فى « روبير
الشیطان » (ألا تتذكرين هذه الموسيقى التى تفوح فيها رائحة المقابر ؟)
بمينا وبرندا ، بمعركة بريزينا ، بقراءة قصيدة عبد الكولتيسة ف ٠ د ،

بدانتون ، بكليوباترا وغرامها ، بيت صغير في كولومنا ، بركن صغير له
تجلس الى جانبه فيه مخلوقة حببية تصغى الى كلامه في أماسى الشتاء . »
... هذه هي التأملات الخلاقة التي كان يسترسل فيها الكاتب الشاب
محوما حول الموضوعات التي يمكن أن تتناولها أعماله وقد تشبعت
برومانسية تاريخية ونفسية . ان الكاتب يدرك أحيانا أن هذه الحياة
الانعزالية التأملية يجب أن تدان لأنها تفصله عن الحياة الواقعية وهو
مع ذلك مفتون بهذه الأحلام لأنها ينبوع وحيه والهامة . ان حياة هذا
الحالم بطل القصة الذي يعيش في بطرسبرج منذ ثماني سنين (كالكاتب
نفسه) والذي لم يعقد فيها أثناء هذه السنين الثماني علاقة بأحد من
الناس هي مزيج من خيال جامع ومثالية مسعورة وتفاهة مبتذلة عادية .
انه في عزله في هذه العاصمة المتوحشة التي لا تكلمه يسترسل في
دراسة وجوه المارة ليتخيل طباعهم حتى أن البيوت نفسها معارف له
وأصدقاء ، وان له بينها ما هو أثير عليه حميم عنده . ان « الهة الخيال »
تسج أمامه موكبها العجيب ولكنه في حاجة الى الخروج من هذه الحياة
الخيالية ، انه في حاجة الى أن يجد صديقا حيا (او صديقة) ليستطيع
أن يفضى بها في قلبه الفياض حبا وحنانا . وها هو ذا في ليلة من ليالى
شهر أيار (مايو) البيضاء بينما كان الضياء الشمالى يضيء على المدينة
النائمة طابعا سحرى ، ها هو ذا يلتقى بفتاة بائسة فيحميها من عابر
مزعج . انه يشعر نحوها بشفقة عميقة لأنه يرى أنها حزينة وأن ذكرى
من الذكريات كانت تبكيها فيقدم لها صداقته . يلتقى الشاب والفتاة
أربع ليال متتاليات في المكان نفسه فيقص كل منهما على صاحبه حياته
القصيرة صادقا مخلصا لا يخفى منها شيئا . ان ناستنكا تنتظر الرجل
الذي تحبه ، الرجل الذي ضرب لها موعدا في هذا المكان نفسه ولكنه
لا يجيء فإذا هي تفرق في كمد عميق . ويعرض عليها البطل صداقته
ويحاول أن يساعدها رغم أن هذه الصداقة سرعان ما استحالت حبا .

هكذا نرى أن دوستوفسكى يعود الى موضوع قصته الأولى
« الفقراء » . ولكن النخمة مختلفة هنا اختلافا كبيرا فالكاتب لا يقتفى
هنا اثر المدرسة الطبيعية على طريقة جوجول ولستنا نجد ها هنا أى شيء
يتصل بالمجتمع ، فلا مكاتب ولا دواوين ولا موظفين ولا « أصحاب معالي » .
ولا يشير البطل الا اشارة عابرة الى عمل يتقاضى عليه أجرا مقداره مئة

روبل فى الشهر والى مكافأة سينالها قريبا . فى هذه القصة يحل محل
ماكار (بطل قصة «الفقراء») الفقير المسن الأخرق المضحك القليل الثقافة،
يحل محله شاب حالم يفيض حماسة وثقافة أدبية . كما أن فارنكا
دوبروزيولوف الممرض الحزينة قد استحوطت هنا الى فتاة فى السابعة
عشرة من عمرها طائفة الحيوية بارعة المكر على براءة . ثم ان الحب
العاطفى الذى شعرت به فارنكا نحو الطالب بركروفسكى قد انتهى بمأساة
هى موت الشاب . ثم هى بعد ان أذلها وهجرها السيد بيكوف قد ارتضت
أن تتزوجه دون أن تشعر نحوه بأى حب حين عاد اليها ليصلح خطاه .
ولا كذلك فى قصة الليالى البيضاء فان الحب الذى يشبه أن يكون طفوليا
ولكنه عميق أعنى حب ناستنكا للشباب الذى استأجر غرفة فى بيت
جدها ، قد انتهى نهاية سعيدة ، وناستنكا قد تركها حبيبها أيضا فترة
من الوقت ولكنه يعود اليها بعد ذلك فى الليلة الرابعة وتكون خاتمة القصة
زواجا سعيدا . وأخيرا فان ماكار المسكين يبقى حزينا منعزلا مهجورا قد
هوى الى قاع اليأس ، اما فتى « الليالى البيضاء » فانه بعد أن رأى خطه
زواجه تنهار يبارك قدره فى وثبة من انكار الذات فاذا هو يخاطب
لناستنكا قائلا : « بوركت يامن وهبت لحظة من هناة وسعادة لقلبي الممتن
الذى يعيش فى وحشة العزلة لحظة بكاملها من سعادة ربابه ! هل تحتاج
حياة انسان الى أكثر من هذا ؟ » . ان الحب شبه الأخوى الذى شعر به
الحالم قد رفعه الى ذرى عالية من عاطفة الايثار وسوف نرى هذه الشخصية
المثالية ذات القلب الحار الحساس الخجول تظهر مرة أخرى عند
دوستوفيسكى وذلك فى روايته «مذنون مهانون» . آليس ايفان بيتروفيتش
فى هذه الرواية شبيها ببطل الليالى البيضاء ؟ . ان هذه الشخصية
هى من أحب الشخصيات التى خلفها دوستوفيسكى وهى عند دوستوفيسكى
نفسه أقربها الى قلبه وأقربها فى نفسه ولعل من الشائق أن نذكر فى
هذه المناسبة أن دوستوفيسكى قد تصور فى عام ١٨٧٦ أن يكتب رواية
برمتها يجعل عنوانها : « الحالم » .

بروخارتشين

١٨٤٦

القصة الثالثة فى هذا المجلد « بروخارتشين » ، قد كتبها دوستويفسكى فى صيف عام ١٨٤٦ ، وفى مقال له ظهر سنة ١٨٦١ ، يروى لنا دوستويفسكى كيف نبتت فى خياله شخصية هذا « الفقير الغنى » بروخارتشين . قال انه كان قد قرأ فى احدى جرائد العاصمة خبرا صادقا عن بخيل غريب ، « يشبه هارباجون الذى وصفه مولير فى مسرحية البخيل ، مات فقيرا فوق آكوام من الذهب . انه موظف صغير محال على التقاعد اسمه س . كان لا يدفع الا ثلاثة روبلات اجرا لمبئته على سرير وراء حاجز فى بيت يسكنه عدد من المستأجرين ، وكان لا ينفك يشكو الفقر ، حتى أنه لم يدفع اجر المبيت ، فى السنة الأخيرة التى سبقت وفاته . فلما مات اكتشفوا بين أشياءه مائة وتسعة وستين ألف روبل ، نقودا فضية وأوراقا مالية . » لقد أثرت قراءة هذا النبأ فى نفس دوستويفسكى . وتابع دوستويفسكى يقول فى مقاله : « عندئذ انما تراهى لى بين جمهرة المارة فى الطريق رجل ليس له وجود فى الواقع ولكنه من ابتكار الخيال ، يرتدى معطفا لا شك أنه كان يتخذ غطاء لنفسه فى الليل ، وأدركت أنه هو نفس ذلك الهارباجون الذى مات راقدا فوق نصف مليون . وهماهى ذى شخصية قصصية تنبجس فى خيالى ، شخصية تشبه شخصية « الفارس البخيل » الذى وصفها بوشكين ، وسرعان ما رايت ان امامى شخصا فذا : يهجر العالم ويهجر جميع ما فى العالم من مغريات ، ويمضى يعيش منزويا وراء الحاجز فى البيت الوضيع . ماله وللترف الباطل والرخاء السخيف والدعة الكاذبة والهناء المزعوم ؟ لا . ليس به الى ذلك حاجة قط . انه يملك تحت مخدته كل مايريد ، يملكه تحت كيس وسادته الذى لم يغيره منذ سنة بكاملها . ليس عليه الا أن يصفر ، حتى يأتبه كل ماهو فى حاجة اليه زاحفا اليه زحفا ! لو

شأنه لا يتسم له واحتفل به الوف الناس .. ولكننى احسست وأنا أحلم
بهذه القصة أننى أسرق بوشكين ... »

ويجب أن نذكر أن هناك شخصية بخيل آخر قد رستمها يراع
جوجل فى كتابه « النفوس الميتة » ، وهى شخصية بليوشكين . وهل
يجعل أحد أن هذين الكاتبين قد كانا نقطة انطلاق دوستويفسكى !

وحين نشرت هذه القصة ، قسا الناقد بيلنسكى فى الحكم عليها ،
فكتب يقول : « هذه قصة ثالثة للسيد دوستويفسكى تثير الاستهجان
حتى لدى المعجبين بموهبته . ان فيها بضع ومضات من موهبة ، ولكن
هذه الومضات القليلة محاطة بظلمات تبلغ من الكثافة أن ضياءها لا يتيح
للقارئ أن يميز شيئاً . ليس فى هذا الأثر شيء من الهام ، ليست هذه
القصة ثمرة عمل حر يقوم به فنان منطلق على سجيته . ان فيها تصنعاً ..
ان فيها ادعاء .. انها غير مفهومة . ولا شيء فى الفن يجب أن يكون مظلماً
أو غير مفهوم . » والحق أن هذا الحكم قاس جداً . لقد كان بيلنسكى
ناقدًا واقعيًا اجتماعيًا يسرف فى التبسيط ، ولم يكن قادراً على أن يقدر
عمق الأغوار النفسية التى يهبط اليها دوستويفسكى .

صحيح أن هذه القصة ليس فيها مافى « الفقراء » من غنى يشد
القارئ ويجذبه اليها ، ولكن عالمها هو عالم « الفقراء » نفسه : الغرف الصغيرة
المفروشة ، المؤجرات الجاهلات البسيطات ، سكان هذه الغرف على اختلاف
أنواعهم ، السكارى الأشقياء .. الخ .. والقصة أكثر جفافاً من قصة
« الفقراء » ، فالمؤلف لا يكاد يصف فيها الا شخصية واحدة ، غير جذابة .
وهى - أى القصة - خالية من عمق العاطفة التى تحفل بها قصة الفقراء .
ولكنها تشتمل على صفحات كاوية حقاً ، ولا سيما الصفحات التى تصور
هذين البخيل فموتهم ، ذلك عدا الأحلام الرهيبة المشثومة التى يصفها
دوستويفسكى وصفاً أخاذاً ، والتى لعله عانى هو نفسه مثلها !

المجاردة

١٨٤٧

بدأ دوستويفسكى كتابة هذه القصة « المجاردة » فى خريف عام ١٨٤٦ . وقد أرسل الى اخيه يقول له أيامئذ : « لسوف تكون هذه القصة الجديدة خيرا من رواية « الفقراء » . هى من ذلك النوع نفسه . والما يقود قلمى فى كتابتها الهام ينبع من النفس رأسا . فلست أعانى فى كتابتها من العناء ما عانيت فى كتابة قصة « بروخارتشين » التى ارهقتنى طوال الصيف » .

فلما نشرت القصة ، كان بيلنسكى قد أصبح لا يطيق أى أدب يخرج على نطاق الواقعية ذات الاتجاه الاجتماعى ، لذلك لم يستطع أن يفهم شيئا من جمال هذه القصة الرومانسية التى تختلف فى حقيقة الأمر اختلافا كبيرا عن رواية « الفقراء » . فاذا هو يصفها فى دراسة تستعرض الأدب الروسى سنة ١٨٤٧ قائلا عنها انها لا تشتمل على كلمة واحدة أو عبارة واحدة يمكن أن تعد بسيطة حية ، فكل شيء فيها متكلف مبرقش مصطنع زائف .

والحق أن القصة على جانب عظيم من الجمال . وهى أول قصة يصور فيها دوستويفسكى شخصية « حالم » . أوردينوف فتى مثقف ، منفصل عن المجتمع ، منحبس فى عالم فكره الخيالى وأحلامه الكثيرة ، عاكف على كتابة تاريخ للكنيسة . ان هذه السمة الأخيرة فيه تربطه بالشباب التقى الرومانسى شندلوفسكى الذى كان لدوستويفسكى صديق صباه . وهو الى ذلك فتى شديد الحماسة تنتابه فى بعض الأحيان نوبات صرعة . هذه أول مرة يصف فيها دوستويفسكى مرضه هو ، والاحساسات الحادة التى كان يشعر بها . ان أوردينوف انسان منعزل ، تفيض نفسه أهواء مكبوتة لا تنتظر الا أن تنبجس من قلبه طافحة عارمة . فها هو ذا يتوله حبا بجارته الجميلة التى استأجر فى بيتها غرفة ، والتى لا يعرف أى ابنة الشيخ الذى تعيش معه أم هى زوجته ، وهو شيخ يشبه أن يكون لغزا ، وتوافيه نوبات صرعة هو أيضا . والقصة كلها تجرى فى جو هو الى الحلم أقرب منه الى اليقظة . فى جو لا يكاد يستطيع البطل أن يميز فيه بين أحلامه وبين العالم الواقعى .

لا شك ان دوستويفسكى قد تأثر فى كتابة هذه القصة بجوجل .
ان الجارة تشبه كاترين بطله « الانتقام الرهيب » (حتى لقد استعار
اسمها) التى سحرها أبوها الساحر نفسه . ولكن دوستويفسكى قد
نقل شخوص الجو الاكرانى الذين وصفهم فيه جوجل ، الى روسيا
الكبرى ، فى غابات القولجا التى يرتادها قطاع الطرق . وهو يتأثر
ايضا بأسلوب سرد القصص الشعبية ، هذا الأسلوب الاخاذ الذى عرف
كيف يقلده تقليدا بارعا موفقا .

دعك اذن من النقد المرن الذى وجهه بيلنسكى الى هذه القصة ،
وانظر اليها بقلب متفتح للجمال تجد فيها روعة أخاذه . ثم ان لهذه
القصة مكانا هاما بين جملة أعمال الشباب التى انتجها دوستويفسكى .
ان كاترين « قلب ضعيف » مثل اوردينوف تماما . وها هى ذى نفسها
تقول : « هب الحزينة لانسان ضعيف ، يرفضها هو نفسه ويردها اليك »
ان هذه الفكرة سيعود اليها دوستويفسكى بعد سنين طويلة فى
« الاخوة كارامازوف » فيعرضها بمزيد من القوة والعمق .

ان كاترين مأسورة مسحورة أفسدها مورين ، قاتل أبويها .
وهى تهتف قائلة عنه : هو شيطاني الحبيث ، بعته روحى . فأنا له . .
أنا ملك يمينه . ويدرك اوردينوف أن مورين على حق حين يصفها
بأنها « قلب ضعيف » . ان هذا القلب الضعيف خاضع لمشية مورين
الشيطانية . ان كاترين لا تستطيع أن تتمتع بالحرية التى يتظاهرها
مورين بأنه يمنحها اياها ، فهى فى الفصل النهائى تعود الى الذى
أغواها ، رغم أنها تحب الفتى حبا قويا . هذه المرأة التى لها نفس حارة
ملتهبه ، هذه المرأة التى تريد أن تهب الحب الصادق الحر لانسان
جدير بها ، ثم هى لا تستطيع أن تتحرر من سلاسل خطيئتها ، ليست
صورة لبطله رواية « الأهل » ، ناستازيا ، وبطله « الاخوة كارامازوف »
جروشنكا ؟ وأخيرا ، فلسوف نجد هذا الهوى المحموم المسعور الذى
يستبد بمورين ، هذا الهوى الذى يعبر عن الظما الى التسلط ، سوف
نجدته فى الروايات التى سيكتبها دوستويفسكى فى المستقبل . ان
دوستويفسكى يعالج منذ الآن ، مشكلة الحرية والارادة ، فى هذه القصة
التي لم يفهمها معاصروه .

المهرج

١٨٤٨

لم ينشر دوستويفسكى قصة « المهرج » فى طبعة أعماله سنة ١٨٦٠ ، بعد أن نشرها عام ١٨٤٨ ، لقد عدّها تافهة . ثم لم يعد نشرها إلا بعد وفاة دوستويفسكى ملحقه بالمجلد الأول الحاقا . على أن هذه القصة لا تخلو فى الواقع من طرافة ، كما أنها تشبه من بعض النواحي بعض قصص دوستويفسكى فى أيام شبابه ، أن المهرج بولزونكوف الذى يريد أن يسر الناس جميعا وأن يبهجهم هو المعادل المضحك لفاسيا شومكوف . فكلا الشابين ذو « قلب حار » ، وكلاهما طيب النيات ، يعنى أن يحب وأن يحب . ولكن الثانى يصبح كاريكاتورا للأول ، كما يحدث ذلك كثيرا لدى دوستويفسكى . أن بولزونكوف يقص علينا هو أيضا حكاية غرامية عن خطبة الفتاة ماريا المسكينة التى تشبه خطيبة فاسيا . ولكن هذه الحكاية الغرامية محاطة بإطار هزلى ، بمشهد منفرد يحاول فيه بولزونكوف أن يحمل حماء على أن يغنى ، وفى آخر الأمر يظهر بولزونكوف مخدوعا قد غرر به حموه هذا . أن هذا التناوب بين النيات الطيبة والرغبات الحسية لهو من السمات البارزة التى تميز بعض أبطال دوستويفسكى .

السارق الشريف

١٨٤٨

فى شهر نيسان أبريل ١٨٤٨ ، نشر دوستويفسكى « من أقاصيص شميخ عابر سبيل » ، وكان ما نشره يضم قصتين ، احدهما هى : « الجندى المتقاعد » والثانية هى : « السارق الشريف » ، والقصتان كلتاهما يرويهما جندى متقاعد برتبة صف ضابط اسمه آستافى كان قد سكن عند دوستويفسكى بعض الوقت خادما .

فلما أعد دوستويفسكى إعادة طبع أعماله سنة ١٨٦٠ ، عدل هذا العمل من أعماله ، فأسقط القصة الأولى بأسرها ، وهى عن حرب عام ١٨١٢ ، وجعل عنوان الثانية للعمل كله .

ان دوستويفسكى يعرف كيف يتحدث باللسان البدائى البسيط الذى يتكلم به رجل من الشعب . والفكرة الأساسية فى هذه القصة هى ما يتصف به انسان بسيط من طيبة متواضعة صادقة . . ان صف الضابط ، الفقير هو نفسه ، يؤوى فى غرفته سكيراً مدمناً ، هو ايميليان ، ويساعده ، ويعطف عليه ويشعر نحوه بحزن شديد حين يلاحظ أن هذا السكير الذى آواه وأطعمه من جوع وآمنه من خوف قد سرقه . ولكنه لما يتصف به من رفاة فى الطبع وذوق فى المعاملة لم يوجه اليه كلمة لوم واحدة .

ان السكير ايميليان الذى سبق أن التقينا به فى رواية « الفقراء » والذى كان يعرفه دوستويفسكى فعلاً ، هو انسان حساس مرهف الشعور . لقد ارتكب جريمة السرقة ضعفاً ، ولكن ضميره يعذبه أشد التعذيب ، وهو يحاول أن يسر الرجل الذى أحسن اليه وأنعم عليه وأن يبهجه ، ويتمنى لو يعمل ، ثم اذا هو من فرط عذاب الضمير تنهار صحته ، واذا هو يعترف بجريئته حين كان يلفظ أنفاسه الأخيرة ، فيخفف ذلك عنه وبواسيه ، ويشعر أن صاحبه قد غفر له وصفح عنه .

ان هذين الانسانين اللذين يمتازان بالشهامة والمروءة ، ويفيضان عاطفة وطيبة أقرب الى الواقع من أصحاب « القلوب الضعيفة » ومن « الحالمين » الذين وصلهم فى قصصه السابقة . ان ضابط الصف ، القادر على أن يحب وعلى أن يعفو ، هو « الانسان العادل » بين أبناء الشعب الروسى فى نظر دوستويفسكى ، وسنقع عليه فى رواية « المراهق » بسمات شخصية دولجوروكى .

البطل الصغير

١٨٤٩

اثناء الأشهر الثمانية التى قضاها دوستويفسكى فى سجن منفرد بقلعة بتروبافلوسكايا ، لم ينقطع عن التفكير فى تأليف قصص جديدة . وها هو ذا يكتب الى أخيه ميشيل ، فى ١٨ تموز (يوليو) ١٨٤٩ قائلاً : « اننى لا أضيع وقتى : فلقد تخيلت ثلاث قصص وروايتين ، وأنا عاكف الآن على كتابة احداها . ولكننى أخشى الاسراف فى العمل . ذلك أن

العمل ، لا سيما اذا قمت به فى حماسة ونشاط (وأنا لم أعمل يوما
كما أعمل الآن) يهدم صحتى دائما بتأثيره فى أعصابى » . والحق أن
دوستوففسكى لم ينجز أثناء تلك المدة الا قصة « البطل الصغير » ،
أما الأعمال الأخرى التى تخيلها ووعد بها ، ولعله لم يزد على أن شرع
فيها ، فلا نعرف عن مصيرها شيئا .

وبعد ذلك بزمان طويل قال دوستوففسكى للأستاذ فسيغواود
سولوفييف ، المختص باللغات الرومانية : « حين وجدتنى فى السجن
قدبرت أن هذه هى النهاية ، وأننى لن أستطيع الاحتمال أكثر من ثلاثة
أيام ، ولكننى لم ألبث أن هدأت هدوءا تاما على حين فجأة . فماذا
فعلت ؟ كتبت قصة « البطل الصغير » . اقرأ هذه القصة ! هل تجد
فيها شيئا من غضب أو حلق أو ألم ؟ وكنت وأنا فى سجنى أحلم
أحلاما هادئة طيبة حلوة عذبة ، وكلما طال بقائى فى السجن ، ازداد
حالى تحسنا . » . ان هذا التناقض بين الزنازة الرطبة مع الانتظار
الطويل لصدور الحكم وبين الأحلام الهادئة والذكريات المضيفة المشرقة
لهو ظاهرة نفسية نادرة . وقد علل دوستوففسكى هذه الظاهرة فى تلك
الرسالة نفسها قائلا : « ان فى طبيعة الانسان حيوية مدهشة ! حقا
ما كان لى أن أصدق أن الانسان يملك مثل هذه الحيوية ولكننى أعرف
الآن ذلك بالتجربة . » ان هذه الحالة النفسية التى ولدت هذه القصة
الأخاذة التى تذكر بمثاليته الهادئة فى قصة « الليالى البيضاء » ، ولكنها
لنقلنا من الجو الحيالى ، جو الضياء المظلم الذى تعرفه العاصفة فى
ليالىها البيضاء ، تنقلنا من هذا الجو الى جو البرية الغارقة فى الشمس ،
الى جو الطبيعة التى أحبها دوستوففسكى حبا كثيرا ، ولكنه لم يصفها
الا نادرا . ان دوستوففسكى يصور فى هذه الرواية حياة لاهية
مرحة فى أطياف غنية قرب موسكو ، « حياة تشبه أن تكون
عيدا لن ينتهى فى يوم من الأيام » ، حياة تتعاقب فيها
المباهج : فمن رحلات على صوات الجياد ، الى نزهات فى الغابات ، الى
رقص ، الى موسيقى ، الى غناء ، الى تمثيل . . . وفى هذه القصة نقع على
موضوع من الموضوعات المألوفة التى يعالجها دوستوففسكى : بقطة العواطف
فى نفس طفل لما يتجاوز الحادية عشرة من عمره ، بقطة الحب بالفريزة على غير
شعور فى قلب ملتهب . ان هذا الموضوع يربط بين « البطل الصغير » وبين

« نيتوتشكا نرفانوفا » ، ولكن البطل الصغير أملا بالحياة وافيض بالحركة وأحفل بالنشاط وبروح المغامرة من نيتوتشكا الحجول التي عانت مذه الحياة منذ نعومة أظفارها . وإلى جانب البطل الصغير نرى شخصيتي امرأتين تقابلان كاتيا (بنت الأمير في قصه « نيتوتشكا نرفانوفا » والكسندرين ميخائيلوفنا (في تلك القصة نفسها) . هاتان المرأتان هما : الشقراء الجميلة والسيدة م . ٠٠٠ أما الأولى فهي نشيطة خفيفة كالنار ، تضطهد الصبي وتسومه سوء العذاب ، وتدعى أنها مولها بحبه ، وما تنفك تلاحقه بشيطناتها . حتى اذا برهن على شجاعة تشبه أن تكون نهورا ، وذلك حين زكب مهرامها جامحا لا سبيل الى ترويضه ، أدركت ما في عاطفته من جد ، وأصبحت صديقه الرقيقة الوفية . وأما الثانية فهي التي من أجلها انما قام الصبي بمغامرته المتهورة . فالصبي انما يحب السيدة م . ٠٠٠ وقد راح يضع نفسه في خدمتها فارسا مفتون اللب بسيدته على نحو ما تروى حكايات القرون الوسطى ، مستعدا لأن يخاطر بحياته في سبيل معبودته التي لا سبيل اليها . ان الصبي يحب السيدة م . ٠٠٠ وحبه انما هو مزيج من اعجاب وشفقة معا . واذا كانت الشقراء الجميلة تشبه كاتيا (في قصة « نيتوتشكا نرفانوفا ») ، كاتيا التي تحب تعذيب المحبوب ، فان السيدة م . ٠٠٠ تشبه الكسندرين ميخائيلوفنا . انها تبدو هي أيضا سعيدة مع زوجها الرصين المتكبر ، ولكنها تحمل هي أيضا حزنا خبيثا . ان نظرتها خجلة وجلة قلقة: « كان هذا الحجل الغريب يضفى على قسماتها الناعمة العذبة الرقيقة التي تشبه قسمات مادونا ايطالية تعبيرا يبلغ من الحزن أنك تشعر بالحزن يغزو نفسك متى رأيته » . والفتى مفتون بها بل مسحور . انه يريد أن يخدم هذه الانسانة الحزينة وأن يخفف عنها وأن يواسيها . وقد أصبح وصيفها . وهو يشعر نحو زوجها السيد م . ٠٠٠ بعداوة شديدة واضحة ، لأنه يدرك بحدسه أن هذا الرجل ليس طيب النفس ، وأنه غيور ، وأنه ربما كان قاسى القلب .

وبعد حادثة امتطائه صهوة المهر الجموح على ذلك النحو البطولى الذى جعل له شهرة كشهرة أبطال شيللر وفرسان دولورج وتوجنبرج ، يعثر الصبي مصادفة على رسالة يشعر أنها تضم بين ثناياها سر المرأة الشقية فى حبها الدفين العائر الحظ . فكل ذلك عثرت نيتوتشكا أيضا بالمصادفة على رسالة مرسلة الى صاحبها ، ولكن الفرق بين القصتين أن الفتاة الطلعة

قد قرأت الرسالة وأعادت قراءتها بل ونسختها ، أما البطل الصغير فإنه يحاول أن يرد الرسالة الى سيدته مختومة غير مفوضه ، لا يريد أن يكشف عن سرها ، وكان قد شهد خفية ، مشهد الوداع بين السيدة م . . . وحبيبها : « لعل هذه القبله كانت قبله الوداع ، القبله الاخيره ، المكافاة اليسيرة على تضحية ستحمل اليها الهدوء وتحفظ لها حسن السمعة . » وكان الحبيب ن . . . قد سافر . ولعله قد تركها الى الابد » . وتظلل الرسالة بين يدي الصبي ، فلولا ذلك لاكتشف سر السيدة على حين فجأة ، ولنزل عليها ذلك نزول صاعقة رهيبه . ويتخيل الصبي خطة لرد الرسالة الى صاحبتها ، فيمضى يجمع باقة من أزهار الحقول يدس فيها الرسالة ، ثم يقدم الباقة الى سيدته فرحا مبتهجا . ويتظاهر بالنوم منتظرا أن تقع السيدة على الرسالة ، ثم يحس بقبلة الشكر والعرفان تطيعها السيدة على شفتيه ، ويبقى هو ساكنا في نشوة كأنها الوجد . ويتأمل الطبيعة في روعة الصيف . انه ممتلئ سعادة . ويستسلم لهددات هذا الاكتشاف الأول لقلبه ، ويستسلم لهددات هذه اليقظة الأولى التي تتحقق في طبيعته على غير شعور منه . « لقد انتهت طفولتي » . ما أروع وصف دوستويفسكى لهذه العواطف التي تضطرم في قلب فتى ملتهب ا ان الأسطر الأخيرة من هذه القصة التي كتبها دوستويفسكى قبل سفره الى المعتقل بسبب ربا له من أصفى ماخطه قلبه من أحلام رومانسية . انها وداع للشباب قبيل الآلام التي ستكشف له عن قوة الشر في أعماق النفس الانسانية .

قصة في تسع رسائل

١٨٤٧

قبل أن ينشر دوستويفسكى روايته الأوليين « الفقراء » و « المثل » كان قد كتب سنة ١٨٤٥ ، هذه القصة : « قصة في تسع رسائل » . لقد كان دوستويفسكى في ذلك العام يعاني نوعا من هوس العظمة : كان يقدر انه يستطيع أن ينجح في الكتابة في جميع الأنواع الأدبية ، ومنها القصص الهزلية المضحكة . وقد طلب اليه نكراسوف حين فكر في اصدار مجلة ساخرة أن يكتب له قصة من هذا النوع ، فسر دوستويفسكى بهذا الطلب سرورا كبيرا ، ثم اذا هو يمضى الى بيته في المساء ، فما يكاد يطلع عليه الصبح ، حتى يكون قد فرغ من كتابة قصته « قصة في تسع رسائل » ،

وحمل القصة الى نكراسوف لقبيل نكراسوف نشرها في مجلته . وكتب دوستوفسكى الى أخيه ميخيل يقول : « لقد قرئت القصة عند تورجنيف في ذلك المساء نفسه ، فأحدثت دويًا . » وقال لي بيلنسكى انه واثق من موهبتي ، لأننى قادر على معالجة موضوعات متنوعة أكبر التنوع . » . ولكن مجلة نكراسوف لم تصدر ، ولم تنشر القصة الا بعد سنة ، وكان بيلنسكى قد غير رأيه ، حتى لقد كتب الى تورجنيف يقول : « ان هذه الرسائل التى يتبادلها مخادعان فى قصة دوستوفسكى لم تعجبني بل لقد أثارت نفورى واشمئزأى . » على دهشة منى . » اننى لم أستطع أن أتم قراءتها الا فى كثير من العناء . ذلك كان شعورى بوجه عام . » والحق أن هذه القصة هي أضلح ما خط قلم دوستوفسكى . حتى أن دوستوفسكى نفسه لم يعد نشرها حين أعد طبعة أعمال الشباب سنة ١٨٦٠ وسنة ١٨٦٥ ، ثم لم يعد نشرها الا بعد وفاته . انها قصة اثنين من المقامرين يجتمعان على ابتزاز مال شباب غنى هو أوجين . وقد اقترض الأول ، بطرس ايفانوفتش ، مبلغ ثلاثمائة وخمسين روبلا من الثانى ليدبر أمر هذا الغش ، وهو يتحاشى أن يلتقى به ، فيكتب اليه الثانى رسائل طويلة متهما اياه بسوء الذمة . وترتبك الأمور فى النهاية ، فيرسل كل من الرجلين الى صاحبه رسالة لطيفة مكتوبة بخط زوجته . ونعرف عندئذ أن أوجين لم يكن الضحية التى خدعها المخاتلان ، بل كان هو الجانى الذى أوقع الرجلين كليهما فى شركه بسطوره امرأتهما . ويمكن القول ان هذه القصة القصيرة التى كتبت على أسلوب المهزلة الفرنسية ما تزال تعكس شيئاً من تأثير جوجول : فان موضوعها قريب فى الواقع من موضوع المسرحية الهزلية الصغيرة التى كتبها جوجول بعنوان « المقامرين » ، وفيها يحاول اثنان من المقامرين بالورق أن يخدعا شاباً غنياً ، ولكن حيلتهما تكتشف فى آخر الأمر ، ويرتد كيدهما الى نحرهما .

شجرة عيد الميلاد والزواج

١٨٤٨

« شجرة عيد الميلاد والزواج » قصة صغيرة عميقة من الناحية النفسية . تتبدى هذه القصة بوصف احتفال بعيد الميلاد يبتهج فيه

الأطفال ويفرحون . لقد كان دوستويفسكى يحب الأطفال كثيرا ويعنى بمعرفة نفوسهم . كتب ذات مرة يقول : « اننى أحب ملاحظة الأطفال كثيرا . انه ليشوقنى كثيرا أن أفاجئ فيهم أولى تجليات الحياة » . وهو فى هذه القصة يصف بكثير من المحبة والتعاطف بنية فى الحادية عشرة من عمرها ستكون وريثة ثروة طائلة ، كما يصف بمزيد من المحبة والتعاطف أيضا صبيا صغيرا هو ابن الخادمة الذى يحتقره سائر الاولاد . ان صورة الطفل الصغير المضطهد ستعود الى الظهور فى روايات دوستويفسكى (نيتوتشكا فى قصة « نيتوتشكا نرفانوف » ، واليوشا فى « الاخوة كرامازوف ») .

وفيما كان الأطفال يحتفلون مبتهجين ، يدخل شخص من الكبراء (يذكر بالمحسن الى فاسيا فى قصة « قلب ضعيف ») . ان هذا الشخص هو هنا رجل مكر طماع شره الى المال شهوانى . وهماو ذا يطمع بينه وبين نفسه فى أن يتخذ من البنية زوجة له فى المستقبل ، متى آتت السادسة عشرة من عمرها . ان الزواج الذى يقوم بين رجل مسن وفتاة صغيرة - وكان هذا يحدث كثيرا فى ذلك الزمان الذى كان ينادى فيه « بالزواج القائم على العقل والحكمة » - كان يثير الاشمئزاز فى نفس دوستويفسكى . وسوف نرى دوستويفسكى يعالج هذا الموضوع نفسه فى روايته « حلم العلم » . وقد تحقق للرجل المسن ما أراد . لما بلغت الصبية السادسة عشرة من عمرها حتى رأيناها تزف اليه .

زوجة آخر ، ورجل تحت السريو

١٨٤٨

الحق أن هذه القصة هى من أضعف أعمال دوستويفسكى . لقد أراد فى هذه القصة ، كما أراد ذلك فى « قصة فى تسع رسائل » ، أن يضحك القراء ، أن يقدم اليهم قصصا هزلية ، وعرة متشابكة بعض الشيء على طريقة روايات بول دو كوك الذى كان يحظى برواج كبير فى ذلك الوقت . ان موضوع هذه القصة أشبه بموضوع مسرحية من نوع « المسخرة » . وهى تتألف من جزأين ، فى الجزء الاول منهما نرى زوجا غيورا ينتظر خروج زوجته من موعد غرامى ليقبض عليها متلبسة

بالجرم المشهود ، وها هو ذا يدخل في حديث مع شاب هو عشيق
الزوجة كان ينتظرها هو أيضا . وتخرج الزوجة الخائنة أخيرا يصحبها
شخص ثالث ، فلقد خانت زوجها وعشيقها الأول كليهما ، ولكنها حين
تلتقي بهما تحافظ على رباطة جاشها وهدوء أعصابها . وفي الجزء الثاني
من هذه القصة نرى هذا الزوج الغيور نفسه يريد أن يفاجئ امرأته
متلبسة بالجرم المشهود ، ولكنه يضل طريقه الى الطابق الذي كان يجب
أن يصعد إليه من العمارة فإذا هو يدخل بيتا لا يعرفه ، فيختبئ تحت
السريير حيث يجد شابا قد سبقه الى الاختباء تحت السريير أيضا لانه ضل
طريقه الى الطابق المقصود كذلك . ان هذا الشاب هو عشيق زوجته ، ثم
يجيء صاحب البيت وهو شيخ هرم ، فيسمع وشوشات مخلوقة تحت
السريير ، وتدور بينه وبين زوجته الشابة أحاديث يقطعها سعاله .
ويفتضح وجود الزوج وغريمه على أثر نباح كلب صغير يدخل تحت
السريير هاجما عليهما ، فلا يسع الزوج الا أن يخنقه فيلفظ الكلب الصغير
أنفاسه ويموت . ويلوذ الشاب بالفرار ، ولا يسع ايفان أندريفتش الا
أن يخرج من تحت السريير ، ويأخذ يبرىء نفسه أمام صاحب المعالي ،
الشيخ زوج الشابة الجميلة . والحق أن هذا المشهد الذي يجري بين
ايفان أندريفتش المسكين ، وبين الشيخ الذي يشبه أن يكون أصم
لا يسمع ، هذا المشهد الذي نرى فيه ايفان يتدفق في سيل من كلام
مفكك لا ترابط فيه ، هو المشهد الوحيد المضحك حقاً . وسوف يرسم
لنا دوستويفسكى مرة أخرى صورة هذا الوجيه الشـيخ ، المريض
الضعيف ، في روايته « حلم العم » ، ولكن الصورة ستكون عندئذ أغنى
وأحفل .

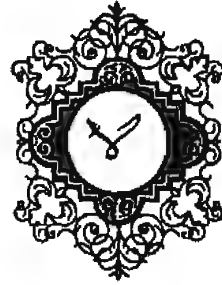
وإذا كان لهذه القصة الهزلية جانب يجعلها شائقة بعض الشيء ،
فهذا الجانب هو شكلها : ان القسم الأكبر منها حوار حى ، حتى لتكاد
تكون مسرحية ، وحتى ليتمكن أن توصف بأنها « قصة مسرحية هزلية » ،
كرواية « حلم العم » . وسيكون طابع الحوار هذا غالبا على الروايات التي
سيكتبها دوستويفسكى . وبفضل هذا انما كانت روايات دوستويفسكى
سهلة الاخراج على المسرح .

نیتوتشکانزفانوفنا

۱۸۴۹

«نيتوتشكا * نوفانوف» ، ظهرت
في « حوليات الوطن» ، اعداد كانون
الثاني (يناير) وشباط (فبراير)
وايار (مايو) سنة ١٨٤٩ ، وقد
انقطع نشر هذه الرواية بسفر
دوستويفسكي الى سيبيريا .

الفصل الأول



أتذكر أبى • فقد كنت فى الثانية من عمرى حين مات • وتزوجت أمى مرة أخرى • الا أن زواجها الثانى هذا ، رغم انه قام على حب ، قد سبب لها كثيرا من الآلام • كان زوج أمى موسيقيا ، لقي مصيرا غريبا ، وكان بين جميع من عرفت من الناس أغربهم وأشدهم • وكان أثره فى مشاعرى الاولى ابان الطفولة من القوة بحيث ألقى ظله على حياتى كلها بعد ذلك • ولا بد لى أن أذكر هنا سيرة حياته لتكون قصتى مفهومة • وكل ما سأرويهِ عنه انما عرفته بعد ذلك من «ب» ، العازف على الكمان ، الذى كان فى شبابه رفيق عمى (زوج أمى) وصديقه الحميم •

كان عمى يدعى « يافيموف » • وقد ولد فى أرض أحد المالكين الأغنياء جدا • وكان أبوه موسيقيا فقيرا انتهى به المطاف الى هذه الارض ، بعد تغرب طويل ، فانهخرط فى جوقة هذا المالك الغنى • وكان المالك يعيش حياة رخية ، وكان مولما بالموسيقى الى حد الهوى الشديد ، حتى يسروى عنه أنه ، وهو الذى لم يكن يترك أرضه يوما ، ولو للذهاب الى

موسكو ، قرر ذات يوم ، على حين غرة ، أن يسافر الى مدينة من مدن
المياه فى الخارج يقضى بضعة اسابيع ، لا لشيء الا لسمع عازفا على الكمان
شهيرا قالت الجرائد يومذاك انه سيحيى هنالك ثلاث حفلات •

وكان هذا السرى يملك جوقة ممتازة يقف عليها جميع موارده
تقريبا * • وقد انخرط عمى فى هذه الجوقة عازفا على الكلاريت • وكان
فى الثانية والعشرين من عمره حين صادق شخصا عجيبا • لقد كان يعيش
فى تلك المقاطعة نفسها كونه غنى جدا يدمر ثروته لينفق على مسرح
أقامه فى بيته • وقد طرد هذا الكونت رئيس جوقة ، وهو ايطالى ، لسوء
سلوكه •

وكان رئيس الجوقة هذا انسانا سىء السلوك حقا ، فما كاد يطرد
حتى فقد كل كرامة ، فاخذ يدمن على الشراب بل أخذ يتسول ، ولم يعد
فى وسعه أن يجد عملا فى أى مكان بهذه المنطقة • هذا الرجل هو
الذى صادفه عمى • ولم يلاحظ أحد فى عمى أى تغير يمكن أن يعزى
الى تأثير رفيقه فيه ، حتى أن المالك الذى منعه أول الأمر من معاشرته
الايطالى انتهى أخيرا الى غض النظر عن ذلك • ثم مات الايطالى بفتنة ،
ففى ذات صباح اكتشفت بعض الفلاحين جثته فى حفرة أحد السود •
ودلَّ التحقيق الذى تم فى هذا الامر أن الرجل انما مات بالسكتة القلبية •
وكان كل ما يملكه الايطالى محفوظا عند عمى الذى لم يلبث أن بين أنه
صاحب الحق فى تركته ، اذ أبرز ورقة كتبها الايطالى بخط يده ، يذكر
فيها أن « يافيموف » هو وريثه • وكانت التركة بدلة سوداء عنى المتوفى
بالاحتفاظ بها لأنه كان يأمل دائما أن يجد عملا ، وكمانا لا يدل مظهره
على أنه ذو قيمة كبيرة • ولم يعترض أحد على هذا الميراث • ولكن بعد
مدة قصيرة جاء كبير العازفين على الكمان لدى الكونت ، جاء الى المالك

يحمل كتابا من مولاه يرجوه فيه الكونت بل يلح فى الرجاء ان يبيعه
يافيموف الكمان الذى تركه الايطالى ، ويظهر رغبته الشديدة فى
الحصول على هذا الكمان لجوقته ، ويقدم ثمنه له ثلاثة الاف روبل ،
ويضيف الى هذا انه قد ارسل يستدعى يافيموف غير مرة ، ليعقد الصفقة
بينه وبينه شخصيا ، الا ان يافيموف كان يرفض دعواته هذه فى عناد .
ويؤكد الكونت فى كتابه ان الثمن الذى يقدمه يساوى قيمة الآلة ، وانه
لا ينوى أن يخدع أحدا ، وانه يعتبر رفض يافيموف اهانة له ، وان
يافيموف ، أخيرا ، مخطيء فى الشك فيه ، فهو لا يريد أبدا أن يستغل
بساطته وجهله . وخلاصة ذلك كله أن الكونت يطلب أن 'يرد' يافيموف
الى صوابه .

واستدعى المالك زوج أمى على الفور فقال له :

— لماذا لا تريد أن تبيع كمانك ؟ انك لست فى حاجة اليه . ثم ان
الكونت يقدم لك ثلاثة آلاف روبل . وهو الثمن الذى يستحقه الكمان .
وتخطيء ان ظننت انك تستطيع أن تبيعه بأكثر من ذلك . ان الكونت
لا يحاول أن يخدعك أبدا .

فأجاب يافيموف بأنه لن يذهب الى الكونت من تلقاء نفسه ، وانه ان
أكره على الذهاب اليه ، فسيذعن لارادة سيده ، لكنه لن يبيع كمانه . على
ان سيده يستطيع أن ينتزع منه الآلة ، ان كانت تلك مشيئة !

وواضح ان جوابا من هذا النوع لا بد أن يضرب على وتر حساس
فى نفس المالك . لقد كان هذا السرى يزهر دائما بأنه يعرف كيف
يعامل موسيقييه ، وكان يمدهم جميعا ، من أولهم الى آخرهم ، فنانيين
حقيقيين ، وكان يعتقد أن جوقته ، بفضلهم ، لا تفوق جوقة الكونت
فحسب ، بل تضارع جوقات العواصم .

فقال له المالك :

- حسنا • سأبلغ الكونت أنك لا تريد أن تبيع كمانك • سأبلغه أن هذا هو رأيك ، وأنتك تشعرون أن لك الحق كله في أن تبيع كمانك أو ألا تبيعها ، أليس كذلك ؟ ولكن قل لى - أنا الذى أطرح عليك السؤال الآن - ما فائدة احتفاظك بهذه الكمان ؟ ان آلتك هى الكلارينيت وأنت لا تجيد العزف حتى على الكلارينيت • تنازل لى عن هذا الكمان ، فأعطيك ثلاثة آلاف روبل (من ذا الذى كان يظن ان هذه آلة ذات قيمة ١٩)

فابتسم بافيموف ، وأجاب :

- كلا يا سيدى ، لن أتنازل عن الكمان ، لكنك تستطيع طبعاً أن • •

- اننى لا أكرهك على شيء • • أترانى أعذبك لأحملك على ما لا

تريد ١٩

قال المالك ذلك فى صراخ غاضب ، خاصة وأن المشهد كان يجرى على مرأى من « عازف » الكونت الذى يستطيع أن يستتج من ذلك أن حفظ الموسيقيين لدى المالك ليس بالحظ السعيد • وأضاف المالك حائقا :

- اذهب ، يا ناكرا الجميل ، ولا أحب أن أراك بعد الآن أبدا • ماذا كنت لولاي ، انت وآلتك ، الكلارينيت ، التى لا تكاد تعرف العزف عليها ؟ أنت هنا تأكل ، وتشرب ، وتلبس ، وتتقاضى أجرا ، وتعيش كما يعيش الوجهاء من الناس • أنت فنان ، ثم تأبى أن تفهم هذا كله وأن تقدره حق قدره • اذهب • لقد هيجت غضبى •

لقد كان المالك يطرد هكذا جميع من يشور عليهم ، لأنه كان يخشى نفسه ، ويخاف سوروات حنقه • وما كان ليحب أبدا أن يقسو فى معاملة « فنانيه » ، كما كان يسمى موسيقيه •

و'ظن' أن الأمر قد انتهى ، ما دامت الصفة لم تتم . ولكن ها هو
عازف الكونت ، بعد شهر من ذلك ، يخلق لعمى ، من تلقاء نفسه فى هذه
المرّة ، لا بوحى من الكونت ، مشكلةً جديدةً . وهى الآن مشكلة رهية .
انه يشى بزواج أمى على أنه قاتل الايطالى ، وعلى أنه أقدم على قتله أملا فى
الاستيلاء على ميراث ضخّم ، ويؤكد أن الوصية انما كتبت بضغط واكراه ،
وانه مستعد للبرهان على ذلك بشهود . وعبتا حاول الكونت والمالك أن
يدافعا عن زوج أمى وأن يتوسلا الى متهمه ، بكل الأساليب ، أن يكف
عن اتهامه ، فقد أصر على الاتهام اصرارا قويا لم يتزعزع عنه . ثم بيّنا
له أن تشريع جثة المتوفى ، رئيس الجوقة ، قد تم وفقا للأصول ، وان
وشايته تخالف البداهة ، وانه انما أقدم على ما أقدم عليه جبا فى الانتقام
أو بداعى الغضب ، لأنه لم يحصل على الآلة التى كان يريد الحصول عليها
(فمن أجله اذن كان يريد الكونت أن يشتري الآلة) . لكن الموسيقى
ظل متمسكا برأيه ، وأخذ يقسم أنه على حق ، وأن السكّنة القلبية لم
يكن سببها السكر بل السم ، وطالب بإجراء تحقيق جديد . وكان من
الجد فى اتهامه بحيث لم يكن بد من استئناف التحقيق : فقُبض على
يافيموف وأودع سجن المدينة . وبدىء تحقيق جديد شغل المنطقة كلها
وأثار اهتمامها الشديد ، وانتهى الى الحكم على الكمائى بتهمة الوشاية
الكاذبة . . ومع ذلك فانه ظل مصرا على رأيه ، وظل يدافع عن هذا
الرأى حتى النهاية . لكنه اضطر أن يعترف بأنه لم يكن يملك من الأدلة
غير ما أمده به خياله ، وبأنه لفق القصة كلها من شكوكه واستدلالاته .
ومع ذلك ، ورغم أن اختتام التحقيق برهن على براءة يافيموف برهانا

قاطعا ، فقد ظل متهمه على يقين من أن يافيموف هو قاتل المسكين ، رئيس الجوقة ، وانه ربما لم يستعمل السم فى قتله ، لكنه قتله بوسيلة من الوسائل ! .. ولم يمكن تنفيذ الحكم الذى أصدر على العازف بالسجن ، فقد أصيب فجأة بنزيف فى الدماغ ، ففقد عقله ، ثم مات فى مستشفى السجن !

وكان المالك ، طوال المدة التى استغرقتها هذه القضية ، يعامل عمى أكرم المعاملة . لقد أتعب نفسه من أجله كأنه ابنه : مضى يراه غير مرة ليواسيه ، وأعطاه مالا ؛ وأتى له بأحسن سيجاره ، منذ علم أن يافيموف يحب التدخين . حتى اذا ظهرت براءة يافيموف أقام مأدبة للجوقة كلها .

لقد كان يعتبر قضية يافيموف قضية الجوقة كلها ، لأنه كان يحترم الأخلاق الحسنة التى يتمتع بها موسيقيوه ، احترامه لمواهبهم ، بل وأكثر من ذلك .

وانقضت على ذلك سنة ، حين شاع فى المنطقة أن عازفا شهيرا على الكمان ، وهو فرنسى ، قد وصل الى مركز المنطقة ، وأنه ينوى إقامة بضع حفلات موسيقية . فلم يلبث المالك أن أخذ يسعى سعيًا حثيثا ليدعوه الى بيته . وكان له ما أراد ، فوعده الفرنسى بالمجيء ، ووزعت الدعوات على جميع سكان المنطقة تقريبا ، وكان كل شيء معدا لاستقبال الفرنسى ، حين وقع فجأة مالم يكن فى الحسبان .

ففى ذات صباح ، علم ان يافيموف قد اختفى دون أن يترك أثرا يدل عليه ! .. وأخذوا يبحثون عنه دون أن يظفروا بطائل . لقد أصبحت الجوقة فى وضع حرج ، اذ تموزها الان كلارينت . ولكن بعد ثلاثة أيام تلقى المالك من الفرنسى رسالة يتحلى فيها من وعده بالمجيء ، ويقول ، بلهجة متعالية وان لم تكن مقنعة ، انه سيكون بعد الآن شديدا الحذر

فى علاقته مع أشخاص يملكون جوقه موسيقية ، ويدى أسفه على أن
موهبة عظيمة تعيش تحت رحمة انسان عاجز عن تقديرها حق قدرها ،
ويذكر ان متال يافيموف ، وهو الفنان الموهوب وأحسن عازف على الكمان
رآه فى روسيا ، اوضح برهان على صدق كلامه •

‘صعق المالك لدى قراءة هذه الرسالة • انه ‘يطعن فى الصميم •
كيف ؟ كيف يمكن أن يفترى عليه يافيموف ، يافيموف نفسه ، هذا الذى
عنى بأمره كل تلك العناية ، واسدى اليه كل ذلك المعروف ، فاذا هو
يقول فيه هذا الكلام السيئ لفنان أوروبى يحرص هو على حسن رأيه
فيه أشد الحرص ؟

ثم ان الرسالة عجيبة من ناحية أخرى • ان الفرنسى يدعى ان
يافيموف ، وهو الفنان الموهوب ، انما هو عازف على الكمان لم يعترف له
بموابيه ، وا دره على العزف على آلة اخرى • وبلغ تاثر المالك بهذه
الرسالة أنه قرر الذهاب فوراً الى المدينة للقاء الفرنسى • لكنه فى تلك
اللحظة نفسها تلقى كلمة من الكونت يدعوه فيها الى الذهاب اليه ، دون
تأخر ، ويذكر له أنه على علم بالأمر ، وأن الفنان الفرنسى هو الآن فى
بيته مع يافيموف ، وانه لاستيائه من وقاحة يافيموف وأكاذيبه ، قد أصدر
أوامره بمنعه من الخروج • وأضاف الكونت الى ذلك أن لا بد من معجىء
المالك اليه ، وأن الاتهام الذى لفته يافيموف قد أثر فيه شخصياً ، وان
الأمر يبدو له من الخطورة بحيث لا بد من توضيحه بأسرع ما يمكن •

أسرع المالك الى الكونت ، فلقى عنده الفرنسى ، واذا ذاك شرح له
المالك قصة يافيموف من أولها الى آخرها ، وأضاف أنه لم يكن ليدور
فى خلد ان هذا الرجل يتمتع بموهبة رفيعة لأنه ، خلافا لما يقول
الفرنسى ، قد كان عنده عازفا رديثا على الكلارنيت ، وأن هذه هى المرة

الأولى التى يسمع فيها أن الموسيقى الذى هجره عازف " على الكمان ،
وأضاف الى ذلك أيضا أن يافيموف لم يكن عبدا ، وإنه كان يتمتع بحرية
تامة ، وإنه كان فى وسعه دائما أن يتركه لو كان يسيء إليه حقا !

صُعقَ الفرنسى من الدهشة • ونودى على يافيموف الذى تبدلت
معالم وجهه حتى ما يكاد يُعرف ، فاتخذ موقف التعالى ، وأخذ يجيب فى
سخرية واستهزاء ، ويؤكد صدق ما أسلف للفرنسى • وقد أثار ذلك
حفيظة الكونت الى أبعد حد ، فقال بلا لف ولا دوران ان يافيموف حقير ،
وإنه واثق كذاب يستحق أرذل العقاب • فأجابه عمى قائلا :

— مهلاً يا صاحب السعادة ، فإن لى معك شأنًا منذ مدة طويلة ،
واننى لأعرفك حق المعرفة ، فبفضلك أو شكت أن يُحكم علىّ بتهمة
القتل • انى لأعلم من ذا الذى دفع « الكسيس نيكيفوريتش » ، الموسيقى
الذى كان يعمل عندك ، الى الوشاية بى !

وخرج الكونت عن طوره لدى سماعه هذا الاتهام الفظيع ، وكان
هنالك ، عرضا ، موظف جاء لبعض الأمور ، فلما سمع هذا الكلام قال انه
لا يمكن أن يترك هذا كله دون توضيح ، وإن وقاحة يافيموف المهينة
تستند الى تهمة باطلة وضیعة ، وإنه يرجو أن يسمح له بمحاسبة هذا
الشخص على الفور فى البيت نفسه • وأظهر الفرنسى استياء شديدا وقال
انه لا يفهم هذا النكران للجميل • فأجاب عمى غاضبا بأنه يفضل أن
يحاكم ، وأن عودة أخرى الى القضاء آثر عنده من الحياة التى عاشها حتى
ذلك الحين فى جوقه المالك ، وهى حياة لم يستطع أن يتركها قبل الآن
لفقره الشديد • وما ان فرغ من كلامه حتى أوقفوه وقادوه الى خارج
الصالة ثم سجنوه فى غرفة بعيدة ، على أن يقودوه فى اليوم التالى الى
المدينة •

وفى حوالى منتصف الليل ، رأى السجين باب غرفته 'يفتح' ، ورأى
المالك يدخل مرتديا ملابس البيت ومحتذا نعل البيت ومسكا بيده قنديلا .
كان واضحا انه لم يستطع أن ينام ، وأن عذابا مبرحا أخرجه من سريره
فى مثل هذه الساعة . ولم يكن يافيموف نائما ، فجعل يحدق فيه دهشا .
ووضع المالك قنديله ، وجلس الى مقعد أمام يافيموف ، وقد ظهرت عليه
علامت التأثير العميق .

— « يا جور » ، لماذا أهنتنى هكذا ؟

ولم يجب يافيموف . وكرر المالك سؤاله . وكان كلامه يختلج
بعاطفة عميقة ، بغم غريب ا

وأخيرا أجاب عمى قائلا ، وهو يقوم بحركة تشير الى العجز :

— لا أدرى يا سيدى لماذا تجرأت عليك هكذا . لا شك أن الشيطان
هو الذى أضلنى . لا أدرى أنا نفسى ما الذى دفعنى الى هذا كله . على
أن حياتى عندك لم تكن بالحياة يا سيدى ، لم تكن بالحياة .. هذا هو
السبب فى أن الشيطان تملكنى ودفعنى الى ما دفعنى اليه .

فأجاب المالك :

— يا جور ، عد الى ، سأنسى كل شيء ، سأغفر كل شيء ، اسمع :
ستكون كبير العازفين على الكمان فى البجوة ، وسأدفع لك أكثر مما أدفع
للآخرين .

— كلا يا سيدى ، كلا ، لا تزدد على ما قلت ، ليس لى مكان عندك .
قلت لك ان الشيطان قد تملكنى . سأوقد فى بيتك نارا ان بقيت فيه . تمر
بى لحظات من القلق البخانق أوتر فيها أن لا أكون قد ولدت . والآن لن

أستطيع أن أجيب • الأفضل أن تتركنى يا سيدى • لقد ألم بى هذا كله منذ تعلق بى ذلك الشخص الجهنمى !

– من هو هذا الشخص ؟

– ومن عساه يكون غير ذلك الذى فطس كما يفطس كلب ضائع ، ذلك الايطالى المنحوس •

– أهو الذى علمك العزف على الكمان يا عزيزى يا جور ؟

– نعم ، وعلمنى أشياء أخرى ، ليزيد شقائى • ليتنى لم أعرفه •

– وهل كان قديرا فى العزف الى هذا الحد يا عزيزى يا جور ؟

– كلا ، لم يكن يجيد العزف كثيرا ، لكنه كان يحسن التسليم • لقد علمت نفسى بنفسى • أما هو فلم يزد على أن يرشدنى • نعم ، لقد كان أفضل لى أن تكون ذراعى يابسة من أن أتعلم هذا الفن • لقد أصبحت الآن لا أعرف ماذا أريد • تستطيع أن تقول لى يا سيدى : « ماذا تريد يا يا جور ؟ يمكن أن أعطيك كل ماتريد » • أما أنا ، يا سيدى ، فلن أجيبك بكلمة ، لأننى لا أعلم أنا نفسى ماذا أريد • كلا ، يا سيدى ، الأفضل أن تتركنى • أقول لك هذا للمرة الثانية • أحب أن أتصرف تصرفا يرسلنى الى أبعد مكان ممكن ، فينتهى كل شئ •

فقال المالك بعد لحظة من صمت :

– لن أتركك هكذا يا يا جور * • اذا كنت لاصحب أن تعود الى • فلك ذلك • أنت حر ، ولا أستطيع أن أحجزك ، لكننى لن أتركك الآن قبل أن تعزف لى شيئا ، يا يا جور • خذ كمانك ، أناشدك الله ، واعزف قليلا • افهمنى • اتنى لا آمرك أمرا ، ولا أحاول أن أكرهك اكراها ،

وانما أتوسل اليك يا كيا • أناشدك الله ، يا عزيزى يا جور ، أن تعزف
لى ماعزفته للفرنسى • أطننى • انك عنيد منلى • لكل منا طبعه ، يا عزيزى
يا جور • لقد فهمت أنا عواطفك ، فحاول أن تفهم أنت عواطفى • لا
أستطيع أن أعيش ما لم أسمعك تعزف مسرورا ما عزفته للفرنسى •

- ليكن ما تريد • لقد عاهدت نفسى على ألا أعزف أمامك ياسيدى ،
على ألا أعزف أمامك أبدا • ولكنك أثرت فى قلبى الآن ، فسأعزف لك ،
وحبك ، وهذه هى المرة الأولى والأخيرة يا سيدى ، ولن تسمعنى بعد
ذلك أبدا ، فى أى مكان ، ولو دفعت من أجل ذلك ألف روبل !

عندئذ أمسك يافيموف بكمانه ، وأخذ يعزف مقطوعة من تأليفه كان
قد استمد موضوعها من أغان روسية قديمة (ويؤكد دب) أن هذه المقطوعة
هى أول وأحسن أثر ألفه عمى للكمان ، وأنه لم يعزف فى حياته شيئا
آخر يمثل هذه القوة) - وكان المالك أثناء ذلك ، وهو من أولئك الذين
لا يستطيعون أن يسمعوا موسيقى دون أن يتأثروا ، كان يبكى من فرط
الانفعال • فلما انتهى يافيموف من عزف المقطوعة ، نهض المالك من مكانه ،
وأخرج من جيبه ثلاثمائة روبل ، فمدَّ يده بها الى عمى وهو يقول :

- الآن تستطيع أن تمضى ، يا يا جور • سأخرجك من هنا ،
وسأتولى تسوية الأمر مع الكونت • ولكن اسمع جيدا : اياك أن تلقانى
يوما ، ولو فى طريق • أمامك مستقبل واسع ، وإذا التقينا يوما وجها
لوجه ، فسيبى ذلك الينا كلينا • والآن وداعا ! •• بل اسمع : نصيحة
أخرى أسديها اليك قبل أن تمضى ، نصيحة واحدة : لا تدمن على الشراب
•• وخذ نفسك بالدراسة الدائمة ، والعمل المستمر ، ولا تغتر • أقول
لك هذا نصيحة أب لابنه • أعود فأحذرك ! اعمل دائما ، وياك والحانات ،

فأنك ان ألم بك حزن ، أو أصابتك خيبة (وما أكثر ما ستصاب بخيبات)
فأخذت تشرب ، مضيت الى دمارك ، وساءت حالك ، وكنت تعرض نفسك
لأن تفتس في أى مكان ، فى قاع حفرة ، كصاحب الايطالى • والآن
وداعا • بل انتظر • عاتقنى •

وتعانق الرجلان • ثم مضى عمى حرا طليقا •

ولم يكده يتحرر حتى سارع الى تبديد روبلاته الثلاثمائة فى مركز
المنطقة ، وأخذ يصاحب رواد أفذر الحانات وأحقرها ، وكانت نتيجة ذلك
أن اضطر بعد قليل ، وقد أصبح وحيدا بلا مال ولا من يحميه ، أن
ينخرط فى جوقة حقيرة لمسرح متجول ، وعين فى هذه الجوقة الكمانى
الأول - ولعله كان الكمانى الوحيد ! - وطبيعى أن هذا لا يتفق مع
أهدافه التى كان يرمى اليها فى أول الأمر • لقد كان يريد أن يمضى
بأقصى سرعة الى بطرسبرج ، وأن يدرس هنالك ، وأن يجد عملا مناسباً ،
وأن يصبح فى تلك المدينة العظيمة فنانا مرموقا • ولم تجر حياته فى
المسرح المتجول بلا عقبات • فانه لم يلبث أن تصاصم مع رئيس الفرقة ،
وترك المسرح المتجول ، وفقد عندئذ كل شجاعة ، واضطر تحت تأثير
اليأس ، أن يكتب الى سيده القديم يذكر له وضعه ويسأله بعض المال ،
رغم أن ذلك يجرح كبريائه جرحا عميقا ، الا انه لم يتلق أى جواب على
رسائله تلك ، وكان قد كتبها بلهجة عنيفة • فكتب رسالة أخرى ذليلة ،
يعترف فيها بفضل سيده عليه ، ويسميه باسم حامى الفنون ، ويتوسل اليه
مرة أخرى أن يهب الى نجده • ووصله الجواب : أرسل اليه المالك أخيرا
مائة روبل ، مع بضعة أسطر بخط خادمه ، يحذره فيها من طلب المعونة
بعد الآن • وحين تلقى عمى هذا المبلغ اعتزم أن يسافر فورا الى بطرسبرج ،
لكنه بعد أن سدد ديونه كان ما بقى له من المال لا يفي بنفقات السفر •

وهكذا ظل فى الأقاليم ، وانخرط مرة أخرى فى جوقة صغيرة • وفى هذه المرة أيضا لم يتفاهم مع أفراد الجوقة • وأخذ ينتقل من عمل الى آخر ، وقد قر فى رأسه أن يمضى الى بطرسبرج بأقصى سرعة ممكنة ، وبأية وسيلة من الوسائل • لكنه قضى على هذا فى الأقاليم ست سنين طوالا • واخيرا استولى عليه اليأس • ولاحذ ، على رعب وهول ، انه كان يفقد موهبته شيئا فشيئا فى هذه الحياة البائسة المشوشة التى لم يكن يلقى فيها الا ذل بعد ذل • وفى ذات صباح ترك عمله ، وحمل كمانه تحت ذراعه ، وسافر الى بطرسبرج وهو يكاد يتسول طوال الطريق • وهناك أقام فى شونة ، ولم يلبث أن اتصل بـ « ب » الذى كان قد وصل من ألمانيا وكان يحلم هو الآخر بمستقبل عريض • وسرعان ما قامت بينهما صداقة • وما يزال « ب » حتى الآن يتحدث عن صداقتهما فى ذلك الوقت بتأثر عميق • لقد كان كل منهما شابا ، وكانت تطوف فى رأس كل منهما أحلام واحدة ، ويهدف الى عين الغاية التى يهدف اليها الآخر • الا أن « ب » كان لا يزال شابا فى زهرة شبابه ، ولم يكن قد عانى حتى ذلك الحين كثيرا من الفقر والذل • وكان ألمانياً فوق كل شيء وقبل كل شيء ، يمضى الى غايته بعناد ومثابرة ، ويعرف قواه تمام المعرفة ، ويكاد يعرف مقدما ماسيصبحه ، فى حين أن رفيقه الذى ناهز الثلاثين وبلغ منه الارهاق مبلغه ، كان قد فقد كل جلد ، وكان قد أتلّف صحته وقواه خلال تلك الأعوام الستة التى اضطر أن يكسب فيها قوت يومه بالعمل تارة فى مسرح صغير بالعاصمة ، وتارة فى جوقة حقيرة • لقد كانت الفكرة الثابتة التى تسيطر عليه أيامذاك هى أن يخرج من هذا الوضع الحقيّر ، أن يدخر قليلا من المال ليلاحق ببطرسبرج • الا أن هذه الفكرة الغامضة الغائمة كانت نوعا من نداء داخلى مبهم فقد سناه على مرّ السنين ، شيئا بعد شيء ، فى نظر يافيموف نفسه ، حتى أصبح وصوله الى بطرسبرج أشبه بوصول انسان

يتحرك بلا ارادة ، أو انسان تحركه رغبة قديمة أصبحت عادة ، وكأنما قد أعتشته الرحلة ، فأصبح لا يكاد يعرف ماذا جاء يعمل في بطرسبرج . كان في حماسه شيء من الكسل والمرارة ، فهي لا تزيد على أن تجعله يفتر بنفسه ، الى أن يستعيد الثقة بقواه الأولى ، بحمياه القديمة ، بالهامه الماضى الذى لم ينضب .

وكانت حماسه الدائمة هذه تبهر صاحبه البارد الرصين « ب » ، حتى بلغ من شدة اعجابه بمعنى أن اعتقد أنه سيصبح فنانا عبقريا ، ولم يستطع أن يتصور مستقبل رفيقه على غير هذا النحو . ومع ذلك فإن « ب » لم يلبث أن فتح عينيه ، وأدرك الحقيقة ، ورأى بوضوح أن هذه الحماسة الفائرة المحمومة ليست الا يأسا لا شعوريا من موهبة ضائعة ، موهبة لعلها لم تكن ، حتى فى أول أمرها ، بالموهبة الخارقة . ورأى أن كل هذا لم يكن الا مزيجا من عماوة ، وغرور فارغ ، وزهو فى غير محله ، وخيال طائش ، وأحلام فى عبقرية يخال المرء أنه يحملها فى نفسه . وقد تحدث « ب » قائلا : « ولكننى لم أكن أستطيع أن أمتنع عن العجب لطبيعة رفيقى الغريبة . لقد ظل المسكين ، خلال سبع سنين طوال ، يجتر أحلام مجده المقبل دون أن يشعر أنه كان يفقد المبادئ الأولى فى

الموسيقى ، بل والتكنيك الذى لا بد منه لمبتدئ . وكان ، مع ذلك ، يرسم للمستقبل فى خياله المضطرب ، أضخم المشاريع الوهمية . كان يريد أن يصبح أحد أوائل الحازفين على الكمان فى العالم . وكان يعد نفسه منذ ذلك الحين عبقريا من هذا الطراز ، بل كان ، وهو الذى يجهل أبسط مبادئ الطبايق ، يعتقد أنه خلق ليكون مؤلفا موسيقيا . الا ان ما كان يدعشنى أكثر من أى شيء آخر هو أن هذا الرجل ، رغم ضعف المامه بالتكنيك الموسيقى ، كان يملك معرفة بالموسيقى واضحة ، معرفة « غريزية » ان صح التعبير . لقد كان احساسه بالموسيقى من القوة ، وكان فهمه

للموسيقى من العمق بحيث لا بد أن يخضع عن حقيقة فيمته ، وأن يعد نفسه لا ناقدا عميقا نافذ الحدس فحسب ، بل أحد جهاذة الفن وعبقريا من عباقرته أيضا • وكان يتفق له ان يقول لى بلغته البسيطة الخشنة ، وهو الذى كان غريبا عن كل ثقافة ، حقائق تبلى من العمق اننى كنت أقف حياها مشدوها ، لا أفهم كيف كان فى وسعه أن يدركها ، هو الذى لم يقرأ فى حياته شيئا ، ولا تعلم شيئا • ولا اكتم اننى استفدت منه كثيرا ، وانتفعت بنصائحه فيما حققت من تقدم • وكنت مطمئنا الى مصيرى • لقد كنت ، أنا أيضا ، شغوبا بفنى متعلقا به أشد التعلق ، رغم اننى كنت أعرف أن مواهبى ليست بالمواهب الفذة ، واننى سأكون عاملا من عمال الفن ، وكنت راضيا بذلك قانعا به ، ولكننى أستطيع أن أعتر بأنى لم أقبر ماحبته به الطبيعة ، بل ضاعفته مائة مرة • ان الناس ليشون على مروتنى فى العزف وعلى ما حصلته من براعة تكنيكية مذهشة • لكننى أعترف بأنى أدين بهذا العمل المتواصل العنيد الذى أخذت به نفسى ، أدين به لمعرفتى الواضحة بقيمتى الحقيقية ، أدين به لنفورى من كل ما يمت بصلة الى الطمع والزهو ، الى القناعة الهينة والكسل ، الى كل هذه الصفات التى تنتج عن الرضى عن المرء عن نفسه • •

وقد حاول « ب » أن يسدى النصح ، بدوره ، الى هذا الرفيق الذى طالما أصغى هو الى نصائحه باحترام ، الا أن رفيقه كان يضيق بنصائحه ذرعا ويفضب منها غضبا شديدا • ولم تلبث صداقتهما أن اعتراها الفتور • ولاحظ « ب » أن عمى يزداد استسلامه للخمول والحزن والضجر شيئا بعد شئ • وأن وثبات حماسه أصبحت أندر من ذى قبل ، وأصبح يعقبها نوع من القلق القائم المحطم • وأخيرا هجر يافيموف كمانه أسابيع طويلة • ولم يكن السقوط النهائى بعيد • اذ لم يلبث أن انهيار المسكين انهيارا تاما • وتحقق كل ما تنبأ به المالك !

فها هو ذا يافيموف يدمن على السكر ادمانا لا يردعه عنه شيء •
وكان « ب » ينظر الى ذلك وقد امتلأ قلبه رعبا • ولم يبق لنصائحه من
أثر البتة ، حتى أصبح يتحاشى أن يوجه إليه أى نقد •

ووصل يافيموف من ذلك شيئا فشيئا الى استهتار لا يعرف الخجل :
انه يعيش الآن عالة على « ب » ، ولكن ذلك لا يشعره بشيء من الاسف
أو الندامة ، حتى لقد كان يتصرف كما لو كان من حقه أن يعيش عالة
عليه !

وكانت أسباب الرزق تنضب شيئا بعد شيء • لقد كان « ب » يعطى
بعض الدروس فى الموسيقى ، او كان يقوم بالعزف فى حفلات ساهرة
لدى بعض أهل التجارة من الالمان ، أو لدى بعض الموظفين الفقراء ، وكان
لا يتقاضى الا أجرا ضئيلا ، الا أنه أجبر على كل حال • وكان يافيموف
يأبى أن يرى حالة الفقر التى يعانيتها رفيقه • وكان يعامله فى كثير من
الصلف والكبرياء ، حتى لقد تمضى أسابيع طويلة دون أن يكلف نفسه
عناء التحدث الى رفيقه بكلمة واحدة •

وفى ذات يوم قال « ب » لعمى ، فى كثير من الرقة واللطف ، ان
من الأفضل له ألا يهمل كمانه كثيرا حتى لا يفقد مرونة أصابعه • لكن
يافيموف غضب غضبا شديدا • وكأنما تخيل أن صاحبه سيركع متوسلا
إليه أن يعود الى كمانه ، فقال انه هجر كمانه عمدا ، وانه لن يمسسه بعد
الآن أبدا • وفى مرة أخرى احتاج « ب » الى زميل يعزف فى حفلة
ساهرة دعى إليها ، فطلب الى يافيموف أن يصحبه ، الا أن هذا العرض
أثار فى يافيموف حنقا هائلا ، فقال لصاحبه فى احتقار وازدراء انه ليس
ممن يعزفون فى الشوارع ، وانه ليس من التفاهة ، كصاحبه « ب » ، بحيث
يرضى أن يدنس فنه النبيل بالعزف لأناس من أصحاب « الدكاكين » وكان

تعلق أحدهما بالآخر قد بلغ من القوة أن تصرفات يافيموف الغريبة ،
وعيوبه الواضحة كانت لا تزيد « ب » إلا تعلقا بصديقه • لقد كان « ب »
يفهم صديقه ويقرأ ما فى نفسه • كان يوجس النهاية التى سيصير إليها
كل هذا •

وقد تعانق الاثنان ساعة الانفصال ، بل وقع كل منهما فى ذراعى
الآخر ، وأخذا يبكيان • وفى تلك الساعة صرخ يافيموف قائلاً ، من خلال
الدموع والشهيق ، انه ليس الا انسانا شقيا ، ليس الا انسانا ضالا ، وانه
كان يعرف ذلك منذ مدة طويلة ، ولكنه فى هذه اللحظة انما يدرك أنه على
شفا الهاوية ، كمحتضر • وختم كلامه ، وقد امتنع لونه ، بقوله :

— اننى لا أملك أية موهبة •

وتأثر « ب » من ذلك تأثرا رهيبا • ثم قال لصديقه :

— اسمع يا ياجور بتروفتش • أنت مخطئ • انك بهذا اليأس
تدفع بنفسك دائما الى الانهيار • انك لا تملك جلدا ولا شجاعة • تسعى
الآن أن ليس لك موهبة • لكن هذا يرجع الى حزنك • ليس صحيحا انك
لا تتمتع بموهبة • أنت تتمتع بالموهبة • أؤكد لك أن الموهبة لا تموزك •
هذا واضح من قدرتك على فهم الموسيقى والاحساس بها • وأستطيع أن
أبرهن لك على ذلك بالرجوع الى حياتك نفسها • لقد ذكرت لى أنك تأملت
فى حياتك كثيرا ، وهذا يدل على انك منذ ذلك الحين ، تحمل فى نفسك
هذا اليأس نفسه • فى ذلك الوقت ، أدرك فيك استاذك الاول ، ذلك
الانسان الغريب الذى طالما حدثتني عنه والذى أيقظ فى نفسك حب
الموسيقى ، أدرك فيك الموهبة الموسيقية • لكنك لم تكن تعرف أنت نفسك
ماذا يجرى فى أعماق نفسك • لم تكن تشعر بالراحة والطمأنينة عند
المالك ، وكنت تجهل ماذا تريد • ومات أستاذك قبل الأوان ، وتركك

لامال ومطامع غامضة مبهمة ، ولم يكشفك لنفسك ، وهذا أهم ما فى الامر
• • كنت تشعر ان عليك ان تسلك سييلا أخرى ، سييلا أرحب • كنت
تشعر ان حياة أخرى تنتظرك ، لكنك لم تكن تعرف الطريق اليها •
ويشئت ، فصرت تكره كل ما حولك • ان السنين الست التى قضيتها فى
بؤس متلاحق لم تذهب سدى ، فقد تعلمت فنك ، وفكرت ، وعرفت
فواك ، حتى أصبحت تفهم فنك وقيمتك • يا صديقى لا بد من الصبر
والشجاعة • ان ما خصت بك به الطبيعة أعلى كثيرا مما خصتنى به أنا • انك
فنان أكثر منى مائة مرة ، ولكننى أسأل الله أن يهب لك جزءا مما وهب لى
من صبر • اعمل ، ودع الشراب ، كما نصحتك بذلك صاحبك المالك
الممتاز • • واستأنف من البداية ، استأنف من الالف باء • ما الذى يقعدك؟
الفقر ؟ العوز ؟ ولكن الفقر هو الذى يصنع الفنان • وهو أمر لا بد منه
فى البداية • انك الآن انسان مهمل ، لا يحتاج اليك أحد ، ولا يحتاج
أحد أن يعرفك • • تلك هى الحياة • وسترى فى المستقبل قساة آخرين
حين 'يعرف من أنت ، وحين 'تعرف قيمتك • سيخفك الحسد
وستخفك النذالات وحماقات الناس أكثر مما يخفك الفقر • ان الموهبة
فى حاجة الى حب ، انها فى حاجة لأن 'تفهم ، وسترى كيف سيعاملونك
حين تشارف على تحقيق غايتك • سيدوسونك بالأقدام ، سيحتقرون هذا
الذى تكون قد اكتسبته بالعمل الشاق ، بالحرمان والجوع وسهر الليل • •
لن يشجعك رفاقك الآتون ، ولن يواسوك • لن يدلوك على مافيك من
عناصر الخير والصدق • بالعكس ، سيحصون عليك كل غلطة ، ولن يروا
غير عيوبك ، ولن يبينوا لك الا ما أنت فيه مخطئ • ، سيفلعون ذلك وفى
نفوسهم فرح خيث • واذا تظاهروا لك بأنهم لا يحفلون بأمرك بل يزدرون
شأنك كانوا فى الحقيقة يفرحون لكل ما تقع فيه من أخطاء (كأن الانسان
معصوم من الخطأ) ! •

ثم انك امرؤ لا تتحمل شيئاً ، انت انسان صلف فى غير داع الى صلف . وأنت لذلك معرض فى كل لحظة لأن تجرح كبرياء طبل منفوخ . . ذلك هو سر شقائك ، لانك ستظل وحدك ، وهم العدد الكبير . سيعذبونك بوخزات الابر . لقد بدأت أنا نفسى أشعر بذلك . هيا يا عزيزى ، انهض من كبوتك الآن . ولست أعزل من كل سلاح . انك تستطيع أن تكسب رزقك . لا تحقر التمارين اليدوية المبتدلة : ليس يضيرك أن يكون عزفك أول الأمر كنشر الخشب ثقلاً ، فلطالما نشرت أنا الخشب سهرات برمتها فى بيوت أولئك البائعين التافهين . الا انك لا تملك الجلد اللازم ، وانت لهذا مريض .

ثم انك تعوزك البساطة . انك تنتقد ، وتسرف فى التفكير : رأسك وحده هو الذى يعمل . انت جرىء فى الكلام ، حتى اذا كان عليك أن تمسك بقوسك ارتعشت خوفاً وهلعاً .

ان كبرياءك قوية ، ثم أنت لا تجرؤ على تحقيق شيء . كن شجاعاً وعليك بالصبر ، وخذ نفسك بالتمارين ، واذا أعوزتك القوة حقاً ، فعليك يومئذ بالمغامرة : ان فيك حماسة ، وان نفسك لتفيض بالعاطفة ، وربما بلغت هدفك على هذا النحو . وهبك لم تبلغه ، فامض مع ذلك الى أمام . لن تخسر فى ذلك شيئاً ، بل سيزداد امتلاكك ناصية فك . أجل يا صديقى ، ان « المغامرة » أمر عظيم ، بالنسبة الينا معشر الفنانين !



وقد أصفى يافيموف فى أول الأمر الى صديقه القديم منفعلاً أعمق الانفعال . وحين كان « ب » يتكلم كانت وجتنا يافيموف الشاحيتان تنتعشان وتحمران شيئاً فشيئاً . والتهبت عيناه بهريق من الجرأة والامل غير معهود فيه .

ولكن سرعان ما انحدرت هذه الجرأة النيلة مرة أخرى الى

الاستهتار ثم الى الوقاحة ، فلما أنهى «ب» كلامه كان يافيموف قد أخذ يتململ • ومع ذلك فقد شد على يد صاحبه بجرادة ، وشكره • الا انه انتقل فجأة من مشاعر الذل العميق والحزن الشديد الى التعالى والكبرياء والصلف ، فصرخ فى وجه صاحبه بلهجة متحدية ، قائلا : « لا تصدع رأسك بالاهتمام بمصيرى • انتى أعرف ما ينبغى لى أن أعمل ، وسترى قريبا عند من سأعمل ! سأحى فى القريب حفلات موسيقية رائعة ، وسأحصل على المجد والمال معا » • ولم يعترض «ب» على هذا الكلام ، بل اكتفى بأن هز كتفيه • وعندئذ افترق الرفيقان القديمان • الى حين طبعا ••

فان يافيموف سرعان ما بدد المال الذى تركه له رفيقه ، وعاد عبثا عليه مرة ثانية ، فثالثة ، فرابعة •• فعاشرة •• الى أن نفذ صبر «ب» • حتى اذا عاد يافيموف مرة ، أوعز «ب» أن يقال له ان صاحبه ليس فى البيت • ومنذ تلك اللحظة لم يعد يراه !



وانقضت على ذلك بضعة سنين • وفى ذات يوم ، بينما كان «ب» عائدا من عمله ، اصطدم - فى زقاق صغير ، على باب إحدى الخمارات المنحطة - بسكران رث الثياب يتناديه باسمه • كان هذا السكران هو يافيموف ، ولكن وجهه كان قد تغير وشحب حتى لا يكاد يُعرف • واضح اذن انه لم يدع حياته المضطربة الفاسدة ، حتى لقد تركت هذه الحياة على وجهه طابعا لا يمحو •

وشعر «ب» بكثير من السعادة لهذا اللقاء ، وهمّ أن يتكلم ، لكن يافيموف لم يدع له فرصة الكلام ، بل جرّه الى داخل الخمارة ، وهناك ، فى حجرة صغيرة مدخنة استطاع «ب» أن ينعم النظر فى يافيموف • لقد

كان صاحبه فى خرق بالية ، وكان حذاؤه ممزقا ، وكان سرواله ملطخا
بأنار الشراب ، وكان شعره قد ابيض وقلت غزارته •

ابتدره «ب» قائلا :

— كيف أنت ؟ وأين أنت الآن ؟

وظهرت على وجه يافيموف علائم الاضطراب ، وبدأ عليه الارتباك .
وكانت أجوبته على أسئلة «ب» مفككة متقطعة ، حتى خيل الى «ب» انه
أمام انسان مختل • واعترف يافيموف أخيرا انه لا يستطيع الكلام قبل أن
يقدم له شئ من الشراب ، وان صاحب هذه الحانة أصبح يرفض أن يقدم
له الشراب دينا منذ مدة طويلة • • احمر وجه « يافيموف » وهو يقول
هذا الكلام ، رغم محاولته أن يتجلد • • وكان منظر هذا كله يثير الشفقة
والحزن والألم ، فاهتزت نفس الصديق الطيب ، وفاضت حناها ورحمة •
لقد كانت مخاوفه اذن فى محلها • وأمر يافيموف بشراب • • فما ان
احتساه حتى تغير وجهه !!

وكان من الهوان على نفسه بحيث تفجر الدمع من عينيه عرفانا
بالجميل ، وحاول أن يقبل يد «ب» المحسن اليه • وصق «ب» حين علم
أثناء الغداء أن صاحبه البائس قد تزوج ! • • الا أن دهشته تجاوزت كل
الحدود حين قال له « يافيموف » ان امرأته هى السبب فى انهياره ، وانها
قتلت موهبته •

فسأله «ب» :

— وكيف ذلك ؟

فأجاب :

— انقضت سنتان ، يا عزيزى ، لم ألس خلالهما كمائى • انها امرأة

من طبقة منحطة ، امرأة عامية تافهة .. قتلها الله ! .. ان كل ما نستطيع
أن نعمله مما - أنا وهى - هو أن نتضارب !

- ولكن اذا كانت كذلك ، فلم تزوجتها ؟

- كنت أنضور جوعا حين عرفتها ، وكانت تملك ألف روبل .
وفقدت عقلى ، فتزوجت . وهى التى تهالكت على ، وتمسكت بعنقى ..
لم أدفعها الى ذلك . وذهب المال بسرعة يا عزيزى ، أما بقية الموهبة ،
فقد ضاعت هى الاخرى !

لاحظ « ب » أن يافيموف كان فى حاجة لأن ينتحل لنفسه الاعتذار .
وآردف يافيموف يقول :
- لقد هجرت كل شىء ..

وهنا صرح بأنه فى المدة الأخيرة كاد يصل الى كمال امتلاكه ناسية
فنه ، وانه لو شاء لما استطاع « ب » أن يلحق به ، رغم أنه أحد أوائل
المازفين على الكمان فى العاصمة !

وفوجئ « ب » بهذا الكلام ، فسأله :

- ولماذا هجرت اذن كل شىء ؟ أما كان عليك أن تبحث عن عمل ؟
فأجاب يافيموف ، وهو يحرك يده علامة الاحتقار

- عينا . أين منكم من يفهم الموسيقى ؟ ماذا تعرفون من الموسيقى ؟
لا شىء .. لا شىء البتة .. قصاراكم ان تنفخوا لحنا راقصا فى باليه ..
انكم لم تروا ولم تسمعوا عازفا على الكمان مجيدا . فعلام أفسد عليكم
راحتكم ؟ ظلوا اذن حيث أنتم ، ما طاب لكم ذلك !

ودعم « يافيموف » كلامه مرة أخرى بحركة من يده ، وترنح على

مقعده ثملا ، ثم دعا « ب » ان يصحبه الى بيته ، وألح في الدعوة • الا أن « ب » رفض ، واكتفى بأن أخذ عنوانه ، مؤكدا انه سيأتى لزيارته فى الند • وأخذ يافيموف - وقد اكتظت معدته ودارت فى رأسه الخمرة - ينظر الى رفيقه القديم نظرة ساخرة ، ويحاول أن يلدعه لدعا قويا بأية وسيلة • فلما نهض « ب » يريد الانصراف ، هب « يافيموف » فتناول فراءه الغالى وقدمه اليه ، كما يفعل الخادم مع عظيم من العظماء • وبينما كانا يجتازان القاعة ، توقف يافيموف ليقدم صاحبه للخدم وللجمهور ، قائلا انه أول عازف على الكمان فى العاصمة ، بل العازف الوحيد • • والخلاصة أنه كان فى منتهى الوقاحة •

ومع ذلك ، مضى « ب » يزوره فى صباح الغد ، فى الغرفة الصغيرة الوحيدة التى كنا نسكنها جميعا • • كنت يومئذ فى الرابعة من عمرى ، وكان قد انقضى على زواج « يافيموف » بأمرى سنتان • ولقد كانت أمى شقية حقا • كانت قبل أن تتزوج أبى تعمل مربية ، وكانت على جانب من ثقافة ، الا أنها لفقرها تزوجت موظفا عجوزا هو أبى • • ولم تنش معه الا سبة واحدة ، مات أبى بعدها فجأة • وبعد موته وزعت تركته الهزيلة بين واريه ، فأصاب أمى قدر زهيد من الدراهم ، وبقيت أمى وحيدة معى • • وكان من الصعب أن تجد من يستخدمها مربية بعد أن أصبحت تحمل على ذراعها طفلا •

وفى تلك الأثناء ، عرفت يافيموف صدقة ، فأحبيته وافستت به ، والحق يقال • ذلك انها امرأة شديدة الحماسة ، حاملة ، فصدقت ما كان يكيه يافيموف لنفسه من الثناء على مواهبه ، وما كان يتحدث به عن مستقبله اللامع •

وساعدها الخيال فانطلقت تداعبها آمال رائحة • • وراق لها أن تكون مرشدا وسندا لرجل عبقرى ، فتزوجته •

ولكن ما ان انقضى على زواجها به شهر واحد ، حتى تبددت جميع
أحلامها وجميع آمالها ، ليحل محلها الواقع المحزن . ذلك أن يافيموف
– ولعله تزوجها من أجل روبلاتها الالف – تنكر لها منذ نفذ المال ! ..
وكانما راق له أن يتعلل عن اخفاقه بهذه الحجة ، فطلق يعلن لكل من
يلقاه أن زواجه قد قتل مواهبه ، وأنه يستحيل ان يعمل في غرفة خائفة ،
ومن حوله أسرة جائعة ، وأنه ما من الهام موسيقى يمكن أن تواتيه في
جو كهذا الجو ... وأخيرا ، أن القدر قد تأمر عليه منذ طفولته وان ذلك
كله واضح وضوح النهار .. ولعله انتهى – هو نفسه – الى تصديق
شكاواه ، فلقد كانت هذه الحجة الجديدة تفريه أيما اغراء .

ان هذه الموهبة الشقية ، هذه الموهبة المتعطلة ، كانت تبحث – على
غير شعور – عن علة خارجية تلقى عليها تبعه كل ما تلقاه من اخفاق ، وكل
ما تعانیه من بؤس ..

ولم يكن يافيموف قادرا على أن ينظر الى الحقيقة الرهيبة وجهها
لوجه ، فيعرف انه فيما يتصل بفنه قد انتهى الى الأبد ، ومنذ مدة طويلة
.. كان يكابر ويتمزق تمزق المريض حاصرته أحلام الحمى .. كان
في حرب مستمرة على الحقيقة المخيفة . فاذا اتفق له أن تفتحت عيناه
لحظة من الزمن ، فاستشف هذه الحقيقة ، كان يذعر حتى ليشعر انه على
شفا الجنون .. كان يستحيل عليه أن يتنازل عن أحلامه التي كانت حياه
نفسها خلال مدة طويلة ، فظل يعتقد – حتى لفظ أنفاسه الاخيرة – ان
ساعته لم تحن بعد ، وان مجده آت لا ريب فيه .

وكان في الساعات التي يتضمضع فيها ايمانه هذا ، يندفع الى الشراب ،
فاذا ضباب السكر يطرد همومه وينفى قلقه . ولعله لم يكن يدرى الى
أى حد كانت حاجته الى امرأته شديدة . لقد كان وجودها حجة يتعلل

بها عن اخفاقه، حتى لقد رسخ في عقله أخيرا أن حياته لن تستأنف مجراها
السليم الا بعد أن يقبر هذه المرأة التي ضيعته !
ولم تكن أمى تفهمه •• فهي امرأة حاملة ، حتى انها لم تستطع أن
تتحمل الصدمة الاولى حين تبدت لها الحقيقة المرة • وقد أصبحت سريعة
الاهتياج ، كشيبة المزاج ، كثيرة التأنيب والتقريع ، فكانت المشاجرات بينهما
لا تنقطع ، وكان هو يجد لذة في تعذيبها ، وكانت لا تنى تحته على البحث
عن عمل • الا أن عماوة عمى ، وطبعه الشاذ ، وما رسخ في عقله من ان
امراته هى السبب فى ضياعه •• كل ذلك جعل منه انسانا لا يعرف الرحمة
الانسانية ، فلا سبيل للعاطفة الى قلبه • فكان لا يقطع عن الضحك عليها ،
وكان يقسم بصراحة قاسية انه لن يمس كمانه مادامت امراته على قيد الحياة •
ولم تطق أمى هذه الحياة ، رغم انها كانت تحب زوجها حبا عنيفا ، ورغم
أنها ظلت تحبه الى آخر لحظة من حياتها ، فاعتلت صحتها ، وأصبحت
لا تفارقها الاوجاع ، ولا يفارقها الذعر والفرع • الا أن ذلك كله لم
يعفها من تبعه اطعام الاسرة ، وحاولت أن تستضيف سكانا يطعمون عندها
بأجر ، الا أن زوجها كان يسرق دراهمها خلسة ، وكثيرا ما اتفق لها ان
وضعت الصحون فارغة أمام هذين الشخصين اللذين تناضل من أجلهما •
وحين أتى « ب » لرؤيتنا ، كانت أمى منهمكة فى غسل الثياب
وترقيع الملابس العتيقة •• تلك هى الحياة الشقية التى كنا نعيشها فى
ظلمات غرفتنا الحفيرة •

وتأثر « ب » لرؤية شقائنا • فما كان منه الا أن قال لعمى :
— اسمع • انك لا تقول الا هراء وسخفا •• فلا تعد على مسامعى
قصة موهبتك الميتة •• ما عملك هنا ما دامت هى التى تطعمك ؟
فأجاب عمى :
— لا شىء !

الا أن « ب » لم يكن يتصور ، بعد ، كل ما تعانيه أمى .. فكثيرا ما كان أبى يعود الى البيت فى صحبة أناس حقيرين ممن لا عمل لهم الا التسكع فى الازقة .. ويالهول ما كان يجرى فى البيت عندئذ !

وأخذ « ب » يعظ رفيقه القديم طويلا . وصرح له - أخيرا - بأنه ان لم يرعو عن غيه ويسلك سلوكا شريفا ، فلن يمد له يد المعونة ، وقال له - بلا لف ولا دوران - انه لن يعطيه شيئا من المال ، ما دام سييده فى الشراب . ثم طلب اليه أن يمسك بكمانه فيسمعه عزفه ليحكم على قدرته . ومضى عمى لاجتماع كمانه ، فانتهاز « ب » هذه الفرصة ، ومدَّ الى أمى خلسة بعض المال ، الا أن أمى لم تشأ أن تقبله ، فتلك هى المرة الأولى التى تتلقى فيها صدقة ! .. عندئذ مد « ب » المال الى أنا ، فأخذته ، وانفجرت أمى المسكينه باكية .. وأتى عمى بكمانه ، الا انه طلب أن يقدم اليه قليل من الخمر ، قائلا انه لا يستطيع أن يعزف بدون ذلك .

وجيء له بالخمير فشرب ، وسرعان ما انطلقت أساريره وانتعش . ثم قال متجها الى « ب » وهو يخرج من الدرج دفترا كبيرا غطاه الغبار :
- باسم الصداقة ، سأعزف لك شيئا من تأليفى .

ثم قال وهو يشير الى الدفتر :
- هل ترى ؟ .. هذا كله من تأليفى ! .. ولكنه من عجيبة أخرى غير ألحان « الباليه » التى تعزفونها .

وأخذ « ب » الدفتر ، وقلب بعض صفحاته صامتا . ثم أخرج من جيبه دفترا موسيقيا ، وطلب الى عمى أن يدع الآن مؤلفاته ، وأن يعزف له قطعة عيَّنها له من دفتره هو .
وانزعج عمى من ذلك قليلا . الا انه لخوفه من أن يضيع هذا

الحامى الجديد ، نفذ ما طلب اليه • وأدرك « ب » عندئذ أن رفيقه القديم الذى يتباهى بأنه لم يلمس كمانه منذ زواجه ، كان - فى الواقع - قد تمرن كثيرا أثناء ذلك ، فتحسن عزفه تحسنا واضحا خلال فترة انفصالهما !

ليتكم ترون الفرخ الذى فاض فى وجه أمى المسكينة فى تلك اللحظة ! • • لقد أخذت تتأمل زوجها فى كثير من التباهى والاعتزاز • • وسر الصديق الطيب « ب » سرورا صادقا هو الآخر ، ووعد أن يجد لعمى عملا • وكانت له - فى ذلك الحين - علاقات بنوى الشأن ، فمما لبث أن أعمل هذه العلاقات ، فأوصى بعمى خيرا ، بعد أن استقطعه عهدا على نفسه أن يصلح سيرته ويقوم سلوكه • واشترى « ب » لعمى ثيابا لائقة ، وقدمه لأشخاص من أصحاب النفوذ يتوقف عليهم ايجاد العمل الذى كان يريد أن يحصل له عليه • والحق أن « يافيموف » لم يكن يتصلف ويتكبر الا بالكلام ، أما فى أعماق نفسه ، فقد ملأه فرحا هذا العرض الذى تقدم به اليه صديقه القديم •

وقد روى « ب » - فيما بعد - كيف كان يشعر بخجل شديد حين كان عمى يطفق يتملقه ويتزلف اليه ويتذلل له ويغمره بسيل من عبارات التعظيم والاجلال ، خوفا على نعمه أن يقطعها عنه • والحق أن « يافيموف » فهم أنهم يريدون أن يردوه الى الطريق السوى ، ففرح لذلك حتى انقطع عن الشراب • • وأخيرا وجدوا له عملا فى جوقة أحد المسارح ، واجتاز المسابقة بنجاح باهر لأنه استطاع خلال شهر من الدأب والعمل ، أن يسترد كل ما كان فقدته خلال ثمانية عشر شهرا من القعود عن العمل • وقطع على نفسه عهدا أن لا يكف عن العمل بعد ذلك ، وأن يقوم بواجباته الجديدة على نحو دقيق منظم • الا أن حالة أسرتنا لم

تحسن • فان عمى لم يعط أسمى من روايته قرشا واحدا ، بل كان ينفقها كلها على موائد يدعو اليها أصحابه الكثرين ، الذين لم يلبث عددهم أن أصبح كبيرا جدا •

ولكنه كان يتجنب الاشخاص الذين يتمتعون بموهبة حقيقية ، ويجالس خاصة موظفى المسرح وأفراد « الكورس » وغيرهم ممن يستطيع أن يسيطر عليهم •

واستطاع أن يوحى اليهم باحترام خاص لشخصه ، اذ بين لهم - منذ البداية - ان الناس لا يفهمونه وانه يتمتع بمواهب فذة ، وان امرأته هى السبب فى ضياعه ، وان رئيس جوقتهم - أخيرا - لا يفهم فى شئون الموسيقى شيئا البتة ! •• وكان يسخر من جميع فناني الجوقة ، ومن اختيار المسرحيات التى تمثل ، ومن مؤلفيها • وأخيرا ، أخذ يشرح نظرية جديدة فى الموسيقى • ثم تشاجر مع زملائه ومع رئيس الجوقة ، وكان فظا مع رؤسائه ، حتى اشتهر بين الجميع بأنه انسان مختل ، مزعج ، لا يصلح لشيء •• هكذا عرف يافيموف كيف يتصرف على النحو الذى يتعب جميع الناس ، فما يطيقون بعد ذلك احتماله !

والحق أن ثمة ما يثير الاستغراب فى هذه الادعاءات المتطرفة ، تصدر عن موسيقى فى مثل اهماله ، وعن عازف فى مثل عجزه ، لاسيما حين كان يمدح نفسه بمثل هذا الافتخار ، وبمثل تلك اللهجة الجازمة القاطعة •• ولم يستثن من اتهاماته صديقه «ب» ، بل أخذ يشيع عنه تهما حقيرة ووشايات وضيعة ، يتكررها ثم يذيعها على انها حقائق لا تقبل الشك • وانتهى ذلك كله الى أن تمكر الجو بين عمى وبين «ب» • ولم تنقضى ستة أشهر على عمله فى الجوقة على هذا النحو الفوضوى المستهتر ، حتى اضطروا الى اخراجه • الا انه لم يدع أروقة المسرح بهذه السهولة

وسرعان ما أصبح يرى من جديد ، بخرقه البالية القديمة ، بعد أن باع
أو رهن ملابسه المناسبة ، وطفق يتردد على زملائه القدماء ، لا يعنيه أن
يعرف هل يسرهم أو يزعجهم أن يستقبلوا زائرا مثله . فكان ينقل اليهم
الأقاويل ، ويروج عندهم الحكايات السخيفة ، ويشكو اليهم حياته يوما
بعد يوم ، ويدعو كلا منهم الى زيارته في بيته للاعجاب بزواجه المجنونة .
وطبيعى أنه كان يجد دائما بينهم من يسره أن يقدم لزميل له
مطرود قدحا من الشراب ليسمعه يلفق أسوأ الأقاويل . ثم ان حديث
ياقيموف كان بارعا يفيض ملاحظات مرة لاذعة تفتن هذا النوع من
المستمعين . وكانوا يعاملونه كمهرج شبه مجنون ، يحضونه على الثرثرة
تزجية للوقت وملئا للفراغ . وكان يحلو لهم أن يستثيروا غضبه ،
بالتحدث أمامه عن عازف جديد وصل الى العاصمة . فسرعان ما كان
يتغير وجهه ، ويشرد لبه ، ويعضه الحسد ، ويسأل عن هذا العازف
الجديد من هو وما هى مواهبه . وأعتقد أن ذلك الوقت كان بداية جنونه
الحقيقى ، بداية الفكرة الثابتة التى حاصرت عقله واستبدت به ، أعنى
ايمانه بأنه أول عازف على الكمان ، فى بطرسبرج على الاقل ، وأن الحظ
هو الذى خانته ، وأنه مضطهد مهان ، وأنه ضحية أنواع شتى من المؤامرات
وان الناس لا يفهمونه ، وانه لذلك مجهول . وكانت هذه الفكرة الاخيرة
تروق له وتتملق غروره ، فهناك أناس يحبون أن يعتقدوا أنهم مضطهدون
مهانون ، حتى يستطيعوا أن يتفجعوا جهارا ، وأن يتأسسوا فى سرهم
بعبادة عبقريتهم المجهولة . وكان « ياقيموف » يعرف جميع العازفين من
أولهم الى آخرهم ، ويزعم أنه ما من أحد منهم يستطيع أن يضارعه .
وكان الهواة الذين يعرفون لوتته يحبون أن يشنوا أمامه على عازف من
العازفين ليحضوه على ابداء رأيه .

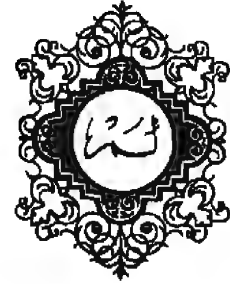
وكانوا يستعذبون ضعيفته ، ويستلطفون ملاحظاته المحكمة وكلماته

اللاذعة الفكهة التى كان يطلقها فى التهكم على عزف خصمه الخيالى ! •
وكانوا كثيرا ما لا يفهمونه ، الا انهم كانوا يعتقدون أنه ما من أحد فى
العالم يستطيع أن يصف مشاهير الموسيقيين فى تلك الآونة وصفا
« كاريكاتوريا » فى مثل براعته وفكاهته ، حتى ان الفنانين الذين كان
يسلط عليهم لسانه المر كانوا يخشونه بعض الشيء ، لأنهم يعرفون السم
الذى يقطر من أحاديثه ، ويشعرون بما فى ملاحظاته من أحكام صائبة !
• • واعتاد الناس أن يروه فى أروقة المسرح وكواليسه • • وكان
المستخدمون يدعونه يدخل دون اعتراض ، كشخص لا غنى عنه • لقد
أصبح « ترسيت » * هذا المكان •

ودامت هذه الحياة سنتين أو ثلاث سنين ، الى أن سئمه جميع
الناس ، حتى فى هذا الدور الأخير ، وعندئذ طرد طرداً نهائياً • واختفى
عمى بعد ذلك سنتين كاملتين اختفاء تاما ، لا يعلم أحد ممن يعرفونه الى
أين مضى • الا ان « ب » صادفه مرتين على حال من البؤس والشقاء استدرت
شفقته ، فتغلبت الرحمة فى قلبه على الاشمئزاز ، فناداه مرة ، الا أن
عمى ارتبك ، وتظاهر بأنه لم يسمعه وشد قبضته المشوهة الرثة على رأسه
حتى غطت عينيه ، وتابع سيره • وفى صباح أحد الاعياد جاء خادم « ب »
يقول له ان صديقه القديم على الباب أتى يقدم اليه تهنائه بالعيد وتمنياته •
فخرج « ب » للقاءه • كان يافيموف فى حالة سكر شديد ، فلمّا رأى
« ب » خرقاً راکما حتى كاد يلامس الارض اظهارا لذه ، وتمتم بضع
كلمات ، وأبى أن يدخل • وكان لسان حاله طبعاً يقول : ليس من حقنا
نحن أهل الشقاء أن نعاشر عظماء فى مثل منزلتكم • و كل مايسمح لنا
به ، نحن صغار الناس ، ان نفعل ما يفعله الخدم : تتملق واقفين على

عتبة الباب ، ونخر راكعين ثم تنصرف • ذلك كان سلوكه المزرى • ولم
يره «ب» منذ ذلك الحين الا بعد مدة طويلة ، أى يوم وقعت الواقعة التى
اختتمت بها هذه الحياة الشقية المريضة الفاسدة • لقد كانت فاجعة فظيعة •
انها لا ترتبط ارتباطا وثيقا بمشاعر طفولتى فحسب ، بل بحياتى كلها ،
وسأروى لكم الآن كيف وقعت • ولكن لا بد لى ، قبل كل شئ ، أن
أذكر ماذا كانت طفولتى ، وماذا كان بالنسبة الى ذلك الرجل الذى
خلّف فى عواطفى الاولى أثرا مؤلما الى هذا الحد ، ذلك الرجل الذى
سبّب موت أمى المسكينة •

الفصل الثاني



تبدأ ذكرياتي الا متأخرة جدا ، فى نحو التاسعة من عمرى • لأدرى كيف يمكن ذلك • الا أن كل ما انقضى قبل هذا العهد لم يدع فى نفسى أى أثر يمكن أن أذكره الآن • ولكننى فى مقابل

ذلك أستطيع أن أرى بوضوح تام كل ما وقع بعد الثامنة والنصف من من عمرى ، يوما بيوم ، دون أى انقطاع ، كأنه وقع بالأمس • صحيح اننى أستطيع أن أتذكر بعض الحوادث التى سبقت هذه المرحلة ، الا أن ذكرياتي عن هذه الحوادث أشبه بأحلام مريض : ما زلت أرى - مثلا - سراجا صغيرا يعس فى ركن مظلم الى جانب أيقونة قديمة • وما زلت أعلم أننى كنت ذات يوم فى الشارع ، فداسنى حصان ، وقيل لى اننى بقيت بعد ذلك طريحة الفراش طوال أشهر ثلاثة • وما زلت أذكر أيضا أننى أثناء ذلك المرض استيقظت ذات مرة مذعورة (وكنت أنام مع أمى على فراش واحد) وان أوهامى والسكون وقرقة فأر فى ركن الغرفة أرعبتنى أشد الرعب ، فقضيت بقية الليل أرتعد منكشمة على نفسى تحت الغطاء ،

دون ان اجرؤ على ايقاظ امى (وهذا ما يجعلنى افترض اننى كنت
اخشاها اكثر مما اخشى سائر المخاوف مجتمعة !) .. الا اننى منذ اللحظة
التي شعرت فيها بذاتى ، أصبح نموى سريعا وعجيبا ، حتى أننى أحسست
بكنبر من المشاعر التي ليست من الطفولة فى شيء . لقد اضاء كل شيء امام
نظرى ، وسرعان ما أصبح كل شيء مفهوما . ان اللحظة التي بدأت فيها
ذكرياتى الحقيقية قد تركت فى نفسى اثرا حادا من الألم ، وكان هذا
الاثر يزداد يوما بعد يوم ، حتى اضفى على جميع حياتى التي قضيتها
بين عمى وأمى ، أعنى على طفولتى كلها ، لونا قاتما غريبا .

يخيل الى الان اننى كأنما استيقظت فجأة من نوم ثقيل ، استيقظت
فى غرفة كبيرة منخفضه السقف ، قذرة ، تفوح منها روائح الاختناق ،
جدرانها ملطخة بلون رمادى قذر ، وفى احدى زواياها تنصب مدفأة
روسية قديمة . والنوافذ تطل على الشارع ، او فل على سطح البيت
المقابل ، وهى جميعها أشبه بشقوق ، لشدة ضيقها وامتدادها عرضا ،
وحوافيها تبلغ من البعد عن أرض الغرفة أننى احتجت ، فيما أذكر ، الى
أن أضع كرسيها الى أن أضع فوق الكرسي مقعدا حتى أستطيع أن أصل
الى هذا المكان الذى كنت أحب أن أجلس فيه حين لا يكون فى البيت
أحد . لقد كان المنظر يمتد من هذه النوافذ على نصف المدينة . لقد
كنا نعيش تحت السقف من عمارة كبيرة تتألف من ستة طوابق ، وكان
أثاث بيتنا كله لا يزيد على « ديوان » من قماش مشمع أصبح مزقا مغبرة
باهتة ، وعلى طاولة كبيرة من خشب أبيض وكرسين ، وعلى سرير أمى ،
وخزانة صغيرة ، وأخرى متداعية أسندت الى زاوية من زوايا الغرفة ،
وحاجز من ورق تمزق .

انى أتذكر ذلك المساء ، عند الشفق . كان كل شيء قد تبشر على

أرض الغرفة : المقشة ، خرق المسح ، أوانينا التي من خشب ، زجاجة مكسورة ، وأشياء أخرى أيضا • • وأمي تبكى مرتعدة من شدة الهم ، وعمى جالس في أحد أركان الغرفة ، يرتدى رديجوتة السرمدي • وكان عمى يرد على كلام أمى هازئا ساخرا ، وكان ذلك يزيد غضب أمى •

وفجأة تعود المقشة والأواني الى رقصها العنيف • وأخذت أصرخ غارقة في الدموع ، واندفعت الى أمام أحاول أن أباعد بينهما • كنت في حالة ذعر هائل • وأحطت عمى بذراعى أريد أن أغطيه بجسمي لأحميه • كنت أعتقد ، لا أدري لماذا ، ان أمى هي المخطئة في غضبها عليه ، وانه ليس بمذنب • ووددت لو أتشفع له ، وأن أحتمل عنه كل قصاص •

كنت أخاف أمى خوفا شديدا ، فكان يترامى لى انه ما من أحد الا ويخشاها كما أخشاها أنا •

وشدعت أمى في أول الأمر ، ثم أمسكت يدي وجرتني الى ماوراء الحاجز • واصطدمت يدي بالسريير فآلمتني ألما شديدا ، الا أن الخوف كان أشد من الألم ، فلم أحرك ساكنا ، ولا ظهرت على وجهي علامة من علامات الألم •

وما زلت أذكر أن أمى خاطبت أبى بعد ذلك بلهجة عنيفة وهي تشير الى باصبعها (سأسقيه بعد الآن أبى في قصتي هذه ، لأننى لم أعلم أنه ليس أبى الا بعد مدة طويلة) • ودام هذا المشهد ساعتين طويلتين كنت أحاول عبثا خلالهما ، وأنا أرتجف من القلق ، أن أحرز كيف سينتهى الأمر •

وأخيراً هدأت المشاجرة ، وانصرفت أمى • وعندئذ ناداني أبى

فقبلنى ، وداعب رأسى ، وحملنى الى ركبتيه بينما كنت أشد جسمى اليه
برفق وحب .

كانت تلك فيما أعتقد أول ملاطفة أبوية . ولعلها هى السبب فى أن
ذكرياتى أصبحت منذ تلك اللحظة واضحة هذا الوضوح . ولاحظت
بجلاء تام اننى اكتسبت عطف أبى بالتحزب له . ولعل هذه هى المرة
الأولى التى قام فيها فى ذهنى أن امى كانت تجعل حياة أبى قاسية شاقة .
ومنذ استقرت هذه الفكرة فى نفسى أصبحت تعذبى وتزيدنى عذابا يوما
بعد يوم .

وشعرت نحو أبى ، منذ تلك اللحظة ، بحب ليس له حدود ، حب
غريب ليس من الطفولة فى شيء . حتى لاستطيع أن أقول ان هذه العاطفة
تشتمل على شيء مما تشعر به الام نحو ابنها من حب وقلق ، ان لم يكن
مضحكا أن توصف عاطفة طفل بمثل هذا . كان يترامى لى أن أبى حقيق
بالرئاء ، معذب ، مضطهد ، وأن من الظلم أن لا أحبه حبا قويا ، وأن
لا أواسيه ، وأن لا أظهر له أية عاطفة ، وأن لا أحب له نفسى مخلصة
صادقة . ومع ذلك فأننى لا أعرف الآن لمَ كانت الفكرة التى استقرت
فى ذهنى يومئذ هى أن أبى أشقى الناس وأكثرهم عذابا . ما الذى ألهمنى
هذه الفكرة ؟ كيف استطعت ، أنا الصغيرة ، أن أنفذ الى أعماق نفسه
فأدرك الآلام التى كان يعانىها نمرة لاختفاقه ؟ لقد نفذت مع ذلك الى هذه
الآلام ، وان كنت قد بدلت صورتها طبعاً ، وجعلتها فى مستوى خيالى .
والى الآن لا أدري من أين أتانى هذا الحدس . لعل قسوة أمى الشديدة
علىّ هى التى دفعتنى الى التعلق بأبى ، تعلقى بإنسان يعانى مثل الشقاء
الذى أعانيه ، وفقا للصورة التى رسمتها نفسى له .

رويت الى الآن يقظتى الأولى من نوم الطفولة ، والحادث الأول فى

حياتي • وقد جرحني هذا الحادث جرحا عميقا ، ومنذ ذلك اليوم أخذ
نموى يتم بسرعة عجيبة ، بسرعة مرهقة ، وأصبحت لا أكتفى بالمشاعر
التي تصلني من الخارج بل صرت أفكر ، وأحكم ، وألاحظ • فإذا كل
ما يحيط بي يرتسم في ذهني وفقا للصورة الخيالية التي كان يكررها أبى ،
والتي كان لا بد أن أعدها الحقيقة الخالصة • وأدركت أشياء كثيرة عجيبة •
أدركت مثلا (لا أفهم الآن كيف تم لي ذلك) اننى أعيش فى أسرة
عجيبة ، وأن أبوى لا يشبهان الناس الذين كان يتفق لى أن ألقاهم •
كنت أَسْأَلُ : « لماذا يختلف مظهر الناس الذين أراهم عن مظهر أبوى ؟
لماذا أرى فى وجوههم فرحا •• على حين أنه ما من أحد يضحك يوما
فى بيتنا ، فى ركننا الثانى ، ما من أحد يعرف الفرح سيلا الى نفسه ؟ »
لست أدري الآن ما الذى كان يدفعنى ، أنا الطفلة التي لم تتجاوز التاسعة
من عمرها ، الى ملاحظة الناس بمثل هذا الانتباه الشديد ، والى الاستماع
الى كل كلمة يقولونها بمثل هذه المراة اللاذعة ، حين كنت ألقاهم عرضا
على سلم البيت ، أو فى الشارع ، أو حين كنت أمضى الى أحد الحوانيت ،
ملفعة بثوب أمى ، لأشتري ببضعة قروش قليلا من السكر أو الشاي
أو الخبز ؟ •• وفهمت - لا أدري كيف - أن شقاء لا يحتمل يختبئ
فى بيتنا ، فى هذا البيت الحقير • وكنت أعصر ذهني باحثة عن علة ذلك ،
ولا أدري ما الذى ساعدنى على حل اللغز على النحو التالى : قلت فى
نفسى أن أمى هى المسئولة ، انها سبب شقاء أبى • وهذا يضطرني الى
التساؤل مرة أخرى : كيف أمكن أن ترسخ هذه الفكرة الشيطانية فى
نفسى • ومهما يكن من أمر فإن تعلقى بأبى أخذ يزداد ، وأخذ يزداد
كرهى لأمى ، وما زالت هذه الذكرى تحدث لى ألما عميقا حتى الآن •
وهذا حادث آخر عجّل تعلقى بأبى أكثر من الحادث الأول : ذات

مرة ، فى نحو الساعة التاسعة من المساء ، أرسلتني أمى الى السوق لشراء قليل من الحميرة ، أثناء غياب أبى عن البيت . ووقعت فى الشارع وأنا عائدة الى البيت فانسفح على الارض كل ما كان يحويه الفئجان . وتصورت ، اول ما تصورت ، جام الفضب الذى ستصبه أمى على راسى ، وشعرت الى جانب ذلك بالظلم فى ذراعى اليسرى ، ولم استطع أن أنهض على قدمى ، وتجمع حولي « المتفرجون » . وحاولت امرأة أن تهضني ، ومر صبي وهو يركض فلكمني على رأسي ومضى ، وأنهضوني أخيرا ، فلملمت قطع فئجاني ، ومضيت مرتعشة مرتجفة لا أكاد أقوى على السير . وفجأة لمحت أبى . لمحته فى وسط جمهور تجمع أمام المنزل الجميل الذى يقابل بيتنا . كان هذا المنزل الذى يقطنه أناس أغنياء يتألق بضياء رائع . وأمام باب البيت كان يقف عدد من العربات . ومن خلال النوافذ كانت تخرج أصوات موسيقى . وأمسكت بطرف ثوب أبى ، وأدريته فئجاني المكسور ، وذكرت له ، باكية ، اننى خائفة من العودة الى البيت . لا أدري الان لِمَ كنت على ثقة من أنه سيصحبني وأنه سيدافع عني ، لا أدري من أين أتاني هذا اليقين ، ومن ذا الذى أوحى الى بأنه سيحميني ، وأنه يحبني أكثر مما تحبني أمى كثيرا . لا أدري كيف اتجهت اليه دون أن يساورني أى خوف . وأمسك أبى يدي ، وأخذ يواسيني ، ثم قال لي انه سيريني شيئا . ورفعني بين ذراعيه . لم أستطع أن أرى شيئا ، لأنه شد ذراعى المجروحة ، فألمني ألما هائلا . غير أنني لم أصرخ ولم أتوجع ، لأنني كنت لا أحب أن أزعجه فى شيء . وسألني ملحا هل أرى شيئا . وحاولت ، جهد اليأس ، أن أجيبه بما يحب ، فقلت له اننى أرى ستائر حمرا . وحين أراد أن يحملني الى الجانب الآخر من الشارع ، بالقرب من البيت ، رأيته أبكي فجأة على رغم ارادتي وأخذت أتوسل اليه ، وقد أحطت عنقه بذراعى ، أن يصعد بي الى البيت

بسرعة • انتهى أتذكر الآن أن مداعبات أبي في تلك اللحظة كانت تؤلمني ،
فانني لم احتمل ان يحبني ويداعبني احد هذين اللذين أود أن احبهما
كل الحب ، في وقت اخاف فيه الاخر وأخشى ان أمثل بين يديه • الا أن
أمي لم تكذب تغضب ، وأمرتني أن أمضي الى فراشي وأنام • وأذكر أن
ألم ذراعي أخذ يشتد ويشد ، حتى سبب لي حمى شديدة • ورغم ذلك
كانت سعادتي عظيمة جدا ، لأن الامر انتهى بسلام ، حتى لقد حلمت
طوال الليل بالبيت الذي يقابل بيتنا وبستائه الحمر •

لذلك كانت صورة هذا البيت أول ما مثل في خاطري حين استيقظت
في صباح اليوم التالي • وما كادت أمي تنزل الى فناء المنزل ، حتى تسلمت
حافة النافذة لاثامل ذلك البيت مرة أخرى ، وكنت أفكر فيه منذ زمان
طويل ، وكنت أحب أن أنظر اليه في المساء خاصة ، حين تضيء الأنوار
في الشارع ، فتصطبغ بلون الدم ، تحت الاشعة الخاصة التي تسقط عليها
من خلال نوافذه العالية المغللة بالستائر الارجوانية ، والمضادة اضامة
قوية •

وأمام الباب ، تقف دائما عربات فاخرة شدت اليها خيول رائعة •
كان كل شيء يثير في نفسي حب الاستطلاع : الصراخ ، الازدحام ،
القناديل المبرقشة ، النساء المتبرجات ينزلن من العربات • كان خيالي
يخلع على هذا كله جوا سحريا مترفا كجوا الاساطير • وفي ذلك اليوم
على وجه الخصوص ، بعد لقائي بأبي على عتبة هذا البيت ، ازداد البيت
في نظري فتنة وسحرا • وكانت صور الروعة قد بدأت تتخاطر في ذهني
الهائم • اني أعيش بين أناس شاذين كأبي وأمي ، فلا عجب أن أصبحت
شاذة عجيبية ، أنا الأخرى ، فما من ذلك مهرب • من ذلك أن رؤية أمي
وهي تتحمل هذا العناء كله في سبيل اعالتنا ، وما كنت أسمعه من تفرعها
أبي دون انقطاع على انها وحدها تعمل ، كل ذلك كان يشغل بالي

ويصدعه • فكنت أسأل ، بالرغم منى : لماذا لا يساعدنا أبى أبدا ، ولماذا يعيش بيننا كأنه غريب عنا ؟ ان بعض كلمات أمى أيقظت فى نفسى هذه الفكرة • وكانت لى مفاجأة كبيرة يوم فهمت أن أبى شخص « موهوب » ، انه « فنان » • ورسخت هذه الكلمة فى ذاكرتى ، وسرعان ما استقر فى ذهنى ان الفنان مخلوق عجيب ، لا يشبه غيره من الناس • لعل سلوك أبى هو الذى انتهى بى الى هذه النتيجة ، أو لعل كلمة سمعتها ثم نسيتهاء ، هى التى رسّخت فى نفسى هذه الفكرة • ومهما يكن من أمر فان هناك عبارة قالها أبى ذات يوم بحرارة قوية ورسخت فى ذاكرتى لا تبرحها قال : سيأتى يوم لن يكون هو فيه انسانا رثا بل سيداً محترماً ورجلاً غنياً ، سيأتى يوم يبعث فيه بشا جديداً ، هو اليوم الذى تموت فيه أمى ! • أذكر اننى ما ان سمعت هذه الكلمات حتى اتابنى فى أول الأمر رهب شديد ، فلم أستطع أن أبقى فى الغرفة • فهربت الى الممر البارد ، وانكمشت الى جانب النافذة ، وقد اعتمدت وجهى بين يدى ، وأخذت أشهق وأنتحب • ثم لما فكرت فى الأمر ملياً ، وهبّ الخيال الى نجدتى ، وجدتنى آلف رغبة أبى الكريهة هذه • وكنت ، من جهة أخرى ، لا أستطيع أن أظل مدة طويلة أمام سر لا يمكن فهمه ، وكان لا بد لى من أن أستقر على افتراض يرتاح اليه عقلى ، وهكذا وجدتنى أعتقد (لا أدري كيف تم ذلك) أنه متى ماتت أمى فسيترك أبى هذا البيت الحقير ، ويمضى بى الى مكان آخر • أما أين يكون ذلك المكان ، فذلك ما لم أستطع أن أتخيله واضحا الى آخر لحظة • والذكرى الوحيدة التى بقيت لى عن المكان الذى سيمضى اليه (وكنا سيمضى اليه من أجلى أنا طبعا) هو أنه سيكون مكانا رائعا فخما عظيما • لقد خلقت من أحلامي الخيالية واقعا حيا • وتراعى لى اننا سنصبح أغنياء فى طرفة عين ، فما احتاج أن أذهب الى شراء بعض

الحاجات من الدكاكين ، وكان هذا العمل كريها جدا الى نفسى ، فقد كان أولاد البيت المجاور يتحرشون بى كلما خرجت ، وكنت أخشاهم خاصة حين أحمل قليلا من الحليب أو الزبدة ، فأسقط ما أحمل على الأرض ، وأتعرض لعقاب أمى القاسى . وتراوى لى أن أبى سيشتري لنفسه ثيابا جميلة . وتخيلت أننا سنمضى بعد ذلك الى البيت الذى يقابل بيتنا ، فنقيم فيه . نعم ، ان البيت الغنى ذا الستائر الحمر الذى رفعت أبى أمام نوافذه ذات يوم من أجل أن يرى ما بداخله ، قد هباً كذلك لنجدة خيالى . وحللت المسألة على الفور : سيكون هذا البيت بيتنا ، وسنمكث فى حناياه فى عيد دائم ، فى سعادة أبدية . ومنذ تلك اللحظة صرت اذا جاء المساء أقف على نافذة بيتنا أتأمل القصر المسحور فى شوق ما بعده شوق : فأرى وصول العربات ، وأرى الزوار فى أجمل الحلى ، وأسمع أصوات موسيقى عذبة تخرج من خلال النوافذ ، وأتأمل الفلال التى تتخاطر على الستائر ، وأحاول أن أحرز ما يعمله الناس فى هذا البيت الذى كان فى نظرى جنة ، وعيدا أبديا ، وصرت أحتقر مسكننا الوضع ، وأحتقر الخرق البالية التى أرتديها .



وذات يوم غضبت أمى فأمرتنى أن أنزل عن النافذة ، حيث أطلق لأحلامى اللان على عادتى . فما لبثت أن اعتقدت أن أمى انما تمننى من التفكير فى هذا البيت ومن النظر اليه لأن مستقبلنا لا يحلو لها ، ولأنها تريد أن تحول بيننا وبينه . وظللت طوال السهرة أرقب أمى بحذر . كيف أمكن أن أكون فى مثل هذه القسوة على انسان لقى من العذاب الأبدى ما لقيت أمى ؟ اليوم فقط أصبحت أدرك انها كانت تعيش فى جحيم ، اليوم فقط أدرك ، وقلبى يتمزق من الأمى ، أنها شهيدة . على اننى فى تلك الفترة القاتمة من طفولتى الغريبة ، فى تلك الفترة من

حياتى التى كنت انمو فيها نموا غير طبيعى ، كثيرا ما كان ينقبض صدرى
الما ورحمه ، كثيرا ما كان يثور ضميرى كلما تراءى لى اننى اظلم امى •
الا ان القلق والخوف والريرة ظلت اقوى من كل شىء اخر • والحق
اننا كنا بعيدين احدانا عن الاخرى • فلست اذكر اننى تمنيت فى يوم
من الايام ان اخلو بها • لذلك كانت آية ذكرى من ذكرياتى تسمم الان
نفسى وتجعلنى ارتعد من شدة الألم •

أذكر مرة (ولا شك أن ما سأرويه أمر مبتذل ، الا أن ذكريات
من هذا النوع هى التى تعاودنى الان وتعضبنى) أن أمى أرادت ذات
مساء ، اثناء غياب أبى ، ان ترسلنى الى الدكان اشترى لها قليلا من الشاى
والسكر • ولكنها قبل أن ترسلنى فكرت طويلا ، ولم تعزم أمرها ،
وجعلت تمد ، بصوت عال ، المبلغ الضئيل الذى كانت تملكه قطعاً نقدية
صغيرة • اعتقد أنها ظلت تمد هذا المبلغ خلال نصف ساعة كاملة دون أن
تفرغ من ذلك • لقد كانت المسكينة تصاب فى بعض اللحظات بنوع من
التبدد ، نتيجة لما كانت تقاسيه من آلام • واذا صدقت ذاكرتى ، فقد
تمتت أمى لا أدري بماذا ، دون أن تكف عن عد دراهمها ببطء وعناية
كبيرة • كأن الكلمات كانت لاتوافيها • وكانت شفتها دكناوين ، ووجتها
كابيتين مكفهرتين ، ويدها مرتجفتين ، وكانت لا تنى تهز رأسها ، على
عادتها حين تتخذ قرارا •

وأخيرا قالت وهى تنظر الى : • كلا • • • مستحيل • • • خير لى أن أنام
• • • أليس كذلك ؟ هل تحين أن تنامى يا نيتوتشسكا ؟ • • • ولم أجب •
عندئذ رفعت أمى رأسى ، ونظرت الى فى رفق ولطف وحب ، وأشرقت
فى وجهها ابتسامة صافية تفيض بحنان الأم ، فما رأييتى الا وقلبي يخفق •

لقد نادتنى بقولها نيتوتشكا ، وهذا يشير الى انها فى تلك اللحظة أحبتنى
حبا خاصا . كانت هى التى تخيلت فيما مضى ان تغير اسمى ، وهو أنا ،
فتنادينى بهذا الاسم المصغر الذى يشير الى الحب ، وحين كانت تنادينى بهذا
الاسم المصغر كان ذلك يعنى أنها على استعداد لأن تلاطفنى وتداعبنى .
وانفعلت انفعالا قويا حتى اشتبهت أن أطوق عنقها بذراعى ، وأن أشاركها
البكاء .

وداعبت رأسى طويلا ، ولعلها فعلت ذلك على نحو آلى دون أن
تشعر ، وظلت تكرر : « صغيرتى انا ، حبيبتى نيتوتشكا » . وتفجرت من
عيني الدموع ، الا اننى تجلدت لأحبسها . كابررت جهدى حتى لأدعها
ترى انفعالى ، رغم ما يسبب ذلك لى من ألم .

كلا ! لا يمكن أن يكون هذا مجرد قسوة منى . لا يمكن أن أشعر
نحو أمى بالعداوة لمجرد قسوتها على ! لقد كان يدفعنى الى كرهاها هذا
الحب الموحّد الشديد الذى اشعر به نحو أبى . لقد كان يتفق لى ، فى
بعض الأحيان ، أن أستيقظ من نومى ليلا ، فى الركن الذى أنا فيه ، على
حصيرتى البصيرة ، تحت غطاءى الرقيق ، وقد تملكنى شعور مخيف .
كنت ما زلت أتذكر فى ذلك الحين ، وأنا شبه نائمة ، اننى قبل هذه
المدة بقليل ، كنت أناام مع أمى ، وكنت أقل خوفا حين أستيقظ ، وكان
يكفينى أن أشد نفسى اليها ، وأن أغمض جفنى ، وأن أعانقها بقوة ، حتى
أناام على الفور . ثم لقد كنت أشعر اننى ، رغم كل شئ ، لا أستطيع أن
أمنع نفسى عن حب أمى فى السر . وأدركت بعد ذلك أن كئسيرا من
الاطفال قد يفقدون مشاعر الرحمة فقداناً رهيباً ، وأنهم اذا أحبوا شخصا
أحبوه وحده ولم يعاؤا بمن عداه . فكذلك كانت حالى أنا .

وكان يسطر على منزلنا الحقيق ، فى بعض الأحيان ، صمت رهيب

يدوم اسابيع برمتها ، وذلك حين يسام أبى وأمى مشاجراتهما . كنت أعيش بينهما حياتى كلها دون ان انبس بكلمة ، غارقة فى افكارى وحزنى ، ساعيه وراء خيالات أحلامى . وكنت ، لفرط ما تأملتهما ، افهم ما يكن كل منهما للآخر ، وأفهم هذا البفض الاصم المستمر الذى يرين بينهما ، وافهم هذه الحياة الفاسدة التى يعيشانها فى كوخنا الحقيق .

وطيى ان أفسر ذلك كله على النحو الذى أستطيعه ، ما دمت أجهل أسبابه ولا اعرف نتائجه . لقد كان يتفق لى خلال سهرات الشتاء الطويلة أن أظل قابضة فى ركنى ساعات كاملة أتأملهما . وكنت أحاول وأنا أطوّف بصرى فى وجه أبى ان أحزر ما يفكر فيه ، وما يشغل باله . وكان وضع أمى يدهشنى فى بعض الاحيان ادهاشا يبلغ حد الفزع : كانت تسير فى الغرفة جيئة وذهابا خلال وقت لا ينتهى ، وكان يتفق لها ذلك حتى فى الليل ، حين يمضها الارق ، فكانت تدندن وتشير يديها كأنها وحدها لا يراها أحد ، فهى تارة تضع يديها على صدرها ، وتارة تعضهما وقد تملكها بأس رهيب ، وتارة تجرى دموعها على وجهها ، ربما دون أن تعلم لذلك سببا ، فقد كانت تفقد وعيها فى بعض الاحيان . لقد كانت تعاني مرضا خطيرا أهملته ايمالا تاما .

وازدادت وطأة وحدتى وصمتى حتى أصبحت لا أجرو على أن أخرج منهما . وانقضت سنة كاملة على تيقظ شعورى ، وعلى استرسالى فى التأملات والاحلام ، وعلى تمزقى صامتة بين مطامح غامضة نشأت فى بقتة . وأصبحت متوحشة كأنما أنا عشت فى وسط غابة . وأخيرا اتبه أبى الى وضعى هذا ، فاستدعانى وسألنى لماذا أهدق فيه كل هذا التحديق . ولا أدري الآن بم أجبته . الا أنه ، بعد لحظة من تفكير ، وعدنى ، وهو يداعب يدى ، أن يحضر لى كتاب الابدجيدية فى الغد ، وأن يعلمنى القراءة .

وانتظرت هذا الكتاب بفارغ صبر ، وحلمت به الليل كله ، دون أن أدرك ما هى الابدئية على وجه الدقة . وفى اليوم التالى بدا أبى يعلمنى القراءة . وفهمت ما يطلب الىّ فى طرفة عين ، وتقدمت فى دروسى بخطى سريعة ، لعلمى أن ذلك يسر أبى ، وكانت تلك أسعد مرحلة فى طفولتى البائسة . وحين كان أبى يثنى على سرعة فهمى ، ويداعب رأسى ويقبلنى ، كنت أطفق أبكى من شدة الفرح .

وازداد أبى حبا لى شيئا بعد شيء . وأصبحت أجرو على أن أكلمه ، وأصبحنا كثيرا ما نمضى نثرثر معا ساعات طويلا . وكان يتفق لى أن لا أفهم شيئا مما يقول ، ولكننى كنت أظاهر بفهم كل شيء ، خشية أن يظن أبى اننى أضيع بحديثه . واعتاد أن يقضى السهرة معى ، فأصبح يعود الى البيت عند الغروب ، فما ان يصل حتى أحمل أجديتى وألحق به ، فيجلسنى أمامه على المقعد ، حتى اذا فرغنا من الدرس أخذ يقرأ لى بصوت عال . وكنت لا أفهم شيئا مما يقرأ . الا اننى أضحك دون انقطاع ، لاعتقائى بأن ذلك يسره سرورا عظيما . ولم أكن مخطئة فى اعتقادى ذلك : فقد أولع بى حقا ، وكان يفرحه أن يسمعنى مفرقة فى الضحك . وفى ذات مساء ، فص على ، بعد الدرس ، حكاية من حكايات الجن . كانت تلك أول حكاية أسمعها . وغمرتنى هذه الحكاية بفيض من الفتنه والسحر . على أن خيالى لم يكن فى حاجة الى مثلها ليفتن ويسحر . كل ما فى الأمر اننى تقبلت الآن هذه الحكاية على انها جسد ، وخلقت من الوهم واقعا . فاذا البيت ذو الستائر الحمراء يترامى لى ، لا أدري كيف ، واذا الشخصية الاساسية فى الحكاية تتقمص أبى وهو يقص علىّ الحكاية ، واذا أمى تظهر لتحول بيننا وبين السفر لا أدري الى أين ، واذا أنا أعيش مع أحلامي الرائعة وقد حم رأسى وغلى برؤاه العجيبة المستحيلة . وتداخل

هذا كله وتشابك ، ثم لم يلبث أن كون سديما لاشكل له ، سديما جعلنى ،
خلال مدة من الوقت ، افقد صوابى وأفقد شعورى بالواقع ، واعيش بين
السحب •

وأحرقتنى رغبة قوية فى أن أسأل أبى عما يخبئه لنا المستقبل ، عما
ينتظر هو نفسه ، عن الامكنة التى سيفودنى إليها ، عن الموعد الذى سنترك
فيه بيتنا الحقيق • كنت واثقة من جهتى ، ان هذا كله لن يتأخر كثيرا ،
ولكن كيف وعلى أية صورة ؟ عبتا حاولت أن أبحث عن جواب على هذا
السؤال المرهق • وكان يترامى لى فى بعض اللحظات ، ولا سيما أثناء
السهرة ، ان أبى سيطلب الى فجأة ، بحركة خفية ، أن أمضى الى الممر ،
فاذا انا أنهض خلصة ، دون أن تلاحظ أمى ذلك ، فأتناول أبجديتى
عابرة ، واتابط اللوحة (وهى صورة مطبوعة لا قيمة لها كانت متدلية على
جدار الغرفة بدون اطار منذ زمن لا أول له ، وكنت قد عزمت على أن
أحملها معى) ، ثم نمضى دون أن نحدث ضجة ، نمضى الى غير رجعة ،
لا الى البيت ولا الى أمى • وذات مرة ، لم تكن أمى فى البيت ، فأردت
انتهاز لحظة رأيت أبى فيها فرحا جدا (يتفق له ذلك بعد أن يحسنى قليلا
من الشراب) ، فاقتربت منه لأدير الحديث حول هذا الموضوع الحبيب
الىّ ، وسرعان ماظفرت باضحائه • عندئذ أحطت عنقه بذراعى ، وشددت
نفسى بقوة اليه ، ورحت أسأله (وقد أخذ قلبى يخفق من شدة الخوف
مما سأقوله من أمور سرية رهيبة) رحمت أسأله فى متممة وفى كلام
متهدج ، عن المكان الذى ستمضى اليه ، وعن موعد السفر أهو قريب ،
وعما سنحمله معنا ، وعن حياتنا كيف ستكون ، وعن البيت ذى الستائر
الحمراء هل نسكنه ؟

— أى بيت ؟ أى ستائر حمراء ؟ ماذا تقولين أيتها الجمقاء الصغيرة ؟
وشعرت برعب لم أشعر به من قبل ، وأخذت أشرح له اننا لن نبقى

هنا فى هذا البيت الحقيق بعد موت أمى ، وانه سيأخذنى بعد موتها الى مكان آخر نعيش فيه سعيدين ، غنيين • وأكدت له أخيرا أنه هو الذى وعدنى بذلك • وكنت على يقين ، وأنا أقول له هذا الكلام ، من أن أبى قد حدثنى عن هذه الاشياء ، أو اننى قدرتها تقديرا على الأقل •

وأردف أبى يقول :

— أملك ؟ تموت ؟ حين تموت ؟ ماذا تقولين أيتها البلهاء الصغيرة البائسة ؟

قال ذلك وهو ينظر الىّ مشدوها ، مقطبا ما بين حاجبيه الكثيفين المبيضين ، مكفهر الوجه على حين فجأة •

ثم وبخنى ، وظل مدة طويلة يقرعنى ويقول اننى طفلة بلهاء لا أستطيع أن أفهم شيئا •

لست أتذكر الآن ألفاظ التأييب التى صلبها على رأسى ، ولكن استياءه كان شديدا جدا •

على أننى لم أفهم قوله ، ولا فهمت هذا الحزن الذى شعر به حين أدرك اننى أصفيت الى كلامه وترجمت الى لغتى الخاصة عبارات البغض التى كان يكيلها لأمى •

ومهما يكن من أمر سلوكه حينذاك ، ومهما تكن آراؤه الشخصية السيئة فى أمى ، فمما لا شك فيه أن كلامى قد شده • أما أنا فأننى لم أستطع أن أفهم غضبه ، وشعرت بحزن مر ، وانفجرت باكية ، واعتقدت أن ما ينتظرنا هو من الخطورة بحيث لا يجوز لى ، أنا الطفلة الغبية ، أن أتحدث عنه ولا أن أفكر فيه • على اننى ان لم أفهم شيئا من غضب أبى ، فقد شعرت اننى أهنت أمى ، ولو شعورا غامضا مبهما ، حتى أن الخوف

والارتياح بلغا منى مبلغا جعل الشك ينشب اظافره فى أعماق نفسى • وحين
رأيت أبى باكية معذبة ، اخذ يواسينى ، ومسح دموعى بكفه ، وأمرنى
أن اكف عن البكاء • وبقينا بعد ذلك جالسين مدة من الزمن صامتين ،
وكان باديا على وجه أبى انه يفكر منقبض الاسارير • ثم اخذ يتكلم من
جديد ، الا ان كل ما قاله بدا لى غير واضح ، رغم ما حاولته من تركيز
انتباهى ؛ والكلمات القليلة التى بقيت فى ذاكرتى الى الان من حديثه
تجملنى أستنتج أنه يتحدث عن مواهبه العظيمة ، عن كونه فنانا كبيرا ، عن
أن الناس لا يفهمونه ، الفخ • وما زلت أذكر انه سألنى هل أفهم ما يقول ،
فلما أجبته بما يرضيه حملنى على ان اكرر على مسامعه أنه موهوب فقلت
« موهوب » • • وكاد يتسهم لدى سماعه هذه الكلمة ، ولعله ابتسم لانه
رأى من المضحك أن يتحدث معى فى موضوع خطير فى نظره الى هذا
الحد • وانقطعت محادثاتنا بوصول كارل فيودوروفتش • فما لبثت أن استعدت
مرحى وأخذت أضحك ، حين قال لى أبى مشيراً اليه :

— هل ترين ؟ هذا كارل فيودوروفتش ! انه لا يملك ذرة من
موهبة !

كان كارل فيودوروفتش انسانا عجيبا • مازلت أتخيله كأننى رأيته
بالامس • (ولا عجب ، فان الناس الذين عرفتهم فى حياتى حتى ذلك
الحين كانوا قلة) • وكان الرجل ألمانيا ، أتى الى روسيا تهزه رغبة شديدة
فى الانتساب الى هيئة البالية ببطرسبرج • الا أن رقصه كان من الرداءة
بحيث لم يمكن أن يسند اليه فى الفرقة أى دور مهما يكن ثانويا ، على
انهم كانوا يستخدمونه أحيانا فى بعض الادوار الجماعية ، مع فرسان
فيرون مثلاً ، الذين يبلغ عددهم العشرين ويجب عليهم أن يصرخوا معا
فى لحظة من اللحظات هاتفين وفى أيديهم خناجر من ورق مقوى :

« نمت فى سبيل الملك » . ولكن لا شك فى انه ليس على وجه الارض
ممثلا واحدا بلغ شغفه بدوره مثلما بلغ شغف كارل فيودروفتش بدوره !

على أن أقطع تعاسة فى حياته كلها هى انه لم يستطع أن ينخرط
فى هيئة الباليه . كان يعتقد ان فن الرقص يفوق جميع فنون الدنيا ، وهو
من هذه الناحية يحرص على فنه حرص أبى على كمانه . وقد تصادق
الرجلان حين كانا يعملان معا فى المسرح . ومنذ ذلك الحين لم يدع هذا
الممثل البسيط أبى أبدا . فكانا يلتقيان فى كثير من الاحيان ، يتفجعا معا
على حياتهما المحطمة ، ويشكوان غدر البشر . ولقد كان هذا الالماني أكثر
الناس عاطفية ، فكان يحمل لأبى أعنف مشاعر الصداقة وأخلصها . الا
ان أبى لم يكن يقدره كثيرا ، وانما يحتمله لانه لم يكن له صديق غيره
فى ذلك الحين . ثم ان أبى كان يرفض ، لتعصبه ، أن يسلم بأن الرقص
فن من الفنون . وكان ذلك يجرح كبرياء الالماني المسكين الى حد البكاء .
فما يكاد هذا البائس يتحمس للرقص حتى يأخذ أبى يسخر منه ، ويهزأ
بفنه ، فيعس بذلك وترا حساسا فيه . ولقد سمعت « ب » فيما بعد يتحدث
كثيرا عن كارل فيودروفتش هذا ، وقد روى لى كثيرا من التفاصيل عن
صداقة هذين الشخصين اللذين لم يخلق أحدهما للآخر ، واللذين كانا
إذا احتسيا قليلا من الخمر معا ، يذرفان الدموع على حفظهما العائر وعلى
ان الناس لا يفهمونها !

و كنت اذا رأيتهما يبكيان آخذ فى الشهيق والنحيب ، أنا ايضا ،
دون سبب يدعو الى ذلك . وكان ذلك يقع فى غياب أمى دائما . لقد
كان الالماني يخافها خوفا كبيرا ، حتى أنه كان اذا جاء قبع فى الممر مدة ،
الى أن يخرج أحدهما فاذا علم ان أمى موجودة فى البيت ، طار له من
الخوف وهرب يتدحرج على السلم بسرعة . وكان يأتينا دائما بقصائد

ألمانية تنال أعجابه ، وتثير حماسه ، فيأخذ ينشدنا اياها بصوت عال ، ثم يترجمها الى الروسية ترجمة خرقاء لفهمها . وكان ذلك يفرح ابى كثيرا ، ويجعلنى أضحك فى بعض الاحيان ضحكا قويا . وفى ذات مرة وقع بين أيديهما كتاب روسى أعجبا به كلاهما أيما اعجاب بل افتنا به افتنا ، حتى انهما كانا كلما وقعا عليه بعد ذلك يعيدان قراءته . وكان هذا الكتاب ، فيما أذكر ، درامة شعرية لمؤلف روسى شهير . وقد رسخت الأبيات الأولى من هذه الدرامة فى ذاكرتى رسوخا قويا ، حتى اننى بعد انقضاء سنين كثيرة على ذلك صرت كلما وقع هذا الكتاب بين يدى مصادفة أتعرف عليه بلا عناء . وكانت هذه الدرامة تدور حول رسام كبير ، يدعى « جرينارو أو لاكوبو » ، يشكو حظه الشقى ويصرخ فيما يصرخ قائلا : « ان الناس لا يعرفون قيمتى » ، ثم يصرخ فى موضع آخر قائلا : « ان الناس يعرفون قدرى » ، وفى موضع يقول : « ليس لى من موهبة » ، وفى موضع آخر يقول : « ان لى مواهب عظيمة » . وخاتمة الدرامة محزنة . لاشك أن هذا الكتاب ليس له من قيمة . غير أنه - وتلك هى المعجزة - كان يفعل فعل السحر فى هذين القارئين اللذين يجدان بينهما وبين بطله الرئيسى صفات مشتركة كثيرة . وكان كارل فيودوروفتش يبلغ من الانفعال انه يقفز من مكانه ، ويعتدو الى الطرف الآخر من الغرفة ، ثم يتجه الى (وكان ينادينى « مادموازيل ») والى أبى ، متوسلا إلنا ، وقد تفجر الدمع من عينيه ، أن نكون جمهورا له نرى رقصه ونحكم عليه . ثم يأخذ يقوم بأنواع شتى من خطوات الرقص ، صارخا فينا أن نعلن رأيانا فى رقصه صراحة : أهو فنان أم لا ؟ هل يستطيع أحد أن يزعم أنه ليس بموهوب ؟ وكان أبى فى مثل هذه الأحوال يأخذة مرح مبالغ ، ويومئ الى بعينه خلسة أنه سيسخر من الالماني ، وأن الامر سيكون مضحكا جدا . وكانت تتنابنى رغبة فى الضحك مجنونة ، حتى يشير ابى

الى بيده مهددا ، فأمسك عن الضحك • ومازلت حتى الآن لا أستطيع أن أتذكر هذه المشاهد دون أن أضحك • ومازلت أرى المسكين كارل فيودوروفتش كأنه أمامي : انه قصير القامة ، نحيل مفرط في النحول ، مبيض الشعر ، انفه كبير أحمر أشبه بمنقار الغرباب ، اما ساقاه فمقوستان تقوسا بشما جدا ولكنه كان يتباهى بشكلهما الجميل ، حتى لقد كان يرتدى سروالا ضيقا يلتصق بهما ابرازا لفاتنهما • وحين كان يتجمد على حركة أخيرة ، باسطة يديه نحونا ، مبتسما ابتسامة الراقصين على المسرح حين يفرغون من احدى رقصاتهم ، كان أبى يظل صامتا لحظة من الزمن ، كأنه عزم على ان لا يعلن رأيه • الا أنه كان يفعل ذلك عمدا ليدع الراقص في وضعه ذاك ، مترنحا على قدميه ، جاهدا أن يحافظ على توازنه في كثير من العناء • وأخيرا يلتفت أبى الى في هيئة رزينة رصينة ، كأنما يدعوني أن أكون شاهدا على حكمه الصادق الذي لا تحيز فيه ، وتلك هي اللحظة التي كان فيها الراقص يثبت بصره فيّ أنا أيضا ، وقد فاضت عيناه بمعاني الحياء والتوسل ، واخيرا يقول له أبى ، متظاهرا بالاستياء من الاعتراف بالحقيقة المرة :

— كلا ، ياكارل فيودوروفتش • لم تتقنها بعد !

وعندئذ يطلق كارل فيودوروفتش من أعماق صدره آهة حرى ، الا أنه يتجلد ، ثم يطلب الينا بحركات سريعة ان ننتبه اليه مرة أخرى ، زاعما ان الحظ لم يحالفه في المرة الأولى ، متوسلا ان نصبر عليه ونصدر حكما في هذه المرة الجديدة • ثم يركض من جديد الى الطرف الآخر من الغرفة • وكان في بعض الاحيان لفرط حماسه يبلغ من شدة الوثب ان رأسه يصطدم بالسقف ، فيحدث له ألما شديدا جدا ، الا انه كان يحتمل الألم ببطولة ، كاسبارطى ، ثم يتجمد مرة أخرى في وضع من الاوضاع ، مبتسما ، مادا يديه نحونا ، طالبا أن نصدر رأينا في رقصته هذه المرة •

ولكن أبى كان لا يعرف الرخمة ، فكان يجيب بنفس اللهجة الساخرة
التي أجاب بها فى المرة الأولى ويقول :

ـ كلا ، يا كارل فيودوروفتش ، لم تحسنها بعد ، رغم كل ما عملت !
و كنت عندئذ لا أستطيع ان أضبط نفسى ، فأطلقها فقهقهة مجلجلة
يرد عليها أبى بفقهقهة مثلها ، ويشعر كارل فيودوروفتش فجأة أننا انما
نسخر منه ، فيحمر وجهه خجلا ، ويقول لآبى وقد فاضت عيناه بالدموع
وسرت فى لهجته عاطفة عميقة مضحكة فى آن واحد ، عاطفة كانت
تحملنى بعد ذلك على أن أرتى لحاله :

ـ انك لست بصديق •

ثم يتناول قبعته ، ويهرب وهو يقسم أغلظ الايمان انه لن يعود
أبدا • الا أن هذا النوع من المخاصمات لم يكن يدوم طويلا ، فاذا
بصاحبنا يعود بعد بضعة أيام ، واذا بالصديقين يستأنفان قراءة تلك الدراما
التي يحبّانها ، واذا بالدموع تترقرق من جديد ، واذا الساذج كارل
فيودوروفتش يطلب إلينا أن نكون حكما بين مواهبه وبين الجمهور ، ولكن
بعد أن يتوسل إلينا أن نكون جادين فى الحكم ، كما يليق بأصدقاء مخلصين
بدلا من أن نسخر منه •

وفى ذات مرة أرسلتنى أمى الى الدكان اشترى لها شيئا من الأشياء ،
وعدت ممسكةً بالنقود الصغيرة التي ردها لى البائع ، فلقيت أبى هابطا على
السلم ، فابتسمت له كما كنت أبتسم كلما لقيته ، وكنت فى الواقع أصحز
من ان لا أبتسم له • الا أنه وقد انحنى علىّ يريد تقبيلى ، لمح النقود التي
أقبض عليها بيدي - (نسيت أن اذكر اننى تعودت ان اقرأ فى وجهه ما
ينور فى خلدّه ، حتى أصبحت ادرك رغبته من أول نظرة • وكنت اذا

رأيت حزيننا ينهشنى الالم نهشا • وكان حزنه يزداد حين تفرغ يده من الدراهم فراغا تاما ، فما يستطيع أن يحشى قليلا من الخمر ، بعد أن أصبح الكحول حاجة لا يستغنى عنها) - فى تلك اللحظة التى لقيته فيها على السلم لاحظت ان به شيئا خاصا • كانت نظراته قاسية ، وكانت عيناه متجمدتين ، حتى أنه لم يرنى فى اللحظة الأولى • الا انه حين رأى النقود البراقة التى أمسكها بيدي ، احمر وجهه فجأة ، ثم شحب ، ثم مد يده ليأخذها ، ثم ما لبث ان كبح حركته هذه • واضح ان صراعا قام فى نفسه • وكأنما سيطر أخيرا على نفسه ، فأمرنى أن أضع • وهبط هو بضع درجات على السلم ، الا انه توقف بعد ذلك فجأة ، ونادانى •

لقد كان فى حالة انزعاج فظيع •

- اسمعى يا نيتوتشكا • أعطينى هذه النقود • وسأردها اليك فيما بعد • ستعطين اباك هذه النقود يانيتوتشكا ، اليس كذلك ؟ انك ابنة طيبة ، اليس كذلك يا نيتوتشكا ؟

كنت كأنما أوجست أنه سيفعل ذلك • الا أن صورة الغضب الذى متصبه أمى على رأسى ، وخوفى ، ولاسيما خجلى عليه وعلى نفسى ، كل هذا صدنى عن ان أمد اليه المال • ولاحظ هو ذلك فورا فبادر الى القول :

- على كل حال ، لا داعى ، لا داعى ••

- بل خذ يا بابا ، سأقول لأمى اننى أضعته ، سأقول ان أبناء الجيران اختطفوه !

- حسنا ، حسنا • كنت أعرف ذلك ، أعرف انك ابنة طيبة ذكية •

قال ذلك ، دون ان يكتف فرحه حين أحس بالدراهم فى يده ، وعادت الابتسامة الى شفتيه المرتعشتين ، وأضاف :

— انك ابنة صغيرة رائعة ، أنت ملاك صغير • أنت ملاكى الصغير ،
هات يدك الصغيرة ••

وتناول يدى يريد تقييلها ، غير اننى انتزعتهما منه بقوة • واجتاحنى
شعور غريب بالشفقة يمازجه شعور بالخجل والعار أخذ يعذبني ! •••
فترلت ابى دون أن استأذنه ، وركضت ركضا حتى بلغت باب البيت ،
كانما يدفعنى الخوف دفعا • ودخلت وقد تملكتنى ذعر ميجنون • كان خدائى
كأنهما من جمر ، وكان قلبى يخفق خفقانا عنيفا • لم يكن شئ من هذا
قد وقع لى قبل الآن • ومع ذلك زعمت لأمى ، بجرأة ، أن القطعة النقدية
سقطت من يدى فى الثلج فلم أستطع أن أجدها • وكنت أتوقع أن تضربنى ،
ولكنها لم تضربنى رغم انها استاءت استياء شديدا أخرجها عن طورها فى
أول الأمر ، لشعورها بفقرنا الفظيع ، فأخذت تفرغنى وتؤنبني ، لكنها
ما لبثت أن استعادت رباطة جأشها ، واكتفت بأن تلومنى على اهمالى ،
وقالت اننى لو كنت أحبها حقاً لعرفت كيف أحافظ على دراهمها • وآلمتنى
هذه الملاحظة أكثر من الضرب • لقد كانت أمى تعرفنى حق المعرفة ،
فلاحظت أن حساسيتى أصبحت مرهفة الى حد مرضى ، وانها ان لامتنى
على هذا النحو المرير ، وانهمتى بأننى لا أحبها ، كان ذلك أوقع فى
نفسى ، وأولى بأن يجعلنى فى المستقبل أكثر تيقظا وانتباها •

وعند هبوط الليل ، فى الساعة التى يعود فيها أبى الى البيت ،
مضيت الى الممر أنتظره على عادتى • كنت فى هذه المرة مضطربة أشد
الاضطراب • كانت الندامة تملأ كيانى كله ، وتقلقنى أعنف القلق • وعاد
أبى أخيرا ، فسررت بعودته سرورا كبيرا ، كأنما هو يحمل الى العزاء
والسلوى • وكان تملأ بعض الشئ ، فقد نظر الى حين رآنى نظرة حائرة
وغريبة فى آن واحد ، وبعد أن قادنى الى ركن من الممر ألقى على باب

الغرفة نظرات خائفة ، وأخرج من جيبه قطعة من الحلوى اشتراها لي ،
ثم حذرني من أن أسرق بعد الآن شيئا من نقود أمي ، قائلا ان هذا أمر
سيئ ، معيب . وأضاف ان هذا حدث في هذه المرة لأن بابا كان في حاجة
ماسة الى بضعة دراهم ، وان بابا سعيد هذه الدراهم ذات يوم ، وانني
أستطيع يومئذ أن أقول لأمي انني وجدت ما أضعته ، وأن سرقة الدراهم
من ماما شيء فظيع ، ينبغي أن لا أعود اليه قط ، بل أضاف انه سينتبه الى
هذا الامر بعد الان ، وانني ان أعطته فسوف يأتي بي بحلوى أخرى . بل
ذهب الى أهد من ذلك وقال ان عليّ أن أرني لحال أمي ، المريضة ،
البائسة ، التي تعمل وحدها لتطعمنا نحن الثلاثة . واستمعت الى كلام
أبي ، وأنا أرتجف من الخوف ، وقد فاضت دموعي . بلغ انفعالي من
القوة أنني لم أستطع أن أجيء ولا أن أتحرك . ثم دخل البيت بعد أن
أمرني بأن لا أبكي وبأن لا أذكر شيئا مما حدث . ولاحظت عندئذ أنه كان
في حالة انزعاج هائل ، هو الآخر . وقضيت السهرة كلها فزعة ، كأنما
أنا أترقب خطرا كبيرا ، ولأول مرة لم أجرؤ على أن أنظر الى أبي ، وعلى
أن أقرب منه . وكانت أمي تسير في الغرفة جيئة وذهابا ، وتحدث نفسها
كأنها غائبة عن وعيها ، على عادتها . كانت وطأة المرض عليها في ذلك
اليوم أقسى ، كانت تعاني نوبة حادة من الوجاع . وأخيرا اتابنتي حمي
من شدة الانفعال الاصم الذي كنت أكابده . وحين أظلمت الغرفة لم أستطع
أن أنام ، وهاجمتني أحلام مزعجة مخيفة ، فأخذت أشهق باكية .
واستيقظت أمي على أصوات شهيق ، فنادتني اليها وسألتني عما بي . وبدلا
من أن أجيء ، ازداد شهيقى قوة . عندئذ أشعلت أمي الشمعة ، واقتربت
منى تحاول تهدئتي ، لاعتقادها بأن حلما أفرعني ، وأخذت تقول : « كفى
كفى ، أيتها الحمقاء . أتبين بسبب حلم ؟ كفى ، كفى . » ثم قبلتني
وأرادت أن تأخذني الى سريرها أنام الى جانبها . ولكنني رفضت . لم

أستطع أن أضع ذراعى على عنقها ، ولا أن أتبعها • كان عذابي يتجاوز كل الحدود ، وودت لو أعترف لها بالحقيقة ، وما كنت لأستطيع أن أمسك عن ذلك ، لولا اننى تذكرت أبى ، وتذكرت أنه حذرني من افشاء السر !

وقالت أمى ، وهى ترتب سريري وتغطيني بمعطفها العتيق ، اذ لاحظت اننى أرتعش من الحمى :

— مسكينة أنت يانيتوتشكا ! أعتقد أنك مريضة مثل أمك •

ثم تأملتني بحزن شديد فلم أملك أن أحتمل نظرتها ، فأغمضت عيني ، واستدردت الى جهة الحائط • لا أدري متى نمت ، الا أن صورة أمى المسكينة وهى تكلمنى ظلت ماثلة أمامي وأنا بين النوم واليقظة • لم أكن شعرت قبل ذلك بألم ثقیل الى هذا الحد • كان صدري منقبضا انقباضا خائفا ، الا اننى شعرت بتحسن فى صباح اليوم التالى ، وأخذت أتحدث مع أبى دون أن أشير الى حوادث الامس ، لشعورى بأن اشارة كهذه لن تسره • وما لبث أن انبسطت أساريه ، فقد كان هو الآخر ينظر الى فى قلق أصم ، حتى اذا رآنى مسرورة ، عاد اليه صفاؤه بل عاد اليه مرح ساذج • وبعد قليل ، خرجت أمى من البيت فلم يستطع أبى أن يكبح جماح نفسه فأخذ يقبلنى بقوة حتى كدت أجن من شدة الفرح ، فصرت أبكى وأضحك فى آن واحد ! • ثم أخبرنى أنه ، مكافأة على اننى كنت ابنة طيبة عاقلة ، سيربنى شيئا جميلا جدا ، شيئا يسرنى كثيرا أن أراه • ثم فك أزرار سترته فأخرج مفتاحا صغيرا كان معلقا على رقبته بخيط أسود ، وألقى على نظرة غريبة كأنما يريد أن يقرأ فى عيني السرور الذى كان لا بد — فى رأيه — أن أشعر به • وفتح الصندوق فأخرج منه فى كثير من الحذر ، علبة سوداء ذات شكل غريب ، لم أرها قبل ذلك

أبدا • ولمس العلبة بنوع من الرهبة غير مألوف فيه ، وامحت الابتسامة من وجهه ليحل محلها فجأة مظهر الرصانة والجلال • وأخيرا فتح العلبة الغريبة بالمفتاح ، وأخرج منها شيئا غريب الشكل لم أره قبل ذلك أيضا • وتناول الشيء بيديه فى عناية أشبه بالاجلال قائلا : ان هذا هو كمانه • ثم حدثنى بصوت خافت رصين حديثا لم أسمعهم • والشيء الوحيد الذى بقى فى ذهنى هو ما كنت أعرفه من قبل من أن أبى فنان ، ومن انه موهوب ، ومن انه سيمزف على كمانه فى يوم من الايام - بعد هذا اليوم أو قرب - ومن اننا سنصبح يومئذ أغنياء نعيش حياة سعيدة رخيصة لا يكدرها شيء • وسالت دموع أبى على خديه ، وتملكنى أنا انفعال شديد ، وأخيرا طبع على كمانه قبلة رقيقة ثم مده الى لأفعل مثلما فعل • ثم لاحظت اننى أتمنى لو أرى الآلة عن كتيب ، فأجلسنى على سرير أمى ، ووضع الآلة بين يدي • الا اننى شعرت أنه كان يرتجف خوفا على الآلة أن أكسرها ، ومع ذلك نقرت على الاوتار نقرأ خفيفا ، فأخرجت صوتا ضعيفا ، فرفعت نظرى الى أبى قائلة :

- هذه موسيقى ••

فقال ، وهو يفرك يديه ، وقد أشرق وجهه فرحا :

- نعم ، نعم ، موسيقى • انك صغيرة ذكية ، شجاعة •

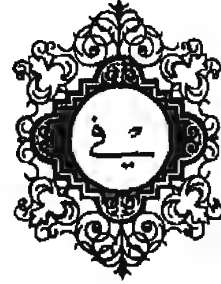
غير أننى لاحظت بوضوح ، رغم مدائح وحماسه ، انه يرتعد خوفا على آله ، واستولى على الخوف أنا أيضا ، فبادرت أرددها اليه •• فأعادها الى علبتها بعناية كبيرة ، وأغلق العلبة ثم أرجعها الى مكانها فى الصندوق • ووعدنى وهو يداعب رأسى أنه سيربى الكمان مرات أخرى كلما كنت عاقلة مطبعة مثلما أنا الآن •

هكذا طرد الكمان حزننا كلينا • ومع ذلك همس أبى فى أذنى ،
حين أتى المساء ، أن لا أنسى ما أوصانى به أمس •

وعلى هذا النحو كبرت فى بيتنا البائس • وكان حبيبى لأبى (والأفضل
أن أقول « هيامى » بأبى ، لأننى لا أعرف كلمة قوية تستطيع أن تعبّر
تعبيرا كاملا عن هذه العاطفة الجارفة التى كانت تعذبنى وتدفعنى نحو أبى
دفعاً) أقول : كان هيامى بأبى يشتد ويشد حتى أصبح نوعاً من الهوى
المرضى ! •• صرت لا أجد فى الحياة من متعة غير أن أفكر فيه ، وأن أحلم
به •• صرت لا أفكر إلا فى شيء واحد ، هو أن أعمل كل ما أستطيع
عمله لأهيمى له ولو أقل مسرة • كم من مرة انتظرت عودته على السلم ،
وأنا أرتجف من البرد ، لا لشيء إلا أن أحس وجوده وأراه قبل الموعد
بلمحة • وكنت أجن من الفرح حين يتفق له أن يمسنى بمداعبة عابرة •
على أن فتور عاطفتى نحو أمى كثيراً ما كان يسبب لى حزناً أشبه بالعذاب •
كنت اذا نظرت إليها امتلأت نفسى هولا • الا اننى لم أكن أستطيع أن
أظل محايدة فيما كان يقوم بين أبوى من خصومات لا تنقطع • كان لا بد
لـى أن أختار احدهما فأتحزب له • وقد تحزبت لهذا الانسان نصف
المجنون ، لأنه كان فى نظرى انساناً بائساً مضطهداً ، ولأنه قد خاطب
خيالى منذ البداية • ومع ذلك ، من يدري ؟ لعلى تحزبت له لغرابته
الشديدة ، وحتى لغرابته مظهره ، فان هذا المجنون لم يكن صارم الوجه
حزين الملامح كأبى ، بل كان يضحك ويهرج كأنه طفل ، ولعلنى أحببته
لأننى لم أكن أخشاه كما كنت أخشى أمى ، ولأننى لم أكن أحترمه كما
كنت أحترم أمى ، بل أنظر الـه نظرتى الى ندى من أندادى ، أو الى ترب
من أترابى •• حتى لقد شعرت شيئاً فشيئاً اننى سيطرت عليه ، اننى

أخضعته ، وائنى أصبحت له حاجة لا غنى عنها • ولم يصبنى زهو وغرور،
ولكنه الشعور بالظفر • وكنت من شدة تقديري لمنزلتى فى نفسه بحيث
كدت فى بعض الأحيان أن أدل عليه ، وأتظرف له • الحق أن فى تعلقى
الغريب هذا شيئاً يذكر بالروايات • الا أن هذه الرواية لم يقدر لها أن
تدوم طويلا ، فائنى ما لبثت أن فقدت أبى وأمى • لقد انتهت حياتهما
بفاجعة فظيعة ما زالت ذكراها محفورة فى نفسى ترهقها وتمضها ، واليكم
كيف وقعت الفاجعة :

الفصل الثالث



تلك الفترة ، راج في بطرسبرج أن العازف الشهير على الكمان « س » سيصل الى العاصمة وشيكا ، فأحدث هذا النبأ في بطرسبرج ضجة كبيرة ، واهتز له العالم الموسيقى اهتزازا كبيرا ، وأقبلت المغنيات والشعراء والرسامون ومحبو الموسيقى يختطفون تذاكر الحفلة اختطافا ، بل وأقبل على ذلك أناس ممن يصرّحون في كبرياء متواضعة بأنهم لا يفهمون من الموسيقى شيئا ! • كانت صالة الحفلة لا تتسع لعشر هؤلاء المتحمسين الذين كانوا على استعداد لأن يدفعوا ثمن تذكرة الدخول خمسة وعشرين روبلا • ان شهرة « س » ، وشيخوخته التي يتوجها المجد ، وموهبته النضرة التي لم تجفها الايام ، وما ذكر عنه من أنه لم يمسك قوسه أمام الجمهور الا نادرا منذ زمن ، ومن انه يقوم بأخر جولة له في أوروبا قبل أن ينقطع عن العمل نهائيا ، كل ذلك كان له أثره في حفز الناس الى حضور الحفلة • الخلاصة : لقد اهتزت بطرسبرج لهذا النبأ اهتزازا قويا عميقا •

وقد سبق أن قلت أن وصول كل عازف جديد على الكمان، أو كل موسيقى شهير ، كان يولد فى ابى شعورا مؤلما . كان دائما اول المقبلين على سماع اى فنان يمر بالمدينة ، ليحكم على موهبته . وكثيرا ما كان يمرضه الثناء الكثير على القادم الجديد ، ثم لا يجد الراحة والطمأنينة الا حين يستطيع أن يأخذ على عزفه عينا من العيوب ، فاذا هو يطفق يذيع رايه فيه ، انما استطاع ذلك ، فى سخريه مرة لأذعة . لقد كان هذا الموهوس المسكين لا يرى فى الدنيا الا موهبة واحدة ، هى موهبته ، ولا يرى فى الدنيا الا فنانا واحدا ، هو شخصه . ومع ذلك فان وصول « س » ، الموسيقى العبرى ، قد أحدث فى نفسه نوعا من الرعب . وينفى ان تذكر هنا انه ليس بين الموسيقيين المشهورين الذين مروا ببطرسبرج خلال السنين العشرة الاخيرة موسيقى واحد يمكن أن تقاس موهبته بعبرية « س » . كان أبى اذن لا يعرف شيئا البتة عما عسى أن يكون عزف موسيقى كبير عرف فى أوروبا كلها بأنه من كبار الفنانين .

وقد رووا لى انه ما ان أذيع نبأ وصول « س » الى بطرسبرج ، حتى ظهر أبى من جديد فى كواليس المسرح ، وقالوا لى أيضا انه كان يبدو منفلا أشد الانفعال ، وانه كان يسأل الناس قلقاً عن « س » ، وعن الحفلة المزمع احيائها ، وهو أشد ما يكون اضطرابا . وكان أبى قد غاب عن هذه الامكنة منذ مدة طويلة ، فلما ظهر فيها من جديد أثار انتباه الناس والفتاهم ، ثم ما لبث أن قال له أحدهم مستغفرا :

— اسمع يا ياجور بتروفتش ، لن نسمع فى هذه المرة ، يا عزيزى ، موسيقى « باليه » . وانما ستسمع موسيقى تحرملك لذة الحياة !

وقد أكدوا لى ان لونه قد امتقع لدى سماع هذه الكلمة . الا انه حمل نفسه على الابتسام وقال :

- سنرى • ليس فى وسع غريب آت من بعيد أن يخدم الناس فى حقيقة أمره مدة طويلة • أظن أن « س » قد عزف فى باريس •
والفرمسيون هم الذين أطاروا اذن صيته ، ونحن نعرف قيمة هؤلاء
الفرمسيين !

على هذا النحو كان يتجمع حوله الناس ، ويأخذون فى الضحك •
لقد كان المسكين يشعر بالحنق بعضه بعضا ، الا انه كان يتحامل على نفسه ،
ويتجلد ، ويؤكد انه ليس فى نيته أن ينتقد ، وأن الانتظار لن يطول ،
ما دامت الحفلة ستقام بعد غد •

وقد روى لى « ب » انه ، فى ذلك المساء نفسه ، لقي الامير « ك » ،
وهو من هواة الموسيقى المعروفين الذين يفهمون الفن ويتذوقونه تذوقا
عميقا ، وكان الاثنان يسيران معا وهما يتحدثان عن القادم الجديد ، فاذا
« ب » يلمح أبى فجأة ، عند منعطف أحد الشوارع ، واقفا أمام أحد
المخازن يحرق فى اعلان ملصوق على البلور ، يعلن بأحرف كبيرة عن
حفلة « س » •

فقال « ب » للامير وهو يدلّه على أبى :

- هل ترى هذا الشخص ؟

فسأله الامير :

- من هو هذا الشخص ؟

- انك تعرفه • هو يافيموف الذى حدثتك عنه غير مرة ، والذى
أردت أن تفضل عليه بحمايتك •

فنهتف الامير قائلا :

- آ ... أهذا هو ؟ نعم لقد حدثتني عنه كثيرا .. يقال انه انسان عجيب ، لكم يشوقني أن أسمع .
فأجاب « ب » :

- كلا ، ان ذلك لا يستحق العناء . ان الاستماع اليه مؤلم . لأدري ما هو الاثر الذى يمكن أن يحدثه فى نفسك . أما أنا فانه يمزق قلبى تمزيقا . ان حياته مأساة محزنة . اننى أعرف حقيقة نفسه . ورغم انحداره الى الدرك الاسفل ، لم تمت عاطفتى نحوه موتا تاما . لقد قلت منذ هنيهة ، يا سيدى الامير ، ان سماعه لا بد أن يكون أمرا شائقا . هذا صحيح . الا انه يحدث فى النفس شعورا مؤلما قبل كل شئ . انه أولا انسان شاذ ، وهو عدا هذا مجرم ثلاث مرات : مجرم فى حق نفسه اذ أفسد حياته ، ومجرم فى حق امرأته وفى حق ابنته اللتين أفسد حياتهما أيضا . اننى أعرفه . لو أدرك جريمته لمات على الفور .. وهذا هو الامر الفظيع فى المأساة كلها : انه منذ ثمانى سنين يكاد يدرك ذلك ، وهو منذ ثمانى سنين فى صراع مع ضميره !
- وهو يعيش حياة بائسة ؟

- نعم . والبؤس سعادة له ، لأنه حجة يتعلل بها ، فهو يستطيع الآن أن يزعم لكل انسان ان الفقر هو الذى يحول بينه وبين الوصول الى قمة المجد ، وانه لو كان غنيا لاستطاع أن يتفرغ لفنه ، ولأمكن أن يعرف الناس عندئذ ، على الفور ، من هو وما قيمته . لقد تزوج يحذوه أمل عجيب هو أن تستطيع الروبلات الالف التى كانت تملكها زوجته أن تقيه من شرته . لقد تصرف على هذا النحو كإنسان مجرد من الحس العلى ، كشاعر ، وكان هذا شأنه فى سائر حياته على كل حال . هل تعرف ماذا يردد فى كل يوم منذ ثمانى سنين ؟ انه يدعى أن امرأته هى المسئولة عن

جميع مبادئه ، انها هي التي تمنعه من الوصول الى المجد . ثم هو يقصد ذراعيه ويأبى أن يعمل ، ولو التزعت منه امرأته لأصبح بلا سلاح البتة . هذه سنين ثمان لم يلمس خلالها كمانه ، لماذا ؟ لأنه كلما أمسك بقوسه شعر في أعماق نفسه انه لا شيء . حتى اذا عاد فأراح قوسه في مكانه ، رجعت اليه آماله كلها ، وأصبح واقفا من انه موهوب . ذلك انسان حالم : انه يتخيل أن معجزة ستتحقق فجأة فتجعل منه موسيقيا شهيرا . شعاره : « اما أن أكون قيصر ، واما أن لا أكون شيئا ! » . كأننا يستطيع المرء أن يصبح قيصر في طرفة عين ! وحين يصبح شعور كهذا الشعور هو الشاغل الوحيد الذي يملأ رأس فنان ، لا يبقى هذا الفنان فنانا ، لأنه يكون قد فقد الغريزة الفنية الالهامية ، أغنى حب الفن للفن ، هذا الحب الذي لا شأن له بالمجد ولا بغير ذلك . أنظر الى « س » مثلا : انه متى أمسك بقوسه غاب عن كل شيء في الوجود الا الموسيقى ، والشئ الذي يحتل المكانة الاولى عنده بعد الموسيقى انما هو المال . أما المجد فانه لا يأتي الا في المرتبة الثالثة فيما أعتقد . انه آخر مشاغله . هل تعرف ما الذي يشغل بال هذا البائس يافيموف في هذه اللحظة ؟ انه يكرر على نفسه ههنا السؤال السخيف ، المضحك ، المحزن : أهو متفوق على « س » أم أن « س » متفوق عليه ؟ لا شيء غير هذا السؤال يشغل باله . لأنه يظن مقتنعا رغم كل شيء بأنه أعظم موسيقي في العالم ! ولو برهنت له على انه ليس أعظم موسيقي في العالم فأنما كفيل لك بأنه سيموت على الفور ، كأن صاعقة سقطت على رأسه ؟ لا شيء أقطع من التحرر من فكرة ثابتة ، وخاصة حين يكون المرء قد وقف عليها حياته كلها ، في ايمان خطير عميق . . . على أن يافيموف قد بدأ بداية صادقة في الواقع .

فقاطعه الامير قائلا :

— لا شك أن مشاهدة انفعاله لدى سماع « س » أمر شائق •

فأجاب « ب » سادرا :

— نعم • بل لا • انه سيستعيد ثقته بنفسه فورا • لأن جنونه أقوى
من الحقيقة • سيجد لنفسه مهربا على الفور •

— تعتقد ؟

وفي هذه اللحظة وصلا الى أبي الذي أراد أن يتوارى حالا • الا
أن « ب » أمسك به وأخذ يكلمه • ساله هل ينوى أن يذهب الى الحفلة
ليسمع « س » ، فأجاب أبي — بلهجة من لا يحفل بهذا الموضوع — قائلا
انه لا يدرى هل يذهب أو لا يذهب ، وانه مشغول بأمر أهم من حفلات
الموسيقين الاجانب ، وانه سينظر في الامر على كل حال ، وانه لا مانع
عنده من الذهاب اذا وجد في وقته ساعة من فراغ ، وانه قد يذهب مع
ذلك • قال هذا ثم ألقى نظرة على « ب » وعلى الامير ، ثم ابتسم ابتسامة
مصطنعة ، ورفع قبعته ، وحنى رأسه ، وتركهما زاعما أنه في عجلة من
أمره ! • •

أما أنا فكنت قد لاحظت اضطراب أبي منذ الليلة البارحة •

كنت أجهل سبب هذا القلق الذي عصف به ، على وجه الدقة ، الا
اننى رأيت ذلك القلق الفظيع يقضمه قضا • حتى ان أمى لاحظت ذلك •
وكانت يومئذ مريضة جدا ، بل كانت لا تكاد تقوى على الوقوف على
قدميها • وكان أبي لا يننى يدخل ويخرج بلا انقطاع • وفي الصباح جاء
ثلاثة أشخاص أو أربعة من رفاقه القدماء ، فاستغربت ذلك ، ولا سيما انه
لم يكن يشأنا أحد تقريبا ، عدا كارل فيودوروفتش ، بعد أن هجرنا جميع
الناس منذ انقطع أبي عن التردد على كواليس المسرح • وأخيرا جاء كارل

فيودوروفتش راكضا ، لاهتا ، يحمل في يده « برنامجا » . كنت اشهد هذه الحركة غير المألوفة ، وأصغى اليها ، باتباه عميق ، وأنا في حالة تأثر وانفعال ؛ كأنني السبب في هذا القلق الذي أقرؤه في وجه أبي . وددت لو أعرف ما الأمر ، وسمعت لأول مرة اسم « س » ، ثم فهمت انه لا يد من خمسة عشر روبلا على أقل تقدير لمشاهدة حفلة « س » . وأذكر أيضا أن أبي لم يستطع أن يكبح سورة اضطرابه ، فكان يقوم بحركات كثيرة ، ويردد قائلا انه يعرف هذه العبقریات التي تأتي من البلاد الاجنبية ، انه يعرف هذه المواهب الفذة ، يعرف قيمتها ، ويعرف « س » أيضا ؛ يعرف انه يهودى بائس ، جاء الى روسيا - كثيره - باحثا عن المال ، وان الروسيين أناس سذج يصدقون جميع الاكاذيب ؛ لا سيما حين يكون الفرنسيون ملفقيها ! .. وكنت قد تعلمت معنى هذه الكلمات : « لاموهبة له » . وبعد أن ضحك الزائرون كثيرا ، انصرفوا الى شأنهم ، وتركوا أبي لهياجه العنيف . وأردت أن أسليه عن حزنه فاقتربت منه ، وأمسكت بالبرنامج وقرأت فيه بصوت عال اسم « س » . ثم نظرت الى أبي جالسا على الطرف الآخر من الطاولة مستغرقا في التفكير ، وقلت له ضاحكة : « لا شك أن هذا الرجل مثل كارل فيودوروفتش ، لن يخرج منه نىء حسن ، هو الآخر » .. فانتفض أبي كأنما استولى عليه خوف مفاجئ ، وانتزع البرنامج من بين يدي ، وأخذ يصرخ ويضرب الارض بقدمه ، ثم تناول قبعة وهم بالخروج ، الا أنه ما لبث أن عدل عن ذلك ، والتفت الى ، ودعاني أن أوافيه في الممر . وهناك قبلنى وأخذ يردد لى ، بنوع من الارتباك ، بنوع من الخوف لم يستطع أن يكبحه ، اننى ابنة طيبة عاقلة ، واننى لأحب له طبعاً أن يتألم ، وانه يعوّل علىّ فى أمر هام . ولكنه لم يقل لى ما هو هذا الامر الهام . على ان حديثه آلمنى ، فقد

أدركت ان كلماته وملاطفاته ليست صادقة ، وكان هذا وحده كافيا لاشاعة
الاضطراب فى نفسى ، وهكذا أصبح قلقى عليه عذابا ممضا .

وفى اليوم التالى - وهو اليوم الذى سبق موعد الحفلة - بدا لى أبى
أثناء الطعام منهك الاعصاب محطما . لقد حدث فى نفسه تفسير رهيب .
كانت نظراته تنتقل بينى وبين أمى بغير انقطاع . ولشد ما كانت دهشتى
كبيرة حين رأيتة يتحدث الى أمى ، لا سيما وانه كان لا يكاد يخاطبها
بكلمة واحدة . وبعد أن فرغنا من الطعام لاطفنى كثيرا ، وجعل يدعونى
فى كل لحظة الى الممر منتحلا مختلف الاعذار ، وهناك يأخذ ينظر من
حوله كأنما هو يخشى أن يقبض عليه بالجرم المشهود ، فإذا اطمأن الى انه
ما من أحد يراه ، طفق يداعب رأسى ويقبلنى ويردد على مسامعى اننى ابنة
طيبة ، واننى أحب بابا من غير شك ، واننى سأفعل كل ما يطلبه الى مافى
ذلك ريب . فأسلمنى هذا الى قلق لا يطاق . حتى اذا دعانى الى الممر
أخيراً ، للمرة العاشرة ، اتضحت الامور : فى هذه المرة نظر أبى الى جميع
الجهات نظرة مرتابة ، ثم سألنى وقد تقبض وجهه ، هل أعرف أين خبأت
أمى الخمسة والعشرين روبلا التى أتت بها فى صباح الامس ؟ .. فما ان
سمعت هذا السؤال حتى شعرت كأننى أموت من شدة الخوف ، الا أن أبى
وقد سمع صوتا على السلم ، ارتاع فتركنى حيث أنا وهرب . ولم يعد
الا فى المساء ، حيث جلس على كرسى وقد بدا عليه الاضطراب وانفعال
البال ، وأخذ ينظر الى بنوع من الحياء الوجمل . وتملكنى خوف شديد
حتى صرت أحاول أن أتجاشى نظراته . وأخيرا نادتنى أمى ، وكانت فى
السريـر طوال اليوم من وطأة المرض ، فأعطتنى قطعة نقدية ، وأرسلتنى
أشترى لها من الدكان قليلا من الشاى والسكر . كان الشاى لا يشرب الا
نادرا فى بيتنا ، اذ كانت أمى لا تسمح لنفسها بهذا الترف ، ونحن فيما
نحن فيه من الفقر ، الا حين تشعر أنها مريضة محمومة .. فأخذت

الدراهم ، وما ان خرجت الى الممر حتى جعلت أعدو ، خشية أن يلحق
بى أبى • الا ان ما كنت أخشاه قد وقع : فقد أدركنى أبى فى الشارع
وأعادنى الى السلم وهناك قال لى بصوت مرتعش :
- نيتوتشكا ، حبيبتى ، اسمعى ، أعطينى هذه الدراهم ، وغدا
سوف ***

فارتيميت على ركبتيه وأخذت أتوسل اليه قائلة :
- بابا ، بابا ، لا أستطيع • لا يجوز • ان ماما فى حاجة الى الشاي •
لا يجوز أن تسرق ماما • كلا لايجوز • مرة أخرى ••
فقدمم كأنما هو يهنئنى :

- آ • لا تريدین ؟ لا تريدین ؟ حسنا •• الآن أتركك •• ابقى
مع ماما • أما أنا فسأذهب وحدى • هل تسمعین ، أيتها الابنة السيئة ؟
هل تسمعین ؟

- بابا • خذ • ما العمل ؟ ستبكى أُمى أيضا • وستؤنبى أيضا •
قلت هذا وأنا أرتعد من الخوف ، وأضرب كفا بكف ، وأتعلق
بذيله •

لم يكن أبى يتوقع هذه المقاومة • على انه أخذ المال ، ولم يستطع
أن يحتمل نحيبى ، فتركنى على السلم وهرب • وصعدت السلم • الا أن
قواى خائنتى على باب مسكننا ، فلم أجرو على الدخول ، لم أستطع
الدخول • كنت فى حالة زعر شديد واضطراب فظيع • كان قلبى كأنما
انخلع • ووضعت وجهى بين ذراعى كما فعلت فى المرة الاولى يوم سمعت
أبى يتمنى موت أُمى • وبلغ منى الذعر أن أقل صوت على السلم كان

يجملنى كقطعة من الثلج ترتجف • وأخيرا سمعت وقع خطوات سريعه
تصعد السلم فعرفت انه أبى •

قال أبى هامسا :

— هذا أنت ؟

وارتميت على عنقه •

— خذى • خذى دراهمك • ولست أبالك بعد الآن • هل تسمعين ؟
لا أريد أن أكون أبالك • اذهبى الى أمك • لا أريد أن آخذك معى •

فلما أنهى هذا الكلام دفعنى عنه ، وهرب مرة أخرى هابطا السلم •
فركضت وراءه باكية ، أريد أن أمسك به ، وصرخت محتجة :

— بابا • أبى العزيز • سأفعل كل ما تريد • أنت تعلم اننى أحبك •

خذ • خذ الدراهم • خذها !

الا انه كان قد غاب • بلغت من شدة الذعر أننى ظلمت السهرة
كلها محمومة لا أستطيع حراكا • وأذكر أن أمى كلمتنى ، وجاءت بى
الى جانبها ، الا اننى كنت أشبه بمن فقد وعيه ، فما أرى شيئا ولا أسمع
شيئا • وأدى ذلك كله الى نوبة : فأخذت أبكى وأعول ، وارتميت أمى
فلم تدر ماذا تصنع • ووضعتنى فى سريرها • وكنت خائفة مما أتوقع ان
يقع بين دقيقة وأخرى ، فاذا أنا أنام ، لا أدرى كيف ، متشبثة بعنقها •
وانقضى الليل على هذا النحو : فلم أستيقظ الا فى ضحى اليوم التالى ، بعد
أن غادرت أمى البيت الى عملها • ورأيت مع أبى فى البيت رجلا غريبا ،
وكان الاثنان يتحدثان بصوت عال جدا • وانتظرت أن يذهب الزائر بصبر
فارغ ، حتى اذا مضى وأصبحنا وحدنا ، ارتميت على عنق أبى باكية متحبة ،
أتوسل اليه أن يغفر لى سلوك الباردة •

فسألنى بلهجة قاسية :

— هل تصبحين عاقلة كما كنت فى الماضى ؟

فأجبت :

' — نعم ، يا أبت • أعدك بذلك • سأقول لك أين تخبىء أمى دراهمها •
• • لقد وضعتها أمس مساء فى هذه العلبة ، على الرف •

فصرخ أبى منتفضا :

— أين ؟ أين ؟

وقفز من مكانه وسألنى مرة أخرى :

— أين الدراهم ، تقولين ؟

— العلبة مقللة بالمفتاح ، يا أبت • انتظر حتى هذا المساء • سترسلنى
أمى لتبديل الورقة النقدية بقطع صغيرة ، رأيت ذلك بنفسى •

— انتى فى حاجة الى خمسة عشر روبلا ، يانيتوتشكا • هل تسمعين؟
خمسة عشر روبلا فقط ! هايتها اليوم ، وسأردها اليك غدا • وسامضى حالا
أشترى لك حلوى ، وجوزا • • ولعبة أيضا • وغدا ، غدا على التأكيد ،
أرد اليك الدراهم • • وسأشترى لك حلوى فى كل يوم ، اذا كنت عاقلة
فاعطينى خمسة عشر روبلا !

— كلا ، يا بابا ، لا أريد حلوى • لن أكل الحلوى اذا جئتنى بها ،
سأردها اليك •

قلت ذلك محتجة بأكية ، وقد تمزق قلبى من القلق •

أدركت فى تلك اللحظة أن ليس فى قلبه ذرة من رحمة بى ، وانه

لا يحببني ما دام لا يقيم لعاطفتي نحوه وزنا ، وما دام يظن اننى اخضع
لارادته طمعا فى الحلوى ! .. ومع اننى كنت طفلة ، استطعت ان انفذ
الى أعماقه نفاذا بلغ من القوة اننى شعرت منذ تلك اللحظة ان عبادتى اياه
قد تسمت الى الابد . شعرت اننى لن استطيع ان احبه بعد الان ! ..
شعرت اننى فقدت بابا الحبيب القديم الى الابد . اما هو فقد سره وعدى ،
بل سحره . لقد رأى اننى مستعدة من اجله لكل شيء ، ويعلم الله ماذا
كانت تعنى كلمة « كل » هذه فى خيالى ! كنت اعلم قيمة هذه الدراهم عند
أمى المسكينة ، وكنت أعرف العذاب الذى ستلقاه حين تفقدها ، فكان
ضميرى يعول من اليأس . الا أن أبى لم يلحظ شيئا من ذلك . كنت أفهم
كل شيء . غير أن أبى كان لا يرى فى الا طفلا فى الثالثة من عمره .
وتملك أبى فرح هذيانى ، فتمررنى بالقبل ، وتوصل الى أن لا أبكى ،
وأكد لى ، مداعبةً لخيالى ، اننا سنسافر الى مكان بعيد عن ماما فى بحر
اليوم نفسه . ثم أخرج البرنامج من جيبه ، وذكر لى ان الرجل الذى
سيمضى الى سماعه هذه الليلة انما هو عدوه ، بل أحد أعدائه الألداء ،
الا أن عدوه لن يستطيع أن ينتصر عليه ، لا هو ولا غيره . لا شك أنه هو
الطفل ، لا أنا ، ما دام يحدثنى بهذه اللهجة عن أعدائه ! .. ولما رأى
أننى ظلمت صامته لا أجيب ولا أبسم كما أبسم عادة ، تناول قبعته ،
ومضى ، كمن حان وقت ذهابه . الا انه قبل أن يتركنى ، قبلنى مرة
أخرى . وبسم لى ، وأشار الى إشارة الاتفاق ، كأنه غير واثق منى كل
الثقة ، فهو يريد أن يعمل ما ينبغى عمله ليمنعنى من التفكير والتردد .



سبق أن قلت انه تغير منذ أمس تقيرا كبيرا حتى لكأنه شخص
آخر . كان لا بد له من الحصول على المال لشراء تذكرة ، مهما كلف

الأمر • فقد كان يعتقد أن هذه الحلقة سيكون لها في حياته تأثير حاسم ، حتى انه حين أراد أن يستولى على الدراهم القليلة التي كنت أمسكها بالامس ، لم ينتبه من شدة اضطرابه الى أنها لا تكفى لشراء التذكرة • وقد تجلّى اضطراب عقله المحموم هذا ، على نحو أوضح ، اثناء الطعام • كان عاجزا عن أن يستقر في مكانه ، ولم يلمس الطعام ابداً ، فكان ينهض ، ثم يعدل عن رأيه ، ثم يجلس مرة أخرى ، أو كان يهم أن يمضى ، فيتناول قبعته ثم تستولى عليه حيرة غريبة ، فيبقى في مكانه لا يتحرك ، ويدمدم بكلام يخرج من بين أسنانه ، أن يلقي على نظرة سريعة ، ويفغزنى بعينه ، ويقوم بحركات وإشارات يظهر لى بها حرصه على الحصول على الدراهم الموعودة بسرعة • • • لكنه يحقد على لانتى لم أسرقها من أمى بعد • وأخيرا لاحظت أمى اضطرابه الشاذ ، وجعلت تنظر اليه نظرة استغراب • أما أنا فكنت أشعر بخوف كخوف شخص حكم عليه بالاعدام ! • • • فلما نهضنا عن المائدة ، اختفيت في ركن من أركان الغرفة وأنا أرتعد من الحمى ، وأخذت أعد الدقائق بانتظار اللحظة التي اعتادت أمى أن ترسلنى فيها الى السوق • رباه ! انتى لم أعان في حياتى بعد ذلك تجربة قاسية هذه القسوة ، وستظل هذه الدقائق محفورة في ذاكرتى الى الأبد • ان في الحياة ساعات كأنها تتجمع فيها آلام سنين طويلة برمتها • • كنت أعلم انتى قادمة على اقتراف عمل سيئ • ألم يحاول أبى نفسه أن يوقظ في نفسى غرائز الخير في المرة الأولى حين دفعنى الى فعل الشر دون تفكير ، ثم هاله عمله فين لى خطيئتى ، ونصحنى بأن لأعود اليها ؟ أليس فى وسعه اذن أن يدرك الآن ان من الصعب أن يفسخ نفسا ظمأى الى المشاعر الواضحة ، نفسا أوجست الخير والشر وفكرت فيهما طويلا ؟ على انتى أدركت انه اذا كان يدفعنى الآن الى اقتراف الشر مرة أخرى ، فيضحى بطفلة بائسة لاحيلة لها في الدفاع عن نفسها ، ويعرضنى

كذلك لفساد الضمير ، فلا شك انه خاضع لسلطان ضرورة هائلة ! ..
ثم تساءلت من الركن الذى كنت مختبئة فيه : « لماذا يريد ان يكافئنى
على عمل ساقوم به طواعية ؟ » .. وهاجمتنى احساسات جديدة ، وأمال
جديدة - خرجت لا أدري من أين - وحاصرتنى أسئلة جديدة . ثم اذ
بى فجأة لا افكر فى أمى ، ولا فى الالم الذى ستعانيه حين تفقد آخر
درهم مما حصلته بعرق الجبين . وفجأة تركت أمى العمل الذى كانت
أخذة نفسها به فى عناء ، ونادتنى . فاقتربت منها وأنا أرتعد ارتعادا
شديدا ، فأخذت الورقة النقدية من الخزانة الصغيرة وناولتنى اياها وهى
تقول :

- اذهبى يا نيتوتشكا . ولكن أرجوك ، أناشدك الله ، أن تنتبهى الى
المبلغ الذى سيرده اليك البائع . اياك أن يسرقوك ، وحذار أن تضيعى
شيئا .

فألقيت على أبى نظرة متوسلة . الا أنه هز رأسه ، وابتسم ابتسامة
تشجيع ، وأخذ يفرك يديه من فراغ صبره ، فان الساعة تدق الآن
السادسة ، وستبدأ الحفلة فى الساعة . لقد سبب له الانتظار ، هو الآخر ،
ألما كثيرا .

ووقفت على السلم أنتظره . لقد بلغ انفعاله وتعجله من القوة أنه
أسرع ورائى دون أى احتياط أو تحفظ . وناولته الدراهم . كان السلم
مظلمًا جدا ، فلم أستطع أن أتين وجه أبى ، الا أننى شعرت بأنه يرتجف
وهو يتناول المال . وظلمت متجمدة فى مكاني لا أستطيع حراكا ، ولم
أنتبه الى نفسى الا حين طلب الى أن أصعد الى البيت لأتيه بقبعته . كان
لا يريد أن يعود الى البيت .

فقلت له بصوت منقطع ، وكان أمي الاخير هو أن يدافع عني ،
قلت :

- بابا ، لماذا لا تصعد معي ؟

- لا ... اصعدى وحدك •

ثم هتف ، بعد تفكير ، قائلاً :

- انتظري انتظري • انتظري ديشا أتى اليك بالحلوى أولاً • ولكن
اصعدى قبل ذلك ، وأتيني بقبعتي •

شعرت كأن يدا من جليد تقبض على قلبي • فانطلقت من صدري
صرخة ، ثم هربت أصعد السلم ركضاً • وحين دخلت الى البيت كنت من
الانهيار بحيث لو قلت لأمي ان المال قد سرق لصدقتني • غير أنني كنت
عاجزة عن الكلام • ونهالكت مهدمة على سرير أمي مخبئة وجهي بذراعي •
فما انقضت دقيقة على ذلك حتى فتح الباب بهدوء ، وظهر أبي • • لقد
جاء لأخذ قبعته • وحزرت أمي فجأة أن شيئاً ما قد حدث ، فصرخت بي
قائلة :

- أين الدراهم ؟ أين الدراهم ؟ قولى • قولى !

ثم حملتني بقبضة يدها ، ووضعتني على قدمي في وسط الغرفة •
ولكنني أطرقت ، وسكت ، وأنا لا أكاد أفهم ما وقع لي ، ولا ما يراد مني •
وصرخت أمي مرة أخرى قائلة :

- أين الدراهم ؟

الا انها اتجهت فجأة نحو أبي ، الذي تناول قبعته ، وسألته :

- أين الدواهم ؟ آ ... لقد أعطتك اياها ! .. وضع • مجرم •
مجنون • تريد أن تشقيها هي أيضا ، هي الطفلة • لا • لا • انتظر • لن
تذهب هكذا !

ورثبت الى الباب ، فأقفلته بالمفتاح ، ووضعت المفتاح فى جيبيها •
- هيا • تكلمى • قولى الحقيقة • اعترفى بكل شيء • تكلمى ،
تكلمى ، والا فأنا أعرف ماذا أصنع بك !

قالت ذلك بصوت لا يكاد يسمع من شدة الانفعال ، وهي تقبض
على ، وتهز ذراعى • فأقسمت فى هذه اللحظة لألزم الصمت ، ولا
أنهم أبى • ورفعت عيني نحوه ، مرة أخيرة ، فى حياء • كان يكفينى منه
عندئذ نظرة واحدة ، كلمة واحدة ، على نحو ما اتوقع ، على نحو ما أتمنى ،
حتى أكون سعيدة ، رغم أى تمذيب ينالنى • الا انه بدلا من ذلك
- يا رباه ! - أمرنى أن أسكت ، بإشارة مهددة باردة • • كما لو كان
يمكن أن أخشى شيئا من الأشياء فى مثل هذه اللحظة • وشعرت بحلقى
يتقبض ، وبأنفاسى تتقطع ، وبساقى تلتويان تحتى ، وسقطت الى الارض
مغشيا على ، وانتابتنى مرة أخرى النوبة العصبية التى صرعتنى بالامس •

واستيقظت فجأة على طرق باب منزلنا • وفتحت أُمى الباب • فرأيت
رجلا يرتدى ثيابا موشاة مما يرتديه خدم النبلاء ، رأيته يدخل البيت ،
ثم ينظر الينا نظرات تنم عن الدهشة ويسأل عن الموسيقى يا فيموف ، فيتقدم
أبى نحوه ، فيناوله الرجل عندئذ مظروفا ، وهو يقول انه رسول «ب»
الموجود الآن فى منزل الأمير سيده • كان المظروف يحتوى على تذكرة
ممتازة لحضور حفلة الموسيقى «س» !

ان ظهور الخادم الأنيق الذى يأتى خصيصا من قبل سيده الامير

للدعوة الموسيقى البائس يافيموف ، قد أحدث في نفس أمى ، فجة ، تأميرا كبيرا . قلت في أول هذه القصة ، ان هذه المرأة البائسة كانت تحب أبى حب العادة . وكان قلبها ، في هذه الدقيقة ، رغم السنين الثماني التي قضتها معه فى شقاء دائم ، لم يتغير أبدا . كانت قادرة على أن تحب زوجها رغم كل شيء . ومن يدري ! فلعلها اعتقدت فجة بأن الحظ سييسم ، وان كل شيء على وشك أن يتغير . لقد كان يكفى خيالها ظل " من أمل ، حق يسترسل فى أحلامه ! لعل عدوى الاحلام المجنونة التي كانت تملأ رأس زوجها قد سرت الى رأسها هي الاخرى ، ولعلها أصبحت مثله تثق بعقريته ثقة لا تتزعزع ! ومهما يكن من أمر ، فمن المستحيل أن لا تتأثر امرأة ضعيفة بمثل هذه البادرة ، وأن لا تجعلها التفاته الامير تتخيل فى طرفة عين ألف أمل وأمل . وفى طرفة عين أصبحت مستعدة لأن تلتفت الى زوجها ، لأن تغفر له الحياة البائسة التي قضتها معه ، لأن تغفر له حتى الجريمة الأخيرة التي اقترفها فى حقها وهي افساد طفلتها الوحيدة . لقد أصبحت مستعدة ، فى انطلاقة الحماسة وتجدد الامل ، لان تبرئ زوجها من تلك الجريمة ، فما ترى فيها الا خطيئة بسيطة ، ترجع الى قلة التبصر ، وتأثير البؤس ، وحياة الذل ، وضياح الأمل . الخلاصة : لقد كان كل ما فيها الآن سرورا وامتنانا ، وأصبحت مستعدة لأن تنسى كل شيء فى سبيل زوجها المسكين .

أما أبى فكان لا يستطيع أن يستقر فى مكانه من شدة فرحه . لقد سحرته التفاته الامير وصديقه «ب» . واقترب من أمى غير متردد ، وهمس فى أذنها بضع كلمات خرجت أمى على أثرها من الغرفة ، ثم عادت بعد دقيقتين تحمل نقودا استبدلتها بالورقة المالية .

فتناول أبى روبلا على الفور ، وقدمه للرسول . وانسحب هذا بعد

أظهار آيات الاحترام المذهب • وخرجت أمي من الغرفة مرة أخرى ،
وعادت بعد لحظة • بمكواة • ، فأخذت تكوي قميصا هو أحسن قميصان
زوجها ، وتولت بنفسها عقد ربطة عنقه البيضاء التي كانت قد حفظتها في
خزانتها ، بعناية • استعداداً للطوارئ • ، مع الرداء الاسود الذي كان قد
اشتراه لعمله في المسرح - وكان قد أصابه البلى بعض الشيء - فلما
انتهى أبي من زينتته ، تناول قبعته • وهم أن يخرج • الا أنه قبل أن يخرج
طلب شيئا يشربه • • لقد كان ممتنع اللون • ولم يستطع أن يظل واقفا •
فارتقى على كرسي • وأتيت له أنا بكأس من الماء • لعل شعور العداوة قد
دب من جديد في قلب أمي • فأخمد حماسها الاولى • ومضى أبي وبقينا
وحدها • ولطوت في أحد أركان الغرفة • وأخذت أتأمل أمي مدة طويلة •
وأنا صامتة • لم أرها يوما في مثل هذه الحالة : كانت شفتاها ترتجفان •
واحمر خذاها الشاحبان فجأة • ورأيت جسمها يرتعد من حين الى حين •
وأخيرا أخذ انفعالها يخرج آهات • وكلاما متقطعا • وشهقات صما •

- أنا المجرمة • أنا وحدي المجرمة • ما أشقاني يا رباه • ماذا
ستصبح حين أموت !

قالت ذلك • وهي واقفة في وسط الغرفة • كأن صاعقة وقعت على
رأسها حين فكرت في ذلك • ثم أردفت تقول • وهي تضميني الى صدرها
وتقبلني :

- نيتوتشكا • صغيرتي البائسة • من ذا الذي سيعني بأمرك بعد أن
لم أحسن تربيتك ولا ملاحظتك في هذه الحياة التي نعيشها • آه • انك
لا تفهمين • هل ستذكرين ما أقوله لك الآن ؟ نيتوتشكا • قولي • هل
ستذكرينه ؟

فصرخت وأنا أضرم يدي أحدهما الى الاخرى بإشارة التوسل :

- نعم • نعم يا أماء ••

وَضَمْتَنِي إِلَيْهَا فِي قُبْلَةٍ طَوِيلَةٍ ، قَوِيَةٍ ، كَأَنَّمَا تَعَذِّبُهَا فِكْرَةُ الْإِنْفِصَالِ

عَنِّي •

شَعَرْتُ كَأَن قَلْبِي يَتَمَزَّقُ •

وَسَأَلْتُهَا وَأَنَا أَبْتَلَعُ دُمُوعِي :

- أماء ، أُمِّي الْحَيِّيةُ : لِمَاذَا •• لِمَاذَا •• لَا تَحْيِينِ أَبِي ؟

وَلَمْ يَسْمَحْ لِي الشَّهِيْقُ بِأَن أَتَمَّ كَلَامِي •

وَانْطَلَقْتُ مِنْ صَدْرِهَا صَرْخَةً ، ثُمَّ اسْتَأْنَفْتُ سِيرَهَا فِي طَوْلِ الْغُرْفَةِ

وَعَرَضْتُهَا وَقَدْ أَخَذَ حَزْنُهَا الشَّدِيدُ بِخُنَاقِهَا مِنْ جَدِيدٍ •

- صَغِيرَتِي ، صَغِيرَتِي الْمُسْكِينَةُ • رَبَاهُ • لَمْ أَلَاظْ أَنَّهَا سَبَتْ مِنْ

دَوْرِ الطُّفُولَةِ • إِنَّهَا تَفْهَمُ الْآنَ كُلَّ شَيْءٍ ، كُلَّ شَيْءٍ • رَبَاهُ ! أَيْ آثَارِ

سِتْخَلْفٍ فِيهَا هَذِهِ الْمَشَاهِدَةُ ! وَأَيَّةَ قَدْوَةٍ تَرَى !

وَمَرَّةً أُخْرَى ، ضَرَبْتُ كَفًا بِكَفٍ ، عَلَامَةَ الْأَلَمِ وَالْيَأْسِ • ثُمَّ عَادَتْ

إِلَىَّ وَارْتَمَتْ عَلَيَّ ، تَغْمِرُنِي بِسَيْلٍ مِنَ الْقَبْلِ • وَأَخَذَتْ تَتَنَاوَلُ يَدَيَّ

وَتَقْبِلُهُمَا ، وَتَبْلِلُهُمَا بِدُمُوعِهَا ، وَتَسْأَلُنِي أَنْ أَصْفَحَ عَنْهَا ، وَأَنْ أَغْفِرَ لَهَا •

لَمْ أَرْ فِي حَيَاتِي أَلْسًا كَهَذَا الْأَلَمِ • وَبَدَتْ أَخِيرًا مِنْهُوَكَةُ الْقَوَى ، فَسَقَطَتْ

فِي نَوْعٍ مِنَ الْإِنْهَارِ • وَقَضَتْ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ سَاعَةً طَوِيلَةً • ثُمَّ نَهَضَتْ

مَحْطَمَةً ، وَطَلَبَتْ إِلَيَّ أَنْ أَمْضِيَ إِلَى سَرِيرِي وَأَنَامَ • فَمَضَيْتُ إِلَى رَكْنِي ،

وَتَدَثَرْتُ بِغَطَائِي ، وَلَكِنِّي لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَغْفُو • لَقَدْ كَانَ يَعَذِّبُنِي التَّفَكُّيرُ

فِيهَا ، وَالتَّفَكُّيرُ فِي أَبِي • وَكُنْتُ أَتَنْتَظِرُ عَوْدَةَ أَبِي بِصَبْرٍ نَافِدٍ يُمَارِجُهُ نَوْعٌ

مِنَ الرَّعْبِ • وَبَعْدَ نِصْفِ سَاعَةٍ تَنَاوَلْتُ أُمِّي الشَّمْعَةَ وَاقْتَرَبْتُ مِنْ سَرِيرِي

تريد أن تتأكد اننى قد غفوت • فأغمضت عيني تطمينا لها ، وتظاهرت
بأننى غارقة فى سبات عميق • وبعد أن تأملتني بمض الوقت ، اقتربت من
خزانتها سائرة على أطراف الأصابع ، ففتحتها وسكبت لنفسها قدحا من
الخمر شربته ، ثم نامت ، تاركة الشمعة مشتعلة والباب مشقوقا ، على
عادتها حين يعود أبى متأخرا •

كنت مستلقية على حال من الخدر ، مفتحة العينين رغم النعاس •
كنت ما ان أغمض جفنى حتى تجتاحنى رؤى فظيمة ، فأنتفض مذعورة •
وكان خوفى يشتد ويشتد •

كنت أود لو أصرخ ، الا أن صوتي يختنق فى حلقى • وأخيرا ،
فى ساعة متأخرة جدا من الليل ، سمعت أبى يدفع الباب • لقد كان
شاحبا شحوبا فظيما • كان يهوم فى غرفتنا صمت الموت • وكانت الشمعة
على وشك أن تذوب كلها ، وهى تضيء مسكننا بنور حزين •

نظرت الى أبى مدة طويلة ، وهو جالس على كرسيه مطرق الرأس ،
مجمد اليدين على الركبتين فى سكون تام • حاولت عدة مرات أن أناديه ،
الا اننى لم أستطع ، فكأننى مشلولة • وأخيرا ، تحول فجأة ، ورفع رأسه ،
ونهب عن كرسيه ، وظل خلال لحظة من الوقت واقفا فى وسط
الغرفة ، كأنه بسبيل اتخاذ قرار ما ، ثم تقدم بغثة من سرير أمى ، وانحنى
عليها يتنصت ، فلما أيقن أنها نائمة ، اتجه نحو الصندوق الذى يرتاح
فيه كمانه ، وفتحه ، وتناول اللعبة السوداء ، ووضعها على الطاولة ، ثم
نظر مرة أخرى حوله • كان ينظر دون أن يرى ، كانت عيناه فى
اضطراب لم أعهد مثله فيهما من قبل •

وهمّ بتناول كمانه ، الا انه سرعان ما تركه ، وعاد الى الباب
يقفله ، ثم لاحظ أن الخزانة مفتوحة ، فأتجه اليها بخطى كخطى الذئب ،

ورأى القدح ، فملاه خمرا وشربه • ثم عاد مرة ثانية الى مكانه ، فتناوله ،
ليتركه من جديد ، ومضى الى سرير أمي مرة أخرى • وقبعت انتظر
ما سيقع ، وأنا اشد ما اكون انهيارا ••

واصاخ السمع مدة طويلة جدا ، ثم رفع الغطاء فجأة عن وجه أمي ،
ومد اليه يده يعجسه • ارتجفت • وازداد انخساؤه على رأس أمي حتى
لامسه بوجهه • ولما نهض عنه رأيت ابتسامة صفراء رهية مرعبة تطوف
فى وجهه • ثم أرجع الغطاء على رأس النائمة وعلى قدميها المكشوفتين ،
بهدوء ورفق وعناية • أخذت أرتعد ، وقد تضاعف خوفى وذعرى :
خفت من أمي ، من نومها العميق هذا العمق • خفت من الخطوط المتجمدة
التي يرسمها جسمها تحت الغطاء • ودبت فى نفسى فكرة فظيعة وقت
منى موقع الصاعقة •

ولما فرغ أبى من جميع أعمال التمهيد هذه ، عاد الى الخزانة ،
وافرغ فى جوفه باقى الزجاجة • كان يرتجف كورقة فى مهب الريح ،
حتى اذا عاد الى الطاولة كان من الشحوب بحيث لا يُعرف • وتنازل كمانه •
لقد رايت هذه الآلة من قبل ، وكنت أعرف فيم تستعمل ، ومع ذلك فقد
كنت أتوقع أمرا رهيبا ، فظيما •• وانتفضت حين سمعت أول صوت •
لقد أخذ أبى يعزف • الا أن الاصوات كانت تأتي متقطعة • كان يتوقف
فى كل لحظة ، كأنما هو يستجمع ذكرياته • وأخذ ينظر الى السرير
نظرة غريبة • كان هناك ، على السرير ، شئ يزعجه • وعاد مرة أخرى
الى السرير • وأخذت ألتهم بعينى كل حركة من حركاته ، وقد تملكنى
خوف لا اسم له !

وفجأة ، أخذت يدها تجسان النائمة ، بسرعة ، وراودتنى الفكرة
نفسها مرة أخرى كالصاعقة : لماذا تنام أمي نوما عميقا هذا العمق ؟ كيف
لا تستيقظ على يدى أبى تجسانها هذا الجس ؟ وأخيرا رأيت أبى يجمع

كل الأشياء التي تقع تحت يديه : معطف أمي العتيق ، معطفه هو ، قميص نومه ، حتى الملابس التي خلعتها حين نمت ، ثم يضعها جميعا فوق أمي حتى اختفت تحتها تماما . وظلت أمي متمددة ، لم يختلج لها عضو !

لقد كانت تمام نوما عميقا ♦

وحين فرغ من ذلك ، أطلق آهة من يتخفف من عبء . الآن لن يزعجه أحد ♦ ومع ذلك ما زال هناك شيء يقلقه ♦ وغير مكان الشمعة ♦ وجلس أمام الباب ، مديرا ظهره للسريز ♦ وأخيرا تناول كمانه بحركة يائسة ، وأمسك بقوسه ، وبدأت الموسيقى ♦

ان هذه الموسيقى لم تكن موسيقى ♦♦ ما زلت أتذكر كل شيء تذكرنا تماما ، حتى أبسط حركة ♦ ما زلت أتذكر كل ما أسر انتباهي وقتئذ ♦ كلا ، لم تكن تلك موسيقى شبيهة بما سمعت بعد ذلك من موسيقى ♦♦ لم تكن تلك أصوات كمان ، لقد كانت صراخا دوى في منزلنا المظلم لأول مرة ♦ من الممكن أن تكون حالتى المرضية وقتئذ قد ضخمت الأمور ، ومن الممكن أن تكون حواسي في تلك اللحظة مضطربة مشوشة ♦ الا أنني مقتنعة بأنني سمعت آهات وصرخات انسانية ، ونحيبا ♦♦ لقد كان يتفجر من هذه الأنغام ألم فظيع ، حتى اذا زمجرت نهاية اللحن ، بدت تلف كل شيء في آن واحد : كل هول النحيب ، كل عذاب القلق ، كل الاحتضار اليائس ♦

ولم أستطع أن أتجلد أكثر مما تجلدت ♦ فوثبت من مكاني مرتعدة ، وقد أغرق الدمع وجهي ، فارتميت على أبي ، وطوقته بذراعي ، وأنا أعول من الخوف ♦ فأطلق أبي صرخة قوية ، ووضع كمانه على الارض ♦ وكمن فقد صوابه ، أخذ يرسل نظراته الثائفة الطائشة في كل مكان باحشا عن

سلاح ما • ثم تناول كمانه فجأة ، وهمّ أن يهوى به على رأسى ... ولو
قد انقضت ثانية أخرى لهوى بالكمان على رأسى ، فحطمنى فى مكانى •
الا أننى صرخت متوسلة :

— بابا • بابا •

فتعرف صوتى ، وأخذ يرتجف كورقة ، وتراجع الى الورا •
خطوتين •

ثم حملنى من كفى ، وقال :

— آ • أنت هنا • اذن لم ينته كل شىء • اذن ستبقين معى •

فقلت متوسلة من جديد :

— أبت • أبت • لا تنظر الى هكذا • لو تعرف كم أنا خائفة !
آه ..

وأثرت فيه دموعى • فوضعتى برفق على الارض ، ونظر الى بضع
ثوان نظرة فاحصة تريد أن تعرف وأن تفهم • ثم كأن فكرة فطيمة راودته
فجأة ، فتفجرت من عينيه المضطربتين دموع سخينة ، وانحنى على • وأخذ
ينظر فى وجهى فاحصا • فكررت قائلة ، وأنا شبه مجنونة :

— بابا • بابا العزيز • لا تنظر الى هكذا • بابا ، لنذهب من هنا ،
لنذهب بسرعة • لنذهب •

— نعم • لنذهب • لنذهب • آن الأوان • لنذهب يا نيتوتشكا •
بسرعة ، بسرعة •

وتحرك حركة من فهم فجأة مابقى عليه أن يعمل • فألقى على
الغرفة نظرة مستديرة ، ولح وشاح أمى ساقطا على الارض ، وفرعه ،

ووضعه فى جيبه ، ثم رأى قبعتها فحملها أيضا ، وخباها تحت ثيابه ،
كمسافر يزعم رحلة طويلة ، فيأخذ كل ما قد يحتاج اليه .

أما أنا ، فبعد أن ارتديت ثوبى بسرعة ، أخسذت أجمع ما بدا لى
ضروريا للرحلة . ثم سألتى أبى :

- هل انتهيت من أخذ كل ما يجب ؟ هل هذا كل شيء ؟ هل
انتهيت من كل شيء ؟ اذن فلنذهب بسرعة .

وحزمت متاعى بسرعة ، ولفعت رأسى بوشاح . الا اننى فى اللحظة
التي أوشكت أن أخرج فيها ، تذكرت أن على أن أحمل اللوحة المعلقة
على الحائط ، ووافق أبى على ذلك فورا . انه الآن هادىء ، يتكلم همسا ،
ويردد أن علينا أن نمضى بسرعة . كانت اللوحة معلقة فى مكان عال جدا
من الجدار . فتعاوننا معا على وضع كرسي أسندناه الى الحائط ووضعنا
فوقه مقعدا صغيرا ، حتى استطعنا بفضل هذه السقالة وبفضل جهودنا
المشتركة أن ننزل اللوحة من مكانها . وبعد ذلك لم يبق علينا الا أن نسير .
وأمسك أبى يدي ، الا انه استوقفنى حين أوشكنا أن نجتاز عتبة الغرفة .
وحك جبينه مدة طويلة كمن يحاول أن يتذكر ما بقى عليه أن يعمل .
وأخيرا وجد ما كان يبحث عنه : مضى الى سرير أمى ، فتناول من تحت
مخدتها مفتاح الخزانة الصغيرة ، وراح ينبش فى هذه الخزانة على عجل ،
ثم عاد يحمل الى بضعة دراهم وجدها فى قاع الدرج ، وقال لى مددما :
- خذى هذا ، احتفظى به . لا تضيعيه . حذار أن تضيعيه .

وقد دس الدراهم ، أول الامر ، فى يدي ، الا انه غير بعد ذلك
رأيه ، فاستردها منى ؟ ووضعها فى قميصى . ما زلت أتذكر الرعدة التى
سرت فى جسمى حين شعرت ببرودة الدراهم على جسدى . أعتقد اننى

فى تلك اللحظة انما أدركت قيمة المال • لقد انتهت كل تحضيراتنا الآن •
ومع ذلك استوقفنى أبى مرة أخرى •

قال وهو يستجمع أفكاره فى جهد :

– نيتوتشكا • اسمى يا بنيتى الصغيرة • ولكن نسيت • ماذا ؟ ماذا
يجب أيضا ؟ ها • نعم • نعم • تذكرت ، تعالى • هلمى يا نيتوتشكا •

وقادنى الى الركن الذى وضعت فيه الصور ، وأمرنى أن أركع •

– صلى يا بنيتى • هذا أولى بك • هذا أولى بك • نعم هذا أولى
بك •

قال ذلك هامسا وهو يرينى الأيقونة ، ويلفنى بنظرة غريبة • ثم
أضاف بصوت متوسل :

– صلى • صلى •

فركعت ، وضممت يدى احديهما الى الاخرى ، ثم لم ألبث – وقد
خنقنى الخوف – ان وقعت على الارض لا أعى ، وبقيت على هذه الحال
بضع دقائق • ثم استجمعت قواى كلها ، ووجهت عاطفتى كلها الى الصلاة ،
غير أن الخوف ظل أقوى من كل ذلك ، فنهضت وقد اجتاحتنى حزن
فظيع • وددت منذ تلك اللحظة أن لا أتبع أبى ، لقد كان يخيفنى ••
وددت لو أبقى • ثم انفرجت شفتاى عن سبب عذابى الشديد فقلت وقد
تفجر دمعى غزيرا :

– وماما ؟ ماذا بها ؟ أين هى •• أين ماما ؟

ولم أستطع أن أتم كلامى من شدة الانتحاب •

فلما رآنى أبكى ، أخذ يبكى هو الآخر •

ثم أمسك بيدي ، وقادني الى السرير ، فرفع كومة الملابس • ورفع
الغطاء • رياه • انها ترقد ، باردة ، صفراء الوجه • • فارتيمت عليها
كالجنونة ، لأطوقها بذراعي • وأمرني أبي أن أركع مرة أخرى ، وهو
يقول هامسا :

— انحنى يا بنتي ، قولى لها وداعا ••

انحنيت باحترام عميق ، وانحنى أبي في الوقت نفسه • لقد كان
شاحبا شحوبا رهيبا ، وكانت شفتاه تتحركان بهمس • قال وهو يشير الى
الجنان بيد مرتعشة :

— لست أنا ، يا نيتوتشكا ، لا ، لست أنا • هل تسمعين ؟

لست أنا الذي فعلت هذا • لست بمجرم • تذكرى هذا ، يا نيتوتشكا •
دعمت ، وقد بلغ بي الذعر حداً لم أعرفه من قبل :
— لنمض ، يا أبي ، آن الأوان ••
قال :

— نعم ، آن الأوان ، آن الأوان •

ثم أمسك ذراعي بقوة ، وقادني الى خارج الغرفة •

— هلمى يا نيتوتشكا • لقد انتهى كل شيء ، الحمد لله •

وهبطنا السلم ، واستيقظ البواب ، ففتح لنا الباب وهو ينظر إلينا
نظرة ارتياب • واجتاز أبي العتبة بسرعة كبيرة ، تحاشيا لأسئلته ، ولم
أستطع أن ألق به الا بصعوبة • وبعد أن سرنا في الشارع حتى آخره ،
وقفنا عند ضفة القناة • كان الثلج ، خلال الليل ، قد غطى أرض الشارع ،

وكانت خطاى ترتعد ؛ وكنت أركض وراء أبى منهوكة ، متعلقة بأذيال
ردائه • كان يحمل كمانه تحت ابطه ، يتوقف فى كل لحظة ليرفقه ، وهو
يوشك أن يسقط من الانزلاق •

مشينا هكذا قرابة ربع ساعة • وأخيرا هبط أبى على الرصيف
المنحدر ، فلما وصل الى ضفة الماء ، جلس على حافته ، فكان الماء يهدر
على خطوتين منا ، وليس حولنا أى مخلوق • ان الذعر الذى تملكنى فى
تلك اللحظة سيقى منقوشا فى نفسى الى الأبد ! •• ان ما حلمت به خلال
السنة الماضية قد تحقق • ها نحن قد هجرنا منزلنا الحقيقى • ولكن أين
هذا مما كنت أتوقعه ، مما كنت آمله ، مما صورته لى خيال الطفلة ، من
أجل سعادة هذا الانسان الذى كنت أحبه حبا عنيفا كل هذا العنف ،
عميقا كل هذا العمق ؟ •• ثم ان ذكرى أمى كانت تلاحقنى ، فكنت
أُتساءل : « لماذا تركناها هنالك وحدها ؟ لماذا تركنا جثمانها كما يترك
نوى لا فائدة فيه ؟ » • كان هذا التفكير يعذبنى •

ولم أستطع أن أحفظ لنفسى بهذه الأفكار التى تشغل بالى ، فناديت
أبى :

— أبى • أبى الحبيب ••

— ماذا ؟ (قال ذلك بلهجة صارمة) •

— أبى الحبيب ، لماذا تركنا أمى هناك ، لماذا تركناها ؟ أبى الحبيب •

لنعد الى البيت ، فندعو أحدا يبقى الى جانبها !

فصرخ فجأة وهو ينهض مرتعدا ، كمن وافته فكرة تحل جميع
مشاكله :

- نعم يا نيتوتشكا • لا يمكن أن نفعل هكذا • يجب الرجوع الى جوار ماما • ان الجو بارد عليها هناك • اذهبي اليها يا نيتوتشكا ، اذهبي اليها • ليست الغرفة مظلمة • فهناك شمعة مشتعلة • لا تخافى • ادعى اليها أحدا ، وارجمى • اذهبي وحدك • انى منتظرک • لن اتحرك من هذا المكان قبل أن ترجعنى •

ومضيت فورا ، الا اننى لم أكد أصل الى الرصيف حتى شعرت كأن ضربة تصيب قلبى ، فالتفت الى الوراء ، فاذا أنا أرى أبى يهرب فى الجهة الأخرى • لقد تركنى • تركنى فى لحظة كهذه ! • • فصرخت بكل قواى ، وأخذت أعدو وراءه عدوا سريعا ، وقد تملكنى خوف ميجنون • • الا انه كان أسرع منى ركضاً فما لبث أن غاب عن بصرى ، وأنا ألهث مهددة القوى خائفة • • ووجدت قبعة فى الطريق • لقد سقطت عن رأسه وهو يركض • فحملت القبعة ، وتابعت عدوى • شعرت بأنفسى تنقطع ، وبساقى تترنجان تحتى • أحسست أن ما يقع لى الآن ليس أمرا طبيعيا ، وأنه لا بد أن يكون أضغاث أحلام • • ان ما أعانيه لشيء جدا بما يشعر به الحالم ، حين يريد الافلات من شخص يلاحقه ، فتأبى أقدامه السير ، ويتهى به الامر الى الاغماء • كانت تمرقنى مشاعر فظيعة • كنت أشفق على أبى : كان صدرى يختنق اذ أتذكر أنه بلا معطف ، وبلا قبعة ، بعيدا عنى ، بعيدا عن طفلة الحبيبة • كنت أود أن أدركه ، حتى أستطيع أن أعانقه ، مرة واحدة على الاقل ، عناقا قويا ، وحتى أستطيع أن أقول له أن لا يخاف منى • • حتى أستطيع أن أطمئنه • • حتى أستطيع أن أؤكد له اننى لن أعدو وراءه اذا كان يريد ذلك ، واننى عائدة وحدى الى جانب أمى • ولمحته من بعيد يدخل فى أحد الشوارع • وحين دخلت فى هذا الشارع فى أعقابہ كنت أراه أمامى • الا أن قواى خائتتى عندئذ فأخذت أجهش بالبكاء وأصرخ • وما زلت أذكر اننى ، أثناء ركضى ، اصطدمت

بشخصين ، وقفا فى وسط الرصيف ، وأخذنا ينظران إلينا ، أنا وأبى ،
دهشين • وصرخت مرة أخيرة :

— بابا • بابا •

الا أن قدمى زلت على الرصيف ، فسقطت أمام عتبة أحد البيوت •
وأحسست بالدم يسيل على وجهى •• ثم أغمى على ، فلم أشعر بعد ذلك
بشئ ••



وحين فتحت عيني ، وجدتني على سرير دافئ جميل ، ورأيت الى
جانبي وجوها لطيفة أفرحتها يقظتى • ورأيت سيدة مسنة على عينيها
نظاراتان ، وسيدا طويلا ينظر الى وقد ظهرت على وجهه امارات شفقة
عميقة ، ورأيت امرأة شابة جميلة ، ورأيت كذلك عجوزا أسيب يمسك
بيدى وهو ينظر فى ساعة • لقد بعثت الى حياة جديدة •

ان أحد الأشخاص الذين صادفتهم فى طريقى أثناء ركضى المسعور
كان هو الامير «ك» ، وقد سقطت على عتبة منزله • فقرر هذا الامير الذى
أرسل الى أبى تذكرة حضور الحفلة التى أقامها الموسيقى «س» ، قرر
— حين عرف من أنا ، بعد بحث طويل متعب — أن يسكننى فى بيته ، وأن
يرينى مع أبنائه ، متأثرا من هذه المصادفة العجيبة •. وبحثوا عن المصير
الذى آل اليه أبى ، فعرفوا أنه عُثر عليه فى ركن من أركان إحدى
الضواحي ، وهو فى نوبة هذيان شديد فقادوه الى أحد المستشفيات ، حيث
مات بعد يومين •

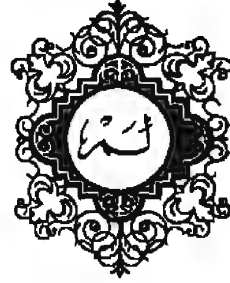
الموت ! مثل هذه النهاية نتيجة طبيعية ، حتمية ، للحياة التى عاشها •
كان لا بد أن يموت هكذا ، حين غاب عنه — فى طرفة عين ، كما يفتب

سرّاب مبهم فارغ - كل ما كان يشهده الى الحياة .. حين تسدد أمله العظيم ، حين أدرك ادراكا واضحا باهرا انه قد خدع في حقيقة قيمته ، خلال حياته كلها . لقد تجلّت له الحقيقة ساطعة تظهره على مدى ضلاله . لقد سمع ، في ساعته الاخيرة ، عبقرية رائعة فتحت عينيه وأعلنت له أنه لا شيء ، فحكمت عليه هكذا بالموت .. حين سمع أبى اللحن الاخير الذى فجره « س » من أوتاره ، أدرك ما هو الفن الرائع ، الفنى دائما ، الصادق القوى أبدا ، وعرف ما هى العبقرية . ان كل ما كان يقلقه فى غياهب نفسه ، خلال حياته كلها ، كل ما لم يكن حتى هذه اللحظة الا رؤى غائمة وخيالات متهربة ، كل ما أوجسه فى بعض اللحظات ثم دفعه عن نفسه خائفا ، كل ما لفع به حياته من كذب عنيد ، كل ما كان يراه مقبلا ، ويخشى أن يراه ، كل ذلك بدا أمام عينيه الآن فجأة ، أمام عينيه اللتين كانتا تصران على أن لا تريا أن النور نور ، وأن الظلمات ظلمات . الا أن الحقيقة كانت أقوى من أن يحتملها نظره : انه مضطر ، لأول مرة ، أن ينظر الى الأمور ، على حقيقتها ، وجهها لوجه ؛ وأن يرى المصير الذى رسمه لنفسه . فلما رأى ذلك كله بلغ من الاضطراب حداً أفقده عقله ، لقد وقعت الحقيقة على عقله موقع الصاعقة .. على أن الحقيقة التى أدركها كان ينتظرها ، بالرغم منه ، خلال حياته كلها ، وهو يرتعد من الخوف . كأن فأسا كانت مسلطة على رأسه خلال حياته كلها ، فكان ينتظر الضربة القاضية فى كل لحظة ، وها هى ذى الضربة القاضية قد أتت ! نعم انها ضربة قاضية . كان يريد أن يهرب من محكمة ضميره ولكنه أصبح الآن لا يستطيع أن يجد ملجأ يهرب اليه . زال آخر أمل له ، وتبددت آخر حجة يمكن أن يتعلل بها .. ان تلك التى ضاق بوجودها ذرعا خلال مدة طويلة ، تلك التى كانت تسمم حياته ، والتى كان يعتقد أن من حقه أن

يتمنى موتها منقذا له ، قد مانت أخيرا .. ها هو ذا الآن حر ، لا يزعجه
أحد ؟ وقد زالت عماوته ؟ وتملكه حزن مهلك . أراد أن يحكم على
نفسه بقسوة لا ترحم ، بقسوة من يحكم حكما لا تحيز فيه . الا أن
قوسه الضعيف لم يستطع أن يفعل شيئا غير أن يردد النغمات الاخيرة التي
عزفها الموسيقى العبرى «س» .. !

لقد كان الجنون يتربص به منذ عشر سنين .. وها هو ذا الآن
ينفض عليه بقة !

الفصل الرابع



استرد صحتي الا بعد مدة طويلة * وحين
استطعت أن أتترك سريري نهائيا ، كانت ذاكرتي
ما تزال من الوهن بحيث ظلمت مدة طويلة لأفهم
ما صرت اليه * كنت في بعض اللحظات أحسب

أنني في حلم ، وتمنت أن يكون كل ما وقع لي حلما من الأحلام * كنت ،
إذا جاء المساء ، وهممت أن أنام ، آمل أن أستيقظ فجأة فإذا أنا في مسكننا
البائس ، بين أمي وأبي * الا أنني أدركت شيئا فشيئا انني وحدي ،
وانني أعيش عند غرباء *

شعرت أخيرا انني يتيمة *

وأخذت أتأمل ، في كثير من الشراة ، ما يحيط بي من أشياء
جديدة على كل الجدة ، فبدأ لي كل شيء ، في أول الأمر ، غريبا عجيبا
محيرا : هذه الوجوه الجديدة ، هذه العادات الجديدة ، هذه الحجرات
الفخمة في قصر قديم من قصور الامراء * ما زلت أرى هذه الحجرات

واسعة ، عالية ، مترفة ، وما زلت أراها كذلك حزينة ، كئيبه ، يملكنى
الخوف حين أجتاز احداها ؛ وأشعر انى لا بد ضائعة فيها . لم أكن قد
شفيت تماما بعد . كان خوفى المستسر منسجما تمام الاسجاء مع هذا
المسكن الحزين ، على روعته وجلاله . ثم ان حينا قويا غيفا كان ما يننى
ينفذ عميقا الى قلبى الفتى . كنت أأسمر خائفة أمام لوحة من اللوحات ،
أو مرآة من المرايا ، أو مدفأة من المدافئ الأنيقة الصنع ، أو تمثال يخيل
الى أنهم دفعوه خصيصة الى قاع ركن من الاركان ليحسن التحديق الى
تخويفا لى . كنت أأسمر ، ثم أنسى فجأة لم وقفت وماذا أريد ، وفيما
أفكر ، حتى اذا عادت الى ذاكرتى رأيتنى من الخوف بحيث يخفق قلبى
خفقانا غيفا .

بين الذين كانوا يعودونى أيام كنت مريضة جدا ، فيما عدا الطبيب
المعجوز ، كان هنالك شخص أثر وجهه فى نفسى تأثيرا كبيرا . كان وجهه
رصينا وطييا ، وكان ينظر الى فى كثير من الشفقة والمحبة . كنت أوتر
وجهه على جميع الوجوه الاخرى ، وكنت أشعر برغبة قوية فى مخاطبته ،
الا اننى لم أجرو على ذلك . كان يبدو دائما حزينا جدا ، وكان يتحدث
قليل ، وبصوت متقطع ، دون أن تطوف فى شقيقه يوما أضعف ابتسامة .
كان ذلك الشخص هو الامير «ك» نفسه ، الذى حملنى من الشارع
وأسكننى فى بيته . كانت زياراته تقل شيئا فشيئا مع تقدمى فى مرحلة
النقاها . وفى آخر مرة زارنى فيها حمل الى حلوى وكتاب صور . ثم
قبلنى ، ورسم على إشارة الصليب ، وطلب منى أن أحاول المرح ، وأبأبى
- على سبيل التشجيع - انه سيكون لى بعد قليل صديقة من سنى ، هى
ابنته « كاتيا » التى كانت يومئذ فى موسكو . ثم التفت الى فرنسية متقدمة
فى السن هى مربية أبنائه ، والى فتاة تعنى بشئونى ، فأوصاهما بشئ .
يتعلق بى . ثم خرج ، ولم أره الا بعد ثلاثة أسابيع من تلك اللحظة .

كان الامير يعيش حياة خاصة ، فى عزلة تامة عن الناس • وكانت الاميرة تشغل نصف القصر ، وكانت هى نفسها ، خلال أسابيع طويلة ، لا ترى زوجها • ولاحظت بعد ذلك أن سكان هذا المنزل لا يتحدثون عن الامير كثيرا ، كانما هو غائب • الا أن كلا منهم كان يحترمه • ان المرء يشعر أنهم يحبونه ، ولكنهم يعدونه انسانا شاذا بعض الشيء • وكأنما كان يدرك هو نفسه انه ليس كثيره ، فكان لهذا السبب لا يظهر الا نادرا • (ولسوف اتحدث عنه تفصيلا فيما بعد) •

وفى ذات صباح ، جامونى بملابس داخلية بيضاء جميلة ثم بتوب من الصوف الاسود مزين ، اخذت ارمقه دهشة قلقة ، ثم أنزلونى ، بعد ان اتموا زينتى ، الى جناح الاميرة • طاش لى حين رأيتنى أمامها • لم يسبق لى فى حياتى أن رأيت نفسى فى جو مترف رائع الى هذا الحد • غير ان انشدهاى لم يدم طويلا • سمعت الاميرة تطلب الى أن اقرب ، وامتقع لونى • لقد قدرت ، وهم يلبسونى ، أنهم انما يهيئونى لامتحان خطير • لا أدرى كيف راودتنى فكرة كهذه ، على أننى كنت قد دخلت حياتى الجديدة وفى نفسى حذر غريب من كل من يحيطون بى • ولاطفتنى الاميرة كثيرا ، بل قبلتنى ، فتجاسرت عندئذ أن أنظر اليها • كانت هى السيدة الجميلة التى رأيتها واقفة الى سريرى حين أفقت من الانعماء • وارتعش جسمى كله وأنا أقبل يدها ، ولم أستطع أن أجد فى نفسى من القوة ما يكفى للإجابة على أسئلتها بشئ • وأجلستنى قريبا منها على مقعد صغير ، وكان هذا المكان قد أعد لى خصيصا • كان واضحا ان الاميرة كان يسعدها أن تحبنى حبا صادقا ، وأن تغمرنى بالقبل ، وأن تكون لى أما ، غير أننى لم أفهم هذه السعادة التى تهبط على ، فلم أحظ بتقدير الاميرة كثيرا • وأعطيت كتابا جميلا من صور ، أمرت أن أنظر

فيه ، بينما أخذت الاميرة تكتب ، وكانت تترك قلمها من حين الى حين ،
لتحدثني ، فكنت أضطرب وأجيب اجابات طائشة •

والخلاصة : اننى تصرفت تصرف طفل تافه ، مذعور ، خائف ، بل
غبي • وان غباوتى خاصة هى التى ساءت الاميرة ، ولئن ضاقت بى ذرعا
بعد مدة قصيرة ، فلا شك اننى مسئولة وحدى عن ذلك •

وفى نحو الساعة الثالثة بدأت الزيارات ، ولم تلبث الاميرة أن
أصبحت أكثر عناية بى ، وأكثر رقة معى من ذى قبل • وأجابت على
أسئلة الزوار عنى بأن قصتى قصة غريبة جداً ، ثم أخذت تتحدث بالفرنسية
حالا • فكان الزائرون أثناء حديثها ينظرون الىّ وهم يهزون رموسهم ،
ويطلقون من أفواههم صرخات التعجب • حتى ان شاباً من الحاضرين أدار
نظارته ليحديق فى • وحاول عبجوز أشيب أن يقبلنى • وكنت أنا أرتجف ،
واصفر ، واحمر ، وظللت قابضة فى مكائى مطرقة ، لا أجرؤ على القيام
بحركة • وكان قلبى منقبضاً يؤلمنى • أخذت أفكر فى منزلنا البائس ••
فى أبى •• فى سهراتنا الطويلة الصامتة •• فى أمى •• فلما تذكرت
أمى فاضت عينائى بالدموع ، وانقبض حلقى ، ووددت لو أهرب ، لو
أختفى ، لو أختبئ •• وما ان انتهت الزيارات حتى استعاد وجه الاميرة
قسوته • فكانت لا تنظر الىّ نظرة رقيقة ، بل تخاطبني بخشونة • الا أن
ما كان يرعبنى أكثر من ذلك انما هو شفتاها المشدودتان ، وعيناها
السوداوان اللتان تحمقان فى أحياناً ، خلال ربع ساعة •

ولما أتى المساء ، أعادونى الى فوق • وعند منتصف الليل استيقظت
محمومة ، وأخذت أبكى مذعورة من أحلامى المخيفة • وفى صباح اليوم
التالى ، تكررت الحفلة نفسها ، وقادونى مرة أخرى الى جناح الاميرة •
ولعل الاميرة قد ملت قص منامراتى لزوارها ، واستنفد الزوار ، من

جهتهم ، اهتمامهم بى وعطفهم على • ثم اننى طفلة عادية جدا ، ليس فى شىء من « براءة الطفولة » (هكذا قالت الاميرة ذات يوم لسيدة مسنة سالتها هل يمكن أن لا يزعجها وجودى) • وفى ذات مساء ، ارجعونى الى فوق مرة أخيرة ، ولم يقودونى بعد ذلك الى الاميرة قط • انتهى الامر • لم يبق لى من حظوة لديها • الا انه كان يسمح لى أن أطوف حيث اشاء من أرجاء البيت • ولما كنت لا أستطيع أن أستقر فى مكان ، لفسرط اضطرابى وقلقى ، فقد كنت أشعر أننى من أسعد الناس طرا حين كنت أستطيع ان أنزل فى الطابق الأدنى ، فى أعماق الحجرات الواسعة • وأذكر أننى شعرت برغبة قوية فى أن أكلم سكان البيت ، ولكنى كنت من خوفي أن أزعجهم أوثر تجنبهم • والذى كنت أحبه أكثر من كل شىء آخر هو أن أنطوى فى ركن من الاركان لا يرانى فيه أحد ، وراء قطعة من الاثاث مثلا ، غارقة فى ذكرى ما وقع لى • ولكن العجيب فى الأمر اننى كنت كأنما نسيت النهاية الفظيعة لما وقع فى بيت أبوى • كانت تخطر أمامى صور ووقائع • • والحق اننى كنت أتذكر كل شىء ، كنت أتذكر الليلة الاخيرة ، والكمان ، وأبى • كنت أتذكر كيف دبرت له المال • • أما التفكير فى هذه الاشياء ، أما تحليل هذه الاشياء ، فقد كنت عاجزة عنه كل العجز • لقد كانت هذه الذكريات تقبض صدرى ، وحين كنت أصل منها الى ذكرى أمى ، الى اللحظة التى ركعت فيها أمام جثمانها أصلى ، كانت تسرى فى ظهري قشعريرة باردة كالثلج ، فأرتجف ، وأطلق صرخة ضعيفة ، وتختنق أنفاسى ؛ ويبلغ انقباض صدرى ، وخفقان قلبى ، وذعري ، حدا لا يسعنى معه الا أن أهرب من مخبئى •

لقد أسأت التعبير حين قلت انهم كانوا يتركونى وحدى ، فالحق أنهم كانوا يراقبونى مراقبة دقيقة ، دون أن يظهر عليهم ذلك • لقد

كانوا ينفذون فى هذا وصايا الامير ، الذى أمر أن لا يزعمجونى فى شىء .
وأمر مع ذلك ان لا أغيب عن بصرهم دقيقة واحدة . فكنيت ، من حين
الى حين ، أرى أحد سكان البيت أو احد الخدم ، يلقي نظرة على الفرفه
التي آكون فيها ، ثم ينسحب دون أن يقول كلمة واحدة . ولقد أدهشنى
هذا الانتباه وأقلقنى ، ولم أستطع ان أفهم له سببا ، كنت أعتقد انهم
يراقبونى لقصد خفى ميت ، يريدون أن يصنعوا بى شيئا فيما بعد ،
لذلك كنت أجهد أن أكتشف فى المنزل ركنا مخبأ أخفى فيه عند
الضرورة . وفى ذات مرة غامرت فصعدت السلم الكبير . انه سلم واسع
من رخام فرش بالسجاد ، وزين بالازهار ، وبروائح الخزف . وفى نهاية
كل طبقة منه جلس حارسان طويلا ، يرتديان ثيابا موشاة وقفازان
بيضاء ، وربطة عنق ناصعة البياض . نظرت اليهما قلقا ، ولم أستطع أن
أفهم لم يجلسا هنالك ، ينظر أحدهما الى الآخر ، دون أن يقول شيئا ،
ودون أن يعمل شيئا !

وكنت أزداد سرورا ، يوما بعد يوم ، بهذا الطواف وحدى . ثم
ان هناك سببا آخر كان يحدونى الى الهرب من الطابق الأعلى . كانت
تعيش هنالك عمه للاميرة عجوز ، انقطعت عن الخروج ، ولا تقابل أحدا .
لقد تركت هذه المرأة العجوز فى نفسى أثرا واضحا جدا . وشعرت أنها
ان لم تكن أهم شخصيات المنزل ، فهى قريبة من ذلك . كان جميع من فى
الدار يخضعون فى صلاتهم بها لمراسم فخمة ، بل ان الاميرة نفسها ،
ذات النظرة الشامخة الأمرة ، كانت مضطرة أن تصعد فى زيارة خاصة
لعمتها مرتين فى الاسبوع ، فى يومين معينين . كانت تزورها عادة فى
الصباح ، فيدور بين السيدتين حديث رصين كثيرا ما تقطعه فترات من
الصمت ، تملؤها العجوز بدمدمة صلواتها ، أو عد أورادها على سبحتها .
وكانت الزيارات تطول أو تقصر وفقا لمشية العمه ، اذ كانت العمه ،

تنهض فجأة ، فتقبل الاميرة على شفتيها ، مشيرة بذلك الى أن الزيارة قد انتهت . ولقد كان على الاميرة فى أول الأمر ، أن تزور عمتها مرة كل يوم ، الا أن هذه المراسم قد تراخت بعد ذلك بموافقة السيدة العجوز ، وصار يكتفى من الاميرة أن ترسل أحدا فى كل صباح يستفسر عن أبناء العمة . ثم ان العمة ، وقد طعنت فى السن كثيرا ، كانت تعيش منزوية . لقد كانت عذراء . وقد أرادت فى الخامسة والثلاثين من عمرها أن تدخل الدير ، الا أنها بعد أن قضت فيه سبعة عشر عاما دون أن تقطع عهد الترهب ، تركت الدير وعادت الى موسكو . أرادت أن تعيش هنالك مع أختها ، أرملة الكونت «ل» ، التى كانت صحتها تسوء سنة بعد سنة . وأن تتصالح مع أختها الأخرى ، الاميرة «ك» ، بعد خصومة بينهما دامت عشرين عاما على أقل تقدير : الا أن هاته العجائز لم يستطعن ، فيما يقال ، أن يتفاهمن يوما واحدا ، وأردن ألف مرة أن ينفصلن دون أن ينفذن ذلك ، اذ كن فى كل مرة يشعرن فى آخر لحظة بحاجة بعضهن الى بعض ، لدفع الملل ومزعجات الشيخوخة . ورغم أن حياتهن العائلية هذه لم تكن جميلة ، ورغم الضجر الوقور الذى كان يخيم على مسكنهن النسوى بموسكو ، فقد كان المجتمع الراقى كله فى المدينة يشعر بأنه مضطر الى زيارة المنزليات الثلاث . كان الناس يعتبرونهن حارسات التقاليد الارستقراطية كلها ، ويرون فيهن الصورة الحية للنبالة القديمة . كانت الكونتة امرأة ممتازة ، خلّفت كثيرا من الذكريات الجميلة . كان جميع الذين يصلون من بطرسبرج يُخصّصون السيدات بأولى زياراتهم . وكان جميع الذين يستقبلون فى منزلهن يستقبلون بعد ذلك فى كل مكان . الا أن الأختين انفصلتا ، بعد موت الكونتة . أما الاميرة «ك» ، وهى الكبرى ، فقد بقيت فى موسكو ، لكى تصفى حساب نصيبها من تركة الكونتة التى توفيت عن غير ولد . وأما الصغرى ، المترهبة ، فقد مضت

الى بطرسبرج تقيم عند ابن أخيها ، الامير «ك» . وبسبب هذا الحداد ، يقيم ولدا الأمير ، كاتيا والكسندر ، عند عمتهما الكبيرة بوسكو ، يواسيانها فى وحدتها . ورغم أن الاميرة كانت تحب ولديها جدا دائما ، فانها لم تسمح لنفسها بأن تعترض على انفصالهما عنها طوال مدة الحداد . نسيت أن أقول ان الحداد كان ما يزال قائما يوم دخلت منزل الامير ، الا انه كان مشرفا على الانتهاء .

وكانت الاميرة المعجوز ترتدى دائما ثوبا من صوف أسود تزينه ياقة صغيرة بيضاء تضيى عليها حقا هيئة راهبة . ولم تكن تترك سبحتها، وكانت تضى الى الصلاة فى كثير من الفخامة والجلال ، وتصوم كل يوم ، وتستقبل رجالا من أهل الوقار ، وسدنة الكنيسة ، وتقرأ الكتب المقدسة ، أى كانت على الجملة تعيش حقا حياة رهبنة . وكان الصمت فى الطابق الأعلى رهيبا . كان لا يمكن أن يسمع فيه صرير باب يفتح أو أى صوت آخر ضئيل دون أن ترسل الأنسة المعجوز أحد الخدم تسأل عن سبب هذه الضجة (كانت أذنها مرفهة السمع كأذن صبية فى الخامسة عشرة !) . وكان الجميع يتحدثون هنالك همسا ، ويمشون على رءوس الاصابع . وحتى الفرنسية المسكينة اضطرت ، رغم سنّها ، أن تتنازل عن حذاءها المفضل ، ذى الكعب : ان الاحذية ذات الكعب ممنوعة فى الطابق العلوى . وقد أرسلت الاميرة ، بعد دخولى البيت بأسبوعين ، تسأل عن أمرى : من أنا ؟ وما وجودى فى البيت ؟ النخ . . فأسرعوا فى الاجابة على سؤالها باحترام عظيم . عندئذ أرسلت تسأل الفرنسية مرة أخرى عن السبب فى انها لم ترنى بعد . فأدى ذلك الى حركة كبيرة فى البيت : أخذوا يسرحون شعرى ، ويفسلون وجهى ويدي ، دون ما داع الى ذلك ، ويعلموننى كيف أمشى ، وكيف أقدم لها احترامى واجلالى ؛ وأوصونى بأن أكون ألطف وأرق ، وكالوا لى كل أنواع التأنيب

والتقريع • ثم أرسلوا رسولا يسأل الاميرة العجوز هل تود أن ترى اليتيمة • فقبل للرسول كلا ، وأمر بأن أحضر إليها فى الند بعد الصلاة • لم يغمض لى جفن طوال الليلة كلها ، وقيل لى فيما بعد اننى هذيت • كنت أرانى أصلى بلا انقطاع ، أمام السيدة ، استرحم عفوها وألتمس غفرانها !

وأخيرا ، جاءت لحظة المثل بين يديها • • فرأيتنى أمام عجوز نحيلة قصيرة ، غارقة فى مقعد كبير • أشارت الىّ أن أتقدم ، ووضعت نظارتها على عينيها ، لترانى من كتب • أذكر أننى لم أفر باعجابها أبدا • وتفضلت فقالت اننى متوحشة حقا ، لا أعرف كيف أركع ولا كيف أقبل اليد • وانهاالت علىّ بأسئلتها ، فكنت لاأكاد أجيب ، حتى اذا سألتنى عن أبوى ، انفجرت باكية • وساء السيدة العجوز أن ترانى حساسة الى هذا الحد • وظنت مع ذلك أنها تواسينى اذ أمرتنى أن أفوض أمرى الى الله ، وأن أضع أملى فيه • ثم سألتنى عن آخر مرة ذهبت فيها الى الكنيسة ، فلما لم أكد أعرف ما معنى هذا ، لأن تربيتى الدينية كانت مهملة جدا ، ظهر على العجوز امتعاض لا يوصف • واستدعيت الاميرة الشابة ، وعقد اجتماع قرروا فيه أن يقودونى الى الكنيسة فى يوم الاحد القادم ، وتمهدت الاميرة العجوز بأن تدعو لى فى صلواتها • الا أنها أمرت فى الوقت نفسه بأن أنصرف ، لأن رؤيتى ، فيما قالت ، تؤلمها كثيرا • لم أر فى كل هذا شيئا خارقا ، وأنا فيما أنا فيه • الا أن الشيء المحقق الذى لا ريب فيه هو أنها كرهتنى جدا • وفى هذا اليوم نفسه أرسلت تقول اننى أكره من الحركة ، وان حركتى مسموعة من أول البيت الى آخره ، مع اننى فى الواقع ظللت طيلة اليوم قابعة فى مكانى لم أتحرك • لقد خلقت السيدة العجوز هذه الفكرة من خيالها ، وثبت ذلك فى اليوم التالى حين أرسلت تبدى هذه الملاحظة عينها • الا اننى فى ذلك اليوم نفسه سقط من يدى

فنجان ، فتحطم على الارض ، فذعرت الفرنسية وجميع الوصيفات ذعرا شديدا ، وأقصيننى فورا الى أبعد غرفة ، ولحقن بى مذعورتين ذعرا هائلا •

لا أتذكر الآن كيف انتهت هذه القضية • ولكننى سمعت جدا بالنزول الى الحجرات الكبيرة السفلى ، والطواف فيها وحدى ، مطمئنة الى أننى لا أزعج أحدا •

وفى ذات مرة ، كنت جالسة فى احدى هذه الحجرات السفلى ، مطرقة الرأس ، مسندة وجهى الى يدى ، منذ ساعات ، أفكر ، وأفكر • لم يكن عقلى من النضج ولا من القوة بحيث أستطيع أن أعرف حزنى ، الذى كان مع ذلك يزداد حتى ليخنقنى خنقا • وفجأة سمعت صوتا رقيقا ينبعث أمامى :

— ما بك ، أيتها الصغيرة المسكينة ؟

كان ذلك الصوت هو صوت الامير • وكان وجهه يعبر عن رحمة عميقة • فلما رفعت اليه بصرى ، ولمح فى نظرتى الهلاك والبؤس ، تفرقت فى عينيه الزرقاوين دمعة •

قال وهو يداعب رأسى :

— مسكينة أيتها اليتيمة !

فصرخت وأنا أشهق :

— كلا • كلا • كلا • لست يتيمة •

ونهضت ، ووثبت اليه فأمسكت بيده ، وأخذت أغرقها بالقبل والدموع ، وأنا أقول :

— كلا • كلا • لست يتيمة •

— ولكن ماذا بك ؟ ماذا بك يا عزيزتى الصغيرة ؟ يائيتوشكا

المسكينة ؟ ماذا بك ؟

صرخت وقد ازداد شهيقى :

— أين أمى ؟ أين أمى ؟

ولم أستطع أن أخفى حزنى ، فهويت على ركبتيه ، وأنا أقول :

— أين أمى ؟ قل لى أين هى !

— سامحني يا صغيرتى ! آم • يا بنيتى المسكينة • • فيها اذن كنت

تفكرين • • ماذا صنعت ! تعالى معى ، يا نيتوتشكا ، اسرعى •

وأسك يدي ، وجرنى بخطى سريعة • كان متأثرا الى أعماق

نفسه • ودخل بى أخيرا فى غرفة لم أكن أعرفها بمد •

كانت تلك الغرفة هى غرفة المصلى • انها مظلمة ، فيما عدا القناديل

الصغيرة تنعكس أضواؤها الخفيفة على الاطر المذهبة ، وعلى الاحجار

الكريمة فى الايقونات • وكان القديسون ، من قلب الاطر اللامعة ،

ينظرون الى " فى غموض • لائىء فى هذا المكان يشبه الحجرات الأخرى •

ان جوها جو سرى ، وقور ، حتى ان نفسى تملكها شعور قريب من

الخوف • وهذا ، على كل حال ، أمر طبيعى فى الحالة الصحية التى كنت

فيها • وبادر الامير فأركننى أمام صورة للعذراء ، وركع هو الى جانبي ،

وهو يقول بصوت ناعم متهدج :

— صلى ، يا صغيرتى ، صلى ، سنصلى معا •

ولكن لم يسعفنى أى دعاء • كنت منفعلة جدا ، خائفة جدا كذلك •

تذكرت كلمات أبى ، فى تلك الليلة الاخيرة ، أمام جنمان أمى ، وانتابتنى

أخيرا نوبة عصبية • ورجعت الى السرير مريضة • وكدت أموت أثناء

هذه النكسة • واليكم كيف جرت الامور :

فى ذات صباح قرع سمعى اسم معروف هو اسم «س» ، لفظه أحد الى جانب سريرى ، فارتعدت . وهاجمتنى الذكريات تترى ، وقضيت ساعات من الهذيان أبحت فى ذاكرتى ، وأحلم ، وأتعذب . وحين استيقظت ، بعد مدة طويلة ، كان الظلام يخيم فى الغرفة . كان القنديل قد انطفأ ، وكانت الحاديات قد مضين ، مع أن العادة أن يبقين الى جانبي . وفجأة سمعت أصوات موسيقى آتية من بعيد . كانت هذه الاصوات تخف أحيانا حتى لا تسمع ، وتندوى أحيانا أخرى كأنها تأتي الى . لا أدرى أى شعور اجتاحتني فى تلك اللحظة ، ولا أفهم هذا القرار الذى انبجس فى دماغى المريض على حين غرة : رأيتنى أنهض من سريرى ، وأرتدى ثوبى الاسود ، ثوب الحداد ، بسرعة ، دون أن أملك القوة لذلك ، ثم أترك الغرفة وأنا أتحسس طريقي . لم ألق أحدا ، لا فى الغرفة المجاورة ، ولا فى الغرفة التى دخلتها بعد ذلك . ووجدتنى أخيرا فى الممر . اقتربت الاصوات . فى وسط الدهليز كان يقع السلم الذى اعتدت أن أهبط عليه الى القاعات الكبيرة . ان الأنوار تتلألا فيه ساطعة . وسمعت وقع أقدام فى أسفل ، فلطوت فى ركن حتى أرى . ولم أدخل فى الدهليز الا حين اعتقدت أن أحدا لن يرانى . كانت الموسيقى تنبعث من حجرة مجاورة . وكانت ضجة الاصوات هنالك تنبئ . بوجود عدد من الناس كبير . كان أحد أبواب القاعة ، وهو الباب المطل على الدهليز ، مغطى بستار مزدوج من مخمل قرمزى . رفعت أحد ذيول الستار الاول ، واختبأت وراءه . كان قلبى يخفق خفقانا قويا ، وكنت لا أكاد أقوى على الوقوف على قدمي . غير اننى استطعت ، بعد بضع دقائق ، أن أملك زمام انفسالى ، وجازفت فرفعت ذيل الستار الثانى . يا الهى ! تلك القاعة الواسعة المظلمة التى كنت أخاف أن أدخلها ، تسطع الآن بألوف المصابيح ! بحر من النور أغرقنى . وعشيت عيناي من شدة النور ، فقد تمودتا على الضوء الخفيف .

وهب على وجهي هواء عطر ، دافئ . كان الناس في داخل الحجرة يذهبون ويجيئون ، وكان الفرح باديا في وجوههم جميعا . والنساء يرتدين أثوابا ناصعة مترفة . لم أر الا نظرات مشرقة بالسرور . وتجمدت في مكاني من فرط الدهشة . كان يبدو لي مع ذلك أن قد سبقت لي رؤية هذا كله ، في مكان ما ، في الحلم . . . وتراى لي بيتنا الحثير ، عند المساء ، والنافذة العالية ، والشارع العميق بفوانيسه المتلاثلة ، والنوافذ المقابلة يستأثرها الحمر ، والعربات المصطفة أمام درجات الباب ، والخيول الشامخة تكدف وتسهل ، والطيوف على النوافذ . . . وسمعت صراخا ، وضوضاء ، والموسيقى خافتة لبعدها . قلت في نفسي : « آه . هذه هي الجنة . هنا الجنة اذن . هذا هو المكان الذي كنت أريد أن أمضي اليه مع أبي المسكين . لم يكن ذلك حلما ! . . لقد رأيته هكذا تماما ، في الماضي ، في خيالي ، في أضغاثي . » وازدادت نفسي التهابا ، على التهابها بحمي المرض . . . وتفجرت من عيني دموع حماسة لا توصف . . . وطفقت أبحث بنظري عن أبي . قلت في نفسي ، وقد وثب قلبي ، وتقطعت أنفاسي : « لا بد أن أبي هنا . . . انه هنا حتما . » وفجأة سكنت الموسيقى ، وماجت القاعة . وسمعت همسا من كل صوب . وأخذت أهدق في كل الوجوه التي كانت تمر أمامي ، جاهدة أن أعرف أحدا . وفجأة اجتاحت القاعة اضطراب شديد جداء فلمحت على المنبر شيخا نحىلا طويلا يمسك بكمان . كان وجهه الشاحب يتسم ، وكان ينحني الى جميع الجهات في تحية لطيفة . وعاد الصمت . انه صمت عميق ، حتى لكأن الناس قد حبسوا أنفاسهم . كل واحد ينظر الى الشيخ ، كل واحد ينتظر . تناول الشيخ كمانه ، وهز الأوتار بقوسه . بدأت الموسيقى . ولكنني لم ألبث أن شعرت بأنني أختنق . ان هذه الاصوات تزيد اضطرابي الى حد لا يوصف . أصبحت لا أستطيع أن أتنفس . اتى أعرف هذه الاصوات . لقد سمعتها

من قبل • ان فيها انذارا ، انذارا بشئ رهيب ، غريب ، يتضح الآن فى أعماق نفسى • وانطلقت الاصوات أسرع وأعنف • ثم جاءت الآهات والزفرات وشهقات النحيب • انها صلاة تهوى الى اليأس •

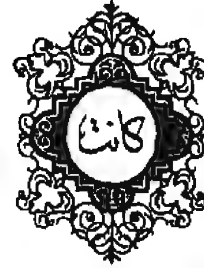
كان كل ذلك يصبح مألوفاً لدى أكثر فأكثر • الا أن قلبى كان يأبى أن يصدق • وشددت أسناني بعضها الى بعض حتى لا أعول من الالم ، وتمسكت بالباب حتى لا أقع • وكنت فى بعض الاحيان أغمض عيني ثم أفتحهما ، أمله اننى سأخرج من حلم لأجد نفسى فى منزلنا ، حيث سمعت هذه الموسيقى ، فى تلك الليلة الفظيعة • وكنت اذا فتحت عيني ، أهدق فى الجمهور لأتيقن • كلا • هؤلاء أناس آخرون ، هذه وجوه أخرى • وبدا لى أن كل واحد من الجمهور ينتظر - مثلى - حدثا ، وانهم جميعا ، مثلى ، غارقون فى غم عميق • بدا لى انهم جميعا يودون لو يصرخون مع هذه الآهات ، وهذه الأناث ، ليخففوا العبء عن نفوسهم • الا ان الآهات والأناث تزداد حدة ، وألما ، وعمقا • وفجأة ، انفجر الصوت الاخير ، صرخة طويلة ملحة ، فانتفضت • لم يبق من شك • انها تلك الصرخة عينها • اننى أعرفها • لقد سمعتها • هى الصرخة التى صغقتى فى تلك الليلة • ومر برأسى خاطر كالبرق : « بابا • بابا • انه هنا • هو الذى يدعونى • وهذا كمانه ! » • وأطلق الجمهور زفرة طويلة واسعة • وانطلق التصفيق محموما يهز القاعة هزا • وانشق صدري عن شهقة قوية صارخة • لم أطق أن أحبس نفسى ، فرفعت الستار ، وانطلقت فى الصالة بسرعة ، وأنا أصرخ :

- بابا • بابا • أهذا أنت ؟ أين أنت ؟

لا أدري كيف وصلت الى الشيخ الطويل • لقد تركونى أمر ، وأنسحوا الطريق أمامى • وارتيت عليه بصرخة هائلة • كنت أعتقد

اننى أقبل أبى • وفجأة شعرت بيدى نحتين طويلتين تمسكان بى •
ورأيت عينين سوداوين تحدقان فى عيني ، كأنهما تحرقانى بلهيهما •
نظرت الى الشيخ ، فاذا بى أقول فى نفسى فجأة : « كلا • ليس هذا
بابا • هذا قاتله ! » وتملكتى حميا هائلة • وخیل الى أننى أسمع ضحكا
فوق رأسى ، وان هذا الضحك يترجع فى القاعة كلها • ثم لم أشعر
بشيء ! •

الفصل الخامس



تلك نكسنى الثانية والاخيرة •
حين فتحت عيني رأيت وجه طفلة منجية على •
وجه صبية فى سنى • فما ان رأيتها حتى مددت
لها ذراعى • منذ أول نظرة شاعت فى نفسى كلها
عاطفة رقيقة فرحة • تصور وجه طفلة هى فى الجمال آية • جمال مشرق
يأسر البصر • وجه من تلك الوجوه التى تفعل أمامها اعجابا • من تلك
الوجوه التى اذا رأيتها وقفت مشدوها لا تستطيع حراكا من فرط افتنائك •
ذلك هو وجه «كائيا» ابنة الامير التى عادت من موسكو • فلما مددت اليها
ذراعى طافت على ثغرها ابتسامة • فشعرت بارتياح كبير ينفذ الى أعماق
كياي •

ونادت الاميرة الصغيرة أباه • وكان على بعد خطوتين يتحدث مع
الطبيب •

قال • وقد أمسك يدي • وأشرق وجهه اشراق الفرح الصادق :

— الحمد لله !

ثم أردف يقول بكلمات سريعة ، على عادته :

- اننى سعيد ، سعيد جدا • جدا • هذه كاتيا ابنتى • لتعرف كل
منكما الى الاخرى • هل ترين ؟ ستكون هذه صديقتك ! هيا استعدي
صحتك بسرعة ، يا نيتوتشكا ، أيتها الصغيرة الشيطانة التى أخافتى كل
ذلك الخوف !

تحسنت صحتى بسرعة كبيرة • وما انقضت أيام قليلة حتى استطعت
أن أنهض • وكانت كاتيا تأتى الى قوب سريرى ، كل صباح ، باسمه
مرحة • كان الضحك لا يستطيع أن يهجر ثغرها • وكان ظهورها هو
السعادة عينها لى • آه ! كم وددت لو أقبلها • الا أن هذه الشيطانة الصغيرة
لم تكن تبقى أكثر من دقائق • انها لا تستطيع أن تستقر فى مكان • لا بد
أن تتحرك ، أن تركض ، أن تشب ، أن تحدث صخبا ، أن ترجع الاصدا
فى البيت كله • كان ذلك حاجة لها ملحة • لذلك أوضحت لى منذ زيارتها
الأولى أنها لا شىء يزعجها كالجلوس الى جانب سريرى ، وانها لهذا لن
تأتى الا نادرا ، وانها ستأتى مع ذلك لأنها تشعر بحوى بالشفقة ، واننى
سأرى ، على كل حال ، حين أبل من مرضى ، اننا سنتفاهم تفاهما أعمق
وأكمل • كانت الكلمة الاولى التى توجهها الى كل صباح هى هذا السؤال
السريع :

- هيه ؟ شفيت ؟

ولما كنت شاحبة نحيلة رغم كل شىء ، وكانت الابتسامة لا تجد
سبيلها الى وجهى الحزين الا بصعوبة ، فسرعان ما كانت الاميرة تقطب
حاجبيها ، وتهز رأسها ، وتضرب الأرض بقدميها ، مستاءة مفتاظة •

- غريب • مع اننى قلت لك بالامس أن تبلى من مرضك • فلماذا لم تشفى ؟ لعلهم لا يطعمونك كثيرا ؟

فأجبت أجاريتها ، لأننى كنت أشعر أمامها بخجل شديد :

- كلا • لا يطعمونى كثيرا •

لم يكن بى الا رغبة واحدة ، هى أن أفوز برضاها • لذلك كنت أخشى كل كلمة ، وكل حركة • • وكان افتتاني بوصولها يزداد قوة وعنفًا ، يوما بعد يوم • فاذا جاءت لم يفارقها نظرى لحظة ، بل لقد كان ينفق لى - حين تمضى الى سبيلها - أن أظل أتأمل الجهة التى غابت فيها ، مشدوهة مفتونة ! • • كنت أثناء غيابها أتحدث اليها طويلا ، أتصور أنها صديقى ، فألعب معها وأخاطبها ، ونبكى مما اذا أبنا أحد على خطيئة ما • الخلاصة : كنت أحلم بها حلم العاشق بممشوقه • وكنت أرغب رغبة جنونية فى أن أعافى وأن أسمن بأقصى سرعة ممكنة ، عملا بنصيحتها ونزولا على أمرها • •

حين كانت كاتيا تصل عند الصباح لتصرخ قبل كل شيء : « ما زلت مريضة ؟ ما زلت نحيلة ؟ » كنت أرتاع كأننى مجرمة • كانت كاتيا تشمر بدهشة صادقة حين ترى أن يوما كاملا من أربع وعشرين ساعة لم يكن كافيا لشفائى • • حتى لقد انفجرت غاضبة أخيرا :

- هل تريدین أن آتيك بفطيرة ؟ ستأكلينها ، فتسمنى بسرعة !

أجبت ، وقد ملأنى سرورا أنها ستعود مرة ثانية :

- نعم • هاتى •

وكانت الاميرة الصغيرة بعد أن تسألني عن صحتي ، تجلس الى جانبي وتأخذ تحديق فيّ بعينيها السوداوين • وفي أول الأمر كانت تفحصني هكذا في كل لحظة ، من أخمص القدم الى قمة الرأس ، وقد بدت على وجهها دهشة ساذجة • الا أن حديثنا لم يكن يجري متصلا هينا • فقد كنت أظل وجلة خجلة ، وكنت رغم تحرقى شوقا الى التحدث معها ، أخاف تأنيبها • • فكانت بعد فترة من الصمت ، تبادرنى قائلة :

- لماذا لا تقولين شيئا ؟

فأجيب ، سعيدة جدا بوجود عبارة يمكن دائما أن يبدأ بها الحديث:

- وأبوك ، كيف حاله ؟

- حاله حسنة • شربت اليوم فنجانين من الشاي بدلا من فنجان

واحد • وأنت ؟

- فنجاناً واحداً •

ويعود الصمت •

- اليوم أراد « فالستاف » أن يعضنى •

- أهو كلب ؟

- نعم • كلب • • أما رأيته ؟؟

- بلى • رأيته ؟

- اذن لماذا تسألين هل هو كلب ؟

ولا أعرف بم أجيب ، فتنظر الى الاميرة الصغيرة دهشة :

- قولى هل تسرين حين أكلحك ؟

- جدا • أكثرى مجيئك !

- قالوا لى ان مجيئى يسرك • ولكن غادرى فراشك بسرعة •
سأتىك اليوم ببطيرة • هذا وعد أكيد • ولكن ماذا بك حتى تصمتى
هكذا ؟

- لا أعرف •

- ألا تنقطعين عن التفكير ؟

- أفكر فى أشياء كثيرة •

- أما أنا فيقولون عنى اننى أتكلم كثيرا ولا أفكر فى شىء • هل
الكلام اساءة ؟

- أبدا • أبدا • اننى أسر حين تتكلمين •

- يجب أن نسأل عن هذا مدام ليوتار • انها تعرف كل شىء • ولكن
فيم تفكرين ؟

قلت بعد صمت :

- فيك أنت •

- هل يسرك هذا ؟

- نعم •

- اذن فأنت تحبيننى !

- نعم •

- أما أنا فلا أحبك بعد • انك نحيلة جدا • انتظرى ، سأتىك
ببطيرة • الى اللقاء • الى اللقاء •

وبعد أن قبلتنى الاميرة الصغيرة ، تقيلا خاطفا ، غابت عن الغرفة •

ومع ذلك فقد أتنى بعد الغداء بالفطيرة التى وعدتني بها • جاءت الى كالمجنونة ، تضحك من شدة الفرح ، لأنها تطعمنى طعاما منع عنى •
- كلى • انه طعامى احتفظت به لك • والآن الى اللقاء •

وغابت بمثل السرعة التى أتت بها !

وفى مرة أخرى ، وثبت الى جانبى ، فى ساعة غير منتظرة أيضا ، بعد الغداء • كان شعرها منفوشا ، وخداها محمرين ، وعيناها تضيئان •
بريق قوى • لا شك أنها كانت تركز وتقفز منذ ساعة أو ساعتين •

صرخت بسرعة ، وهى تلهث ، وقد بدت عليها الرغبة فى العودة الى ألعابها على الفور :

- هل تحسنين اللعب بالكرة الطائرة ؟

- كلا •

قلت ذلك وأنا أشعر بأسف مر على اتنى لا أستطيع أن أقول نعم •
- طفلة عجيبة حقا ! هيا • ابلى من مرضك ، وسأعلمك • جئت لأسألك هذا فحسب • اتنى أَلعب الآن مع مدام ليوتار • الى اللقاء • انها تنتظرنى •

واستطعت أخيرا أن أترك سريرى رغم ضعفى • فكانت أول فكرة راودتني عندئذ هى أتنى لن أنفصل بعد الآن أبدا عن كاتيا • ان عاطفة لا تقاوم تدفعنى نحوها • كنت ألتهمها بعينى التهاما ، وكان هذا يثير دهشتها كثيرا • كان انجذابى اليها من القوة بحيث اتنى استسلمت لعاطفتى الجديدة هذه فى حماسة لم تخف أخيرا على كاتيا • وبدا لها ذلك فى أول الأمر شيئا غريبا بل عجيبا • وأذكر أتنى ، ذات مرة ، وكنا

نلعب معا ، رأيتنى أرتدى على عنقها وأقبلها دون أن أستطيع كبح هذه الرغبة الجامحة ، فما كان الا أن تخلصت منى وأمسكت يدي ، وقطبت حاجبيها كأننى أهنئها ، وسألتنى :

— ما بك ؟ لماذا تقبلينى هكذا ؟

وانتفضت لهذا السؤال المبالغ ، وخجلت خجلا شديدا ، ولم أستطع أن أجيب بكلمة • فهزت الاميرة الصغيرة كتفيها علامة الحيرة والدهشة (وكانت هذه حركة مألوفة فيها) وعضت شفتيها المثلثتين ، فى جد ، وانقطعت عن اللعب ، ثم مضت الى ركن من الاركان فجلست على أحد المقاعد • وظلت فى ركنها ذاك مدة طويلة تتأملنى ، وتفكر ، كأنها تحل لغزا عرض لفكرها فجأة • وهذا أيضا كان عادة من عاداتها فى اللحظات الحرجة ، بحيث لم أستطع خلال مدة طويلة أن أتلام مع ونبات طبعها المفاجئة •

واعتقدت أننى أخطأت ، وأيقنت على كل حال ان هذا لا بد أن يبدو غريبا • على اننى ظلمت أتعذب ، فكنت أسأل : لماذا لم أستطع أن أفوز منذ اللحظة الاولى ، والى الأبد ، برضى كاتيا • • وأن أصبح صديقتها •

كان اخفاقى هذا يحرقنى حرقا ، وكنت أشعر أننى على وشك أن أجهش باكية كلما وجهت الى كلمة قاسية ، أو كلما نظرت الى نظرة حنرة • وكان حزنى يزداد يوما بعد يوم بل ساعة بعد ساعة ، لأن الأمور لا تجرى مع كاتيا سهلة يسيرة • وشعرت بعد قليل من الوقت أنها بدلا من أن تحببى أخذت تكرهنى • ان كل شئ ، لدى هذه البنية ، يتم بصورة سريعة ، مفاجئة ، بل كان يمكن أن نقول وحشية ، لولا أن لطفنا مفلورا كان يشوى وراء هذه الاندفاعات السريعة البارقة التى تصدر عن طبع متحمس صادق •

والواقع ان ما شعرت به نحوى فى أول الامر كان نوعا من الشك
لم يلبث ان اقلب الى احتقار ، والسبب فى هذا الاحتقار ، فيما يخيّل الى ،
هو أننى لم أستطع أن أشاركها ألعابها المختلفة • كانت الاميرة الصغيرة
تحب الحركة والركض ، كانت صحتها قوية ، وكانت نشيطة ، حاذقة ،
بينما كنت أنا نقيض هذا تماما • لقد ظللت بعد مرضى ضعيفة ، هادئة ،
غارقة فى التفكير والصمت • لم يكن يشوقنى أى نوع من أنواع اللعب ••
أى لم أكن أملك أى شئ يتيح لى الفوز بقلب كاتيا • ثم اننى بطبعتى
لا أطيق أن أشعر أن أحدا غير راض عني • وإذا شعرت بشئ من ذلك
فسرعان ما يتتابنى حزن شديد ، وسرعان ما أفقد كل شجاعة ، وتخوننى
قواى ، فما أستطيع أن أصلح أخطائى وأن أبدل الأثر السيء الذى تركته
فى نفس غيرى بأثر حسن • ومعنى هذا أنه متى كرهنى أحد ، كان
كرهه الى غير رجعة •• وهذا ما لم تستطع كاتيا أن تفهمه !

وحين لاحظت ، بعد أن ظلت ساعة طويلة تشرح لى لعبة الكرة
الطائرة بنية أن تعلمنيها ، حين لاحظت أننى لم أفهم شيئا البتة ، أدهشها
ذلك الى حد الخوف ، وأخذت تنظر الىّ على عاداتها نظرة استغراب • أما
أنا فشعرت أننى أوشك أن أجهش فى البكاء • وبعد أن فكرت فى أمرى
مرتين أو ثلاثا دون أن تصل الى نتيجة ، هجرتنى تماما ، وأصبحت تلعب
وحدها ، دون أن تدعونى الى مشاركتها أبدا ، ودون أن توجه الىّ كلمة
واحدة خلال أيام طويلة ! •• وكان تأثير ذلك فى نفسى قويا لا أكاد
أطيق احتماله • وثقلت علىّ وحدتى الجديدة أكثر من وحدتى القديمة •
ثم لم ألبث أن عدت الى حزنى ، واجتاحتنى أفكار سود •••

ولاحظت مدام ليوتار ، وكانت تراقبنا ، هذا التغير الذى طرأ على
علاقتنا ، وانتبهت خاصة الى صد كاتيا وهجرها اياى • لذلك اتجهت اليها

رأساً ، فأبنتها على ذلك ، وطلبت اليها أن تحسن سلوكها معى • الا أن الاميرة الصغيرة قطبت حاجبيها ، وهزت كتفيها ، وصرحت بأنها لا تعرف ماذا تصنع بى ، وقالت اننى أظل طوال الوقت أفكر ، وأن الأفضل لها أن تنتظر أخاها « ساشا » الذى سيعود من موسكو قريباً ، وأن الحياة معه ستكون أحفل بالسرور وأمتع •

غير أن مدام ليوتار لم تقنع بهذا الجواب • فنبهت كاتيا الى اننى ما زلت مريضة ، واننى لا أستطيع ان اكون فى مثل مرحها وصخبها • بل اضافت الى ذلك أن هدوتى خير من حركتها ، لان كاتيا تتجاوز الحدود : ليست ترتكب كثيراً من الحماقات ؟ ألم توشك ، اول امس ، ان يقرسها الكلب ؟ الخلاصة أن مدام ليوتار قرعت الاميرة الصغيرة بلا رحمة ، وارسلتها الى لمصالحتى فوراً •

أصغت كاتيا الى مدام ليوتار فى انتباه شديد ، كأنما هى تدرك شيئاً جديداً وصحيحاً من وراء هذا التأنيب • ثم ما لبثت أن تركت العجلة التى كانت تعجى وراءها فى القاعة ، واقتربت منى ، وسالتنى دهشة ، وهى تنظر الى نظرة رصينة :

— هل تريدان حقاً أن تلعبى ؟

— لا ••

قلت ذلك من فرط خوفى عليها وعلى من تأنيبات مدام ليوتار •

— اذن ماذا تريدان ؟

— أفضل أن أظل جالسة • اننى لا أستطيع أن أركض • ولكن لا تقضى يا كاتيا ، اننى أحبك كثيراً •

— حسنا ، اذن سألعب وحدى ••

قالت ذلك فى رقة ونعومة ، وفى لهجة من يكتشف ، دهشا ، انه ليس بمذنب • ثم أضافت :

— والآن ، الى اللقاء • ولن أغضب منك •

فأجبت وأنا أنهض وأمد لها يدي :

— الى اللقاء •

— لعلك تريد أن تقبلينى ؟

قالت ذلك بعد لحظة من تفكير ، لعلها تذكرت فيها المشكلة التى قامت بيننا بصدد ذلك • وكان واضحا أنها تريد أن تفعل كل ما تستطيع فله لادخال السرور الى نفسى ، بغية أن تتخلص منى بأقصى سرعة ممكنة وعلى أحسن نحو •

قلت فى رجاء خجول :

— اذا شئت •

فاقتربت منى ، وقد اكتسى وجهها طابع الجد ، ولم تخلج شفتاها -
بابتسامة ، ومنحتنى قبلة • فلما أنهت هكذا كل ما طلب منها ، بل أكثر مما طلب منها ؟ اسعادا لهذه البنية الصغيرة التى أرسلت اليها ، هربت راضية مطمئنة • وسرعان ما أخذت تدوى من جديد فى أرجاء الغرف جميعا ضحكاتها الصاخبة وصرخاتها • ودام الأمر على هذا الحال الى أن عادت من لعبها لاهنة ، وارتمت على أحد المقاعد تستريح وتستجمع قواها النضرة • وظلت طوال السهرة تنظر الىّ فى ارتياح وحذر • كان واضحا اننى أبدو لها طفلة عجيبة شاذة ، وكان واضحا انها تود أن تسألنى مستوضحة أمرى • ولكن لا أدري لم أمسكت فى هذه المرة !

وكانت دروس كاتيا عادة تتم فى الصباح • وكانت مدام ليوتار تعلمها الفرنسية • على أن تعلم الفرنسية هذا كان لا يعدو تكرار قواعد النحو ، وقراءة أقاصيص لافوتتين • ولم تتعلم كاتيا شيئا كثيرا ، اذ كان من الصعوبة بمكان حملها على الجلوس والقراءة ساعتين فى كل يوم • لكنها قررت أخيرا أن تتعلم نزولا على رغبة أبيها ، واطاعة لأوامر أمها : كانت اذا قطعت على نفسها عهدا تلتزمه وتحققه بدقة • وقد أوتيت كاتيا مواهب ممتازة ، فكانت تفهم سريعا ، غير انه كان لها ، مع ذلك ، بعض العيوب : كانت اذا استمعى عليها فهم أمر من الأمور ، تحاول أن تفهمه وحدها ، ولا تطيق أن تسأل أحدا شرحا ، لانها تشعر أن السؤال عار ! • وقيل انها كانت فى بعض الاحيان تظل أياما بأكملها تصارع سؤالا لا تستطيع حله • • وكان يفضيها أن لا تقدر على حله وحدها ، دون الاستعانة بأحد ، لكنها لم تكن تمضى الى مدام ليوتار لتستجد بها ، الا فى أحوال نادرة ، حين تعجز عجزا تاما • وكان أمرها يجرى على هذا النحو فى كل ما تصنع : تفكر وتتأمل أكثر مما يظن فيها لأول وهلة • ولكنها فى الوقت نفسه مسرفة فى السذاجة بالنسبة الى سنها • وكانت فى بعض الاحيان تطرح أسئلة غبية حقا ، وفى أحيان أخرى كانت اجاباتها لا تخلو من براعة وفطنة • •

وأخيرا أصبحت صحتى تسمح لى بأن أتعلم شيئا أنا الاخرى ، فامتحتنتى مدام ليوتار لتعرف مقدرتى ، فاكشفت اننى أقرأ قراءة حسنة جدا ، لكنى أكتب كتابة سيئة جدا ، وان من الضرورة بمكان أن تعلمنى الفرنسية حالا •

لم أحتج على ذلك • • وذات صباح ، رأيتنى جالسة مع كاتيا جنبيا الى جنب ، الى منضدة الدرس • وأظهرت كاتيا ، فى هذه المرة ، كأنما عن

قصد ، كسلا وغباء ، حتى أنكرتها مدام ليوتار ! .. أما أنا فقد تعلمت
الألفباء الفرنسية في هذه الجلسة وحدها ، وجهدت أن أرضى معلمتي
بكل ما أوتيت من قوة . وفي نهاية الدرس كانت مدام ليوتار غاضبه جدا
من كاتيا ، فقالت لها وهي تشير الى :

- انها مريضة تدرس لأول مرة ، ومع ذلك فقد بذلت عشرة
أضعاف ما بذلت أنت . ألا تشعرين بالحجل لهذا ؟

فسألتها كاتيا دهشة :

- اذن فهي تعرف أكثر مما أعرف ! ولكن كيف ؟ انها ما زالت
تتعلم الألفباء ..

- كم درسا استغرقت انت في تعلمها ؟

- ثلاثة ..

- أما هي فقد استغرقت درسا واحدا . معنى هذا انها أسرع منك
في التعلم ثلاث مرات ، وانها ستتفوق عليك بعد قليل . أليس
كذلك ؟

ففكرت كاتيا لحظة ، ثم احمر وجهها احمرارا شديدا حين أدركت
أن مدام ليوتار على حق . هكذا كان حالها دائما : حين تؤنب ، سواء
لذنب اقترفته أو لاختفاق في الدرس أصابته ، فانها تحمر ، ويحرقها
الشعور بالعار ، أو الحزن ، أو الكبرياء الجريحة . وفي هذه المرة كادت
الدموع تنفجر من عينيها ، غير أنها حبستها ، ونظرت الى كأنها تريد أن
تصعقني ..

وفهمت فورا ما بها : لقد كان كبرياء الطفلة المسكينة عظيما . وحين

بعدنا عن عيني مدام ليوتار أردت. أن أسرع فأقول لها ، تخفينا عنها ، انه ليس ذنبى ان الفرنسية خاطبتها بهذه اللهجة ، غير أن كاتيا تظاهرت بأنها لا تسمع ما أقول ، وظلت صامتة •

وبعد ذلك بساعة ، دخلت الى الغرفة التي كنت جالسة فيها أقرأ ، ولا ينصرف تفكيرى الا اليها • كان يعذبنى ويخيفنى أن أتصور أنها ، مرة أخرى ، لا تريد أن تكلمنى • ونظرت الى ساهمة ، وجلست على الديوان كعادتها ، ولم تحول نظرها عنى خلال نصف ساعة • ثم لم أتمالك نفسى ، فأرسلت اليها نظرة مستفهمة •

فسألتنى كاتيا :

– هل تحسنين الرقص ؟

– كلا •

– أنا أحسنه ••

صمت ••

– هل تحسنين العزف على البيانو ؟

– كلا ••

– أنا أحسنه • والواقع أن تعلمه عسير ••

صمت ••

– تقول مدام ليوتار انك أذكى منى •

– كانت مدام ليوتار مستاءة منك ، فقالت ذلك •

– وبابا هل يستاء أيضا ؟

– لا أدرى •

صمت جديد ••

وضربت الاميرة الصغيرة الارض بقدمها الصغيرة ، وقد فرغ صبرها
•• ثم لم تستطع أن تخفى مضضها ، فسألت :

- اذن ستهزئين بى لأنك أسرع فهما منى !
فصرخت وأنا أثب من مكانى لأسرع اليها وأقبلها :
- أبدا • أبدا •

وفجأة ، قالت مدام ليوتار ، وكانت تصغى الى حديثنا منذ خمس
دقائق ، مخاطبة كاتيا :

- ألا تخجلين من هذا القول ، ومن طرح أسئلة كهذه ؟ •• أسفى
عليك يا آنسة • تحسدين هذه الطفلة البائسة وتدلين عليها بأنك تحسنين
الرقص والعزف على البيانو • أسفى عليك يا آنسة • سأروى هذا
لأبيك !

والتهب خد الاميرة الصغيرة بحمرة قانية • بينما استطردت المربية :
- هذا لا يليق • انك تعذبينها بأسئلتك هذه • كان أهلها أناسا
فقراء ، فلم يستطيعوا أن يستأجروا لها مربية تعنى بتعليمها • وما تعرفه
انما تعلمته وحدها لأن لها قلبا نبلا وفؤادا ذكيا • يجب عليك أن تحييها
بدلا من أن تحقدى عليها • عيب • عيب • اذكرى أنها يتيمة ، وان ليس
لها أحد فى هذا العالم • لم يبق الا أن 'تدلى عليها بأنك أميرة ، وانها
ليست بشيء ، سأتركك وحدك • فكرى فيما قلت لك ، وأصلحى
نفسك •

وفكرت الاميرة الصغيرة ، يومين كاملين ! •• خلال يومين كاملين
لم تدو قهقهاتها وصرخاتها فى البيت • وكنت اذا استيقظت فى الليل ،
أسمعها تتم فى المنام حديثا مع مدام ليوتار • لقد ضعفت خلال هذين

اليومين ، وفقد وجهها الزاهر شيئا من ألوانه • وأخيرا ، فى اليوم الثالث ،
التقينا فى القاعة الكبرى ، فى أسفل • كانت الاميرة الصغيرة خارجة من
غرفة أمها ، فلما رأتنى ، توقفت ، ثم جلست أمامى ، قريبة منى :
وانتظرت ما سيقع ، مرتاعة ، مرتجفة ، وأخيرا سألتنى :

– نيتوتسكا ، لماذا أبونى بسبيك ؟

فأجبت أبرىء نفسى :

– لم يكن ذلك بسببى •

– ألم تقل مدام ليوتار اننى أسأت اليك ؟

– كلا يا كاتيا ، كلا ، لم تسيئى الى •

فهزت الاميرة الصغيرة كتفها ، علامة الشك فيما أقول • ثم سألت
بعد لحظة من الصمت :

– ولماذا تبكين طوال الوقت ؟

فأجبت من خلال دموعى :

– لن أبكى اذا شئت •

ومرة أخرى هزت كتفها •

– ولكن هل كنت تبكين فى بيتكم دائما مثلما تفعلين الآن ؟

لم أجب •

ثم سألتنى فجأة ، بعد صمت جديد :

– ولماذا أنت فى بيتا ؟

فظرت اليها دهشة ، وكأن طعنة نفذت فى قلبى • ولم أستطع أن
أجيب الا بعد أن استعدت أنفاسى • قلت :

- لأننى يتيمة •
- وكان لك بابا وماما ؟
- نعم •
- وكانا لا يحبناك ؟
- بلى • كانا يحباني •
- قلت ذلك بصعوبة •
- وكانا فقيرين ؟
- نعم •
- فقيرين جدا ؟
- نعم •
- ولم يعلماك شيئا ؟
- بلى • علماني القراءة •
- هل عندك لعب ؟
- لا •
- هل كنت تأكلين فطائر ؟
- لا •
- ما عدد حجرات بيتكم ؟
- حجرة واحدة •
- حجرة واحدة ؟
- واحدة •
- والخدم ، هل كان عندكم خدم ؟

- لا •

- ومن كان يخدمكم اذن ؟

- كنت أنا أشتري الاشياء من السوق •

كانت أسئلة كاتيا تؤلمني أكثر فأكثر • ثم ان هذه الذكريات ،
ووجدتني ، ودهشة الاميرة الصغيرة ، كل ذلك كان يسدو لي انه رتب
خصيصا لي جرحني ، لي دمي قلبي ، كنت أرتعش من أخمص قدمي الى قمة
رأسي ، واختنقت بدموعي •

- اذن فأنت سعيدة بوجودك في بيتنا •

لم أجب •

- وهل كان لك ملابس جميلة ؟

- لا •

- كانت ملابسك بشعة ؟

- نعم •

- لقد رأيت فستانك •

فما ان سمعت هذا حتى رأيتني أنهض من مكاني تحت تأثير احساس
غريب ، وأقول :

- لماذا تسأليني اذن كل هذه الاسئلة ؟

ثم أضفت وقد احمر وجهي حنقا :

- لماذا تستجوبيني هكذا ؟ لماذا تسخرين مني ؟

وتخضب وجه الاميرة بحمرة قانية ، ونهضت من مكانها هي
الاخرى ، الا انها لم تلبث أن سيطرت على انفعالها ، وقالت :

— كلا لست أسخر منك • وانما أردت أن أعرف هل كان أبواك
حقا فقيرين •

فقلت وأنا أبكى ألما :

— لماذا تسألينى عن أبى وأمى ؟ لماذا تسألينى عنهما على هذا النحو ؟
فيم أساء إليك يا كاتيا ؟

واضطربت كاتيا اضطرابا شديدا ، ولم تعرف بم تجيب • وفى هذه
اللحظة دخل الأمير •

فلما رآنى أبكى ، قال :

— ماذا بك يا نيتوتشكا ؟

ثم التفت الى كاتيا ، وكانت بلون البجر احمرارا ، وكرر على
سؤاله :

— ماذا بك ؟ ماذا هنالك ؟ لماذا اختصمتما يا نيتوتشكا ؟ فيم
تشاجرتما ؟

ولكننى لم أكن أستطيع جوابا ، ورأيتنى أرتمى على يده أقبليها
باكية •

— كاتيا ، لا تكذبى • قولى ماذا جرى !

ولم تكن كاتيا تعرف الكذب فقالت :

— قلت لها اننى رأيت فستانها الردى الذى كانت تلبسه يوم كانت
تعيش مع أبيها وأمها •

— من أراك الفستان ؟ من ذا الذى سمح لنفسه بأن يريك اياه ؟

فأجابت كاتيا بلهجة جازمة :

- رأيته بنفسى ، لم يرينه أحد •

- حسن ، حسن • لا تريدین أن تشى بأحد • أنا أعرفك • اكملی كلامك •

- أخذت تبكى وسألتنى لماذا أسخر من أبيها ومن أمها •

- اذن فقد سخرت منهما •

لئن لم تسخر كاتيا من أبوى ، لقد كان ذلك فى نيتها قطعا ، كما شعرت •

لهذا لم تجب على سؤال أبيها بكلمة ، ومعنى صمتها انها تقر بخطئها فقال لها الامير مشيرا الى :

- ستعذرین لها حالا •

الا ان الاميرة الصغيرة ، وقد امتقع لونها ، لم تقم بأية حركة • فقال الأمير :

- اننى أنتظر •

فما كان منها الا أن صرخت فجأة ، وقد التمعت عيناها بالشر ، وضربت برجلها الارض :

- كلا • لا أريد • لا أريد • لا أريد أن أعذر لها • يا بابا • اننى لا أحبها • ولا أحب أن أبقى معها بعد الآن • ليس ذنبى أنها تظل تبكى طوال النهار • لا أريد • لا أريد !

- تعالى معى •

قال الامير ذلك ، ثم أخذ يدها ، وقادها نحو حجرته •

والتفت الى قائلا :

— اصعدى ، يا نيتوتشكا •

وددت لو أرتدى على الامير أطلب اليه أن يفر لكاتيا ، الا أنه كرر أمره بلهجة صارمة ، فصعدت الى الجناح الاعلى من المنزل ، وأنا أشبه بالميتة • فما ان بلغت غرفتنا حتى سقطت على « الديوان » مخفية وجهى بين ذراعى • وأخذت أعد الدقائق • كنت أنتظر كاتيا بفارغ صبر ، لارتدى على قدميها • وأخيرا عادت كاتيا • ولكنها مرت بجانبى دون أن تقول كلمة واحدة ، ومضت الى ركن من أركان الغرفة تجلس فيه • كانت عيناها حمراوين ، وكان خذاها مبللين بالدموع • فما ان رأيتها على هذه الحال حتى خارت قواى وفقدت كل شجاعة ، وأخذت أنظر اليها فى رعب لم أستطع من فرطه أن أتحرك •

واتهمت نفسى بكل قواى ، وبكل قواى جهدت أن أقنع نفسى بأننى وحدى المذنب • وهممت ، ألف مرة ، أن أقرب من كاتيا ، ولكننى كنت أتوقف ، خشية أن تسيء استقبالى •

وفى مساء اليوم التالى لاحت كاتيا أكثر مرحا ، وطفقت تطارد عجلتها فى الغرفة ، ولكنها لم تلبث أن تركت لعبها ، وعادت تجلس فى ركنها وحيدة • وقبل أن تمضى الى سريرها بلحظة واحدة ، التفت الى ، بل تقدمت نحوى خطوتين ، وانفرجت شفتاها تريد أن تكلمنى ، الا انها توقفت فجأة ، وأشاحت بوجهها عنى ، ومضت الى سريرها •

وانقضى على هذا يوم آخر ، واستغربت مدام ليوتار حالة كاتيا ، وبدا لها أن تسألها : ماذا بها ؟ هل هى مريضة حتى تغدو هادئة كل هذا

الهدوء ؟ فأجابتها كاتيا ببضع كلمات ، ثم تناولت كرتها الطائرة • ولكن ما ان انصرفت مدام ليوتار حتى انفجرت باكية ، وهربت من الغرفة ، بعيدة عن أنظارى • وأخيرا حزمت كاتيا أمرها • فهاهى ذات مساء ، بعد مشاجرتنا بثلاثة أيام ، تصل الى غرفتنا على حين غرة ، وتقرب منى خجلة ، وتقول :

- أمرنى بابا أن أعتذر لك • هل تريد أن تصفحى عنى ؟
وأمسكت كاتيا بكلتا يديّ ، فقلت لها ، وأنا ألهمت من شدة الانفعال :

- نعم ، نعم •

- وأمرنى بابا بأن أقبلك • هل تريد أن تقبلىنى ؟
وكان جوابى على هذا انى أخذت أقبل يديها وأغرقهما بالدموع •
وحين رفعت بصرى الى كاتيا ، لاحظت أنها لم تكن فى حالتها المعتادة : ان عينيها مبللتان بالدموع ، وان شفيتها لترتجفان ، الا انها سرعان ما كبشت انفمالها ، وعادت الابتسامة فجأة الى ثغرها •

قالت فى هدوء ، كأنما هى تحدث نفسها :

- سأمضى أقول لبابا اننى اعتذرت لك واننى قبلتك •

وأردفت ، بعد لحظة من الصمت :

- منذ ثلاثة أيام لم أره • لقد منعنى من المجيء الىه قبل أن أنفذ أمره •

ثم نزلت الى لقاء أبيها ساهمة وجلة •

وما انقضت على ذلك ساعة حتى دوى فى البيت ، فجأة ، الصراخ والصخب والضحك وعواء « فالستاف » • وسمعت شيئا يتدحرج ويتحطم • • وطارت كتب الى الارض • وانطلقت العجولة تدور من غرفة الى أخرى • ففهمت أن الصلح قد تم بين الاب وابنته ، ووئب قلبى من مكانه فرحا بذلك •

الا أن كاتيا لم تقترب منى • كان واضحا أنها تجهد أن لا تكلمنى • على انها كانت تستغرب أمرى استغرابا شديدا ، وتتحرق شوقا الى فهمى ، فكان ذلك يربكنى ويؤلمنى • أصبح جلوسها أمامى متفرسة ، يزداد يوما بعد يوم • وأصبحت الملاحظات التى تبديها بصددى أكثر سداجة ممسا كانت ! ان الشيء الذى لم تستطع أن تفهمه هذه الطفلة الرقيقة التى كان كل من فى البيت يدللها ، ويعبدها ويحتضنها ككنز جميل ، هو انها لقيست فى طريقها عدة مرات فى وقت لم تكن تحرص فيه على أن ترانى أبدا • على أنه كان لها قلب صغير رائع يعرف بغريزته ، دوما ، كيف يجد الطريق القويم • كان أبوها أكثر الناس تأميرا فيها ، وكانت هى تحبها حبا عظيما ، كما كانت أمها تحبها حبا جنونيا • غير أنها كانت تعاملها فى قسوة شديدة • ولقد ورثت كاتيا عن أمها الزهو والكبرياء والعناد وقوة الارادة • الا أن هذا لم يكن يمنحها من احتمال جميع نزوات أمها التى تبلغ أحيانا حد الاستبداد والتعذيب الروحى • وكانت الاميرة الأم تفهم التربية فهما غربيا : كانت تربيتها لكاتيا مزيجا عجيبا من دلال لا حد له ومن قسوة لا يشفى لها غليل ! • • • فما كان مسموحا به أمس ، يصبح اليوم ممنوعا • • • وهكذا كان الشعور بالعدل يفسد لدى هذه الطفلة بلا انقطاع • على اننى سأعود الى هذا فيما بعد • وانما أحب أن أذكر الآن أن كاتيا عرفت كيف تنظم علاقتها بأبويها : اما مع أبيها فكانت تبقى على طبيعتها حرة مطلقة لا تلف ولا تدور • وأما مع أمها فكانت منطوية على

نفسها ، حذرة ، مطواعة • غير أن هذه الطاعة لم تكن تتجى على سجيّتها
صادقة منطلقة ، وانما كانت مبدأ وخطة • وسأشرح هذا أيضا فيما بعد •
على انه لا بد من القول - وذلك أمر يشرف كاتبا - انها انتهت أخيرا الى
فهم أمها : فلئن كانت تطيعها ، فلأنها شعرت شعورا قويا بما تكنه لها أمها
من حب لا حد له ، من حب يبلغ أحيانا حد الهوى المرضى ا • • لقد
كانت الاميرة الصغيرة التي لا يعوزها نيل النفس تحسب حساب هذه
الناحية • الا أن هذا الحساب ، وا أسفاه ، لم يسعف رأسها الصغير ، فيما
بعد ، الا قليلا •

وكنت أنا لا أفهم ماذا بنفسى • كان كيانى يجيش باحساس جديد
لا سبيل الى فهمه ، ولست أبالغ اذا قلت ان ذلك كان يعذبنى كثيرا •
والأفضل أن أعترف بأن عاطفتى نحو كاتبا كانت هى العشق • • اغفروا
لى استعمال هذه الكلمة • نعم كانت هى العشق بعينه ، بدموعه ، وأفراحه ،
العشق الهائم الجامع • ما الذى كان يجذبنى اليها ؟ لماذا نشأ فى نفسى
هذا الحب ؟ لقد بدأ من النظرة الأولى ، لقد اهتزت جميع عواطفى اهتزازا
لذيذا حين رأيت ، فجأة ، هذه البنية الجميلة جمال الملائكة • كل شىء
فيها جميل ، ما من عيب من عيوبها أصيل فيها ، جميع عيوبها دخيلة
عليها ، لا تنفك تصطرع مع نفسها الاصيل • كل شىء فيها يلتمع برجاء
مشرق ، كل شىء فيها يبشر بمستقبل رائع •

ولم أكن أحبها وحدى • كان كل انسان يحبها • كان يتفق لنا أن
نخرج فى نحو الساعة الثالثة فى نزهة ، فما ان تقع علينا أبصار المارة حتى
يتوقفوا فى أماكنهم متجمدين • وكثيرا ما كانت صرخات الاعجاب تنطلق
وراء الصبية السعيدة متلاحقة : • لقد خلقت للسعادة ، وهى تعيش
لها • • • ذلك كان لسان حال كل من يراها • أما أنا فلعل الاحساس
الجمالى هو الذى أثر فى نفسى قبل كل شىء آخر • لعل الشعور بالجمال

هو الذى أثر فى نفسى قبل كل شىء آخر فما ينبغي أن نبحت عن غيره
علة" لخبى كاتيا .

•• على أن آفتها الأساسية كانت هى الزهو •• هذا الزهو الذى
يدفع بصاحبه دفعا الى الرجوع الى طبيعته الخاصة ، ويجعله بذلك مقاتلا •
كان الزهو يتجلى حتى فى سذاجات صيانية ، ويختلط بالانانية اختلاطا
يلبغ من القوة ان أى معارضة ، مهما تكن صورتها ، كانت تدهشها أكثر
مما كانت تسوءها أو تغضبها • كانت لا تستطيع أن تقبل أن يتم أمر من
الأمور لم ترده • ومع ذلك كان احساسها بالعدل يسيطر على كل شىء •
فما ان تدرك أنها كانت على خطأ ، حتى تدعن لتأنيب ضميرها دون مواربة
أو تملل • ولئن ساء سلوكها معى حتى تلك اللحظة ، فأنى أسند ذلك الى
نفور كانت تشعر به نحوى ، دون أن تستطيع له دفعا ! •• كان سلوكها
هذا أمراً لا مفر منه • كانت تستسلم لاندفاعاتها فى كثير من الجموح ،
وكان لا بد لها ، دوماً ، من أمثلة ومن تجارب حتى تعود الى الطريق
القويم • ورغم أن نتائج كل ما تقوم به من أعمال كانت نتائج جميلة
وصادقة فإنها لم تكن تصل الى هذه النتائج الجميلة الصادقة الا بعد
انحرافات مستمرة ، وأخطاء متواصلة •

ولم تلبث كاتيا أن شبت من ملاحظتى والتفرس فى ، وقررت أخيراً
أن تدعنى وشأنى •• وأصبح سلوكها سلوك من لا يشعر بوجودى ، فما
من كلمة توجهها الى ، الا فيما مست اليه ضرورة •• وأبعدتني عن
العابها ، ولكن بدون قسوة • اقصتني عنها ببراءة ، حتى لكأن هذا
الاقصاء تم بارادتي !

وكانت الدروس تسير فى مجراها • ولكننى فقدت شرف الاساءة
الى كبرياتها باتخاذى مثلاً يضربونه لها على الذكاء والركة ، مع أن هذه

الكبرياء كانت من سرعة التأثير بحيث أنه كان لكلبنا ، « سير جون فالستاف » ، سلطان كبير عليها . كان فالستاف ذا مزاج بارد ، إلا أنه كان شريرا كنمر . فإذا احتاج ، أصبح وحشا كاسرا ، فلم تستطع كاتيا أن تملك زمامه . وأكثر من ذلك أنه كان لا يحب أحدا . إلا أن عدوه الأول ، عدوه الطبيعي ، كان هو الاميرة العجوز من غير ريب - وسوف تأتي قصة ذلك في حينها - أما كاتيا المتكبرة فكانت تستعمل كل الوسائل للتغلب على عداوة فالستاف . كانت لا تطيق أن يكون هذا الحيوان الكائن الحي الوحيد الذي يستطيع ، في هذا المنزل ، أن يتجاهل سلطتها وقوتها ، فلا يخضع لها ، ولا يحبها ! .. لذلك قررت أن تهاجم الكلب . ان كاتيا تريد الآن أن تفرض سيطرتها على هذا الحيوان . كيف يجزؤ فالستاف ان يقاومها ؟

غير أن الكلب العاصي لم يخضع .. ففي ذات مرة ، بعد العشاء ، بينما كنا جالسين في القاعة الكبرى ، في الطابق الاسفل ، جاء الكلب واستقر في وسط القاعة ، ليستمتع بقبلولته . عندئذ قررت الاميرة الصغيرة أن تشرع في تنفيذ خطتها . فتركت لعبها ، واقتربت منه ، حذرة .. على رموس الأصابع ، وهي تناديه بأرق الأسماء ، وتدعوه اليها بلطف الحركات والاشارات . إلا أن « فالستاف » كثر عن أنبايه الفظيعة ، من بعد ، فتوقفت الاميرة الصغيرة . ان ما كانت تريده هو أن تأتي اليه ، أن تداعبه ، أن تحمله على اللحاق بها ، وهذا ما لم يكن يسمح به لأحد غير الاميرة الأم ، التي كان أميرا لديها .

وكانت الخطة عسيرة ، تقتضي كثيرا من البراعة ، بل تشتمل على خطر كبير ، لأن فالستاف لن يزعبه أن يعض يدها ، ولا أن يمزق يدها اربا ، اذا بدا له ذلك . انه قوى ، كاللب .

وكنت أقرب محاولة كاتيا ، قلقة ، خائفة • الا ان صرفها عن فكرة بدت لها لم يكن بالامر السهل • ان الأنياب التي كثر عنها فالستاف لم تستطع أن تحولها عن عزمها ، فلما أدركت أنها لا تستطيع أن تقترب من عدوها على خط مستقيم ، أخذت تدور حوله ، محاذرة • ولم يتحرك فالستاف • وبعد أن أنهت دورتها الأولى ، دارت دورة أضيق ، وما زالت تضيق دورتها حتى أصبحت من فالستاف على المسافة التي يراها معقولة ، فلما همت أن تتجاوزها كثر عن أنيابه مرة أخرى ، فما كان من الاميرة الا أن ضربت الارض بقدميها ، وابتعدت ساخطة ، وجلست على «الديوان» تفكر •

وما هي الا عشر دقائق حتى اهتدت الى وسيلة للاغراء جديدة : فاذا هي تخرج من الغرفة ثم تعود وفي يدها مكسرات وحلوى • لقد غيرت سلاحها • الا أن فالستاف لم يبال هذا الاغراء الجديد ، ربما لأنه لم ينظر الى قطعة الحلوى التي رمتها اليه • ولكن حين دخلت الاميرة الصغيرة حدود الدائرة التي يبعدها أرضه ، أظهر الكلب معارضة أبلغ وأقوى من معارضته في المرة الاولى ، فرفع رأسه ، وكثر عن أنيابه ، وأخذ يهمهم ، وهمّ بحركة تدل على أنه مستعد لأن يشب من مكانه • فالتهب وجه كاتيا غضبا ، ورمت قطعة الحلوى التي كانت تمسكها ، وعادت تجلس في مكانها ••

انها مضطربة أشد الاضطراب ، ان خديها كالجمر احمرارا ، بل ان دموعها لتتفجر من عينيها • ولما رأت اننى أنظر اليها ، غلى الدم في رأسها ، فاذا هي تشب من مكانها فجأة في اتجاه الحيوان الكاسر !

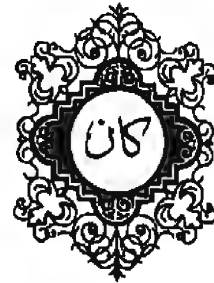
ولعل فالستاف قد تجمد في هذه المرة من الدهشة ، فترك عدوته تبتاز الحدود ، ولم يحيى البنت الطائشة بهممة مخيفة الا حين رآها

قريبة جدا منه • فتوقفت كاتيا ثانية أو أقل من ثانية ، ثم تابعت سيرها
بخطى ثابتة • تجمد الدم فى عروقى من شدة الذعر • كانت الاميرة
الصغيرة فى حالة من الهياج ما رأيتها فى مثلها يوما • لقد كان اليقين من
الانتصار يلهب عينيها • لم تحول نظرها عن الكلب الكاسر وهو يرمقها
بنظرات غاضبة ، ولم ترتجف أبدا أمام أنيابه المهددة • • بينما انتصب
الكلب • وانطلق من صدره الكفيف هدير رهيب ، فقلت فى نفسى : لن
تنقضى دقيقة واحدة الا ويمزقها اربا اربا ! • • الا ان الاميرة الصغيرة وضعت
يدها الصغيرة عليه فجأة فى اعتزاز ، وداعبت ظهره ثلاث مرات وقد بدت
عليها خلاء الظفر • وظهر على الكلب نوع من التردد • كانت تلك أسوأ
اللحظات • لكن الكلب لم يلبث أن نهض متاقلا ، وتمطى ، ولعله قال فى
نفسه انه لا يليق به أن يقتل مع طفلة ، ثم ترك الغرفة فى هدوء ووقار •
وبقيت الاميرة الصغيرة سيدة المكان ، فرمقتى بنظرة خاصة ، نظرة مفعمة
بالنشوة ، نظرة من أسكرها الشمور بالنصر • وكنت أنا شاحبة شحوبا
كثيرا • ولاحظت هى ذلك فابتسمت • الا أن وجنتيها أخذتا تشعجان ،
وما استطاعت أن تعود الى « الديوان » الا فى كثير من الغناء • فتهالكت
عليه فاقدة الوعى تقريبا •

منذ ذلك اليوم أصبح هواى لا يعرف الحدود • أصبحت أخاف على
كاتيا خوفا شديدا ، وأصبح الحزن يحرقنى حرقا • ألف مرة أوشكت
أن أرمى على عنقها وسمرنى الوجمل فى مكائى • وكنت أحاول أن
أتحاشاها حتى لا ترى انفعالى ، فاذا اتفق أن دخلت الغرفة التى كنت أظن
أننى مخبئة فيها ، أخذ قلبى يدق دقا قويا حتى لأرى الاشياء أمامى تدورا
• • • وأعتقد أن هذه البنية الشيطانة لاحظت الأمر ، لأنها ظلت خلال يومين
بادية التمليل • الا انها لم تلبث أن اعتادت على ذلك •

وانقضى شهر • كنت أتعذب فى سرى • ويجب أن أذكر أنا ، أنا
وكاتيا ، لم تبادل خلال هذه المدة كلها خمس كلمات • الا اننى أدركت
شيئا فشيئا ، من بعض القرائن الصغيرة ، ان سلوك كاتيا نحوى لا يمليه
عليها أنها نسيبتى أو انها لا تحفل بأمرى ، وانما يمليه عليها قرار ارادى ،
كأنما هى آلت على نفسها أن لا تدعنى أتجاوز بعض الحدود ، ومع ذلك
بلغت من العذاب أننى أصبحت لا أستطيع أن أنام ، وأصبحت لا أستطيع
أن أخفى انفعالى حتى عن مدام ليونار • أصبح جيبى لكاتيا مرضا ! •
اذكر اننى ذات مرة سرقت أحد مناديلها خلسة ، وفى مرة أخرى سرقت
أحد أشرطة شعرها ، وقضيت ليلالى يريتها أقبلهما باكية !

الفصل السادس



اعراض كاتيا عنى فى أول الامر قد أرهقنى ، الا
ان كل شىء قد اختلط الآن فى أعماق نفسى ،
حتى صرت لا أعرف ما أشعر به • وهكذا أخذت
مشاعرى الجديدة تمحو مشاعرى القديمة ،
وأصبحت ذكرى ماضى الحزين تفقد من قوتها ومن ألها ، لتحل محلها
آلام حياتى الجديدة •

كان يتفق لى أن أستيقظ فى الليل ، فانهض من سريرى ، وأقترب
من سرير الاميرة الصغيرة على رهوس الاصابع ، ثم أظل الى جانب سريرها
ساعات طويلة أنظر اليها على ضوء المصباح الشاحب • وكنت فى بعض
الأحيان أجلس على حافة سريرها ، وأنحنى على وجهها أنفاسها
الدافئة • وفى رفق ، وأنا أرتعد خوفاً ، أقبل يديها ، وكفيها ، وشعرها ،
وقدميها - حين تبرز قدميها من تحت البطاء - ولاحظت شيئاً فشيئاً (وكان
نظري لا يفارقها منذ شهر ا) ان كاتيا تزداد وجوماً ، يوماً بعد يوم ، وان
مزاجها يزداد تقلباً ساعة بعد ساعة ، فها هى اليوم تقضى النهار كله

لا يسمع لها صوت ، وهامى فى الغد تحدث صخباً أقوى من كل ما أحدثت قبل ذلك من صخب ! .. وهى الآن سريعة الاهتياج ، كثيرة المطالب ، تحمر وتنضب فى كل لحظة ، ولا يخلو سلوكها نحوى من شراسة وقسوة . وفجأة ، أصبحت ترفض أن تتناول الطعام معى ، وأن تجلس الى جانبى ، كأنما هى تشمئز منى !

ثم صار يتفق لها أن تمضى الى غرفة أمها تقضى معها النهار كله ، ربما لأنها تشعر اننى أتحطم حزناً فى غيابها . وفجأة ، أصبحت تهتدق فى ساعات طويلة ، فيصرغنى الاضطراب صرعا ، وأحمر وأصفر ، ثم لا أدري ماذا أصنع بنفسى ، ولا أجرو أن أدع الغرفة .

وانتابت الحمى كاتيا مرتين ، وهى التى لم تمرض قبل ذلك أبدا ! وأخيرا ، ذات صباح ، انتهت الى قرار لم يكن فى الحسبان : قررت كاتيا ، على حين غرة ، أن تقيم فى الطابق الاسفل مع أمها . وكادت أمها تموت خوفا حين علمت أن ابنتها مريضة تنتابها الحمى . وينبغى أن أذكر أن الأم كانت حانقة علىّ ، فهى تعزو الى جميع التغيرات التى لاحظتها فى سلوك ابنتها ، وترى أن مزاجى الحزين الكئيب قد انعكس على مزاج ابنتها . ولئن لم تفصل احدانا عن الاخرى منذ زمان طويل فما ذلك الا تحاشيا لما قد يقوم بينها وبين زوجها من نقاش بهذا الصدد . كان زوجها يسايرها عادة فى كل أمر ، الا انه كان فى بعض الاحيان صلبا عنيدا لا سبيل الى صرفه عن رأيه .. وكانت الاميرة تفهم الامير حق الفهم .

وهكذا كان لا انتقال كاتيا الى الطابق الاسفل مثل وقع الصاعقة على نفسى ، فقضيت أسبوعا كاملا فى لوعة مبرحة . وأخذت أحطم رأسى بحثا عن سبب الكره الذى تحمله كاتيا لى ! ..

كان الحزن يمزقنى تمزيقا ، ثم أخذت فكرة العدالة تذر قرنها فى نفسى الجريحة ، وأخذ يجتاحنى شعور بالاستياء والاستكثار . وخالجنى

فجأة نوع من العزة • حتى اذا خرجت مع كاتيا فى ساعة نزهتنا ، رأيتنى أنظر اليها فى كبرياء وجد لم تمهدهما فى من قبل ، فأدهشها ذلك أشد الدهشة • طبعى أن هذا التبدل لم يكن يظهر الا ليروز ، فسرعان ما كان قلبى يخفق خفقانا شديدا ، فاذا أنا أشد ضعفا وخجلا منى فى أى وقت مضى !

وأخيرا ، ذات صباح ، ظهرت كاتيا فى الطابق الأعلى ، فأذهلنى ظهورها هذا ، وأشاع فى نفسى اضطرابا فرحا • انها تسرع الى التعلق برغبة مدام ليوتار ، وهى تضحك ضحكا صاخبا ، وتنسبها بأنها عائدة إلينا • ثم ترجوها أن تعفيها من الدراسة فى هذا الصباح ، وتنطلق تركض وتلمب • • لم أرها يوما فى مثل هذا الفرح والمرح •

غير أنها هدأت فى المساء ، فاذا هى واجمة تفكر ، ثم اذا بالحزن يلقي ظلله على وجهها الجميل • وحين صعدت الاميرة تريد أن تراها ، لاحظت أن كاتيا تحاول جهدا أن تظهر مرحة • وما ان مضت أمها ، حتى انفجرت باكيا • وتأثرت أنا بمنظرها تأثرا شديدا ، واذا لاحظت كاتيا تأثرى ، انصرفت • ان أزمة لم تكن فى الحسبان تتهيا فى نفسها • واستدعت الاميرة الطبيب ، وطلبت الى مدام ليوتار أن توافيها بتقرير يومى عن كل ما يتصل بابنتها تفصيلا • وأمرت بأن تراقب كاتيا مراقبة دقيقة !

لكنى كنت أنا وحدى التى أوجست الحقيقة ، وقلبى ينبض أملا ورجاء • ان روايتنا الصغيرة تشارف على نهايتها • • فبعد ثلاثة أيام من عودة كاتيا الى جناحها ، رأيتها تنظر الى طويلا بينيها الرائتين • والتقى بصرى ببصرها عدة مرات ، فكنا فى كل مرة نحمر خجلا ، كأن كلاً منا يشعر بأنه مذنب فى حق الآخر • وأخيرا انصرفت كاتيا ، وهى تضحك •

ودقت الساعة الثالثة ، وألبسونا ثياب الزهرة ، فاذا بكاتيا تقترب منى فجأة
وتقول :

- لم 'يربط هذاؤك جيدا • دعيني أربطه ••

فاحمر وجهى احمرارا شديدا ، لأن كاتيا كلمتنى أخيرا ، وأردت
ان أنحنى لأتولى ربط حذائى بنفسى ، فقالت كاتيا وهى تضحك :

- دعيني أربطه ••

ثم انحنيت ، وأمسكت قدمي رغما عني ، فوضعتهما على ركبتيها وأخذت
تربط الحذاء •• فاجتاحني خوف عذب ، جعلني ألث ، ولا أستطيع
لانفعالى حبسا •• فلما نهضت كاتيا بعد أن فرغت من ربط الحذاء ،
أخذت تنظر الىّ من الرأس الى القدمين •

ثم قالت وهى تلمسني بأطراف أصابعها :

- والعنق غير مغطى • دعيني أصليح ربط الوشاح ••

ولم أحتج ، فحلت كاتيا وشاحي ، ثم لفت به عنقي على طريقتها ،
وعادت ربطه •• ولم تلبث أن استطردت :

- والا فقد تصايين بزكام •

قالت ذلك وهى تبسم ، وتنظر الىّ بعينين سوداوين مفرورقتين •
أما أنا فكنت فى حالة اضطراب شديد ، لا أفهم شيئا مما يقع لى ،
ولا أفهم شيئا مما يجيش فى نفس كاتيا • وكانت نزهتنا قصيرة لحسن
الحظ ، والا لما استطعت أن أمنع نفسى عن الارتواء على عنقها وتقييلها فى
عرض الشارع ! •• واستطعت مع ذلك ، ونحن نصعد السلم ، أن أختلس
قبلة على كتفها • ولاحظت ههـ ذلك فارتعشت ، الا انها لم تقل شيئا • ولما
أتى المساء ألبسوها أجمل حلة • وأنزلوها الى جناح الاميرة أمها ، لتشارك
فى استقبال الزائرين •

غير أن البيت انقلب رأسا على عقب أثناء الاستقبال • ذلك أن نوبة عصبية ألمت بكاتيا ، فاضطربت الاميرة اضطرابا شديدا ، واستدعت الطبيب • وظهرت على الطبيب علائم الحيرة والارتباك ، وأرجع هذه النوبة ، طبعا ، الى اضطراب السن ، الا اننى كنت أعلم أن حالة كاتيا ترجع الى سبب آخر • وعادت كاتيا فى صباح اليوم التالى الى طبيعتها ، متوردة الخدين ، مريحة المزاج ، تفيض صحة ونشاطا ونزوات •

ورفضت كاتيا طوال فترة الصباح أن تطيع مدام ليوتار ، ثم أرادت فجأة أن تزور الاميرة المعجوز • ووافقت الاميرة المعجوز أن تأتى اليها كاتيا ، على خلاف عاداتها - فقد كانت المعجوز لا تطيق كاتيا ، وكانت تشاجرها بلا انقطاع وترفض أن تراها ! - وبدا الانسجام بين المعجوز وكاتيا على أحسن ما يرام ، خلال الساعة الاولى من لقاتهما ، فان الشيطانة الصغيرة أخذت تستغفر المعجوز عن أخطائها ، عن كثرة حركتها وصخبها ، عن تعكيرها صفاء الأنسة عمتها • فترقرقت الدموع فى عيني الاميرة المعجوز ، وغفرت لها أخطاءها فى لهجة رصينة وقورة • ومضت كاتيا الى أبعد من هذا (وكانت تعتز بشقاوتها) فزعمت للمعجوز أنها نادمة على خطاياها ، تريد أن تصلى وأن تصوم وأن تضرع الى الله • فارتاحت الاميرة التقية لهذه التوبة ، وشعرت فى أعماقها بكثير من الزهو • لقد استطاعت أن تسيطر على هذه الطفلة التى هى كنز البيت ومعبودته ، هذه الطفلة التى كانت أمها نفسها ترضع لجميع نزواتها وتحقق كل رغباتها !

عندئذ اعترفت الشيطانة الحيثة أنها كانت تنوى أن تعلق بطاقة على ثوب السيدة المعجوز ، وأن تسكن الكلب « فالستاف » تحت سريرها ، وأن تكسر لها نظاراتها ، وأن تأخذ جميع كتبها لتضع فى مكانها روايات

فرنسية من مكتبة أمها ، وأن تشتري متفجرات ترميها على أرض غرفتها ،
وان تدس في جيبيها مجموعة من ورق اللعب • • اعترفت بأنها كانت
تنوى القيام بسلسلة من الاعمال الخبيثة • فما ان سمعت الانسة العجوز
هذا الكلام حتى خرجت عن طورها ، واصفرت واحمرت سخطا وغضبا ،
ولم تستطع كاتيا أن تمتنع عن اظهار فرحها ، فهربت وهى تنفجر ضاحكة •
ولم تلبث العجوز أن استدعت ابنة أخيها على الفور • وكانت قصة • ظلت
الاميرة ، خلال ساعتين ، تتوسل الى عمتها ، والدموع فى عينيها ، أن
تصفح عن كاتيا ، وأن لا تأمر بمعاقبتها ، وأن تنظر بعين الاعتبار الى أن
الطفلة مريضة • غير أن الاميرة العجوز لم تشأ فى أول الامر أن تسمع
شيئا ، وصرحت أنها ستقادر البيت فى الغداة ، ولم تهدأ الا حين قطعت
الاميرة عهدا على نفسها أن تنزل بكاتيا العقاب الشديد الذى تستحقه ، متى
اهلت من مرضها • وفى انتظار ذلك أثبتت كاتيا ثأنيا شديدا ، واقيدت
الى تحت ، الى جناح أمها • غير أن المذنبه الصغيرة استطاعت أن تفر بعد
العشاء • فقد لقيتها على السلم بينما كنت أهبط ، ورأيتها تشق الباب ،
وتدعو « فالستاف » • ففهمت على الفور أنها تدبر انتقاما فظيما • واليكم
التفاصيل :

لم يكن للاميرة العجوز من عدو ألد من « فالستاف » • وكان
فالستاف لا يسمح لأحد بمداعبته ، ولا يحب أحدا • انه حيوان مفرور
صلف الى أبعد حدود الفرور والصلف • كان اذن لا يحب أحدا ، ولكنه
كان يقتضى الجميع احتراما يراه من حقه • والواقع ان كل من فى البيت
كان يوفيه حقه هذا من الاحترام ، خوفا ورهبة • ولكن الوضع اختلف
كل الاختلاف حين وصلت الاميرة العجوز • لقد أهين فالستاف عندئذ
أفزع اهانة ، اذ منع من الوصول الى الجناح الأعلى ا
وغضب فالستاف فى أول الامر غضبا شديدا ، وظل أسبوعا كاملا

يخدش باب السلم المؤدى الى مدخل الجناح الأعلى ، الا انه لم يلبث أن فهم سبب أقصائه ، حتى اذا جاء يوم الاحد ، ورأى العجوز خارجة الى الكنيسة ، هجم عليها وهو يهمهم ويعوى ، ولم يمكن تخليصها من انتقامه الا بشق الأنفس . وأصبحوا لا يمنعونهم منعاً باتاً من الصعود الى الجناح الأعلى فحسب ، بل أصبحوا كلما نزلت الاميرة العجوز يقصونه الى أبعد مكان ممكن . لقد صدرت للخدم أوامر قاسية بهذا الصدد . ومع ذلك استطاع الحيوان الحاقد الحائق أن يصعد الى الجناح الاعلى ثلاث مرات ، وكان فى كل مرة يعدو خلال الحجرات اسللاً حتى يصل الى مخدع الاميرة العجوز ، دون أن يقدر أحد على وقفه ، الا أن الباب يكون مغلقاً لحسن الحظ ، فما يستطيع فالستاف أن يزيد على الزئير وراءه زئيراً مرعباً الى أن يسارع الخدم فينزلوه الى أسفل . أما الاميرة العجوز فكانت ، طوال زيارته الوقحة ، تصرخ صراخ من يسلم جلدته ، ثم تقع مريضة من شدة الذعر . وأرسلت العجوز عدة مرات انذاراً الى ابنة أخيها تقول فيه ان هذه هى المرة الاخيرة ، وان على فالستاف أن يخرج من البيت أو تخرج هى منه ، الا أن الاميرة لم تقرر أن تنفصل عن كلبها .

ذلك أن فالستاف كان أحب سكان البيت الى قلب الاميرة بعد أبنائها ، واليكم السبب :

ذات يوم ، منذ ست سنين ، جاء الامير الى البيت ، فى عودته من نزهته ، بكلب قذر مريض يرثى لحاله ، وان كان ينتمى الى فصيلة ممتازة من فصائل الكلاب . لقد أنقذ الامير هذا الكلب من الموت . ولما كان القادم الجديد شرس الطبع فظا ، فقد أمرت الاميرة بأن يربط فى فناء المنزل . ولم يعترض الامير على ذلك .

وبعد سنتين ، بينما كانت الاسرة كلها فى الريف ، سقط «ساشا»

- أخو كاتيا - فى نهر (نيفا) على حين غرة • فاخذت الاميرة نصرخ •
ورمت بنفسها فى النهر • ولم ينقذوها من موت عاجل محقق الا بعد كثير
من العناء • أما الطفل • وقد جرفه تيار النهر السريع • فقد ظل عائما
على سطح الماء بفضل تياجه الطافية • وأسرعوا الى قارب ففكوه محاولين
أن يمسكوا به الى الطفل • ولكن كان لا بد من معجزة للعودة بالطفل
حيا • • وفيما هم كذلك اذا بكلب ضخم يرتدى فى الماء • ويمضى قدما
نحو الامير الصغير الذى يوشك أن يفرق • فيقبض عليه بأسنانه • ويعود
به الى الشاطئ ظافرا • وترتمى الاميرة على الكلب المبلل تقبله • الا أن
فالسٹاف (وكانوا يطلقون عليه حتى ذلك الحين اسما شعبيا هو «فريسكا»)
كان فى ذلك الحين لا يطيق المداعبات • فرد على مداعبات الاميرة وعلى
قبلائها بعضه فى كتفها عميقة جدا • وقد ظلت الاميرة تحس هذا الجرح
خلال حياتها كلها • الا ان ذلك لم يقلل من شعورها نحو الكلب بعواطف
الشكر والامتنان • وبعد هذه الحادثة أصبح يسمح لفالسٹاف بالتجول
فى أجنحة المنزل • ويعتنى بنظافته ويزين جيده بعقد من فضة جميل •
وصار يحق له أن يستقر فى حجرة الاميرة على جلد فاخر من جلود
الدبة • وما لبثت الاميرة أن توصلت الى مداعبته دون أن تخشى عضه
سريعة قاسية • وحين علمت أن أثرها هذا يدعى «فريسكا» استاءت استياء
شديدا وبحثت له • فورا • عن اسم جديد • حرصت على أن يكون من
أسماء الاقدمين • ما أمكن ذلك • الا أن أسماء مثل اسم « هكتور » أو
« سريبر » كانت شائعة مبتذلة • وكان لا بد من ايجاد اسم أليق • واقترح
الامير أخيرا • لما يتصف به فريسكا من شراهة قوية • أن يسميه
«فالسٹاف» • وسرت الاميرة بهذا الاسم بل تحمست له • وكان سلوك
فالسٹاف سلوكا لا غبار عليه • كان صامتا وقورا كإنجليزى حقيقى •
لا يتقدم أول المتقدمين أبدا • ولا يطلب من الجميع الا أن يخلوا له مكانه

على جلد الدب ، وأن يحيطوه بالاحترام اللازم • وكان ذكريات كانت
توافيه في بعض الأحيان ، فيتملكه نوع من الكآبة : كان في تلك اللحظات
يفكر في الثأر من عدوته اللدود التي جرّوت أن تفتت على حقوقه ، ولم
يستطع أن ينتقم منها حتى الآن • • فكان اذا ألقى الباب مغلقا ، قبع في
ركن قريب ينتظر - مختالا - مجيء أحد يدع الباب من ذهوله مشقوقا •
وأحيانا كان هذا الحيوان الماكر يظل ينتظر هكذا ثلاثة أيام طوالا !

- فالستاف ، فالستاف •

هكذا نادته الاميرة الصغيرة « كاتيا » وقد فتحت الباب وأشارت اليه ،
في رقة ولطف ، أن يتبعنا على السلم •

وكان فالستاف قد شعر بأن الباب يفتح ، فنهأ لاجتياز العتبة • غير
أن نداء الاميرة الصغيرة بدا له من الغرابة بحيث أنه رفض في أول الامر
أن يصدق أذنيه • انه ماكر كالهرة : فلكى لا يظهر انه لاحظ ترك الباب
مفتوحا ، مضى الى النافذة ، ووضع قائميه الجبارتين على حافتها ، وجلس
يتأمل البيت المقابل ، كما يفعل شخص غريب يتوقف أثناء نزهة ليتأمل
جمال عمارة قريبة •

كان الترقب يملأ قلبه بشرا ورجاء • تصوروا اذن أية دهشة
كبيرة ، وأى فرح طافح ، وأية حماسة شديدة لا بد أنه شعر بها حين
لم يفتح الباب فحسب ، بل نودى عليه ودعى الى الدخول ، بل ضرع
ايه أن يصعد ويأخذ ثأره المشروع على الفور !

زأر فالستاف زئير الفرخ ، وشمر شفثيه ، ثم مرق كالسهم بوثة
رهية ظافرة •

وكانت وثبته من القوة بحيث قلبت كرسيها اعترض فالستاف في

طريقه ، فطار الكرسي حتى وقع على بعد مترين من مكانه ، بعد أن دار
كما يدور الحذروف • كان فالستاف يمرق مروق قبلة خرجت من
مدفع • وصرخت مدام لوتار مذعورة ، الا أن فالستاف كان قد بلغ الباب
الحرام ، وأخذ يضربه بقدميه • ولم يستطع أن يفتحه ، فحصل يعول
عويلا يهز أركان البيت ، وسرعان ما أجابته العجوز بعويل كعويله •
ولكن فرق الانقاذ ما لبثت أن تقاطرت من كل صوب ، اذ سارع الخدم
جميعا الى فوق ، واستطاعوا أن يلقوا على فكّي الكلب كمامة ، وأن يكبلوا
قوائمهم الاربع ، وأن يربطوا طوقه بحبل ، فاضطر فالستاف ، فالستاف
الرهيب ، أن يترك ساحة المعركة ، وأن يعود الى أسفل ، على حال من
الهوان يرثى لها •

• واستدعيت الاميرة •

ولم تكن المسألة في هذه المرة مسألة تملل أو اعتذار • ولكن من ذا
الذي يجب أن يعاقب ؟ فهتت الاميرة حقيقة الامر من أول نظرة ألقتها
على ابنتها • لا مجال للشك • ورأيت كاتيا ممتعة اللون ترتعد خوفا •
في تلك اللحظة أدركت الصغيرة المسكينة هول مزحتها • كان يمكن أن
تقع الشبهات على الخدم ، على أبرياء ، ولكن كاتيا كانت على استعداد لأن
تعترف بالحقيقة كلها •

سألها أمها في صرامة :

— هل أنت الفاعلة ؟

ونظرت الى كاتيا فهالتني صفرتها ، فما رأيتهى الا وأنا أتقدم الى
أمام ، وأقول بصوت جازم :

— أنا التي تركت « فالستاف » يمر !

ثم أضفت ، وقد تبددت شجاعتى بتأثير النظرة المتوعدة التى ألقته
على الأميرة :

- ولكنى لم أفعل ذلك عن عمد ••

فاتجهت الاميرة الى مدام ليوتار ، وأمرتها قائلة :

- مدام ليوتار ، انزلى بها العقاب الشديد الذى تستحقه !

ثم تركت الغرفة •

نظرت الى كاتيا • كانت واقفة كأنها متجمدة ، وقد أسبلت ذراعيها ،
وأحنت رأسها الشاحب •

كانت العقوبة الوحيدة التى تنزل باولاد الامير هى أن يحبسوا فى
غرفة خالية • ولم يكن البقاء فى مثل هذه الغرفة ساعتين بأمر ذى بال ،
فى ذاته • ولكن حين يوضع الطفل فيها برغم ارادته ، وحين يقال له ،
زيادة على ذلك ، انه سجين محروم من الحرية ، فالعقاب عندئذ لا يخلو
من شدة • اذن فقد جرت العادة أن تحبس كاتيا أو أن يحبس أخوها
خلال ساعتين • أما أنا فقد جعلت عقوبتى أربع ساعات ، لفداحة ذنبى !

لكنى دخلت الى السجن فرحة مسرورة • كنت أفكر فى الاميرة
الصغيرة ، واعلم ان النصر لى ، ولكنى بدلا من أن أبقي أربع ساعات ،
بقيت حتى الساعة الرابعة من الصباح • واليكم السبب :

بعد دخولى السجن بساعتين علمت مدام ليوتار أن ابنتها مرضت
فجأة لدى وصولها من موسكو ، وأنها تريد أن تراها • فتركت البيت
دون أن تظن الى وجودى فى السجن • وظننت الوصيصة التى كانت تهتم
بأمرنا أنه قد أطلق سراحى ، كما أن كاتيا استدعيت الى أسفل ، وظلت

الى جانب أمها حتى الساعة الحادية عشرة مساء • وذهبت كاتيا حين عادت فوجدت سريري خاليا • وجردتها الوسيطة من ثيابها واضجعتها في سريرها • ولم تشأ الاميرة الصغيرة ان تسأل عني • وكانت واثقة على كل حال من أن خادمتنا « ناستيا » ستعيدني متى انتهت ساعاتي الأربع في السجن • الا ناستيا كانت قد نسيته • لا سيما وأني أتولى خلع ملابسى دائما بنفسى • وهكذا قضى على أن أقضى الليل في السجن !

وفى الساعة الرابعة من الصباح سمعت قرعا على الباب • ولاحظت أنهم يحاولون فتحه عنوة • كنت نائمة على ارض الغرفة • فصرخت جزعة • الا اننى لم ألبث أن سمعت صوت كاتيا • وكان يعملو جميع الاصوات • ثم سمعت صوت مدام ليوتار • فصوت ناستيا مذعورة • ثم أصواتا أخرى • وفتح الباب اخيرا • ورأيت مدام ليوتار تبكى • ثم تقبلنى • وتطلب الى ان اغفر لها انها نسيته • فالقيت ذراعى على عنقها باكية • وكنت أرتجف من البرد بعد أن قضيت هذا الوقت كله نائمة على الارض • وشعرت بألم ينفذ الى عظامى • ونظرت أبحث عن كاتيا • الا انها كانت قد هربت الى غرفتها وقفزت الى سريرها • وحين عدت الى الغرفة كانت قد نامت أو تظاهرت بالنوم • لقد غفت فى المساء بالرغم منها وهى تتفكرنى • ولم تستيقظ الا فى الساعة الرابعة من الصباح • فلما لم ترنى فى سريري جنّ جنونها فأيقظت مدام ليوتار التى عادت الى البيت فى ساعة متأخرة • وأيقظت الخادمة • والوصيفات • لالطلاق سراحي •

وفى الضحى كان جميع من فى البيت يعرف أمر حبسى • حتى أن الاميرة نفسها وجدت أن العقوبة قد تجاوزت الحدود • أما الامير فقد رأيته • لأول مرة فى حياتى • غاضبا • فقد صعد فى نحو الساعة العاشرة وهو أشد ما يكون احتياجا • وتوجه الى مدام ليوتار صارخا :

- ماذا صنعت ؟ كيف عاملت هذه الصغيرة البائسة ؟ هذا عمل وحشى ، هذا عمل غير انسانى • طفلة ضعيفة مريضة ، خيالية الى هذا الحد ، جرعة الى هذا الحد ، تجسيتها فى غرفة مظلمة طوال الليل كله ! أتريدن اذن قتلها ! هذه وحشية هائلة ، هذه فسوة فظيعة ، أقول لك هذا بلا مواربة ، وكيف تسمحون لانفسكم بانزال مثل هذه العقوبة ؟ من ذا الذى جرؤ على اختراع هذه العقوبة ؟ من ؟

وحاولت مدام ليوتار المسكينة - وقد أخذ الاضطراب منها مأخذه ، وفاضت عيناها بالدموع - أن تشرح القضية من أولها الى آخرها ، فاعترفت انها نسيتهى بسبب وصول ابنتها من موسكو ، ثم قالت ان هذه العقوبة حسنة فى حد ذاتها ، اذا لم تدم طويلا ، لأن جان جاك روسو نفسه قد دعا الى شىء من هذا القليل •

- جان جاك روسو ؟ • • جان جاك روسو لم يقبل شيئا من هذا • وجان جاك روسو ليس حجة ، يا سيدتى • جان جاك روسو لا يحق له أن يتكلم فى التربية ، كلا ، لا يحق له • جان جاك روسو أهمل أبناء أنفسهم ، يا سيدتى • جان جاك روسو حقير ، يا سيدتى •

- جان جاك ، جان جاك حقير ! ماذا تقول يا سيدى الامير ؟

واحمر وجه مدام ليوتار حتى صار بلون الدم •

كانت مدام ليوتار امرأة طيبة متنازة ، تكره أن تغضب أكثر ما تكره • ولكن حين يُمسُّ أحد الأتيرين الى قلبها بسوء ، حين يطعن أحد فى « كورنى » أو « راسين » ، حين يقدح أحد فى « فولتير » ، أو حين يُعدّ « جان جاك روسو » حقيرا ، فان الكيل عندئذ يطفح ا

وتفجرت الدموع من عيني مدام ليوتار سسحينة سخية ، وأخذت
ترتجف من شدة الانفعال •

ثم قالت وقد عجزت عن كبح استيائها :
- انك تنسى نفسك ، يا سيدى الامير •

وسرعان ما توقف الامير عن الكلام ، ثم اعتذر لمدام ليوتار ، واقترب
منى فقبلنى قبلة تفيض بخنان عميق ، وحرك يده بإشارة الصليب ، ثم
انصرف •

- مسكين أيها الامير !

قالت مدام ليوتار ذلك ، وهى أشد ما تكون تأثرا • ثم جلسنا الى
الدرس •

الا أن الاميرة الصغيرة كانت تدرس بغير حماسة • وقيل الذهاب
الى المائدة بلحظة واحدة ، جاءت الى وقد امتلأت نفسها حمية وارتسمت
على ثمرها ابتسامة ، فأمسكتنى من كتفى ، وقالت بلهجة متعجلة ، خبلى
بعض الشيء :

- اذن فأنت قد تحملت العقاب من أجلى ؟ اسمعى • منقلب بعد
العشاء فى القاعة الكبيرة •

ومر شخص بجانبنا ، فابتعدت الاميرة الصغيرة مسرعة •

♦♦♦

وبعد العشاء ، عند الفسق ، نزلنا معا الى القاعة الكبرى ، وقد
أمسكت كل منا بيد الاخرى • كانت الاميرة تعاني انفعالا بلغ من العمق

انها بدت تنفص بأنفاسها • وشمرت أنا بفرح وسعادة يندر أن أشعر
بمثلهما •

فلما وصلنا الى القاعة قالت :

— هل تحين أن تلعبى بالكرة ؟ ففى هنا •

وأوقفتنى فى احدى زوايا الصالة • الا انها بدلا من أن تبتعد ،
وترمى الىّ بالكرة ، توقفت على بعد ثلاث خطوات منى ، ونظرت الىّ ،
فاحمر وجهى ، ثم اندفعت نحو الديوان فجلست عليه جاعلة وجهها بين
يديها • وتحركت نحوها • فظنت اننى أهم أن أمضى فقالت :

— لا تذهبى يا نيتوتشكا • ابقى معى •

ثم ما لبثت أن وثبت من مكانها ، وقد احمر خدّاها وترقرق الدمع
فى عينيها ، فارتمت على عنقى مسرعة • كانت وجنتاها كالنار حرارة ،
وكانت شفثاها كالخوخ حمرة وتورما ، وكانت خصلات شعرها مضطربة • •
وأخذت تنمرنى بقبل محمومة مجذونة : على الوجه ، على العين ، على
الشفين ، على الخدين ، على اليدين • كانت تشهق وتنحب كأنها فى
نوبة عصبية • وضمتها الى صدرى ضما قويا ، ثم ظلمنا متعافقتين فى حنان ،
كصديقين ، بل كعشيقين يلتقيان بعد طول بعاد • وكان قلب كاتيا يخفق
خفقانا شديدا ، حتى سمعت ضرباته •

وفيما نحن كذلك ، اذا بصوت يدوى فى النسرقة المجاورة • ان
الاميرة أرسلت تستدعى كاتيا •

— آه ، نيتوتشكا • الى اللقاء فى هذا المساء ، فى هذه الليلة •
اصعدى • انتظرينى فى الطابق الأعلى •

وقبلتني قبله أخيرة ، عذبة قوية ، وخرجت تسنجيب لنداء «ناستيا» .
صعدت مسرعة كمن بعث الى الحياة بعد موت • فارتفعت على « الديوان »
وأغرقت رأسي في وسادة ، وأخذت أشهق من شدة الفرح • كاد قلبي
يشق صدرى من شدة الخفقان • لا اتذكر الآن كيف استطعت التذرع
بالعبر الى الليل • وأخيرا دفعت الساعد الحاديه عشرة ، واضطجعت في
سريري • ولم تعد كاتيا الا في منتصف الليل • فتبسمت لى من بعيد ،
دون أن تبس بكلمة ، وكانت ناستيا كأنها تعتمد البعد في تجريدها من
نيابها ، فدمدمت كاتيا تقول :

.. عجلى ، يا ناستيا ، عجلى •

.. ماذا بك ، يا أميرة ؟ ان قلبك يخفق خفقانا قويا • لا شك انك
سمعت السلم عدوا •

.. هو ا ناستيا • انك تزعجينى • عجلى • قلت لك عجلى •

وضربت برجلها الارض مغتظة •

قالت ناستيا وهى تقبل قدم الاميرة الصغيرة بعد أن جردتها من
حذائها :

.. هذا القلب الذى يخفق !

وانتهى أخيرا كل شئ : اضطجعت كاتيا على سريرها ، وخرجت
ناستيا من الغرفة • وفى طرفه عين ، رأيت كاتيا تخرج من سريرها ،
وتتب الى ، فما ان لمستنى حتى انطلقت من صدرى صرخة •

.. هلمى • تعالى • تعالى الى سريرى • أسرعى •

أمرتني بذلك وهى تنهضنى • وما هى الا لحظة حتى كنا فى

سريرها متعاقبتين أضنها وتضمنى ضما قويا • كانت قبلات كاتيا تخرج
من أعماق روحها •

قالت قد احمر وجهها حتى أصبح بلون الدم :

— هل تعلمين اننى رأيتك حين قبلتني فى الليل ؟

فطفقت أشهى • بينما همست كاتيا ، من خلال دموعها تقول :

— نيتوتشكا ، عزيزتى ، اننى أحبك منذ زمان طويل ، هل تعلمين ؟
هل تريدن أن أقول لك منذ أى يوم ؟

— منذ أى يوم ؟

— منذ اليوم الذى أمرنى فيه أبى أن أعتذر اليك •• منذ ذلك اليوم
الذى أردت فيه أن تدافعى عن أبىك ، يا نيتوتشكا ••

وأردفت تقول وهى تعمرنى بالقبل ، وتضحك فى آن واحد :

— يتيمتى العزيزة ••

— كاتيا !

— ماذا ؟

— لماذا ظللنا طوال هذه المدة •• طوال هذه المدة ••

ولم أستطع أن أتم كلامى • وتعاقنا • وخيم الصمت ثلاث دقائق
— ما كان رأيك فى " يا نيتوتشكا ؟

— آه ، يا كاتيا • كنت لا أفعل شيئا غير أن أفكر فىك ، ليل نهار •

— وكنت فى الليل تتكلمين عنى • سمعتك •

— مستحيل ♦

— بلى ! ما أكثر ما بكيت ♦

— اذن لماذا كنت قاسية كل هذه القسوة ؟

— كنت حمقاء ، يا نيتوتشكا ♦ هذه الحماقة تتملكنى أحيانا ♦ ولا
أستطيع لها دفعا ♦ كنت حاقدة عليك ، هذا كل ما فى الأمر ♦

— لماذا كنت حاقدة على ؟

— لا لسبب ♦ لأننى شريرة ♦ ثم لأنك أحسن منى ♦ ثم لأن أبى
يجبك كثيرا ♦ ان أبى انسان طيب جدا ، ألا ترين معى هذا يا نيتوتشكا ؟

— أوه ♦ بلى ♦ بلى ♦

قلت ذلك ، وقد تفرق الدمع فى عيني ، على ذكر الامير ♦
وأضافت كاتيا ، فى لهجة رصينة :

— انه انسان طيب جدا ♦♦ ثم اننى حين طلبت اليك الصفع ، كنت
على وشك أن أبكى ♦♦ وبسبب هذا أيضا حققت عليك ♦

— نعم ♦ لاحظت ذلك ♦ لاحظت أنك تودين لو تبكين ♦

فصرخت كاتيا وقد وضعت يدها على فمى :

— أسكتى ♦ أنت نفسك تميلين للبكاء ♦ اسمعى ♦ آه ♦ لقد أحبيتك
حبا قويا ♦ ولكن ، فجأة ، رأيتنى. أكرهك ، أكرهك كرها ، هل
تسمعين ؟

— لماذا ؟

- لا لسبب • كنت حاقدة عليك ، لا أدري لماذا ! ولاحظت انك
لا تستطيعين أن تعيشي بدوني • قلت في نفسي : فلأعذبها قليلا ••
- آه • كاتيا •

وأردفت كاتيا تقول ، وهي تقبل يدي :
- جييتي •• ثم قررت أن لا أكلمك أبدا • هل تذكرين يوم
دعيت فالستاف ؟

- آه • لشد ما أخفنتني !
- ولشد ما خفت أنا أيضا • هل تعلمين لماذا أقدمت على مداعبته ؟
- لماذا ؟

- لأنك كنت تنظرين الىّ • حين رأيت انك تنظرين الىّ •• قلت
في نفسي : ليكن ما يكون •• وجازفت •• ألم تخافى خوفا شديدا ؟
- خوفا فظيما !

- لاحظت • لو تعلمين كم سررت حين انسحب فالستاف • رباه !
•• ولشد ما ارتعدت خوفا ، بعد ذلك ، حين ابتعد •• هذا الغول !
ثم انطلقت من صدر الاميرة الصغيرة ضحكة عصبية • وفجأة ،
رفعت رأسها المحموم ، وأخذت تحدق في • كانت دموع كاللؤلؤ ترتجف
على حافة أهدابها الطويلة •

- ولكن علام أحبك كل هذا الحب ؟ انك شاحبة • وشمرلك
الزاهى قبيح • وأنت غبية •• وبكاءة • نعم يا يتيمنى الصغيرة العزيزة !
وعادت كاتيا تفرقني بقبلاتها ، وسالت قطرات دموعها على عنقي •
انها مضطربة أعمق الاضطراب •

- نعم أحببتك كثيرا • ولكنى قلت فى نفسى : كلا ، كلا ، ثم كلا •
لن أصارحها • وأصررت على عنادى • لماذا كنت خائفة ؟ لماذا كنت
خبلة ؟ آه ، هل ترين كم نحن سعيدتان الآن ؟

قلت فى غمرة من الفرح الطافح :

- اننى أشعر بألم فى كل موضع من جسمى • ان قلبى يوشك أن
يتحطم !

- نيتوتشكا • اسمى • نعم اسمى • ولكن قولى : من أسماك
نيتوتشكا ؟

- أمى •

- ستروين لى كل شىء عن أمك ، أليس كذلك ؟
فأجبت فى حماسة :

- نعم • كل شىء ، كل شىء •

- وأين المنديلان اللذان سرقتهما منى • وأين شريط شعرى ؟
لماذا أخذت شريطى ؟ ألا تخجلين ؟ اننى أعرف كل شىء ، هل ترين ؟
وأخذت أضحك ، واحمر وجهى حتى طفرت من عيني الدموع •
واستأنفت كاتيا كلامها :

- قلت فى نفسى • كلا • فلتنتظر • يجب أن أعذبها أولا • وكنت
أقول لنفسى فى بعض الأحيان : كلا ، اننى لا أحبها ، لا أحبها أبدا ولا
أطيق رؤيتها • وبقيت أنت لطيفة وديعة مثل حمل • آه ! لشد ما كنت

أخشى أن تمدني بليدة ! ذلك أنك ذكية يا نيتوتشكا ! أنت ذكية جدا ،
أليس كذلك ؟

قلت ، وقد كادت كرامتي تجرح :

- لماذا تتكلمين هكذا ، يا كاتيا ؟

فأجابت كاتيا في لهجة رصينة جازمة :

- بل انت ذكية ، هذا أمر لا شك فيه . وفي ذات صباح ، استيقظت
من نومي وأنا أشد ما أكون حبا ولوعة . لم أطلق ذلك ، وكنت قد حلمت
بك الليل كله . عندئذ قررت أن أمضي الى أمي أرجوها أن تقبلني في
غرفتها . كنت أريد أن لا أحبك ، نعم ، كنت أريد أن لا أحبك . وفي
الليلة التالية ، رأيته أقول لنفسى وقد اضطجعت في سريري : آه ...
لنتها تأتي كما أتت في تلك الليلة ! لقد عرفت كيف أظهار بالنوم في
تلك الليلة . أليس كذلك ؟ لكم يستطيع الانسان أن يكون خبيثا ،
يا نيتوتشكا !

- ولماذا كنت تمنعين نفسك من حبي ؟

- لغير ما سبب . هي فكرة راودتني . ولكن ماذا أقول ؟ لقد
أحببتك يا نيتوتشكا ، أحببتك دائما . وكنت أقول لنفسى : سأخفيها
بالقبل ، وسأظل أعضها وأقرصها حتى أفجر الدم من جسمها ، وسيسرها
ذلك ، هذه الحماة الصغيرة !

وتوقفت قليلا ، ثم قالت :

- هل تذكرين ، يوم ربطت لك حذاءك ؟

- أذكر .

- كنت مسرورة جدا ، أليس كذلك ؟ نظرت يومئذ إليك ، وأنا أقول فى نفسى : ما ألطفها ! .. سأربط لها حذاءها ، لأرى ما وقع ذلك فى نفسها ! وكنت أنا فرحة . هل تذكرين ؟ واشتهيت لو أقبلك . ولكننى لم أقبلك . وما أكثر ما ضحكت فى سرى بعد ذلك ا ، نعم ، ما أكثر ما ضحكت فى سرى ا طوال النزهة لم أفعل شيئا غير أن أحبس نفسى عن الضحك ، حتى اتنى لم أستطع أن أنظر إليك ا آه . وما كان أشد سرورى حين كنت فى السجن ! لشد ما أسعدنى أن أشعر انك فى السجن من أجلى . هل فزعت ؟

- فرعا فظيما .

- لم يسعدنى انك اهتمت نفسك ، وانما أسعدنى انك فى السجن نيابة عنى . هل تفهمين ؟ قلت فى نفسى : انها تبكى بينما أحبها أنا كل هذا الحب ! غدا سأقبلها ، نعم سأقبلها كثيرا . والحق اننى لم أشفق عليك ، لم أشفق عليك أبدا ، أبدا . ومع ذلك فقد بكيت .

- اما انا فما بكيت . كنت سعيدة جدا ا

- ما بكيت ؟ آه منك أيتها المفسدة الصغيرة !

قالت كاتيا ذلك وهى تقبلنى قبلة عفيفة .

- كاتيا ، كاتيا . انك لطيفة جدا .

- أليس كذلك ؟ نعم . والآن تستطيعين أن تصنعى بى ما تشائين .

تستطيعين أن تعذبينى . أن تقرصينى . أرجوك . اقرصينى بقوة .

- عفريته ا

ـ وماذا أيضا ؟

ـ حمقاء صغيرة !

ـ وماذا أيضا ؟

ـ قليلنى •

وتبادلنا القبل ، وبكىنا ، وأخذنا نضحك •• وتورمت شفقتنا من قوة
القبل •

ـ نيتوتشكا ! ستامين دائما معى • ثم ، هل تحبين القبل ؟ اذن أقبلك
وتقبلينى • ثم اننى لا أريد أن تكونى حزينة هكذا ! لم أنت حزينة ؟
ستقولين لى كل شىء ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، سأقول لك كل شىء • ولكننى لست حزينة الآن ، اننى
فرحة •

ـ كلا ، يجب أن تكون وجنتاك متوردتين ، مثلى ! آه • لا أحب
أن يأتى الغد • هل أنت تصبة يا نيتوتشكا ؟

ـ كلا •

ـ اذن فلنتحدث • هيا نتحدث •

ونحدثنا ساعتين ، لا أدرى فيم تحدثنا ! شرحت لى كاتيا خططها
للمستقبل ، وشرحت لى الوضع الحاضر • علمت أنها تحب أباهما أكثر من
أى انسان آخر ، أكثر مما تحبىني تقريبا • واتفقنا كلتانا على ان مدام
ليوتار امرأة طيبة ممتازة ، غير قاسية البتة • ثم تخيلنا ما سنفعله غدا ،
وما سنفعله بعد غد ، بل رسمنا برنامجا يمتد الى عشرين سنة ، على أقل
تقدير ! •• وارتأت كاتيا أن تجرى الامور هكذا : يوما تأمر وأطيع ،

ويوما امر وتطيع ، ويوما نامر كلتنا وتتعمد احدا ان لا تطيع فنتظاهر بالمخاضمة ثم نسارع الى المصالحة • الخلاصة : ان سعادة كبرى انفتح طريقها امامنا • واخذ منا التعب مأخذه ، من فرط ما نثرنا ، واطبقت أجفاننا • ونامت كاتيا قبلى ، مع انها هزئت بى لآتنى كنت أتناوب • وفى الصباح استيقظنا فى وقت واحد ، فتبادلنا قبلة على عجل ، لأننا سمعنا وقع خطوات تقترب من الباب ، وسارعت الى سريري •

وطوال النهار كنا من شدة الفرح كمن طاش عقله • وحرصنا على أن نختبيء دائما فى أقصى مكان ممكن خشية أن يرانا أحد • وبدأت اخيرا اروي لكاتيا قصتى ، فكانت تصنى الى مضطربة الى حد البكاء •

— لماذا لم تقصى على كل هذا من قبل ، ايها الحبيبة ؟ لو قد قصصته على كنت أحببتك ، لكنت أحببتك كثيرا ! أكان يعذبك كثيرا هؤلاء الصبية الذين كانوا يضربونك فى الشارع ؟

— جدا • وكنت أخاف ، أكاد أموت من الخوف !

— آه ، من هؤلاء الاشقياء ! رأيت مرة فى الشارع صبيا يضرب صبيا آخر • غدا سأخذ سوط فالستاف خفية ، وأمضى الى الشارع ، فاذا رأيت صبيا من هذا النوع ، جلده ، جلده جلدًا • ستريين !

والتهبت عيناها حنقا وسخطا ••

كنا نرتجف اذا دخل علينا أحد ، كنا نرتعد خوفا من أن يباغتنا متعاقبتين • وتعاقنا فى ذلك اليوم مائة مرة على أقل تقدير • هكذا انقضى اليوم الاول ، فاليوم التالى •

الا ان سعادتنا لم تدم طويلا !

كان على مدام ليونار أن تنقل الى الاميرة كل حركة من حركات
ابنتها وكل سكرة من سكراتها ، فراقبتنا خلال ثلاثة ايام ، وجمعت فى هذه
المدة كثيرا مما يمكن أن يقال . واخيرا ذهبت الى الاميرة ، وقصت عليها
كل ما لاحظته : ذكرت لها اننا فى نشوة عظيمة ، اننا لا نفترق لحظة من
اللحظات ، اننا نتعاقب فى كل دقيقة ، أو نبكى ، أو نضحك كالمجانين ،
اننا لا نتقطع عن الحديث لحظة ، وهذا امر لم يقع قط من قبل
لا تعرف كيف تملل هذه الامور ، وان أغلب الظن عندها ان الأميرة الصغيرة
تعانى أزمة مرضية ، وان من الافضل على كل حال أن لا نلتقى كثيرا .

وقالت الاميرة :

- اننى أفكر فى هذا منذ زمان طويل . كنت أعرف أن هذه
اليئمة العجيبة تسبب لنا كثيرا من المتاعب . ان ما قصوه على عن حياتها
أمر فظيع ، فظيع جدا . ولا شك انها تؤثر فى كاتيا تأثيرا سيئا . تقولين
ان كاتيا تحبها كثيرا ؟

- حبا لا يعرف الحدود !

واحمرت الاميرة من الفيظ . ان هذه العاطفة التى تشعر بها ابنتها
نحوى تثير غيرتها !

وقالت الاميرة متعجبة :

- عجيب . لقد ظلتا غريبتين احدهما عن الاخرى مدة طويلة ،
ويجب أن أعترف بأن ذلك قد سرنى كثيرا . ان هذه اليئمة ما زالت
صغيرة ، غير أنها لا توحى الى بالثقة . هل تفهمين ؟ لقد رضعت مع
الحليب تربية خاصة ، وعادات خاصة ، ولعلها رضعت كذلك سلوكا

مشبوها • لا أفهم تعلق الأمير بها • لقد حاولت ألف مرة أن أرسلها الى مدرسة داخلية ، فكان الأمير يرفض ذلك •

وودت مدام ليوتار لو تشفع لى ، لكن الاميرة كانت قد عازمت على التفريق بيننا عازما لا يتزعزع •• فما لبثت أن استدعت كاتيا ، وأبلغتها أنها لن ترانى قبل يوم الاحد القادم ، أى قبل انقضاء أسبوع كامل !

وقد بلغنى ذلك متأخرا ، فى المساء ، فصعقت للنبا ، واعتقدت أن كاتيا لن تحصل هذه القطيعة أبدا ، وبلغ منى القلق المبرح اننى مرضت أثناء الليل • وجاءنى الأمير فى الصباح يهمس فى أذنى أن لا أقطع الرجاء ، وكان قد حاول فعلا أن يشئ الاميرة عن عزمها ، الا انه لم يظفر بطائل ، فان الاميرة لم تتزحزح عن رأيها قيد شعرة ، واجتاحنى اليأس شيئا فشيئا حتى خنق أنفاسى ••

وفى صباح اليوم الثالث جاءتنى ناستيا بكلمة كتبها كاتيا بالقلم الرصاص بأحرف كبيرة ركيكة :

« أحبك كثيرا • اننى أبقى الى جانب ماما ، ولكننى لا أفكر الا فى شئ واحد ، هو أن أهرب اليك ، وسأتوصل الى ذلك • أعدك وعدا قاطعا • يجب اذن ألا تبكى • أكتبى الى أنك تحبيننى • ظللت طوال الليل أحلم بك وأقبلك • لقد تأملت كثيرا ، يانيتوتشكا • أرسل اليك بعض الحلوى • الى اللقاء • »

وأجبت على رسالة كاتيا برسالة من نوعها • وظللت طوال النهار أغرق رسالتها بالدموع • وألحت مدام ليوتار فى مواساتى • وبلغتنى فى المساء انها ذهبت تقول للأمير انها نادمة على الوشاية بنا للاميرة ، واننى سأمرض مرة ثالثة ، ما فى ذلك ريب ، اذا أنا لم أر كاتيسا •• وسألت

نامتيا عن كاتيا ، فذكرت لى ان الاميرة الصغيرة لا تبكى ، ولكنها شاحبة
شحوبا رهيبا •

وجاءتني نامتيا فى صباح اليوم التالى تهمس فى أذنى :

– اصعدى الى حجرة سعادة الامير ، على السلم الايمن •

شعرت أن سعادة تنتظرني ، فانتعشت روحي ، وأسرت أعدو على
السلم لاهثة ، حتى بلغت باب حجرة الامير ، ففتحته • لم تكن كاتيا
هنالك • ولكن سرعان ما شعرت بها تعانقني من خلف ، وتأخذ تقبلني
فى عنف وحرارة • وكانت ضحكات ، وكانت دموع •• ثم اذا بكاتيا
تنتزع نفسها منى فجأة ، وتوجه الى أبيها تسلق كتفيه ، ثم تفقد توازنها
فتدحرج على « الديوان » هى وأبوها • كانت كاتيا تبكى من شدة الفرح •

– أبت • أبت • كم أنت طيب ! كم أنت نيل !

– أيتها الشيطانان الصغيرتان ! ماذا حل بكما ؟ ما هذه الصداقة ؟
ما هذا الحب ؟

– اسكت يا أبت • انك لا تعرف شيئا من هذا !

وغرقنا فى القبل مرة اخرى •

وتفرست عندئذ فى كاتيا : لقد نجلت فى هذه المدة : ذهبت ألوان
وجهها فى هذه الايام الثلاثة ، وأصبحت شاحبة • وحزنت لهذا حتى
بكيت •

وأخيرا جاءت نامتيا تقرع الباب ، وكان معنى ذلك أنهم يستدعون
كاتيا •• فامتقع لونها امتقاعا شديدا •

وقال الامير :

ـ كفى ، أيتها الصغيرتان • سنلتقى معا فى كل يوم • فلتودع كل
منكما الاخرى الآن • وليبارككما الله •

لقد أثر فيه منظرنا تأثيرا كبيرا • الا أن الامير قال ما قال دون أن
يحسب حساب المفاجآت • ففى مساء ذلك اليوم نفسه جاء نبأ من موسكو
يقول ان « ساشا » مرض فجأة ، وان حياته فى خطر • فقررت الاميرة
أن تسافر الاسرة الى موسكو فى الغداة • وتم تنفيذ القرار بسرعة عظيمة ،
حتى اننى لم أعلم بشئ الا لحظة الوداع • وقد أصر الامير على أن انزل
مودعة ، ووافقت الاميرة على مفض • أما كاتيا فكانت كأنما صعقها نبأ
السفر صعقا • وقد عدوت الى أسفل كالمجنونة وارتميت على عنق كاتيا •
كانت العربية تنتظر أمام الباب • ولما رأتنى كاتيا انطلقت من صدرها
صرخة ، وسقطت بلا وعى • أغرقتها بالقبل • الا أن الاميرة أمرت بأن
تُردَّ كاتيا اليها • وانتعشت أخيرا ، فطوقتنى بذراعيها • ثم قالت وهى
تنفجر فى ضحكة مباغتة ، ويرتسم على وجهها تعبير لا يمكن وصفه :

ـ الى اللقاء يا نيتوتشكا • لا تنظرى الى هكذا • لست مريضة •
بعد شهر أعود • ولا فراق بعد ذلك أبدا •

فقالت الاميرة فى لهجة باردة جافة :

ـ كفى • هيا بنا •

الا أن كاتيا التفتت الى مرة أخرى لتضمنى بذراعيها • وهمست
وهى تقبلنى :

ـ أنت حياتى كلها • الى اللقاء •

وبعد هذه القيلة الاخيرة ، غابت الاميرة الصغيرة ، مدة طويلة جدا •
لم ألقها الا بعد ثمانى سنين !

لقد أسهبت - عن عمد - فى قص تلك الفترة من طفولتى ، أعنى فترة ظهور كاتيا فى حياتى • ذلك أن تاريخينا لا ينفصل أحدهما عن الآخر • ان روايتها هى روايتى • لكن القدر قد شاء أن تجد احداً من الاخرى • لذلك لم أستطع أن أمتنع عن لذة التوقف على ذكريات هذه الفترة من طفولتى • وسأسرع فى سرد ما بقى مما أريد سرده •

أصبحت حياتى بعد سفر كاتيا حياة هادئة ساكنة ملازمة للبيت •• (لم أستيقظ منها الا فى نحو السنة السادسة عشرة من عمري ، ان صح التعبير ، كما سيبنى • بيان ذلك ••)

ولكن لا بد من بضع كلمات عما صرت اليه بعد سفر أسرة الاميرة الى موسكو •

بقينا أنا ومدام ليوتار وحدنا •

وبعد خمسة عشر يوماً جاء رسول من الامير يبلغنا ان عودة الاسرة قد أرجئت الى حين • ولما كانت مدام ليوتار لا تستطيع أن تذهب الى موسكو ، لأسباب عائلية ، فقد اضطرت الى ترك خدمة بيت الامير • الا أنها ظلت فى خدمة هذه العائلة نفسها ، اذ انتقلت الى منزل الابنة الكبرى للاميرة ، « الكسندرين ميخائيلوفنا » •

وأنا لم أتحدث بعد عن الكسندرين ميخائيلوفنا - وكنت لم أرها ، على كل حال ، الا مرة واحدة - وهى ابنة الاميرة من زواج أول • ولم يكن محند الاميرة بالمحند الرفيع ، ولا كان أهلها من وجوه الناس فى المجتمع ، وكذلك لم يكن زوجها الأول سوى تاجر خمور • وحين تزوجت مرة أخرى لم تعرف ماذا تصنع بابتئها من الزوج الاول • لم تكن تأمل لها زواجا ممتازا ، لأن المهر الذى يخصها كان ضئيلاً • وأخيراً

استطاعت الاميرة منذ أربع سنين أن تزوجها رجلا غنيا ذا مكانة رفيعة،
فدخلت الكسندرين ميخائيلوفنا ، بهذا الزواج ، حلقة من المجتمع غير
حلقة أمها ، وأصبحت تلقى أناسا يختلفون كل الاختلاف عن تلقاهم
أمها . وكانت الاميرة تزورها مرتين في السنة ، كما كان الامير ، زوج
أمها ، يأتيها بكاتيا مرة كل أسبوع . ولكن الاميرة أصبحت في المدة
الاخيرة لا تحب أن ترسل كاتيا الى أختها ، فكان الامير يأخذها اليها
خفية . وكانت كاتيا تحب أختها جبا عظيما ، رغم أن طبع كل من الاختين
كان نقيض طبع الاخرى .

كانت الكسندرين ميخائيلوفنا شابة في الثانية والعشرين من عمرها ،
ناعمة رقيقة ودوداً ، يظلل وجهها نوع من الألم الحبيء . على أن الوقار
والرصانة لم يكونا يوافقان ملامحها الملائكية الجميلة أكثر مما توافق
الطفلة ثياب الحداد ، فلم تكن تستطيع أن تراها دون أن تشعر نحوها
بحب عميق . ومن فرط شحوبها قيل يوم رأيته لأول مرة ان بها
استعدادا للاصابة بمرض السل .

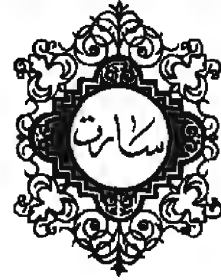
وهي لا تحب أن تزار أو تزور ، بل تعيش حياة عزلة وانزواء .
وأذكر اننى حين جئت لأرى مدام ليوتار اقتربت منى وقبلتني في كثير
من العطف والحنان . وكان في صحبتها رجل نحيل ، مشرف على الهرم ،
فما ان رأيتني حتى أخذ يبكي . انه العازف على الكمان «ب» . وطوقتنى
الكسندرين ميخائيلوفنا بذراعيها ، وسألتني هل أحب أن أعيش في بيتها
وان أصبح ابنتها ، فتأملتها لحظة وعرفت فيها أخت كاتيا ، حبيبتى ، فاذا بى
أرتمى على عنقها ، منقبضة القلب ، كأن أحدا دعانى مرة أخرى بكلمة
« يتيمة » . وعندئذ أرتى الكسندرين ميخائيلوفنا رسالة من الامير تضم
بضعة أسطر ، موجهة الى ، قرأتها وأنا أجهش ببكاء عميق . كان الامير

باركنى فيها ويتمنى لى حياة مديدة سعيدة ، ويطلب الى أن أحب ابنته
الكبرى • وقد كتبت كاتيا بضع كلمات أيضا فى حاشية الرسالة ، تذكر
فيها انها الآن لا تفارق أمها •

وهكذا وجدتني ، فى ذلك المساء ، فى كنف أسرة أخرى ، فى منزل
آخر ، بين وجوه جديدة ! • • وانتزع من قلبي ، مرة ثانية ، كل ما كان
عزيزا على ، كل ما كان قريبا الى • لقد وصلت الى هذا المأوى الجديد
وفى نفسى غم عميق • •

والآن تبدأ قصة جديدة •

الفصل السابع



حياتي الجديدة بلا صدمات ولا عثرات ، فى جو
من الصمت والسكون ، كأنه جو دير من
الأديرة ! .. فقضيت بين أحضان هذه الأسرة
الجديدة ثمانى سنين لا أذكر أنه أقيمت خلالها
حفلة ساهرة ، أو دعى ضيف الى مأدبة ، أو عقد اجتماع يضم أقارب أو
أصدقاء أو معارف ، اللهم الا مرة أو مرتين ! .. وفيما عدا شخصين أو
ثلاثة كانوا يترددون على المنزل زائرين ، وفيما عدا الموسيقى «ب» صديق
الأسرة ، وفيما عدا الاشخاص الذين تدعوهم أعمالهم الى لقاء زوج
الكسندرين ميخائيلوفنا ، لم يكن يفتش المنزل أحد . وكان هذا الذى
أسميته زوج الكسندرين ميخائيلوفنا مشغولا بأعماله دائما لا ينعم الا بقليل
من أوقات الفراغ يوزعها بين أسرته وبين علاقاته فى خارج البيت .
وكانت علاقاته هذه كثيرة هامة لا يستطيع إهمالها ، وتضطره الى الظهور
فى المجتمع الراقى . ولئن كان يوصف عامة بأنه ذو طموح لا حد له ،
فقد كان يُعرف الى جانب ذلك بأنه امرؤ جدى رصين ، سيما وأنه يحتل

مكانة مرموقة جداً • كان الحظ والتجّاح يتسمان له ، فكان رأى الناس فيه حسنا ، بل كان جميع الناس يحبونه ، ولكنهم كانوا فى مقابل ذلك يرضون بهذا الحب على امرأته • لقد كانت الكسندرين ميخائيلوفنا تعيش فى عزلة تامة ، وكانت تجد فى هذه العزلة راحة ولذة ؛ كان طبعها الهادى قد فطر على حب الانزواء •

وقد تعلقت بى تعلقا قويا صادقا ، وأحببتى كأنى ابنتها • أما أنا فقد ارتعيت فى أحضان هذه الأم الروم على ظمأ شديد ، عاجزة عن حبس دموعى بعد فراق كاتيا • • ولم يفتّر هذا الحب العنيف الذى منحها أيام لحظة واحدة بعد ذلك • كانت لى أما وأختا وصديقة ، أو كانت بمثابة مصب لجميع ما أشعر به من عواطف الحب • وقد غنيت بى ودللتنى طوال مرحلة المراهقة التى قضيتها فى كفها • ثم اتنى أدركت منذ البداية ، بنوع من الغريزة أو الحدس ، أن حظ هذه المخلوقة ليس لامعا الى الحد الذى يمكن أن توحى به هذه الطمأنينة الهادئة فى حياتها ، وهذه الحرية الظاهرة ، وهذه الانسامة الرائقة الصافية التى تضيء وجهها فى غالب الاحيان • وكنت فى كل يوم أزدد فهمما للمصير الحزين الذى تعيشه (وقد نفذ قلبى الحزين الى هذا فى بطن ومشقة) ، فكانت عاطفتى نحوها تزداد فى كل يوم قوة • •

كانت « الكسندرين » ضعيفة الارادة • وكان وجهها يضىء بطمأنينة هادئة ، اذا رآها الرأى لأول مرة لم يحسب أن فى وسع أى نوع من أنواع المتاعب ، مهما ضؤل ، أن ينفذ الى هذه النفس المطمئنة • • ثم انك اذا رأيتها أدركت أنها لا يمكن أن تكره أحدا مهما يكن شأنه : ان عواطف الرحمة تتغلب فى نفسها على مشاعر الكره • ومع ذلك كان أصدقاؤها قلة ، وكانت تعيش فى عزلة تامة • •

وعلى أنها قوية العواطف شديدة التأثير ، فقد كان يبدو أنها تخشى
مشاعرها وتراقب قلبها ، ولا تسمح له بأى انحراف ، ولو فى الحلم ! ..
وكنّت فى بعض الأحيان أرى دموعا فى عينيها ، كأن ذكرى ثقيلة خانقة
تعذب ضميرها ، وتحز فى نفسها .. كأن شرا مستطيرا يهوم فوق
سعادتها ، ويهم أن ينقض عليها ! .. كلما بدت أسعد ، وكلما لاحت
حياتها أهدأ وأقرب الى الطمأنينة ، كانت نوبة القلق أدنى الى موافاتها .
وكانت الدموع أسرع الى التفجر من عينيها على حين غرة . وكان ذلك
يراودها نوبات قاسية ، فما أذكر أن شهرا واحدا قد انقضى خلال هذه
السنين الثماني دون أن يتبها شئ من ذلك ! ..

وكان يلوح على زوجها انه يحبها حبا جما ، وكانت هى من جبتها
تكن له حبا يقارب العبادة ! .. ومع ذلك ، كان يخيل الى الرائي ، من
أول نظرة ، أن بين الزوجين أمورا خفية . كأن ثمة سرا يحوم فوق
حياة هذه المرأة .. أو ذلك على الأقل ما قدرته فورا !

وقد أوحى الى زوج الكسندرين ميخائيلوفنا من أول نظرة بشعور
مؤلم لم تزده السنون الا تفاقماء كان رجلا نحىلا طويلا ، خيّل الى كأنه
يخفى عينيّه ، عمدا ، بنظارتين خضراوين ضخمتين . وكان فاطر المزاج ،
قليل الكلام ، لا يجد موضوعا للحديث حتى حين يخلو الى زوجته .
كان كأنما يزعجه وجود شخص آخر الى جانبه !

وكان لا يلتفت الى البتة ، وكنّت مع ذلك أشعر من وجوده بكثير
من الضيق والحرج ، حين يتفق أن نحسب الشئ جميعا فى صالة
الكسندرين ميخائيلوفنا ، فكنت أضطرب وأغتم ، وأختلس النظر الى
الكسندرين ميخائيلوفنا ، فأشعر انها ترتجف . كانت ازامه تراقب كل

حركة من حركاتها ، وكان لونها يمتقع اذا رأته أكثر كآبة وصمتا مما عهدت فيه من كآبة وصمت ، وكانت فى بعض الاحيان تحمر فجأة ، كأنما هى تدرك فى كلامه غمزا أو تلميحا ! .. وأدركت أن حياتها مع مثل هذا الرجل حياة شاقة مرهقة ، ومع ذلك فقد كان واضحا أنها لا تستطيع أن تعيش بدونه دقيقة واحدة •

ولشد ما أدهشنى انتباه هذه المرأة العجيب الى زوجها ، الى كل كلمة من كلماته ، الى كل حركة من حركاته ! .. كانت تحاول أن تجاريه ونرضيه فى كل أمر ، كأنما هى ترى نفسها عاجزة عن تحقيق ما يجب • كانت كأنها تستجدى رضا استجداء : تكفيها ابتسامة باهتة تطوف فى وجهه ، أو كلمة عاطفية صغيرة تخرج من بين شفثيه ، حتى تفيض نفسها بشرا وغبطة وسعادة .. فكأنها ترتد عندئذ الى الدقائق الأولى من حب لما يزل خجولا ، ولما يزل بلا رجاء ••

وكانت تحيط زوجها بجميع أنواع الرعاية والعناية التى يحاط بها مريض من المرضى • ومع ذلك كانت ، متى عاد الى حجرته بعد أن يضافحها وينظر اليها نظرة متلطفة شاقة ، تبديل تبديلا كبيرا ، فتصبح حركاتها وأقوالها أكثر مرحا وأكثر انطلاقا .. غير أن ذلك لم يكن يحدث فورا ، فأنها فى كل مرة بعد لقاء زوجها كانت تظل مضطربة بعض الوقت ، وتأخذ تتذكر وتزن كل كلمة من الكلمات التى وجهها اليها ، وكثيرا ما كانت تلتفت الىّ وتسألنى : هل هذا ما قاله بطرس الكسندروفنشى ؟ .. كان واضحا انها تبحث فى أقوال زوجها عن معنى آخر ، وكان لا بد لها من ساعة كاملة حتى تستعيد هدوءها ورباطة جأشها تماما ، وحتى تثق كل الثقة من أنه لا يحقق عليها البتة ، وأنها خلقت بنير

داع الى القلق ، فاذا هي بعدئذ مرحة سعيدة ، واذا هي تقبلني وتضحكني
أو تجلس الى اليانو فتظل تعزف - ارتجالا - قرابة ساعتين ••

وفى بعض الاحيان كان يتبدد فرحها دفعة واحدة فتطفق تبكى على
حين غرة ، حتى اذا نظرت اليها قلقة ، جزعة ، أسرعت تقضى همسا ،
مخافة أن يسمعا أحد ، بأن دموعها لا سبب لها ، وانها فرحة جدا ، وان
على أن لا أقلق •

وفى أحيان أخرى ، أثناء غياب زوجها ، كانت تقلق عليه أشد
القلق ، فترسل إحدى الخادومات تسأل عما يفعل : كانت فى حاجة لأن
تعرف لماذا أمر باعداد العربة ، وهلم جرا •• كانت كأنما لا تجرؤ أن
تفاته فى موضوع أعماله ومشاغله ؟ وكان اذا أسدى اليها نصيحة أو
طلب منها شيئا ، تصنى اليه فى خضوع وذل ، كأنها خادم أو عبد •
وما أشد فرحها حين وجود عليها بثناء يسير ، بصدد كتاب قرأته ، أو شيء
صنعه يديها ، أو ما الى ذلك • كان ذلك يرفع رأسها ويفرقها فى بحر
من السعادة !

وكان فرحها يتجاوز كل الحدود حين يبدو له - وذلك أمر نادر -
أن يداعب أحد طفلها الصغيرين : كان وجهها يتبدل عندئذ تبديلا كبيرا ،
فيشرق بسعادة عظيمة ، تتجاوز فى تلك اللحظات حدود المرح التى
تسمح لنفسها بها أمام زوجها ، فاذا هى مثلا تجرؤ أن تعرض عليه (دون
أن يشجعها هو على ذلك ، وبصوت وجل مرتجف طبعاً) أن يسمع قطعة
موسيقية جديدة وصلتها مؤخرًا ، أو تبدى رأيها فى كتاب جديد قرأته ،
أو تمضى الى أبعد من ذلك فتحب أن تقرأ له صفحة أو صفحتين لمؤلف
أعجبها إعجاباً شديداً • وكان زوجها يذعن لرغبتها أحيانا ، بل لقد يمضى
الى أبعد من ذلك فيتسم لها ابتسامة كريمة سمحة !

غير أن هذه الابتسامة كانت تزعجنى حتى أعماق نفسى - لا أدرى لماذا - كما كانت تزعجنى بدورها أوضاع الانقياد والذل من جهة الزوجة .. كان يزعجنى فقدان المساواة فى العلاقات بين هذين الزوجين . ولكنى كنت أسكت ، واضبط نفسى ، واكتفى بأن ألاحظ هذا الرجل ، بدهشة الصغار وعقل الكبار فى آن معا ! .. وكنت ألاحظ فى أحيان أخرى ذكرى تطوف بخاطره فجأة ، ذكرى شىء مؤلم ، رهيب - لا يلائم صدعه ولا يرتقى فقهه - يوافيه رغم ارادته ، ورغم عقسه ، فإذا هو يتجلد ويتحامل على نفسه ، ثم تزول الابتسامة السمحة عن ثغرة فى طرفه عين ، وينظر الى امرأته الفزعة ، على حين غرة ، نظرة تعبر عن الرحمة والشفقة فأرتعد أنا - كأن هذه الشفقة تنصب على ، وكأن شعورا بالعار يغشائى أنا أيضا ! - وبارح الفرح وجه الكسندرين ميخائيلوفنا ، وتنقطع الموسيقى أو تنقطع القراءة ، وتمسك المرأة المسكينة عن الكلام ، وقد امتنع لونها امتقاعا شديدا ، وتعقب ذلك دقائق من الغم الممض والألم الكاوى ، أحسبها دهرًا ! ..

وكان الزوج - أخيرا - يضع لهذا الموقف حدا ، اذ ينهض من مكانه ، ويبدو كأنه يحاول أن يخلق فى نفسه كل حق وكل انفعال ، ثم ، بعد أن يدور فى الغرفة عدة مرات ، فى صمت حزين ، يصافح زوجته ، ويزفر زفرة عميقة ، ويقول بضغ كلمات موجزة ، مضطربة ، كأنه يحاول أن يواسى زوجته ، ثم يترك الغرفة .. فتنفجر الكسندرين ميخائيلوفنا عندئذ فى بكاء سخين ، أو تفرق فى حزن رهيب لا ينتهى . وكان فى بعض الاحيان يدعو لها ، وهو يرسم اشارة الصليب ، كما يفعل المرء مع طفل قليل أن ينام ، وكانت هى تقبل دعواته فى احترام واجلال ، بل كان الدمع يترقق فى عينيها اعترافا بالجميل .

ولكنى لن أنسى تلك الامسيات (أمسينتين أو ثلاثا لا أكثر ، طوال
هذه السنين الثماني !) التى تبدلت فيها الكسندرين ميخائيلوفنا تبدا تاما
على حين فجأة ، حتى لكانها شخص آخر . . فاذا بنوع من الكره ، نوع
من الغيظ والحق ، يشع فجأة فى وجهها الذى ألف الهدوء والنومة ،
طاردا ذلك الذل الأبدى الذى تشعر به ازاء زوجها ، وتلك العبادة
الخاصة التى تمنحه اياها . كانت العاصفة تتجمع أحيانا خلال ساعة
طويلة ، فيبدو الزوج أكثر صمتا وحزنا ووجوما ؛ ويطفح قلب المرأة
المسكينة أخيرا ، فتأخذ تتكلم بصوت متهدج من شدة الانفعال ، وبألفاظ
متقطعة مفككة مشحونة غمزا ولوما مرا ، ثم لا تستطيع أن تكبح ألسنها
فتفجر باكية ، ويصل بها اليأس الى غايته فتطفق تتفجع ، وهى تجهش
فى نحيب مؤلم كالمحمومة . لينكم ترون زوجها فى تلك اللحظات : لينكم
ترون صبره فى الاستماع اليها ، ولطفه فى محاولة تهدئتها . لقد كان
يبلغ من ذلك أنه يأخذ يقبل يديها ، ثم يطفى أخيرا يبكى معها . الا انها
كانت تنتفض فجأة ، انتفاضة من ثيقظ ضميره وشعر أن ليس من حقه أن
يقتفر له ذنبه : كانت تهسولها دموع زوجها ، فاذا هى ترداد لوعة
واضطرابا ونحيبا ، فترتمى على قدميه تسأله الغفران ، وسرعان ما يعود
عليها به . .

وكان ضميرها يعذبها مدة طويلة بعد هذه الأزمات ، فتظل شهورا
برمتها لا تنقطع عن البكاء ، ولا تكف عن طلب الغفران ، وتقف أمام
زوجها أكثر خجلا ووجلا وارتدادا منها فى أى وقت مضى . وكنت
لا أستطيع أن أفهم شيئا من هذه الأزمات ، سيما وقد كنت أحمّل أثناء
ذلك على ترك السرقة ، فى غير لطف أو رفق ! . . على انه كان
يستحيل عليهما أن يخفيا عنى كل شيء . كنت ألاحظ وأحزر ، وكان

قد استقر فى ذهنى شيء من الارتياح الفاضل منذ البداية : لا بد أن فى أعماق هذه الامور سرا . ان هذه الازمات المفاجئة التى تصف بهذا القلب الطافح ألما مرا لا يمكن أن تكون بلا سبب ، لا يمكن أن تنشأ عن حالة عصبية فحسب . . . ثم ان تجهم وجه الزوج ، وهذه الشفقة الملتبسة التى يشعر بها نحو زوجته المريضة ، وهذا الحجل الأبدى ، وهذا القلق الدليل من جانب الكسندرين ميخائيلوفنا ازاء زوجها ، كل ذلك لا يمكن أن يكون بدون علة ، لا ولا هذا الحب الغريب الصامت الذى تحمله ولا تجرؤ أن تظهره ، وهذه الوحدة ، هذه الحياة المنزوية التى تعيشها هذه المرأة ، هذا الاحمرار المفاجئ ، وهذا الاصفرار المفاجئ الذى يغشيان وجهها متى لقيت زوجها ، كل هذا لا بد أن يكون له سبب !

ولكن لما كانت هذه الازمات بين الزوجين نادرة جدا ، وكانت حياتنا تجرى رتيبة على نسق واحد ، وكنت أعرف جميع تفاصيلها تقريبا ، ولما كنت أنمو بسرعة ، وكانت هنالك أشياء أخرى تثير انتباهى وتشغل اهتمامى رغما عني ، فسرعان ما ألفت هذه الحياة ، وهذه العادات ، وهذه الطباع التى تحيط بى . صحيح اننى كنت فى بعض اللحظات لا أستطيع أن أمتنع عن التفكير والتأمل ، حين أنظر الى الكسندرين ميخائيلوفنا ، ولكن تأملاتى لم تكن تخلص الى أية نتيجة . كنت أحب الكسندرين ميخائيلوفنا حبا قويا ، وأحترم الحزن الذى يكتنفها ، وأخشى أن أزعجها باستطلاع فى غير محله . على انها كانت تفهمنى . . وكمن مرة شكرت لى تعلقى بها !

وكانت اذا لاحظت قلقى عليها، ابتسمت من خلال دموعها ، وأخذت تتندر على كثرة بكائها ، أو أخذت - فى أحيان أخرى - تقول لى ، فجأة، انها على أحسن حال من الفرح والمرح ، وانها سعيدة الى أقصى حدود

السعادة ، وان جميع الناس يضرونها طيبا وكرما ، وان جميع من عرفتهم حتى الآن يحبونها ، وان الامر الوحيد الذى يعذبها هو ان ترى بطرس الكسندروفتش قلقا بسببها ، بسبب حالات الكرب التى تراودها ، مع أنها سعيدة جدا ، جدا جدا . وكانت تعانقنى عندئذ فى كثير من الحنان ، ويشرق وجهها عندئذ بحب عميق ، حتى لينخلع قلبى شفقة انصح التعبير .

رباه ! لن تمحى. قسما وجهها من ذاكرتى يوما . انها قسما قديمة يزيد ما التحول والشحوب جمالا وفننة . أما شعرها الاسود المسدول على جيدها فانه يلقى على جنبات وجنتيها ظلا ظاهرا قاسيا ، يزيد - بحكم منطق الاضطداد - من لطف نظرتها ، وجمال عينيها الزرقاوين الناصعتين اللتين تشبهان عيني طفل ، ورقة بسمتها الحجيلي ، وفننة ملامحها الرقيقة التى يطوف فيها فجأة كل هذا الصدق وكل هذا الحفر ، ويزيد من روعة وجهها الأعزل البقاد لكل اندفاع من اندفاعات قلبها : وهى الفرح السريع فى بعض الأحيان والكآبة الناعمة فى معظم الأحيان . . . ففى بعض ساعات سعادتها الهادئة الراضية تصبح نظرتها النافذة العميقة من الصفاء والاشراق والطمأنينة ، وتصبح عيناها الناصعتان نصوص زرقة السماء من قوة التعبير عن الحب والحنان والصبوة الى كل ما هو نبيل ، والى كل ما يستثير الشفقة ويذكى الألم ، بحيث لا يسع المرء الا أن يستسلم لها رغم أنفه ، والا أن يجذب اليها رغم أنفه ، ليجنى قليلا من هذا الصفاء ، من هذه الطمأنينة ، من هذا السلام الروحي ، من هذا الحب الذى ينبع من أعماق وجودها .

ان المرء حين ينظر الى زرقة السماء يشعر أحيانا انه قادر على أن يظل مدة طويلة فى تأمل متعبد حار تتحرر فيه النفس من عقالها ، وتصبح أشبه بصفحة ماء هادىء تنعكس عليها فجأة قبة السماء العالية . وقد كانت

الكسندرين ميخائيلوفنا حين ترى الجمال تبلغ من شدة الحميا ، فى كثير من الأحيان ، أن وجهها يتخضب ، وصدرها ينفر ، وتلتصع فى عينيها بروق ، بل تنطلق من عينيها شرارات ، كأن روحها تتجه عفيفة نحو شعلة صافية تريد أن تنصب فيها وإن تتحد بها ! .. وكانت فى تلك اللحظات تبدو ملهمة حقا ، فاذا بوثباتها المفاجئة ، واندفاعاتها المباشرة تنقلها من الحجل الرقيق الى الانفعال الرفيع والحماسة الجريئة . ولكن ما أكثر ما كانت تظهر عندئذ من سداجة ، ومن تمجبل كتمجبل الاطفال ، ومن سرعة الى التصديق كسرعة المراهقين ! لست أشك فى أن مصورا من المصورين مستعد لأن يهب نصف حياته ، فى سبيل أن يرسم على قعانه لحظة من وجدٍ فى مثل هذه الروعة ، على وجه انتابه مثل هذا التحول ..

♦♦♦

وقد أدركت فى الأيام الأولى من اقامتى فى هذا البيت أن الكسندرين ميخائيلوفنا التى تعيش فى هذه العزلة الثامة ، سعيدة بوجودى الى قريبها . لم يكن لها عندئذ الا طفل واحد ، لم تكن قد أصبحت أما الا منذ سنة واحدة فأصبحت أنا ابنتها . كانت لا تستطيع أن تفرق بينى وبين طفلها . ليكنم ترون حماسها الشديدة فى الانكباب على تربيتى ! لم تكن مدام ليونار تستطيع أن تمتنع عن الابتسام حين تراها مندفعة هذا الاندفاع ، متعجلة هذا التمجبل . والحق انا اندفعنا كلتانا الى كل شئ فى آن واحد ، حتى لم تعد تفهم شيئا ، لا هى ولا أنا . كانت تعلمنى أشياء كثيرة وافرة ، دفعة واحدة ، فكان ذلك يدل من جانبها على حماسة حارة ، وعلى صبر جميل ، أكثر مما يدل على حسن عمل . وقد ساءها طيشها هذا فى أول الامر ، الا انا قررنا بعد ذلك أن نضحك منه ، واستأنفنا كل شئ من جديد .

ذلك أن الكسندرين ميخائيلوفنا ، رغم هذه البداية السيئة ، كانت

تحب أن تهيج فى التربية نهجا مخالفا كل المخالفة لتهيج مدام ليوتار ،
وكاتنا تناقشان فى هذا الموضوع بسرور ومرح ، فكانت مربيتى الجديدة
تعلن فى لهجة قاطعة انها تناهض كل منهج محدد ، وتؤكد اننا بالتلمس
والمحاولة سنجد الطريق الصحيحة ، وانه ليس من الضرورى أن نحشو
رأسى بمعلومات عقيمة ، وأن نجاحى فى الدراسة يجب أن يعتمد على
مواهبى الطبيعية ، على البراعة فى ايقاظ ارادتى الحسنة •

ولقد كانت على حق فيما قالت ، ما دامت قد نجحت نجاحا تاما •
لقد زال من بيننا دور التلميذة ودور المعلمة ، فكنا معا كصديقتين ، حتى
لقد كانت من البراعة فى هذا بحيث كان يبدو فى بعض الاحيان انى انا
التي أعلمها ! •• وكثيرا ما كانت تدور بيننا مناقشات حادة ، فأحاول أن
أبرهن بحرارة على صحة آرائى ، دون أن أدرك أن الكسندرين
ميخائيلوفنا هى التى تقود خطاى فى هذا السبيل • وكنت أدرك حيلتها
هذه فجأة بعد أن نفرغ من المناقشة ، وبعد أن تتضح المسألة اتضاحا كافيا
فأقدر عندئذ الجهد الذى تحمته ساعات طويلة فى بعض الاحيان ،
والتضحية التى بذلتها من أجلى ، فأرتدى على عنقها ، وأقبلها بقوة
وعنف ••

كان كل درس من الدروس ينتهى على هذا النحو •• وكانت
حساسيتى تدهشها ، بل تهيجها الى حد القلق • وأخذت تسألنى عن ماضى
فى كثير من الاهتمام ، تريد أن تعرفه منى ، فكلما قصصت عليها بعض
ذكرياتى رأيتها تغدو أكثر رقة معى ، وأكثر جدا فى معاملتى ، أقول
« أكثر جدا » لأن طفولتى البائسة كانت توقظ فى نفسها ، فضلا عن
الشفقة ، نوعا من الاحترام • وكنا ، بعد أن أفضى اليها بذكرياتى ، نفرق
عادة فى مناقشات طويلة ، فكانت تشرح لى ماضى شرجا يترامى لى معه

اننى أعيشه مرة أخرى فى الواقع ، وأعرف عنه أموراً كثيرة من جديد !

وكانت مدام ليوتار ترى أن هذه المناقشات مسرفة فى الجدة ، بل كانت ترى أنها فى غير محلها - حين تلاحظ انهماك دموعى بالرغم منى - أما أنا فكنت أرى نقيض رأيها تماماً . لقد كنت ، بعد هذه « الدروس » أتحفف من آلامى تخففاً كبيراً فما أعود أرى فى قدرى شيئاً محزناً . والذى أحمد لالكسندرين ميخائيلوفنا ، فوق كل شيء ، هو اننى كنت مضطرة الى أن أزداد حباً لها يوماً بعد يوم . ان مدام ليوتار لم تكن تعلم أن كل ما قد أثار فى نفسى ، فى الماضى ، عواطف مضطربة مبكرة ، كان بهذه الطريقة يفقد حدته شيئاً بعد شيء . وينصهر فى استجمام متماسك قوى ؛ ولم تكن مدام ليوتار لتصور الى أى حد قد تسممت نفسى بما قاسيت .. الى أى حد أرهقتى قسوة القدر القاسم .. الى أى حد بكيت دون أن أعلم من أين تأتى الضربة التى تهوى على رأسى !



وكنا فى أول الصباح نجتمع فى حجرة الأطفال ، فنوظ الطفل ، ونعنى بهندامه وطعامه ، ونضحكه ، ونكلمه ، ثم نتركه لنمضى الى العمل . كنا ندرس كثيراً جداً ، ولكن .. الله أعلم بقيمة هذه الدراسة التى تشتمل على كل شيء ، ولا تشتمل فى حقيقة الأمر على أى شيء محدد ! .. كنا نقرأ ما ، وتبادل الآراء ، ثم نترك الكتب وننصرف الى الموسيقى ، فكانت الساعات تنقضى سريعة لا نحس انقضاءها .. وفى المساء كثيراً ما كان « ب » ، صديق ألكسندرين ميخائيلوفنا ، يأتى زائراً ، وكانت مدام ليوتار تأتى أيضاً ، فتدور بيننا فى بعض الأحيان مناقشات حادة عن الفن ، وعن الحياة (التى لا نعرفها فى حلقتنا الصغيرة الا عن طريق السماع) ، وعن الواقع والمثل الأعلى ، وعن الماضى والمستقبل ، ونقضى نصف الليل

فى مثل هذه الأحاديث • وكنت أصغى الى الحديث ملء اذنى ، واتحمس حين يتحمس الآخرون ، واضحك معهم ، أو تهيجنى الشجون حين أعلم فجأة بمض ما يتصل بأبى وبطفولتى الاولى •

وكنت أثناء ذلك أتقدم فى السن ، وفى الوعى • وعهدوا الى بعض الاسانذة بتعليمى ، ولكنى ما كنت لأتلم منهم شيئاً لولا ألكسندرين ميخائيلوفنا • ما كنت لولاهما لأزيد ، مع أستاذ الجغرافيا ، على أن تعمى عينائى فى البحث عن مواقع المدن والانهار على الخريطة • أما الكسندرين ميخائيلوفنا فكانت تقوم معى برحلات على الارض ، فنزور البلدان ونرى العجائب ونعيش هذا كله فى حماسة وحميا ، ساعات طوالا ، حتى أصبحت ككب الكسندرين ميخائيلوفنا لا تروى ظمأنا ، وحتى أصبحنا فى حاجة الى التهام كتب أخرى ، وحتى صرت قادرة على أن أنصح أستاذى بقراءة بعضها !

على انه لا بد لى من انصاف أستاذى : فقد ظل الى آخر لحظة يفوقنى فى معرفة خطى الطول والعرض اللذين تقع عليهما مدينة من المدن ، وفى معرفة عدد سكان هذه المدينة محددا بالألوف ، وبالمئات ، بل وبالعشرات • وكان أستاذ التاريخ يتقاضى أجرا حسنا هو الآخر • الا اننا أخذنا ، بعد ذهابه ، تعلم التاريخ - وأنا والكسندرين ميخائيلوفنا - على طريقتنا الخاصة ، فكنا نأخذ كتبنا ، ونظل نقرأ أحيانا الى ساعة متأخرة من الليل ، والأصح أن ألكسندرين ميخائيلوفنا هى التى كانت تقرأ ، لأنها كانت تراقب ما نقرأ ••

وأذكر أننى لم أشعر فى حياتى بحماسة كالتى كنت أشعر بها بعد هذه القراءات • كنا نتحمس كأننا أبطال ما نقرأ • وكنا نقرأ ، عدا السطور ، ما بين السطور • وكانت ألكسندرين ميخائيلوفنا تجود القراءة

حتى لكأن كل ما تقرأه قد وقع لها • ولكن يجب أن أعترف أن ثمة شيئاً مضحكاً في هذه الحماسة التي كانت تحرمنا من النوم نصف الليل : أنا الطفلة ، وهى القلب الجريح الذى يحتمل الحياة فى مشقة وعناء ! (وكنت أعلم أن ألكسندرين ميخائيلوفنا تجد الى جانبي عزاء وسلوى) . وأذكر اننى كنت فى بعض اللحظات أفكر تفكيراً غريباً وأنا أنظر اليها • كنت من فرط محاولتى الفهم قد فهمت كثيراً عن أمور الحياة ، قبل أن أبدأ الحياة !



وبلغت الثالثة عشرة من عمري • وازدادت صحة الكسندرين ميخائيلوفنا أثناء ذلك سوءاً على سوء • أصبحت أسرع الى الاهتياج مما كانت ، وازدادت حدة الحزن الذى يفشاها من حين الى حين دون ماسبب ، وكثرت زيارات زوجها لها • وأصبح يبقى الى جانبها مدة أطول ، الا أنه ظل على عادته حزينا كئيباً لا يكاد ينبس بكلمة • وأخذ مصير الكسندرين ميخائيلوفنا يشغلنى على نحو أقوى وأعنف • ان مشاعر جديدة تتكون الآن فى نفسى ، وأنا أخرج من مرحلة الطفولة • صرت أبحث ، وأفترض وأستنتج ، وأصبح السر الذى أحسه مرفرفاً فى جو هذه الاسرة يقلقنى مزيداً من القلق •

وكنت فى بعض اللحظات أحسب اننى فهمت هذا السر بعض الفهم • وفى لحظات أخرى يضعف شعورى بذلك ويقل اهتمامى بالأمر ، بل أحس بالملل والضجر ، فأنسى ما كنت أحب أن أعرفه ، ولا أعود أحفل به • وكنت فى أحيان أخرى أجد لذة كبيرة فى أن أبقى وحدى ، غارقة فى أفكارى • وكانت تلك الايام تشبه فترة من حياتى الماضية بين أبوى ، تلك التى أحيت فيها أبى ، فظللت سنة كاملة أفكر بغير انقطاع ، وأتخيل ،

وأحلم ، وأنا قابعة فى ركنى •• تلك الفترة التى كنت فيها أشبه بمتوحشة غارقة فى ضروب من الاوهام يلفقها خيالى من هنا ومن هناك • الا أن ثمة فرقا بين القترتين : فصبرى الآن أفرغ ، وقلقى أقوى ، واندفاعتى الجديدة أوثق اتصالا باللاشعور ، وظمئى الى الحركة أشد ، فكنت لا أستطيع أن أتركز على نقطة واحدة كما كنت فى الماضى •

وكانت ألكسندرين ميخائيلوفنا كأنما تحب أن تبتعد عني هى نفسها • فأننى ، فى هذه السن ، لا أكاد أصلح صديقة لها • لست الآن طفلة ، وان أسئلتى الآن لكثيرة ، وانى لأنظر اليها أحيانا ، فما يسعها الا أن تنض طرفها • كانت هنالك لحظات غريبة • وما كنت أستطيع أن أراها تبكى ، وكثيرا ما كانت دموعى تتدفق من عيني غزيرة حين أراها كذلك ، ثم أرتدى على عنقها أقبلها فى حرارة • ماذا عساها تقول لى ؟ كنت أشعر أننى عبء عليها !

وفى لحظات أخرى - هى أكثر اللحظات قسوة وحزنا - كانت تعانقنى هى نفسها عنقا قويا ، كأنما تملكها يأس شديد •• فكانت فى تلك اللحظات كأنها تستدر حبنى ، كأنها لم تعد تطيق وحدتها ، كأنها تشعر أننى قادرة على أن أفهمها وعلى أن أشاركها ألمها ! •• على أن هذا كله لا يمنع ان ثمة سرا كان ما يزال قائما بيننا • كان ذلك من الوضوح بحيث كنت أراينى فى بعض الاحيان أبتعد عنها فجأة ، اذ يؤلمنى أن أبقى الى جانبها • ثم انه لم يبق هنالك الا قليل مما يقرب بيننا ، فيما عدا الموسيقى • على أن الاطباء انتهوا أخيرا الى الجيلولة بينها وبين الموسيقى •• أما الكتب فقد أصبح أمرها أعوص وأعسر • ان الكسندرين ميخائيلوفنا لا تدري الآن ماذا ينهى أن تقرأ معى • فمن الممكن أن تتوقف الآن عند الصفحة الاولى من كل كتاب نقرؤه : كل كلمة يمكن أن تكون تلميحا

الى شيء ، وكل جملة يمكن أن تكون لغزا • وحاولنا كلانا ان نتحاشى
أحاديثنا القديمة ، الملتهبة ، التى تنفذ الى صميم الاشياء ••

فى هذه اللحظة شاء القدر ، ارتجالا ، ودون أن يكون ذلك فى
الحسبان ، أن يفرض على حياتى مجرى آخر ، فاذا انتباهى ، وعواطفى ،
وقلبى ، ورأسى ، ووجودى كله ، اذا كل ذلك يتجه اتجاها جديدا ،
يكتنفه التوتر الحماسى القوى • رأيته فجأة ، دون أن ألاحظ ذلك ،
أنتقل الى عالم جديد • ولم أستطع أن أرتد الى الوراء ، ولا أن أنظر
حولى ، ولا أن أفكر • كنت معرضة للضياع ، وكنت أشعر بذلك ،
إلا أن الاغراء كان أقوى من الخوف ، فانطلقت على غير هدى ، مغمضة
العينين • أهملت الامور التى كانت تقلقنى ، والتى كنت أبحث فيها عن
مخرج دون أن أظفر بطائل ، وأنا أشد ما أكون ظمأ الى معرفتها ، أهملت
هذه الأمور مدة طويلة • واليكم كيف تطورت الامور :

كان لقاعة الطعام ثلاثة أبواب ، يؤدى أحدهما الى الأجحنة الكبرى
ويؤدى الثانى الى غرفة الاطفال ، ويؤدى الثالث الى المكتبة • وكان
للمكتبة باب آخر يؤدى الى حجرة العمل ، المتصلة بغرفتى • فى هذه
الحجرة كان يستقر عادة سكرتير بطرس الكسندروفتش ، الذى كان يعمل
ناسخا وقيما على البيت فى آن واحد • وكان مفتاح المكتبة فى عهده •
وفى ذات يوم ، بعد العشاء ، بينما كان السكرتير غائبا عن البيت ، عثرت
بهذا المفتاح على أرض الحجرة • كان حب الاستطلاع أقوى من أى شيء
آخر ، فانتهزت الفرصة ودخلت المكتبة • انها حجرة واسعة ، مضاءة
أحسن اضاءة ، تحتوى على ثمانى خزائن مملوءة كتب • من هذه الكتب
عدد كبير انتقل الى يدى بطرس الكسندروفتش بطريق الوراثة ، إلا أن

قسما كبيرا منها انما جمعه الكسندرين ميخائيلوفنا التى كانت لا تقطع عن شراء الكتب •

ولم يكونوا يسمحون لى بالقراءة حتى ذلك الحين الا فى كثير من الحذر •• فلم يكن صعبا علىّ أن أعتقد أن هذه الكتب المتنوعة عنى تنطوى على سر • لهذا السبب رأيتنى - وقد عصفت بى ظلماً الى الاطلاع لا يقاوم ، وتملكنى خوف شديد ، وفرح عظيم ، وحماسة كبيرة حقا - رأيتنى أفتح الخزانة الاولى وأخرج منها كتابا • كانت تلك خزانة الروايات • ثم أغلقت الخزانة ، وحملت كتابى وفى نفسى شعور غريب ، وفى قلبى خفقان شديد ، حتى لكأننى أوجس التغير الكبير الذى ستحدثه القراءة فى حياتى • فلما عدت الى غرفتى ، أغلقتها على ، وفتحت الرواية ••

غير أننى كنت عاجزة عن القراءة • كان يشغلنى أمر آخر ، هو أن أطمئن اطمئنانا نهائيا الى أننى أستطيع دخول المكتبة دون أن ينتبه أحد الى أننى أخذ منها الكتب التى أهواها • وهكذا أرجأت لذة القراءة الى فرصة أخرى ، ومضيت فأعدت الكتاب الى مكانه ، وخبأت المفتاح • كان ذلك أول عمل سئء أقرفه • وانتظرت النتائج !

ولكن الأمور سارت على أحسن ما يرام ، فان سكرتير بطرس ألكسندروفتش ظل طوال المساء وجزءا من الليل يبحث عن المفتاح فى أرض الغرفة على ضوء شمعة دون أن يظفر بطائل ، حتى اذا جاء الصباح استقدم قفالا ، ووجد القفال فى جعبته مفتاحا يناسب قفل باب المكتبة ، فأنهى بذلك كل شيء ، ولم يتحدث أحد بعد ذلك عن المفتاح الضائع • واتخذت من جهتى جميع الاحتياطات ، فى غير قليل من المكر ، فقررت أن لا أجازف فأدخل المكتبة الا بعد انقضاء أسبوع على ذلك ، أى بعد أن

أتيقن من زوال كل شبهة ، وكل خطر • واخترت وقتا كان فيه السكرتير غائبا عن البيت ، فدخلت قاعة الطعام • وينبغى أن أذكر أن السكرتير كان يحتفظ بالمفتاح فى جيبه ، ولكنه لم يكن يذهب الى أبعد من ذلك فيتصل بالكتب ، بل لقد كان لا يدخل حجرة المكتبة أبدا •

ومنذ تلك اللحظة أحسدت أقرأ فى كثير من الشره ، وسرعان ما أصبحت القراءة هوى قويا يملك على نفسى ، فاذا جميع حاجتى الجديدة ، وصوباتى الحديثه ، وجميع اندفاعات مراهناتى ، هذه الاندفاعات التى ما زالت غامضة والتى كانت تقلقنى وتشيع فى نفسى الاضطراب ، وكل ما قد أثار عقلى المبكر اثاره قوية ودفعه فى اتجاه آخر ، اذا كل هذا يجد مخرجا غير منتظر ، فيندفع فيه الى مدى بعيد • كنت كأنتى شبت من ذلك الغذاء الجديد شبتا تاما ، ثم وجدت الآن طريقى الصحيحة • وسرعان ما أصبح قلبى من النشوة وأصبح عقلى من الافتتان وأصبح خيالى من قوة التحليق بحيث نسيت كل ما قد أحاط بى حتى ذلك الحين • كأن القدر نفسه سمرنى على عتبة الحياة الجديدة التى كنت أتحرق شوقا الى الاندفاع فيها ، تلك الحياة التى كنت أحلم بها ليل نهار بلا انقطاع • كأن القدر ، قبل أن يدفعنى فى الطريق المجهولة رفعنى الى قمة عالية ، حتى يرىنى مستقبلى فى صورة رائعة أطل عليها من فوق ، صورة تفيض بالآمال الساحرة • ان الحظ يتحلى الآن أن أجرب مستقبلى ، بقراءته فى أول الامر فى الكتب ، فى أحلامى ، فى آمالى ، فى وثباتى الجامحة ، فى جميع المواطن المذبة التى تفيض بها روحى الشابة •

وقرأت فى أول الامر الكتب التى تقع بين يدي ، دون تخير ، غير أن ما كنت قد تعلمته وقاسيته حتى ذلك الحين كان من النبل والرفعة

بحيث كنت لا أستطيع أن أجسد أية متعة فى قراءة صفحات اباحية أو
بذيئة • كانت غريزتى الطفولية ونموى المبكر وماضى كله ، كان هذا كله
يحمينى ويحرسنى • وأصبح شعورى الآن ينير كل ما قد وقع لى فى
الماضى ، حتى لقد كانت كل صفحة أقرأها تبدو لى شيئاً أعرفه منذ مدة
طويلة : هذه الأهواء ، هذه الحيوانات المختلفة المعروضة أمامى فى صور
غير منتظرة ، فى لوحات جذابة ، اننى أعرفها من قبل !

وكيف لا أصل الى نسيان الحاضر ، بل والى نسيان الواقع تقريبا ،
وأنا أجد فى كل كتاب أقرأه ثمرات قدر واحد بعينه ، وأجد فيه قانونا
تفرضه على الحياة الانسانية روح واحدة هى روح المغامرة ، قانونا مشتقا
من قانون أساسى آخر هو شرط السلامة والخلاص والسعادة ؟ لقد كنت
أتحسس هذا القانون ، وكنت أحاول أن أحذره بكل ما أوتيت من قوة ،
بكل الفرائز التى كان يوقظها فى نفسى الشعور بنوع من الحماية • كنت
أشعر اننى معصومة مقدما ، كأن هناك شخصا يرشدنى ويطلب الى أن
أكون ساهرة ويقظة ••

والى جانب اندفاعاتى التى كانت تشتد وتقوى يوما بعد يوم ، كانت
تضطرم فى نفسى نبوءة حقيقية تجعلنى أؤمن بمستقبلى ، وأؤمن بأن حياتى
ستكون حياة فنان تهزه شاعرية جامحة • الا أن خيالى ، كما قلت ، كان
يغلب اندفاعى • فكانت جرأتى ، فى الواقع ، لا تتعدى أحلامى • وكانت
الغريزة ، ازاء الوقائع الحقيقية ، تردنى الى الخجل • وكأنما أردت أن
أكون على اتفاق مع نفسى ، فقررت - على غير شعور منى - أن أكتفى فى
أول الامر بعالم الخيال ، هذا العالم الذى ملكت ناصيته ، هذا العالم الذى
ليس فيه الا متعة وفرح ، هذا العالم الذى ليس للشقاء فيه - ان وجد -
الا دور سلبي ، دور موقت ، دور لا بد منه للتناقضات الممتعة ، لتبدلات

القدر التى تمد رواياتى بخواتيمها السعيدة • أو هكذا على الأقل ما أفهمه
الآن من حياتى النفسية فى ذلك الوقت !

هذه الحياة ، التى ليس فيها شيء غير الخيال ، هذه الحياة الغريبة
كل الغرابة عن حياة الأشخاص الذين يحيطون بى ، قد استمرت ثلاث
سنوات طوال ••

وكانت هذه الحياة سرى المكنون ، الخفى ، أخشى عليه أن يتكشف
•• حتى لقد صرت أخشى أية نظرة يلقيها على أحد ، مخافة أن ينفذ الى
أعماقى ويكشف عن سرى • وعشت حياة داخلية غنية ، فكنت أرحى
العنان لحياى •• سيما وقد كان كل من فى البيت يعيش فى عزلة تامة ،
بعيدا عن الآخرين ، فى صمت كصمت الأديرة ، فكان كل منا يميل الى
الانطواء على نفسه والاكتفاء بنفسه ، أو هذا ما حدث لى على كل حال ،
فما من شيء تغير من حولى ، خلال هذه السنين الثلاث ، بل احتفظ كل
شيء بطابعه المألوف ومظهره المعتاد • فكانت العلاقات بيننا رتيبة ، متشابهة ،
مملة •• ولولا أن سرى كان يواسينى ، ولولا أن نشاطى كان يسلينى
(أدرك ذلك اليوم) لبلغ بى الضجر مبلىا كان يمكن أن يدفعنى الى أى
تطرف ، هربا من هذه البيئة الثقيلة الحزينة •• وكان يمكن أن يؤدى
ذلك الى هلاكى •

كانت مدام ليوتار قد بدأت تشيخ وتهرم ، فأصبحت لا تكاد تترك
غرفتها • وكان الولدان ما يزالان صغيرين ؛ أما وب ، فكان لا يخرج عن
سلوكه التى يجرى على وتيرة واحدة ، وأما زوج ألكسندرين ميخائيلوفنا
فكان محتفظا بعبوسه ، وكبريائه ، ووجهه المقطب ، وكان السر الخفى
بينه وبين زوجته ما يزال قائما ، بل كان هذا السر يزداد فى نظرى خطرا

وتهديدا ، وكنت أزداد خوفا على ألكسندرين ميخائيلوفنا • كانت حياتها الحالية من الفرح ، حياتها العقيمة ، تنوى امام بصرى يوما بعد يوم ، وكانت صحتها تسوء مزيداً من السوء •• وكان نوعا من اليأس قد سيطر على روحها آخر الامر ، فكان المرء يحس انها ترزح تحت وطأة شيء مجهول ، لا يمكن ادراكه أو تعليله •• شيء فظيع رهيب •• غير انها كانت راضية به رضى من حكم عليه بالصلب فلا مفر !

وقسا قلبها أخيرا بتأثير هذا العذاب الأصم ، بل ازدادت روحها ظلاما وحزنا • وثمة شيء كان يسترعى انتباهى أكثر من أى شيء آخر: كان يلوح لى أنها تبتمد عنى بقدر ابتعادى عن الطفولة ، حتى تطور حذرهما منى الى تبرم ثقيل ، وحتى كدت أعتقد فى بعض اللحظات أنها أصبحت لا تحببى البتة ، كأنما أنا أزعجها • سبق أن قلت اننى قد ابتعدت عنها فى اول الامر بارادتى ، الا اننى حين فعلت ، شعرت كأن الجانب السرى من طبعها قد سرت عدواه الىّ ، ولهذا السبب فان جميع ما فكرت فيه خلال هذه السنين الثلاث ، وجميع ما نبت فى نفسى من أحلام ومشاعر وآمال وأهواء وحساسات ، قد احتفظت به سرا لنفسى ، لم أطلع عليه أحدا • فلما أصبحت سرين ، لم تتقارب بعد ذلك أبدا ، رغم أن عاطفتى نحوها قد اشتدت وقويت أكثر من أى وقت مضى •

لا أستطيع أن أنذكر - دون أن أبكى - كم كان تعلقى بها شديدا ، وكم أغدقت علىّ من كنوز حبها ، هذا الحب الذى شاء أن يقوم بوظيفته نحوى الى آخر درجاته ، الى درجة حب الأم • والحق أن تباريحها الكائنة كانت تجعلها تهملنى فى بعض الاحيان حتى لكأنها نسيت وجودى ، وحاولت جهدى أن لا ألفت انتباهها ، حتى استطعت أن أبلغ السادسة

عشرة من عمرى دون أن يظن أحد الى ذلك • الا أن الكسندرين
ميخائيلوفنا كانت فى لحظات تيقظ الضمير تلقى على من حولها نظرات
صافية جدا ، فاذا هى فجأة ، وقد تملكها قلق على ، تدعونى الى غرفتها ،
وتتزعجنى من دروسى أو مشاغلى ، وتغمرنى بوابل من الاسئلة ، كأنها
ظلمأى الى معرفتى على أكمل نحو ، ثم لا تركنى خلال أيام برمتها ،
محاولة أن تحزر كل ما يستهوينى ، وان تدرك جميع رغباتى ، لا يعنيتها
شئ غير نموى وتطورى ، غير حالتى الراهنة ومستقبلى ، مبدية
استعدادها لأن تساعدنى بكل ما فى قلبها من مشاعر الاعجاب وعواطف
المودة والحب •

غير أنها وقد كانت بعيدة عنى فى تلك الفترة ، كانت تعتمد فى سبيل
ذلك الى وسائل ساذجة مسرفة فى السذاجة ، وكنت أدرك نياتها
ومقاصدها بسهولة • وقدردت هى فجأة انى ما تعديت فى قراءاتى كتب
الأطفال الذين لم يتجاوزوا الثانية عشرة من العمر ، فها لها ذلك كثيرا ،
وحزرت أنا سبب شعورها ذاك ، ولاحظته فى كثير من الانتباه ؛ ولقد
ظلت بعد ذلك أسبوعين كاملين كأنما هى « تخبرنى » ، لتقف على درجة
نموى ، ومدى كفاءاتى ، ثم عزمتم أمرها أخيرا ، فظهر على طاولتنا كتاب
(ايفانويو) ، الذى كنت قد قرأته قبل ذلك ثلاث مرات على الأقل ،
فكانت تراقب انفعالاتى فى خجل يقط ، كأنما هى تخشى هذه الانفعالات •
وأخيرا زال من بيننا هذا التوتر - وكان بالنسبة الى ظاهريا - وتحمسنا
كلتانا للرواية ، وبلغت من فرحى انى كدت أعترف لها بكل شئ • • • وحين
وصلنا الى النقطة التى تنحل فيها عقدة الرواية كانت حماستها قد بلغت
أوجها • وكانت كل ملاحظة من الملاحظات التى أبديتها أثناء القراءة
صائبة ، وكل رأى أسوقه صادقا ، فأدركت « ألكسندرين » أن نموى
سريع مبكر ، وهزت هذه الفكرة عاطفتها ، بل أنارت اعتزازها ، فأخذت

تتابع تربيتي مرة أخرى فى كثير من الحماسة ، وانتوت أن لا تتركنى
لنفسى بعد الآن أبداً •• غير أن ذلك لم يكن فى مقدورها ، فقد تكفل
القدر بالتفريق بيننا ، وبالحيلولة دون تقاربنا من جديد •• فهى تصاب
بنكسة فى صحتها ، وهى هو حزنها الابدئى يعود فيلازمها ، وهى نحن
تتبع ، ثم تزول الألفة ، ويحل محلها الحذر والتهكم ، وربما الاهمال
والبنفص !



غير أن ثمة دقائق كانت ، حتى فى تلك الفترة ، تفلت من رقابتنا ،
فكانت القراءة المشتركة أحيانا ، وبعض كلمات التودد التى ترسلها احداً
فجأة ، والموسيقى ، تجعلنا ننسى كل شئ •• بل تجعلنا نفرط فى النسيان
أحيانا ، حتى لتلبث احداً بعدئذ كأنها خجلى من الاخرى •• وما هى
الا لحظات من التفكير حتى تنظر كل منا الى صاحبتها فى استطلاع حذر
هو الى الخوف أدنى ، وتشعر كل منا أن ثمة حاجزاً يقف عنده تقاربنا ،
واننا لا نستطيع أن نتجاوز هذا الحاجز رغم رغبتنا فى ذلك •• !

وذات مساء ، ساعة الفسق ، كنت فى مخدع الكسندرين
ميخائيلوفنا ، أقرأ فى كتاب من الكتب ذاهلة • وكانت هى تعزف على
البيانو ألحانا مرتجلة مستلهمة من لحن ايطالى تؤثره ، حتى اذا وصلت الى
مقطع معين من هذا اللحن ، رأيته وقد دبت حماسة الموسيقى فى قلبى
أخذ فى الغناء بصوت خافت خجول ، ثم لا ألبث وقد ازدادت حماسى
أن أنهض من مكاني وأقترب من البيانو •• وكأن الكسندرين ميخائيلوفنا
أدركت اهتمامى هذا ، فأخذت تصاحب بعزفها كل نغمة من النغمات التى
كنت أغنيها ، وهى أشد ما تكون دهشة ••

لقد فاجأها صوتى مفاجأة كبيرة • لم أكن قد غنيت أمامها أبداً قبل

تلك اللحظة • ثم اننى كنت أجهل - أنا نفسى - مقدرتى فى الغناء •
وأخذنا الآن نتبارى ، صرت أرفع صوتى أكثر فأكثر ، وهى تتابع غنائى
بمزفها ارتجالا ، وتزداد دهشة وحماسة ، ويزيد ذلك فى حماسى أنا
الأخرى • • حتى فرغنا ، فاذا هى من اعجابها تمسك يدى فى تأثير قوى ،
وتنظر الى فرحة وهى تقول :

- آيت • • آيت • ان لك صوتا رائعا ! رباه ! كيف أمكن أن
لا ألحظ ذلك ؟

فأجبت وقد غمرنى فرح شديد :

- لم أكن أعرف ذلك أنا الاخرى •

- ليباركك الله ، أيتها البنية التى لا تعرف الكبرياء ولا الزهو !
اشكرى الله على ما أودع فيك من مواهب • من يدرى • • • آه ، رباه !
رباه !

كانت من شدة التأثير لهذا الاكتشاف غير المنتظر ، وكان فرحها من
شدة الفيض ، بحيث لم تعرف ماذا تقول ولا كيف تداعبنى • كانت تلك
لحظة من صراحة تامة ، ومودة متبادلة ، وتقارب بعد عهدنا به كثير ،
وما هى الا ساعة حتى كان البيت كله فى عيد ، وأرسلوا يستدعون «ب»
على الفور !

وفى انتظار وصوله ، فتحنا على غير هدى دفترنا موسيقيا آخر أعرفه
معرفة أتم ، لتجرب لنا ثانيا • وكنت فى هذه المرة أرتعد خجلا ووجلا •
كنت أخاف أن أخفق فأفسد الأثر الأول • • لكن جرس صوتى سرعان
ما طمأننى ورد الى شجاعتى ، وازدادت حيرتى ودهشتى من هذه القوة
التي أملكها ، ولم يبق بعد هذه التجربة الثانية من شك • وطفح فرح

الكسندرين ميخائيلوفنا ، فاستدعت ولديها ، بل واستدعت خادمتها • ثم طفحت حماستها أكثر من ذلك فمضت الى زوجها فى حجرة عمله تستدعيه - وهو أمر ما كان لها أن تسمح لنفسها به فى الاحوال العادية !- وأحسن بطرس الكسندروفتش استقبال النبأ ، وهنأنى ، وكان اول من قال ان على أن أتلقى دروسا ، فشعرت الكسندرين ميخائيلوفنا من اقتراحه هذا بسعادة كبيرة ، بل قبلت يديه عرفانا بالجميل ، كما لو كان ينعم عليها هى بشئ !

وأخيرا وصل «ب» ، وكان يحبنى كثيرا ، فصرح بأنه سعيد بالنبأ ، وتحدث عن أبى وعن الماضى ، ثم بعد أن غنيت أمامه مرتين أو ثلاثا أعلن وقد لاحظ فى وجهه علائم الهم أنى مؤهلة للفناء من غير شك ، واننى قد أكون موهوبة ، وان من الضرورى أن يشقف صوتى على كل حال • ثم كان «ب» والكسندرين ميخائيلوفنا شعرا بأنهما أسرفا فى الثناء فبادرا الى القول بأن امتداحى على هذا النحو خطر جدا ، ورأيتهما فى الوقت نفسه يتغامزان خلصة ، فيفضحان بذلك تأمرهما على ، وهو تأمر مسرف فى السداجة ، مسرف فى الخراقة على كل حال ، وظللت أتسلى بالنظر اليهما طوال السهرة ، وكانا بعد كل لحن جديد أغنيه يحاولان أن يجبسا فرحهما ، ويتعمدان أن يعلننا جهارا بعض الملاحظات عن أخطائى •

لكنهما لم يستطيعا أن يلتزما هذا الموقف مدة طويلة ، وكان «ب» أول من فضح نفسه من فرط ما ظهر عليه من بشر وجبور - ولم أكن أتصور أنه يحمل لى كل هذه العاطفة - وجرى الحديث خلال السهرة كلها وديا حارا • وقص علينا «ب» حياة بعض المغنين المشهورين ، فكان يقصها فى حماسة الفنان وقوة حبه وعمق عاطفته • ثم ارتد الى أبى ، وتحدثنا عنى ، وعن طفولتى ، وعن الامير وعن أسرة الامير ، التى لم

أسمع أحدا يتحدث عنها الا قليلا منذ مدة طويلة • ولم تكن الكسندرين ميخائيلوفنا نفسها تعرف من أنبائها الا النزر اليسير • وكان « ب » أكثر اطلاعا على شئوننا لانه سافر الى موسكو عدة مرات • لكننا حين وصلنا من حديثنا الى هذا الموضوع تلفع الكلام بأسرار وأحاج فلم أفهمه ، ولا سيما ملاحظتان أو ثلاث تتعلق بالامير ، لم أستطع أن أدرك كنهها البتة ! • • واستفهمت الكسندرين ميخائيلوفنا عن « كاتيا » أيضا ، غير أن « ب » لم يستطع أن يقول بصددها أى شيء واضح ، حتى لقد بدا أنه يؤثر أن لا يقول شيئا !

وفجأني ذلك كثيرا • اننى لم أنس حبي لكاتيا ، حتى لقد كنت لا أستطيع أن أتصور - لحظة واحدة - أن قد طرأ على كاتيا أى تغيير مهما يكن شأنه • لقد غاب عني حتى تلك اللحظة كل شيء : فراقنا ، والسنوات الطويلة التى قضيناها بعيدتين احدانا عن الاخرى دون أن تتكاتب ، واختلاف التربية ، واختلاف الطبع • • ولم تكن كاتيا قد بارحت خيالى أبدا • كانت لا تزال تعيش الى جانبي ، ففى أحلامي ، فى رواياتي ، فى مغامراتي الخيالية ، كنا نسير دائما جنبا الى جنب ، وقد تأبطت كل منا ذراع الاخرى • كنت اذا تخيلت نفسى بطللة الكتاب الذى أقرؤه سرعان ما أفصح لصديقتي الاميرة مكانا الى جانبي ، وسرعان ما تنقسم الرواية قسمين ، أحدهما من اختراعى !

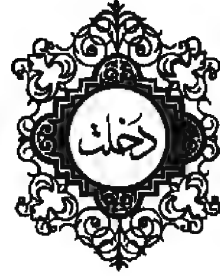
والخلاصة : لقد قرر مجلس الاسرة استدعاء أستاذ يعلمنى الفناء ، وأوصى « ب » بأستاذ هو أشهر الأساتذة وأقدرهم ، فما ان أتى اليوم التالى حتى حضر الينا الايطالى « د » ، فسمع غنائى ووافق على رأى صديقه « ب » ، ثم أضاف الى ذلك اننى اذا ذهبت الى حضور دروسه مع تلامذته الآخرين كان ذلك أعود بالنفع على ، لأن التنافس هنالك سيجعلنى

على زيادة العناية بتقني صوتي ، كما ان المقارنة بين أصوات كثيرة ستفيدني في اثناء صوتي . ووافقت السكندرين ميخائيلوفنا على ذلك ، وصرت منذ ذلك الحين أذهب ثلاث مرات في الاسبوع الى دروس (الكونسرفاتوار) ، تصحبنى وصيفة .

والآن أريد أن أقص حادنا غريبا كان له في نفسي تأثير كبير ، بل كان فاتحة حياة جديدة . كنت قد بلغت السادسة عشرة من عمري ، وقد أصبت فجأة في ذلك الحين بنوع من تبلد الحس وخمود العاطفة ، لاسيل الى دفعه . كنت أعاني ضربا من فراغ النفس رهيبا ، لا يطاق ولا يفهم . كان خيالي قد كبا ، وكانت وثباتي قد انطفأت ، وكانت أحلامي قد تبددت حتى لكأنني لا أستطيع أن أحلم ! وحل محل الحماسة القديمة فتور شديد ، حتى ان موهبتي التي كان يعترف بها الجميع والتي كنت فخورة بها قد فقدت كل بريق ، وصرت أهملها دون أن أشعر من هذا الاهمال بأي ندم . لم يبق ثمة شيء يشوقني أو يجذبني ، حتى ان السكندرين ميخائيلوفنا أصبحت لا تثير فيّ الا البرودة ، وكنت ألوم نفسي على ذلك ، سيما وانني لم أكن أستطيع الا أن ألاحظه . وكان تبلد شعوري مشوبا بحزن لا علة له ، ونوباتٍ من البكاء مفاجئة . وصرت أنشد الخلوة والوحدة .

في تلك الفترة هزني هذا الحادث الغريب الذي سأقصه الآن ، وقلب نفسي رأسا على عقب ، وأحال الخدر الى عاصفة . لقد جرح قلبي جرحا هائلا . . . واليكم كيف تم ذلك :

الفصل الثامن



المكتبة ذات يوم (وتلك لحظة لن أنساها ماحيت)
فتناولت رواية من تأليف « والتر سكوت » هي
(مياه سان رومان) • انها الكتاب الوحيد الذي
لم أقرأه بعد • مازلت أذكر أن نوعا من القلق المر
كان كأنما يجعلنى أوجس أمرا • كانت بى رغبة فى البكاء • وكان النور
فى الغرفة ساطعا بأشعة الشمس الغاربة التى تتدفق فى أرجاء الغرفة من
النافذة العالية وتنعكس على البلاط المتألئى • • وكان يسود ثمة سكون تام •
ما من مخلوق فى الغرف المجاورة • • كان بطرس الكسندروف تشغى غائبا عن
البيت ، والسكندرين ميخائيلوفنا تعانى من آلام مرضها ، فهى تستريح فى
سريرها •

وطفقت أبكى دون أن أستطيع حبس دموعى ، ثم فتحت الكتاب من
نصفه الثانى وقلبت بضع صفحات على غير هدى ، كأنما أريد أن أحزر
شيئا ما ، من نهايات الجمل التى تخطر أمام عيني • كنت كأننى أفتش عن
نبوءة أو فأل ، كما يفعل بعض الناس حين يفتحون كتابا من الكتب على

غير هدى • ثمة لحظات يريد فيها المرء أن يوتر عقله وقواه الى أقصى حدود الالم ، حتى تنبجس المعرفة كشرارة ، فاذا بطيوف من النبوة تجتاح النفس المرتعشة ، النفس القلقة لتنبؤها بالمصير الذى ينتظرها • ان كياننا كله ، وقد جرفه الظمأ الى الحياة بأى ثمن ، يستسلم عندئذ للأمل ، مهما يكن هذا الأمل أعمى ومهما يكن غنيا ، وينادى المستقبل بكل ما فيه من مجهول ومن سر ، يناديه أن يأتى ان صح التعبير ، يناديه ولو كان مشحونا بالعواصف والزوابع ، حسبه منه انه الحياة ••• كنت أجتاز لحظة من تلك اللحظات •

وطويت الكتاب ، ثم فتحته مرة أخرى مؤمّلة أن أقرأ مستقبلى فى الصفحة التالية التى تقع تحت بصرى عرضا •• فاذا أنا أرى فى داخله رسالة مطوية أربع طيات يظهر من شدة انضغاط حوافها أنها 'نسيت فى هذا الكتاب منذ مدة طويلة • نظرت الى الرسالة فى كثير من حب الاستطلاع • كانت بلا عنوان ، مذيلة بهذا التوقيع : « س • و » ••• واشتد انتباهى • نشرت طيات الرسالة ، وكانت أشبه بالملتصقة ، مصفرة ، متهرئة ، وكان واضحا أن صاحبها قد قرأها وأعاد قراءتها مرارا ، ثم حفظها فى هذا المكان كما يحفظ كنز من الكنوز !

وكان العبر قد شجب ، من 'بعد عهد الكتابة ••• وقفزت الى عيني بضع كلمات ، فأخذ قلبي يخفق خفقانا قويا من شدة الانفعال • واضطربت اضطرابا شديدا ، فصرت أقلب الرسالة بين يدي دون أن أصمم على البدء بقراءتها • ونظرت اليها فجأة من خلال النور: نعم ! ان دموعا قد جفت على وريقاتها ••• وما زالت بقعها فوق الورق ، بل ان بعض الكلمات قد أمحت بتأثيرها أو تشوهت • من عسى أن يكون ساكب هذه الدموع ؟ وأخيرا قرأت نصف الصفحة الأولى ، فصعقت من فرط الدهشة وانطلقت

من صدرى صرخة • أعدت الكتاب الى مكانه • وأغلقت المكتبة ، ودست الرسالة فى صدرى ، وعدوت الى غرفتى ألوذ بها لأستأنف القراءة • كان قلبى يذب دقا عنيقا حتى لقد كانت الكلمات تترنج وتراقص أمام عيني • ولم أستطع أن أفهم الا بعد مدة طويلة •

ان هذه الرسالة تكشف لى عن السر الذى كان يقلبنى كثيرا •• ووقعت الرسالة من نفسى موقع الصاعقة ، لأننى حزرت صاحبها الذى وجهت اليه • كنت أعلم اننى بقراءة هذه الرسالة اقترف عملا سيئا ، الا أن الامر كان أقوى منى ، فلم أستطع أن أمنع نفسى عن قراءتها • كانت الرسالة موجهة الى ••• الكسندرين ميخائيلوفنا •

لسوف أُنسخ لكم هذه الرسالة • كنت قد فهمت موضوعها فهما غامضا ، وبعد أن قرأتها ثم أعدت قراءتها لازمت فكرى بل حاصرته حصارا شديدا ، وكأن حياتى قد تحطمت منذ تلك اللحظة ، لأن هذه الرسالة كانت نبوءة حقا ، أدخلت الى قلبى الذعر والثورة الى أمد بعيد ، ان لم يكن الى الابد • لقد تطيرت من مستقبلى !

انها رسالة وداع ، رسالة تمزق القلب تمزيقا • وانقبض صدرى بعد أن قرأتها كأننى فقدت كل شىء ، كأنما انتزع منى كل شىء ، حتى الحلم والرجاء ، كأنما لم يبق لى شىء على الاطلاق ، الا حياة عقيمة غير ذات جدوى !

تُرى من كاتب هذه الرسالة ؟ ان الرسالة تشتمل على تلميحات كثيرة ، على وقائع كثيرة ، فلا يمكن أن يُخدع المرء فى أمرها ، ولكنها تشتمل فى الوقت نفسه على ألفاظ كثيرة ، حتى ليضيع المرء بصدها فى ظنون وتخمينات ! •• على اننى فهمتها فهما صائبا • كان الاسلوب وحده

يقول أشياء كثيرة عن قيمة العلاقات التي تحطمت فسحقت فليين • ان أفكار كاتب هذه الرسالة وعواطفه معروضة عرضا واضحا ، انها أفكار وعواطف شخصية ، وهي كما قلت كافية لتكشف لى عن السر • ولكن اليكم نص هذه الرسالة ، نسخته كلمة كلمة :

« قلت انك لن تنسينى • وأنا أصدقك ، وسأعيش بعد الآن بهذا القول • يجب أن نفترق • لقد دقت ساعتنا ! ولقد كنت ، يا عزيزتى الرقيقة الحزينة ، أعرف ذلك منذ زمان طويل ، غير اننى لم أفهمه الا اليوم • طوال العهد الذى أحيتتى فيه ، كان قلبى ، رغم حبك ، قلقا معذبا فى كل لحظة • هل تصديق اننى من شدة ما تأملت فى سبيل حبنا أشعر الآن بشيء من الراحة ؟ كنت أعرف منذ زمان طويل ان علاقتنا ستتهى لا محالة ، وان القطيعة قد كتبت علينا منذ البداية ! ذلك قدر محتوم •• اسمعى ، يا ألكسندرين ، اتنا لم نكن متكافئين ، لقد شعرت بذلك دائما ، دائما • لم أكن جديرا بك ، فعلى أن أتحمل وحدى اذن جزاء سعادتى الزاهية ! قولى ، ماذا كنت قبل أن أعرفك ؟ وباه ! هاتان مستنان تنقصيان ، وما زلت الى الآن لا أستطيع أن أفهم لساذا أحيتتى أنت ! لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن أن يقع شيء كهذا !»

« ما أنا اذا قورنت بك ؟ هل كنت جديرا بك ، حتى تلتفتى الى ، وحتى تختارينى ؟ لقد كنت رجلا فظا ، غليظا ، أخرق ، عبوسا • ولم أكن أصبو الى حياة أخرى ، لم تكن بى حاجة لا الى معرفة حياة أخرى ، ولا الى نداء حياة أخرى • كان كل شيء قد اختنق فى نفسى حتى كنت لا أرى فى الدنيا ما هو أهم شأنا من عملى اليومى الموحش •

« وكان قد بقى لى شاغل واحد ، هو الغد ، بل كنت لا أحفل حتى بهذا الأمر • وقبل ذلك الحين ، قبل ذلك الحين بمدة طويلة ، كنت استشف بعض الاشياء وأحلم كما يحلم غيبى من الاغبياء • ولكن كان قد

انقضى على ذلك زمان طويل ، طويل جدا ، وأصبحت من الاستقرار فى حياتى المنزوية الكالحة الهادئة بحيث لا أشعر حتى بالصقيع الذى يجلد قلبى . كان قلبى ينفط فى نوم عميق . ثم قلت لنفسى انه لن تشرق على قلبى شمس .. كنت أؤمن بذلك ، ولا أتمرّد عليه ، لعلنى بأن الأمر يجب أن يكون على هذا النحو . وحين مررت بى ، لم أستطع أن أفهم أن فى وسعى أن أجروّ على رفع بصرى اليك : كنت أمامك عبدا . ولم يخفق قلبى ، ولا انقبض ، ولا انجذب . لم تزد دقات قلبى قوة . ولم تعرف روحى روحك ، وإن أحست بهذا الضوء الناعم يشع من أختها الرائعة .

« على ان احساسى هذا كان غامضا أصم . كنت قادرا على الشعور به لأن آخر حشرة من الحشرات التى يفرقها نور الشمس تشعر بالدفع والدغدغة مثلما تشعر به الزهرة المتألقة التى تحتمى بها الحشرة ! ... »
و حين فهمت كل شيء فى ذلك المساء ، بعد الاقوال التى هزت أعماق نفسى ، عمت عيناى ، وطاش صوابى ، هل تذكرين ؟ ودار فى نفسى كل شيء ، وبلغ انفعالى من القوة أن اعتقدت أنني لا أفهم ، هل تعلمين ؟ لم أحدثك عن شيء من هذا فى يوم من الايام ، ولم تعرفى عنه شيئا البتة . لست الآن ماكنته قبل أن أعرفك . ولو قد استطعت أن أحدثك ، لو قد جرؤت أن أحدثك ، لاعترفت لك بهذا كله منذ زمان طويل . غير اننى سكت ، واذا كنت أقول لك ذلك الآن ، فلكى تعرفى من هذا الذى تركين ، من هذا الرجل الذى تفارقين !

« هل تعلمين متى بدأت أفهمك ؟ لقد ألهبنى الهوى كالنار ، نفذ الى دمي كالسهم ، وهز قلبى ورأسى جميعا . كنت سكرانا ، كنت مشلولاً ، كنت مخدرا ، فلم أزد على أن أستجيب لجبك النقى ، لجبك الرعوف الحنون الرحيم ، دون أن أشعر أنني كفء لك ، دون أن أكون جديرا

بك • كنت لا أعرفك ، وأستجيب لك استجابتي لمن كانت فى نظرى
تهبط الى ، لا استجابتي لمن كانت تريد أن ترتفع بى اليها • هل تعلمين
ماذا ظننت فيك ، وماذا تعنى هذه الكلمة : الهبوط الى ؟ ولكن لا ، لا أريد
أن أسئ اليك باعتراف كهذا • على أننى أحب أن أؤكد لك شيئا : لقد
خدعت فى أمرى كثيرا ، فما كان يمكن أن أرقى اليك فى يوم من الأيام •
وبعد أن فهمتك ، أصبحت لا أستطيع الا أن أتأملك ، أنت التى كنت
لا أستطيع أن أرتفع اليك ، والتى أحببتهى هذا الحب القوى •

« غير أن ذلك لا يكفر عن خطئى • ان حبي الذى شرف بك لم
يكن حبا • كنت أخشى الحب ، وما كان لى أن أبص لنفسي أن أحبك •
لأن الحب يقوم على وصال روحى لست جديرا به ، وعلى مساواة لست
أهلا لها ! • • كنت أجهل ما بنفسى ! أواه ! كيف أقول هذه الأشياء ،
كيف أفهمك اياها ؟ فى أول الامر لم أستطع أن أصدق • • • آه ! هل
تذكرين ، بعد هدأة الانفعال الاول ، حين استطاعت عيناي المضطربتان ان
تريا رؤية واضحة • هل تذكرين كيف ان شعورى الاول عندئذ كان
دهشة وحيرة وهلما ، وكيف اننى ارتعيت على قدميك أشفق وأتسحب ؟
هل تذكرين كيف انك سألتنى ، مرتاعة ، عما بى ؟ لقد سكنت يومئذ ،
لأننى كنت لا أستطيع أن أجيئك • كانت السعادة قد مزقت نفسى • كانت
السعادة تمسحنى سحقا كحمل ثقيل • وكانت دموعى تقول لى : « علام
وهب لى كل هذا ؟ فيم أستحقه ؟ كيف أكون أهلا لمثل هذه السعادة ؟

« أخاه • • يا أختى العزيزة ، يا أختى الحبيبة • • • آه • • كم مرة
قلبت ثوبك خفية ، دون أن يدور ذلك فى خلدك ، لعلنى بأننى غير
خليق بك ! وكانت أنفاسى تخرتنق ، وكان قلبى يأخذ فى خفقان بطى • •
كان يدق دقات قوية صماء ، كأنه يوشك أن يتوقف الى الابد • وكنت

حين أمسك يديك ، أشحب وأرتجف ، لأن صفاء روحك كان يخجلني ويرهبني ! أواه . اننى عاجز عن أن أقول لك كل ما تجمع فى قلبى ، كل ما كنت أود أن أعبر لك عنه . هل تعلمين أن خانك ورقتك الدائمة كانا يؤلمانى ؟ حين قبلتنى (ولقد حدث هذا مرة لن أنساها ما حيت) شعرت بضباب يغشى عيني ، وشعرت بنفسى كلها تذوب دفعة واحدة ! .. لماذا لم أمت فى تلك اللحظة على قدميك ؟ ترين أننى أخاطبك الآن بصيغة المفرد ، لأول مرة ، رغم أنك طلبت الى ذلك منذ زمان طويل . هل تفهمين ماذا أعنى بذلك ؟ .. اننى أريد أن أقول لك كل شئ ، وسأقول لك كل شئ : نعم ، انك تحييننى كثيرا ، تحييننى كما تحب أخت أخاها ، وتحييننى كما يحب خالق مخلوقه ، لأنك أحيت قلبى : لأنك أنهذت روحي من خدرها ، لأنك غرست فى صدرى أملا عذبا ، أما أنا فلم أستطع ، لم أجرو . اننى حتى الآن لم أستطع أن أناديك يا أختاه ، لأننى لا أقدر أن أكون أخاك ، لأننى لست كفتا لك ، لأنك خدعت فى أمرى !

» ترين اننى لا أتحدث الا عن نفسى . حتى فى هذه اللحظة التى أعانى فيها شقاء فظيما ، لا أفكر الا فى نفسى ، رغم علمى بأنك تعذبين قلقة على مصبرى . آه . لا تعذبي من أجلى ، يا صديقتى الحنون . هل تعلمين الى أى حد أشعر بالصغار فى نظر نفسى ؟ لقد اكتشف كل شئ وأنير حوله صخب كثير ! .. ولسوف ينبذونك بسببى ، لسوف يفرقونك بالاحتقار ، لسوف يسخرون منك ، لأننى فى نظرهم مخلوق حقير جدا ! .. أواه ! .. ما أكبر جريمتى لأننى لم أكن جديرا بك ! .. لو قد كنت أخطر منزلة ، لو قد استحققت الاحترام على نحو ما يفهمونه ، لو قد كنت شخصية فى نظرهم ، اذن لغفروا لك ! ... ولكننى امرؤ نكرة لا قيمة له البتة ، امرؤ مضحك ، وهل أسوأ من أن يكون المرء مضحكا ؟

« وفي الواقع ، من هم الذين استكروا ونادوا بالويل والثبور ؟ ..
ولان أمثال هؤلاء الناس استكروا ، فقدت أنا صوابي . لقد كنت دائما
رجلا ضعيفا . هل تعلمين في أية حال أنا الآن ؟ .. اننى أسخر من
نفسى ، ويلوح لى انهم على حق ، اذ لا يمكن الا أن أكون مضحكا وكريها
.. اننى أشعر بذلك . اننى أكره وجهى ، أكره كيانى كله ، أكره
عادتى التى ليس فيها شىء من اللباقة واللفظ . ولقد كرهتها دائما .
أواه ! اغفرى لى يأسى الغفل . لقد علمتتى أن أقول لك كل شىء . ولقد
فقدتلك الآن ، وجلبت لك السخط والقهقهات الساخرة . لأننى لم أكن
جديرا بك .

« ان هذه الفكرة تعذبنى . انها تدور فى رأسى بلا توقف ، انها
تضيقنى وتسمم قلبى . يترامى لى دائما انك لم تحبى الا الرجل الذى
حسبت انك ترينه فى .. يترامى لى دائما انك خدعت فى أمرى . ذلك
ما يؤلمنى ، ذلك ما يعذبنى حتى ليكاد يميته ، ذلك ما يطيش لى
ويفقدنى عقلى ، ويجعلنى أشبه بمجنون !

« وداعا ، اذن . وداعا . الآن وقد عرفوا كل شىء .. الآن وقد
صرخوا ما شاء لهم الصراخ ، وأنبوا ما شاء لهم التأنيب (سمعتهم يفعلون !)
.. الآن وقد صغرت فى نظر نفسى .. الآن وقد شعرت بالعار يجلمنى ،
وشعرت بالعار يلعطخك أيضا لأنك اخترتتى .. الآن وقد لعنت نفسى ،
فقد وجب على أن أهرب ، أن أخفى ، لأوفر لك الهدوء . لن ترينى بعد
الآن أبدا ، أبدا . يجب أن أخفى ، ان القدر يأمر بذلك ! .. لقد وهب
لى القدر أكثر مما أستحق . لقد أخطأ القدر ، وها هو يتلافى الآن خطيئته
ويسترد كل شىء . لقد تقاربنا وعرف كل منا الآخر ، وها نحن الآن
نفصل الى لقاء آتٍ .. ترى أين يكون هذا اللقاء الآتى ، ومتى يكون ؟

•• آه ! قولى لى ، يا حبيبة ، أين عسانا نلتقى ؟ •• أين ينبغي أن أمضى
باحثا عنك ، وهل أعرفك اذا لقيتك ، وهل تعرفيننى اذا لقيتنى ؟ •• ان
روحى كلها ملائى بك ، أوأه ! لم هذا العقاب ؟ •• لماذا تنفصل ؟ قولى لى
- فانى لا أفهم لأننى أصبحت لا أدرك شيئا - قولى لى كيف يمزق المرء
حياته جزئين ؟ •• كيف ينتزع قلبه من صدره ، كيف يعيش بلا قلب ؟
آه •• لا أستطيع أن أتصور اننى لن أراك بعد اليوم أبدا ، أبدا أبدا !

•• ربه •• ما أشد ما صرخوا ! •• لكم أخاف عليكم الآن ! •• لقد
لقيت زوجك منذ قليل •• اتنا كلينا غير جديرين به ، رغم اننا لم نجرم
فى حقك •• انه يعرف كل شيء •• لقد رآنا ، وانه ليفهم كل شيء •• منذ
مدة طويلة أصبح كل شيء واضحا أمام باصرته وضوح النهار •• لقد دافع
عنك دفاع البطل ، وسينقذك •• سيخلصك من هذه المناقشات ومن هذه
الصرخات ، انه يحبك كثيرا ويقدرك كثيرا •• هو ينقذك وأنا أهرب ! ••
لقد ارتميت عليه أريد أن أقبل يده •• فطلب الى أن أمضى على الفور ،
ونفذت الأمر •• يقال انه قد تخاصم معهم بسببك •• جميعهم هناك ضدك ••
حتى لقد اتهموه بالجسارة والضعف •• يا الهى ! ما عساهم قائلين أيضا ؟
انهم لا يعرفون ، انهم لا يستطيعون أن يفهموا ، انهم عاجزون عن الفهم !
سامحيهم يا عزيزتى المسكينة ، كما أسامحهم أنا ، انهم قد اضطهدونى
أكثر منك بكثير ••

•• لم أعد أفهم ، لم أعد أعرف ماذا أكتب اليك •• ماذا قلت لك أمس
مودعا ؟ •• لقد نسيت •• كنت خارجا عن طورى •• وكنت تبكين ••
اغفرى لى هذه الدموع •• اننى ضعيف •• اننى جبان !

•• كنت أريد أن أقول لك شيئا آخر أيضا •• آه ! ليتنى أستطيع مرة
أخرى أن أغرق يديك بالدموع كما أغرق هذه الرسالة فى هذه اللحظة !

•• ليتنى أستطيع أن أجتو مرة أخرى عند قديمك • آه ! •• ليتهم يعلمون شيئاً عن جمال عاطفتك ! •• لكنهم عمى وليس فى قلوبهم الا الزهو والكبرياء •• انهم لا يرون ، ولن يروا ابدا ! •• انهم عاجزون عن ذلك ! لن يصدقوا انك بريئة طاهرة ولو أنى أهل الارض جميعا يعلنون ذلك أمام محكمتهم ، انهم لا يستطيعون أن يفهموا شيئاً • آية أحجار سيرجمونك بها أيضا ؟ •• آية ذراع سترفع حجرا قبل الجميع ؟ •• آه ، انهم لن يخلجوا ، سيرفمون ألف حجر ! •• سيجرؤون على رفع الاحجار ، لأنهم يعرفون معنى ذلك : سيرفمون أحجارهم جميعا فى وقت واحد ، وسيقولون انهم يتحملون تبعه ذلك لأنهم بلا خطيئة ! •• آه ليتهم علموا ماذا يفعلون ! •• ليت فى الامكان أن يروى لهم كل شىء بلا اكراه ، عسى أن يروا ويسمعوا ويفهموا ويصدقوا ! ولكن لا ، انهم ليسوا أشرارا الى هذا الحد •• لعلنى أقول فيهم سوءا لأننى فى حالة من الانهيار واليأس • ولعل مخاوفى أن تولد فيك شيئاً من الهلع •• فلا تخشسهم ، ولا تخشى شيئاً ، يا حبيبتى • سيفهمونك • ألم يفهمك واحد منهم ؟ نعم • انه زوجك فلا تقطعى الرجاء •

« وداعا ، وداعا • ولا أقول لك شكرا ، وانما أقول لك وداعا •• الى الأبد •

س • و



بلغت من الاضطراب - على اثر قراءتى الرسالة - اننى ظلمت مدة طويلة لا أعى ما حدث لى • كنت مذعورة منهارة فى آن واحد • ان الواقع يدخل فجأة فى هذه الحياة الغنية الحاملة التى عشتها منذ ثلاث سنوات • أدركت كهلة اننى أقبض على سر خطير ، وان هذا السر

يربط منذ الآن كل وجودى .. كيف ؟ لا أدرى ، ولكننى كنت على يقين من ان مستقبلى يبدأ بهذه اللحظة نفسها . أصبح لا بد لى الآن ، رغما عنى ، من أن أشارك مشاركة وثيقة فى حياة وعلاقات هؤلاء الذين كانوا الى ذلك الحين عالمى كله .

وتملكنى الخوف : كيف أدخل فى صميم حياتهم ، أنا التى لم أدع الى ذلك ، أنا الغريبة ؟ .. ماذا عسى أن أحمل لهم ؟ .. وكيف يمكن أن تتحل هذه الروابط التى ربطتنى بسرّ غيرى على حين فجأة ؟ .. أين السبيل الى معرفة ذلك ؟ .. لعل دورى الجديد أن يربكنى ويربكهم معا ؟ .. لست أستطيع أن أسكت ، وأن أمتنع عن الدور الذى عين لى ، وأن أحبس ما اكتشفته فى أعماق قلبى الى الأبد . وما مصرى فى هذا كله ؟ .. ماذا أعمل ؟ .. ثم ماذا يعنى هذا الذى اكتشفته ؟ .. ألف سؤال غامض مبهم انتصب أيضا أمام عيني ، وألقى بثقله الرهيب على صدرى ، حتى أصبحت كالتأهة .

وأذكر أن قد مرت بى لحظات أخرى تحمل الى احساسات جديدة ، غريبة ، لا عهد لى بها من قبل . ان شيئا ما قد انتزع من صدرى : زال قلقي القديم دفعة واحدة ، ليحل محله قلق آخر لا أعرف معناه . كنت لا أدرى هل ينبغى أن يحزننى ذلك أم ينبغى أن يسرّننى . كنت فى تلك اللحظة أشعر شعور من يهجر بيته الى الابد ، شعور من يدع حياة كانت الى ذلك الحين هادئة مطمئنة ، ليغامر فى رحلة بعيدة الى بلد مجهول ، فاذا هو ، وقد انقبض صدره قلقا واستشعر أن مستقبله فى هذه الطريق التى يتوغل فيها قد يكون سيئا ، يلقى نظرة أخيرة على ما حوله ويودع فى فكره ماضيه الذى كان . وأخيرا مزقت صدرى شهقات عنيفة متشنجة ،

وبلغت من انقباض القلب اننى شعرت بحاجة قوية الى أن أرى أحدا ، الى أن أسمع أحدا ، الى أن أقبل أحدا قبله عنيفة ..

لم أعد أستطيع أن أبقي وحيدة ، لم أعد أريد أن أبقي وحيدة .
فهرعت الى الكسندرين ميخائيلوفنا ، وقضيت الى جانبها السهرة كلها .
كنا وحدنا . ورجوتها أن لا تجلس الى البيانو ، وأن لا تطلب الى الغناء .
كان كل شيء يشق على نفسى . وكنت عاجزة عن تركيز فكرى فى أى شيء .
واظن اننا بكينا معا . الا اننى أذكر اننى أخفتها كثيرا . فكانت تتوسل الى أن أهدي روعى وأن لا أكون مضطربة هذا الاضطراب كله ..
وكانت تراقبني فى قلق هائل ، وهى تردد اننى مريضة من غير شك ، واننى لا أعتنى بنفسى . وأخيرا تركتها وأنا لا أدري ماذا أفعل ، كنت فى حالة من الهذيان الحقيقى ، ثم نعمت بعد أن اتابتنى حمى شديدة .



وانقضت أيام عديدة قبل أن أصبح قادرة على أن أسترده هدى ، وعلى أن أنظر الى الموقف نظرة واضحة . كنا نعيش عندئذ ، أنا والكسندرين ميخائيلوفنا ، فى عزلة تامة . ذلك أن بطرس الكسندروفتش لم يكن فى بطرسبرج ، فقد سافر الى موسكو استجابة لنداء أعماله ، وكان عليه أن يقضى هناك ثلاثة أسابيع . ورغم أن هذا البعاد كان قصيرا جدا ، فقد حزننت له الكسندرين ميخائيلوفنا حزنا هائلا .. وكانت تهدأ فى بعض الاحيان ، ولكنها تعتزلى ، كأن وجودى أصبح عبئا عليها ! .. ثم اننى كنت أشد العزلة أنا الاخرى . كان ذهنى يعمل فى نوع من الضباب الخانق ، وهو متوتر توترا مريضيا . كان يتفق لى أن أبقي ساعتين طويلتين فى هذا الهم المؤلم ، وكان يخيّل الى أثناء ذلك كأننى أسمع أحدا يسخر منى بصوت خافت ، وأشعر باضطراب ينفذ الى نفسى ويشوش كل

أفكارى • وأصبحت لا أستطيع خلاصا من صور تحاصر شعورى ولا تدع
لى راحة ••

كنت أتصور هذا الألم الطويل الذى لا مخرج منه ولا نهاية له •
كنت أتصور هذا الخوف ، وهذا القلق ، وهذه التضحية تقبلها الكسندرين
ميخائيلوفنا ذليلة دون أن تحرك ساكنا ، ودون أن تبس بكلمة ! •••
وكنت أرى أن هذه التضحية عبث لا طائل تحته ولا جدوى منه • كان
يبدو لى أن الشخص الذى تتألم الكسندرين ميخائيلوفنا من أجله يحتقرها
ويصب عليها اللعنات •• كنت أرى مجرما يفسر خطايا برى • ، وكان
ذلك يمزق قلبى تمزيقا ! وكنت أود فى الوقت نفسه ، من أعماق قلبى ،
لو أستطيع أن أتحاشى هذه الشكوك •• كنت ألعن هذا الرجل ، وأمقت
نفسى ، لأن افتراضاتى لم تكن الا تخمينا ، ولأن ضميرى كان لا يستطيع
أن يبرر مشاعرى • ثم أخذت أحلل بعض عبارات الرسالة ، وهذه
الصرخات الواعية الرهيبة • وأخذت أتصور ذلك الرجل الذى لم يكن
كفتا • حاولت أن أحزر كل ما فى هذه الكلمة من معنى فطبع • وكان
هذا الوداع اليأس يعذبنى : « شعرت بالعار يجلىنى ، وشعرت بعار يلطخك
أيضا ، لأنك اخترتني ! » •• من كان ذلك الرجل ؟ •• ومم كان يتألم
هذان المخلوقان ؟ •• ماذا كان يعذبهما ؟ •• ماذا فقدتا ؟ •• وكنت أهدى
من روعى وأعود فأقرأ الرسالة فى انتباه ، فتتمزق نفسى يأسا • وأحار فى
فهمها ، ثم تسقط الرسالة من بين يدي ، وقد تقبض قلبى أكثر فأكثر ،
وتملكى انفعال خانق •• والخلاصة : كان لا بد لهذا كله من أن ينحل
على نحو من الأنحاء ، ولكننى لم أر منه مخرجا ، فكان ذلك يخيفنى !

وذاث يوم ، وكنت مريضة جدا ، جلجلت فى مدخل البيت أصوات
عربة بطرس الكسندروفتش - وكان عائدا من رحلته الى موسكو -

فانطلقت من صدر الكسندرين ميخائيلوفنا صرخة فرح ، وبقيت أنا في مكاني كالمتجمدة . أذكر اننى دهشت الى حد الذعر من انفعالى المباغت . ولم أستطع أن أملك زمام نفسى ، فهرعت الى غرفتى . لم أفهم شيئا من هذا الخوف الذى غشبنى فجأة ، ولكننى كنت خائفة من هذا الخوف ! . وبعد ربع ساعة استدعونى ، وسلمونى رسالة من الامير . ورأيت فى القاعة رجلا لا أعرفه جاء مع بطرس الكسندروفتش من موسكو ، وعرفت من بضع كلمات أدركتها ادراكا خاطفا انه سيقم بيننا مدة طويلة .

كان ذلك الشخص هو وكيل الامير ، جاء الى بطرسبرج لينهى بعض الاعمال الهامة التى تتعلق بالاسرة والتى كان يسعى فيها بطرس الكسندروفتش منذ مدة طويلة . أعطانى الوكيل الرسالة وذكر لى أن الاميرة الصغيرة - كاتيا - كانت تنوى أن تكتب الى "أىضا ، وانها ظلت تؤكد له حتى آخر دقيقة انها تهىء هذه الرسالة ، الا انها تركته يمضى أخيرا خالى اليدين ، وهى ترجوه أن يبلغنى أنه ليس هناك فى الواقع أى شىء تريد أن تكتبه الى " ، وان كتابة رسالة لا تعنى شيئا ، وانها سؤدت خمس صفحات ثم مزقتها ، وانه لا بد أولا من أن تتعقد صداقتنا مرة أخرى حتى نستطيع أن نتكاتب . ثم كلفته أن يعدنى بأنى سألقاها فى القريب !

وأجاب هذا الشخص المجهول على أسئلتى الملحاحة بأن نبأ اللقاء القريب نبأ صحيح فى الواقع ، لأن أسرة الامير تنوى العودة الى بطرسبرج . وقد بلغت من فرحى لسماع هذا الكلام اننى لم أستطع أن أملك نفسى ، فهرعت الى غرفتى ، وأغلقت على الباب ، ثم فضضت كتاب الامير والدموع تنهمر من عينى . ان الامير يبشرنى فى رسالته هذه بأنه سيرانى قريبا مع كاتيا ، وهو يهتنى على موهبتى تهتة حارة ، ويثنى على

المستقبل اللامع الذى ينتظرني ، ويؤكد لى رعايته وحمايته • وقد بكيت وأنا أقرأ هذه الرسالة ، الا أن عذوبة دموعى هذه كانت مشوبة دائما بمرارة القلق الهائل الذى يثوى فى قرارة نفسى • لم أكن أفهم من حالى هذه شيئا ، عدا اننى خائفة من نفسى !



وانقضت على ذلك أيام • وفى الغرفة التى تجاور غرفتى ، أعنى الغرفة التى كان يقيم فيها سابقا سكرتير بطرس الكسندروفتش ، كان القادم الجديد يعمل فى كل صباح ، وكثيرا ما كان يعمل أيضا فى المساء الى ساعة متأخرة بعد منتصف الليل • وكان فى كثير من الاحيان ينتقل الى حجرة بطرس الكسندروفتش ، فيخلو الاثنان يعملان معا ••

وذات مساء ، بعد العشاء ، رجتنى الكسندرين ميخائيلوفنا أن أمضى الى زوجها فى حجرة عمله أسأله هل يجب أن يتناول الشاي معنا • فلما لم أجد أحدا فى هذه الحجرة اعتقدت أن بطرس الكسندروفتش لا بد عائد اليها من دقيقة الى أخرى ، فلبثت هنالك أنتظر أوبته • كانت صورته معلقة على الحائط • وأذكر اننى ارتعدت فجأة حين نظرت الى الصورة ، ثم حدثت فيها طويلا وقد تملكنتى انفعال لا أفهم كنهه • كانت الصورة عالية • ولما كانت الغرفة مظلمة بعض الشيء ، وكنت أود أن أرى الصورة عن كتب ، فقد اعتليت من أجل ذلك ظهر كرسى • كنت فى حاجة لأن أنعم النظر فى هذه الصورة وأن أفحصها فحصا ، كأنما كنت أمل أن أجد فيها جوابا على شكوكى ، والواقع أن العينين فى هذه الصورة قد هزتا فجأة ، ولم أكن قد رأيتهما من قبل ، لأنهما كانتا مختبئتين دائما وراء النظارتين •

أذكر اننى لم أكن أحب نظرة هذا الرجل منذ كنت طفلة ، يحملنى

على ذلك نوع من التنبؤ الغريب لا يفهم • وقد جاء الواقع الآن يؤيد نبوءتى وبررها • وأخذ خيالى يسرح ويمرح ، فاذا أنا أرى عيني الصورة تشيخان عن نظرتي الحادة وجلتين ، تحاولان أن تهربا منها ، وخيل الى أننى لا أرى فيهما الا الكذب والخداع ، وبلغت من قوة اعتقادى بأننى أنفذ الى سرهما أنه تملكنى فرح عظيم لا يمكن وصفه • وانطلقت من صدرى صرخة • وفي هذه اللحظة سمعت ضجة خفيفة ورائى • • فالتفت فاذا أنا أمام بطرس الكسندروفتش وجها لوجه ، وكان يتأملنى فى انتباه شديد • وخيل الى أنه احمر فجأة ، فاحمررت أنا أيضا ، وقفزت أهبط من فوق الكرسى •

سألنى بلهجة قاسية :

— ماذا تفعلين هنا ؟ لماذا ارتقيت الكرسى ؟

ولم أعرف فى أول الامر ماذا أقول • ولكننى ثبت الى نفسى ونقلت اليه — على نحو ما استطعت — دعوة الكسندرين ميخائيلوفنا • لا أذكر الآن بم أجاب ، ولا كيف خرجت من حجرة عمله ، وانما أذكر اننى حين رجعت الى الكسندرين ميخائيلوفنا كنت قد نسيت تماما الجواب الذى تنتظره ، فقلت لها على غير هدى ان زوجها آت •

فهتفت قائلة :

— ماذا بك يا نيتوتشكا ؟ ما لوجهك أحمر شديد الحمرة ؟ انظرى الى وجهك فى المرأة • ماذا بك ؟

فقدمت :

— لا أدرى • • لقد جريت مسرعة جدا • •

واستأنفت كلامها قلقة :

— ماذا قال لك بطرس الكسندروفتش ؟

لم أجب • وفى تلك اللحظة سمعت وقع أقدام بطرس الكسندروفتش
فهرولت خارجة من الغرفة • وانتظرت ساعتين طويلتين وأنا أشد ما أكون
قلقا • وأخيرا جاءنى من يقول ان الكسندرين ميخائيلوفنا تطلبنى •
فمضيت اليها ، فألفيتها صامتا قد لاح على محياها انشغال البال • وحين
دخلت ، غرست فى نظرة سريعة ، فاحصة ، ثم لم تلبث أن غضت من
طرفها • كان نوع من الانزعاج يشع فى وجهها • وسرعان ما أدركت
أنها معكرة المزاج جدا ، فهى تتكلم قليلا ، وتحتاجنى أن تنظر الى ،
وتجيب على الاسئلة الرقيقة التى يوجهها اليها « ب » ، وكان مظهرها يوحى
بأنها تشعر بصداق • وكان بطرس الكسندروفتش أكثر انطلاقا مما
عهدت فيه ، الا انه كان لا يتجه بالكلام الا الى « ب » •

ونهضت الكسندرين ميخائيلوفنا الى اليانو ذاهلة ، وقالت وقد سرت
كثيرا لهذه التسلية التى خطرت على بالها :

— نعم ، يا آيت ، غنى لنا أغنيك الجديدة •

نظرت اليها ، فاذا هى تتأملنى فى انتباه قلق •

ولكننى لم أستطع أن أضبط نفسى ، فبدلا من أن أقرب من اليانو ،
وأن أغنى ، ظللت واقفة فى مكانى ، مضطربة ، مرتبكة ؛ لا أدرى كيف
أخرج من هذا الموقف • ثم ازداد حرجى ، فرفضت أن أغنى رفضا
باتا !

فسألتى الكسندرين ميخائيلوفنا ، وهى تحدق فى ، ثم تلقى على
زوجها نظرة مختلسة :

— لماذا لا تريدن ؟

وضاعفت هذه النظرة المزدوجة اضطراباً أعصابى ، فنهضت عن الطاولة وقد اعترتنى هزة شديدة لم أستطع كتمانها • كنت أرتعد ارتعادا شديدا • وضاق صدرى حتى لم أعد أطيق الاحتمال ، فأجبت بصوت متهدج بأننى لا أريد أن أغنى لأننى لا أستطيع الغناء • وقلت اننى أشعر بأننى مريضة ، قلت ذلك ونظرت الى عيونهم جميعا • يعلم الله ما كان أشد رغبتى حينذاك فى أن أكون وحيدة ، بعيدة عنهم ، فى غياهب غرفتى ••

ولاحت فى وجه « ب » دهشة شديدة • أما ألكسندرين ميخائيلوفنا فقد بدا عليها الاضطراب ، غير انها لم تحتج • وأما بطرس الكسندروفتش فقد تجهم وجهه ، ونهض فجأة عن كرسيه قائلا انه نسى أمرا مستعجلا من أمور أعماله ، وخرج مسرعا وهو يعد بأن يرجع بعد قليل ان استطاع • الا انه صافح « ب » مودعا على سبيل الاحتياط ، خشية أن لا يستطيع الرجوع !

وسرعان ما سألتى « ب » :

— ولكن ماذا بك ؟ ان المرض يلوح فى وجهك حقا !

قلت وقد فرغ صبرى :

— اننى متعبة جدا ، اننى مريضة جدا •

— أصدقك • ان وجهك شاحب ، ومنذ هنيهة كان أحمر شديد الحمرة •

قالت الكسندرين ميخائيلوفنا ذلك ، ثم صمتت فجأة فهتفت وأنا أتقدم نحوها وأرمقها بنظرة ناقية :

- أوه ! كفى ..

لم تستطع المسكينة أن تحتل نظرتي ، ففضت طرفها كمن 'ضبطت'
متلبسا بالخطيئة ، بينما تخضبت وجنتاها الشاحبتان ببقع حمراء خفيفة ..
فتناولت يدها وقبلتها .. وتركتني أفعل ذلك وهي تنظر الى بفرح
صادق ساذج :

- اغفري لي انني كنت اليوم طفلة صغيرة سيئة . ولكنني أؤكد لك
انني مريضة . لا تغضبي . دعيني أذهب .

قلت ذلك منفعة .

فأجابت قائلة :

- انا جميعا أطفال !

ثم همست في أذني :

- أنا أيضا طفلة ، طفلة أكثر منك بكثير . الى اللقاء . وأتمنى لك
الابلال من مرضك . ولكنني أناشدك الله أن لا تؤاخذيني .

فقلت وقد هزني رجاؤها الساذج هذا قويا :

- أؤاخذك ؟ لماذا ؟

فتملكها اضطراب رهيب ، كأنما هي تخاف نفسها فجأة ، وكررت

سؤالي قائلة :

- لماذا ؟

ثم أضافت :

- انك ترين حالتي يا بيتوتشكا ! ماذا قلت لك ؟ الى اللقاء . أنت

أذكى مني . انني أقل فطنة من طفلة صغيرة !

فقلت وقد تأثرت تأثرا شديدا ، دون أن أعرف ماذا أقول :

- أوه • بربك اصمتي !

ثم قبلت يدها مرة أخرى واسمعت •

♦♦♦

وتملكنتي أسف شديد وقلق عفيف ، وأنا أؤاخذ نفسي على اننى لم
أكن حكيمة حذرة ولم أحسن التصرف • كنت أشعر بخجل شديد
يغرينى بالبكاء • ثم نمت وأنا فيما أنا فيه من حزن مبرح ••

وحين استيقظت فى صباح اليوم التالى كان أول ما تبادر الى ذهنى
هو أن ليلة البارحة كانت حلما مزعجا ، كانت سرايا •• لقد تهالكنا على
أمور تافهة فأخذناها مأخذ الجد ، وذلك كله يرجع الى خرافتنا ، الى اننا
لم نتعود التغلب على المؤثرات الخارجية • قلت لنفسي ان الآفة كلها ترجع
الى تلك الرسالة ، انها تحتل من فكرى مكانا كبيرا جدا ، وترهق خيالى
الى حد الافراط ، فرأيت من الأفضل أن أدعها جانبا • وما ان عزمتم
أمرى على ذلك حتى شعرت بقلقى يخف ؟ وحين أيقنت أن فى وسعى
أن ألزم قرارى بسهولة ، مضيت الى حضور درس الغناء فى طمأنينة
وفرحة •

وأعانت طراوة الصباح على تهدئة أعصابى • كنت أحب كثيرا هذه
الرحلة الصباحية الى أستاذى • لقد كان يتمتعنى جدا أن أجتاز المدينة وهى
تستعيد نشاطها المألوف فى تلك الساعة ، الساعة التاسعة من الصباح • كنا
نمر عادة بشوارع صاخبة جدا ، وكان مظهر هذه الشوارع يلفت نظرى ،
ولا سيما هذا التناقض الذى أحسه بين تفاصيل الحياة اليومية وبين الفن
الذى ينتظرنى على بعد خطوتين ، فى الطابق الثانى من بناية كبيرة ،

يشغلها من أسفلها الى أعلاها سكان لعلهم لا يهتمون البتة بالموسيقى . كنت أمضى الى درسى مارة بين هؤلاء الناس التهمكين فى أعمالهم ، متأبطة دفتر الموسيقى ، بينما كانت « ناتاليا » المعجوز التى تصحبى تحملى ، دون أن تشعر بذلك ، على أن أتساءل : ترى فيم تفكر ؟ وكنت أطرح هذا السؤال على نفسى بصدد أستاذى أيضا ، وهو رجل طيب ، بسيط ، لا هو بالاطالى ولا هو بالفرنسى ، بل هو بين بين ، ترفعه أجنحة الحماسة فى بعض اللحظات ، ولكنه فى الأغلب دعى ، وهو قبل هذا بخيل . وكان ذلك كله يسلىنى : يضحكنى تارة ، ويحملنى على التأمل والتفكير تارة أخرى . وكنت من جهة أخرى أحب فى ، أحبه فى خجل ، وأحبه فى رجاء قوى يجعلنى « أبنى آلاف القصور فى أسبانيا » ، وأتخيل لنفسى مستقبلا رائعا مشرق الألوان ، فكنت أعود الى البيت دائما وقد امتلأت نفسى حماسة ونشاطا ..

وقد كنت فى مثل هذه الحالة من الحماسة حين رجعت من درسى الى البيت فى الساعة العاشرة . كنت قد نسيت همى ، واسترسلت فى أحلام فرحة . الا اننى انتفضت فجأة على السلم انتفاضة من لدغته نار ، اذ سمعت صوت بطرس الكسندروفتش الذى يهبط السلم يرن من فوقى . فأتابنى لدى سماع هذا الصوت شعور مزعج .. وعادت ذكرى حوادث البارحة الى نفسى قوية واضحة ، حتى لم أستطع أن أخفى قلقي ، وانخبت له انحناء خفيفة .. لا شك أن وجهى كان فى تلك اللحظة معبرا جدا ، اذ توقف بطرس الكسندروفتش دهشا ، فاحمر وجهى من الانفعال ، وتابعت صعودى وأنا أكاد أركض .. بينما دمدم هو بضع كلمات ورائى ، ثم استأنف هبوطه ..

كنت على وشك أن أبكى من شدة الاضطراب ، وأنا لا أفهم ماذا

اعترائنى ، وظلمت طوال فترة الصباح أنكر نفسى من فرط التغير الذى أصابنى . لا أدرى على أى أمر أعزم ، ولا كيف أخسرج من هذه الدوامة . وأقسمت ألف مرة أن أهدى من روعى ، ثم عاد الخوف ألف مرة يلم بى من جديد . كنت أشعر اننى أبغض زوج الكسندرين ميخائيلوفنا ، وكان ذلك فى الوقت نفسه يسلمنى ليأس شديد ، وشعور بالحق على الناس جميعا ! . لم أبرح غرفتى لحظة واحدة ، حتى اننى لم أذهب الى الكسندرين ميخائيلوفنا . فاذا هى تأتى الى . فما ان ألفت ببصرها على حتى أو شكت أن تصرخ . كنت من فرط الاصفرار بحيث اننى حين نظرت الى وجهى فى المرآة ذعرت ذعرا شديدا . وظلمت الكسندرين ميخائيلوفنا الى جانبى ساعة طويلة تعتنى بى عنايتها بطفلة .

غير ان عنايتها هذه كانت تحزننى ، وكانت مداعبتها تشق على نفسى . كنت من شدة الشعور بالحجل حين أنظر اليها بحيث رجوتها أخيرا أن تدعنى وحدى . فانسجت وهى أشد ما تكون قلقا . وأخيرا انفجر اضطرابى بكاء شديدا . وعند المساء رأيتنى أحسن حالا .

رأيتنى أحسن حالا لأننى قررت أن أمضى الى الكسندرين ميخائيلوفنا أرمنى على ركبتيها وأرد اليها الرسالة التى أدخلت الى نفسى كل هذا الاضطراب ، وأن أعترف لها بكل شئ . . . أردت أن أعترف لها بالعذاب الذى كابده ، بالشكوك التى راودتنى ، وأن أقبلها قبله تحمل كل الحب والقلق الذى أشعر به نحوها . أردت أن أذكر لها عذابى الشديد ، وأن أقول لها اننى ابنتها وصديقتها ، واننى أفتح لها قلبى رجبا واسعا ، وان عليها أن تنظر الى نفسى فتجد فيها العاطفة المشبوبة الراسخة التى أحملها لها .

رباه ! كنت أعلم ، كنت أشعر اننى آخر من يمكن أن تفتح له

قلبي ، ولكن خيّل الىّ اننى أستطيع أن أرد السلام الى قلبها ، بما
يمكن أن أسوقه من كلام رزين معقول • كنت أفهم قلبها - ولو فهمها
غامضا - وكنت كلما تصورت أن من الممكن أن تحمر خجلا منى ، وأن
تخشى حكمى عليها ، أنور ثورة قوية •• يا عزيزتى ، يا عزيزتى
المسكينة ، فيم أنت مدنية ؟ ذلك ما سأقوله لها وأنا أبكى بين قدميها ••
كان الشعور بأنها مظلومة يثيرنى إثارة عنيفة حتى لكأننى مجنونة • والحق
اننى لم أكن أدري ماذا أفعل •• ولم أدرك ذلك الا فيما بعد ، حين
تدخلت مصادفة من المصادفات فأقذتنا كلتينا من الهلاك ، اذ أوقفتنى عند
الخطوة الاولى • وكان الذعر يملككنى أيضا • هل كان يمكن أن ينبعث
الرجاء مرة أخرى فى هذا القلب الموات ، قلب الكسندرين ميخائيلوفنا ؟
•• هل أستطيع أن أنهضها من عثرتها ؟

ولكن اليكم ما وقع : لم يكن قد بقى علىّ الا أن أجتاز غرفتين حتى
أصل الى غرفتها •• فاذا بطرس الكسندروفتش يخرج من باب جانبي ،
ويمر أمامى دون أن يرانى • كان ذاهبا اليها هو الآخر ، فوقفت فى
مكاني مشدوهة ، ذلك انه آخر من كان يحتمل أن أصادفه فى مثل هذه
اللحظة ! وكنت على وشك أن أعود أدراجى ، حين سمعنى حب
الاستطلاع فى مكاني فجأة اذ رأيت يتوقف أمام مرآة ، ليصلح من شعره
ويدندن - يا للدهشة ! - بأغنية ما !

وفى طرفة عين رجعت الى ذاكرتى ذكرى بعيدة من أيام الطفولة ••
سأذكر لكم هذه الذكرى البعيدة ، حتى تفهموا الشعور الذى اجتاحنى :
خلال السنة الاولى التى عشتها فى هذا البيت لفتت نظرى وأثرت
فى نفسى ظاهرة غريبة تعود الى ذاكرتى الآن واضحة جلية •• ظاهرة
لم تكتسب دلالة ومعنى الا فى هذه اللحظة ، ولقد كانت هذه الظاهرة
أصل الكره الذى أشعر به نحو بطرس الكسندروفتش دون أن أجد له

تعليلًا • سبق أن قلت أنني ما شعرت يوما بشيء من الارتياح ازاء هذا الرجل • وسبق أن ذكرت أن تمير وجهه الكالح ، المقطب ، المهموم ، يثبت في نفسى الخوف والقلق • وذكرت أيضا أن الساعات التي قضيتها معه على مائدة الشاي في حجرة الكسندرين ميخائيلوفنا كانت شاقة على نفسى مؤلمة ، ووصفت ما انتابنى من انقباض الصدر حين شهدت - مرتين أو ثلاثا - أزمات عنيفة حزينة قامت بيته وبين زوجته ••

ولقد كان يتفق لى أن أصادفه ، كما أصادفه الآن ، فى هذه الغرفة نفسها ، فى هذه الساعة عينها ، ذاهبا مثلى الى حجرة الكسندرين ميخائيلوفنا ، فكنت أشعر بخجل كالذى يشعر به الاطفال ، فأنزوى فى زاوية كأننى مذبذبة ، ادعوا الله ألا يرانى أبدا ! •• كان يتوقف أحيانا أمام المرأة ، كما يفعل الآن تماما ، فأرتعد عندئذ من شعور لا أستطيع وصفه ولا تحديده • كنت أشعر انه « يصنع » لنفسه وجها ! •• كنت على الأقل أرى ابتسامة واضحة فى محياه قبل أن يقف أمام المرأة ، وكان ذلك يدهشنى كثيرا ، ولا سيما انه كان لا يتسم أبدا أمام الكسندرين ميخائيلوفنا • فما ان يقف أمام المرأة حتى تبدل سحته فجأة ، فاذا شفتاه تكتسيان ، بارادته ، تعيرا مرا صادرا من قلب مقروح ، تعيرا يستحيل اخفاؤه ، يستحيل كبتة ، مهما كان لديه من الرغبة القوية - التى تفوق طاقة الانسان - فى ألا يُظهر من هذا التعبير شيء البتة •• فالعذاب الحليس يفضن الجلين ، ويقطب الحاجبين ، ويصوِّح النظرة من تحت النظارتين !

هكذا كان بطرس الكسندروفتش يستحيل الى شخص آخر فى طرفة عين ! •• وكنت أنا أرتجف خوفا ، وكنت أخشى أن « أفهم » هذا المنظر الذى أرى ، والذى ترك فى نفسى - الى الأبد - شعورا مؤلما ممضا • وكان بعد أن يتأمل نفسه لحظة فى المرأة ، يدلّى رأسه ويتخذ

وضع الانحاء الذى يلازمه متى كان مع زوجته ، ثم يدخل الى الكسندرين
ميخائيلوفنا سائرا على أطراف الاصابع •

هذه الذكرى •• هى التى تعودنى الآن !

كان ، فى ذلك الوقت ، يحسب نفسه وحيدا ، فيقف أمام المرأة ،
كما يفعل الآن • والآن - كما فى ذلك الوقت - لقيته على هذا الحال وأنا
أشعر نحوه بالكراهة والعداوة ، على غير ارادة منى ! •• غير اننى حين
سمعتة يضى (وكان ذلك فى ذاته أمرا لا يمكن أن ينتظر منه !) بلغت
من فرط الدهشة اننى تسمرت فى مكانى لا أستطيع حراكا • كانت حالتى
فى تلك اللحظة شبيهة بحالات طفولتى • كان قلبى متقبضا انقباضا رهيبا
لا أستطيع له وصفا ، فان أعصابى كلها ارتجفت لدى سماع هذا الغناء
الذى لم أكن أتوقعه •• فاذا أنا أنفجر فجأة فى ضحكة عصبية ، بالرغم
منى !

اذ ذاك انطلقت من المغنى المسكين صرخة ، ووثب خطوتين الى وراء ،
بعيدا عن المرأة ، وامتنع وجهه حتى أصبح كالميت ، كأنه معجرم يقبض
عليه متلبسا بالجرم ! •• ونظر الى مشدوها ، ساخطا ، غاضبا غاضبا جنونيا
•• فما زادتنى نظرتة الا كرها له واحتقارا ، وأجبت عليه بمضاعفة
ضحكى دون أن أغض بصرى ! •• ثم مررت الى جانبه وأنا ما زلت
أضحك ، ودخلت الى الكسندرين ميخائيلوفنا • كنت أعرف انه وراء
الباب ، يتردد هل يدخل ، أو لا يدخل ، وقد تسمر فى مكانه من الغضب
والخفية •• وأخذت أرقب ما سيفعل ، فى صبر فارغ مثير : كنت على
شبه يقين من انه لن يدخل ! •• ولم يخطئ ظنى ، فانه لم يأت الا بعد
انقضاء نصف ساعة على ذلك •• وحين دخلت الى الكسندرين ميخائيلوفنا ،
نظرت الى فى شئ من الدهشة ، ولكنها حاولت عبثا أن تفهم منى

ما هنالك ، فانتى لم أجب بكلمة ، لأننى كنت كمن يَحْتَق ! .. وفهمت
هى أخيرا ان أعصابى مضطربة لا أستطيع ضبطها ، فقلقت لذلك أشد
القلق . وحين استطعت أن أهدى من روعى ، أمسكتُ بيدها وقبلتها .
وفى تلك اللحظة فقط فكرت فيما عزمت عليه وشرعت فيه ، فأدركت ان
الفكرة التى راودتنى كان يمكن أن تقتلها ، لولا اننى صادفت زوجها فى
الوقت المناسب !



وحين دخل بطرس الكسندروفتش ، لاحظت أنهما كمن بعث الى
الحياة من جديد ..

واختلستُ نظرةً سريعةً اليه ، فلاحظت انه على ما عهدت فيه من
هيئة كالحة رصينة حزينة . ولكننى أدركت من صفرة وجهه - ومن رجفة
خفيفة فى زاوية شفته - انه لا يخفى اضطرابه الا فى كثير من المشقة
والنماء . وقد حيا الكسندرين ميخائيلوفنا تحية باردة ، ثم جلس صامتا .
كانت يدها ترتجفان حين تناول قدح الشاي . كنت أتوقع انفجارا ، وكان
ذعرى يزداد قوة . الا اننى قررت أن أنسحب ، وأن أترك الكسندرين
ميخائيلوفنا وحدها ، وقد تغير وجهها حين رأت زوجها . لقد كانت هى
الآخرى توجس شيئا غير مألوف !

وأخيرا وقع ما كنت أتوقعه فى كثير من الخوف !

فبينما نحن فى صمت عميق ، رفعتُ بصرى فرأيت نظارتى بطرس
الكسندروفتش تحدقان فىَّ ! .. وكنت لا أنتظر هذا ، فأوشكت أن
أصرخ ، وغضضت عيني ..

ولاحظت الكسندرين ميخائيلوفنا ذلك ..

أما بطرس الكسندروفتش فقال فجأة ، بصوت قاطع خشن :

– ماذا بك ؟ لماذا احمر وجهك ؟

لم أجب ، فقد كان قلبي من شدة الحقدان بحيث لأستطيع أن أبس بحرف •

– ما لها احمرت ؟ ما لها تحمر بلا انقطاع ؟

قال ذلك متجها بالسؤال فى هذه المرة الى الكسندرين ميخائيلوفنا ، وهو يشير الى بيده اشارة وقحة •

وانقطعت أنفاسى من فرط الاستياء ، فأرسلت الى الكسندرين ميخائيلوفنا نظرة متوسلة ، ففهمتني •• واذا ذاك تخرج خداها الشاحبان ، وقالت لى بصوت جازم لم أكن أتوقعه منها :

– اذهبي الى غرفتك • سألق بك بعد قليل ، وسنقضى السهرة معاً

واستأنف بطرس الكسندروفتش يسألنى بصوت أعلى ، كأنه لم يسمع ما قالته امرأته :

– هل سمعت ما أقول ؟ أريد أن أعرف لماذا تحمرين كلما لقيتى •

أجيبى على سؤالى !

فقالت الكسندرين ميخائيلوفنا تجيبه بصوت يهدجه الانفعال :

– أنت تجعلها تحمر ، وتجعلنى أحمر أنا أيضا •

نظرت الى الكسندرين ميخائيلوفنا فى كثير من الدهشة ، والحيرة ، والتعجب ••

– أنا ؟ أنا أجعلك تحمرين ؟ أنا ؟

قالها بطرس الكسندروفتش ، وقد ظهرت عليه الدهشة هو الآخر ،
والح على « أنا » .. ثم أردف :

- تحمرين أنت بسببي أنا ؟ ولكن كيف يمكن أن أجعلك
تحمرين ، الأولى أن تجعليني أنت أحمر ، ما رأيك ؟

كان معنى هذه العبارة واضحاً جداً فى ذهنى ، وقد قالها بطرس
الكسندروفتش بلمهجة قاسية ساخرة ، فاذا أنا أطلق من صدرى صرخة ،
وأهرع نحو الكسندرين ميخائيلوفنا ، فأرى الدهشة ، والعذاب ، واللوم ،
والذعر ، تشع جميعاً من وجهها الذى امتنع لونه حتى صار كوجوه
الموتى ! .. وأرسلت الى بطرس الكسندروفتش إشارة توسل .. وكان
كأنما عاد اليه رشده ، لكن الغضب الذى أثارته كلماته لم يكن قد انقضى
بعد .. وأدرك مع ذلك ضراعتى الخرساء فاضطرب . كان واضحاً من
اشارتى أننى فهمت كلماته كل الفهم ، واننى اذن على علم ببعض الأمور
التي ظلت حتى ذلك الحين سرا !

- آيت ، اذهبي الى غرفتك ، اننى فى حاجة ملحة لأن أتحدث مع
بطرس الكسندروفتش .

قالتها الكسندرين ميخائيلوفنا بصوت ضعيف لكنه جازم ، وقد
نهضت عن كرسيها .

كانت تبدو هادئة ، الا أن هدوءها أخافنى أكثر من أى انفعال
ممكن ، ولبت فى مكانى لا أستطيع حراكاً ، كأننى لم أسمع ما قالت .
كنت أحاول بكل ما أوتيت من قوة أن أقرأ على صفحة وجهها ما دار
فجأة فى نفسها ، وكان يلوح لى أنها لم تفهم اشارتى ولا ضراعتى ..
وابتدرنى بطرس الكسندروفتش وهو يمسك ذراعى ويرينى
امرأته :

- كان لك ما أردت يا آمنة !

رباه ! لم أر فى حياتى يأسا كالذى أراه الآن فى هذا الوجه المتشجج ، فى هذا الوجه الميت ! .. وتناول بطرس الكسندروفتش يدي يدفعنى الى خارج الغرفة ، بينما كنت أنظر اليهما كليهما مرة أخيرة . كانت الكسندرين ميخائيلوفنا واقفة ، مستدة الى المدفأة ، ممسكة برأسها بين يديها . كان وضعها كله ينبىء عن ألم لا سبيل الى وصفه . فأمسكت بيد بطرس الكسندروفتش وضغطت عليها بقوة محمومة ، وغمغمت بصوت مقطع متهدج أقول :

- حبا بالله ، حبا بالله ، ترفق بها ..

فأجاب وهو يلفنى بنظرة غريبة :

- لا تخافى ، لا تخافى ، ما من خطر . هى نوبة ثم تنقضى .

اذهبي . اذهبي .

فلما وصلت الى غرفتى ، ارتعيت على الديوان ، ووجهى بين ذراعى . ولبثت على هذه الحال ثلاث ساعات طوال فى جحيم حقيقى . ثم لم أستطع صبرا فأرسلت أسأل هل تسمح لى الكسندرين ميخائيلوفنا بالمجيء اليها ؟ .. وجاءتنى مدام ليوتار بالجواب : لقد طلب اليها بطرس الكسندروفتش أن تبلغنى أن النوبة قد انقضت ، وأن الخطر قد زال ، غير أن الكسندرين ميخائيلوفنا فى حاجة الى الراحة . ولبثت حتى الساعة الثالثة من الصباح لا أزيد على أن أذهب وأجىء فى غرفتى ، من شدة شعورى بحرج وضعى . ومع ذلك كنت أتخفف من قلقى مرعدة اننى المذنب الأولى . ثم نمت أنتظر الغد بفارغ الصبر ..

لكننى لاحظت على الكسندرين ميخائيلوفنا فى الغد شيئا من الفتور

نحوى ، فأدهشنى ذلك وأحزنى • اعتقدت فى أول الامر ان هذه المرأة ذات القلب النليل الطاهر يؤلمها أن ترى نفسها معى بعد أن شهدت أزمة البارحة على غير ارادة منى ، وكنت أعلم انها قد تحمر خجلا كطفلة ، وأن تسألنى ، كطفلة أيضا ، أن أغفر لها ذلك المشهد الذى ربما ساءنى • ولكن سرعان ما لاحظت أن أمرا آخر يسيطر على تفكيرها ، لا تستطيع من سذاجتها اخفاه • فكانت تارة تحينى بلهجة جافة باردة ، وتارة تقول كلاما ذا معنيين ، وتارة تستعيد لطفها وتداعبنى كأنها تأسف فجأة على ما بدر منها من قسوة ، قسوة لا يمكن أن تكون فى قلبها • وكانت كلماتها فى هذه الحالة الاخيرة تحتفظ ، على عذوبتها وهدوئها ، برنة من عتب • وأخيرا سألتها صراحة عما بها ، وهل تريد أن تقول لى شيئا بعينه ، فhezها سؤالى العنيف بعض الشيء ، الا أنها لم تلبث أن رفعت عينها الواسعتين الرقيقتين ، ونظرت الى تقول فى ابتسامة عذبة :

- ليس بى شيء ، يا نيتوتشكا ، الا أنك تعرفين أننى اضطرب حين يوجه الى سؤال مباغت • وهذا ما فعلته الآن • • أؤكد لك ذلك • • ولكن اسمعى يا بنيتى وصارحينى بالحقيقة : هل فى قلبك شيء يمكن أن يجعلك تضطربين هكذا اذا سئلت سؤالاً مباغتا لا تتوقعينه ؟

- كلا •

قلت ذلك وأنا أنظر اليها دون مواربة •

- حسنا جدا • لو تعلمين يا عزيزتى كم أشكر لك هذا الجواب الجميل • • وليس معنى هذا اننى أستطيع أن أظن فيك السوء ، أبدا ، اننى لا أسمح لنفسى بفكرة كهذه • ولكن افهمى : حين ضمنتك الى بيتى كنت طفلة صغيرة ، وأنت الآن فى السابعة عشرة من عمرك ، وأنا الان مريضة ، فالطفلة الآن هى أنا ، وأنا التى يجب أن يُعتنى بها • لم أستطع

أن أكون أمك كما كنت أحب أن أكون ، على أن الحب ليس هو
ما أعوزني ، ولئن كنت قلقة عليك الآن ، فلست أنت المسئولة عن ذلك ،
وانما هي خطيئتي . فاغفري لي السؤال الذي طرحته عليك . واغفري لي
أيضا أنتى لم أف بكل الوعود التي قطعتها لأبى حين ضمنتك الى هذا
البيت ؟ وان هذا أيضا ليقظنى كثيرا ؛ وكثيرا ما عذبنى ، يا عزيزتى .

ارتيميت على عنقها باكية . ثم قلت وأنا أغرق يديها بدموعى :

- ليباركك الله ، ليباركك الله ، جزاء ما صنعت فى سبيلى . لاتكلمى
هكذا ، انك تهصرين قلبى هصرا . لقد كنت لى أكثر من أم . نعم ، انتى
أسأل الله أن يجزيكما خيرا عن كل ما صنعتما ، أنت والأمير ، من أجلى ،
أنا اليتيمة البائسة . آه ! أيتها الصديقة العزيزة ، أيتها الصديقة الرقيقة
اللطيفة !

- كفى يا نيتوتشكا ، كفى ! قبلينى قبله أعنف ، قبله أقوى . هل
تريدين أن أقول لك ؟ انتى أشعر أن قبلتك هذه هى الأخيرة ، لا أدرى
من أين يأتينى هذا الهاجس !

فاحتججت أقول ، وأنا أنتحب كما ينتحب الاطفال :

- كلا . كلا . لا تقولى هذا . ستعيشين أياما سعيدة كثيرة ..
ستعيشين أياما جميلة . صديقتى . سنكون سعيدتين .

- شكرا ، شكرا لك على هذا الحب كله . ليس من حولى الآن
ناس كثيرون .. لقد هجرونى .

- من هم الذين هجروك ؟ من هم هؤلاء الناس ؟

- كان من حولى فى الماضى أشخاص آخرون . الا أنهم هجرونى

جميعا • لقد تبددوا كلهم كما يتبدد السراب • وانتظرتهم طويلا منذ ذلك الحين • • لم أفعل شيئا غير الانتظار ، طوال حياتي كلها • • ليباركهم الله ! هل ترين يا نيتوتشكا ؟ ان الخريف يتقدم ، وقرى يتساقط الثلج ، وسأمت أنا عند أول مرة يهطل فيها الثلج • نعم ، وان هذا ليحزن قلبي • وداعا •

كان وجهها شاحبا نحيفا ، وكان على كل خد من خديها بقعة حمراء ملتهبة ، وكانت شفتاها ترتجفان ، وقد جففتها الحمى الداخلية •

واقتربت من البيانو تعزف بعض الألحان • فاذا بأحد الأوتار يقطع فجأة • فيدوى من انقطاعه صوت مباغت ، امتد ثم انطفأ فى ارتجاف •

قالت بصوت ملهم وهى تشير الى البيانو :

— هل تسمعين يا نيتوتشكا ؟ هل تسمعين ؟ لقد كان هذا الوتر مشدودا أكثر مما ينبغى أن يشد ، فلم يستطع أن يحتمل فمات • لقد سمعت كيف توجع الصوت وهو يموت !

كانت تتكلم فى غناء • وكان الالم الأصم الذى يضطرم فى نفسها يشع فى وجهها ، وكانت عيناها مغروقتين بالدموع ، ولكن هيا يا نيتوتشكا ، كفى كلاما فى هذا الموضوع ، كفى يا عزيزتى ، كفى • هيا احضرى الاولاد •

وأثيت بالطفلين • • ولاح عليها الارتياح وهى تنظر اليهما ، وصرفتاهما بعد ربع ساعة •

— حين أموت ، لن تتركيهما ، يا نيتوتشكا ، أليس كذلك ؟

قالت ذلك بصوت خافت ، كأنها تخشى أن يسمعها أحد غيرى !

— اسكنى ، اسكنى ، انك تقتلينى قتلا بهذا الكلام !

ذلك كل ما استطعت أن أغمغم به •

فقلت وهى تبسم بعد لحظة من صمت :

- اننى أمزح • هل صدقت قولى ؟ ألا تعرفين اننى فى بعض الاحيان
أهرف فى الكلام هرفا • اننى الآن طفلة ، طفلة ، واننى فى حاجة الى أن
'يففر لى' •

وألت على نظرة خجلى ، كأنها تخشى أن تقول أكثر مما ينبغى أن
تقول •

وانظرت ••

وأخيرا قالت وقد أغضت بصرها ، وتضرج وجهها فجأة بحمرة
خفيفة ، ولكن بصوت خافت لا يكاد يُسمع :

- حاذرى أن تخيفيه •

- من ؟

كذلك سألتها فى دهشة ظاهرة ، فقالت :

- زوجى • لا شك أنك ستقنين عليه كل شيء •

وازدادت دهشتى قوة ، فهنفت أسألها :

- ولكن لماذا ؟ لماذا ؟

- حسنا • قد لا تذكرين له شيئا على كل حال •

قالت ذلك وهى تحاول جهدا أن تنظر الى نظرة مأكرة ، الا أن
ابتسامة شفتيها احتفظت بصراحتها ، وازدادت البقع الحمر فى وجتيها
التهابا • وأردفت تقول :

- كفى كلاما فى هذا الموضوع • كنت أمزح • هذا كل ما فى الأمر •

وكان قلبى يزداد انقباضا •

وأردفت تقول بلهجة جدية ، ولكنها لهجة عجيبة •

- اسمعى مع ذلك • انك ستحيينهما بعد موتى ، اليس كذلك ؟
ستحيينهما كأنهما ابناك ، أليس كذلك ؟ تذكرى ما أقول ، وتذكرى اننى
أحييتك أنا الاخرى كأنك ابنتى ••

فهمت ، دون أن أعرف ماذا أقول ، وأنا ألهم وأختنق بدموعى :

- نعم ، نعم •

وتناولت "يدى بسرعة ، وطبعت عليها قبلة محرقة قبل أن أستطيع
سحبها ، فهزنى ذلك هزا قويا حتى لم أستطع أن أنبس بكلمة •

وتساءلت فجأة : « ترى ماذا بها ؟ فيم تفكر ؟ ما الذى وقع بينهما
البارحة ؟ » •

وبعد دقيقة شكت من أنها متعبة ، وقالت :

- اننى مريضة منذ مدة طويلة ، غير اننى لم أشأ أن أخيفكما لأنكما
تجبانى كلاكما ، أليس كذلك ؟ والآن هيا ، الى اللقاء يا نيتوتشكا ، دعينى
الآن ، ولكن عودى فى المساء ، هل تريدان ؟ ستأتين ، أليس كذلك ؟

ووعدها بأن أعود فى المساء • وكنت سعيدة بالرجوع الى غرفتى ،
فاننى لم أعد أحمّل أكثر مما احتملت •

صرخت وأنا أشهق : « مسكينة أيتها البائسة ! أى شك يستحقك

الى القبر • آية لوعة جديدة تسممك وتعص قلبك دون أن تجرئى على ان تقولى عنها كلمة واحدة ؟ رياه ! هذا العذاب الطويل الذى اعرفه الان كله ، هذه الحياة القائمة التى لم تعرف اشراق النور ، هذا الحب الحجول الذى لا يطلب شيئا ولا يريد شيئا ، هذا الذى تجفله الشكوى ويخيفه اللوم بلا انقطاع ، ما كل هذا ؟ • • • وهذه المرأة المعزقة التى ترتعد كأنها مجرمة ، كيف تستطيع أن تصنع لنفسها ألما جديدا وتخضع له وتموت منه ؟ •

• • •

وفى المساء ، عند الشفق ، انتهزت فرصة غياب اوفروف - سكرتير بطرس الكسندروفتش - فدخلت الى المكتبة وفتحت احدى خزائنها واخذت انبشها لاجد كتابا أقرؤه بصوت عال على مسمع من الكسندرين ميخائيلوفنا • كنت أحب أن أصرفها عن خواطرها السود ، فكنت أبحث عن شيء سهل مفرح • ولبثت أبحث مدة طويلة وأنا ذاهلة شاردة اللب • وتكاثف الشفق ، وأخذ الظلام ينتشر شيئا فشيئا ، وأخذ غمى يزداد قوة وعمقا • ووقع بين يدي مرة أخرى ذلك الكتاب الذى وجسدت فيه الرسالة ، ورأيت آثار شكل الرسالة على الموضع الذى كان يشتمل عليها من الكتاب ، وكنت أحتفظ بهذه الرسالة فى قميصي • • • هذه الرسالة التى حملت الى الصقيع ، والمجهول ، والسر ، والتى كانت تؤثر فى نفسى حتى الآن تأثيرا يندر بالشئ ! • • • وساءلت نفسى : « ترى ما الذى سيقع لنا ؟ ان الركن الدافئ الذى كنت ألتجئ اليه سينهدم • • • ان النفس الصافية الراقية التى رعت صباى وسهرت عليه ستهجرنى • ما الذى ينتظرنى ؟ » كنت كأنما نسيت ماضى ، رغم أنه عزيز على نفسى ، وأصبحت أفكر أكثر ما أفكر فى المستقبل الخطير الذى يملؤه السر والمجهول • انتهى أستطيع

ان اعيش تلك اللحظة بكاملها مرة أخرى ، لأنها منقوشة في ذاكرتي
نقشاً عميقاً •

كنت أمسك بين يديّ الكتاب والرسالة ، وكنت غارقة في دموعي .
وفجأة انتفضت مذعورة • ان صسوتا أعرفه كل المعرفة يرون فوقي •
واحسست في الوقت نفسه بان الرسالة تنتزع من بين يدي • فصرخت
واتنصت واقفة ، فرأيت بطرس الكسندروفتش أمامي ! • • وامسكني
من يدي بقبضة قوية وسمرني في مكاني ، بينما مد الرسالة باليد الأخرى
نحو النور محاولاً أن يقرأها • وصرخت • كنت أفضل أن أموت على
أن أدع له الرسالة ! • • ورأيت من بسسته الطافرة انه توصل الى قراءة
سطورها الاولى • طاش لبي • • وما هي الا دقيقة واحدة حتى ارتعيت
عليه وأنا لا أكاد أعي ما أفعل فاتزعت الرسالة من بين يديه • وقد تم
ذلك بسرعة عظيمة حتى انني لا أفهم الى الآن كيف عادت الرسالة الى
يدي • لكنني وقد لاحظت انه يهم أن ينتزع مني الرسالة مرة ثانية ،
دسستها بسرعة في قميصي ووثبت ثلاث خطوات الى الوراء !

ونظر كل منا الى الآخر لحظة في صمت • وكنت ما أزال أرتجف
خوفاً ، وبادر هو الى قطع الصمت ، وكانت شفاته المرتجفتان قد ازرقتا من
شدة الغضب ، فقال في صوت أصم :

— لا تضطريني الى استعمال القوة • اعطيني هذه الرسالة بارادتك !

ان الشهور بالمار والامتاخض قد قلب نفسي رأساً على عقب ، ان تلك
الاهانة الفظة قد خنقت أنفاسي • فانهمرت سيول من دموع محرقة على
خدي المتهين •

ولبت مدة طويلة لا أستطيع من هول الاضطراب والارتجاف أن
أبس بكلمة • • فقال وهو يتقدم مني خطوتين :

– هل تسمعين ؟

فصرخت وأنا أبتعد عنه :

– دعنى ، دعنى • ان ما تفعله شر • ان ما تفعله لحقير خسيس •
انك تنسى نفسك ! •• دعنى أمضى •

– ماذا ؟ ماذا تقولين ؟ آأنت تجرئين على مخاطبتى بهذه اللهجة ••
بعد أن •• اننى آمرك بأن تعطينى هذه الرسالة ، هل تسمعين ؟

ثم تقدم منى خطوة أخرى ، الا انه وقد لمح فى عينى قوة الاصرار
والعناد ، توقف متحيرا • وقال أخيرا باللهجة جافة ، تنطوى على الاصرار
وان يكن قد جاهد لكبح جماح نفسه :

– حسنا ! ندع هذا الآن الى حينه ومجله • ولكن قولى لى أولا من
ذا الذى أدخلك المكتبة ؟ ولماذا أرى الخزانة مفتوحة ؟ من أين أخذت
المفتاح ؟

قال ذلك بعد أن أجال بصره من حوله •• فابترت له :

– لن أجيب على سؤالك • ولا أستطيع أن أتناقش معك • دعنى
أمضى • دعنى !

واقتربت من الباب • فقال وهو يمسكنى من ذراعى :

– لا • لن تخرجى هكذا !

وانترعت ذراعى منه دون أن أقول كلمة واحدة ، وتقدمت خطوة
أخرى نحو الباب :

– اعلمى اننى لا أسمح لك بأن تتلقى فى بيتى رسائل غرام من
عشاقك !

فما ان سمعت هذا الكلام حتى صرخت مذعورة ، ورميته بنظرات
مجنونة •

- لذلك ••

- كفى •• لا أسمع لك بأن تخاطبني هكذا •• يا رب ، يا رب !

- هيه ؟ ماذا ؟ تهددينني ؟

صمعت من هول ما اتابني من ذعر ويأس • ان هذا المشهد قد بلغ
من القسوة حدا لا أستطيع معه أن أفهم ولا أن أعى • فنظرت الى بطرس
الكسندروففتس أتوسل اليه بعيني أن يسكت • كنت مستعدة لأن أغفر له
ظنونه شريطة أن يتوقف عن الكلام • فحذق فيّ وقد لاح في وجهه تردد
ظاهر •

همست مذعورة :

- لا تخرجني عن طوري !

فهتف أخيرا كأنما هو قد عزم أمرا :

- كلا ، لن ينتهي الامر هكذا •

ثم أضاف وهو يتسم ابتسامة غريبة :

- أعترف لك ان نظرتك كادت تردني عن ظنوني ، الا ان الاشياء
تحدث من تلقاء نفسها ، واأسفاه • لقد استطعت أن أقرأ بداية هذه
الرسالة • انها رسالة غرامية • لن تستطيعي أن تحوليني عن اقتناعي هذا •
كلا ، اتزعي هذه الفكرة من رأسك • ولئن ترددت دقيقة أو بعض دقيقة
فهذا لا يزيد على أن يدل على اني يجب أن أضيف الى مزاياك الرائعة
مزية أخرى هي القدرة على الكذب في كثير من البراعة •• لذلك
أكرر ••

وكان وجهه وهو يتكلم يزداد نضوحا بالبغض والكراهة • كان ممتنع اللون ، وكانت شفاته المرتجفتان تكشران بقوة كبيرة حتى انه لم يستطع أن يلفظ الكلمات الاخيرة الا فى كثير من الغناء •

كان الظلام قد خيم ، وكنت اشعر اننى وحدى تحت رحمة هذا الرجل القادر على اهانة امرأة • ثم ان الدلائل كلها كانت تديننى ، ومع ذلك كنت آتساءل عن غضبه هذا ما مصدره وما سببه ، رغم ان الشعور بالعار والقلق كان يحطمنى تحطيمًا • وهرعت كالمجنونة دون أن أجيب على كلامه ، فخرجت من المكتبة ، ولم يشب الى رشدى الا على باب الكسندرين ميخائيلوفنا ، فلما هممت أن أدخل عليها سمعت ورائى وقع خطوات الكسندروفتش ، فتسمرت فى مكانى كأن صاعقة وقعت على رأسى •

تساءلت فى سرعة البرق : « ترى ما الذى سيحدث ؟ ان كل شيء أفضل من هذه الضربة الاخيرة التى قد تتلقاها •• »

وتراجعت بسرعة ، ولكن الألوان كان قد فات ، فما هو ذا الى جانبي • همست وأنا أمسك بذراعه :

– رحمة بها • نذهب أين تشاء • لكن لا ندخل الى هنا • أعود الى المكتبة أو الى أى مكان آخر ، الى أى مكان تشاء • والا قتلتها !

فأجاب وهو يبعدنى عنه :

– أنت التى تقتلينها •

وتبدد من قلبى كل رجاء • شعرت ان ما يريد انما هو أن يقص على الكسندرين ميخائيلوفنا كل ما حدث •

فقلت وأنا أصدّه بكل ما أوتيت من قوة :

— حيا بالله ، ارحمها ••

ولكن فى هذه اللحظة فُتِح الباب وظهرت الكسندرين ميخائيلوفنا
• أمانا •

نظرتُ الينا فى دهشة ، وكان وجهها ممتعا أكثر من امتقاعه فى أى
وقت مضى ، وكانت لا تكاد تقوى على الوقوف على ساقيها ، وكان واضحا
انها وقد سمعت أصواتنا بذلت جهدا كبيرا للتحامل على نفسها •

سألنا وهى تنظر الينا فى غير قليل من الدهشة :
— ماذا هنالك ؟ فيم كنتما تتكلمان ؟

وخيم الصمت بضع لحظات ، وازداد وجهها امتقاعا ، فارتيمت عليها
وعانقتها وأدخلتها الى مخدعها ، ولحق بى بطرس الكسندروفتش ، ولبثت
أعانق الكسندرين ميخائيلوفنا فى قوة وعنف وقد أغرقت وجهى فى
صدرها الذى يخفق خفقانا عنيفا •

وسألت الكسندرين ميخائيلوفنا مرة أخرى :

— ماذا بك ؟ ماذا بكما كليكما ؟

— اسألى الآسة • لقد دافعت عنها أمس •

قال بطرس الكسندروفتش ذلك ثم ارتعى على أحد المقاعد فى ثقل
وهدوء ، فرددت الكسندرين ميخائيلوفنا تقول وقد لاحت على وجهها
خشية غريبة :

— يا الهى ! ماذا وقع ؟ انك مضطرب ، وهى خائفة • انها تبكى •
قولى لى يا آيت ، ماذا كان بينكما ؟

فقال بطرس الكسندروفتش وقد اقترب منى وأمسك بكتفى وأبعدنى
عن امرأته :

– كلا ، دعينى أتكلم قبلها •

ثم أضاف وهو يضمنى فى وسط الغرفة :

– ابقى هنا ، سأحاكمك أمام تلك التى كانت لك أما !

وتوجه الى الكسندرين ميخائيلوفنا فأجلسها على مقعد وهو يقول
لها :

– وانت ، هدئى روعك ، يؤسفنى اننى لا أستطيع أن أجيبك شرح
هذه المسألة البشعة ، ولكن لا بد من ذلك •

فرددت الكسندرين ميخائيلوفنا وهى تتقل نظرتها القلقة الرهية
بين زوجها وبينى :

– رباه ! ماذا هنالك ؟

وأخذت أقلب يدى وأفركما فى انتظار الدقيقة الرهية • ان المرء
لا يستطيع أن يأمل من هذا الرجل أى شعور بالرحمة •

واستأنف بطرس الكسندروفتش يقول :

– سأقول لك ذلك بايجاز ، والذى أريده هو أن تحكمى عليها •
لقد كنت دائما تتحزين لها وتدافعين عنها – لا أدرى لماذا ، فتلك نزوة من
نزواتك – حتى لقد ناقشتنى بالأمس فى شأنها واستبسلت فى الدفاع
عنها •• ولا أدرى الآن كيف أشرح لك الأمر • اننى لأحمر خجلا حين
أفكر فيه •• الخلاصة انك قد دافعت عنها واعرقتنى باللوم واتهمتنى بقسوة
لا محل لها ، حتى لقد ألمعت الى عاطفة أخرى لعلها هى التى تدفعنى الى

هذه القسوة التي لا محل لها • انك • • ولكننى أتساءل لماذا لا أتوصل
الى خنق حمرة الحجل هذه التي تصعد الى وجهى حين أفكر فيما ذهبت
اليه من افتراضات • لا أدري لماذا لا أستطيع أن أتكلم عن ذلك بهدوء
وصراحة أمامها • • الخلاصة انك • •

فقاطعت الكسندرين ميخائيلوفنا وقد تملكها الانفعال والحمى والشعور
بالحجل وقالت :

- كلا لن تفعل ، لن تقول ذلك ، ارحمها ، فما قلته بالأمس كان
من بنات خيالى أنا ، أما الآن فلم يبق فى نفسى ظل من شك • اغفر لى
تلك الظنون التي راودتنى • نعم اغفرها لى ، اننى مريضة ، ويجب أن
يُغفر لى ، ويجب خاصة أن لا يقال لها شيء من ذلك البتة •

ثم قالت وهى تتجه نحوى :

- آيت آيت ، اذهبى من هنا بسرعة ، لقد أراد أن يعزح ، أنا
المذنبه ، وتلك مزحة فى غير محلها •

واستمر بطرس الكسندروفتش يقول دون أن يرحمها ودون أن
يهتز لضراعاتها :

- الخلاصة : أنك كنت غيرة منها !

فانطلقت من صدرها صرخة وامتقع لونها امتقاعا شديدا وتهاكت
ساقاها ، فتهاقت على أحد المقاعد ، ودمدمت أخيرا بصوت لا يكاد يسمع :

- سامحك الله ، سامحبنى يا نيتوتشكا ، انه ذنبى • اننى مريضة •
اننى مريضة ، اننى • •

فصرخت أنا كالمجنونة ، وقد فهمت أخيرا لماذا يريد أن يحكم على
أمام امرأته :

— هذا ظلم • هذا عار • هذا جبن • هذه حقارة • هذه خسة •

انك ♦♦

فصرخت الكسندرين ميخائيلوفنا وهي تأخذ يدي :

— آنيث !

فهتف بطرس الكسندروفتش يقول وهو يقترب منا مضطربا اضطرابا
لا يوصف :

— هذه مهزلة ، لا أكرر ولا أقل !

واستمر يقول وهو يفرز في امرأته نظرة تفيض كرها وحقدا :

— هذه مهزلة ، وموضوع هذه المهزلة أنت ! ♦♦ أما نحن (قال
ذلك لاهنا وهو يشير الى بيده) فتقي اننا لا نخشى شيئا من مثل هذا
الايضاح • نقي اننا لم نعد من الكمال بحيث نمتعض أو نحمر أو نسد
آذاننا حين نتحدث عن أمور من هذا النوع • معذرة ، اني أتكلم بلا لف
ولا دوران ، وربما كان كلامي خشنا ولكن لا بد من ذلك • هل أنت
واثقة يا سيدتي من طهارة هذه ♦♦ البنت !

فغمغت الكسندرين ميخائيلوفنا كالميتة من شدة الخوف تقول :

— رباه ! ماذا بك ؟

فقاطعها بطرس الكسندروفتش يقول بلهجة متوعدة :

— لا تستعجلي ألفاظا جوفاء • أرجوك • انني لا أحب ذلك • نحن
الآن أمام حادث لا تعقيد فيه ، حادث بسيط جدا ، مبتذل الى آخر حدود
الابتذال • انني أسأل عن سلوكها • هل تعلمين أن ♦♦

ولكننى لم أدعه يتابع كلامه ، بل أمسكت بذراعه وجبرته بقوة
وعنف الى ركن من أركان الفرقة - فلو قد انقضت على ذلك ثابته أخرى
لأمكن أن يضع كل شيء - وهمست فى حماسة أقول لها :

- لا تتكلم عن الرسالة ، والا قتلته على الفور • ان اتهمى اتهام
لها أيضا • انها لا تستطيع أن تحكم على لآنى أعرف كل شيء •• كل
شيء •• هل تسمع ؟

فرماني بنظرة ثابتة وحشية وأخذ يضحك ، وكان الدم قد صعد
الى وجهه ، فكررت أقول :

- أعلم كل شيء ، كل شيء ••

فظهرت عليه علائم التردد وطاف فى شقيقه سؤال حزمته •
والتفت نحو الكسندرين ميخائيلوفنا بسرعة فرأيتها تنظر الينا قلقه
وقد ظهر فى محياها الوجمل والخجل • قلت بصوت عال :

- أنا وحدى المذنبه • اننى أخدعك منذ أربع سنين ! •• لقد أخذت
مفتاح المكتبة وكنت أمضى اليها فى كل يوم منذ أربع سنين آخذ كتباً ،
وقد فاجأنى بطرس الكسندروفتش فوجد بين يدي كتابا ينبى ألا أقرأه •
وهو يخاف على ويتصور الخطر كبيراً !

ثم أردفت أقول بحماسة ، وقد لاحظت انه يشتم :

- على اننى لا أحاول أن أبرر ذنبى • أنا وحدى المذنبه • لقد كان
الاعراء أقوى منى • فلما وقعت فى هذه الخطيئة لم أجرؤ على الاعتراف
بها •• هذا كل شيء • نعم هذا كل ما كان بيننا •

- أوه ما أبرعك !

همس بطرس الكسندروفتش بذلك فى أذنى •

وكانت الكسندرين ميخائيلوفنا تصفى الى باتتياه عميق ، ولكن
وجهها كله كان يعبر عن الارتباب فيما أقول • كانت تتقل بصرها بين
زوجها وبني بلا انقطاع • وخيم الصمت • كنت لا أستطع أن أتفس
الا فى كثير من العاء • ومالت الكسندرين ميخائيلوفنا على صدرها وغطت
عينها بيديها كأنها تريد أن تفكر وأن تزن كل كلمة من الكلمات التى
قلتها • ورفعت أخيرا رأسها وحدقت فى قائلة :

– نيتوتشكا ، صغيرتى ، اننى أعلم أنك لا تستطيعين الكذب • هل
هذا كل ما حدث ؟ تماما ؟

فأجبت :

– نعم • هذا كل ما حدث •

فأتجهت الى زوجها تسأله :

– هل هذا كل ما حدث ؟

فهمتم بالرغم منه قائلا :

– نعم • هذا كل ما حدث ، كله •

– هل تقسمين على ذلك يا نيتوتشكا ؟

فأجبت بلا تردد :

– نعم • أقسم •

الا اننى لم أستطع أن أحتمل نظرة بطرس الكسندروفتش ولا
الابتسامة التى ارتسمت على فمه حين سمعنى أقسم ، فاحمر وجهى فجأة
•• ولم يخف ذلك على المسكينة الكسندرين ميخائيلوفنا ، فانطبعت على
وجهها علائم قلق ساحق فظيع !

وقالت فى حزن :

- كفى • أصدقكما • لا أستطيع الا أن أصدقكما •

واستأنف بطرس الكسندروفتش يقول :

- ان الاعتراف كافٍ فيما أرى • هل سمعت ما قالت ؟ فما رأيك

اذن ؟

لم تجب الكسندرين ميخائيلوفنا • وكان المشهد يزداد قسوة على

نفسى •

وصرخ بطرس الكسندروفتش قائلاً :

- سأفتش غدا جميع الكتب ، لا أدري ماذا عندنا منها فى المكتبة ،

ثم ...

فقاطعته الكسندرين ميخائيلوفنا سائلة :

- أى كتاب كانت تقرأ ؟

فاتجه الى يقول ، وهو يتسهم ابتسامة واضحة :

- أى كتاب كنت تقرئين ؟ انك أقدر منى على توضيح هذا الامر •

ولم أستطع أن أجيب من شدة الانفعال ، واحمرت الكسندرين

ميخائيلوفنا وغضت بصرها ، وأعقب ذلك صمت طويل .. فأخذ بطرس

الكسندروفتش يذهب ويحجى فى طول الغرفة وعرضها وقد بدا على وجهه

الانزعاج •

وأخيرا قالت الكسندرين ميخائيلوفنا بلهجة خجولة :

- انتى أجهل ما حدث بينكما ••

ثم أردفت تقول وهي تحاول أن تشدد على كلماتها وقد أوشكت أن تنفجر بتأثير تلك النظرة الثابتة التي كان يرميها بها زوجها - وكانت هي تحاول أن تتحاشاها - أردفت تقول :

- إذا كان هذا كل ما حدث فأنسى لا أفهم هذا الغم الذي يسيطر علينا نحن الثلاثة • ان الذي ينبغي أن يلام انما هو أنا ، أنا وحدي ، وذلك ما يعذبني • لقد أهملت تربيتها ويجب أن أتحمل تبعه ذلك ، وعلى نيتوشكا أن تسامحني • أما أنا فلا أشعر أن من حقي أن أحكم عليها • واني لأتساءل مرة أخرى : فيم هذا الغم واليأس ؟ ان الخطر قد انقضى • انظر اليها (قالت ذلك وقد ازدادت حماسها وهي ترمي زوجها بنظرة فاحصة) أنظر اليها • هل ترك هذا الطيش من أثر فيها ؟ هل تغيرت ابنتي الصغيرة تغيرا كبيرا ؟ هل يمكن أن أجهل ما يشتمل عليه قلبها الطاهر من نبل ، وما يملكه رأسها الصغير من ذكاء ؟ (قالت ذلك وهي تجذبني اليها بحركة ملاطفة) • ان لها روحا صافية كالنهار ، وضميما لا يمكن أن يخطئ • • كفى يا عزيزي ، كفى • لا شك أنه قد اندس في كرتنا المشترك عنصر جديد • لعل ظلا من عداوة قد مسنا لحظة ما ، ولكننا سنطرد هذا الظل بالحلب وحسن التفاهم • سنطرد جميع شكوكنا • ربما كان هنالك حتى الآن أشياء كثيرة لم نوضحها فيما بيننا ، وأنا المسئولة الأولى عن ذلك • أنا المسئولة الأولى لأنني أول من خبأت نفسي عنكما ولأنني أول من سمحت لنوع من الشك السخيف بأن يثبت في نفسي ، وهذا كله يرجع الى رأسي البائس المريض • ولكن • • ولكن اذا نحن تصارحنا فلا بد أن تسامحاني ، لأن ما دار في خلدي من ظنون ليس فيه شر كبير على كل حال •

ونظرت مرة أخرى الى زوجها وقد احمر وجهها ، وانتظرت قلقة ما سيجيب به • وكانت ابتسامته تزداد وضوحا أثناء استماعه الى كلامها •

انقطع عن السير وتسمر أمام امرأته وقد عقد ذراعيه وراء ظهره • كان كأنه سرّ برؤية الاضطراب الذى يراه على وجهها • وزداد اضطرابها أمام هذه النظرة التى يرميها بها • وانتظر قليلا كأنه يريد أن يتبع لها ان تتابع حديثها • فتضاعف اضطراب الكسندرين ميخائيلوفنا • وأخيرا قطع هذا الصمت الثقيل المؤلم وهتف فى ضحكة ساخرة ، مرة ، متطولة ، يقول :

- اننى أرى لحالك أيتها المرأة البائسة •

ثم كف عن الضحك وتابع كلامه بلهجة وقورة كالحلّة :

- لقد اضطلعت بدور يفوق ما تملكين من قوى • ماذا كنت تريد من ذلك ؟ كنت تريد أن تحملىنى على الاجابة ، أن تفرقنى بشكوك جديدة ، أو على الأصح بشكوك قديمة لا تستطيع كلماتك أن تخفيها • ان معنى كلماتك هو انه ينبغي أن لا تؤاخذ نيتوتسكا ، لأنها كاملة ، حتى بعد قراءتها كتباً غير أخلاقية ، هذه القراءة التى آتت أكلها منذ الآن ، اليس كذلك ؟ ألا أن فى هذا الايضاح شيئا آخر ، ان فيه تليحا ، فأنت تعتقدين أن ارتياي وقسوتى ترجعان الى عاطفة أخرى • حتى لقد وصلت بالأمس الى اتهامى • أرجوك ، دعينى أتكلم ، اننى أحب أن أتكلم بلا لف ولا دوران • نعم لقد أردت أن تقولى أمس ان الحب لدى بعض الاشخاص (ومن الملاحظ ان هؤلاء الاشخاص يكونون فى رأيك بوجه عام ، ذوى طبع قاس ، صريح ، رصين ، ذكى ، قوى •• الى آخر ما هنالك من صفات أعدها عليهم كرمك !) •• ان الحب لدى هؤلاء الاشخاص (يعلم الله لماذا لفقت هذا !) لا يمكن أن يعبر عن نفسه الا على نحو خطير ، محموم ، وحشى ، متشكك فى كثير من الاحيان ، مستعد للاضطهاد والتعذيب فى كثير من الاحيان أيضا • لا أذكر الآن على وجه الدقة

الكلمات التى استعملتها أمس .. أرجوك ، دعينى أتكلم . انها تستطيع أن تسمع كل شيء ، كل شيء ، اكرر ذلك للمرة المائة ، انها تستطيع أن تسمع كل شيء ، انك مخدوعة فى امرها ، ولكننى لا أفهم لماذا يحلو لك ان تحشرينى فى زمرة هذا النوع من الاشخاص ! .. ليس فى سنى يقع المرء فى عشق بنت كهذه ، وصدقينى أخيرا ، يا سيدتى ، اذا قلت لك اننى أعرف واجبى ، ومهما تصدعى رأسى بنبل نفسك فسأظل أكرر لك ماسبق أن قلته ، وهو : ان الجريمة تبقى جريمة ، وان الخطيئة تبقى خطيئة ، انها تظل حقيرة ، منحطة ، مثيرة للامتزاز ، رغم السمو الذى نجب أن نرفع اليه عاطفة الرذيلة . ولكن كفى كفى ، لا أحب أن أسمع بعد الآن شيئا عن هذه الحفارات ♦

كانت الكسندرين ميخائيلوفنا تبكى ♦

وقالت أخيرا وهى تشهق وتحيطنى بذراعيها :

- اننى أقبل أن أتحمل هذا كله وحدى . أتمنى أن تكون ظنونى دنيئة وأن تنظر أنت الى هذه الظنون نظرة احتقار . ولكن انت أيتها البائسة لماذا تحكم عليك أن تسمى هذه الاتهامات المهينة ؟ اننى لا أستطيع أن أحملك . اننى لا أملك حق الكلام ! رباه ! اننى لا أستطيع مع ذلك أن أسكت يا سيدى . ان الامر أقوى منى .. ان ما تقوله جنون ..

فهمست فى أذنها أحاول تهدئتها قائلة :

- كفى ، كفى ♦

كنت أخشى أن يزيد هذا الكلام القاسى الذى وجهته اليه ، أن يزيد غضبه وسخطه ، وكنت أرتعد خوفا عليها !

فاذا هو يهتف قائلا :

- ولكن أيتها المرأة العمياء ، أنت اذن لا تعلمين ، أنت اذن لا ترين ..

وتوقف عن متابعة كلامه لحظة ، ثم استأنف كلامه وهو يتجه الى ويتترعنى من بين ذراعى امرأته :

- اذهبي من هنا • لا أسمح لك بأن تلمسيها • انك تلوتين زوجتى ، ان وجودك اهانة لها !

ثم صرخ وهو يضرب الارض بقدمه :

- ولكن فيم أحرص على السكوت حين لا يكون يد من الكلام ؟
• سأقول كل شيء ، كل شيء • اننى لا أدري ، يا آنسة ، ما الذى تعرفينه ، ولا أعلم هذا الامر الذى تظنين انك تهتديتنى به ، ثم اننى لا أحب أن أعلمه !

ثم التفت الى الكسندرين ميخائيلوفنا متابعا كلامه :

- اسمعى ، أقول لك اسمعى ••

فهمتت وقد هرعت أدخل بينها وبينه :

- اسكت !

- اسمعى !

- اسكت باسم ••

فقاطعتى بعنف وهو يرمقنى بنظرة متحدية :

- باسم ماذا ؟ باسم ماذا ؟ اسمعى يا سيدتى • لقد انتزعت من بين يديها رسالة من عشيقها ••• هذا ما يجرى فى بيتك ، هذا ما عمله هذه البنت بفضل حمايتك لها ، هذا ما لا تريه ، ولا تحين أن تريه !

وترنحت من شدة الذعر • ونظرت الى الكسندرين ميخائيلوفنا فاذا
هى صفراء كالليثة ••

وقالت لاهثة بصوت لا يكاد يُسمع :

— مستحيل !

— لقد رأيت هذه الرسالة ، وأمسكتها بيدي ، وقرأت منها الاسطر
الاولى ، ولم يبق بعد ذلك من شك • انها رسالة غرام ولقد انتزعتها من
بين يدي ، وهى الآن معها • الامر واضح ، ولا يجوز الشك اطلاقا •
وان كنت فى شك من الامر مع ذلك فما عليك الا أن ترى الرسالة ،
فتحكمى بنفسك !

فنهفت الكسندرين ميخائيلوفنا وهى ترتعى نحوى :

— نيتوتشكا •• ولكن لا ، اسكتى ، اسكتى • يا الهى ! كيف يمكن
أن يكون ذلك ، كيف يمكن أن يحدث ؟ يا الهى !

ودفنت وجهها فى يديها وهى تنسج نسيجاً قويا ، ثم استأنفت
تقول :

— ولكن لا • هذا مستحيل ،

ثم حدثت فى زوجها قائلة :

— أنت مخطئ • لست أفهم ما معنى هذا كله ! انك لم تخدعيني ،
أليس كذلك يا نيتوتشكا ؟ قصى على كل شيء دون أن تخبئ شيئا ؟ لقد
أخطأ الرؤية ، أليس كذلك ؟ أليس مخطئا ؟ لقد رأى شيئا آخر ، لقد
أخطأ ، أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ اسمعى ، يا آنيث ، لماذا لا تقولين
لى كل شيء ، لى أنا يا عزيزتى الصغيرة ، يا ابنتى الحبيبة !

فنهف بطرس الكسندروفتش من فوق رأسى قائلا :

- أجيبى • لماذا لا تجيبين ؟ أجيبى : أرأيت بين يديك رسالة أم لا ؟

فقلت لاهثة :

- نعم •

- وهذه الرسالة كانت من عشيقك ؟

- نعم !

- ومازالت صلاتك بهذا العشيق قائمة ؟

- نعم ، نعم ، نعم •

قلت ذلك دون أن يعينى هل أنا أجيب على الأسئلة التى تطرح على ، فقد كان كل همى أن أفرغ من هذا الامر بأقصى سرعة ممكنة •

فقال وهو يأخذ يد زوجته :

- هل سمعت قولها ؟ والآن ماذا تريدین أكثر من ذلك ؟ ان قلبك مسرف فى النبيل مسرف فى حسن الظن ! صدقنى ، دعى هذه الافتراضات التى نبئت فى دماغك المريض •• انك ترين الآن حقيقة هذه •• البنت •• لقد حرصت على أن أبين لك خطئ ظنونك • لاحظت ذلك منذ زمان طويل • ويسعدنى أخيراً أن أنتزع من ذهنك ما علق فيه من رأى حسن فيها • كان يؤلمنى أن أراها الى جانبك ، وأن أراك تداعينها ، وأن تجلس الى مائدتها ، وأن أحس بوجودها فى بيتنا ، كانت عماوتك تثيرنى • ولهذا السبب ، لهذا السبب وحده انتهت اليها ، وراقبتها • لاحظت أنت ذلك فنسجت حوله ألف شئ ، وشئ ، الا أن كل شئ قد اتضح الآن ، وأصبح الشك غير جائز •

ثم التفت الى يختم كلامه قائلا :

- غدا يا أمسة تخرجين من هذا المنزل !

فنهضت السكندرين ميخائيلوفنا عن مقعدها وقالت :

- لا تتعجل • اننى لا أصدق كلمة واحدة من هذه القصة كلها •
لا تنظر الى هذه النظرة الفظيعة ، لا تسخر منى • سأجملك حكما على
رأى • آيت • بنتى ، تعالى الى جانبى ، ناولينى يدك ، هكذا !

ثم أضافت تقول فى صوت غارق فى الدموع وهى تنظر الى زوجها
فى تواضع وذل :

- ما من أحد معصوم من الخطيئة • من ذا الذى يستطيع منا أن
يرفض يد أحد ! هاتى يدك يا آيت ، يا ابنتى • اننى لست أفضل منك
ولا أحسن ، ان وجودك لا يمكن أن يسوءنى ، لأننى أنا أيضا خاطئة •
فصرخ بطرس الكسندروف تش دهشا :

- سيدتى ، سيدتى ، انك تنسين نفسك ، عودى الى صوابك !

- اننى لا أنسى نفسى : أرجوك أن لاتقاطعنى ، دعنى أتم كلامى حتى
النهاية • لقد رأيت بين يديها رسالة ، بل لقد قرأت الرسالة • وأنت
تزعم - وهى تعترف - ان هذه الرسالة من عشيقها ! •• اننى لا أدافع
عن الرذيلة ، ولو أردت أن أفكر ، لفهمت أو لشعرت أن هذه الطفلة
ربما كانت بريئة ! •• كلا ، اننى لا أحاول أن أغفر الرذيلة ! ها أنا ذا
أبرىء نفسى من ذلك لأريحك • نعم ، لو كانت نيتوتشكا زوجة ، لو
كانت أما نسيت واجباتها ، لوافقتك على رأيك • ها أنت ترى اذن اننى
لا أستثنى نفسى •• انظر الى ذلك بعين الاعتبار بدلا من أن تؤاخذنى

وتحقق على • لعلها اذن تلقت هذه الرسالة دون أن تفكر في سوء • لعل عاطفه مفاجئة قد جرفتھا دون ان يكون هنالك من يصدها ويأخذ بيدها !
• • واذا كان الامر كذلك فانا المذنبه الوحيدة لاننى لم أراف قلبها •
لعل هذه الرسالة هى الاولى ، ولعلك بظنونك الفظة قد دنست العاطفة المقدسة التى تمثلها ، ولعلك بملاحظاتك الشريرة قد دنست تفكير هذه الطفلة ! • • انك اذن لم تر شيئا من هذا الخضر الذى يشع فى وجهها الطاهر ! لقد رأيت هذه الصغيرة المسكينة تجيب على أسئلتك كيفما اتفق لها ، لأنها فى اضطراب شديد وارتباك عظيم ، ولأنها لا تريد أن تتخلص من عذاب هذه الاسئلة التى لا محل لها • نعم ، نعم ، ان هذه الاسئلة لا محل لها ، انها وحشية ، خالية من العاطفة الانسانية • اتنى أستنكر تصرفك • لن أغفر لك هذا أبدا !

فصرخت وأنا أعانقها :

– نعم ، ارحمىنى ، ودافى عنى ، أنوسل اليك • لا تتركينى •
وسقطت على ركبتيها •

بينما تابعت هى كلامها تقول بصوت مخنوق :

– ولولا اننى موجودة ، فلربما كنت أخفتها بكلامك الى حد اقناعها بأنها مجرمة ، لربما كنت خنقت ضميرها وحطمت قلبها • • يا الهى ! كنت تنوى أن تطردها ! ولكن هل تعلم أنك ان طردتها طردتنى معها • نعم ، ان طردتنا كلتنا • هل سمعت ما أقول يا سيدى ؟

كانت عيناها تقدحان شررا ، وكانت تلهث بقوة ، وقد أوشك انفعالها المرضى أن يبلغ درجة التشنج •

فصرخ بطرس الكسندروفتش أخيرا يقول :

- يكفى هذا يا سيدتى • لقد سمعت ! كفى ، كفى • انتى أعلم ان هنالك عواطف أفلاطونية ، أعرف ذلك على حساب شقائى ، يا سيدتى ، هل تسمعين ؟ •• نعم على حساب شقائى ، لأننى لست من أولئك الذين يمكن أن يغلف لهم العلقم بالسكر يا سيدتى • لست أحب هذا • لاتذرى الرماد فى العيون ! •• اذا كنت تعتبرين نفسك مجرمة ، اذا كان قد بدا لك أن تركى البيت •• فما علىّ الا أن أذكرك بأنك أخطأت فى أنك لم تنفذى هذا المشروع فى الوقت المناسب ، منذ ••• نعم ، أستطيع أن أحدد لك اليوم على وجه الدقة ان كنت قد نسيته !

نظرت الى الكسندرين ميخائيلوفنا • كانت عيناها شبه مغمضتين ، وكانت مستعدة الىّ وقد خارت قواها من فرط ما حبست ألها • ما هى الا دقيقة حتى يمكن أن تنهار مغشيا عليها !

فصرخت وأنا أرتدى على ركبتى بطرس الكسندروفتش :

- أوه • حياً بالله ، ارحمها ، ارحمها • لا تزد على ما قلت كلمة واحدة !

غير أن الاوان كان قد فات • فها أنا أسمع جواب كلمائى صرخة ضعيفة ، وها هى المرأة البائسة تهوى على الارض !

قلت :

- انتهى الامر • قتلتها • ادع الناس • انقذها • سأنتظرك فى حجرة عمك • أريد أن أكلّمك • سأقول لك كل شىء ! ••

- كل شىء ؟ عن ماذا ؟

- فيما بعد •

ودامت الأزمات العصبية بعد الانغماء ساعتين ، واهتز البيت كله وانقلب رأساً على عقب • وهز الطيب رأسه وقد ظهرت في وجهه علامات القلق • وبعد ساعتين دخل بطرس الكسندروفتش الى حجرة عمله ، لقد ترك زوجته منذ لحظة • كان ممتقع اللون مضطرباً ، فأخذ يمشى في طول الغرفة وعرضها جيئةً وذهاباً ، ويقرض أظافره بقوة حتى يخرج من أصابعه الدم • لم أره في حياتي على مثل هذه الحال !

وأخيراً قال بصوت مبجوح خشن :

— ماذا تريد أن تقول لي ؟

— إليك الرسالة التي أردت أن تنتزعها مني • هذه هي ؟

— نعم •

— خذ •

فأخذ الرسالة وحملها الى النور • راقبته بانتباه شديد • وما هي الا ثوان حتى قلبها على الصفحة الرابعة ليقرأ التوقيع المذيل به •• ورأيت الدم يصعد الى وجهه !

سألني وقد تجمد من فرط الدهشة :

— ما معنى هذا ؟

— وجدت هذه الرسالة منذ ثلاث سنين في أحد الكتب ، ففهمت انها نُسيت فيه ، وقرأتها وحزرت كل شيء • وقد احتفظت بها منذ ذلك الوقت وأنا لا أدري لمن يجب أن أعطيها • كنت لا أستطيع أن أردّها اليها هي •• أما أنت ، فلم يكن يعقل انك تجهل مضمونها ، أو تجهل شيئاً من هذه القصة الحزينة • لماذا كنت تمثل هذه المهزلة ؟ لا أدري !

•• ان ذلك ما يزال غامضا فى ذهنى • اننى لا أستطيع أن أنفذ الى خفايا
نفسك • لعلك أردت أن تبرهن على تفوقك ، أن تسيطر على زوجتك •
ولكن لماذا ؟ لكى تغفر على ما يسكن رأسها من أشباح ؟ •• لكى تسيطر
على خيالها المريض ؟ •• لكى تبين لها انها متوهمة ، انك بلا خطيئة ، فى
حين أنها خاطئة ؟ •• ولقد كان لك ما أردت ، لأن ظنونها ما هى الا
الفكرة الثابتة التى تستبد بنفس تنوى •• ما هى الا التوجع الاخير يصدر
من قلب حطمه الظلم الانسانى بحكمه عليه ، وقد شاركت أنت فى هذا
الحكم الظالم • « انك لا تحبى » ، هذا ما قالته • هذا ما أرادت أن
تفهمك اياه • ولكن صلفك واثرتك المستبدة كانا بلا رحمة • وداعا •
اعفى من ايضاحاتك • ولكن اتبه ، اننى أعرف حق المعرفة ، اننى أقرأ
حقيقتك فى نفسك ، لا تنس هذا !

واتجهت نحو غرفتى ، وأنا لا أكاد أعى ماذا أفعل • وفى اللحظة
التي هممت فيها أن أفتح الباب ، استوقفنى « أوفروف » - سكرتير بطرس
الكسندروفتش - وهو يقول لى فى كثير من الاحترام والتعظيم :
- أحب أن أكلمك •

فنظرت اليه دون أن أفهم ما يقول ، ثم أجبت وأما أمر أمامه :

- فيما بعد • اعذرنى الآن ، اننى مريضة أتألم •

فقال وهو ينحنى ويتسم ابتسامة ذات معنى :

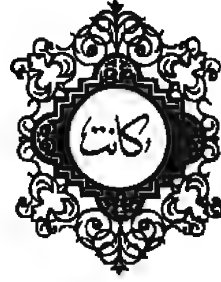
- حسنا • الى الغد !

الليالي البيضاء

١٨٤٨

« الليالى البيضاء » (Belyia notchi)
كتبت سنة ١٨٤٧ ، ونشرت في مجلة
« حويات الوطن » ، في شهر تشرين
الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٤٨ .

الليلة الأولى



الليلة جميلة ، جميلة جمالا لا نراه الا حين نكون
في ريعان الشباب أيها القراء الاحبة ! السماء
تتألا فيها النجوم ، وهي تبلغ من الصفاء أن المرء
يتساءل بالرغم منه حين ينظر اليها : « هل يمكن
تحت مثل هذه السماء أن يعيش أناس يملأ قلوبهم البغض وتعبت بنفوسهم
النزوات ؟ » السؤال ساذج ، ساذج جداً ، أيها القراء الاحبة ! ولكنني
أسأل الله العلي القدير أن يبعث في أنفسكم أحياناً كثيرة ! .. انني حين
أحدثكم عن البشر اللذين تعبت بنفوسهم النزوات ويملأ قلوبهم البغض
أتذكر سلوكي خلال ذلك اليوم كله . كانت نفسي تمتلئ حزناً منذ ذلك
الصباح ، وكان يخيّل اليّ أن العالم كله يهجرني ، وأن الناس جميعاً
يهربون مني .

من حثكم أن تسألوني طبعاً : ولكن من هم « هؤلاء الناس ؟ » .
ذلك أن ثمانى سنين انقضت على اقامتي بمدينة بطرسبرج ثم لم أستطع
أن أعقد مع أحد أواصر صداقة . ولكن فيم كان يمكن أن ينفذني
الأصدقاء ؟ انني أعرف بطرسبرج كلها . لذلك خيّل اليّ أن الناس
جميعاً هجروني لأن المدينة كلها سافرت الى الريف . انه ليشق على نفسي

كثيراً أن أبقي وحيداً • وهأنذا منذ ثلاثة أيام ، أطوف في المدينة هائماً
على وجهي لا أفهم ماذا يجري في نفسي • أجتاز سوارع نفسي ، أو
أذهب الى حديقة الصيف ، أو انتزه على الارصفة * ، فلا أرى هنا ولا
هناك أى وجه من وجوه أولئك الذين ألفت أن ألقاهم طوال السنة ، في
مواضع معينة وساعات محددة •

صحيح أنني في نظرهم غريب • ولكنني أعرفهم أنا جميعاً • لاشئ
فيهم يفوتني • درست هيئاتهم • كنت اعجب بهم حين أراهم مرحين ،
وأألم حين أبصر انهم حزاني • ولقد انعقدت صلة بيني وبين شيخ قصير
القامة كنت ألقاه في ساعة بعينها من جميع الأيام على نهر فوتتانكا • في وجهه
تعالٍ وكبر ، وفي عينيه أحلام • وهو يدمدم دائماً في لحيته ، محسراً
ذراعه اليسرى ، بينما تمسك يده اليمنى بعضاً ذات قبضة من ذهب • لقد
لاحظني هذا الرجل ، وهو يهتم بحالتي النفسية • فإذا لم أكن في ساعة
معينة في موضع معين من قناة فوتتانكا أحزنه ذلك فيما أعتقد • لذلك
يحيي أحداً الآخر أو يكاد يحييه ، لا سيما حين نكون كلانا في مزاج
صاف رائق • فإذا اتفق أن انقضى يومان دون أن يرى أحداً صاحبه ثم
التقينا في اليوم الثالث ارتفعت يدانا الى قبعتي عفواً ، ولكن كلاً منا مايلبت
أن يثوب الى رشده فيمر بصاحبه على بشاشة متبادلة •

والمنازل صديقة لي أيضاً • فحين أسير فكأن كل منزل من هذه
المنازل يقبل عليّ وينظر اليّ من جميع نوافذه ويقول لي : « نعمت يوماً !
كيف حالك ؟ أنا بخير والحمد لله • في شهر آذار سيضاف اليّ طابق
جديد » أو يقول لي : « كيف صحتك ؟ أما أنا فسيصلحونني غداً » أو
يقول لي أيضاً : « لقد أوشكت أن أحترق وخفت خوفاً شديداً » • الخ •
الخ •• وبين هذه المنازل منازل أوترها ، فكأنها من رفاقي ، فمنها واحد

ينوى أن يعالج هذا الصيف لدى معمار ، فانا آتعد أن أمر به فى كل يوم حتى لا يسرفوا فى افساده ، وأسأل الله أن يحرسه وأن يصونه ! .. ولن أنسى ما حيت قصة ذلك البيت الجميل الصغير الوردى اللون ! لقد كان من حجر ، وكان أنيقاً لطيفاً ، وكان يرمقنى دائماً بنظرة محبة ويبلغ من الادلال والزهو بالنظر الى جيرانه أن قلبى كان يتهيج ابتهاجاً كبيراً كلما رأيته فى نزوه من نزاهانى . فلما اجتزت الشارع فى الاسبوع الأخير نظرت الى صديقى الصغير فسمعتة يشن قائلاً : « سيصبنونى بلون أزرق » ! يا للبرابرة الهمج المتوحشين ! انهم لا يشفقون على شىء ولا تأخذهم بشىء رحمة أو رأفة : لا الأعمدة ولا الأفاريز ! وأصبح صديقى أصفر كطائر الكنارى . ثارت ثائرتى وكدت أصاب بنوبة عصبية ، وما زلت الى الآن أشعر بأننى لا أستطيع النظر مرة أخرى الى صديقى الصغير الذى شووه تشويهاً كاملاً وصبغوه بألوان امبراطورية السماء . *

لقد أصبحتم الآن لا تجهلون أيها القراء كيف أعرف بطرسبرج !

سبق أن قلت ان قلقت قد عذبنى خلال ثلاثة أيام الى أن عرفت سببه . كنت أشعر فى الشارع بغربة (هذا غائب ، وذاك مسافر ، وأين الآخر ؟) وفى بيتى أيضاً أصبحت أنكر نفسى . تساءلت خلال سهرتين كاملتين : « ما الذى ينقصنى فى غرفتى الصغيرة ؟ لماذا أشعر بوحشة هنا ؟ » وأمضى أنظر حائراً فى الجدران الخضراء التى غشيها الدخان ، وفى السقف المغطى بأنسجة العنكبوت التى كانت ماتريونا تنجع فى الحفاظ عليها أيما نجاح ، وأعيد النظر الى جميع الأثاث ، فأدق فى كل كرسى من الكراسى علنى أجد السبب فيما أشعر به من ضيق (ذلك أن قطعة من الأثاث تجعلنى مريضاً اذا هى لم تكن فى مكانها) . ونظرت من النافذة فلم أظفر بطائل .. لم تتحسن حالى . حتى لقد أردت أن أنادى ماتريونا ،

فاستدعيتهما ولتتها على انها لم تطهر السقف من انسجة العنكبوت ، وأخذت عليها اعمالها عامة : ولكن عينيها أظهرتا دهشة ثم خرجت دون أن تتطرق بكلمة ، وظل نسيج العنكبوت على حاله من الصحة والعافية حيث كان . ولم احزر السبب الا اليوم فى آخر الامر . لقد « فلوا » جميعا الى الريف . اغفروا لى هذه الكلمة العامية ، ولكننى لست الان من صفاء المزاج بحيث أجيد تخير الالفاظ وانتقاء العبارات . ان بطرسبرج كلها قد سافرت الى الضواحي . وما من رجل مهيب المنظر وقور الطلعة أراه ينادى حوذاً فى الشارع الا وأنصروه رب أسرة يسافر ليستريح فى الريف مع ذويه بعد سنة قاسية من عمل قاس ، وما من عابر سبيل الا ونظرتنه تقول : « لن نمكث هنا يا سادتى الا برهة قصيرة ، وبعد ساعتين سنكون فى منزلنا الريفى » . وهذه نافذة تفتح ، وهذه أصابع صغيرة دقيقة ناعمة بيضاء كالسكر تضرب الزجاج ضربات خفيفة ، وهذا وجه نضير هو وجه فتاة تظهر من النافذة فتنادى بأثع الازهار فيبدو لى ان هذه الازهار انما تشتري لتذهب فوراً الى الريف وتختفى ، لا لتعطر مسكننا فى المدينة أو لتهب للأعين فرحة الربيع .

ولقد بلغت من التقدم فى هذا النوع من الاكتشافات ، أتى كنت أستطيع أن أعرف بنظرة واحدة أى بيت ريفى يسكنه أى واحد من هؤلاء المسافرين . ان الأسر التى تقيم فى جزر كامنى وآبتكارسكى وفى طريق برهوف تتميز بما تعتمد من حركات أنيقة وآداب رفيعة وبما تملكه من ملابس غنية للصيف وعصريات فخمة رائعة . وان سكان بارجولوفو وسكان القرى المجاورة يلفتون النظر بفخامة منظرهم وذكاء هيئاتهم * . ولا كذلك سكان جزيرة كريسكوفسكى فانهم أهل فرح ومرح لا ينطفئان .

فاذا التقيت بموكب طويل من المسافرين يتقدمون بخطى بطيئة

ممسكين أدلتهم بأيديهم قرب عرباتهم الملائى باللائات والموائد والكراسى والأرائك التركية وغير ذلك ، وفوقها طبخة نحيلة تحافظ على رزق مولاهم محافظتها على بؤبؤ عينيها ، أو اذا رأيت قوارب تجرى على نهر نيفا أو نهر فونتانكا ملأى كذلك بأنواع الأمتعة - تكاثر ذلك كله فى عينيّ وتضخم مسافرا الى الريف مواكب مواكب • ان بطرسبرج كلها تهدد بأن تصبح صحراء مقفرة • لذلك كنت أشعر بحزن وقلق يملكان علىّ نفسى • كنت لا أعرف أين أذهب • وما كان ثمة داعٍ يهيب بى الى السفر • كنت آتمنى أن أتبع كل عربية من العربات ، وأن أجرى وراء كل مسافر من المسافرين ، ولكن ما من أحد يدعونى فقد نسوتى ، وكأنتى غريب عنهم جميعا !

لبثت أسير زمناً طويلاً هائماً على وجهى لا أعرف الشوارع التى أقطعها ، فإذا أنا أجد نفسى آخر الامر فى ظاهر المدينة • اجتزت حدود المدينة وقطعت الحقول والسهول لا أصغى الى التعب ؛ ولكننى شعرت بأن حملاً ثقيلاً قد سقط عن كتفى ، وشعرت براحة تشيع فى نفسى وفرح يترقق فى قلبى • المسافرون ينظرون الىّ نظرة محبة ومودة ، حتى لكانهم يحيوننى • فى وجوههم يلوح الرضى والسرور وهم جميعاً يدخلون السيكار • كنت أنا أيضاً سعيداً كما لم أكن كذلك فى يوم من الأيام • حتى لقد حسبتنى فى ايطاليا ، فالى هذه الدرجة كانت الطبيعة جميلة • ان الطبيعة لتملؤنى الآن بشراً واعجاباً أنا الساكن المسكين من سكان المنازل الخائفة فى المدينة •

ان ثمة شيئاً لا يمكن تحديده أو وصفه ، شيئاً يؤثر فى النفس أبلغ تأثير فى طبيعة بطرسبرج لحظة تفجّر كل قوتها عند اقتراب الربيع ، فإذا سماؤها تتلألأ جمالاً ، واذا أزهارها تسطع بكل ما لها من سناء •••

ان طبيعة بطرسبرج تذكرك عندئذ بعذراء مريضة تنظر اليها أحياناً نظرة
اشفاق ، وتنظر اليها أحياناً نظرة حب ، عذراء قد لا تلتفت اليها فى ساعات
أخرى ولكنها تبلغ على حين فجأة من الجمال أنك تتساءل وقد جنت
اعجاباً واقتنا : « أية قوة تحمل هاتين العينين الحزبتين الحاليتين على
الاحتراق بنار كهذه النار ؟ ما الذى نادى الدمع الى هذين الخدين
الحاسفين الناحلين الشاحين ؟ أية عاطفة آتهدت هذا الصدر ، وأى هوى
جملّ القسمات الدقيقة من هذا الوجه ؟ ما الذى دعا القوة والحياة
والحسن فجأة الى وجتى هذه الفتاة المسكينة ؟ ما الذى أضاع هذا الثغر بمثل
هذه البسمة ؟ ما الذى حرك الفم بمثل هذه الضحكة الرنانة المشرقة ؟ »
وتنظر أنت حولها باحثاً عن أحد فتحزر وتقدر ! • ولكن اللحظة تنقضى •
ولعلك سترى فى الغداة تلك النظرة الزائفة نفسها ، وذلك الوجه الشاحب
نفسه ، وآثار حزن قاتل يبكى هوى عارضا ••• ويحزنك ان غاب ذلك
الحسن الوامض الى الأبد ، ويحزن فى نفسك أن الوقت لم يتسع حتى لأن
حبها •••

وكان ليلي أجمل من نهاري واليكم ما حدث لى :

رجعت الى المدينة فى ساعة متأخرة ، وحين قاربت أن أصل الى بيتي
كانت الساعة قد دقت العاشرة • كنت أسير على رسيف القناة الذى لايلقى
المرء عليه أحداً فى مثل هذه الساعة • اننى أقيم فى حى بعيد من المدينة •
وكنت أسير وأنا أغنى كما يتفق لى ذلك حين أكون سعيداً • وتلك عادة
مشتركة بين جميع المعتزلة الذين ليس لهم أصدقاء ثم يخطر لهم أن
يفصحوا عن فرحهم ! وانى لكذلك اذا بطارىء لم يكن بالحسبان يعنى
من العودة الى مسكنى •

لقد أبصرت امرأة متكئة بكوعها على افريز الجسر • كان يبدو

عليها أنها تنعم النظر في ماء القناة العكر • ان على رأسها قبعة صفراء صغيرة جميلة ، وهي ترتدى خمارا أسود أيقا • قلت لنفسى : هذه فتاة ، ولا شك أنها سمراء • لم تسمع وقع خطواتى وأنا أقترب منها ، ولا تحركت قط حين مررت بها حابساً أنفاسى • شعرت بقلبي يخفق خفقاناً قويا • قلت لنفسى : « غريب ! لا بد أنها غارقة في تفكير عميق » ، ثم لم ألبث أن توقفت فجأة ، كأننى تسمرت فى مكانى : لقد سمعت نشيجاً مكتوماً ، بكاء مخوفاً • نعم لم يكذبنى سمى ! لقد كانت القناة تبكى ! رباه ! ما أشد ما انقبض صدرى • صحيح أننى خجول مع النساء • ولكن اللحظة كانت تقضى ... عدت أدراجى متجها نحوها وكدت ان أخاطبها هاتفاً : « يا مدموازيل ، لولا اننى تذكرت أن هذا الهاتف قد كتب آلاف المرات فى جميع الروايات الروسية التى يقرؤها أبناء المجتمع الراقى • ذلك هو السبب الوحيد الذى منعى من مخاطبتها هاتفاً بها » يا مدموازيل • ولكن ، فيما كنت أبحث عن الكلمة المناسبة التى أخاطبها بها ، ثابت هى الى رشدها ، فانتصبت ، ونظرت حولها ، ثم اندفعت تعجاز رصيف النهر ، فتبعتها فوراً ، ولكنها حزرت أننى أتبعها فتركت رصيف النهر ، واجتازت أحد الشوارع ، ومضت تسير على رصيفه • لم أجروُ بعد ذلك أن أتبعها ، فقد أخذ قلبي يخفق خفقان قلب عصفور سجين • غير أن ظرفاً لم يكن فى الحسبان قد خدمنى فى هذه اللحظة •

فعلى الجهة الأخرى من الرصيف ظهر فجأة ، غير بعيد من فتاتى المجهولة ، رجل " مسن قليلاً يرتدى رداء فراك • كانت مشيته غير ثابتة ، فهو يترنح متسنداً على الحائط • والفتاة تمشى بسرعة تفد الخطى ككل الفتيات اللواتى يرفضن سلفاً أية دعوة الى اصطحابهن • وما كان لهذا السيد الذى لا يزال يترنح فى مشيته أن يدركها ، لولا أن قدرى قد أوحى اليه أن يعمد الى وسائل متعمدة ، فها هو ذا يسرع الخطو دون أن

يقول كلمة واحدة ، ويركض وراء الفتاة المجهولة . كانت الفتاة تسير مسرعة كالرياح ، ولكن السيد الذى كان يمشى مشية سكران أصبح يزداد اقترابا منها شيئا بعد شيء حتى أدركها فأمسك بها فإذا هى تصرخ ... بورك فى القدر الذى جعلنى فى تلك اللحظة حاملا عصا الرانة فى يدى اليمنى ، فما هى الا وثبة واحدة حتى كنت فى الجهة الاخرى من الرصيف . وسرعان ما فهم الرجل من ذا الذى يتصدى له ، فلم يلبث أن أذعن لحجتي التى لا سبيل الى مقاومتها ، واستحب دون أن يقول كلمة واحدة . وكنا قد ابتعدنا أنا والفتاة حين سمعنا تهديدات قوية . ولكن أقواله أصبحت لا تبلغ سمعا .

قلت للفتاة :

– ناولينى يدك فلا يجرو بعد ذلك على أن يقترب .

فلما مدت الى يدها صامته شمرت بها ترتعش انفعالا وذعرا .
ما أكثر ما باركت ذلك الرجل فى تلك اللحظة ! وألقيت نظرة سريعة على رفيقتى . انها جميلة سمراء . لقد حزرت ذلك . وكانت دموع صغيرة لا تزال تتلألأ على أهدابها الطويلة السوداء . أهو حزن ؟ أهو خوف ؟ لا أدرى ... ولكن بسمة قد أخذت تنير وجهها منذ الآن ! وألقيت على نظرة مختلصة هى أيضا ، فاحمرت قليلا ولزمت الصمت .

قلت لها :

– لماذا صددتنى ؟ لو كنت معك لما وقع الذى وقع .

– ولكننى لم أكن أعرفك ، فقدرت أنك أنت أيضا ...

– والآن هل تعرفين من أنا ؟

– قليلا ! ولكن لماذا ترتجف ؟

— اذن لقد أدركت دفعة واحدة !

كذلك صحت فرحا • لقد سحرني أن أرى أنها ذكية • وذلك أمر
لم يفسد جمالها • وتابعت أقول :

— نعم لقد أدركت فوراً أي رجل أنا ! نعم انتي خجول مع النساء •
وأنا الآن مضطرب الحواس كاضطرابك أنت منذ لحظة حين أخافك ذلك
الرجل ... ان الرعب قد استبد بي حتى ليخيل الى أنني أحلم ! بل انتي
في أحلامي نفسها لم يدر في خلدي يوماً أنني سأخاطب امرأة •

— كيف ؟ أهذا صحيح ؟

— نعم ! وإذا ارتجفت يدي فلأنها لم تمسك في يوم من الأيام يداً
لطيفة كيدك • لقد هجرت معاشرَةَ النساء هجراً تاماً ! أعني أنني لم
أعاشرهن يوماً ، فأنا أعيش وحدي ... حتى أنني لا أعرف كيف
أكلمك ، وما زلت الى هذه اللحظة نفسها لا أعرف ذلك • ألم أرتكب
في حديثي حماقة من الحماقات ؟ أجيئني بصراحة فلست سريع التأذي •

— لا .. لا .. بالعكس .. وإذا شئت أن أصدقك القول اعترفت
لك بأن هذا الخجل يعجب النساء ! وإذا أحييت أن تعرف المزيد فاعلم أن
هذا الخجل يعجبني أنا كثيراً • فأرجوك أن تصحبنى الى النهاية •

— ولكنك ستجعليني أفقد كل خجل فأفقد بذلك جميع ما أملك
من مزايا •

قلت ذلك وأنا ألهث سعادة •

قالت :

— مزايا ؟ أية مزايا ؟ لماذا ؟ ذلك وحده نذير سوء •

- معذرة ! كان الامر أقوى منى ! وكيف أستطيع فى لحظة كهذه
ألا أتمنى أن أنال ...

- الاعجاب ؟ اليس كذلك ؟

- طبعاً ! أرجو أن تترقى بى ! احكمى فى الامر بنفسك . لقد بلغت
من العمر ستة وعشرين عاماً ولم ار فى حياتى احداً ، فانى لى ان اجيد
الكلام بحذق ولباقة . ولسوف يحسن حالك أنت نفسك حين أتخلص من
بعض هذا الحجل ... لا أستطيع أن أسكت حين يتكلم قلبى ... لا ضير
على كل حال ... صدقى أو لا تصدقى ... الحقيقة أننى لم أعرف
امراً فى حياتى قط ، ولم تنعقد بينى وبين أحد صداقة حتى الآن ، وأملى
فى كل يوم أن ألتقى أخيراً بانسان ! ليتك تعلمين كم مرة تولعت حبا على
هذا النحو .

- ولكن كيف هذا ؟ وبمن تولعت ؟

- لم أتوله بأحد ! وانما تولعت بالمثل الأعلى الذى أراه فى أحلامى .
أنا أخلق فى أحلامى روايات بأسرها ! انك لا تعرفيننى ! صحيح أننى
التقيت بامرأتين أو ثلاث ، فليس يستطيع المرء أن يعيش بدون ذلك ...
ولكن من كانت هاته النسوة ! خادما بيوت ... سوف أضحكك قليلاً ،
فأعترف لك بأننى أردت عدت مرات أن أشرع فى حديث رقيق فى الشارع
مع امرأة ارستقراطية . كانت عندئذ وحدها طبعاً ، فاقتربت منها بخجل
واحترام وعاطفة قوية .

قلت لها اننى أموت فى عزلى وسألتها ألا تصدنى لأننى لا أملك
الوسائل اللازمة لامتلاك امرأة . برهنت لها على أن من واجبها أن
تستجيب لرجاء رجل بائس كبؤسى . ولقد أفهمتها على كل حال أن كل

ما أطلبه منها هو أن تخاطبني بكلمتين ، ببضع كلمات أخوية ، أن تهتم بمصري ، أن تثق بكلامي وألا تستخف بي (إذا حلا لها ذلك) الا بعد أن تهب لى شيئا من أمل . كنت أرغب فى كلمتين منها ، كلمتين فحسب ، ثم نستطيع بعد ذلك أن نفترق الى الأبد ! ... أراك تضحكين ! ... على كل حال ، ذلك كان هدفى من سرد هذه القصة .

- لا تزعل : أنا أضحك لأهلك عدو نفسك ، ولو قد حاولت مغامرة ما فلربما أصبت نجاحا ... ما من امرأة طيبة (اذا لم تكن حمقاء أو معتكرة المزاج) الا وكان يمكن أن تهب لك تينك الكلمتين الأخويتين اللتين ترغب فيهما تلك الرغبة القوية كلها ... ولكن ماذا أقول ! لاشك أنها كانت ستحببك مجنوناً . ولقد حكمت' على الأمر الآن على أساس تفكيرى أنا . لست أجهل كيف يعيش الرجال .

صحت أقول :

- شكراً .. شكراً .. انك لا تعرفين ما صنعتى فى سبيلى بهذه الأقوال . لقد أحسنت الى كثيراً ...

- طيب ! ولكن كيف عرفت أننى امرأة ... جديدة ... بالاهتمام والصدقة ... لماذا تعرضت لى ؟

- لماذا ؟ لأهلك كنت وحدك . وقد أسرف الرجل فى التجروء عليك ، والوقت ليل ، ألم يكن من واجبى أن أتمدخل ؟

- لا ، لا ... قبل ذلك ... على الجسر .. أردت أن تكلمنى .. أليس كذلك ؟

- على الجسر ؟ الحق أننى لا أعرف كيف أجيبك ... اننى خائف

... لقد كنت اليوم سعيدا ... كنت أغنى وأنا أسير ... طوفت خارج
المدينة . لم أعش فى حياتى لحظات سعيدة كل هذه السعادة . وظهرت
لى ... ولكن اعذرني اذا ذكرتك ... لقد تراءى لى انك كنت تبكين ،
ولم أستطع أن أحتمل ما سمعت من نسيجك ... انقبض صدرى ...
قلت لنفسى : رباه ! ألا أستطيع أن أقاسمها حزنها ؟ أكان خطيئة منى أن
أشعر نحوك بعطف أخوى ... اغفر لى استعمالى كلمة « العطف » .
ولكن قولى لى هل كان يسوءك حقا أن أقترب منك فى تلك اللحظة ؟

— اسكت ... كف عن الكلام ...

قالت ذلك وهى تضغط يدي ضغطا قويا .

وتابعت تقول :

— أنا المخطئة فى التحدث عن هذه الأمور . ولكن يسرنى أنتى لم
أخطئ . فى حكمى عليك ... على كل حال هأنذا قد وصلت . سوف
أنعطف فى هذا الممر ، فلا يبقى بينى وبين مسكنى الا ثلاث خطوات ..
الى اللقاء وأشكرك .

— اذن لن نلتقى بعد الآن قط ؟ هل انتهى بنا الامر هنا ؟

قالت وهى تضحك :

— لم تكن تريد الا كلمتين ، والآن ... ثم اننا قد نلتقى .

قلت :

— سأتى الى هنا غدا . معذرة ... هأنذا أملى مطالب منذ الآن ..

— نعم أنت قليل الصبر تكاد تصدر أوامر ..

قاطعتها أقول :

- اسمعى معذرة اذا قلت لك أيضا هذا .. لا أستطيع الا أن
أتى الى هنا غدا . أنا امرؤ حالم يبلغ حظى من الحياة الواقعية من القلة
والضالة اننى لا بد لى أن أعيش مرة أخرى فى أحلامي اللحظات السعيدة
التي تشبه هذه اللحظة . سأحلم بك طوال الليل ، الاسبوع كله ، السنة
بأسرها . أعود فأقول لك اننى آت الى هنا غدا ، الى هذا المكان ، هذا
المكان بعينه ؛ وسأكون سعيدا بأننى سأحيا الساعة الراحنة مرة أخرى .
هذه الأماكن عزيزة فى نفسى . ان لى فى بطرسبرج مكانين أو ثلاثة من
هذا النوع . لقد حدث لى مرة أن بكيت لذكرى ، كما حدث لك منذ
برهة لعل دموعك كانت تسيل أيضا بسبب ذكرى ولكن معذرة
.... ما زلت أمضى بعيدا . لعلك كنت سعيدة هنا فى يوم من الايام !

قالت الفتاة :

- لك ما تريد ! سأتى الى هنا غداً فى الساعة العاشرة ، كالיום !
هأنت ذا ترى أننى لا أستطيع أن أمنع عنك هذا .. ولكن لا بد لى أن
أكون فى هذا المكان ! فلا يذهبن بك الظن الى أننى أضرب لك موعداً .
ها قد أبلغتك .. ان على أن أكون فى هذا المكان لشأن من شئونى أنا .
على أننى أعترف لك صراحة بأننى لن أضيق بحضورك . فقد تحدثت
مزعجات كما حدث اليوم . ولكن كفانا كلاما عن هذا . الخلاصة أننى
سأحب أن أراك . ولكن حذار أن تحكم على حكمنا قاسياً ، حذار أن
تتخيل أننى أضرب مواعيد بمثل هذه السهولة ما كان لى أن أطلب
اليك المبنى . لولا أن ولكن دع هذا سرّاً لى !

- بل تكلمى ! قولى لى السر ! قوله فوراً ! اننى أوافق على كل

شيء ! أنا مسؤول عن نفسي ، وسأكون طيعا ، وسأكون فى غاية الأدب
والاحترام .. أنت تعرفيننى •

كذلك صحت فرحا فأجابت وهى تبسم :

- لأننى أعرفك انما أدعوك الى المجيء غدا ! أنا أعرفك حق
المعرفة • ولكن حذار ! .. تعال بشرط .. بشرط عليك أن تتذكره
دائما وأن يكون مائلا فى ذهنك كل لحظة ! اياك ثم اياك أن تجبني ...
ذلك لا يمكن أن يكون ، أوكد لك • أنا أنشد الصداقة ! فاليك يدى
ولكن لا حب ! لا حب !

هتفت أقول وأنا أمسك يدها :

- يعينا لأتقيدن بهذا •

- دعك من اليمين ! أنا أعرف أن من الممكن أن تشتعل كالبارود •
لا تسيء الظن فىّ اذا أنا قلت لك هذا الكلام • لبتك تعلم ! ... أنا
أيضا ليس لى أحد أكلمه بقلب مفتوح ، وليس لى أحد أسأله نصحا ؛
ولا أستطيع أن أخاطب انسانا فى الشارع • أنت استثناء ! يخيلى الى أننى
أعرفك كما لو كنا صديقين منذ عشرين عاما ... انك لن تخوننى قط ..
أليس كذلك ؟

- سوف ترين ! .. ولكننى لا أعرف كيف سأعيش هذا اليوم !

- نم جيدا ! سعدت ليلتك • وتذكر أنك نلت ثقتى منذ الآن ! وكما
قلت أنت نفسك : ليس علينا أن نحلل عواطفنا حتى ولا عواطف المحبة
الأخوية ! لقد عرفت كيف تخاطبني فسرعان ما خطر ببالى أن أثق بك
وأن أقضى اليك بما فى نفسى •

— ولكن ما الذى تريد أن تبوح لى به ؟ قولى أرجوك ...
— الى الغد ، وليق هذا سرا الآن • وذلك أفضل لك ، حتى يكون
أشبه برواية • قد أقص عليك كل شىء غدا ، وقد لا أفعل ! سنتحدث
بأدى الامر ... وسنصبح صديتين حميمتين أكثر من الآن ...

— نعم سأقص عليك حياتى كلها ! ولكن ما هذا ؟ ان معجزة تتحقق
فى نفسى ... قولى : ألسنت نادمة على أنك لم تصدينى منذ البداية كما
كان يمكن أن تفعل النساء الأخريات ؟ لقد جعلتنى سعيدا بلحظة من
حديث : نعم جعلتنى سعيدا • صالحتنى مع نفسى ... بددت شكوكى ..
على كل حال سأقول لك كل شىء غدا ... ستعرفين كل شىء .. كل
شىء ...

— اتفقنا •• ستبدأ أنت ...

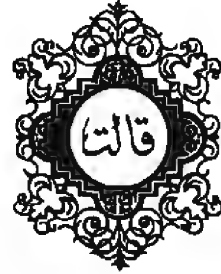
— موافق !

— الى اللقاء !

— الى اللقاء !

وافترقنا • ظللت الليل كله أطوف فى أرجاء المدينة ! لم أستطع أن
أعود الى مسكنى ! كنت سعيدا غاية السعادة ! الى الغد !

الليلة الثانية



لى ضاحكة وهى تشد على كلتا يدي :

- هه ••• هل عشت يومك ؟

- أنا هنا منذ ساعتين • هل تعرفين كيف قضيت
هذا اليوم ؟

- أعرف ، أعرف ••• ولكن فلنتكلم فى أمور جدية • لماذا جئت

الى هنا ؟ أنتى لم أجىء لأقول مفاسف وترهات كما فعلت أمس • يجب
علينا أن نتصرف تصرفا أذكى • لقد فكرت فى هذا كله !

- فى أى شىء يجب أن نكون أذكى ؟ على أنتى مستعد •• ولكن
الحقيقة هى أنتى لم يقع لى فى حياتى أمر أذكى من لقائنا •

- حقا ؟ أرجوك أولا أن لا تضغط يدي كل هذا الضغط ، وأعلن
لك ثانيا أنتى فكرت فىك كثيرا أول الامر •••

- وماذا قررت ؟

- ماذا قررت ؟ قررت أن علينا أن نعود الى البداية ، أن نستأنف كل شيء من أوله ، لأننى لا أعرفك قط • لقد تصرفت أفس كطفلة ، كبنية صغيرة • طبعا • • • الذنب ذنب قلبى الطيب • • • لقد مدحت نفسى كما نفعل دائما حين تصدر رأيا فى أنفسنا • لذلك سأصلح خطيئتي بأن أسألك عن أدق تفاصيل حياتك ، لأننى لا أستطيع أن أسأل أحدا عنك ، فقصَّ علىَّ اذن كل شيء بدون أى تكتم • أى رجل أنت ؟ قصَّ علىَّ تاريخك ! أسرع •

صحت مذعورا :

- تاريخى ! ولكن من قال لك ان لى تاريخا ! أنا ليس لى أى تاريخ •

قاطعتنى ضاحكة تقول :

- كيف عشت اذا لم يكن لك تاريخ ؟

- عشت دون أى تاريخ ! عشت • • • هكذا • • • ببساطة • • • وحدى دائما • • • هل تفهمين ؟ عشت وحيدا •

- عشت وحيدا ؟ كيف هذا ؟ ألم تر انسانا قط ؟

- بلى ! اتى ارى كثيرا من الناس ولكننى أظل وحيدا •

- كيف هذا ؟ ألسنت تكلم اذن أحدا ؟

- هذه هى الحقيقة خالصة • لست أكلم أحدا •

- ولكن سن أنت اذن ؟ اسمع ! لقد حزرت • • • لعل لك جدة مثلى أنا ؟ انها عمياء ، ولا تسمح لى بالخروج أبدا ، لذلك فقدت عادة الكلام

فقدانا تاما • ولما ارتكبت منذ سنتين بعض الحماقات أدركت أنها لن تستطيع أن تحبسني عن الخروج ، فنادتني وربطتني الى ثوبها بدبوس • هكذا نعيش معا آيانا كلها : هي تنسج جواربها رغم أنها عمياء ، وأنا أجلس الى جانبها أقرأ لها أو أخيط • عادة غريبة ، أليس كذلك ؟ نحن مشدودتان احدانا الى الأخرى بدبوس منذ سنتين ***

- رباہ ! ما هذا الشقاء ! • • لا • • ليس لي جدة كهذه الجدة •

- فكيف تستطيع اذن أن تمكث في بيتك ؟

- أراك تصرين على أن تعرفي من أنا !

- نعم • • نعم • •

- بأدق معاني هذه الكلمة ؟

- بأدق معانيها •

- لك ما تريدین ! فاعلمي اذن أنني مخلوق غريب •

- مخلوق غريب ؟

كذلك صاحبت الفتاة وهي تنفجر ضاحكة بقهقهة مجنونة ، وتابعت تقول :

- حقا ان المرء لا يشعر معك بملل • اسمع ! هذا مقعد فلنجلس عليه • ما من أحد ييجيء الى هنا ، ما من أحد سيسمع كلامنا • ابدأ سرد حكايتك • • انني مقتنعة أن لك حكاية ! لا تخفها عني ؟ اشرح لي أولا ماذا تعنيه بقولك « مخلوق غريب » •

مخلوق غريب ؟ المخلوق الغريب انسان شاذ ، انسان • • • مضحك •

كذلك أجبت وأنا أضحك اذ سمعتها تضحك ، وتابعت أقول :

- المخلوق الغريب طبع خاص ... مزاج حالم ... هل تعلمين
ما هو الانسان الحالم ؟

- الانسان الحالم ؟ كيف لا أعرفه ؟ أنا نفسي أحلم دائما . حين
أفنى أيامي كلها جالسة قرب جدتي ... رباه ! ما أكثر ما يدور في
نفسي حينذاك ! أحلام لا نهاية لها : أتزوج أميرا صينيا مثلا ... انه
ليسعد المرء كثيرا في بعض اللحظات أن يسترسل في الأحلام .

وأضافت تقول برزانة ورصانة :

- على كل حال ، من يدري ؟ لا بد أن يفكر المرء في أمور جدية
أيضا .

- حسنا لسوف تفهميني أيضا ما دمت تخيلت أنك تتزوجين
امبراطور الصين . فاسمى اذن ... ولكن ... معذرة لم أعرف اسمك
الى الآن !

- هه ! الآن تفطن الى ذلك ؟

- لم يخطر ببالى هذا الامر . كنا على خير حال هكذا ...

- يسموننى ناستكا .

- ناستكا ؟ أهذا كل اسمك ؟

- ألا يكفيك هذا أيها الرجل الذى لا يشبع ؟

- بالمكس انه ليسعدنى أن يكون اسمك عندى ناستكا فقط .

- طيب .. طيب هأنذا أصفى الى حديثك الآن .

جلست قريبا متجمعا على نفسى ، وأخذت أقص عليها كمن يقرأ
قراءة :

- ان فى بطرسبرج يا ناستنكا أركاننا غريبة جدا • الشمس التى
تسطع لجميع سكان المدينة لا تنفذ الى تلك الأماكن ، وانما تسطع فى تلك
الأركان شمس أخرى ذات ضياء خاص كأنه خلق لهذه الزوايا التائهة
وحدها دون غيرها • البشر يحيون فى هذه الزوايا حياة لا تشبه الحياة
التى تغلى وتغور حولنا مختلفة غريبة بعيدة • هذه الحياة مزيج من صفاء
رائع خيالى مثالى ومن اسفاف تافه وابتذال رخيص •

- الله الله ! ... يا لها من مقدمة ! ما عسانى سامعة أيضا ؟

- ستسمعين يا ناستنكا ... (آه ما أسعدنى اذ أناديك بهذا الاسم)
ستسمعين أن هذه الأحياء يسكنها بشر يشيرون العجب والدهشة • انهم
الحالمون • والحالم اذا أردت أن أعرفه لك ليس انسانا بل مخلوق ...
لا تحديد له ... انه يؤثر الزوايا التى لا يمكن بلوغها والوصول اليها ،
كأنه يهرب من ضوء النهار ، مثله كمثل تلك الحيوانات الغريبة
- السلاحف - التى تحمل بيوتها معها • ترى لماذا يحبون كل هذا الحب
جدرانهم الصغيرة الأربعة المدهونة دائما بلون أخضر ، التى يشع فيها
الحزن ويملؤها الدخان بغير انقطاع ؟ ترى لماذا حين يجيء الى أحدهم
صديق (لاحظى أنه يفعل كل ما يحسن أن يفعله على خير وجه حتى
يغيب عنه جميع الاصدقاء اخر الامر) ، ترى لماذا حين يجيء هذا الصديق
يهب ذلك الانسان الشاذ الى استقباله خجولا كل الخجل وقد تغير وجهه
كل ذلك التغير ، حتى وكأنه قارف بين جدران الاربعة الصغيرة جرما ،
كأنه صنع أوراقا نقدية مزيفة ، أو نظم أبياتاً من الشعر صغيرة ليرسلها
الى مجلة مع رسالة لا يذكر فيها اسمه قائلا ان ناظم هذا الشعر صديق له

قد مات وانه يرى أن من واجبه المقدس أن ينشر انتاجه • ولماذا ياناستكا
يخمد الحديث بين هذين الصديقين ؟ لماذا يضوى ويهن ، فلا ضحكة ،
ولا كلمة جريئة ، ولا اشارة الى الجنس اللطيف ؟ لماذا يصبح الصديق
نفسه (وهو لن يعود قط ولن يكون له خلف) لماذا يصبح الصديق نفسه
مضطربا كل ذلك الاضطراب ؟ لماذا يفقد كل حس سليم (اذا كان له منه
شيء) حين يلاحظ كيف تشعث وجه رب البيت الذى فقد صوابه هو
أيضا فقدانا كاملا • ان رب البيت يحاول عبثا أن يظهر علمه بآداب المجتمع
وأن يبعث فى الحديث شيئا من الحياة بالكلام على النساء ، وأن يسلى
صديقه الذى جاء يزوره خطأ • ولماذا يتناول هذا الصديق أخيرا قبعته
ويهرع نحو الباب متذكرا على حين فجأة مهمة عاجلة لا وجود لها فى
الواقع ؟ وفجأة يتحرر من العناق الحار ، عناق صاحبه الذى يجهد أن
يعبر عن أسفه وأن يصلح ما أفسده فتوره ؟ لماذا ينفجر الصديق ضاحكا
وراء الباب قاطعا على نفسه عهدا أن لا يضع قدميه بعد اليوم فى بيت هذا
الاسان الشاذ الذى هو رجل طيب شهم على كل حال • انه يقارن فى
ذكراه بين وضع هذا المسكين صاحب البيت وبين وضع قطعة ضربها الاطفال
فهربت مذعورة الى الظلام تحت المائدة ، وظلت ساعة بكاملها تسترد عافيتها
شيئا فشيئا وتفسل فمها الجريح بقائمتيها الصغيرتين ، وتظل تنظر بعد ذلك
نظرة عدا الى كل شيء وحتى الى الخادمة التى تأتيتها بطعامها •

قاطعتى ناستكا تقول وعيناها تعبران عن الدهشة :

— اسمع ! اننى لا أفهم قط كيف يمكن أن يكون هذا الذى تقصه

قد وقع فعلا • ولماذا تلقى علىَّ أسئلة غريبة كل هذه الغرابة ؟ ولكننى أعلم
أن هذه المغامرات كلها هى مغامراتك •

أجبتها فى جد قائلا :

- بدون أدنى شك •

قالت ناستكا :

- أكمل اذن ، فاننى أحب أن أعرف كيف سينتهى هذا كله •

قلت :

- انك تحين أن تعرفى حياة بطلنا أو بالأحرى حياتى ، لأن بطل
قصتنا هذه هو أنا ، هو شخصى المتواضع الصغير • تريدان أن تعرفى لماذا
اضطربت هذا الاضطراب كله من زيارة صديقى التى لم أكن أتوقعها ،
لماذا انتفضت مذعورا واحمر وجهى احمرارا شديدا حين فُتِح باب غرفتى ،
لماذا أنا عاجز عن استقبال ضيف ؟

أجابت ناستكا :

- نعم •• نعم •• اسمع ! انك تجيد رواية قصتك اجادة رائعة
ولكن أليس فى وسعك أن تتكلم بلغة أبسط من هذه اللغة وعبارات أبسط
من هذه العبارات ؟ انه ليخيل الى أنك تقرأ فى كتاب •

أجبتها بصوت رصين وقور محاولا أن لا أضحك :

- ناستكا ! أنا أعرف أنتى أجيد الحديث • ولكننى أستمحك
عذرا ، فاننى لا أستطيع أن أقص بغير هذه الطريقة • أنا أشبه الآن روح
الملك سليمان التى يقال ان أختامها السبعة قد فضت عنه بعسد أن ظلت

حبيسة سبعة آلاف عام • لقد التقينا يا ناستنكا بعد فراق طويل ••• ذلك
أتنى أعرفك منذ زمن طويل جدا • أنا أبحث عن أحد منذ سنين • أنا
أبحث عنك أنت منذ سنين • ولقد كتب علينا أن نلتقى ، فاذا ألوف
العواطف التى ما تزال مكبوتة قد تفجرت فى نفسى • وهأنذا أدع لأمواج
من الكلام أن تطفح وتفيض حتى لا أختنق • لذلك لاتقاطعيني يا ناستنكا
والا اضطرت أن أسكت •

- تكلم اذن تكلم ! فلن أنطق بحرف واحد •

- هأنذا أتابع اذن • هناك ساعة من ساعات اليوم أحبها كثيرا : هى
الساعة التى تنتهى فيها جميع الواجبات والاعمال فيهرع الناس الى منازلهم
للعشاء ، ويستلقون نشدانا للراحة • هذه الساعة هى الساعة التى يفكر
فيها الناس كيف يقضون السهرة بل الليلة مريحين • ان بطلنا أيضا
(اسمح لى أن أتحدث عن نفسى بصيغة الغائب) ان بطلنا الذى قضى
النهار كله فى العمل ، يتبع الآخرين فى عودتهم الى منازلهم ، ولكن شعورا
غريبا باللذة يلاحظ عندئذ على وجهه المتعب الشاحب • انه ينظر الى النسق
الذى يهبط على سماء بطرسبرج الباردة ، ينظر الى هذا النسق لا نظرة من
لا يبالي ، حتى انى لاكذب حين أقول انه ينظر ، فانما هو يتأمل تأملا ،
ربما على غير شعور منه ، كأنسان متعب تستغرقه أفكار أخرى ، موضوعات
أقرب الى اهتمامه والصق بأشواقه • فهو لذلك لا يولى كل ما يحيط به
الا اتباعا قليلا • هو سعيد بأنه فرغ الى الغد من أعماله الحزينة ، مرح
مرح التلميذ يخرج من المدرسة للعب والمتعة • لاحظيه يا ناستنكا تجدى
فورا أن عاطفة الفرح التى يشعر بها قد أثرت فى أعصابه المريضة وخياله
المحموم • انظرى ! لعله يفكر •• هل تظنين أنه يفكر فى العشاء ؟ فى
السهرة التى تنتظره ؟ الى من هو ينظر هكذا ؟ أهو ينظر الى ذلك السيد

الوقور الذى حيا سيدة فى عربتها تحية احترام ؟ لا يا ناستنكا انه لا يحفل
بهذه التفاصيل ! انه غنى بحياته الداخلية النفسية • وأشعة الشمس الغاربة
لم تتلأأ عبثاً أمامه ، بل غمرت روحه بطائفة من المشاعر الجديدة •
أصبح لا يلاحظ الطريق الذى كانت تفاصيله السيرة تفتته قبل ذلك •
ان « الهة الأحلام » (هل قرأت جو كوفسكى يا عزيزتى ناستنكا) تنشر
أمام بصره منذ تلك اللحظة النسيج الذهبى والصور الرائعة والتهاويل
القاتنة من حياة خيالية ساحرة لا يمكن تصورها • ومن يدري ؟ لعل الهة
الأحلام قد نقلته الى السماء السابعة البلورية ، ولعلها تسير به على رصيف
من رائق المرمر ! حاولى أن تستوقفيه وأن تسأليه فجأة : « الى أين أنت
ذاهب وأى شارع قطعت ؟ » • انه لن يستطيع أن يجيبك ، وسيحمر
خجلاً ، ثم يلفق لك كذبة انقاذاً للمظاهر • من أجل ذلك انما ارتعش
وكاد يصرخ ونظر حواله مذعوراً حين استوقفته تلك المرأة العجوز
القصيرة الطيبة تسأله عن طريقها الذى ضلته • لقد قطب حاجبيه وتابع
طريقه دون أن يلاحظ المارة الذين ابتسموا ودمدموا بكلام لم يسمعه •
وهذه بنية صغيرة قد اضطرت أن تتحنى لتفسح له مجالا ، فاذا هى تنفجر
فى قهقهة صاخبة حين نظرت بكلتا عينيها الى ابتسامته العريضة واشاراته
البليغة • ولكن « الهة الأحلام » * تلك تصطاد فى شباكها المرأة العجوز
أيضا والمارة المستغربين والبنية التى تضحك وحتى أولئك الرجال الذين
يلتهمون طعامهم على قاربهم فى نهر فوتانكا • هؤلاء جميعا يحيون فى هذا
الحلم الذى اختطفتهم اليه « الهة الأحلام » كما يختطف العنكبوت الذباب
الى نسيجه • هؤلاء جميعا يحيون فى ذلك الحلم الذى يحلمه صديقنا حين
يعود الى غرفته الصغيرة فرحاً ، فيجلس الى مائدته ، ويتعشى ، ولا يثوب
الى نفسه الا حين تحمل اليه ماتريونا غليونته ، فهو يستيقظ عندئذ ويتذكر
مدهوشاً أنه تناول عشاءه لا يدري كيف ! الظلام يخيم فى غرفته ونفسه

حزينة مقفورة • مملكة الأحلام قد تهاوت حواليه بلا ضوضاء ولا صخب ولم تترك أثرا ! لقد هربت هروب طيف ! حتى أن بطلنا لا يتذكر أنه حلم • ولكن عاطفة مبهمه تعود فتهمز قلبه ، ورغبة أخرى تدغدغ خياله لذينة ممتعة ، ثم سرعان ما تهيج ، وتخلق له عالما جديدا من الاشباح شيئا بعد شيء • الصمت يرين على العرقة ؛ والعزلة والكسل يهددان فكره الذى يصعد ويفل غليانا خفيفا كالماء فى غلاية القهوة التى تصنع فيها العجوز ماتريونا قهوتها فى المطبخ • والكتاب الذى تناوله صاحبنا الحالم بغير هدف وعلى غير هدى يسقط من بين يده قبل أن يتم قراءة الصفحة الثالثة منه • لقد احتاج خياله من جديد • وهذا عالم رائع يظهر له فى صور مثالية • وهذه حياة حافلة بالمباهج تخطر أمامه أشكالا أخاذة ، حلما آخر ، سعادة جديدة ! وها هو ذا يمتص مزيدا من الامتصاص سم اللذة المرهقة • ماله ولحياتنا الواقعية ! نحن لا نحيا الا قليلا جدا ! نحن لا نحيا الا ببطيئا جدا ! نحن لا نحيا الا حياة رتيبة جدا • ونحن نندب حظنا كل يوم غير راضين عنه • انظري من حولك : ألا ترين كل شيء فى الواقع برودة وغضبا وقسوة ؟ • • • « يا لهم من يؤساء » كذلك يقول الحالم لنفسه • ولماذا لا يقوله لنفسه ؟ ان صورا جميلة بعينها تخطر أمامه ، وان أطيفا رائعة تداعب خياله على متعة ونشوة ، فيرى بطلنا نفسه شخصية أولى فى الصف الأول • تصورى جميع تلك المفامرات المتنوعة • تصورى هذه السلسلة التى لا نهاية لها من الأحلام الحارة • ولكن لعلك تسألينى عن موضوع أحلامه • • • هو رسالة الشاعر ، المغمور فى أول الأمر ، المتوَجِّع بأكليل المجد بعد ذلك • • هو صداقته مع هوفمان* ، هو ليلة سان بارتلمى ، هو ديان فرنون ، هو السلوك البطولى الذى أظهره ايفان فاسيليفتش عند الاستيلاء على قازان ، هو كلارا موفراى ، هو ايفى دينز ، هو أحبار المجمع البابوى وأمامهم هوس ، هو يقظة الموتى فى « روبير الشيطان »

(ألا تذكرين هذه الموسيقى التى تفوح منها رائحة المقابر ؟) هو مينا وبراندا ، هو معركة بيريزينا ، هو قراءة قصيدة عند الكوتيسة ف... هو داتون ، هو كليوباترا وغرامها ، هو بيت كولومنا الصغير ، هو ركن صغير تجلس الى جانبه فيه مخلوقة حيية تصنى الى كلامه فى أمسية من أمسيات الشتاء فاعرة فاها ، محملقة بعينيهما الصغيرتين - كما تصنن الى الآن يا ملاكى الغالى . لا يا ناستكا ما شأن هذا الانسان الوانى بهذه الحياة التى نجح اليها كلانا ؟ انه مقتنع بأن هذه الحياة صغيرة مسكينة عامية مبتذلة . وهو لا يقول لنفسه ان ساعة قد تجيء فاذا هو يفرحه ان يبيع جميع هذه السنين التى قضاها فى الاحلام بيوم من تلك الحياة . ولا تحسبى أنه سيختار اليوم الذى هو أسعد الأيام فى هذه الساعة التى يعانى فيها الندامة والالم ، ولكنه فى هذه اللحظة ، بينما هو يحلم ، لا يرغب فى شيء ، لأنه فوق الرغبات ، لأن أحلامه تشبع جميع حاجاته ، وتروى كل ظمئه . انه صانع حياته ، وهو فى كل لحظة يخلق حياته على ما يريد له هواه ! وما أسهل ما يولد هذا العالم الخيالى الاسطورى طيعيا من تلقاء نفسه ، حتى لكأن الأمر ليس أمر أشباح ! فان صاحبنا الحالم مؤهب حتى للاعتقاد بأن هذه الحياة ليست أكنوبة من أكاذيب الخيال ، ولا خطأ من أخطاء الحواس ، بل هى الواقع الحق القائم ! والا فلماذا يا ناستكا تسارع نبضات قلبه وتتدفق الدموع من عينيه وتحترق خداه الشاحبتان ؟ لماذا يمتلىء كيانه كله بفرح لا يوصف ، ولماذا تذوب ليالى بأسرها من الأرق فى لحظة سعادة لا سبيل الى التعبير عنها ؟ حين تطلع أشعة الفجر الشاحبة فننسل من النوافذ وتنير العرفة الصغيرة الحزينة التى يقطنها صاحبنا الحالم بضياء مبهم لا يحدد ، فانه يرتدى على سريريه متعبا مهدود القوى ، وينام باكيا من الفرح مهتاج الروح احتياجا يشبه أن يكون مرضا . نعم يا ناستكا ، قد يخطئ المرء عندئذ فيحسب أن هوى حقا يضطرم فى روحه ، وأن

الواقع قائم فى أحلامه المجنونة • خطأ ذلك ! هكذا يكون الحب قد نفذ الى قلبه بفرحه الذى لا ينضب ، وآلامه الحادة الكاوية ••• ولكن انظرى اليه ! هل تحسبن أنه لم يعرف أبدا تلك التى يحبها فى أحلامه ! ألم ير حقا تلك المرأة الا طيفا فاتنا ، ولم يزد على أن عانى هواه فى الأحلام ! من يدري ؟ لعلهما قد عاشا كلاهما سنين عمرهما يدا بيد ، بعيدين عن العالم ، موحدين حياتهما الى الابد • هل يمكن أن لا تكون هى التى ، فى أواخر الليل ، لحظة الفراق ، قد رقدت ناحية يائسة على حضنه لا تسمع العاصفة الهوجاء تحت السماء المشثومة ، ولا تسمع الريح التى تتزع الدموع من أهدابها السوداء وتطير بها فى الفضاء ؟ ألم تكن الا حلما تلك الحديقة الحزينة المتوحشة المنزلة التى كثيرا ما عاشا فيها اعتكفهما فى الأمل واليأس والحب الحنون الخالد ، وذلك المنزل العريق القديم الغريب الموروث عن الأجداد الذى عاشت فيه زمناً طويلاً مع زوجها الشيخ الكالح المتجهم الصامت المبعض الذى يلاحقهما هما الخجولين كطفلين فى حبهما الصامت المتخفى ! ما أكثر ما كانت تنزل عليهما الآلام ! وما أكثر ما كانا يمثلان خوفا وقلقا ! ما أكثر ما كان حبهما بريثا صافيا ! وما أكثر ما كان الناس (بطبيعة الحال يا ناستنكا) أشرا فى معاملتهما ! ويا رب ، أليست هى التى التقى بها بعد ذلك بعيدة عن وطنها فى سماء أجنبية جنوبية حارقة ، فى « المدينة الخالدة » الرائعة ابان حفلة راقصة ساطعة وسط أصوات الموسيقى (موسيقى البالاو طبعا) الفارقة فى خضم من نيران ، على الشرفة التى تتعاقب فيها فروع الأس وأزهار الورد ، فلما عرفته أسرعرت تنضو عن وجهها القناع ، مدممة أنا حرة ، وهى ترتجف وتتحب وترتمى فى ذراعيه ، فاذا هما فى صرخة من الحماسة وقد احتضن كل منهما الآخر ، ينسيان ما قاسياه من ألم وما عانياه من عذاب الفراق وصروف الأيام ، وينسيان المنزل القاسى والشيخ والحديقة القائمة فى

الوطن البعيد ، والمقعد الذى كانا جالسين عليه فى آخر يوم حين انتزعت
نفسها من عناقه فى قبلة محمولة وقد تشنجت من فرط الألم ... آواه
يا عزيزتى ناستكا ! اعترفى بأن المرء قد يطير صوابه ويضطرب ويحمر
كتلميذ كان يدس فى جيبه تفاحة سرقتها من بستان مجاور ، حين يكون
على هذه الحال فإذا بفتى فارغ القامة ممتلىء بالعافية مرح المزاج جرى
الطبع ذرب اللسان حلو الحديث ، هو صديقه ، يفتح بابه بدون سابق
دعوة ويهتف صائحا كأن شيئا لم يكن : « هأنذا يا عزيزى وصلت الآن
من بافلوفسك ! » يا رب ! الكونت الشيخ مات ، وهذه هى السعادة جاءت
أخيرا ، السعادة التى لا تغلب ، فإذا الناس يصلون فى تلك اللحظة من
بافلوفسك !

سكت بنوع من التفخم بعد أن فرغت من أقوالى المملأى فحفضة
واتفاخا . وانى لأذكر أن قد قامت فى نفسى رغبة رهية فى أن أضحك
ضحكة مجنونة طويلة لأننى شعرت شعورا قويا بوجود شيطان عدو يتحرك
فى أعماقى بينما أخذ حلقى يتقبض وأخذت ذقنى ترتعش وأخذت عينى
تخضل ... كنت آمل من ناستكا التى كانت تصغى الى محملقة بعينيهما
الذكيئتين أن تضحك ضحكتهما القوية المرحه ، وكنت قد أخذت منذ ذلك
الحين أندم على أننى أسرفت فى الكلام وأطنبت فى قصص ما كان يغلى فى
نفسى . كنت قد أدت منذ زمن طويل حياة الاحلام هذه التى أحياها ولم
أكن آمل أن أفهم الآن حين فتحت قلبى . ولكن ما كان أشد دهشتى حين
رأيت ناستكا بعد أن لبثت صامتة بضع لحظات تشد على يدي خجلى
وتسألنى :

- أحقا عشت هذه الحياة ؟

فأجبتها :

- دائما يا ناستنكا • وأحسب أنني سأموت هكذا •

قالت قلقة :

- لا ! هذا مستحيل ! هذا لن يكون • • وهل أظل أعيش أنا أيضا
قرب جدتي الى الأبد ؟ هل تعلم أن الحياة على هذا المنوال ضارة مؤذية ؟
صحت أقول وقد أصبحت لا أملك ضبط فكري :

- نعم يا ناستنكا • أعرف ذلك • ولقد أصبحت لا أجهل أنني
ضيعت أحسن سنى عمرى • واني لأتألم من هذا اليقين • لا سيما الآن
بعد أن أرسلك الله الى • ياملاكى الطيب من أجل أن تعلمنى هذا وأن
تبرهننى لى عليه • واني اذ أحدثك ليبدو لى غريبا أن أفكر فى المستقبل
الذى يمثل العزلة والوحدة ويمثل تلك الحياة الباطلة نفسها • وما عسى
أن يكون موضوع أحلامى بعد اليوم وقد عشت واقع السعادة بالقرب
منك ؟ بورك فيك أيتها الفتاة العزيزة • لأنك لم تصدينى ولأنك أتحت لى
أن أقول اننى عشت فى حياتى أمسيتين •

صاحت ناستنكا تقول والدموع تتلألأ فى عينيها :

- لا ، لا ، هذا لن يكون ! لن ننفصل هكذا ! ما أمسيتان ؟

- آه يا ناستنكا ، ناستنكا • • ليتك تعلمين كم صالحتى مع نفسى •
لن أحكم على نفسى بعد الآن حكما يبلغ مبلغ سوء حكمى عليها من قبل •
لن أظن أنني ارتكبت خطيئة ، اننى ارتكبت جريمة فى حياتى ، لأن هذه
الحياة جريمة • ولا تحسبى أنني أبالغ ناشدتك الله ! لا تحسبى هذا
ياناستنكا ، فأننى أعانى حقا لحظات رهيبة من الحزن ، واني لأقتنع حينذاك
أنه يستحيل على أن أبدأ حياة حقيقية • لقد فقدت كل معرفة بالواقع ،
فقدت كل شعور بالواقع ؟ وان ساعات اليقظة التى أعيشها بعد ليل خيالية •

لهي رهبة الوقع في نفسى • وأنا في أثناء ذلك ، أرى جمهرة البشر تدور في اعصار الحياة من حولي ، اعصار الحياة الواقعية التي لا تذهب بدد كحلم ، الحياة التي تتجدد تتجددا متصلا وتبقى فتية ريانة الفتوة • ولا كذلك أحلامي التي تبقى هي هي حزينة عادية أسيرة لظلمة الفكر ، لأول غمامة تحجب الشمس فتحزن قلوب أهل بطرسبرج الذين يحبون الضياء هذا الحب كله • ان هذه الاحلام لتسأم وتنضب وتنتثر غبارا ، فإذا لم تجيء حياة جديدة تغذيها فمن هذا الغبار انما يستعود وتنشأ حياة التهاويل والأخيلة • والنفس ترغب أثناء ذلك في شيء آخر ولكن الحالم يبحث عبثا في أحلامه القديمة ، كمن يبحث في الرماد عن شرارة يمكن أن تعيد الحركة الى قلبه الذي جلده الصقيع ويمكن أن تثبت الحياة مرة أخرى في كل ما كان حيبا الى قلبه ، وحنانا وجمالا في نظره ، وما كان يستدر دموع عينيه ويفتته عن نفسه تلك الفتنة الساحرة • هل تعلمين يا ناستكا أنني اضطررت للاحتفال بأعياد سنوية لعواطفى ، لما عيذته دائما ولم يوجد في الواقع قط • ذلك أن هذه الاحتفالات السنوية تذكرني بتلك الأحلام الغبية الباطلة التي اختفت هي نفسها • الأحلام تتبدد أيضا ، أليس كذلك ؟ هل تعلمين أنني أحب تذكر الأماكن التي كنت فيها سعيدا وأن أعود فأراها ؟ اننى أحب أن أعيش الحاضر من خلال ذكرى الماضي ، وكثيرا ما أهيم على وجهى حزينا بلا هدف أقصد اليه في شوارع بطرسبرج ودروبها - وما أكثر ما هنالك من ذكريات في كل مكان - فأتذكر أنني منذ سنة تماما ، في هذه الساعة عينها ، كنت أسير على هذا الرصيف عينه منهوك القوى مهدود الروح كالآن؟ وكانت أحلامي حدادا ، ولم تكن حياتى أقرب الى الفرح كثيرا ، ولكن يخيل الى أنني كنت أحيا حياة أجمل من حياتى الآن ، وأن الأفكار السود لم تكن تسكن دماغى قوية عنيفة كما تسكن فيه الآن ، واننى لم أكن أعانى من هذه الندامات

وآلام الضمير التي لا تدع لى اليوم راحة • واننى لأسائل نفسى : أين أحلامك كلها اذن ؟ ولشد ما تجرى السنين سريعة سريعة ! أحسن ما فى حياتك مات • أأنت قد حيت حقا ؟ انظر كيف صار كل ما حوالبك جليدا من الصقيع ، وستنقضى سنون أخرى وستظل تعيش هذه العزلة الرهية ثم تدب فىك الشيخوخة العاجزة • عالمك الحياى ستحول ألوانه ، وأحلامك الكثرية ستسقط سقوط الأوراق الصفرة عن أشجارها فى الشتاء • • • آه يا ناستكا ما أبأس أن يبقى المرء وحيدا ، وحيدا كل الوحدة • وما أبأس ألا يكون له ما يتحصر على انقضائه • • • لأن كل ما فقده اما كان عدما ياطلا ، صفرا غيبا ، حلما عابرا •

دمدمت ناستكا تقول وهى تكفكف دمعها :

- كفى ! لا تحزنى مزيدا من الحزن • انتهى الأمر الآن • وسنكون بعد اليوم اثنين • ولن نفترق مهما يحدث لى • اسمع ! أنا فتاة بسيطة على حظ ضئيل من الثقافة ، رغم أن جدتى قد سمّت لى أستاذة • ولكننى أفهمك لأننى عشت بنفسى كل ما قصصته علىّ الآن • صحيح أننى ما كنت لأستطيع أن أقصه هذا القص الجميل (كذلك أضافت تقول خجلى) لكننى شعرت بهذا كله حين ربطتنى جدتى الى ثوبها بدبوس ، ويسعدنى أنك أفضيت الىّ بذات نفسك • أنا أعرفك الآن ، أعرفك حق المعرفة ، وأريد أن أحكى لك حكايتى دون أن أخفى عنك شيئا • وسوف تسدى الى بالنصح بعدئذ • أليس كذلك ؟ ألا تعدنى بهذا النصح يا من أنت على هذا الجانب العظيم من الذكاء ؟

أجبتها أقول :

- آه يا ناستكا ! ما أسديت فى حياتى بنصيحة لأحد ، فليس لى

اذن تجربة ، ولكننى أعلم أننا اذا عشنا بعد اليوم معا فسنكون قادرين على
أن ينصح كل منا الآخر كما لا يستطيع أحد أن ينصحه • أما بعد
يا ناستكا اللطيفة ، فأية نصيحة تريدان ؟ كلمينى بصراحة ، انتى فرح •
انتى سعيد • انتى مرتاح البسال مطمئن النفس • وهأنذا أصغى اليك
ومأحدثك بغير اكراه •

قاطعتنى ناستكا ضاحكة تقول :

— لا ، لا ، أنا لاأريد نصيحة ذكية فحسب بل أريد نصيحة صديق ،
نصيحة أخ ، كأنك قد أحبيتنى طوال حياتك !
صحت أقول مفتونا :

— موافق يا ناستكا ، موافق ، ولو كنت قد أحبيتك منذ عشرين
عاما لما كان حبى أقوى منه الآن •

قالت ناستكا :

— هات يدك •

فأجبتها وأنا أمد اليها يدى :

— اليك يدى •

قالت :

— الآن أبداً نصتى •

قصتنا

- لقد علمت نصف قصتي اذ علمت أن لى جدة عجوزا ...

قاطعتها أقول :

- اذا كان النصف الآخر موجزا ايجاز النصف الأول ...

- صه ! استمع ! ثم اننى أطلب شرطا : أن لا تقاطعنى قط ، والا لم أستطيع أن أكمل . لى اذن جدة عجوز عشت معها منذ كنت بنية صغيرة بعد أن فقدت أبى وأمى فى سن مبكرة جدا . وأغلب الظن أن جدتى كانت فى الماضى غنية ، لأنها تحب أن تتذكر أيامها الخوالي التى كانت خيرا من أيامها الآن . وقد علمتنى اللغة الفرنسية ، ثم سمت لى أستاذًا ، فلما بلغت من عمري السنة الخامسة عشرة (وأنا اليوم فى السابعة عشرة) انتهت دراستى . وفى ذلك الحين انما ارتكبت حماقات . لن أقول لك ماذا فعلت . ولكن اعلم ان الاخطاء التى قارفتها لم تكن كبيرة . غير أن جدتى نادتنى فى ذات صباح وقالت لى انهسا بسبب عماها لا تستطيع أن تراقبنى ، ثم تناولت دبوسا شدتنى به الى ثوبها ، وأعلنت لى عندئذ أننا سننزل نعيش على هذا النحو حياتنا كلها اذا لم يصبح سلوكى أقرب الى العقل والحكمة . معنى هذا اننى أصبحت لا أستطيع أن أسير خطوة واحدة لأعمل وأقرأ وأتعلم . أصبح على أن أمكث قرب جدتى دائما .

وفى ذات مرة أردت أن أستعمل المكبر والحيلة ، فرجوت تكلا أن تأخذ مكانى . ان تكلا خادمتنا وهى صماء . حلت تكلا محلى ، ونامت جدتى على مقعدها . وأسرعت أنا أمضى الى صديقة لى ... واتتهى الأمر

نهاية سيئة فحين استيقظت جدتي ، كنت ما أزال غائبة فطلبت شيئاً لظنها
أننى قريبها ، فأدركت تكلاً ذلك ، ولكنها لم تستطع أن تلبى رغبتها ،
وفكرت فيما عساها تفعل فانتهدت الى هذا القرار : انتزعت الدبوس
وهربت ***

توقفت ناستكاً عن الكلام وهى تنفجر ضاحكة فضحكت معها فسرعان
ما كفت عن الضحك وقالت :

– لا تهزأ بجدتى • اننى أضحك لأن الأمر كان سخيفاً • • وما
عسائى أفعل وهى عمياء ! ولكننى أحبها مع ذلك • ما أكثر ما وعظمتنى
يومئذ بعد أن أمرتنى أن أظل قريبها ومنعتنى من أية حركة •

نسيت أن أقول لك اننا نملك بيتاً ، أعنى أن جدتى تملك بيتاً •
هو بيت ليس له الا ثلاثة نوافذ على واجهته ، وهو من خشب كله ،
طاعن فى السن كجدتى ، وفى أعلاه غرفة تحت سقف القرميد • وقد
جاء مستأجر جديد يسكن تلك الغرفة •

قلت :

– اذن كان يسكنها قبل المستأجر الجديد مستأجر قديم •

أجابت :

– وكان يعرف كيف يصمت خيراً منك ! حقاً كان لا يكاد يحرك
لسانه • أنه شيخ قصير أعرج أخرس أعمى أعرج ، لذلك لم يقو على
البقاء طويلاً فمات • فجاءنا بعده بقليل مستأجر جديد (اننا لا نستطيع أن
نعيش بغير مستأجر لأن معاش جدتى هو موردنا الوحيد) • وشأننا
المصادفة التى تشبه العمى أن يكون المستأجر الجديد شاباً • ولم يكن هذا

المستأجر الشاب من مدينتنا ، وانما وقد اليها لقضاء زمن . واذ لم يساوم
فقد أجرته جدتي العرفة فورا ، ونادتني وسألتني : « قولى لى يا ناستكا
أهو شاب أم لا ؟ » فلم أشأ أن أكذب عليها فقلت : « لا يمكن القول انه
فتى ولكنه ليس بالكهل . فامعنت جدتي تسألني : وهل هو حسن المنظر
وسيم الطلعة ؟ فقلت لها : نعم هو كذلك ، لاننى لم أشأ أن ألدب ايضا .
فصاحت جدتي عندئذ تقول : « آه يا للمصيبة يا للمصيبة !! ... لقد
سألتك هذا السؤال يا ناستكا حتى لا تنظري اليه كثيرا . وبالهذا الزمان
من زمان ! مستأجر حسن المظهر ثم هو لا يدفع أجرا أكبر ! ... لم
يكن الأمر كذلك فى زماننا ! » ان جدتي تتحدث دائما عن « العهد الحالى »
الجميل ، فتقول فيما تقول : انها كانت يومئذ فتية ، وان الشمس كانت
يومئذ شابة ، وان الشمس كانت أكثر دفئا . وكانت القشدة لا تفسد
بسرعة كما تفسد فى هذا الزمان . كان كل شيء حسنا فى ذلك العهد
الجميل ! وسكت أنا وفكرت : « لماذا تسألني جدتي هل هو جميل وهل
هو فتى ؟ » . على أننى ألقيت هذا السؤال على نفسى ببساطة دون أية فكرة
ميتة ، واستمررت أعد الأباذيم ، وأحيك الجوارب ، ثم نسيت كل
شيء .

وهذا هو المستأجر الجديد يجرى إلينا فى ذات صباح يذكرنا بأن
ورق جدران غرفته يجب تغييره ، فقالت لى جدتي عندئذ (وهى مكتار
كما تعلم) : « هيا أسرعى الى غرفتي يا ناستكا فأتني بكيسى » . فوثبت
فورا وقد احمر وجهي لا أدري لماذا ، ناسية نسيانا كاملا أننى مشدودة الى
ثوب جدتي بدبوس ، فبدلا من ان اتزع الدبوس فى رفق حتى لا يلاحظ
المستأجر شيئا ، وثبت مسرعة ، فاذا بالمقعد وجدتي يتبعانى فى رحلتى .
فلما قدرت أن المستأجر قد عرف عنى عندئذ كل شيء ازددت احمرارا ،
وتسمرت فى مكاني لا أتحرك ، وانفجرت باكىة فى نسيج . لقد شعرت

فى تلك اللحظة بخجل رهيب وعار فظيع ، وتمنيت لو أغور منه متر
تحت الارض ! صاحبت جدتى تسالنى : « لماذا وقفت ؟ » فازداد بكائى ..
فادرك المستأجر عندئذ اضطرابى ، فحيانى وخرج . ومنذ ذلك الحين
أصبح يملكنى قلق قاتل كلما سمعت ضجة فى الدهليز ، فأقول لنفسى :
« انه المستأجر » ، وأسارع فأنزع الدبوس برفق وهدوء ، ولكنه كان
لا يجىء . وانقضى أسبوعان ، وكلف المستأجر تكلا أن تقول لنسا ان
لديه كتب فرنسية كثيرة شائعة جدا ، وأن تسألنا هل تأذن لى جدتى أن
أقرأ لها هذه الكتب لأسليها ، ولكن جدتى سألت عن هذه الكتب أهى
كتب فاضلة ، وأضافت تقول لى : « ان لم تكن فاضلة فلن تستطيعى أن
تقريها يا ناستكا ، والا علمت الشىء والرذيلة » .

سألتها :

— لماذا يا جدتى ؟ ما عسى أن تضمه هذه الكتب ؟

— هى كتب تتحدث عن رجال يغوون البنات الفاضلات ، اذ يعدونهن
بالزواج ، فيأخذوهن من أسرهن ثم يهيجرون هاته الفتيات الشقيات
ويتركونهن للقدر يبعث بهن على ما يشاء ، فيهلكن عندئذ فى حياة بائسة
تعيسة . لقد قرأت كثيرا من تلك الكتب التى بلغ مؤلفوها من الحذق
والبراعة فى كتابتها أن المرء يقضى ليلته كلها يقرأها ثم يقرأها . هل
سمعت يا ناستكا ؟ اياك أن تفتحي هذه الكتب ! ما هى الكتب التى أرسلها
هذا الشاب !

— هى روايات بقلم والتر سكوت يا جدتى !

— والتر سكوت ؟ لا شك أن فى الأمر شيئا . انظرى يا ناستكا ..

هل ترين فى هذه الكتب بطاقات صغيرة حلوة ؟

— لا يا جدتى ... ما من بطاقة ...

- انظري تحت الغلاف ! ان هؤلاء الأوغاد يضعونها في كسبر من
الأحيان تحت الغلاف ***

- لا شيء تحت الغلاف أيضا يا جدتي ***
- حسن اذن **

وشرعنا نقرأ والتر سكوت ، واستطعنا في أقل من شهر أن نقرأ
نصف الكتب التي أعارنا اياها جارنا ، ثم أرسل الينا كتباً أخرى فقرأت
بوشكين ، فما هي الا فترة قصيرة حتى أصبحت لا أستغنى عن القراءة ،
وبلغت من ذلك أنني كففت تماما عن التساؤل : « كيف أستطيع أن
أتزوج أميرا صينيا ! » وفي ذات يوم التقيت بالمستأجر على السلم • كانت
جدتي قد أرسلتني في أمر من الامور • وقف الشاب فاحمر وجهي واحمر
وجهه أيضا ، ثم ابتسم وحياني وسألني عن أبناء جدتي وقال لي : « هل
قرأت كسبي ! » فأجبت : « نعم » • فقال : « أيها أحييت ؟ » • فقلت :
« ايفانهويه * وبوشكين » •

كذلك انتهى حديثي •

وبعد أسبوع التقيت به مرة أخرى ، وكنت في هذه المرة قد
شعرت بالحاجة الى الخروج من أجل نفسي • كانت الساعة هي الثالثة ،
وكان المستأجر عائدا الى المنزل • قال لي : « يومك سعيد » • فأجبت :
« يومك سعيد » •

- أليس يضجرك كثيرا أن تلبني مع جدتك طوال النهار ؟

فاحمر وجهي من هذا السؤال احمرارا قويا ، وشعرت بخجل
شديد ، وأحزنتني أن أرى الغرباء يسألونني عن هذا الامر ، وأردت أن
أنصرف دون اجابة ، ولكنني لم أقو على ذلك •

- اسمعى ! ان لك قلبا طيبا نبيلا ، فاعذرينى اذا أنا قلت لك هذا الكلام ! ولكننى أريد لك الخير أكثر من جدتك نفسها ! أليس لك أية صديقه ؟

فأجبت به بأن لى صديقه هى ماشنكا • ولكنها سافرت الى بسكوف •

- هل تحبين أن تصحبنى الى المسرح ؟

-الى المسرح ؟ وجدتنى ؟•••

- تستطيعين أن تنصرفى •• بهدوء ورفق •• فما يشعر بخروجك أحد •

- لا ، لا أريد أن أخدعها ! الى اللقاء !

- الى اللقاء اذن !

كذلك أجاب دون أن يزيد شيئا •

ولكنه جاء الينا بعد العشاء ، ولبت يتحدث مع جدتى مدة طويلة •
وسألها هل هى تخرج أحيانا ؟ وهل لها أصدقاء ؟ ثم قال فجأة : « لقد استأجرت اليوم شرفة فى الأوبرا • انهم يمثلون « حلاق اشيلية * » •
وكان يجب أن يصحبنى بعض الاصدقاء ، غير أن مانعا طرأ فى آخر لحظة ، فأصبحت الشرفة خالصة لى وحدى •

صاحت جدتى :

- « حلاق اشيلية » ! ••• تلك التى كانوا يمثلونها فى العهد الماضى

الجميل !

قال :

- نعم هى نفسها !

ونظر الى • وكنت أنا قد فهمت كل شيء ، فأخذ قلبي يخفق أملا
ورجاء •••

قالت جدتي :

- آه لقد غيت بنفسى دور « روزين » * فى عرض بيتنا ذات مرة
••• اننى أعرف هذا الدور معرفة جيدة •••

قال المستأجر :

- تعالوا اذن معى ، والا ضاعت الأماكن سدى •

قالت الجدة :

- نعم هيا بنا ! ولیمَ لا ؟ ان ناستنكا لم تذهب يوما الى المسرح •
ما أجملها متعة يا رب !

وما لبثنا أن ارتدينا ملابسنا وخرجنا • كانت جدتي تحب الموسيقى
كثيرا • وكانت عدا ذلك طيبة القلب جدا • فهي تحب أن تسرنى • وما
كان لنا أن نذهب الى المسرح وحدنا • لا أستطيع أن أصف لك الأمر
الذى أحدثته فى نفسى أوبرا « حلاق اشيلية » • ولكن المستأجر ظل
طوال تلك السهرة ينظر الى بعينين فيهما من الطيبة ويحدثنى بكلام فيه
من المذوبة ما جعلنى أدرك فورا أنه قد أراد أن يمتحننى فى الصباح
حين عرض على أن أخرج معه وحيدة • ما كان أشد فرحى ! لقد رقدت
على فراشى فى تلك الليلة فخورة مفتونة • كان قلبي يخفق خفقانا شديدا ،
حتى لقد أصابتى حمى ، وحلمت طول الليل بـ « حلاق اشيلية » •
وقدرت عندئذ أن جارنا سيكثر اختلافه إلينا وتردده علينا • ولكن ظنى
لم يصدق • لقد انقطع عن زيارتنا انقطاعا يشبه أن يكون تاما • لعله أصبح
لا يزورنا الا مرة واحدة فى الشهر • وهو لا يزورنا هذه الزيارة أيضا

الا ليدعونا الى المسرح • ذهبنا الى المسرح مرتين آخرين • ولاحظت أنه كان يشفق على ويرأف بى ويرثى لحالى اذ يرانى وحيدة مع جدتى دائما • ولكننى كنت أنا أفقد الهدوء يوما بعد يوم • وأصبح يستحيل على أن أبقى ساكنه النفس مطمئنه البال ، حتى لقد صرت اعجز عن القراءة ، ولا أستطيع أن أعمل ؛ وكنت أبكى فى كثير من الأحيان ! وسرعان ما نجلت ، وأوتيتك أن أمرض • لقد انتهى موسم المسارح • وأصبحنا لا نرى جارنا البتة ، فاذا صادفته مصادفة ، وذلك يكون على السلم دائما ، حيانى صامتا برصانة وجد ، كأنه لا يريد أن يكلمنى ، فأتسمر على الدرجة التى أكون عليها من السلم ، بينما يكون هو قد خرج ، وكنت أحمر عندئذ احمرارا شديدا ، لأننى كنت لا أراه الا ويصعد الدم الى رأسى •

هأنذا أوشك أن أختتم قصتى • منذ سنة تماما فى شهر أيار (مايو) جاء المستأجر يكلم جدتى • كان قد سوّى جميع شؤونه وأعماله ، فعليه أن يعود الى موسكو • وسيملك هنالك سنة • فلما سمعته يقول ذلك الكلام شحب لونه ، وتهاويت على كرسى كالميتة • لم تلاحظ جدتى شيئا بطبيعة الحال ، أما هو فقد خرج بعد أن حيانا مودعا •

ماذا كان على أن أعمل ؟ فكرت طويلا ، طويلا ••• ثم عزمت أمرى أخيرا ••• قلت لنفسى : ما دام مسافرا فى الغد ، فسوف اراه منى نامت جدتى ••• وذلك ما وقع • حزمت جميع أثوابى وملابسى فى صرة ، وصعدت اليه وأنا أقرب الى الموت منى الى الحياة • أحسب أنى سلخت ساعة برمتها فى صعود السلم ، فحين فتحت عليه الباب فأبصرنى ، أطلق صرخة • لا شك أنه ظننى شبحا من الاشباح • ذلك أننى كنت لا أكاد أستطيع الوقوف على ساقى • فلما رآنى على هذه الحال أسرع يجرى • بما لينعشنى به • كان قلبى يبلغ من شدة الخفقان أن صداعا ألم

برأسي وأنتى أصبحت لا أفهم ما يجرى من حولى • وثبت الى رشدى بعد قليل ، فوضعت صرتى على السرير ، وجلست غارقة فى دموعى ، دافئة رأسى فى يديه • وسرعان ما فهم هو كل شىء • فيها هو ذا يقف أمامى صاحب الوجه ينظر الى نظرة تبلغ من الحزن أن قلبى تفتقر لها •

قال لى :

— ناستكا ! اسمعنى • لا أستطيع شيئاً ! أنتى فقير ، وليس لى أى مركز ، فكيف عسانا نعيش اذا أنا تزوجتك ؟

تحدثنا طويلاً ، وفقدت صوابى آخر الامر فقدانا تاماً ، فأعلنت له أنتى لن أستطيع أن أعيش بعد الآن مع جدتى • قلت له أنتى سأهرب فلست أريد أن أبقى مشدودة الى جدتى بدبوس ، وأنتى سأتبعه الى موسكو شاء أم أبى ، فقد أصبحت لا أستطيع أن أستغنى عنه • كان الحبل والحب والكبرياء ، كان كل شىء فى نفسى يتكلم فى آن واحد • وتمالكت على السرير مرتعشة أشد الارتعاش • كنت أشعر بذعر من تصورى رفضه •

لبت صامتاً بضع لحظات ، ثم نهض واقترب منى ، وتناول يدى ، وقال لى منفعلأ أشد الانفعال :

— عزيزتى الطيبة ناستكا ، أقسم لك أنتى اذا استطعت يوماً أن أتزوج ، فلسوف تحققين أنت وحدك سعادتى • نعم انت وحدك ••• اسمعنى ما سأقوله لك : أنا مسافر الى موسكو ، وسأقضى هنالك سنة تماماً ، وآمل أن أسوى أمورى ، فاذا عدت بعدئذ فوجدت أنك لم تتسنى ، سعدنا معاً ، أقسم لك على ذلك • أما الآن فلست أستطيع ولا يحق لى أن أعدك بشىء • على أنتى أوكد لك أننا اذا لم نحقق سعادتنا فى السنة

القادمة ، فسنحققها فى يوم من الايام حتما ، هذا اذا لم تؤثرى على
شخصا آخر بطبيعة الحال ! ذلك أثنى لا أستطيع ولا أجرؤ أن أربطك
بعهد !

تلك كانت أقواله • وسافر فى الغداة • اتفقنا على أن لا أحدث
جدتى بشئ • فكذلك أراد • هذه هى قصتى أنهيت سردها لك تقريبا •
وقد تصرمت السنة وعاد صاحبى الى بطرسبرج وهو هنا منذ ثلاثة أيام ،
و ...

صحت أسأله مستعجلا معرفة النهاية :

- وماذا ؟

فأجابت ناستكا وكأنها تجاهد نفسها ••

- ما رأيته بعد ! ولا تلقيت منه كلمة ! ... لا شئ •••

وصمتت وخفضت رأسها وانفجرت تنتحب انتحابا قويا تمزق له
قلبى •

لم أكن أتوقع هذه الخاتمة •

قلت بصوت وجل متردد :

- ناستكا ! لا تبكى ! ناشدتك الله ! لعله لم يصل بعد ، مايدريك ؟

صاحت ناستكا تقول :

- بل وصل • انه هنا • أعرف ذلك • ولقد وضعنا هذا الشرط فى
الليلة التى سبقت سفره حين تنزهنا هنا على رصيف النهر • خرجنا من
البيت مما بعد حديثنا ، وكانت الساعة العاشرة ، وجلسنا على هذا المقعد

وقد كفت عن البكاء • كنت سعيدة بالاصفاء الى كلامه ••• كل السعادة
••• قال انه سيأتى الينا متى عاد ، فاذا كنت ما أزال أحبه كاشفنا جدتى
بكل شيء • وقد وصل ، فأنا أعرف ذلك ، ولم يبلغنى منه شيء بعد •••
قالت ذلك وطفقت تبكى من جديد •

صحت أقول واذا وقد تملكنى غم شديد :
- رياه ! ألا نستطيع أن نفعل شيئا لدفع هذا الكرب ؟ قولى ياناستكا:
ألا يمكننى أن أذهب اليه ؟

فأجابتنى وهى ترفع رأسها بسرعة وقوة :
- أهذا معقول ؟

قلت وقد عدت الى صوابى :
- طبعاً لا ! ولكنك تستطيعين أن تكتبى اليه رسالة •
فأجابت بلهجة قاطعة وهى تخفض رأسها من جديد متحاشية
نظرتى :

- لا ! هذا لا يمكن أن يكون •
فتابعت كلامى ملحاً :

- لماذا يا ناستكا ؟ تقى بى ••• فلن أسئ نصحك • ان من الممكن
أن يسوئ كل شيء • لقد خطوت الخطوة الاولى ، فلماذا تحجبين
الآن ؟

- لا أستطيع ! لا أستطيع ! لا أريد أن أكرهه اكراها •••
قاطعتها أقول مبتسما :

- يا عزيزتى الصغيرة ناستنكا ! أنت مخطئة ! ان من حقك أن
تخاطبيه ، لأنه قطع لك عهداً ، ثم اننى أفهم من كل ما قصصته على أنه
رجل مرهف العواطف رقيق المشاعر •

وتابعت أقول وأنا أزداد اقتناعاً بمنطق براهينى :

- لقد كان سلوكه حسناً جداً : قطع لك على نفسه عهداً ، وأعلن
أنه لن يتزوج غيرك ، وترك لك حرية رفضه اذا شئت ... فبوسعك اذن
أن تقومى بالخطوة الأولى ، ذلك من حقك تماماً ما دمت متمازين عليه
بقدرتك على أن تجعليه فى حل من عهده ...

- ولكن ما عساك تكتب ؟

- أكتب ماذا ؟

- الرسالة •

- أكتب هكذا : « السيد المحترم ... »

- هل ضرورى أن تكتب : « السيد المحترم ؟ »

- تماماً ... ثم اننى أرى ...

- طيب .. طيب .. وماذا تكتب بعد ذلك ؟

- « السيد المحترم ! .. معذرة اذا أنا .. لا .. لا داعى الى أى

اعتذار .. فالأمر مسوغ من تلقاء نفسه :

« اكتبى فقط ما يلى » :

« أكتب اليك راجية أن تغفر لى نفاذ صبرى ، فان الأمل قد جعلنى
سميدة سنة بكاملها • أفأكون مذنبه اذا أنا لم أطلق احتمال الشك يوماً

واحدًا ؟ ترى هل تغيرت نياتك وقد عدت ؟ ان رسالتى ستبتك فى هذه
الحالة بأننى لا أدینك ، فليس يُدان امرؤ لأنه لا يملك زمام قلبه • ذلك
هو القدر !

« انك امرؤ رفیع العواطف ، فلن تبسّم اذن حين تقرأ هذه الاسطر
التي تدل على نفاذ الصبر ولن ترميها الى الارض • تذكر أن فتاة بائسة
هى التي تكتب هذه الاسطر • اننى وحيدة وليس لى أحد يرشدنى
ويسدد خطاى ويسدى الىّ النصيح • ولم أستطع أبدا أن أسيطر على
قلبي ، فسامحنى اذا كان قد نبث شيء من الشك فى هذا القلب • انك
لا يمكن أن تريد اذلال تلك التي أحبتك ذلك الحب كله وما تزال
تحبك ، لا تريد اذلالها ولو بالخيال » ♦

هتفت ناستنكا تقول وقد سطع الفرح بعينها :

- نعم •• نعم •• ذلك ما كنت أفكر فيه • لقد وجدت لى مخرجا
من شكوكى ! ان الله نفسه قد أرسلك الىّ ! أشكرك أجزل الشكر ،
وأعرب لك عن أعماق الامتنان •
- لماذا أرسلنى الله اليك ؟

كذلك أجبتها وقد أسعدنى أن أتأمل وجهها الصغير الذى أشرق
بشراً وبهجة •

قالت :

- من أجل هذا كله !

- آه يا ناستنكا ! اننى أنا الذى أشكر لك أن قد أتيح لى أن ألقاك ،
ولسوف تحين دائما فى ذكراى •

- كفى ! كفى ! استمع الى الآن ! قلت لك اننا قد تواضعنا على هذا الشرط ، وهو أن يبلغنى عودته متى عاد برسالة يودعها احدى صديقتى المخلصات التى تجهل عنا كل شئ . ، فاذا لم يستطع أن يكتب لأن المرء لا يقدر أن يقول كل شئ فى رسالة ، جاء الى هذا المكان نفسه يوم وصوله ذاته فى الساعة العاشرة . ولقد بلغنى نبأ وصوله . ولكننى لم أتلق منه شيئاً ، ولست أستطيع أن أثرك جدتى فى الصباح ، فانقل أنت هذه الرسالة الى صديقتى غدا فى ساعة مبكرة ، فتولى هى ارسالها اليه ، فاذا جاء منه جواب ، حملته الى بنفسك فى مساء غد .

- ولكن الرسالة لا بد من كتابتها ، فلن نستطيع أن نتلقى الجواب اذن الا بعد غد .

فأجابت تقول وقد اضطربت بعض الاضطراب :

- الرسالة ... الرسالة .. ولكن ...

ولم تتم كلامها بل أشاحت وجهها واحمرت حتى أصبحت بلون الورد ، ثم اذا أنا أشعر برسالة توضع فى يدي . لا شك أنها كتبت وختمت منذ مدة ؟ وبرقت فى خيالى ذكرى حيية لطيفة :

- رو ... زين

كذلك غنيت ، ثم غنيا معا روزين ، وأوشكت أن أعانقها فى غمرة هذا الفرح الذى ملأ نفسى . وكانت قد ازدادت احمرارا . وهى تضحك الآن من خلال دموعها التى ترتعش على أهدابها الجميلة كأنها اللآلىء .

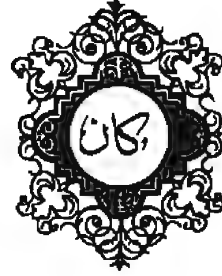
وقالت أخيراً بسرعة :

كفى •• كفى ! •• الى اللقاء ! اليك الرسالة ! واليك العنوان الذى
سننقلها اليه ! الى اللقاء ! الى الغد ! وضغطت يدي ضغطاً قوياً ، وجيتى
مودعةً بحركة من رأسها وانصرفت تشق طريقها نحو الجادة الصفرى
كالسهم سرعة •• لبثت فى مكانى زمناً طويلاً أشيّعها بنظراتى •

— الى الغد ! ••

كذلك ترجعت هذه الكلمات فى نفسى حين غابت عن بصرى •

الليلة الثالثة



النهار حزينا ممطرا لا تتخلله فترات صحو ، كما
ستكون شيخوختي • ان أفكارا غريبة قد عذبت
روحي وان مسائل مبهمه مضطربة قد هزت
فكري ، وأنا لا أقوى على حلها ، لا ولا أرغب

في حلها •

لن نلتقي اليوم • وحين افترقنا أمس كانت السحب تغطي السماء
وكان الضباب ينتشر في الفضاء • قلت لها : ان الجو سيكون في الغد رديئا •
فلم تجب بشيء • ذلك أن هذا النهار سيكون مشرقا بضوء الشمس في
نظرها ، فما من غيمة يمكن أن تعكر سعادتها • لقد قالت لي :

— اذا أمطرت فلن نلتقي لأنني سأمكث في بيتي •

ولكنني أملت أن لا تطفن الى هطول المطر ، وأن تأتي مع ذلك •
وأمس كان لقاءنا الثالث ، كانت ليلتنا البيضاء الثالثة • لشد ما يتفتح
الانسان ويزدهر ويزداد جمالا حين يملأ الفرح قلبه وحين تفيض نفسه
بالسعادة !

وكأن القلوب تريد أن ينتشر بعضها في بعض ، فترغب أن ترى من ،

حولها البهجة والضحك ! وما أشد سريان هذا الفرح بالعدوى !
كان فى أقوال ناستنكا لى كثير من حنان وطيبة وحذب .. وكانت
نفسها تفيض مداراة لى ، فهى تلاطفنى وتشجع قلبى . وما أروع الفتنة
اللاخاذه فى ذلك الدلال والفتنج اللذين كانت سمادتهما تضيفهما عليها ؟
حتى لقد نسيت ... فخطر ببالى فى بعض اللحظات أن ...

يا رب ! كيف أمكن أن يدور فى خلدى ذلك ! كيف أمكن أن
أكون أعمى هذه العماوة كلها ، بينما لم يكن شىء لى أنا ، وكان كل شىء
للآخر . لم يكن حنانها على ولم تكن ملاطفاتها لى ولم يكن حبها اياى ،
لم يكن هذا كله الا ثمرة فرحها بلقائها القريب معه ، والا الرغبة فى
اشراكى فى سعادتها . فلما رأت انه لم يأت ، وأنا انتظرنا عبثا ، غدت
قائمة خجلة وجلة . لم تعد حركاتها ولا أقوالها منطلقة خفيفة فرحة كما
كانت من قبل . والغريب أنها ضاعفت ملاطفاتها لى كأنها تريد على غير
شعور منها أن تملأنى بمخاوفها وبرغبتها . وفجأة بلغت صغيرتى ناستنكا من
فرط الحجل والحشية والخوف أنها أدركت أخيرا فيما أعتقد أننى أحبها ، وأننى
أشفق على حبنى البائس . فكذلك نحن : نشعر بألم الآخرين شعورا أعمق
حين نكون أشقياء معذبين . ان عاطفتنا تشد عندئذ وتقوى ...

لقد جئت اليها طافح القلب . وقاسيت كثيرا من العناء فى انتظار
لحظة اللقاء . لم أكن أتنبأ بما سأشعر به حين ذاك ، ولم أكن أوجس
الحائمة ، وكانت هى مشرقة الوجه تنتظر جساوبه . وكان الجواب أن
يحضر هو نفسه ، الانسان الذى تحبه . وصلت قبلى بساعة ، فكانت فى
أول الامر تضحكت لكل شىء ، لكل كلمة من كلماتى . وقد بدأت أتكلم
نم سكت فجأة .

قالت :

– هل تعلم لماذا أنا سعيدة هذه السعادة كلها برؤيتك ؟ هل تعلم
لماذا أحبك هذا الحب كله ؟
قلت وقد اختلج قلبي :
– لماذا ؟

– اننى أحبك لأنك لم تقع فى حبى • لو كان شخص آخر غيرك
فى مكانك لما تركنى وشأنى هادئة اليال بل لعذبنى عذابا شديدا ولسقط
مريضا ... انك طيب جدا •

قالت ذلك وضغطت يدى ضغطا بلغ من القوة أننى كدت أصرخ •
وانفجرت ضاحكة • قالت بعد لحظات بصوت رصين :

– ولكنك صديقى ، أرسلك الله الى • ما كان عسى أن تصير اليه
حالى لولاك الآن ؟ ألا ما أعظم اخلاصك وتنزهك عن الغرض ! ألا ما أظهر
عاطفتك وأصفاها وأنقاها ! حين سأزوج سنبقى صديقين ، سنبقى كأخوين
بل أكثر • وسأمحضك من الحب بقدر ما أمحضه هو تقريبا ••

حزنت حزنا رهيبا وأنا أسمع هذه الكلمات • ومع ذلك فان شيئا
يشبه أن يكون ضحكة داخلية قد تحرك فى نفسى • قلت لها :

– أنت خائفة • انك تقدرين أن الآخر قد لا يأتى ، أليس كذلك ؟
أجابت :

– ما هذا الكلام الذى تقول ؟ لو كنت أقل سعادة فلربما كنت أبكى
من سوء ظنك هذا ومن ملاماتك هذه ! على أنك قد أنبت فى نفسى معانى
سأفكر فيها فى المستقبل ، بل اننى أستطيع أن أعترف لك منذ الآن بأن
فيما قلته شيئا من حق • اننى أنتظر ، وأحسب أننى مسرفة فى الابتهاج
والفرح • ولكن كفانا حديثا عن العواطف !

وسمنا فى هذه اللحظة وقع خطوات ، وظهر لنا رجل فى الظلام •

كان مقبلا علينا • ارتعجنا كلانا • وأوشكت هي أن تطلق صرخة • تركت يدها • وأردت أن أنصرف • ولكننا كنا قد أخطأنا الظن فانه لم يكن هو القادم •

قالت وهي تمد اليَّ يدها من جديد :

- لماذا هذه الخشية ؟ لماذا نبذت يدي ؟ لسوف نراه معا • اني أريد أن يرى كم يحب أحدهنا الآخر •

صحت أقول :

- كم يحب أحدهنا الآخر ؟

وقلت في نفسي : « آه يا ناستنكا ! ما أكثر الأشياء التي كشفت عنها في هذه الأقوال ! ان هذا الحب يجمد القلوب ويشجى النفوس • ان يدك باردة ويدي تحترق كالجمر ! ما أعماك يا ناستنكا ! ... ألا ان السعداء لا يطاقون ولا يحتملون ! ولكنني لا أستطيع أن أزعل » •

وطفح قلبي أخيرا وقلت :

- اسمعي يا ناستنكا ! هل تعلمين كيف قضيت نهاري ؟

- كيف قضيت نهاري ؟ فل بسرعة ... لماذا ظللت صامتا حتى الآن ؟

- أولا : قمت بما كلفتنى به يا ناستنكا • نقلت الرسالة الى صديقتك نم عدت الى بيتي فرقدت ...

قاطعتني ضاحكة :

- أهذا كل شيء ؟

أجبتها وأنا أكظم انفعالى الذى فضحته دموع غبية ترقرفت فى
عينى :

- نعم هذا كل شئ تقريبا ... واستيقظت قبل أزوف موعدنا
بساعة ، وكان يخيل الى أننى لم أنم • لا أدري ماذا حدث لى • لم يبق
للزمان عندى وجود ، بعد أن أصبح كل احساس فريد أعانيه وكل شعور
جديد أكابده لا بد أن يبقى فى نفسى الى الأبد ! لكأن الحياة كلها قد
توقفت • وتراءى لى حين استيقظت أننى اسمع منذ مدة طويلة أغنية
رخيمة عذبة كأنها كانت منسية ، وكأنها كانت تريد أن تنطلق من نفسى
منذ الأبد ...

فاطعتنى ناستكا تقول :

- رباه ! ماذا دهالك ؟ اننى لا أفهم ...

- أردت أن أطلعك على هذه العواطف الغريبة •

كذلك أجبتها بصوت شاك يختفى فيه أمل بعيد جدا •

فقلت وقد حزرت الماكرة الصغيرة ما أريد أن أقوله فورا :

- كفى ! اسكت ! ...

وسرعان ما أصبحت طليقة اللسان كثيرة الكلام فرحة النفس عابثة
متخائبة • فتناولت ذراعى ، وأخذت تضحك ، ثم تضحك ، وتسألنى أن
أضحك أيضا ، وأصبحت كل كلمة من كلماتى الحجيل تثير فيها هذا
المرح الصاحب نفسه ... وبدأت أشعر بشئ من الغضب • لقد كانت
حيثذ فتاة مفناجا •

قالت :

- هل تعلم أننى مستاءة قليلا من أنك لم تتوله بحبى • ما أصعب

فهم الرجل ! ولكنك يا أيها السيد الصامد لا تستطيع الا أن تحمد لى
بساطتى • فأنا أقول كل شيء ، أية كانت السخافة التى تخطر ببالى •

قلت وأنا أسمع أصوات الناقوس البطيئة تترجع فى برج المدينة :
- أعتقد أن الساعة الحادية عشرة تدق •

فصمت فجأة ، وأخذت تعد دقات الساعة ، وقالت أخيرا بصوت
متردد خجلاان :

- نعم هى الساعة الحادية عشرة •

ندمت على أننى أرعبتها واضطرتها الى عد دقات الساعة ، ولت نفسى
على روح الشر هذه التى دفنتنى الى ذلك • أشفقت عليها فلأخذت أهدئها
محاولا أن أعلل غياب ذلك الذى كانت تنتظسره • وجدت براهين
واستخلصت نتائج ، وما من أحد يمكن أن يُخدع بأيسر مما كان يمكن
أن تُخدع به هى فى تلك الساعة • ذلك أن جميع الناس فى مثل هذه
اللحظات يصفون فرحين الى العزاء الممكن ، بل الى ظل عذري يخطر
بالبال •

وتابعت أقول :

- نعم ليس فى هذا غرابة • ما كان يمكن أن يأتى ! لقد ضللتنى
يا ناستكا ••• لذلك أخطأت تقدير الزمان ••• انه لم يكد يستلم
الرسالة • فافرضى أنه لا يستطيع أن يجىء وأنه يريد أن يرد برسالة ،
ففى هذه الحالة لا يمكن أن تصل رسالته الا غدا • سأمضى أستمها فى
ساعة مبكرة جدا من صباح الغد • فأثبتك بذلك على الفور • ثم ان هنالك
ألف احتمال ممكن : فلعله لم يعد الى البيت ، فلم يستلم الرسالة • كل
شيء يمكن أن يحدث •

أجابت :

- نعم نعم اننى لم أفكر • كل شىء يمكن أن يحدث •
وكانت تتكلم سريما بصوت حذرت فيه فكرة مختلفة بعيدة •
وأضافت تقول :

- اذن ستذهب فى أيكس ساعة ثم تبتشى هل هنالك شىء • أنت
تعرف عنوانى •

قالت ذلك وكررت ذكر عنوانها ثم أصبحت دمتة لطيفة خجولة
معى ••• وكانت تصنى الى باتتياه ولكن حين سألتها سؤالا على حين فجأة
سكنت وأشاحت بوجهها ، فلما نظرت فى عينيها أدركت أن ما خطر ببالى
صحيح ••• لقد كانت تبكى حقا •

- ما هذا ؟ ألا انك لطفلة ! لا تبكى ، أرجوك !

فحاولت أن تبتسم ، ولكن ذقنها كانت ترتجف وكان صدرها ينهد
لاهنأ •

قالت بعد دقيقة صمت :

- اننى أفكر فىك • انك طيب القلب نبيل النفس • أأكون قلبى من
حجر فما أثار من ذلك ؟ هل تعلم فىم أفكر ؟ لقد وازمت بينكما فى
ذهنى • لماذا ليس هو أنت ؟ لماذا لا يشبهك ؟ انك خير منه ، رغم أننى
أحبه أكثر مما أحبك •

لم أجب بشىء وكان يبدو أنها تنتظر جوابى •

قالت :

- لعننى لم أفهمه بعد فهما كافيا • اننى لا أعرفه معرفة تامة • كنت

أخشاه دائما ، فقد كان شديد الجِد ، أشبه بالمتكبر ، ولكنه يظهر بهذا المظهر ، أما قلبه فأرق من قلبى .. انتى أتذكر نظرتيه حين جئت اليه حاملة صرتى .. انتى أحترمه كثيرا . انه أعلى منى .

— لا يا ناستكا ! أنت تحيينه أكثر من أى شىء فى العالم ، تحيينه أكثر كثيرا مما تحيين نفسك .

أجابت بسداجة :

— نعم ، ربما ،... ولكن اسمع ! لن أتحدث عنه بل سأقول كلاما عاما ... انتى أفكر فى هذا الامر منذ زمن طويل : لماذا لا نكون جميعا كاخوة مع اخوة ؟ لماذا يحتفظ دائما أفضلنا بسر فى نفسه ؟ لماذا هو يلزم الصمت ؟ لماذا لا يقول احدا فورا كل ما فى قلبه حين يكون واثقا أن الآخر سيفهمه ؟ ان جميع الناس يريدون أقسى كثيرا مما هم قساة فى الواقع ، ويتخيلون أنهم يخفضون قيمة عاطفتهم اذا هم عبروا عنها بسرعة مسرقة .

— آه يا ناستكا ! انك على حق ! ولكن البواعث كثيرة . لقد شعرت أنا نفسى أن على فى هذه اللحظة أن أخرس طائفة كبيرة من العواطف .
أجابت بانفعال :

— لا .. لا .. أنت لا تشبه الآخرين .. لا أعرف كيف أقول لك ما أشعر به ...

قالت ذلك ثم أضافت خجلة وهى ترمقنى بنظرة مختلصة :

— انك الآن تضحى بنفسك فى سبيلى ! واغفر لى أن أخاطبك على هذا النحو ... ولكننى فتاة بسيطة لم أر الناس الا قليلا ، ولا أعرف دائما أن أعبر عما بنفسى كما يجب أن أعبر عنه . (قالت ذلك بصوت

مرتضى تخفى وراءه عاطفة قوية وكانت تحاول أن تبسم) • ولكنى
أريد أن أفصح لك عن كل امتنانى وشكرى •• انتى أحس بكل ما فعله •
وأسأل الله أن يهب لك السعادة جزاء هذا النبل وهذه الشهامة ••• ان
ما قصصه علىّ فى ذلك اليوم عن الرجل الحالم لا يتأولك قط • أنت
الآن أحسن حالا • لقد تغيرت فلم تبق ذلك الرجل الذى وصفته لى • اذا
أحييت يوما فانتى أتمنى لك أن تتمتع بالسعادة الكبرى التى تستحقها ،
ولست أتمنى لها هى شيئا ، لأنها ستكون سعيدة معك • أنا أعرف ذلك ،
فأنا امرأة وفى وسعك أن تصدق ما أقول •

فرغت من الكلام وصمتت وضغطت يدى ضغطا قويا ، وبلغت أنا من
شدة الانفعال أننى لم أستطع أن أجيب •

وانقضت لحظات •••

قالت أخيرا وهى ترفع رأسها :

– لن يأتى اليوم فالوقت متأخر •

فقلت لها بصوت جازم ولهجة قاطعة :

– سيأتى غدا •

فقلت جدى :

– نعم ! أنا مقتنعة بذلك ••• الى اللقاء ! الى الغد ! وقد لا أتى اذا
أمطرت السماء ، ولكننى سأجىء بعد غد ، مهما يقع لى ، فتعال حتما ،
فانتى أريد أن أراك لأتحدث معك أيتها •

فلما افترقا مدت الى يدها وتمتمت وهى تنظر فى عيني :

– لأننا سنظل دائما معا ، أليس كذلك ؟

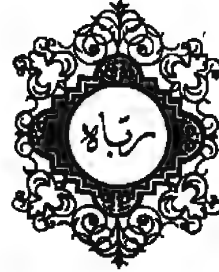
- آه يا ناستنكا ! لو علمت كم أنا وحيد الآن •

حين دقت الساعة التاسعة لم أستطيع أن أمكث في غرفتي ، فارتديت ثيابي ، وخرجت رغم سوء الجو ، وذهبت الى هناك أجلس على مقعدنا • وأردت أن أجتاز شارع بيتهم ولكنني خجلت • فرجعت دون أن أنظر الى نوافذ البيت ، رجعت الى غرفتي وقد استبد بي كرب شديد لم أعرف مثله في حياتي قط • وكان الجو كالحا جهما رطباً ، ولولا ذلك لخرجت أتنزه على شواطئ النهر طول الليل ••

ولكن الى الغد ، الى الغد ، غدا ستقص عليّ كل شيء •

ومع ذلك لم تصل منه رسالة اليوم • ولكن أليس هذا في طبيعة الامور • انهما الآن معا •

الليلة الرابعة



يا لتلك النهاية التي انتهى اليها ذلك الأمر كله !
جئت في الساعة التاسعة • كانت هناك • رأيته
من بعيد • انها متكئة على افريز الجسر كما كانت
متكئة عليه في اليوم الاول • ولم تسمع وقع
خطواتي وأنا أقرب منها • ناديتها مجاهدا نفسي للتغلب على انفعالي •

— نامسكا !

فالتفت بسرعة وسألتني قائلة :

— هيه ! هيه ! قل • • أسرع •

فنظرت اليها مشدوها •

— أين الرسالة ! أهى معك ؟

كذلك رددت تقول مستندة على الافريز •

قلت أخيرا :

— لا ! ليس معي أية رسالة • ألم يأت هو اذن ؟

شعب لونها شحوبا رهيبا • ولبنت تنظر الى جامدة لا تتحرك زمنا

طويلا • لقد حطمت آخر رجاء لها •

وتمتت أخيرا تقول :

— طيب .. لا بأس .. فليفعل ما يشاء .. ما دام يهجرنى هكذا ...
وخفضت عينيها ، ثم أرادت أن ترفع بصرها نحوى ، ولكنها لم
تستطع . جاهدت انفعالها بضع لحظات أخرى ، ثم وضعت كوعها على
أفريز رصيف النهر وأجهشت تبكى متعجة .

قلت لها :

— هدنى روعك ! هدنى نفسك ! أرجوك .. أضرع اليك .
ولكننى لم أقو على الاستمرار فى الكلام . وما كان عسنى أن أقول
لها ؟ قالت من خلال دموعها :

— لا تحاول أن تعزبنى وأن تواسينى . لا تحدثنى عنه بعد الآن !
لا تقل لى بعد هذه اللحظة انه سيأتى وانه لم يهجرنى بقسوة ! ... لماذا ؟
لماذا ؟ اتنى لم أكتب اليه شيئا فى تلك الرسالة . ما كان لتلك الرسالة
الشقية أن ...

وعلا نحيبها فلم أستطع أن أسمع تنمة كلامها ، وكان قلبى يتمزق
وأنا أنظر اليها .

وعادت تقول من جديد :

— ما أقسى هذا ! تلك قسوة فوق قدرة الانسان على احتمال القسوة .
أما من سطر ؟ أما من كلمة ؟ كان فى وسعه أن يجيب بأنه فى غير حاجة
الى . كان فى وسعه أن يصدنى . ولكنه لم يفعل شيئا طوال هذه الايام
الثلاثة . ما أسهل عليه أن يذل وأن يؤذى فتاة مسكينة عزلاء كل ذنبها
أنها تحبه ! آه كم قاسيت من آلام فى هذه الايام الاخيرة ! يا رب يا رب !

يا رب .. لا أريد أن أتذكر أنني جئت اليه وأقبلت عليه وأذلت نفسي أمامه وتضرعت باكية أسأله قليلا من حب ... وماذا بعد ؟

قالت ذلك ثم أردفت وهى تنظر الىَّ وقد سطعت عيناها السوداءوان :

- ولكن اسمع ! ما ينبغي أن يكون الامر هكذا ! ذلك غير طبعى ! لا بد أن أحدا قد أخطأ ... لعله لم يتلق الرسالة ... لعله يجهل كل شيء حتى الآن ... ما رأيك ؟ مستحيل أن يكون الامر غير ذلك ! اسرح لى ، أرجوك ... أنا لا أستطيع أن أفهم سلوكا يبلغ هذا المبلغ من القسوة ... هل يعقل أن لا يكتب لى كلمة واحدة ؟ فأين الشفقة بالبشر اذن ؟ أياكون أحد قد قال له سويا فى حقى ؟ (كذلك صاحت) ما رأيك ؟

- ناستنكا ! سأذهب اليه غدا موفداً منك .

- ثم ماذا ؟

- سأسأله أن يقول لى كل شيء ... وأحكى له ...

- ثم ماذا ؟ .. ثم ماذا ؟

- اكتبى له رسالة أخرى ... لا تقولى لا . لا ترفضى . سوف أجبره على احترامك يا ناستنكا . وسوف نعلم كل شيء .. واذا ..

- لا يا صديقى ، لا ! كفى ! لن أكتب له كلمة واحدة ... لن أكتب له سطرا واحدا ... كفى ! اتنى لا أعرفه ... أصبحت لا أحبه .. سوف أنساه ... و

لم تتم جملتها .

قلت لها وأنا أجلسها على المقعد :

- هدئى نفسك ، هدئى نفسك ، اجلسى هنا .

- أنا هادئة • كفى ! لا ضير ••• هى دموع ثم تجف ••• أنظن
أننى سأنتحر ؟ أتحسب أننى سوف أرمى نفسى فى الماء ؟

كان قلبى طافحا • أردت أن أتكلم ، ولكننى لم أقو على قول كلمة
واحدة •

وتابعت تقول وهى تتناول يدى :

- اسمع ! لو كنت فى مكانه أكنت تصرف تصرفه ؟ أكنت تنبذ الفتاة
التي جادت اليك من تلقاء نفسها ؟ أكنت تصب احتقارك على قلبها الضعيف
الغيبى ؟ أما كنت تحمى هذه المرأة ؟ أما كنت تذكر أنها وحيدة ليس لها
من يرشدها ويسدد خطاها ، ولا هى قادرة على مجاهدة حبها لك ؟ وليس
لها من ذنب ••• ليس لها من ذنب ••• ولم تصنع شيئا يمكن أن •••
آه ! يا رب ! يا رب !

صحت أخيرا أقول وقد أصبحت عاجزا عن السيطرة على انفعالى :

- ناستكا ! انك تمزقين نفسى ! انك تحطمين قلبى ! انك تقتلينى
يا ناستكا ! أصبحت لا أطيق أن أصمت ، ولا بد لى أن أقول أخيرا كل
ما يخفى هنا فى قلبى •••

وكنت قد نهضت عن مكاني فتناولت يدى ونظرت الى " مدهوشة
وسألتنى :

- ما بك ؟

قلت بصوت حاسم :

- اسمعنى يا ناستكا ! ان كل ما سأقوله لك الآن سيخفى غيبى
لا سبيل الى تحقيقه • أنا أعلم أن هذا لا يمكن أن يقع ، ولكننى لأستطيع

أن أصمت فباسم آلامك وما تقاسين من ألوان العذاب ، أضرع اليك أن
تغفرى لى ••

سالتنى وقد انقطعت عن البكاء والتمتع فى عينها الاستطلاع :

- ما الذى تريد أن تقوله لى ؟

- هو أمر لا يتحقق ••• ولكننى أحبك ••• هأنذا قد قلت كل
شئ (وحركت يدى بإشارة معبرة) فهل عليك بعد الآن أن تبوحى لى
بشئ ، أن تفضى الى بسر من أسرارك ، وأن تصفى الى ما سأفوله لك •

قاطعتنى تقول :

- لم لا ؟ أنا أعرف منذ زمان أنك تحبنى ، ولكن كان يخيل الى
أنك تحبنى هكذا •• حبا بسيطا •• آه يا رب ! يا رب !

- كان الامر بسيطا فى البداية • أما الآن فأنا أشبه ناستكا حين
صعدت الى صديقها حاملة صرتها ، بل شأنى أسوأ الآن من شأن ناستكا •
فصاحبك لم يكن يحب أحدا حينذاك ، أما أنت فتحيين •

- أصبحت لا أفهمك البتة • ففيم هذه الكلمات ؟ هذه أقوال لا داعى
اليها • ولماذا تقولها على هذا النحو المبالغت ؟ يا رب ! ما هذه الحماقات التى
أنطق بها ! ••• ولكنك •••

اضطربت ناستكا كل الاضطراب واحمرت احرارا شديدا وخففت
عينها •

- ولكن ما خيلتى يا ناستكا ؟ أنا مذنب •• لقد أسأت استعمال الثقة
التي محضتى اياها ••• لا بل لست أنا بالمذنب ••• اننى أحسن بذلك •

قلبي يقول انى على حق • أنا لا يمكن أن أسيء اليك فى شيء • كنت صديقك وما زلت • ألم أخن لك عهدا • انظري يا ناستكا : اننى أبكى أيضا • فلتهمر دموعى • انها لا تؤذى أحدا • انها ستجف يا ناستكا •

قالت وهى تدفنى الى المقعد :

- اجلس •• اجلس •• آه ! يا رب ••

- لا يا ناستكا • لن أجلس • ما ينبغي لى أن أبقي هنا • ولن ترينى بعد الآن • سأقول لك كل شيء ثم أنصرف • لو قد استطعت أن أسيطر على نفسى لما عرفت يوما أننى أحبك ، ولكنت عنك سرى ، ولما عذبتك الان بأنانيتى • كنت أنت البادئة بالكلام ، فأنت المذنبة اذن ، ولا يمكنك أن تصدينى •••

قالت البنية المسكينة وهى تخفى اضطرابها ما وسعها ذلك :

- ولكننى لا أصدك ، لا •• لا ••

- أنت لا تطردينى • كلا • ولكننى كنت أود أن أهرب من تلقاء نفسى • على أننى سوف أنصرف بعد أن أقول لك كل شيء • اننى لم أستطع أن أحتمل رؤية دموعك منذ برهة ، وأن أطيق هذا اليأس الذى هويت اليه حين شعرت أنك محتقرة وحين أحسست أن حبك منبؤذ • لقد شب فى قلبى حب كبير يا ناستكا ، حب كبير جدا لك ، وآلمنى أن لا أستطيع شيئا • آه من هذا الحب ا ••• وتمزق قلبى ولم أطق أن أسكت ، فكان لا بد أن أتكلم يا ناستكا •

- نعم •• نعم •• تكلم •• تكلم •• أرجوك أن تتكلم • قد يبدو لك هذا الرجاء غريبا •• ولكن تكلم وسأشرح لك بعدئذ كل شيء ••

قالت ذلك بلهجة لا أملك أن أصفها :

- انك تشفقين علىّ يا ناستكا • ان شفقتك وحدها هي التي تكلم
الآن يا ناستكا • ما وقع فقد وقع • ولا عودة الى الماضي ! هانت ذى
تعرفين الان كل شيء • ولكن اصغى الى ايضا • حين كنت تبكين كنت
أقدر - ولكن دعيني اعبر عن فكرتي - كنت أقدر انك •• كنت أحسب
على نحو من الانحاء أنك أصبحت لاثمينه ، وعندئذ (وأنا منذ يومين
اثنين لا افكر الا في هذا) كان يمكن ان أفعل كل شيء في سبيل ان
تجيني • فلقد قلت انت نفسك يا ناستكا انك تجيني يا ناستكا ! هأنذا
قد أنهيت كلامي ، ولم يبق على الا ان أقول ما الذي سيحدث اذا أحيتني
فعلا • ذلك كل ما بقي علىّ أن أقوله ولا شيء سواه • فاستمعي الىّ اذن
يا صديقتي الصغيرة - وأنت صديقتي على كل حال : أنا رجل فقير بسيط
لا قيمة له (وليس الأمر أمرَ هذا على كل حال ، ولكنني لا أستطيع أن
أخرس خجلى) غير أن في وسمي ، لو قد أحيتني ، أن أحبك حباً يبلغ
من القوة أن هذا الحب ما كان ليبدو لك شاقاً متعباً ، حتى ولو ظللت
تفكرين في الآخر • كل ما هنالك أنك كنت ستشعرين في كل لحظة
بوجود قلب معترف بالجميل ممثلي حرارة يخفق الى جانب قلبك • آم
يا ناستكا ! آم ياناستكا ! ماذا صنعت بي ؟

قالت ناستكا وهي تنهض :

- لا تبك ! •• لا أريد أن أرى دموعك •••

ثم أضافت تقول وهي تجفف دموعها بمنديلها :

- تعال • تعال معي •• سأقول لك كلاماً آخر •• لقد هجرني ••
لقد نسيني •• ورغم أنني ما زلت أحبه فأنسى لا أستطيع أن أخفي ذلك ••

قل لى : لو أحبيتك ... آه يا صديقى ، يا صديقى المسكين ! ما أشد ما أذيتك فى ذلك اليوم حين عبثت بعاطفتك وهنأتك على أنك لم تتوله بحبى ! يا رب ! كيف أمكن أن لا أتبناً بهذا ؟ ... والآن قررت أن أعترف لك بكل شىء ..

- اسمعى يا ناستكا • سأصرف • اننى أعذبك • هذا ضميرك يتألم منذ الآن من أنك لم تفهمى حبى • اننى لا أريد أن أزيد حزنك حزناً ... لا ، أنا المذنب يا ناستكا ، الى اللقاء •

- انتظر ... اسمع ... هل تستطيع أن تنتظر ؟

- أنتظر ماذا ؟

- اننى أحبه ، ولكن هذا الحب سينقضى ، سيزول ، بل انه ينقضى منذ الآن ... أنا أحس ذلك ... ومن يدرى ؟ ... فلعل هذا الحب سينتهى فى هذا اليوم نفسه ، لأننى أكرهه ما دام قد احتقرنى • أما أنت فقد بكيت هنا معى • ولو كنت فى مكانه لما نبذتنى ، لأنك تحبى حبا صادقا ، ولا كذلك هو ... فانه لا يحبى ... الخلاصة ... اننى أحبك ... نعم أحبك كما تحبى ... سبق أن قلت لك ذلك ... أنت تعلم هذا ... أنت خير منه ... أنت أبهى منه ... فانه هو ..

بلغ انفعال البنية المسكينة أنها لم تستطع أن تتابع كلامها ، فألقت برأسها على كتفى ، وأجهشت بأكية • واسيتها ، حاولت أن أهدئها ، ولكن محاولاتي لم تنفع • كانت ما تزال تضغط يدي ، وتقول من خلال النسيج : انتظر .. انتظر .. لقد انتهى الأمر • لا يذهبن بك الظن الى أن دموعى ناشئة عن ... لا ... فما هى الا من الضعف ... انتظر لقد انتهى كل شىء ... وهدأت أخيراً ، وجففت دموعها وتابعت طريقنا ،

وأردت أن أكلمها ، ولكنها رجعتى أن أصمت لحظة أخرى • صمتا ،
فما هى الا برهة ، حتى بذلت جهدا وأخذت تتكلم • قالت بصوت ضعيف
مرتمش ، ولكنه صوت يترجع فيه شيء طعن قلبى وأحدث فى نفسى الماء
لذيقاً :

- اسمع ! لا تحسب أننى خفيفة القلب متقلبة العاطفة ! فأنا لا
أستطيع أن أنسى بمثل هذه السرعة ، وأن أخون بمثل هذه السهولة ••
لقد أحيته سنةً بكاملها •• ويمينا ما خنت عهده مرة ولو بالخيال ! وقد
احتقر هو هذه العاطفة فله ما يشاء ، ولكنه جرحنى وأذلّ قلبى فأصبحت
لا أحبه •• لأننى لا أستطيع أن أرتبط الا برجل نيل ، برجل يفهمنى ،
برجل شريف • هكذا خلقت • انه غير جدير بى ، وما وقع فهو
خير • فلعل آمالى كانت ستخيب حين أعرفه على حقيقته ••• ولعل حبى
لم يكن الا خطأ من أخطاء الحواس ووهما من أوهام الخيال • وأغلب
ظننى أن اسراف جدتى فى مراقبتى ومحاصرتى كان هو السبب الوحيد
الذى حملنى على أن آخذ هذه العاطفة مأخذ الجد • ولعل واجبى كان
يقضى علىّ أن أحب رجلاً آخر ، رجلاً آخر يشفق علىّ ••• وأريد أن
أقول لك اذا كنت تشاء رغم حبى لذلك الرجل (حبى الماضى) ••• اذا
كنت تعتقد أن عاطفتك تبلغ من القوة أنها تستطيع أن تنسينى الآخر ، اذا
كنت لا تريد أن تتركنى لمصيرى محرومة من الأمل محرومة من العزاء
••• اذا كنت تريد أن تحببى دائماً كما تحببى الآن ••• فأنا أقسم لك
أن امتاننى ، أن حبى ، سيكون جديراً بحبك ••• هل ترفض يدى ؟

فما ان سمعت هذا الكلام ، حتى صحت أقول والنشيج يهزنى هزاً
قوياً :

- ناستكا ! ناستكا ! آه يا ناستكا !

قالت :

- كفى ! كفى ! لقد قلت كل شيء . أليس كذلك ؟ أنت الآن سعيد ... اذن فاعلم أنني سعيدة أيضا ... ولا داعي الى كلمة واحدة أخرى . اشفق على ... تكلم فى شيء آخر ... أرجوك .

- نعم يا ناستكا ، نعم ... أنا سعيد ... هيّا هيّا ... فلنتكلم فى شيء آخر ... فلنسرع الى الكلام فى شيء آخر ... أنا مستعد ... ولكننا لم نجد أى موضوع آخر يدور عليه الحديث . كنا نضحك ونبكي ونقول كلاما لا تسلسل فيه ، نسير تارة على الرصيف ، ثم نعود أدراجنا مرة أخرى نجتاز الشارع ، ثم نتوقف ، ثم نرجع الى النهر من جديد ، كالاطفال ...

قلت :

- أنا أعيش الآن وحيداً يا ناستكا ! أما غدا ... أنت تعلمين أنني فقير .. وأن مواردى كلها تقتصر على الفـ ومائتى روبل فى السنة ... ولكن لا قيمة لهذا ..

- حتماً ، ولجديتى معاش ... فلن نكون فى عسر قط .. سنضم جدتى الينا .

- طبعاً سنضم الجدة الينا ... وعندى ماتريونا ...

- نعم ونحن عندنا تكلا .

- ان ماتريونا فتاة طيبة ... ولكن فيها عيباً : انها يعوزها الخيال ، ليس لها خيال البتة . هل تفهمين ؟ ولكن لا ضير فى هذا .

- طبعاً . ستكونان ككتاهما معنا ... ولكن تعال الينا منذ الغد .

- أجيء اليكم ؟ أتمنى ذلك .. ولكن ...

- بل تعال ! تستأجر عندنا غرفة ... ان لدينا شقة صغيرة مؤثثة فوق .. كانت تسكنها عجوز قصيرة سافرت منذ قليل . وأنا أعلم أن جدتي تؤثر أن يكون المستأجر الجديد فتى . وحين سألتها لماذا تؤثر ذلك أجابتني بقولها : « لقد طعنت في السن يا ناستكا ، ودلفت الى الشيخوخة ، ولكن لا يذهبن بك الفطن أنتى أريد أن أزوجك منذ الآن ... » ، وأدركت أنا ...

- ناستكا ! ...

وانفجرنا نضحك كلانا .

- هيا ! كفى ! أين تسكن أنت ؟ لقد نسيت .

- هناك ، قرب جسر « ... سكوى » فى منزل بارانيكوف .

- أهو منزل كبير ؟

- نعم هو منزل كبير .

- ها ! .. نعم .. أنا أعرف .. انه منزل جميل .. ولكن اتركه وتعال الينا بأقصى سرعة .

- غداً يا ناستكا غداً . اننى ما زلت مديناً لصاحبة البيت ببعض المال .. ولكن لا قيمة لهذا .. سوف اتقاضى راتبي قريباً .

- اسمع ، لعلنى أستطيع أن أعطى دروساً ؟ أتلقي دروساً فى أول الأمر ، ثم أعطى دروساً بعد ذلك .

- عظيم ... وسأنال أنا مكافأة فى القريب يا ناستكا ...

- اذن تعال غداً وستكون جارى •

- نعم وسنذهب الى المسرح معاً ، نسمع « حلاق اشيلية » ...
سيمثلونها قريباً ...
قالت ضاحكة :

- فكرة حسنة ، أو قل سنذهب الى المسرح نسمع شيئاً آخر ...
- نعم نسمع شيئاً آخر ... انك على حق ... لم يخطر ببالى هذا
... الافضل أن نسمع شيئاً آخر ...

كنا ونحن نتكلم هكذا نسير كلانا سيراً فى ضباب ، لا نفهم ماذا
يجرى لنا • اجتزنا أحياء مجهولة ، وظللنا نمعن فى السير ثم نمعن فى
السير ، نضحك ذلك الضحك نفسه ، ونذرف تلك الدموع نفسها •
وأرادت ناستنكا فجأة أن تعود الى البيت ، فرافقتها ، ولكننا وجدنا نفسينا
بعد ربع ساعة على رصيف النهر قرب المقعد ... كانت تنهد ، وكانت
تنجس من عينيها دموع • شعرت بوجل ، وتجمد قلبي ، ولكنها سرعان
ما ضغطت يدي بيدها ، وجرتى من جديد لنمشى ، لثرثر ، لتكلم ...
قالت :

- آنا لنا أن ننصرف ... لا شك أننا تأخرنا كثيراً ... كفانا
صيانة •

- نعم يا ناستنكا ! ولكننى لن أستطيع أن أنام ، ولن أعود الى
بيتى ...

- وأنا أيضاً لن أستطيع أن أنام • ليس بى نعاس ولكن رافنى •
- طبعاً •

- ذلك أنه لا بد للمرء أن يعود الى بيته •

- حتماً •

- أتقطع لى عهداً بذلك ؟ ... ان على المرء أن يعود الى بيته عاجلاً
أو آجلاً ••

قلت ضاحكاً :

- لك على هذا العهد •

- اذن هيا

وسرنا • قلت :

- انظرى الى السماء يا ناستكا ! سيكون الجو فى الغد جميلاً ••
ما أروع هذا القمر ! ما أروع هذه السماء الزرقاء ! انظرى الى تلك
الغمامة الصفراء ! انها سوف تفضى القمر ، ولكن لا ، انها تمر قريبةً
منه • انظرى ! لماذا لا تنظرين ••

لم تنظر ناستكا الى الغمامة بل لبث صامتة ، وكأنها مسمرة فى
مكانها • وما هى الا لحظة قصيرة حتى شدّت نفسها الىّ وجلّةً ، وكانت
يدها ترتعش فى يدي • نظرت اليها ••• ازدادت التصاقاً بى •

وفى تلك اللحظة مرَّ شاب قربنا ، وتوقف فجأةً ، وخذقّ الينا ،
وأقبل نحونا بضع خطوات أخرى • ارتجف قلبى ••• قلت أسأل ناستكا
بصوت خافت :

- من هذا يا ناستكا ؟

فتمتت تقول وهى تزداد اقتراباً منى :

— انه هو ...

أوشكت أن أسقط على الأرض ...

صاح صوت خلفنا :

— ناستكا ! ناستكا ! أهذا أنت ؟

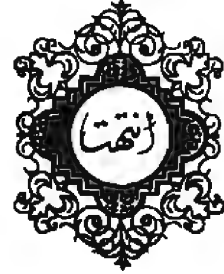
وفي هذه اللحظة نفسها جاء الشاب إلينا ...

رباه ! يا لها من صيحة ! ماأشد ماارتجفت ناستكا ! وارتزعت ناستكا
نفسها من بين ذراعى وهرعت إليه ... نظرت إليها مصعوقاً ، وماكادت
تمد يدها إليه ، ثم تعانقه ، حتى اندفعت نحوى سريعة كالريح ، كالبرق ،
ثم اذا هى ، قبل أن أثوب الى نفسى ، تمسك رأسى بيديها وتقبلنى قبله
قوية • ودون أن تقول كلمة واحدة ، عادت الى الآخر ، فأسكت ذراعه
وسارت معه ...

لبت أتابعهما بنظرى طويلا ... وما هى الا برهة حتى أصبحت
لا أراهما •

الرسالة

ليالىً في ذلك الصباح • كان النهار حزيناً • •
المطر يتساقط ، ويلطم زجاج نافذتى كثيراً
الحداد • الظلام يخيم فى غرفتى ، وأنا أشكو من
صداع فى رأسى ، وأعانى دواراً •



قالت لى ماتريونا :

- رسالة لك يا مولاي جاء بها ساعى البريد •

- رسالة ؟ ممّن ؟

كذلك صحت وأنا أثب من على كرسي •

- لا أعرف يا مولاي • أنظر أنت ، فترى بنفسك •

ففضضت الرسالة ، انها منها :

« اصفح عني ! أتوصل اليك راكعةً أن تصفح عني ! لقد خدعتك

وكنت مخدوعة عن نفسي • كان ذلك حلمًا ••• لشد ما تأملت من أجلك
اليوم ! فاعفر لي ، اغفر لي ! •••

« لا تتهمني ! لقد قلت لك اننى سأحبك • وانى لأحبك الآن حقاً •
بل اننى أحبك مزيداً من الحب • رباہ ! ليتنى أستطيع أن أحبكما كليكما !
لماذا لمبت أنت هو ؟ لماذا ليس هو أنت ؟

شقت هذه العبارة رأسى • « هذه أقوالك أنت يا ناستكا
تعاودنى ••• »

« الله يعلم ماذا كنت أحب أن أفعل فى سبيلك ! اننى أحس كم تألم •
لقد أذلت عاطفتك ' ولكنك لا تجهل أن المحب ينسى الاسماء • وأنت
تحب •

« وانى لأشعر نحو حبك هذا بأعق الامتنان ، وسيظل منقوشاً فى
ذاكرتى حلماً من أجمل الاحلام ، يتذكره المرء بعد اليقظة زمناً طويلاً •
سأذكر دائماً تلك اللحظة التى فتحت لى فيها قلبك ، كما يفتح الأنخ لأخته
قلبه ، ثم قبلت قلبى الجريح لتحميه وتداويه وتشفيه ••• فاذا غفرت لى ،
فان ذكراك ستعيش فى نفسى تجمّلها عاطفة الامتنان الأبدى هذه التى لن
تزول يوماً •• سأبقى وفيّة لهذه العاطفة • لا أخون قلبى قط • فانه
ثابت لا يتغير • وأنت تعلم بأية سرعة رجع هذا القلب الى ذلك الذى
امتلكه الى الأبد •

« سوف نلتقى فى المستقبل • ستجىء الينا ، ولن تهجرنا • ستظل
صديقنا دائماً • ستظل أخى ، فاذا رأيتنى ، فسوف تمد الى يدك ، أليس
كذلك ؟ نعم سوف تناولنى يدك لأنك قد غفرت لى ، ولست أشك فى
ذلك • انك تحبنى كما كنت تحبنى قبل الآن • آه ! أحبنى ! ولا تركنى !

لأننى ما زلت أحبك كثيرا فى هذه اللحظة وسأكون جديرة بماطفئك •
سأكون خليقة بها يا صديقى العزيز • لقد حددنا الاسبوع المقبل موعدا
لزوجنا • لقد عاد الى ممتلكا حبا ولم ينسنى قط ...

« لا تزعلى اذا أنا حدثتك عنه ، سنجي» اليك كلانا وسوف تحبه ..

« اغفر لى وتذكرنى وأحبَّ عزيزتك :

ناستنكا

قرأت الرسالة مرارا وانبعجت من عيني دموع • وأفلتت الرسالة
من يدي أخيراً فأغمضت عيني •

— مولاي ا مولاي ا

كذلك قالت ماتريونا •

فسألتها :

— ماذا يا عجوز ؟

قالت :

— انظر ! لقد نزلت نسيج العنكبوت • تستطيع الآن أن تتزوج ،
تستطيع أن تدعو أصدقائك ، فالييت نظيف •

نظرت الى ماتريونا • انها ما تزال عجوزاً صغيرة ، شابة ، نشيطة •
ولكن نظرتها بدت لى ميتة على حين فجأة ، ورأيت فى جبينها غصونا ...
وتراءت لى الغرفة كلها عجوزا هرمة مثلها ... الجدران والارض حائلة
ألوانها • أنسجة العنكبوت تكاثرت • ونظرت من خلال النافذة فبدا لى
المنزل المقابل (لا أدري لماذا) قد دلف الى الشيوخوخة وحال لونه هسو

أيضاً ، وتقشّرت أعمدته واسودّت أطرافه ، وتشققت ، وصارت جدرانها ضاربة الى احمرار ، بعد أن كانت صفراء قائمة •••

فاما أن شعاعاً من شمس كان قد شق الغيوم لحظةً ثم عاد يختبئ تحت السحب المثقلة بالمطر ، فاذا كل شيء يترد مظلماً قائماً في نظري .
واما أنتى أدركتُ في طرفة عين آفاق مستقبل الحزين فرأيت نفسى على نحو ما أنا الآن بعد انقضاء خمسة عشر عاماً على ذلك العهد ، وقد شخت في هذه العرفة نفسها ، على هذه العزلة نفسها ، مع مائريونا هذه نفسها التي لم تجعلها هذه السنون كلها أكثر رهاقة •

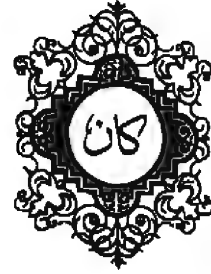
وقد قلت لنفسي يومئذ : كفانى يا ناستكا ! لا أريد أن أنكأ جرحى بالذكري • لا لن أحمل غيوماً قائمة الى سعادتك المضيئة الساجية ، لن أوقظ في قلبك الحشرات بملامات مرة ، لا ولن أثير فيه ظلاً خفياً من عذاب الضمير • لن أضطره أن يخفق حزينا في لحظات سعادتك وهناءتك • لا لن أجعد الزهرات الحلوة التي ستضيفينها الى صفائك السود يوم تجيئين معه الى الهيكل للزفاف • لا لن أفعل هذا أبداً ! ألا فلتنزل سماؤك مضيئة • ألا فلتنزل بسمتك مشرقة مطمئة ، وبوركت يا من وهبت لحظة من هناة وسعادة لقلبي الممتن الذي يعيش في وحشة العزلة !

• لحظة بكاملها من سعادة ••• رباه هل تحتاج حياة انسان الى أكثر من هذا ؟ •

بروڤارٽشين

۱۸۴۶

« بروخاردتشنين » * : كتب
دوستويفسكى هذه القصة سنة
١٨٤٦ ، ونشرت في مجلة « حويات
الوطن » في شهر تشرين الاول
(اكتوبر) ١٨٤٦ ، مج ٤٨ .



سيميون ايفانوفتش بروخارتشين يشغل من مسكن
أوستينيا فيدوروفنا ركناً هو أحلك أركانه ظلمة
وأكثرها ضعة • انه رجل بلغ سن الكهولة ،
عاقل حكيم ، لا يتعاطى شرب الخمر ، وهو
موظف صغير ، يتقاضى مرتباً يتفق وكفاءاته • وكانت أوستينيا فيدوروفنا
ترى أنه من غير اللائق أن تطالبه بأكثر من خمس روبلات في الشهر
أجراً للركن الذي يشغله من مسكنها • كان بعض الناس لا يرون في
رحابة صدرها هذه الا نتيجة حساب معين مقصود • ترى هل كان ذلك
رغبةً منها في السخر من النمامين التاليين ؟ المهم أنها كانت تعامل السيد
بروخارتشين معاملة انسان أثير عندها ، عزيز عليها ، ولكن فيما لا يجانب
الخير ، ولا يجافى الشرف • يجب أن نذكر أن أوستينيا فيدوروفنا ، وهي
من أجدر النساء بالاحترام وأميلهن الى البدانة ، عدا ميلها القوي الى أكل
اللحم وشرب القهوة ، وعدا نفورها الشديد من أيام الصيام ، كان يسكن
في بيتها مستأجرون أخر • ولكن هؤلاء كانوا يدفعون ضعف ما يدفعه
سيميون ايفانوفتش • كان هؤلاء الطائشون المريدون ، هؤلاء « العابثون

الأشرار ، قد سقط اعتبارهم فى نظر صاحبة البيت من سخرهم بها واستخفافهم بوضعها كأرملة ليس لها من يحميها أو يدافع عنها • ولولا أنهم كانوا يدفعون أجور حجراتهم فى مواعيدها لما ارتضت أن تؤويهم ، بل لما ارتضت أن تراهم •

ولقد أصبح سيمون ايفانوفتش عزيزا عليها أنيرا عندها منذ اليوم الذى نقل فيه الى مقبرة فولكوفو جثمان " كان أثناء حياته يحب الشراب حبا عظيما • ان هذا الشخص الذى أحيل على التقاعد - ولا أقول طرد من وظيفته طردا ، وذلك من قيل الأدب - هذا الشخص ، رغم عينه المفقوة وساقه المقطوعة اللتين فقدتهما فى « حادثة شهامة وشجاعة » على ما كان يقول ، هذا الشخص كان قد حظى بجميع النعم التى كانت تستطيع أوستينيا فيدوروفنا أن تمنح بها على أحد من الناس ولا شك فى أنه كان يمكن أن يظل عالة عليها زمنا طويلا لولا أنه مات على حين فجأة سكريا بلغ الدرك الأسفل من الأمان ، على أثر سكرة بلغت من الاسراف أنه لم يصح منها • حدث ذلك فى بيسكى يوم لم يكن عند أوستينيا فيدوروفنا الا ثلاثة مستأجرين تركها اثنان منهم بعد انتقال المسكن وتوسعه فلم يبق لها الا السيد بروخاتشين وحده •

لا أدري أيجب أن نضع اللوم على عيوب السيد بروخاتشين التى لا شك فيها أم يجب أن نضعه على نقائص جيرانه : المهم أن العلاقات بينه وبينهم لم تكن على ما يرام منذ البداية • يجب أن نذكر أن المستأجرين البجد لدى أوستينيا فيدوروفنا كانوا يعيشون كما يعيش اخوة حقا • كان بعضهم موظفين فى مكاتب واحدة ؛ وكانوا يتناوبون الحساسة بالمقامرة بعضهم مع بعض فى مطلع كل شهر ؛ وكانوا جميعا يحبون أن يتمتعوا بمباهج الحياة جماعة • وكان يحلو لهم فى بعض الأحيان أن يتحدثوا

فى شئون رقيقة أيضا ، رغم أن الأمور لا تجرى عندئذ بدون مشاحنات
ومشاجرات ، ولكن الوثام ما يلبث أن يسود ، لأن الأحكام السابقة لا وجود
لها فى هذه الجمهورية •

وابرز هؤلاء السادة مارك ايفانوفتش ، وهو رجل عاقل متبحر فى
الآداب ، وأوبلافايف وهو أحد المستاجرين ، وبريبولوفينكو وهو رجل
يفيض شهامة وبساطه • وهناك أيضا زينوبى بروكوفتش الذى كان هدفه
الوحيد أن يصل الى المجتمع الراقى ، وأوكيانوف الكاتب فى المحكمة
الذى أوشك فى لحظة من اللحظات أن يحظى بآلاء أوستينا فيدوروفنا •
وهناك شخص آخر هو كاتب فى المحكمة أيضا يقال له سودين ، وهناك
البورجوازي كاتاريوف ، وآخرون • ولكن يظهر أن سيميون ايفانوفتش
لم يكن له بينهم صديق •

لا شك فى أنه ما من أحد كان يريد له شراً ، لا سيما وأن كل
واحد منهم قد أنصفه منذ الأيام الأولى ، فعده انسانا طيب القلب دمث
الخلق ، لا يآلف الناس كثيرا ، ولكنه امرؤ يوثق به ويركن اليه • صحيح
أن له نقائصه وعيوبه ، ولكنهم كانوا يقدرّون ان العيب الوحيد الذى قد
يعاب عليه أنه امرؤ يعوزه الخيال تماما •

وعدا هذا العيب ، كان السيد بروخارتشين لا ينعم بمظهر من شأنه
أن يخلّف فيمن يراه أثرا حسنا ، وبالمظهر انما يحلو للساخرين أن
يتعلقوا أكثر ما يحلو • ومع ذلك لم يسبب له مظهره المنفرّ هذا
تأثيرات تعود عليه بالضرر • والواقع أن مارك ايفانوفتش ، من حيث هو رجل
عاقل ، قد أخذ على عاتقه أن يدافع عن سيميون ايفانوفتش ، حتى لقد
جهر قائلا بأسلوب مزهر جميل ان بروخارتشين رجل ناضج السن جاد
الطبع تجاوز زهرة العمر وعفى عليه عهد الشعر • وعلى هذا يمكن القول:

لئن لم تكن العلاقات بين سيميون ايفانوفتش ممتعة ، فان الذنب فى ذلك يقع عليه وحده .

ولقد ثبت الانتباه أول الامر على بخله الشديد وشحه النادر ذلك أمر سرعان ما اكتشفه فيه هؤلاء السادة وسجلوه له . كان مثالا لا يرضى بحال من الاحوال أن يعير أحدا غلاية الشاي التى يملكها ولو لحظة قصيرة ، وهذا أمر لا مسوغ له ، لا سيما وأنه كان قلما يشرب الشاي ، فهو يستمض عن الشاي بشراب طيب المذاق من أعشاب برية يختزن منها مئونة كبيرة دائما . وكان له الى ذلك طراز فى الطعام غريب جدا . فهو لا يسمح لنفسه يوما بتناول الوجبة التى تقدمها أوستينيا فيدوروفنا لسكان بيتها ؛ ذلك أن ثمن الوجبة خمسون كوبكا فكان سيميون ايفانوفتش لا يأكل الا بخمسة وعشرين كوبكا يطلب بها أجزاء من الوجبة : شيئا من خضار مع قطعة من فطير ، أو صحن من اللحم ؛ ولكنه فى أكثر الأحيان لا يطلب خضارا ولا لحما ، بل يكتفى بالحبز مع بصل أو جبن أو بيض أو خيار مملح أو أى طعام آخر زهيد الثمن ، ولا يعزم أمره على العودة الى الوجبة التى سعرها نصف سعر الوجبة الكاملة الا حين يموت جوعا .

هنا يعترف كاتب قصة حياة هذا الرجل أنه ما كان له قط أن يسترسل فى سرد تفاصيل تافهة هذه التفاهة كلها فى الظاهر تفاصيل تبلغ هذا المبلغ من الحقايرة بل ومن الازعاج لقراء يفتهم الأسلوب الراقى ، لولا أن هذه التفاصيل تؤلف السمة المميزة والصفة المسيطرة فى طبع بطلنا . ذلك أن السيد بروخارتشين لم يكن أبدا ، كما كان يحلو له أن يعلن ذلك ، فى عوز يضطره الى أن لا يطعم من جوع . فلئن كان يحرم نفسه هذا الحرمان كله بغير حياء ولا خجل ، غير عابى بما قد يقوله

القاتلون من النمامين ، فانه كان يفعل ذلك ارضاء ليخله الذى يشبه أن يكون جنونا ، وكذلك من باب الافراط فى التبصر بالعواقب ، كما سنفهم ذلك مزيدا من الفهم فيما سبلى من سرد قصة حياته •

وكان يمكن أن نتخرج من املال قرائنا باستعراض جميع أهواء سيميون ايفانوفتش الغريبة استعراضا مفصلا ، وكان يمكن أن نعدل حتى عن وصف ثيابه مهما تبدل لنا عجيبة مضحكة ، ولكن أوستينيانا فيدوروفنا أصرت اصرارا قاطعا على أن نذكر الامر التالى : ان سيميون ايفانوفتش لعله لم يعهد يوما بشيء الى الغسالة ، أو لعله على الأقل لم يفعل هذا الا نادرا جدا حتى ليتمكن أن يجهل المرء هل كان يملك فى عداد أمواله المنقولة أى ملابس من الملابس الداخلية •

قالت صاحبة البيت :

ان العزيز جدا سيميون ايفانوفتش قد حلا له خلال عشرين سنة متتالية أن يراكم التتن فوق التتن فى الركن المخصص له ، دون أن يبدو عليه أنه خجلان من ذلك كثيرا ، وعدا انه طوال حياته على هذه الارض لم يهتم أى اهتمام بالأجربة أو المتاديل أو غير ذلك من الزينات الباطلة ، فقد استطاعت أن ترى بعينى رأسها من خلال ثقب فى الحاجز العتيق ، أنه كان يتفق له أن لا يستطيع ستر عورة جسمه • ولم تأخذ هذه الشائعات بالانتشار الا بعد موت سيميون ايفانوفتش لأنه فى أثناء حياته - وعن هذا خاصة انما نشأ عدم تفاهمه مع المستأجرين الآخرين - لم يكن يطبق ، رغم علاقات الصداقة أن يسمح أحد لنفسه بأن يحشر أنفه فى « ركنه » قبل أن يحصل منه على اذن سابق بذلك • كان سيميون ايفانوفتش رجلا صعب المراس متجمعا على نفسه عنيدا لا يجدى فيه الكلام ولا تنفع معه الحطبة الطويلة • كان لا يقبل النصائح أكثر مما يقبل السخریات ، وكان

يعرف كيف يسارع الى اقحام كل من يخطر بباله أن يسدى اليه نصحا ، فهو يقول له : « انت تزجى الى النصائح ايها الولد الطاش ؟ خير للمهرج من نوعك ان يعنى بشئون نفسه قبل ذلك . » . ولم يكن سيميون ايفانوفتش متكبرا ، وكان يحب ان يخاطب جميع الناس بصيغه المفرد ، وهو لا يطبق افشاء أسراره ، ولا يحتمل ، حين يعرف أحد شيئا عن اهوائه ، ان يساله عما يحتويه صندوقه الصغير لقد كان لسيميون ايفانوفتش صندوق صغير يضعه تحت سريره ويحافظ عليه محافظته على يؤبؤ عينه ، رغم أن كل واحد يعرف حق المعرفة أن الصندوق لا يحتوى الا خرقا بالية ، وزوجين أو ثلاثة أزواج من أحذية أصيح لا يمكن استعمالها ، وأنواعا شتى من ملابس عتيقة . كان يحرص على هذا الصندوق حرصا شديدا ، حتى لقد 'سمع' يعلن أنه سيشتري له قفلا جديدا من صنع ألماني . ويوم قادت الحماقة زينوبى بروكوفتش الى ابداء رأى فظ قليل الأدب خال من الحشمة قائلا ان سيميون ايفانوفتش لعله يخفى مدخراته فى هذا الصندوق لورثته ، فقد احتاج السيد بروخارتشين احتياجا صعبت نتائجه الخارقة جميع الحضور .

فى أول الأمر لم يعرف السيد بروخارتشين كيف يعثر على تميزات مناسبة يدفع بها هذا الغمز السخيف المضحك . وانقضت لحظة طويلة لم يخرج خلالها من فمه غير كلام خال من أى معنى . واستطاع الحضور أخيرا ، بغير قليل من العناء ، أن يفهموا أن السيد سيميون ايفانوفتش يعيب على زينوبى بروكوفتش عملا قديما لكنه شائن قدر ، ثم هو يتنبأ لهذا الرجل الطائش بالاحقاق المحقق فى جميع ما يقوم به من محاولات للنفاذ الى المجتمع الراقى ، ويشره فى الوقت نفسه بأن الحياط الذى يدين له زينوبى ببعض المال سيفضربه فى القريب ضربا مبرحا لا ريب فيه ؟ ثم هو يصفه بأنه ليس الا صيبا :

- أتعلم فى آن تصبح ضابطا من سلاح الفرسان ؟ هلا أنعمت النظر
اذن فى نفسك ؟ انك لن تصبح كذلك • وفوق هذا فان رؤسائك سيعرفون
كيف يؤدبونك حين يطلعون على حكاياتك كلها • هل سمعت أيها الصبى
الاحيق الطائش !

قال سيميون ايفانوفتش ذلك ثم بدا عليه أنه هدا بعض الهدوء وتخفف
من حنقه • ولكنه بعد خمس ساعات من صمت ، استأنف يعط زينوبى
بروكوفتش ، فذهل الحفل من ذلك ذهولا شديدا • ولم يقف الامر عند
هذا الحد ، ففى المساء ، حين نظم مارك ايفانوفتش والساكن بريولوفانيكو
حفلة شاي دعوا اليها كاتب المحكمة أوكيانوف ، ترك سيميون ايفانوفتش
سريره ، وجاء ينضم اليهم دافعا نصيبه من نفقات الحفلة خمسة عشر
كوبكا أو عشرين • وكان واضحا أن هذه الحاجة الى الشاي ليست الا
عذرا وتعلة ، ذلك أنه لم يلبث أن أخذ يشرح فى اسهاب أن الانسان
الفقير لا يمكن أن يخطر بباله التوفير والادخار ، لأنه ليس الا انسانا
فقيرا • واتهم السيد بروخارتشين الفرصة ليعترف بفقره ، مضيفا الى
ذلك أنه فكر أول امس فى اقتراض روبل من رجل وقح ، ولكنه صرف
النظر عن ذلك الان طبعاً • ذلك أن مثل هذا الانسان الوقح ، أن مثل
هذا الصبى الطائش ، لا بد أن يمضى متباهيا بذلك مدلا به • أما هو
سيميون ايفانوفتش ، فانه يرسل فى كل شهر خمسة روبلات الى امرأة
أخيه ، وأن امرأة أخيه هذه كان يمكن أن تموت جوعا لولا أنه يرسل
اليها هذا المبلغ فى كل شهر ، ومع ذلك فلو ماتت لاستطاع أن يشتري
لنفسه رداء جديدا منذ زمن طويل • وظل سيميون ايفانوفتش يتكلم على
هذا النحو مسهبا مطنبا ، وبلغ من تكرار الحديث عن فقره وعن امرأة
أخيه وعن الخمسة روبلات أثناء كلامه أنه ارتبك آخر الامر ولم يسعه الا
أن يصمت •

وبعد ثلاثة ايام ، بينما كان لا يخطر ببال أحد أن يناكده ، وبينما نسوا جميعا هذه القضية ، جاء يختم كلامه قائلا : ان زينوبى بروكوفتش ، هذا الرجل الوقح ، الذى لم يكده يتسبب الى سلاح الفرسان ستبتر ساقه فى الحرب ، فلا يملك عندئذ الا أن يحل محل الساق المبتورة ساقا من خشب ، وانه سيرى يومئذ آتيا الى سيميون ايفانوفتش مستجديا كسرة خبز ، ولكن سيميون ايفانوفتش سيسعده كثيرا أن يرفض ضراعات « الصبى » دون أن يلقي عليه نظرة واحدة •

وطبعى أن يستطرف الجمع هذا الامر كله وأن يتسللوا به ، وأن يقرروا دون مزيد من التأمل والتفكير أن يشنوا على سيميون ايفانوفتش هجوما حاسما • وكان السيد بروخارتشين قد قرر أن يختلط بالحفل ، فهو يبدو الآن حريصا على الاطلاع على كل شئ ، يلقي الأسئلة تلو الاسئلة لغاية سرية لا يعرف أحد ما هى ، حتى أصبحت المنازعات تشب بينه وبينهم بلا مصاعب ولا مقدمات • ومن أجل أن يدخل سيميون ايفانوفتش فى الموضوع ، ارتأى أن يلجأ الى وسيلة مرهفة جدا عرفها قراؤنا من قبل ، فهو يترك سريره متى حان وقت شرب الشاي ، ويقترّب من الجماعة كما يمكن أن يفعل ذلك انسان متواضع ذكى أنيس بشوش ، فيدفع العشرين كوبكا المفروضة ، معلنا عن رغبته فى المشاركة فى هذه الحفلة الصغيرة ، فتأخذ هذه الجماعة الشابة تتواطأ فيما بينها بفمزات سريعة ، وتدير الحديث محتشما جادا وقورا فى أول الامر •

ثم ما يلبث واحد شجاع منهم أن يمضى ساردا ، على حين فجأة ، مجموعة من الأخبار مختلفة لا تصدق ، فهو يقول مثلا انه سمع صاحب السعادة يسر الى ديميد فاسيليفتش أن الموظفين المتزوجين خير من الموظفين العازبين ، وأنهم أجدر بالترفيه والترقية منهم ، لأن الرجال الهادئين العقلاء

حقا يكتسبون من ممارسة الحياة العائلية مزايا كثيرة ؛ ويضيف المتحدث الى ذلك قوله انه ينوى ، رغبة منه فى التميز على غيره وفى زيادة مرتبه ، أن يتزوج مرة أخرى امرأة يقال لها ففرونيا بروكوفينا ؛ أو انه لاحظ لدى بعض زملائه فى كثير من الاحيان انهم يبلفون من جهلهم باداب المجتمع وبالباقاة الاجتماعية ان قبولهم فى مجتمع الناس أمر مستحيل ؛ وان السلطات العليا قد قررت لذلك ، تفاديا لهذا الوضع السيئ ، أن يحسم من الرواتب مبلغ معين لانشاء قاعة رقص يمكن أن يتعلم فيها المرء رفعه الاوضاع ، وحسن الهندام ، وأدب المعاشرة ، واحترام الشيوخ ، وقوة الارادة ، وصلابة الخلق ، وطيبة القلب ، والشعور بالواجب ، والعرفان بالجميل ، وعددا آخر من المزايا الحميدة والحصال الجميلة . أو يذكر فجأة ، فى مرات اخرى ، ان جميع الموظفين ، حتى اقدمهم ، سيخضعون قريبا لامتحان تعرف به درجة ثقافتهم * ، وان ذلك سينشأ عنه أن كثيرا من الحجب ستمزق ، وان كثيرا من الموظفين سيتردون من وظائفهم . الخلاصة أن أبناء سخيصة كثيرة من هذا النوع كانت تذاع فى الجماعة بحضور صاحبنا . وكان الحضور جميعا يتظاهرون بتصديقها ، ويقبلون على الاصغاء اليها والاهتمام بها ، لانها تعينهم ، ويشيرون الى عواقب مثل هذه الاجراءات بالنسبة الى بعض أفراد جماعتهم ؛ أو يصطنعون الحزن والأسى ، ويهزون رموسهم كأنهم يستجدون النصيح من كل جهة ويلتمسون أن يعرفوا ماذا يجب أن يفعلوا اذا وقعت مصيبة كهذه المصيبة .

والنتيجة معروفة طبعا : فحتى من كان أقل بساطة وأقل خوفا من السيد بروخارتشين يمكن أن تفقده هذه الأقاويل صوابه . ولقد ظهرت على بروخارتشين جميع العلامات التى تدل على أنه أخذ يفقد صوابه فعلا . انه انسان محدود العقل غير مهيا لقبول أية فكرة جديدة عليه . ولا شك

أنه أخذ يقلب فى رأسه كل نبا من هذه الانباء المثيرة ، باحثا عن الباعث عليه والدافع اليه ، حتى اختلطت الامور فى عقله ، وحتى اضطرب ذهنه أشد الاضطراب فى هذه المناهضة المتشابكة من الخواطر العجيبة ، لا يعرف كيف يوائم بينها وبين طريقته فى التفكير ، ولا يعرف كيف يخرج منها الى شئ من استقرار النفس وهدوء البال وانكشفت فى سيميون ايفانوفتش صفات عجيبة لم تخطر ببال أحد ولا كانت فى الحسبان وسرت فى حقه اشاعات ما انفكت تتضخم وتتضخم ، حتى وصلت الى الديوان . وتفاقم أثر ذلك من تبدلات ظهرت فى هيئة بطلنا التى لم تتغير منذ سنين متلاحقة كثيرة : فوجهه الآن أصبح قلعا ، ونظراته أصبحت ريبانة وجللة ، وأخذ يرتجف ويرتعد ، وصار يصغى الى كل نبا كاذب جديد باتباه شديد وعقل محموم ؛ واستبد به هوى استطلاع الاخبار واستجلاء الحقائق ، وبلغ هذا الهوس عنده أنه تجرأ فمضى الى ديميد فاسيليفتش مرتين يسأله عن صحة هذه الأنباء . واذا كنا نسكت عن العواقب التى أدت اليها مساعى سيميون ايفانوفتش هذه ، فما ذلك الا من قيل الاحترام لذكراه .

وخلص الناس من ذلك فى أول الامر الى أن الرجل انسان يكره معاشره البشر ويهمل المواضعات الاجتماعية ، ورأوا فيه شخصا غريب الأطوار . وكانوا فى ذلك مخطئين ، فقد فاجأوه مرارا على حالة غريبة من نسيان نفسه ، والذهول عن ذاته ، فاعرا فاه ، رافعا قلمه فى الهواء ، كأنه متجمد الجسم ، فهو أقرب الى شيخ انسان عاقل منه الى هذا الشخص ذاته . وقد حدث غير مرة أن رآه زميل ذاهل من زملائه على هذه الحال الغريبة من جمود النظرة وشروود اللب ، فشده الزميل من ذلك وأخذ يرتض خوفا ، وبلغ من جزعه أن سقطت على تقريره فطيرة كانت فى يده ، أو كتب فى هذا التقرير كلمة ليست فى محلها . وصار سلوك

صاحبنا يذهل من يراه من عقلاء الناس ، حتى لم يبق لدى احد شك
فى ان سيميون ايفانوفتش قد اختل عقله ؛ بل لقد سرت فى ذات يوم
اشاعة فى الديوان تقول ان السيد بروخارتشين قد روع ديميد فاسيليفتش
نفسه ، وجمده فى مكانه فلم يستطع الرجل ان يرجع القهقرى ، وذلك
حين صادف السيد بروخارتشين فى احد الممرات على هذا الوضع المقلق
المخيف . . . فلما وصل هذا كله الى سمع سيميون ايفانوفتش ، نهض عن
مكانه ببطء ، وسار فى طريقه بين الموائد والكراسى محاذرا ، وتناول
معطفه ، وغاب عن الديوان زمنا . ترى هل خاف ؟ هل دفعه الى ذلك
دافع آخر ؟ اننا نجعل ذلك ، ولكن ما حدث هو انهم لم يستطيعوا ،
خلال مدة طويلة ، أن يعثروا عليه لا فى بيته ولا فى مكتبه .

لن نحاول أن نعلل أفعال سيميون ايفانوفتش باختلال عقله . وحسبنا
أن نذكر للقارىء أن بطلنا كان لا يحب معاشره الناس وأنه لحجله قد
عاش حتى ذلك الحين فى عزلة تشسبه أن تكون كاملة ، متميزا بطبع
سرى صموت فى آن واحد . لقد ظل طوال مدة اقامته فى بيسكى مستلقيا
على سريره وراء الحاجز ، فى صمت مطلق ، دون أن تكون له علاقة
بأحد من الناس . كان الشخصان الآخران ، اللذان يساكنانه فى ذلك
المنزل ، غريبين مثله ، يعيشان حياة كحياته تماما ، فقضى الثلاثة حوالى
خمس عشرة عاما مضطجع كل واحد منهم فى سريره وراء حاجزه ، فى
صمت كامل ، والأيام والليالى تمضى على هذا النحو سعيدة بطيئة خدرة ،
وكل شيء يجسرى على ما يرام ، حتى أن سيميون ايفانوفتش وأوستينيا
فيدوروفنا أصبح لا يذكر أحد منهما المصادفة التى جمعتهما . كانت المرأة
تقول للسكان الجدد الذين يقيمون فى منزلها : « انه يعيش فى منزلى
ربما منذ عشرة أعوام ، وربما منذ خمسة عشر عاما ، وربما منذ عشرين
عاما . . . فمن الطبيعى اذن أن يضطرب صاحبنا بعض الاضطراب خلال

هذه السنة الأخيرة بين شبان صاخبين معربدين ، وهو الانسان الرصين
الوفور المتحفظ .

أثار اختفاء سيميون ايفانوفتش اضطرابا كبيرا فى المنزل ، أولا لأنه
أثير صاحبة البيت ، وثانيا لأن جواز سفره الذى كان محفوظا لديها لم
يعثر عليه . وظلت اوستينيا فيدوروفنا يومين تذرف سيلا من الدموع على
عادتها فى اللحظات الحرجة الصعبة . وظلت يومين كاملين تهجم على
سائر المستأجرين ، ناعية عليهم أنهم سبب جميع مبائس صاحبها المستأجر
الآخر الذى فقدته بسبب سخرياتهم . وفى اليوم الثالث أمرتهم جميعا أن
يهبوا باحثين عن التائه ، وأن يردوه اليها حيا أو ميتا مهما كلف الأمر .
وفى المساء رثى كاتب المحكمة سويدين يعود الى البيت أول العائدين معلنا
أنه تقضى أثر الهارب ، فرآه فى سوق تولكوتشى * وفى غيره ، وأنه تبعه
من قرب ، لكنه لم يجزؤ ان يكلمه حتى حين واجهه أنفا لانف عند
الحريق الذى شب فى شارع كريفوى . وبعد نصف ساعة وصل
أوكيانوف وكونتاريوف فأبدا ما ذكره سويدين حرفا حرفا : لقد مرّا قرب
الهارب ، ربما على مسافة عشر خطوات منه ، لكنهما لم يجسرا ان يكلماه
أيضا . وقد لاحظا ، كلاهما ، أن سيميون ايفانوفتش كان فى صحة رجل
يشبه أن يكون شحاذا هو شخص سكير « تلاحقه الديون » . ثم وصل
السكان الأخيران . فلما أصاحا بسمعهما الى ما سلف قوله ، قررا أن
بروخارتشين ليس بعيدا عن المنزل ، وأنه لن يلبث أن يعود . وكانا يعلمان
من جهة أخرى ، منذ زمن طويل ، أن بروخارتشين أصبح يعاشر هذا
الشحاذا ، وهو رجل سيئ السيرة كثير العريضة منافق مرء ، فلا شك أنه
قد فتن صاحبنا بحيلة من الحيل . ولقد ظهر هذا الرجل أول مرة فى
كنف الرفيق رمينوف ، فقضى فى المنزل بضعة أيام ، مدعيا أنه انسان
« معذب فى سبيل الحقيقة » ، وأنه كان موظفا فى الأقاليم ، ثم طرد من

وظيفته مع عدد من رفاقه على أثر مرور أحد المفشين • فلما وصل الى
بطرسبرج ارتقى على أقدام بورفيرى جريجوريفتش متوسلا اليه أن يجد
له عملا فى مكتب من المكاتب ، ثم أمكنه أن يحصل على هذا العمل ،
ولكن شاء سوء حظه أن يجد نفسه بلا عمل مرة أخرى ، اذ أغلق المكتب
ثم أعيد تنظيمه دون أن يؤخذ صاحبا فى عداد الموظفين الجدد ••• وذلك
بسبب عجزه الادارى ، وبسبب كفاءته فى نوع آخر من العمل •••
ناهيك عن حبه الحقيقة وعن مؤامرات زملائه • فبعد أن قص الرجل هذه
القصة التى هب أتمامها زيموفايكين هذا عدة مرات يقبل صديقه رينوف،
الرجل القاتم المزاج المشعث اللحية ، سلم على سائر الحضور واحدا بعد
واحد ، سلاما خافتا جدا ، واصفا كل واحد منهم بأنه محسن اليه مفضل
عليه ، ثم راح يصف نفسه بأنه انسان سيئ الخلق ، جبان ، رعديد ،
مزعج ، عريد ، أحمق ، متضرعا الى الحفل ألا يحقد عليه وهو فيما هو
فيه من شقاء وبؤس •

فلما نال حماية هؤلاء السادة ورعايتهم ، غدا مرحا مسرورا على
الفور ، وأخذ يقبل يدي أوستينيا فيدوروفنا ، رغم الاحتجاجات المتواضعة
التي قدمتها هذه السيدة واصفة يديها بأنهما غليظتان خشناتان ، وبأنهما
ليستا على شيء من الرفعة والتبيل • ووعد الرجل الجماعة بأن يكشف لهم
فى ذلك المساء نفسه عن مواهبه فى رقصة من طراز قوى • ولكن القصة
انتهت فى الغداة نهاية مؤسفة ، اما لأن زيموفايكين أودع رقصته قوة مبالغا
فيها ، واما لأنه « لطح شرف » أوستينيا فيدوروفنا حقا ، كما تؤكد ذلك
هى التى « كانت تعرف ياروسلاف ايلتش والتى كانت منذ زمن طويل
زوجة ضابط مرموق » • المهم أن الرجل انصرف يومئذ ، ثم عاد مرة
أخرى ، فطرده شر طردة ، لكنه عرف كيف يستميل اليه سيمون

ايفانوفتش وكيف ينال حظوته ، وها هو ذا يظهر مرة اخرى بصفه جديدة
هى انه صاحب بطلنا وفاتنه ومفويه •

ما ان عرفت صاحبه البيت ان سيميون ايفانوفتش سليم لم يمسه
سوء ، وانه لا داعى الى البحث اذن عن جواز سفره ، حتى هدأت توا ،
ومضت تستريح • وفى اثناء ذلك اتفق عدد من سكان المنزل ان يستقبلوا
الهابز استقبالا رائعا • عمدوا الى الحاجز فأبعدوه عن السرير دون خوف
على مفصلاته أن تنسد ؟ ونفشوا السرير واضعين الصندوق الصغير عند
موضع القدمين ، ومددوا على السرير نفسه « امرأة الاخ » دية صنعوها
من شال صاحبة البيت وقبعتها ومغطفها ، وأجادوا صنعها حتى ليحسبها
الناظر اليها شخصا حقا • فلما فرغ هؤلاء السادة من انجاز هذا العمل
على أكمل وجه لبثوا ينتظرون وصول سيميون ايفانوفتش بصبر نافذ
ليبلغوه عند وصوله أن امرأة أخيه تركت قريتها وجاءت تزوره ، وأن
المسكينة لم تملك الا أن تنزل وراء الحاجز • وانتظروا طويلا ***

وفى أثناء هذا الانتظار اتسع وقت مارك ايفانوفتش لأن يقامر مع
بريولوفينكو وكوتاريوف وأن يخسر أجره البالغ خمسة عشر روبلا •
ومن كثرة ما لطم أوكيانوف أنفه توبة وندامة تورم هذا الثنوء واحمر
احمرارا شديدا • وكان آفدوتيا بعد أن نام طوال سكرته يهيم أن ينهض
عن فراشه ليحىء بشيء من الحطب يشعل به المدفأة • أما زينوبى
بروكوفتش فقد تبلل حتى صار كالصماء من فرط ما كان يمضى الى
الشارع مرة بعد مرة عسى أن يرى وصول سيميون ايفانوفتش • ولكن
بطلنا لم يظهر ، لا ولا ظهر الشحاذ صديقه • وأيسس الجماعة من الانتظار ،
فالتهى كل منهم الى النوم ، مع ابقائهم « امرأة الاخ » وراء الحاجز • وفى
الساعة الرابعة من الصبح سمعت جلبة رهيبة عند باب الدار أيقظت النائم

من نومهم فكانت مكافاة لهم على ما بذلوا من جهد حتى لا يناموا • انه هو ، هو نفسه ، سيميون ايفانوفتش ، السيد بروخارتشين ، ولكن في آية حالة !! • • • • • صاح الجميع بصوت واحد : آ آ آ • • • • • وبلغوا من شدة الانفعال حين رأوه . أنهم نسوا « امرأة الاخ » فهي لا تخطر لهم الآن ببال • كان الهارب يبدو مفشيا عليه ، يقوده بل قل يحمله على كتفيه حوذى ليلي يرتدى أسملا ممزقة ، وترتعد فرائصه من شدة البرد • فلما سأله صاحبة البيت أين استطاع نزيلها أن يبلغ هذا المبلغ من السكر ، أجابها بقوله :

— ما هو يسكران • أؤكد لك أنه لم يشرب قطرة خمر واحدة •
يظهر أن الأمر سكتة أو ما يشبه ذلك •

أسندوا سيميون ايفانوفتش الى المدفأة من قيل السهولة ، وأخذوا يفحصونه ، فثبت لهم فعلا ان الامر ليس سكرًا ، ولكنه ليس سكتة أيضا . لاشك أن به شيئا ، ولكن ما هو هذا الشيء ؟ ذلك أنه كان ، دون أن يستطيع تحريك لسانه ، يهتز اهتزازا شديدا ويصفق أجفانه ، ويحدق مدهوشا تارة الى هذا وتارة الى ذاك من الشهود الذين كانوا في ملابس النوم • وسألوا الحوذى من أين أتى به ، فقال :

— سادة لطف مرحون أسلمونيّه وهو على هذه الحال • كانوا عائدين من كولومنا • هل اشتجروا معه ؟ هل أصابته تشنجات ؟ لا أدرى • • • • • مهما يكن من أمر ، فهم سادة محترمون لطف مرحون •

أنهضوا سيميون ايفانوفتش ، وحملوه الى سريره • فلما رقد على السرير فأحس بوجود « امرأة الاخ » الى جانبه ، وأحس بالصندوق الصغير عند قدميه ، أطلق صرخة رهبة ، وأنهض جسمه حتى صار كالجاني على أربع ، محاولا وهو يرتعش أن يغطي يديه وبجسمه كله

أكبر مساحة من مرقده ، وينظر الى من حوله نظرات وحشية مذعورة كأنه يريد أن يقول انه يؤثر الموت على ان يترك ولو جزءا من مائة جزء مما يملك •

لبث سيميون ايفانوفتش يومين أو ثلاثة أيام راقدا وراء الحاجز على هذه الحال ، بعيدا عن الناس فى منجى من كل تلك الجلبة الباطلة • لقد نسى منذ القداة ، فما يخطر ببال أحد • والزمان يجرى مجراه أثناء ذلك : الساعات تملو الساعات ، والايام تعقب الايام ؟ والمريض راقدا فى فراشه وقد استولى على رأسه المحموم المنزق الثقيل نوع من الحذر الهادى • ولكنه لا يتحرك ، ولا يثنى ، ولا يتوجع او يتشكى ، بل يلزم صمتا وحشيا ، ويشد جسده الى سريره كارب مذعور يلتصق بالارض متى اقترب منه صياد • وكان يخيم على المنزل صمت حزين قائم فى بعض الاحيان ، اسارة الى ان جميع النزلاء قد مضى كل منهم الى مشاغله ، فكان سيميون ايفانوفتش يستطيع عندئذ أن يسلى نفسه عن حزنه على مهل ، مصغيا الى الأصوات القريبة الصادرة عن المطبخ حيث تقوم صاحبة البيت بعملها ، أو مصيخا بسمعه الى وقع أقدام تطوف فى أرجاء جميع الغرف ، وقع أقدام آفدويتا تنظف المنزل • هكذا كانت تنقضى ساعات ، ساعات كسل ووسن ، ساعات رتيبة تجري على وتيرة واحدة ، كقطرات الماء التى يسمع تساقطها على مفسل المطبخ • ثم يتوافد النزلاء آحادا أو جماعات ، فيسمعهم سيميون ايفانوفتش يتذمرون من رداءة الجو أو يطلبون وجبة الطعام ، ويحدثون جلبة وصحبا ، ويدخنون ، ويشترجون ويتصالحون ، ويقامرون بالورق ، ويقرصون الضاجين حين اعداد الشاي • ويقوم المريض بحركة آلية من أجل أن ينهض وان ينضم اليهم بدفع ما يترتب عليه ، ولكنه مايلبث أن يسقط الى خدره مرة أخرى على حين فجأة • فإذا هو يحلم عندئذ أنه كان منذ لحظة على المائدة يشرب الشاي ويشارك

فى الحديث ، وان زينوبى اسرع ينتهز الفرصة فدى فى الحديث
غمزات تناول « نسوة الاخوة » وما قد يقوم بينهما وبين مثل اولئك
الرجال الشرفاء من علاقات • فىحاول سيميون ايمانوفتش ان يبرى نفسه
وان يجيب ، ولكن جملة جبارة قوية تتساقط من جميع الافواه دفعة
واحدة تقول : « لاحظنا مرارا ٠٠٠ » ، فتقطع عليه هذه الجملة كل
اجوبته ، فلا يجد عندئذ خيرا من ان يحلم باليوم الاول من الشهر ، اليوم
المبارك الذى يتقاضى فيه الروبلات من الحكومة • وها هو ذا على السلم
يفض الاوراق النقدية التى قبضها ، ويلقى نظرة مختلطة عجلى على ماحوله ،
ثم يسارع الى اخفاء نصف المبلغ الذى استحقه اجرا له ، فى عنق احد
حذائيه • وها هو ذا يقرر ، وهو ما يزال على السلم (دون ان يدرك ان
هذه الأمور كلها انما يجريها فى سريره) ان يدفع لصاحبة البيت أجرها
متى وصل الى المنزل ، وأن يشتري بعد ذلك بعض الاشياء التى لا غنى
عنها ، وأن يصرح لمن يجب أن يصرح له بذلك أنه قد اقتطعت من راتبه
« حسميات » فلم يبق له ما يرسله الى امرأة أخيه ، ثم يرئى لحالها على
النحو المناسب ، ثم لا يتحدث الا عنها يومين متتالين ، ثم يعود يتكلم بعد
عشرة أيام على فقره وبؤسه حتى يقتنع رفاقه بذلك مزيدا من الاقتناع •
وها هو ذا يلاحظ ، بعد أن اتخذ هذه القرارات كلها ، ان آندره
يافيموفتش ، الرجل الصموت الأصلح ، الذى تفصله عنه فى المكتب ثلاث
غرف ، والذى ظل عشرين سنة لم يسمع منه كلمة واحدة فى يوم من
الأيام ، ها هو ذا يلاحظ ان آندره يافيموفتش هذا واقف هو أيضا على
سلم المكتب بعد روبلاته ، ويقول ملوحا برأسه : « أهذا مالى ؟ » ، ثم
يهبط السلم خاتما كلامه بقوله « اذا لم يكن مال فلا طعام ! » ، حتى اذا
وصل الى درجات الفسحة أمام الباب أضاف يقول : « لى سبعة أولاد أيها
السيد » ، ثم اذا بهذا الرجل القصير الأصلح لا يخشى أن يسلك سلوك

سيح ، ويخالف قوانين الحياة الواقعية ، فيعلو فجأة مقدار ذراع فوق الأرض ويرسم بيده المرتعشة في الهواء خطا مواربا هابطا ، ويجمع قائلا ان ابنه الاكبر تلميذ في المدرسة الثانويه ، ثم يرشق بروخارتشين بنظرة حائرة كأنه يعمد مسئولاً عن وجود هؤلاء الاولاد السبعة ، ثم يغطس قبعته حتى تصل الى عينيه ، ويلتفت يسرة ويغيب • ويتأثر سيميون ايفانوفتش تأثرا شديدا • ورغم ايمانه المطلق بانه برى ، يأخذ يسلم بأن الذنب ذنبه حقا اذا كان هذا البيت البائس يضم سبعة أولاد • ويستبد به خوف ، فيأخذ يركض ، لانه يعتقد ان الرجل القصير الأصلع عاد أدراجه يحاول ان يمسك به عازما عزما أكيدا على ان ينشئه ويسلبه ماله باسم أولاده السبعة ، مستبعدا استبعادا كاملا ان ينظر بعين الاعتبار الى « نساء الاخوة » وما قد يكون بينهما وبين سيميون ايفانوفتش من صلات •

ويظل السيد بروخارتشين يركض ويركض حتى تتقطع أنفاسه ، وهؤلاء أناس كثيرون يركضون الى جانبه فيسمع رنين الفضة في جيوب صديراتهم ؟ ثم يأخذ جميع الناس يركضون ، وتندوى في الجو اصوات أبواق رجال المطافي ، فتحمله أمواج من البشر على قللها تقريبا ، فيتدحرج الى مكان ذلك الحريق الذي شهده أخيرا في صحبة العريد • كان السكير ، أقصد السيد زيموفايكين ، ينتظر هنالك • فلما رآه أقبل عليه محتفيا به وأمسك يده يقوده الى وسط الجمهور الكثيف • وها هو ذا سيميون ايفانوفتش يرى الآن ، مثلما رأى هناك ، جمهرة من الناس تتلاطم تتلاطم الامواج من حولهما ، فتسد رصيف نهر فوتتاكا بين الجسرين ، كما تسد جميع الشوارع والأزقة المجاورة ؟ والناس تدفعهما قترجهما في ورشة واسعة من خشب ، امتلأت بالمستعطلين جاءوا من كل حذب وصوب من المدينة ومن سوق تولكوتشي أو خرجوا من البيوت والملاهي القريبة • انه يرى هذا كله واضحا كأنه يشهده في الواقع ،

وها هي ذى وجوه غريبة تأخذ تتخاطر امام عينيه من خلال زوايا الحمى والبهذيان • انه يتعرف بعض هذه الوجوه • هذا هو السيد المهيب ، القارع القامة ، الطويل الشاربين ، الذى ظل طوال مدة الحريق معسكرا وراء ظهره ، يزجى له المديح حين تعثرى بطلنا حماسة عنيفة فيروح يبدب كانه يصفق تشجيعا لبسالات رجال المطافىء الذين يراهم من مكانه المرتفع رؤية تامة • وهذا وجه آخر : وجه ذلك الرجل الطويل القوى الذى رفعه بضربة من قبضة يده على ذلك الحائط يريد أن يجتازه ليقوم بعمل من أعمال الانقاذ • وهذا وجه ذلك الشيخ العجوز الذى يشبه أن يكون لونه لون التراب ، والذى يرتدى معطفا باليا من معاطف المنزل ويحزمه زنار لا تدرى ما هو : ان هذا الشيخ العجوز كان قد خرج من منزله قبل اندلاع الحريق يريد أن يشتري لتزيله من عند أحد البقالين قليلا من خبز وتبغ ، وها هو ذا الآن يشق الجمهور متجها نحو بيته الذى تأكله النيران وتحترق فيه زوجته وابنته مع ثلاثين روبلا ونصفا مخبأة تحت سرير من الريش • غير أن أوضح صورة كان يراها سيميون ايفانوفتش هي صورة تلك المرأة الفقيرة التى حلم بها مرارا أثناء مرضه ، وهو يراها الآن مرة أخرى كما كانت تماما : بحذاءين من قشور الشجر ، مع عصا باليد ، فى ثياب رثة بالية ، وعلى ظهرها كيس مضمفور • لقد كانت تصبح وتصرخ أكثر من رجال المطافىء والجمهور مجتمعين ، قائلة ان أولادها طردوها ، وانها أضاعت فى الوقت نفسه قطعتى نقد بعشر كوبكات : « الأولاد •• النقود •• الأولاد •• » ، انها لا تنفك تنطق بهذه الألفاظ فى خليط من الكلام لا سبيل الى فهمه ، وقد انتهى الناس الى تركها على حالتها تلك يائسين من أن يعرفوا ماذا تريد • ولكن العجوز لا تهدأ ، فهي تصرخ وتقول وتحرك يديها ، لا تلتفت أى التفات الى

الحريق ولا الى الجمهور ولا الى شقاء الآخرين ، ولا الى الشرارات التي
تطائر من الحريق وتصل الى هناك •

وشعر السيد بروخاتشين أخيراً بخوف يهتريه ، ذلك أنه رأى بوضوح
أن هذا كله ليس بالأمر الهين ، وأنه لن يقضى على هذه الصورة من
البساطة واليسر • فهذا فلاح قريب جداً منه ، متدنٍ بمعطف ممزق ،
يصعد على كومة من خشب ، يأخذ ، وقد احترق شعره واحترقت لحيته
قليلاً ، يأخذ يحرض الجمهور على سيميون ايفانوفتش ، فيتكاثف الناس
ويتكاثفون ويظل الفلاح يصيح ويشتم ، ويتجمد السيد بروخاتشين هلعاً
وجزعا ، ثم ما يلبث ان يتذكر فجأة أن هذا الفلاح ليس الا حوذي
عربة سبق لسيميون ايفانوفتش أن سرقه منذ خمس سنين سرقة دينية ، اذ
قفز من العربة قبل أن يدفع الاجر واختفى مارقاً كالريح عبر منزل له
مخرجان • أراد السيد بروخاتشين أن يصرخ ، أن يتكلم ، ولكن صوته
اختفى في حلقة • وهو يحس ضغط الجمهور الهائج الحائق الذي يحيط
به احاطة أفعى متعددة الألوان ويخنقه خنقاً • وما هو ذا السيد بروخاتشين
يبدل جهداً فوق طاقة البشر فيستيقظ • ولكنه ما ان يستيقظ حتى يرى
أن الركن الذي يقبع فيه قد اندلعت فيه النار وأخذت تلتهم الحاجز والبيت
كله وأوستينا فيدوروفنا ونزلاءها • ان سريره مشتعل لهباً ، وكذلك
مخدته وغطاؤه وصندوقه ، وحتى فراشه الثمين • وثب سيميون ايفانوفتش
عن سريره ، وتناول الفراش وركض يجره وراءه حتى وصل الى غرفة
صاحبة الدار وهو على هذه الحال بقميص النوم حافي القدمين • هنالك
قبض عليه وأوثق 'ورد' الى ما وراء الحاجز الذي لم يكن يحترق في
الواقع ، وانما الحريق في رأس صاحبنا المسكين • أرقدوا المريض على
سريره من جديد • وعاد المريض الى تهاويله : هذا صاحب الدمي ،
الرث الثياب ، الكالنج الوجه ، الطويل الشعر ، يرتب في قاع صندوقه

أراجوزه الذى تحرك كثيراً ، لاطماً جميع الناس بائعاً روحه للشيطان ، فالى أن يقوم صاحب الدمى بعرض جديد يكف أراجوزه عن الوجود راقداً فى الصندوق مع ذلك الشيطان نفسه ومع الزنجى وبارو وكولومبين وعشيقها السيد ومفوض الشرطة •

تحلق نزلاء الدار جميعاً حول سرير سيميون ايفانوفتش ، ولبسوا واقفين هنالك يصوبون نحو المريض نظرات مستطلعة • وأفاق المريض آخر الامر ، فاذا هو ، اما حياءً واما لسبب آخر ، يأخذ يسحب الغطاء على جسمه بكل ما أوتى من قوة ، اختباءً عن هذه العيون المشفقة من غير شك • وكان مارك ايفانوفتش أول من قطع الصمت ، اذ أخذ وهو الانسان العاقل يقول بلطف ان على سيميون ايفانوفتش أن يهدى نفسه ، وان من العيب والعار على المرء أن يبقى مريضاً على هذا النحو ، وان هذا شئ يصلح للأطفال لا للرجال ، وان على سيميون ايفانوفتش أن يبل من مرضه وأن يعود الى عمله • حتى لقد ختم كلامه بمزحة صغيرة قائلا ان رواتب الموظفين المرضى لما 'تحدد' بعد ، ولما كان الموظفون المرضى لا ينالون أية ترقية ، فان حالة سيميون ايفانوفتش لن تعود عليه بفائدة • الخلاصة : لقد شارك الجميع سيميون ايفانوفتش آلامه ، ورثوا لحاله •

ولكن سيميون ايفانوفتش كفر بالنعمة ولم يعترف بالجميل ، فأصرَّ على البقاء فى السرير صامتاً لا يتكلم ، شاداً على جسمه غطاءه مزيداً من الشد • مع ذلك لم يشعر مارك ايفانوفتش بأنه 'غلب' ، وكبح جماح نفسه فقال بضع كلمات لطيفة ، لأن على المرء أن يدارى المرضى وأن يراعيهم • غير أن سيميون ايفانوفتش ظل مصرّاً على أن لا يسمع • ان وجهه يعبر عن الحذر ، وهو يدمدم بين أسنانه بكلام لا تدرى ما هو • وفجأة أخذ 'يدير على اليمين والشمال عينين مهتاجتين حانقتين يخرج منهما شرر كفيل

وحده بسحق جميع الشهود • ان هذا الوضع يجعل المداراة زائدة لامحل لها • لذلك لم يستطع مارك ايفانوفتش أن يكبح ثورة نفسه ، واذ رأى أن الرجل قد آلى على نفسه أن يظل عنيداً ، فقد استاء استياءً شديداً ، وبلغ منه الغضب مبلغه ، فقال له بصراحة قاطعة دون تمهيد انه قد آن له أن ينهض وانه لا يجوز له أن يبقى على هذه الحال راقداً على أذنيه ، وان من الحماسة وقلة الحياء وسوء التربية أن يظل يصيح فى الليل والنهار متكلماً عن حدائق ونساء اخوة وسكارى وصناديق وما الى ذلك ، وانه اذا كان لا يريد هو أن ينام فليس من حقه أن يحرم غيره من النوم، فليكن هذا معلوماً لديه •••

أحدث هذا الخطاب أثره • فيها هو ذا سيميون ايفانوفتش يلتفت نحو الخطيب فوراً فيقول له حازماً ولو بصوت ضعيف مبجوح :

— اسكت أنت أيها الولد البطل ••• ما أنت الا ثرثار ••• أترأى
تظن نفسك أميراً ؟ هه ؟

نارت نائرة مارك ايفانوفتش ، ولكنه وقد تذكر أنه أمام مريض هداً وأراد أن يخجل المريض من نفسه بالملاطفة • ومع ذلك أجابه سيميون ايفانوفتش قائلاً انه يرفض أى مزاح ، ولو جاء من ناظم أشعار مثل مارك ايفانوفتش • وأعقب ذلك صمت • وأخيراً أفاق مارك ايفانوفتش من دهشته فقال بلهجة قوية وفصاحة بليغة ان على سيميون ايفانوفتش أن يعرف أنه ابن أناس من علية القوم ، وأن لا يجهل كيف يجب على المرء أن يتصرف فى مجتمع راق • ينبغى أن نذكر بالمناسبة أن مارك ايفانوفتش كان يمارس الخطابة ويجب أن يؤثر فى المستمعين • ولا كذلك سيميون ايفانوفتش فانه من طول تعوده الصمت لايقول الا كلاماً موجزاً ولايجرى الا اشارات مختصرة ، فاذا اضطر الى القول فترة طويلة كانت الكلمة الأولى تستدعى

الكلمة الثانية ، وكانت الثانية تستدعى الثالثة ، فسرعان ما يمتليء فمه بالكلمات ، فلا تنطق الكلمات عندئذ الا فى فوضى غريبة ، لذلك يتفق له رغم كل تعقله وحكمته أن تغلت من لسانه سخافات • أجاب يقول :

- أنت كاذب • ما أنت الا فاسق • ولكنك ستنتهى الى أن تحصل كيسك وتمضى مستعظياً مستجدياً • ما أنت الا زنديق • ما أنت الا صعلوك • هذا أنت أيها الشويمر !

- سيميون ايفانوفتش ، انك ما تزال تهذر •

قال المريض :

- هل تعلم ؟ يهذر أحقق ، ويهذر كلب ، أما العاقل فيحكم عقله • وأنت لا تعرف شيئاً البتة ، يا صعلوك ••• يا عالم ••• يا كتاب مطبوع • ستحرق فى ذات يوم ، ثم لا تشعر بأن رأسك يحترق • هل فهمت المثل ؟

- طيب ••• ولكن ••• أقصد ••• ماذا تقول ؟ تقول ان رأسى سيحترق ؟

ولم يكمل مارك ايفانوفتش كلامه • لقد اتضح للجميع أن سيميون ايفانوفتش لم يسترد توازن عقله وأنه يهرف •• ولكن صاحبة البيت لم تستطيع أن تمسك عن أن تذكر ، عرضاً ، أن هناك فتاة صلعاء أحرقت منزلاً فى شارع كريفوى بايقاد سمعة أشعلت بلهبها خزانة حفظ الطعام • ولكن حادثاً كهذا لا يمكن أن يحدث هنا قطعاً ، ويمكن كل فرد أن يكون مطمئناً فى ركنه كل الاطمئنان •••

صاح زينوبى بروكوفتش يقول مقاطعاً صاحبة البيت خارجاً عن طوره :

— اسمع يا سيميون ايفانوفتش ! ما عساك تظننا ؟ ما نحن بمن يقص عليك حكايات نساء الأخوة أو الامتحانات أو الرقص *** أليس هذا ما تتخيله ؟

واستأنف بطلنا يقول وهو يجمع آخر قواه لينهض عن سريره وقد أحقته علائم الاهتمام هذه :

— واسمع أنت ، اسمع منى هذا يا أنت : ما المهرج ؟ هو أنت أو هو كلب • ولكننى لن أقول سخافات لأسرك وأمتك • هل سمعت أيها الولد القذر ؟ أنا لست خادملك يا سيد ! ***

وأراد سيميون ايفانوفتش أن يقول شيئاً آخر أيضاً ، لكنه وقد خارت قواه عاد يسقط على سريره • ولبت جميع الحضور هناك ، وقد فغرت أفواههم من الدهول ، وأدركوا أين هو صاحبهم الآن ، واحтарوا لا يعرفون كيف يسعفونه • وفجأة صرّ باب المطبخ ، وشقّ ، ورئى رأس يطل منه : انه رأس السكير صديق بروخاتشين ، السيد زيموفايكين ، يفحص المكان وجلا على عادته • وكأنما كان الجميع ينتظرونه ، فها هم أولاء يومتون اليه أن يقترب بأقصى سرعة • فيسر الرجل سروراً عظيماً ، ويدنو من السرير حتى دون أن يخلع معطفه •

لا شك أن زيموفايكين قد مرت به فى الليل لحظات صعبة • الجانب الأيسر من وجهه مخنّف تحت ضماد ، جفناه المتورّمان مبتلان بقيح يرشح من عينيه • والجزء الأيسر من رذنجوته ومن جميع ثيابه الممزقة ملطخ بوحل لا تدرى ما هو • وتحت ابطه كمان لا شك أنه كان ماضياً يريد بيعه • لم يخطئ الجمع حين ناداه مستجداً به ، فانه ما ان عرف الأمر ، حتى صاح يخاطب سيميون ايفانوفتش بلهجة من يشعر بتفوقه عليه ، ويعرف الزر الذى يجب أن يضغطه :

— هيتا يا سينكا ، انهض • ما هذا يا سينكا ؟ عد الى رشك
يا بروخارتشين العاقل الحكيم • فاذا أصررت على عنادك ، رميك عن
سريرك رمية • فاياك والعناد ! هل تريد ؟

’دهش الحضور من القوة الموجزة في هذا الخطاب • ولكن دهشتهم
كانت أشد من ذلك كثيراً حين لاحظوا أن هذه الكلمات وما اصطنعه
الرجل من مظهر قد أثرت في بروخارتشين ، وأرعته ، وبلغت من ذلك
أنه لم يكده يستطيع أن يعزم أمره على الدمدمة بين أسنانه بما كان لا بد
منه من تسفيه • قال :

— اذهب أنت أيها الشقي البائس • ما أنت الا انسان تميم • ما أنت
الا لص • هل تسمع ؟ ما أنت بصالح لشيء أيها الأمير الجميل ••• أنت
لص •

فأجابه زيموفايكين قائلاً دون أن يفقد شيئاً من هدوء أعصابه
وبرودة دمه :

— لا يا أخ ••• لا يا بروخارتشين العاقل الحكيم • تصرفك هذا
لا يليق بك •

وألقي على من حوله نظرة راضية ، وأردف يقول :

— أنصحك بالطاعة والاذعان ، اذا أردت أن لا أفضحك ، اذا أردت
أن لا أروى كل شيء ، هل سمعت ؟

فوجيء سيميون ايفانوفتش بهذه الكلمات وهزته هزاً قوياً : لقد
أخذ يرتعش ، ويحيل على ما حوله نظرات مذعورة • و’سره السيد
زيموفايكين بما أحدثه من أثر سروراً كبيراً ، وهم أن يتابع كلامه ،
ولكن مارك ايفانوفتش سبق حماسه ، فما ان رأى أن سيميون ايفانوفتش

قد تاب الى صوابه قليلا حتى يادر يقول له : « ان تصور مفاهيم كهذه المفاهيم ليس فى هذه اللحظة غير ممكن فحسب ، بل هو ضار أيضاً ، وليس ضاراً فحسب ، بل هو مناف للأخلاق أيضاً ، وان فى هذا اساءة الى الآخرين ، وانه يقدم للآخرين أسوأ مثل . »

توقع الحضور أن تؤتى هذه الموعظة خير ثمرة ، لا سيما وأن سيمون ايفانوفتش ، وقد هدأ الآن كل الهدوء ، قد أجاب عليها باعتدال . وبدأت بين أفراد هذا الجمع مناقشة ودية . وأخذوا يسألون سيمون ايفانوفتش عن السبب الذى جعله يجزع هذا الجزع . فأجابهم ، ولكن جوابه كان هروباً من الجواب . وألحوا فرد عليهم . وتناوب الطرفان الكلام مرة أخرى ، وتدخل الجميع فى الأمر ، فاذا بالحديث يجرى مجرى يبلغ من الغرابة والادهاش أن المرء يعجز حقاً عن نقله . لقد استحال الاعتدال تبرماً ، واستحال التبرم صراحاً ، واستحال الصراح دموعاً ، وهذا مارك ايفانوفتش يشدد به الحق فينصرف مرغياً مزبداً ، قائلاً انه لم يصادف فى حياته انساناً مناكداً كهذا الانسان . وهذا أوبليانيف يبصق احتقاراً . وبدا الذعر على أوكيانوف . وبكى زينوبى بروكوفتش . . . وذرفت أوستينيا جدولا من دموع قائلة فى تأوه ان « نزيل بيتها قد انتهى أمره ، وانه قد فقد عقله ، وانه سيموت وهو فى ريعان شبابه ، وانها يتيمة ، وانهم يجرونها الى الهاوية من غير شك . » . الخلاصة أن الجميع قد استطاعوا أن يقتنعوا أن البذرة قد نبتت ، أن كل شيء قد أثمر ثمرة على ما كانوا يحبون ، أن التربة كانت مباركة وأن سيمون ايفانوفتش قد فقد عقله فى صحبتهم الى الأبد ، وأنه صار الى الجنون أحسن ما يكون الجنون . وصمتوا جميعاً . . . ذلك أنهم اذا كانوا قد استطاعوا أن يروّعوا سيمون ايفانوفتش قد أصبحوا هم أنفسهم خائفين ، وأصبحت نفوسهم تفيض شفقة

صاح مارك ايفانوفتش يقول :

- ما هذا ؟ ما الذى تخشاه ؟ أية ذبابة لسعتك ؟ من ذا الذى تخطر
أنت ببالة ؟ بأى حق ترتجف هذا الارتجاف ؟ ماذا أنت ؟ أنت صفر ،
يا سيد ، أنت أهون شأنًا من بذرة برتقالة ! ذلك هو أنت ... هل فى
ذلك ما يستحق كل هذا الاضطراب والقلق ؟ أئذا سحقت امرأة فى
الشارع تخيلت أنك سحقت أنت أيضا ؟ أئذا احترق منزل ظننت أن من
الواجب أن يحترق رأسك أنت أيضا ؟ هيه ؟ ماهذا يا سيد ، ما هذا ؟

دمدم ميميون ايفانوفتش يقول :

- أنت ... أنت ... أنت غبى ! سوف يؤكل أنفك . سوف
تأكله أنت مع خبز ، ولكن دون أن تلاحظ ذلك .

صرخ مارك ايفانوفتش يقول وهو لا يصدق أذنيه :

- غبى ! .. غبى ! .. طيب .. لنسلم أنتى غبى . ولكن هل على
امتحانات يجب أن أؤديها ؟ هل على أن أتزوج ؟ هل على أن أتعلم
الرقص ؟ هل ستعوزنى الأرض ؟ ماذا ياعزيزى ، أليس لك مكان كافٍ ؟
هل ستتهار الأرض تحتك ؟

- نعم نعم ... سوف يسألونك رأيك . سيخلقونها ... هذا كل
شئ .

- كل شئ ! كل شئ ! ماذا سيخلقون ؟ ماهذه الحكاية أيضا ؟
هيه ؟

- هذا لا ينهى أن السكير قد طردوه ...

- طيب ... طردوه ... ولكنه سكتير ... أما أنت وأنا فلستنا
كذلك . نحن أناس لائقون !

- لائقون ... طيب ... ومع ذلك فهم ما تزال هناك ...

- ما تزال ؟ ... ماذا تعنى ؟

- أعنى الادارة ... المكتب ...

- طبعاً يا أحمق ... هم فى حاجة الى المكتب •

- هم فى حاجة اليه اليوم ، وغداً ، وبعد غد ... ولكن من الممكن

جداً أن تنقطع حاجتهم اليه فى يوم من الأيام • هى القصة نفسها ...

- ولكنهم فى هذه الحالة سيدفعون لك رواتبك عن السنة بكاملها ...

ألا ان أمرك لعجيب حقاً • ثم انهم ، بحكم خدماتك السابقة ، سيوظفونك
فى ادارة أخرى •

- رواتبى ... سأكون مضطراً الى أن آكلها ، وسيسرق منها

سارقون ... ثم هناك امرأة أخى • هل فهمت ؟ هل فهمت يا رأساً من
خشب !

- امرأة أخيك ؟ قل لى : أنت رجل ؟

- أما أننى رجل فنعم ... أنا رجل ... أما أنت ، يا أيها العالم ،

فأنت غيبى ، أنت رأس من خشب ... ذلك أنت • لست فى حاجة الى

الرد على تشجيعاتك الكاذبة • قد تُلغى فى لحظة من اللحظات كل وظيفة •

ان ديميد فاسيليفتش ، هل تسمع ؟ ان ديميد فاسيليفتش هنا أيضاً ...

- آه ... ديميد ... ديميد ... ولكن •

- طبعاً ... تماماً ... واذا بالمرء يجد نفسه بلا وظيفة • حاول

أن ترد على هذا الكلام !

- دعك من هذه السخافات ... اللهم الا أن تكون قد سقطت
مطرقة على رأسك • لا تستح يا عزيزي ، قل : هل فقدت صوابك ؟

صاح بعضهم يقول ، وهو يعض يديه أسفاً وحزناً :

- فقد صوابه ... انه مجنون ...

واضطرت صاحبة البيت أن تمسك ذراع مارك ايفانوفتش حتى
لا يمزق سيميون ايفانوفتش ارباً •

قال زيموفايكين متوسلاً :

- سينكا ، يا ذا القلب الرقيق ، ياذا العقل الحكيم ، أصارت نفسك
وثنيةً اذن ؟ ألا تفهمني اذن وأنت الانسان البسيط المذهب الفاضل ؟
وا أسفاه ! ما منشأ هذا كله الا اسرافك في الفضيلة • أنا ، ما أنا الا
عريد غيبى ، ما أنا الا شحاذ قذر ، ومع ذلك لم ينبذنى هذا الانسان
الممتاز ، بل عاملنى بتقدير واحترام • اننى أشكر له جميله ، كما أشكر
للسيدة صاحبة البيت جميلها • اننى أحبيهما كليهما منخيساً لهما حتى
الارض ، وأنا اذ أفعل هذا لا أفعل الا واجباً أيتها السيدة المحترمة •

قال زيموفايكين ذلك وانحنى فعلاً حتى الارض ، بحركة لا تخلو
من نبل • وأراد سيميون ايفانوفتش أن يتابع كلامه ولكنهم لم يدعوا له
فرصة في هذه المرة : هبوا جميعاً يفرقونه بسيل من الضراعات والحجج
المقنعة ، والمواساة ، الى أن استحى فطلب اليهم بصوت ضعيف أن يشرح
أمره • قال :

- طيب ... صحيح ... أنا لطيف ، مهذب ، رقيق ، دمث ،
فاضل ، أمين ، مخلص ، مستعد أن أبذل آخر قطرة من دمي ... فى
سبيل المحافظة على وظيفتى ، هل سمعت أيها الصبى ؟ ولكننى فقير ، فاذا

ألفوها ... - اسكت أنت ! - هي الآن موجودة ، ولكن من الممكن أن
تتلقى فجأة ... هل فهمت ؟ وفي هذه الحالة سأبقى في الطرقات ،
حاملة كيسى على ظهري ، أطلب الصدقات • هل فهمت ؟

زأر زيموفايكين يقول بصوت أقوى من كل الجلبة القائمة :

- سينكا ، ما أنت الا زنديق ... وسأقص كل شيء • ماذا أنت ؟
ما أنت الا عياط شيط ، يا رأساً كرأس كبش ! أنت غبي ، أنت زياط
سيكس من وظيفته كنساً بلا احتفال • ماذا أنت ؟

قال سيميون ايفانوفتش :

- هذه هي القضية تماماً •

- كيف هذه هي القضية ؟ هلاً تحدثت معه ؟

- كيف أتحدث معه ؟

- طبعاً • من كان حراً فهو حر ... أما من يبقى في السرير ...

- أما من يبقى في السرير كزنديق ، كواحد من أنصار مذهب
فولتير ، فانه ... اسمع يا سينكا ، ما أنت الا زنديق ، ما أنت الا زنديق ا

صرخ السيد بروخارتشين وهو يحرك يده طالباً الصمت :

- كفى • ولكن افهم ، افهم يا أحق : أنا وجل ، وجل اليوم ،

وجعل غداً ، ثم أفقد وجل في ذات يوم ، فأطلق كلمة وقحة ... وافعل
عندئذ ما تشاء ... وأصبح زنديقاً !

أرعد مارك ايفانوفتش يقول واثباً عن كرسيه الذى كان قد قصد
عليه ليستريح ، ومنجهاً نحو السرير وقد استبد به اضطراب شديد وأخذ
يرتجف غضباً وحنقاً :

— ولكن ماذا دهاه ؟ ما هذا أيها الأحمق ؟ أتحسب أن الدنيا خلقت من أجلك ؟ أترأى نفسك نابوليون ؟ ماذا أنت ؟ أنت نابوليون ؟ قل لى : أنت نابوليون ؟ ولكن هلا أجبتنى أيها السيد ؟ أنت نابوليون ؟

ولكن السيد بروخارتشين لم يجب • لا لأن هذه الفكرة ، وهى أنه نابوليون ، قد أختجلته ، ولا لأنه يخشى أن يتحمل مثل هذه المسؤولية ، بل لأنه أحس أنه عاجز عن المناقشة ، عاجز عن أن يقول أى شيء معقول ... واعترفته بعد ذلك نوبة : ان سيلا من الدموع يتدفق من عينيه البائستين الرماديتين اللتين أحرقتهما الحمى • وها هو ذا يخفى وجهه يديه الهزيلتين المروقتين ويأخذ يتكلم من خلال التشيع متأوها قائلاً انه انسان فقير جداً ، بائس جداً ، بسيط جداً ، غيبى جداً ، جاهل جداً ، فهو يستحق أن يُعنى عليه بالصفح ، وأن يعتنى به ، وأن يدافع عنه ، وأن يعطى ما يأكله ويشربه ، وأن لا يُترك ويُهجر ... قال هذا وقال مالا يعلم الا الله أيضاً • وكان وهو يتشكى هذا التشكى يلقى على ما حوله نظرات مذعورة كأنه يتوقع أن يهوى السقف ، أو أن تغور الأرض •

ورثى الجميع لحاله ورق قلبهم له • وأخذت صاحبة البيت تبكى متجبة ، وراحت تُترقد المريض بنفسها • واقتنع مارك ايفانوفتش بأنه لا جدوى من تهجمه على ذكرى نابوليون ، فعاد الى حسن المعاملة وساعد صاحبة البيت فى ارقاد المريض • وأحب الآخرون أن يكون لهم نفع هم أيضاً فافترضوا أن يهشوا للمريض شراباً من مغلى الثوت قالوا انه ذو تأثير سريع قوى فى جميع الأمراض • ولكن زعيوايكن اعترض على هذا الادعاء ، قائلاً انه لا شيء أمتع من فنجان بابونيج • أما زينووى بروكوفتش فقد كان لطيفة قلبه يجهش باكياً ، ويدرف سيلا من الدموع ، ويعبر عن ندمه على أنه أفزع سيميون ايفانوفتش بتلك الحكايات السخيفة ...

وتذكر أن المريض اشتكى من فقره ، وأنه طلب التصديق عليه ، فاقترح
الاكتئاب فى تبرع يقتصر الآن على هذه الحلقة الصغيرة من النزلاء .

وراح كل واحد من الحضور يتأوه ويشن ويندب حظ سيميون
ايفانوفتش العائر ، دون أن يستطيع مع ذلك فهم مثل هذا الذعر الشديد
الذى اعتراه على حين فجأة . ففهم هذا الذعر كله ؟ ماذا لو كان يشغل
منصباً خطيراً وكان له زوجة وأولاد ؟ وماذا لو كان قد أُحيل الى محكمة؟
انه لا يساوى شيئاً ، ولا يملك من حطام الدنيا الا صندوقاً عتيقاً وفصلاً
ألمانياً . وقد لبث عشرين عاماً من حياته راقداً وراء حاجز ، جاهلاً كل
شئ عن العالم والحياة ومتاعبها . ثم اذا هو بمزحة باطلة سخيطة ينقلب
عقله فجأة ، ويجزع هذا الجزع كله حين يكتشف أن الحياة قاسية ...
أليست الحياة قاسية على جميع الناس ؟ « لو أنه كلف نفسه عناء التفكير
فى أن الحياة قاسية على الناس كافة ، كما سيقول أوكيانوف فيما بعد ، اذن
لاحتفظ بعقله ، واستمر يعيش كما نعيش نحن جميعاً . »

لبث المنزل طوال النهار لا يُعنى أحد فيه بغير سيميون ايفانوفتش .
فهم ما ينفكون يجيئون اليه ، ويسألونه عن حاله ، ويفدقون عليه المواساة
... ولكن لم يبق ثمة حاجة الى مواساة فى المساء حين التهاب جسمه
بالحمى وراح يهذى . وأوشكوا أن يستدعوا طبيباً ، وهب جميع النزلاء
يعتنون ويتناوبون السهر قرب سريره طوال الليل مخافة أن يقع له
مكروه . ثم كلفوا صديقه السكر بالسهر عليه قرب سريره ، ومضوا يلعبون
بالورق ليساعدهم اللعب على مواصلة السهر . ولكنهم لم يلبثوا أن شموا
اللعب لأنه لم يكن قماراً بمال ، فليس فيه اغراء . وعندئذ تركوا اللعب
وأخذوا يتناقشون ، واحتدم النقاش حتى صار صراخاً وضرباً على المائدة ،
وحتى انسحب كل منهم الى ركنه وهو يصيح ويطلق كلاماً هاجراً عنيفاً .

واذ استبد بهم الحق والفضب جميعاً ، لم يشأ أحد منهم أن يقوم بدوره
فى الحراسة • واتهموا بأن ناموا جميعاً ، فخيم على البيت صمت مطبق •
ثم ان البرد كان شديداً • وقد نام أوكيانوف آخر من نام • فاليكم مارواه
بعد ذلك :

« لا أدري أكان ذلك حلماً أم كان واقعاً • ولكننى أحسست أن
رجلين ، على مقربة منى ، كانا يتحدثان فى نحو الساعة الثانية من الفجر »
• • لقد أدرك أوكيانوف أن زيموفايكن كان بسيل ايقاظ صديقه رمينوف
وسمع الرجلين يتحدثان زمناً طويلاً ، ثم يقوم الثانى فيحاول أن يفتح باب
المطبخ بمفتاح • وقد شهدت صاحبة البيت بعد ذلك أن المفتاح كان تحت
مخدتها وأنه اختفى فى تلك الليلة • ثم خيل الى أوكيانوف أنه يسمع
الرجلين يمضيان الى ما وراء حاجز المريض ، فيوقدان هنالك شمعة •

ثم لم يعرف أوكيانوف عدا ذلك شيئاً ، لأنه لم يلبث أن نام ولم
يستيقظ الا مع سائر من استيقظوا وهرعوا نحو السرير على أثر صرخة
كفيلة بايقاظ ميت • وخيل الى الجميع أنهم رأوا شمعة مشتعلة تخفى •
وفى أثناء ذلك دوت وراء الحاجز ضجة صراخ ، حتى اذا أضاموا المكان ،
ورأوا رمينوف وزيموفايكن يقتلان ويكيل كل منهما لصاحبه التهم
والشتائم • • صاحب رمينوف يقول :

— ما أنا • • • بل هذا القاتل •

فصرخ السيد زيموفايكن يقول :

— اتركنى • ابنى برى • أحلف ابنى لبرى •

لم يكن وجها الرجلين وجهى بشر ، ولكن لم ينتبه أحد الى ذلك
كثيراً أول الأمر ، لأن المريض كان قد غادر سريره • حتى اذا استطاعوا

أن يفصلوا المحتربين أحدهما عن الآخر ، رأوا السيد بروخارتشين ممدداً تحت فراشه ، وربما مغشياً عليه . كان قد شد الى جسمه غطاءه ومخدته ، فما يرى على السرير الا فراش عتيق قذر لا مفرش عليه (ولا كان عليه مفرش فى يوم من الأيام على كل حال) . فأخرجوا سيميون ايفانوفتش من تحت الفراش ، وأضجموه فوقه ، ولكنهم لم يلبثوا أن لاحظوا فوراً أنه لا فائدة من القيام بأى شئ . وأن أمر المريض قد انتهى ، فأعضاؤه قد تصلبت ، وأنفاسه لا تكاد تخرج من صدره . وأحاطوا به . ان جسمه كله يرتعش . ورأوه يحاول أن يومئ . وأن يتكلم ، ولكنه لا يستطيع أن يحرك لا يديه ولا لسانه . ومع ذلك كانت أجفانه تصطفق مثلما تصطفق ، على ما يقال ، أجفان رموس قطعها الجلاد منذ هنيهة فهى لا تزال حارة نازقة .

وتوقفت الارتجافات والتشنجات أخيراً ، فتمددت ساقا السيد بروخارتشين ومضى يؤدى حساب حسناته وسيئاته . ما الذى حدث له ؟ هل خاف ؟ هل وافاه كابوس كما أكد ذلك رمينوف فيما بعد ؟ هل وقع شئ غير هذا ؟ لا يعرف أحد . وانما الامر الواقع هو أن من المحتمل أن سيميون ايفانوفتش ما كان ليحرك أصبعاً حتى ولو جاء مفوض الشرطة الى المنزل بنفسه ليطرد منه سيميون ايفانوفتش بسبب آرائه الفولتيرية وادمانه على السكر ، أو دخلت متسولة تعلن أنها امرأة أخيه أو جاء أحد يقول له انه استحق مكافأة قدرها مائتا روبل أو امتدت النار الى فراشه فاحترق رأسه . ولكن بينما كان يتبدد الانشده الأول ، ويسترد الحاضرون موهبة الكلام شيئاً بعد شئ ، ويأخذون يعرضون ما يبدو لهم من افتراضات ، وبينما كانت أوستينيا فيدوروفنا محمولة تنبش تحت المخدة وتحت الفراش وحتى فى الحذائين ، وبينما كانت تلقى أسئلة موجزة على رمينوف وزيموفايكين ، فان التزيل أوكيانوف الذى كان الى

ذلك الحين أقل هؤلاء الناس ذكاءً وأكثرهم خجلاً وأقلهم حماسة ، قد استرد ، على حين فجأة ، حضور الذهن وسرعة البديهة ، واسترد جميع مواهبه الطبيعية ، فتناول قبعته وانسل خارجاً من البيت . . وفي اللحظة التي بلغت فيها الفوضى ذروتها في هذا المنزل الذي كان الى ذلك الحين هادئاً ساكناً ، فتح الباب ، فظهر كالصاعقة تأثيراً سيئاً مهيب الطلعة نبيل المظهر قاسي الوجه مستاء التعير ، يتبعه ياروسلاف ايلتش * وتابعه ، ووراءهما يقف السيد أوكيانوف مضطرباً محتاراً . سار السيد النبيل المظهر القاسي الوجه قدماً الى السرير الذي كان يرقد عليه سيميون ايفانوفتش ، فجلسه ، فاذا هو يصعّر وجهه ويرفع كنفه ويعلن أن الأمر قد انتهى ، وأن الرجل مات ، مذكّراً مع ذلك أن هذا الحادث نفسه قد وقع في هذه الأيام الأخيرة لسيد نبيل المحتد رفيع القدر فارح القامة بدا له هكذا أن يموت . قال ذلك وابتعد عن السرير ، مضيقاً أنه قد 'أزعج بغير فائدة ، ثم خرج .

وسرعان ما احتل ياروسلاف ايلتش مكانه ، فأصبح ريمونوف وزيموفايكين بين يدي من يجب أن يكونا بين يديه . ألقى المفوض بضعة أسئلة ، واستولى بلباقة على الصندوق الذي كانت صاحبة البيت تنهياً لفتحه ، وردّ الحذائين الى مكانهما ، ملاحظاً انهما متقبان باليان لا يصلحان للاستعمال ، وأمر بأن ترد اليه المخدة ، ونادى أوكيانوف ، وطلب مفتاح الصندوق الذي 'وجد في جيب السكّير زيموفايكين كأنما بمصادفة ، وفتح مأوى كنوز سيميون ايفانوفتش . كان كل ما في الصندوق كاملاً لم ينقص منه شيء : خرتان ، وجرايان ، ونصف منديل ، وقبعة عتيقة ، وعدة أزرار ، ونعال متهرئة ، وسيفان أحذية ، أي كل ما يخطر بالبال من مزق تفوح منها رائحة العفونة والتفن . ولم يكن هنالك ما يصلح غير القفل الألماني . وسئل أوكيانوف بقسوة ، فقال انه مستعد لحلف اليمين . وفُتشت المخدة ، فلم يلاحظ أن هناك ما يميزها غير قدراتها الشديدة ، أما

من جميع النواحي الأخرى فهي تشبه أية مخدة • وأقبلوا عندئذ على الفراش • رفعوه أولاً ، ثم لم يلبثوا أن توقفوا لحظةً يفكرون ، حين سقط منه على الأرض شيء ثقيل رنّ رنين معدن • وتناولوا الشيء الذي سقط وجسوه فعرفوا أنه لفافة عشرة روبلات •

— هيه ! هيه ! هيه !

كذلك هتف ياروسلاف ايلتش مشيراً الى ثقب في الفراش كان يخرج منه الشعر والقطن الذي حشى به الفراش • ونظروا في الشق من كتب فلاحظوا أنه ، وطوله نصف ذراع ، قد شق منذ وقت قصير بسكين اكتشفوها في الفراش نفسه بدس اليد ، ولم تكن الا سكين مطبخ صاحبة البيت • وما كاد ياروسلاف ايلتش يهتف مرة أخرى « هيه ! هيه ! » حتى سقطت لفافة ثانية تبعثها بضعة نقود مختلفة القيم • تناولوا فوراً كل ما سقط • وقدروا عندئذ أن من المستحسن فتح الفراش ، فطلبوا مقصاً •

ان بقية باقية من شمعة كانت تضيء في تلك اللحظة لوحة شائقة جداً لمن يلاحظها • • عشرة نزلاء متحلقين حول السرير ، بملابس غريبة ، مشعشع الشعر ، لم يحلقوا لحاهم ، ولا غسلوا وجوههم ، قد تورمت أجفانهم من النعاس • بعضهم شاحب ، وبعضهم يتصبب منه العرق • • بعضهم يرتجف محموماً ، وبعضهم يقشعر جسمه من البرد • وصاحبة البيت مذهولة عن نفسها ، تقف هنالك وجلية ، مكتوفة اليدين تنتظر امتثالا لياروسلاف ايلتش • ومن أعلى المدفأة تحملق الخادمة آفدونيا والقطعة الأثيرة عند صاحبة البيت ، متأملين باستطلاع وذعر ، هذا المشهد الذي يحده الحاجز المخلع • والصندوق المبتور بطنه يكشف عن أحشائه التي تبعث على الاشمئزاز • والغطاء والمخدة ملقيان على الأرض تحت الحشو

الذى ينزع من الفراش • وهذه كومة من قطع فضية ونقود أخرى ترى متلاثة على المنضدة العرجاء • وسيميون ايفانوفتش محافظ على هدوئه ، متمدد على سريره ساكنا لا يبدو شاعرا بدماره وخرابه • حتى اذا جىء بالمقص ، وأراد مرعوس من مرعوسى ياروسلاف أن يظهر نشاطا وهمة فشد الفراش بشيء من العنف ليسجبه من تحت صاحبه بمزيد من السرعة ، أخذ سيميون ايفانوفتش يتحرك متدحرجا على جنبه بكثير من الادب ، حتى صار ظهره الى المشاهدين • فلما شد الرجل الفراش شدة أخرى دار سيميون ايفانوفتش على بطنه ثم تدحرج مرة ثانية ، ولما كان خشب السرير ينقصه أحد ألواح رءى رأس سيميون ايفانوفتش ينفطس فجأة الى تحت ، فما يرى الناظر بين ذلك الا قدمين معروفتين هزيلتين مزرقين تشبهان غصنين من أغصان الشجر متكلسين • ولما كانت غطسة السيد بروخارتشين فى هذا الاتجاه هى القطعة الثانية فى هذا الصباح ، فقد نبت فى الأذهان بعض الشك ، فاذا ببعض النزلاء يتسلقون على السرير بقيادة زينوبى بروكوفتش بغية أن يروا هل 'خبيث' هنالك شيء • ولكن هؤلاء المتحررين لم ينتفعوا من الصاق جباههم بالجدار باحثين منقنين • وبأمر موجز من ياروسلاف ايلتش يدعوهم الى أن يخلوا على الفور مكان تحقيقاته ، قام اثنان من أعقلهم فشد كل واحد منهما احدى ساقى سيميون ايفانوفتش ، هذا الرأس الى الذى لم يكن فى الحسبان ، وأعادوه الى السرير • وفى أثناء ذلك كانت قبضات الريش والقطن ما تنفك تطير هنا وهناك فى جميع الجهات ، وكان المال يتكدس أكواما ما تزال تكبر ثم تكبر ••• لقد أخرجت من الفراش روبلات ثقيلة كثيفة من روبلات النبلاء ، وأخرجت منها روبلات جديدة وأنصاف روبلات ، ونقود من ذات الخمسين كوبكا ، ونقود شعبية من ذات الخمسة وعشرين كوبكا ، وفساتل مما تجمعها العجائز ، أى نقود من ذات العشر كوبكات والخمسة

كوبكات فضه • وكانت قطع النقد هذه ملفوفة بورق في كثير من الاعثناء ،
ومرتبه على نظام ومنهج ، ومصقوفة صفا متقنا • وكان تمه نقود نادرة ،
ونقود مجهولة ، وكانت بعض الروبلات ترجع الى عهود قديمة :
مصكوكات مطموسة النقوش مختلطة الرسوم ، من عهد اليزابث وبطرس
الأكبر وكاترين ، بينها دنائير المائيه من التاليرات المزدانه بصليبان •
ووجدت كذلك نقود اصبحت الان نادرة جدا : نقود فضية من ذات الخمسة
عشر كوبكا قد نقبت لتجعل افراطا ودرست نقوشها تماما ، ووجدت نقود
نحاسية علاها صدا أخضر • وظهرت ورقة نقدية حمراء لا وجود لها
الان • حتى اذا فرغوا من هذا الفحص التشريحي وهزوا حشو الفراش
فلم يسمعوا صليل أى نقد ، وأيقنوا من أنه لم يبق ثمة شيء ، وضعوا
الاموال كلها على المنضدة وأخذوا يقومون بواجب عدّها • لقد تخيلوا في
أول الأمر أنها تبلغ مليون • وكان المبلغ ضخما على كل حال ، وان يكن
بعيدا كل البعد عن أن يبلغ مليون • كان مجموعه ألفين وأربعمائة وسبعة
وتسعين روبلا وخمسين كوبكا • فلو قد تم اكتاب التبرع الذي اقترحه
زينوبى بروكوفتش فى الليلة البارحة اذن لوصل المبلغ الى ألفين وخمسمائة
روبل •

صرّ المال • ووشم صندوق الميت بالختم ، وقيل لصاحبة البيت حين
سمعت شكواها أين ومتى تستطيع أن تقدم الشهادة التى تثبت ديونها على
المرحوم • وطلب التوقيع ممن يجب أن يوقعوا ، وأشير بكلمتين الى امرأة
الأخ • ولكن سرعان ما وضع أن امرأة الأخ هذه لم تكن الا أسطورة ،
نشأت عن فقر فى خيال المرحوم بروخاتشين ، وهو فقر فى الخيال طالما
عيب عليه فتقرر عندئذ أن لا يؤتى على ذكرها ، باعتبار أن ذلك لا فائدة
منه عدا أنه يسىء الى سمعة السيد بروخاتشين • فلما انقضى الانفعال
الأول ، وعرف ماذا كان المتوفى ، أصبح الحضور جميعاً صامتين لا

يتكلمون ، وأخذوا يتبادلون نظرات الريبة والشك • وثار بعضهم من أسلوب بروخارتشين هذا في الحياة ، وشعر بامتناع عميق •• ثروة كهذه ! كيف أمكن هذا الرجل أن يجمع مبلغا ضخما كهذا المبلغ ؟

وأخذ مارك ايفانوفتش يشرح ، واثقا من نفسه مسيطرا عليها ، لماذا سقط سيميون ايفانوفتش فجأة في مرض الذعر هذا • ولكن لم يصغ اليه أحد • وأطرق زينوبى بروفوكتش شارد اللب يفكر ، وشرب أوكيانوف جرعة ، وتجمع الآخرون على أنفسهم ، وفي المساء أخذ كاتاريوف القصير الذى يتميز بأنف كأنه منقار عصفور ، أخذ يحسزم أمتعته ويربطها بعناية ، ثم غادر البيت منتقلا الى غيره قائلا لسائليه بلهجة فائرة ان الزمان صعب ، وان الأجور فى هذا البيت باهظة جدا • أماصاحبة البيت ، فكانت تبكى بغير انقطاع ، لاعتة سيميون ايفانوفتش هذا الذى لم يتورع عن الاضرار ببيمة فقيرة مسكينة • ولما سأل أحدهم مارك ايفانوفتش لماذا لم يودع سيميون ايفانوفتش ماله أحد البنوك فى رأيه ، أجابه هذا بقوله :

— ماذا تريد ؟ هو انسان بسيط العقل ، يعوزه الخيال •

فقال أوكيانوف لصاحبة البيت :

— وأنت يا عزيزتى لم تكونى دونه بساطة ••• رجل أردته مزحة بسيطة ، يقيم عندك عشرين عاما ثم لا تستطيعين أن ••• هى • هى !
••• يا عزيزتى ! •••

قالت صاحبة البيت تجيب ذلك الذى وجه السؤال الى مارك ايفانوفتش ، متظاهرة بأنها لم تسمع الكلمات المغرضة التى قالها أوكيانوف :
— ما هذا الكلام الذى تقوله ؟ علام يودع أمواله البنك ؟ ما كان عليه

الا أن يحمل الى قبضة طيبة منها ، وأن يقول لي : « خذى هذا لك
يا أوستيوشكا الشابة ، وأطعميني الى آخر أيامى » . وأحلف لك أنه لو
فعل ذلك لأطعمته وعُنت به ! آه ... يا له من كذاب . لقد خدعنى أنا
التيمة الفقيرة ! »

وعادوا قرب سرير سيميون ايفانوفتش . انه الآن راقد رقدة لائقة ،
مرتد أحسن رداء عنده ، وهو الرداء الوحيد على كل حال ، وذقنه
المتصلبة مختبئة وراء ربطة العنق التى أسىء عقدها . لقد غسلوه ، ومشطوا
شعره ، ولكنهم لم يحلقوا له ذقنه لأنهم لم يجدوا فى المنزل موسى حلاقة .
كان ثمة موسى حلاقة ، هى ملك زينوبى بروكوفتش ، ولكنها بلغت من
التلم أنها أصبحت لا تصلح للاستعمال ، فبيعت بسعر بخس فى سوق
تولكوتشى ، وأصبح جميع النزلاء منذ ذلك اليوم يحلقون ذقونهم عند
الحلاق . ولم يتسع الوقت لاصلاح الفوضى فى ركن سيميون ايفانوفتش .
ان الحاجز المحظم راقد على الأرض يكشف عن عزلة ذلك الانسان الذى
احتبأ وراءه ، ويرمز الى هذه الحقيقة : وهى أن الموت ينزع جميع الحجب ،
ويهتك جميع الأسرار ، ويعرّى جميع المكائد . وحشو الفراش منشور
على الأرض كلها ، فلو رآه شاعر لما فاته أن يشبه هذا الركن الذى أصبح
الآن باردا خربا بعش من أعشاش أشي السنونو « ربة البيت » . لقد
خرّبت العاصفة كل شئ : ماتت الأم وصغارها ، وتبعثر العش الذى صنعه
الحب من ريش وزغب .

غير أن وجه سيميون ايفانوفتش أقرب الى أن يكون وجه أنانى
عجوز ، أو دورى سارق . هو الآن هادىء كل الهدوء ، كأنسان مرتاح
الضمير ، كأنه لم يكن صانع تلك المكائد التى تخدع الناس خداعا دينيا .
أصبح لا يسمع بكاء صاحبة البيت المهجورة . بل انه أشبه برأسمالى خيىث

فرر أن لا يضئع وقته فى غير عمل حتى القبر ، فهو الآن مستغرق استغراقا كاملا فى حسابات لانتتهى . وجهه يعبر عن تأمل عميق ، وشفتاه مزمومتان على وقار ما كان 'يظن يوما أنه قادر عليه أثناء حياته . كان يبدو أنه قد اكسب ذكاء كثيرا . انه لم يغمض عينه اليمنى الا نصف انغماض ، كأنه أراد أن يبلغ أمرا من الأمور على عجل ثم لم يتسع وقته لشرحه . . . كان كمن يقول :

« هلا ككفكت دموعك أيها الحمقاء ؟ هيأ موتى ، هل تسمعين ؟ لقد مت أنا ولم تبقى بى حاجة الى أى شىء . ما أحلى أن يرقد المرء هذه الرقدة المريحة . . . مادمت أقول لك اننى مت ! هذا مستحيل حقا ، ولكن ، مع ذلك ، هيئى لم أمت ، وهيئى أنهض فجأة ، فما عسى أن يترتب على ذلك ؟ »

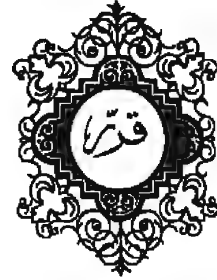
الجارّة

١٨٤٧

« الجارة » (Hoziaika) ، كتب
دوستوفسكى هذه القصة سنتى
١٨٤٦ و ١٨٤٧ ، ونشرت فى مجلة
« حويات الوطن » فى شهرى تشرين
الأول (أكتوبر) وكانون الأول
(ديسمبر) سنة ١٨٤٧ ، مج ٥٤ ،
مج ٥٥ .

الفصل الأول

١



أوردينوف أخيراً أن يستبدل بمسكنه مسكناً آخر • إن صاحبة البيت التي ينزل عندها ، وهي امرأة طاعنة في السن ، فقيرة جداً ، أرملة ، موظف ، قد اضطرت ، لأسباب لم تكن في الحسبان ، أن تترك سان بطرسبرج وأن تمضي تعيش عند أقرباء لها ، في قرية صغيرة ، حتى دون أن تنتظر إلى آخر الشهر ، موعد انتهاء استئجارها المنزل • وقد بقي الشاب حتى آخر الشهر ، المدفوع الأجرة سلفاً ، وهو الآن يفكر ، على أسف وحسرة ، في هذا البيت الذي يضطر إلى تركه ، ويشعر من ذلك بحزن شديد • ومع ذلك فالشاب فقير ، وأجرة المسكن باهظة • ها هو ذا منذ الغداة ، بعد سفر صاحبة البيت ، يضع قبعته على رأسه ، ويخرج مطوّفاً في الأزقة الضيقة من بطرسبرج ناظراً إلى اللافات

المصوقة على أبواب الدور ، متوقفا خاصة على العمارات القائمة المظلمة المكتظة بالسكان ، فان الأمل فى العثور على غرفة تناسبه لدى مستأجرين فقراء فى مثل هذه العمارات أكبر منه فى عمارات أخرى •

وانه لفى هذا الطواف والبحث ، اذا هو يشعر بعد فترة باحساسات جديدة تكاد تكون مجهولة ، تفزوه شيئا بعد شيء • لقد أخذ ينظر فيما حوله ، ذاهلا غير حافل أول الامر ، يقظا شديد الانتباه بعد ذلك • ان الجمهور وحياة الشارع والصخب والحركة والأشياء الجديدة وهذا النشاط كله وهذا الاضطراب الذى تضطربه الحياة اليومية فيضجر ساكن بطرسبرج المشغول المجهد المرهق الساعى عمره عبثا ، بجهد ضخم ، الى الهدوء والراحة فى عشٍ دافئ يحصله بعمله أو وظيفته أو بوسائل أخرى ، ان كل هذه الأشياء التافهة السخيفة ، توقف الآن فى نفس أوردينوف احساسا عذبا فرحا يوشك أن يكون حماسة • فخذاه الشاحبان يغشاهما شيء من حمرة ، وعيناه تسطعان بأمل جديد ، وهو ينشق الهواء البارد الطرى أنفاسا كبيرة ، بشراة • انه يحس بخفة عظيمة لا عهد له بمثلها من قبل •

لقد عاش دائما حياة هادئة معتزلة ، وحصل منذ ثلاث سنين على درجة علمية ، فلما أصبح بذلك حرا على قدر الامكان ، مضى يزور رجلا عجوزا لم يكن يعرفه قبل ذلك الا بالاسم • وقد ترك ينتظر مدة طويلة ، الى أن تكرم حاجب يرتدى ثياب الحجاب فى منازل الكبار ، أن يبلغ العجوز وصول الشاب مرة ثانية • فأدخل الى قاعة عالية السقف مظلمة مقفلة لا تحسن وفادة زوارها ، قاعة من هذه القاعات التى لا يزال يوجد مثلها فى بعض القصور التى تجمدت فيها الحياة • هنالك فى هذه القاعة رأى شيخا أشيب الشعر مثقلا بالأوسمة والنياشين هو صديق المرحوم أبيه ، والوصى عليه • نقده الشيخ مبلغا ضئيلا من المال هو البقية الباقية

من ميراث أجداده الذى بيع بأمر من القضاء سدادا لديونه • فتناول أوردينوف المال غير مبال ، ثم ودّع الشيخ الوصىّ عليه الى الأبد ، وخرج الى الشارع • كان ذلك الأصيل من الخريف باردا مظلما ، وكان الفتى ساهما شارد اللب واجما ، فى قلبه حزن كبير يمزقه تمزيقا • ان عينيه تستعلان بلهب ، وان جسمه تعتريه رعشات حمى • وكان ، وهو سائر فى طريقه ، يجرى فى ذهنه حسابا ، فيدرك أنه بالمال الذى أخذه من الشيخ قد يستطيع أن يعيش سنتين أو ثلاثا ، وربما أربعا ، هذا اذا لم يأكل دائما كلما جاع • وهبط الليل • وأخذ المطر يهطل • واستأجر الفتى أول مأوى وقع عليه ، فما هى الا ساعة حتى كان قد أقام به ، واستقر فيه • وهناك ، فى هذا المسكن ، حبس نفسه حبس من يعيش فى دير ، واستغنى عن العالم استغناء كاملا ، حتى أصبح بعد سنتين متوحشا كل الوحش لا يعاشر أحدا •

أصبح كذلك دون أن يلاحظ • كان لا يخطر بباله أن هناك حياة أخرى صاخبة مضطربة متغيرة جذابة ، لامفر منها عاجلا أو آجلا • صحيح أنه سمع عن هذه الحياة بالرغم منه ، ولكنه كان يجهلها ولا يسعى الى معرفتها • • لقد قضى حياته فى عزلة • وهو الآن غارق غرقا كاملا فى هوى عميق ، هوى لا يشبع ولا يرتوى ، هوى من تلك الأهواء التى لا تدع لأشخاص مثل أوردينوف أى فرصة للقيام بأى نشاط عملى حياتى : ذلك الهوى هو « العلم » • كان ذلك الهوى يفسد شبابه بسم بطيء لذيد ، حتى لمعكر عليه راحة لياليه ، ويحرمه من الغذاء الصحى والهواء النقي الذى لم يكن يدخل مأواه قط • ولكن أوردينوف ، المولع بهواه المشغوف به ، كان لا يريد أن يلاحظ ذلك • انه شاب ، وهو لا ينشد الآن شيئا عدا ذلك • ان هواه يدعه طفلا فى كل ما هو حياة خارجية ، ويجعله عاجزا الى الأبد عن اقضاء بعض الناس ليتخذ لنفسه مكانا صغيراً بينهم عند

الضرورة . ان العلم هو في بعض الأيدي رأسمال ، أما هوى أوردينوف
فقد كان سلاحا موجها ضده .

ولم تكن الرغبة الواضحة المنطقية في التعلم هي التي وَّجَّهته الى
الدراسات التي وقف نفسه عليها حتى ذلك اليوم ، بل كان ذلك نوعا من
الاجذاب لا شعورى . لقد 'عدَّ' شخصا غريبا متفردا منذ أن كان طفلا ،
لأنه لم يكن يشبه رفاقه في شيء . انه لم يعرف أبويه . وهو بسبب طبعه
الغريب وبسبب توحشه قد قاسى كثيرا من زملائه في المدرسة ، فزاده ذلك
عبوسا ، حتى ابتعد شيئا فشيئا عن جميع الناس ابتعادا كاملا ، وانطوى على
نفسه .

وهو في دراساته المعتزلة لم يتبع لا في الماضي ولا في الحاضر نظاما
أو ترتيبا . كان ذلك فيه أشبه بالاندفاع الأولى ، بالحماسة الاولى ،
بالحميا الاولى التي يشعر بها الفنان . خلق لذاته مذهبا خاصا به : فكر
فيه سنين طويلة ، فكأنات تتكون في نفسه ، شيئا بعد شيء ، صورة ما تزال
غامضة ، ما تزال بغير شكل ، ولكنها جميلة جمالا لا نظير له ، صورة
الفكرة تتجسد في شكل جديد مشرق مضيء . وكان هذا الشكل الذي
يريد أن يخرج من نفسه يعذبه ويرهقه من أمره عسرا . انه يشعر
بأصائله وصدقه وقوته شعورا وجلا خفجلا . كان مخلوق يريد منذ الآن
أن يعيش بنفسه ، أن يتخذ شكلا ، أن يتقوى وأن يتعزز في هذا الشكل ،
ولكن نهاية الاختمار ما تزال بعيدة ، ولعلها بعيدة جدا ، ولعلها مستحيلة
النال لا يمكن الوصول اليها بحال .

ها هو ذا أوردينوف اذن يسير في الشوارع كغريب ، كناسك خرج
فجأة من صحراء صيته ، في المدينة الصاخبة المتحركة . ان كل شيء يبدو
له جديدا طريفا شائقا . ولكنه غريب عن هذا العالم الذي يغنى من حوله

ويضطرب ، يبلغ من غرابته عنه أنه لم يخطر بباله أن يدهش من احساساته العجيبة هذه . كان لا يبدو أنه واعٍ توحشه . بالعكس : ان شعورا بالفرح ، شعورا يشبه شعور الجائع الذي صام زمنا طويلا ، ثم أعطى ما يأكله ويشربه ، كان ينشا في نفس أوردنوف . لقد يبدو امرا غريبا أن يكون حادث تافه تفاهة تغير مسكن كافيا لأن يطيش لب ساكن من سكان بطرسبرج وأن يلقي في نفسه هذا الانفعال ، ولو كان أوردنوف . ولكن يجب أن نذكر أن هذه المرة التي يخرج فيها أوردنوف ربما كانت هي المرة الاولى التي يخرج فيها لعمل . وكان استمتاعه بالطواف في الشارع ما ينفك يزداد ، وأصبح ينظر الى جميع الاشياء نظرة متسكع . ولكنه ما يزال حتى الآن وفيا لشاغله المؤلف ، فهو يقرأ في المشهد ، الذي ينكشف أمامه رائعا ، قراءته بين سطور كتاب . ان كل شيء ينجأ بصره ، انه لا يدع احساسا واحدا ، وهو بنظرته الساهمة يتفرس وجوه المارة ، ويلاحظ مظهر كل ما يحيط به في انتباه ، ويصني مفتونا الى اللغة التي يتخاطب بها الشعب ، كأنه يتحقق خاصة من صدق النتائج التي خلص اليها في هدوء لياليه المعتزلة . وكثيرا ما يخطف بصره أمر تفصيلي ، فيوقف في نفسه فكرة ، فيشعر لأول مرة بالأسف والحسرة على أنه دفن نفسه حيا في زنراته . ان كل شيء يجري هنا جريانا أسرع : نبضات قلبه أقوى ، وفكره الذي أرهقته العزلة وكان لا يعمل الا بتحريض من الجهد المتحمس ينطلق الآن بخفة وثقة وجراءة . وهو يتمنى ، عدا ذلك ، على غير شعور تقريبا ، أن يدخل في هذه الحياة الغريبة عليه ، بشكل من الأشكال . ذلك أنه ، حتى هذا اليوم ، كان لا يعرف هذه الحياة . أو قل انه كان لا يتوجسها الا بفريزة الفنان . ان قلبه يخفق الآن بقلبي الحب والمودة رغما عنه . انه يتفرس بمزيد من الانتباه وجوه الناس الذين يمرون أمامه ، ولكنهم جميعا بعيدون مهمومون ساهمون . . . وشيثا فشيثا

تبددت عاطفة أوردینوف • أخذ الواقع یرهقه منذ الان ، ويفرض عليه نوعاً من الخشية والاحترام • ان هذه الفورة من الاحساسات التى كان يجهلها الى ذلك الحين أخذت تتعبه • فكما ينهض مريض من المرض عن سريره لأول مرة فرحاً ، ثم يعود فيهوى بتأثير الضياء وزوبعة الحياة الساطعة ، كذلك أوردینوف بهرته ألوان الجمهور الذى يمر أمامه ، وأتعبته ضجته ... فاعتراه الحزن ، واتنابه القلق • وأخذ يشعر بخوف على حياته كلها ، وعلى نشاطه ، وحتى على مستقبله • ان فكرة جديدة تقتل هدوءه : لقد قال لنفسه فجأة انه وحيد ، فما من أحد يحبه ، ولا أتبع له هو أن يحب أحداً فى يوم من الايام • ان بعض المارة الذين كلمهم عرضاً حين بدأ جولاته قد نظروا اليه نظرة غريبة ، جارحة • لقد لاحظ أنهم يعدونه رجلاً مجنوناً ، أو يعدونه انساناً شاذاً كل الشذوذ فى أقل تقدير ، وذلك صادق تماماً على كل حال • وتذكر عندئذ أن جميع الناس كانوا يضيقون ذرعاً بوجوده ، دائماً ، وتذكر أن جميع الناس كانوا ، منذ طفولته ، يتحاشونه ويتجنبونه بسبب طبعه المغلق العنيد ، حتى أن العطف الذى كان يظهر فى نفسه أحياناً كان يشقى على الآخرين أو كانوا لا يفهمونه • ولقد تألم من هذا كله فى طفولته ، يوم لم يكن يشبه أى طفل فى سنه • انه يتذكر ذلك الآن ، فيدرك أن جميع الناس قد هجروه وهربوا منه فى كل وقت من الأوقات •

وظل أوردینوف يسير ويسير ، فإذا هو يجد نفسه فى حى بعيد جداً عن وسط المدينة ، دون أن يشعر كيف وصل الى هذا المكان • وبعد أن تناول غداءً مختصراً فى مطعم صغير ، استأنف طوافه فى الشوارع ، فاجتاز ميادين ، حتى وصل هكذا الى طريق تصطف على جانبيه أشجار صفراء وغبراء • ليس ها هنا عمارات غنية ، بل أكواخ بائسة ، ومباني مصانع ضخمة عملاقة جمرات مسودة ذات مداخن عالية • وكل ما حول

ذلك أرض خلاء قفراء • ان كل شيء هنا عابس كالجعد ، أو ذلك ما بدا لصاحبنا أوردينوف • وكان المساء يقترب • وفي آخر شارع ضيق طويل وصل أوردينوف الى الساحة الصغيرة التي تقع فيها كنيسة الأبرشية •

دخل أوردينوف الكنيسة ذاهلا • كان القداس قد انتهى منذ قليل • والكنيسة تشبه أن تكون خالية • هاتان امرأتان عجوزان راكعتان عند المدخل • وهذا قندلفت ، وهو شيخ قصير اشيب الشعر ، يطنى الشموع • ان أشعة الشمس الغاربة تحتاز زجاج القبة الضيقة موجة كبيرة فتير أحد الهياكل بضياء ساطع • ولكن تلالؤ الاشعة يكبو شيئا بعد شيء ، فكلما ازداد تكاثف الظلام فى داخل المعبد ازدادت فى بعض المواضع روعة تألق الأيقونات المذهبة ينيرها الضياء المهترز المنبعث من السُرُج والشموع • ألم بأوردينوف غم عميق ، وشعور غريب بالاختناق ، فاستند الى الجدار فى أتم ركن من الكنيسة ، واسترخى لحظة • ولكنه لم يلبث أن تاب الى نفسه حين سمع وقع خطوات صماء منتظمة تدوى تحت قبة الكنيسة ، هى خطوات زائرین اثنين • رفع أوردينوف عينه فأحس بحب استطلاع لا يوصف حين وقع بصره على هذين القادمين • انهما شيخ عجوز وامرأة شابة • المعجوز فارغ القامة منتصب القد ، لكنه شديد النحول يعلو وجهه شحوب مرضى • يقدّر المرء من النظر الى مظهره أنه تاجر من اقليم بعيد • انه يرتدى قفطانا طويلا أسود محلول الأزرار مبطن بفراء لا شك أنه الرداء الذى يرتديه للأعياد ، وتحت القفطان يبدو ثوب آخر طويل جدا 'أحكم عقد أزراره من أعلاه الى أدناه • وقد لف عنقه بوشاح أحمر فاتح ، على اهمال ، وأمسك بيده طاقة من فرو ، وتهدأت على صدره لحية رقيقة شيباء ، والتمعت تحت حاجبيه الكيفيين نظرة محمومة متكبرة عميقة •

أما المرأة فهي فى نحو العشرين من عمرها ، جميلة جمالا رائعا •
انها ترتدى معطفا جميلا قصيرا أزرق مبطنا بفراء نادر • وقد غطت رأسها
بمنديل من حرير أبيض ، معقود تحت الذقن • وهى تمشى غاضبة
طرفها : ان وقارا واجما نابعا من شخصها كله ، يلاحظ واضحا حزينا
على حواشى وجهها الرقيق ذى الخطوط الدقيقة المرهفة العذبة الحلوة ،
الفتية المراهقة •

ان فى هذين الرفيقين غير المنتظرين لشيئا غريبا •

توقف الشيخ فى وسط الكنيسة وانحنى الى جميع الجهات رغم أن
الكنيسة خالية خلوا تاما ، فعلت صاحبه مثلما فعل ، ثم تناول ذراعها
وقادها أمام صورة كبيرة من صور العذراء التى باسمها تسمى الكنيسة ؛
كانت الصورة تسطع قرب الهيكل فى ضوء باهر من نيران يعكسها اطارها
الذهبي المرصع بالأحجار الكريمة •

سلم القندلفت ، الذى كان وحيدا فى الكنيسة ، على الشيخ باحترام •
فرد عليه الشيخ السلام بإشارة من رأسه • وركعت المرأة أمام الأيقونة ؛
فتناول الشيخ طرف الحجاب المعلق بالأيقونة فغطى به رأسها • ودوى فى
الكنيسة بكاء منتحب أصم •

دهش أوردینوف من جلال هذا المشهد كله ، واشتعل فيه شوق
شديد الى رؤية خاتمه • بعد دقيقتين أنهضت المرأة رأسها ، فأثار ضوء
المصباح القوى وجهها الجميل الأخاذ من جديد • ارتشش أوردینوف
وتقدم خطوة الى أمام • كانت المرأة قد مدت يدها للشيخ ، فتناولها وخرج
الاثنان من الكنيسة على هون • كانت دموع تلتع فى عيني المرأة الشابة ،
وهما عينان زرقاوان عميقتان ، تملوهما أهداب تبرز على بياض وجهها
وتظلل خديها الشاحيين • وكانت ابتسامة تضيء شفيتها ، ولكن وجهها

يحمل آثار رعب غريب وذعر شديد من ذعر الاطفال • سدت نفسها الى الشيخ وجلة خجل ، وكان من يراها يلاحظ أنها ترتعش ارتعاشا قويا من شدة الانفعال •

شعر أوردنيوف بماطفة غريبة فرحة عنيدة تحرضه على أن يتبعها فأسرع يسير وراءها حتى اذا وصلا الى الفناء الذي يقع أمام الكنيسة قطع عليهما الطريق ، فرشقه الشيخ بنظرة شذراء قاسية معادية ، والقت عليه المرأة الشابة نظرة قاسية أيضا ، ولكن ليس فيها شيء من حب الاستطلاع ، وانما هي نظرة ذاهلة ، كأن فكرة أخرى بعيدة كانت تستغرقها •

ظل أوردنيوف يتبعهما من غير أن يدركا ذلك • وكان الليل قد هبط • دخل الشيخ المعجوز والمرأة الشابة في شارع كبير عريض قدر تملؤه دكاكين صغيرة شتى ، ومخازن دقيق ، وفنادق حقيرة ، شارع ينفى الى ظاهر المدينة رأسا • وفي هذا الشارع دخلا زقاقا طويلا ضيقا يحف به من طرفيه سياجان ، وينتهي عند جدار ضخم مسود هو جدار عمارة كبيرة مؤلفة من أربعة طوابق ، يطل مخرجها الآخر على شارع كبير مكنظ بالسكان • فلما أوشكا أن يبلغا هذه العمارة التفت الشيخ فجأة الى وراء ، ورشق أوردنيوف بنظرة تعبر عن التبرم ونفاد الصبر • فتوقف الفتى فورا وقد دهش هو نفسه من سلوكه • ثم التفت الشيخ مرة ثانية كمن يريد أن يتأكد من أن تهديده قد أحدث أثره • وولج الاثنان ، الشيخ والمرأة الشابة ، في فناء المنزل •

عاد أوردنيوف أدراجه يشوب الى منزله • انه معتكر المزاج قائم النفس • وهو يأخذ على نفسه أنه أضاع نهاره كله سدى على هذا النحو ، وأنه أجهد نفسه بغير داع الى هذا الاجهاد ، وأنه خاصة قد قام بهذا العمل الذى عده نوعا من منامرة وما هو في حقيقة الأمر الاحداث تافه مبتذل •

ورغم ما شعر به عند الصباح من أسف لمزلاته وتوحشه ، فإن
غريزته الآن تحمله على أن يتجنب كل ما يمكن أن يصرفه عن عالمه
الداخلي الفنى ، وأن يذهله عنه وأن يتزعه منه . انه الآن يفكر فى ركنه
الهادئ ، بشئ من الحزن وشئ من الحسرة . ثم شعر بغم وخوف ،
وأحس بهم . قلق ، قلق على وضعه غير المستقر ، وعلى المساعى التى
يجب أن يقوم بها ، وكان يحثه فى الوقت نفسه أن يضطر الى الاهتمام
بمثل هذه الأمور التافهة البائسة . وأخذ منه التعب كل مأخذ حتى أصبح
لا يستطيع أن يربط بين فكرتين ، ووصل أخيرا ، فى ساعة متأخرة ، الى
مسكنه . وما كان أشد دهشته حين لاحظ أنه أوشك أن يمر أمام بيته
دون أن يعرفه . فhez رأسه استغرابا لهذا الدهول الذى عزاه الى تعب ،
وصعد سلم المنزل صعودا آليا حتى وصل الى غرفته التى تقع تحت
السطح . أشعل أوردینوف شمعة . فما هى الا دقيقة واحدة حتى انبعثت
صورة المرأة الشابة الباكىة فى خياله . ان هذه الصورة تلازمه وتحاصره
قوية التأثير فى نفسه . وهو يتأمل قسما وجها الحلوة العذبة الهادئة ،
وجها الذى يرين عليه حنان خفى وخوف قوى ، وتبلله دموع حماسة
من حماسة الأطفال أو ندامة من ندامة الأطفال ، فيتأمل ذلك كله بحب
يبلغ من القوة أنه يحس عينيه تحتجيان وأنه يشعر بنار تسرى فى عروقه
كلها . ولكن الرؤيا ما تلبث أن تزول . فبعد الاحتياج يأتى التفكير ، ثم
يأتى الندم ، ثم يأتى نوع من الغضب . وبعد ذلك يتدثر أوردینوف
بأغطيته ويرتمى على سريريه ، دون أن يخلع ملابسه ، وقد هذه التعب .
هدأ . . .

استيقظ أوردینوف فى ساعة متأخرة من الضحى . انه يشعر بحرق ،
ويشعر بحزن ووهن . ارتدى ثيابه بسرعة محاولا أن يفكر فى همومه
اليومية ، حتى اذا صار خارج المنزل ، وجه خطاه فى اتجاه هو عكس

الاتجاه الذى سار فيه بالأمس • واهتدى أخيرا الى غرفة فى مكان ما ،
يعتزل رجل ألماني فقير يسمى سيز ، ويعيش مع ابنته تينيش • فبعد أن
استلم سيز عربون أجر الغرفة ، راح ينزع اللافنة التى كانت معلقة عند
مدخل المنزل • وقد ارتضى أن يؤجر الغرفة لصاحبنا أوردينوف بسبب
شفق أوردينوف بالعلم ، لأنه كان ينوى هو نفسه أن ينصرف الى الدرس
انصرافا جديا • وقدّر أوردينوف أنه سيستقر بهذا المنزل فى ذلك المساء
نفسه • وعاد يسير فى الطريق المفضى الى بيته ، ولكنه لم يلبث أن فكر
فليلا ، فإذا هو يتجه فجأة فى الاتجاه المعاكس • كان نافذ الصبر ، فبدأ له
الطريق طويلا كل الطول • ووصل أخيرا الى الكنيسة التى دخلها مساء
أمس • كانت الصلاة ترتل • فاختار مكانا يستطيع منه أن يرى جميع
الداخلين الى الكنيسة تقريبا • ولكن الشخصين اللذين كان ينتظرهما لم
يكونا هنالك • وبعد أن لبث ينتظر مدة طويلة ، خرج متقد الوجه
احمرارا • واذ أصر على أن يكبح عاطفة كانت تغزوه رغما عنه ، حاول
أن يغير مجرى تفكيره بكل ما أوتي من قوة • وارتد يفكر فى الشؤون
اليومية ، فرأى أنه قد آن له أن يتفدى ، واذ ظن أنه يشعر بجوع حقا ،
دخل الى ذلك المطعم الصغير نفسه الذى تفدى فيه بالأمس • ولم يتذكر
بعد ذلك كيف تركه •

وظل يطوف زمنا طويلا فى الشوارع والأزقة المزدحمة بالسكان
أو الحالية المقفرة ، دون أن يكون فى ذهنه أفكار واضحة ؛ فوصل أخيرا
الى مكان نامٍ ليس من المدينة ، بل هو برية يمتد فيها حقول مصفر •
هنالك كان يرين صمت عميق ، فشعر أوردينوف باحساس لم يشعر بمثله
من زمن طويل ، قأب الى نفسه • ان ذلك النهار هو من تلك النُهر
الجافة الباردة التى تُرى أحيانا فى شهر تشرين الاول ببطرسبرج • وغير
بعيد من ذلك المكان كان ثمة كوخ من أكواخ الفلاحين ، وعلى مقربة من

الكوخ ، كان نمة كومتا علف • وهذا حصان صغير ناتىء الجنين ، خافض
الراس متدلى اللسان ، يقف بلا عدة قرب عربة صغيرة ذات عجلتين •
كان الحصان كأنه يحلم بشىء ما • وهذا كلب يهمهم وهو يقضم عظمة
قرب عجلة محطمة • وهذا طفل فى الثالثة من عمره لا يرتدى من الثياب
الا قميصا يحك رأسه الأشقر ، وينظر مدهوشا الى هذا الحضرى الواقف
هنالك • ووراء الكوخ تبدأ حقول وبساتين وعند الأفق يرى الخط الاسود
الذى تبدأ عنده الغابة ، يحف بالسماء الزرقاء • وفى الجهة المقابلة
تتكسد غيوم تلج وتبدو كأنها تطارد أمامها سربا من الطيور المهاجرة
هاربا فى السماء بلا صياح • كل شىء صامت ، كل شىء حزين ، كأنه
نوع من الانتظار ... أراد أوردينوف أن يوغل مزيدا من الايفال ،
ولكن القفر أخذ يقبض صدره • فماد الى المدينة حيث سمع على حين
فجأة رنين نواقيس الكنائس تدعو المؤمنين الى صلاة الغروب • حث
أوردينوف الخطى ، فلم يلبث أن وجد نفسه أمام الكنيسة التى أصبح
يعرفها معرفة جيدة منذ الليلة البارحة •

كانت المرأة المجهولة موجودة هنالك •

انها راكعة ، عند المدخل ، بين جمهور المصلين • شق أوردينوف
لنفسه طريقا بين الشحاذين والعجائز اللابسات أسمالا رثة والمرضى
وذوى العاهات الذين ينتظرون الصدقات على باب الكنيسة ، وجاء يركع
قرب المرأة الشابة المجهولة • تلامست ثيابهما • مسمع أوردينوف نفسها
اللافت يخرج من بين شفتيها ، ويهمس بدعاء حار • ان عاطفة من تقوى
تعصف بقسمات وجهها الآن ، كما كانت تعصف بها أمس ، وان دموعا
تسيل على خديها الملتئمين وتجف عليهما ، كأنما لتفسلهما من جريمة
رهية • كان المكان الذى يصليان فيه مظلما تماما • وفى لحظات قليلة

كان الهواء الذى يدخل من النافذة الضيقة المفتوحة يهز شمعة الشمعة فتسير وجه المرأة الشابة بضياء مترنح ، فاذا بكل قسمة من قسومات هذا الوجه المتقوش فى ذاكرة أوردينوف يعتم بصر الرجل ويطرق قلبه بآلم أصم لا يطاق • ولكن هذا الألم كان يشتمل على متعة لا تغالب • ولم يستطع أوردينوف أن يتمالك نفسه ، فها هو ذا صدره يرتجف ، وها هو ذا يبكى ناشجا ويميل بجبينه المحترق فيضعه على البلاط البارد من أرض الكنيسة • أصبح لا يسمع شيئا ولا يحس شيئا الا عذاب قلبه الذى يموت ألما لذينا •

هل العزلة هى التى أنشأت لدى أوردينوف هذه الحساسية المفرطة وهذا الصفاء وهذا الضعف فى العاطفة ؟ أكان توثب القلب هذا يتهاى فى ذلك الصمت الحائق اللانهائى ، صمت الليالى الطويلة الساهرة الأرق التى تتخللها صوات لا يشعر بها صاحبها ، وتخالطها رعشات روح نفذ صبرها ، أم أن الأمر لا يعدو أن يكون قد آن أو أن اللحظة الباهرة ، المحتومة ، التى لا معدى عنها ولا مفر منها ؟ انه ليتفق فى يوم حار خائق أن تتجهم السماء كلها على حين بغتة ، فتسقط الصاعقة مطرا ونارا على الأرض العطشى ؟ وتهطل الصاعقة لآلىء ماء على أغصان الشجر ، وتلطم عشب الحقول وتسحق الأزهار الطرية على الأرض ، حتى اذا طلعت اولى أشعته انبثت الحياة فى كل شئ من جديد ، وأخذ كل شئ يهلل للسماء ويرسل اليها بخوره المنعش ، ويغنى لها نشيد العرفان بالجميل ••• ولكن أوردينوف لا يستطيع الآن أن يدرك ما يجرى فى نفسه ، ولا يكاد يشعر بوجوده •

انتهت الصلاة أخيرا ، حتى دون أن ينتبه أوردينوف الى ذلك ، ورأى نفسه يسير فى اثر المرأة المجهولة خلال الجمهور المتكاثف عند مخرج الكنيسة • فكانت المرأة الشابة المجهولة تلتفت اليه كلما أوقفها

الجمهور عن سيرها من لحظة الى لحظة • ان دهشتها ما تنفك تزداد ،
وما هو ذا وجهها يصطبغ بالحمرة على حين فجأة •

وفى هذه اللحظة ظهر الشيخ الذى كان يرافقها بالأمس ، ظهر بين
الجمهور بفتة ، فأمسك بذراعها • والتفتى أوردينوف من جديد بنظراته
الشذراء الساخرة ، فعض قلبه غضب غريب مفاجئ • واذا غابا عن بصره
فى الظلام ، اندفع بجهد عنيف فخرج من الكنيسة • ولكن الهواء الطرى
الذى كان يملأ جو المساء لم يستطع أن ينعشه • ان تنفسه يتقطع ويضعف ،
وان قلبه يخفق خفقانا بطيئا قويا حتى لكأنه يريد أن يشق صدره •
وأدرك أخيرا أنه ضيع صاحبيه المجهولين تماما ، فانه لم يرمع لا فى
الشارع ولا فى الزقاق الضيق • ولكن ها هى ذى فكرة خطرة جريئة
غريبة تثبت فى ذهن أوردينوف ، فكرة مشروع من تلك المشاريع الجنوبية
التي تكمل مع ذلك بالنجاح فى جميع الأحيان تقريبا •

ففى الساعة الثامنة من صباح الغد مضى أوردينوف يذهب الى منزلها
من جهة الزقاق الضيق ، فدخل فناء صغيرا قدرا يشبه أن يكون حفرة
لأوساخ العمارة •

كان البواب منهمكا فى عمل من الاعمال بالفناء ، فلما رأى أوردينوف
داخلا توقف عن العمل مسندا ذقنه الى ذراع مجرفته ، ناظرا الى
أوردينوف من رأسه الى قدميه ، ثم سأله عما يريد •

البواب فتى فى نحو العشرين من عمره ، تترى الأصل قصير القامة
له وجه شاخ قبل الأوان فهو منضن •

أجابه أوردينوف قائلا :

— أبحث عن مسكن •

فسأله البواب مبتسماً ، وهو ينظر اليه نظرة من يعرف قصته كلها :

- أى مسكن ؟

فقال أوردینوف :

- أريد استئجار غرفة لدى جيران •

قال البواب بلهجة غريبة :

- ليس فى هذا القناء غرفة للتأجير •

- وهنا ؟

- ولا هنا !

قال البواب ذلك وعاد يتناول معجرفته •

قال أوردینوف وهو يدس فى يد البواب عشرة كويكات :

- لعلهم يؤجرونى غرفة مع ذلك •

فنظر التترى الى أوردینوف ، ووضع النقود فى جيبه ، وعاد يتناول معجرفته مرة أخرى ، ثم قال يكرر بعد صمت قصير انه ليس هنالك غرفة للتأجير •

ولكن الفتى كان قد كف عن الاصغاء اليه ، وأخذ يصعد الألواح العفنة الملقاة على بركة واسعة من الماء تفضى الى المدخل الوحيد الذى يوصل من هذا القناء الى الجناح الاسود الوسخ الذى يشبه أن يكون غارقاً فى هذا الماء الموحل •

كان يسكن فى الطابق الارضى من الجناح صانع تواييت فقير ، مرة أوردینوف أمام ورشته ثم أخذ يصعد الى الطابق الأعلى على سلم لولبى

زليح • وعثر وهو يتلمس فى الظلام ، على باب كبير أعوج ، فأدار مزلاجـه
وفتحـه • لم يخطئـه ظن أوردينوف • فها هو ذا العجوز الذى يعرفه
أوردينوف واقفا أمامه يحدق اليه بنظرة ثابتة ودهشة شديدة •

قال العجوز موجزا بما يشبه الوحوشة :

— ماذا تريد ؟

— أعندكم مسكن للتأجير ؟

بذلك أجاب أوردينوف ناسيا كل ما كان يريد أن يقوله تقسريا •
ومن وراء كتف الشيخ العجوز ، لمح المرأة الشابة •

لم يجب الشيخ بشئ ، بل طفق يعيد اغلاق الباب دافعا معه
أوردينوف •

فقالت المرأة الشابة ، فجأة ، بصوت رقيق عذب :

— عندنا غرفة •

فترك الشيخ الباب •

قال أوردينوف وهو يهرع داخلا فى البيت متجها الى الجميلة :

— أنا فى حاجة الى ركن ، أى ركن •

ولكنه لم يلبث أن توقف مدهوشا ، حتى يشبه أن يكون متجمدا ،
حين ألقى نظرة على هذين الشخصين اللذين سيسكن عندهما • كان يمر
أمام بصره مشهد صامت عجيب • ان وجه الشيخ ممتقع كوجه ميت • فمن
رآه حسب أنه مريض • وهو يلقي على المرأة نظرة من رصاص ، نظرة
ثقيلة ناقبة • والمرأة تشحب فى أول الأمر ، ولكن الدم ما يلبث أن يزدحم

فى وجهها ، وما تلبث عيناها أن تسطعا بلمعان غريب • وها هى ذى تقود
أوردنيوف الى الغرفة الأخرى •

المنزل يتألف كله من حجرة واسعة يقسمها حاجزان الى ثلاثة
أقسام • فمن فسحة السلم يدخل المرء رأسا الى حجرة ضيقة مظلمة ،
فيواجهه الباب الذى يؤدى طبعاً الى غرفة أصحاب المنزل ، وعلى اليمين
غرفة للتأجير • انها غرفة ضيقة واطلة السقف ، لهما نافذتان صنيرتان
واطئتان أيضاً ، تزدهم بأشياء شتى مما يوجد فى كل بيت • ولئن كانت
فقيرة طفيفة ، فهى نظيفة على قدر الامكان • أثاثها لا يتعدى منضدة من
خشب أبيض وكريسين عاديين جداً ومقعدين ضيقين وضما فى جهتي
الغرفة على طول الجدار • وقد علق فى الزاوية أيقونة كبيرة ذات تاج
مذهب ، يشتمل أمامها سراج • وهناك مدفأة روسية ضخمة غليظة يطل
نصفها على هذه الغرفة ويطل نصفها الآخر على حجرة المدخل •

واضح أنه ليس فى الامكان أن يعيش فى هذا المنزل ثلاثة
أشخاص •

بدأت المساومة على الأجر ولكن بغير تسلسل فى الأفكار ، حتى
لا يكاد يفهم بعض عن بعض شيئاً • وكان أوردنيوف يسمع خفقان قلب
المرأة الشابة وهو على بعد خطوتين منها • كان يرى انها ترتجف انفعالا ،
بل وخوفا • وتم الاتفاق على الأجر أخيراً • قال الفتى انه سيسكن فى
الغرفة فوراً ، ونظر الى صاحب المنزل • كان الشيخ واقفاً أمام الباب ،
لا يزال صاحب الوجه ، غير أن ابتسامة رقيقة بل وواجمة كانت تطوف
على شفتيه • فما ان التقى بنظر أوردنيوف حتى عاد يعبس مقطباً حاجبيه •
سأل الشيخ الفتى فجأة بصوت عال وكلام موجز ، وهو يفتح باب
حجرة المدخل :

— أعندك جواز سفر ؟

فأجابه الفتى بشيء من الدهشة :

— نعم •

قال الشيخ :

— من أنت ؟

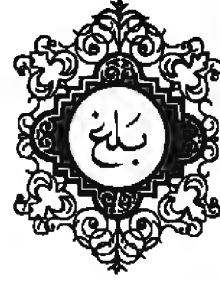
فأجاب الفتى بلهجة هى لهجة الشيخ نفسها :

— فاسيلي أوردینوف • متعلم • لا أعمل فى مكان ، وانما أهتم
بشئونى •

قال الشيخ :

— وأنا كذلك • اسمى ايليا مورين ، بوجوازى • هل يكفىك
هذا ؟ هيا •••

وما هى الا ساعة حتى كان أوردینوف فى مسكنه الجديد • ولم
تقل دهشته من هذا التغير عن دهشة الألمانى الذى كان قد أخذ يخشى هو
وابنته تينيشن أن يكون المستأجر الجديد قد دبر لهما مكيدة من المكائد •
أما أوردینوف فانه لم يكن يفهم كيف وقع هذا كله ، ولا كان يريد
أن يفهم •••



خفقان قلب أوردینوف من القوة أن بصره اضطرب
ورأسه أصابه دوار • وأخذ أوردینوف يرتب
أشياءه الضئيلة في مسكنه الجديد ذاهلا عن نفسه ،
يعمل كما تعمل آلة • فض صرة تضم أشياء
مختلفة ، ثم فتح صندوق كتب فنضد الكتب على الطاولة ، ولكن هذا العمل
لم يلبث أن ثقل عليه • ان صورة المرأة الشابة التي هز لقاؤها كيانه كله،
وبث فيه اضطرابا شديدا ، ما تنفك تسطع أمام عينيه ••• ان ايمانا كبيرا
وحماسة لا تقاوم يدخلان الآن حياته ، بينما يخيم على أفكاره ظلام ،
وتهوى نفسه الى القلق والاضطراب •

تناول جواز سفره ومضى يأخذه لصاحب البيت آملا أن يبصر المرأة
الشابة • ولكن مورين لم يكده يشق الباب شقا ، فيتناول منه الورقة ،
ويقول له « أرجو لك حياة هادئة » ، ثم يفلق الباب • ان شعورا مزعجا
يعترى أوردینوف • ان رؤية هذا الشيخ تثقل على صدره ، لا يدري
لماذا ! ان في نظريته شيئا من احتقار ومن شر • ولكن الشعور المزعج لم

يلبث أن تبدد • ان اوردنيوف يعيش منذ ثلاثة أيام فيما يشبه الزوبعة ، اذا قيسست حياته الآن بحياة الهدوء التي كان يحياها من قبل ، ولكنه لا يستطيع ان يفكر ، بل هو يخشى أن يفكر • ان كل شيء قد اختلط واضطرب في وجوده • أحس احساسا مبهما بأن حياته قد انشطرت شطرين • فهناك الآن صبوة وحيدة ، هناك رنو وحيد استولى على كيانه كله ، فما من فكرة أخرى لها عليه سلطان •

عاد أوردنيوف الى غرفته مدهوشا • وهناك ، قرب المدفأة ، حيث يهيا الطعام ، كانت تعمل امرأة عجوز قصيرة منتفضة • انها تبلغ من القذارة ، وان ملابسها تبلغ من الرثالة والوساخة ان منظرها يبعث الشفقة حقا • ولكن في وجهها خبثا وشرا ، وهي تدمدم بين أسنانها ببعض الكلام من حين الى حين • ان هذه العجوز هي خادمة أصحاب البيت • حاول أوردنيوف أن يعقد معها حديثا ، ولكنها اعتصمت بالصمت ، عن مكر واضح • حتى اذا حانت ساعة الغداء أخرجت من المدفأة حساء كرنب وفطائر لحم فحملتهما الى أصحاب البيت ، ثم قدمت لأوردنيوف هذا الطعام نفسه • وبعد الغداء ساد المنزل صمت كأنه صمت الموت •

تناول أوردنيوف كتابا ، فظل يقلب صفحاته محاولا أن يفهم ماسبق ان قرأه مرارا دون أن يظفر بطائل ، فثارت ثأثرته ، فرمى الكتاب ، وعاد يحاول أن يضع أشياءه في مواضعها • ثم مشط شعره ، وتدثر بمعطفه ، وخرج •

ظل يضرب في خارج البيت على غير هدى ، لا يعرف الطريق الذي يسير فيه ، محاولا طوال الوقت أن يركز أفكاره المشتتة ما أمكن التركيز ، وأن ينظر في وضعه قليلا • ولكن هذا الجهد لم يزد على أن سبب له عذابا • انه يشعر ببرد ثم يشعر بحر ، وان قلبه ليلغ من شدة الحرقان في بعض اللحظات أنه يضطر الى الاتكاء على جداره • همس يقول محموم

الشفقتين مرتعشا دون أن يفكر فيما يقول : « لا ... الموت خير من هذا
... الموت أفضل من هذا ! » •

ولبت يمشى زمنا طويلا • فلما أحس أخيرا أنه ابتل حتى العظام ،
ولما لاحظ لأول مرة أن المطر كان يهطل غزيرا ، قفل راجعا الى البيت •

فحين أصبح على مقربة من البيت لمح البواب ، فبدأ له أن الترى
يحدق اليه بشيء من حب الاستطلاع ، ولكنه حين أدرك أن أوردينوف
يلاحظه تابع سيره •

قال له أوردينوف وقد لحق به :

- نهارك سعيد • ما اسمك ؟

فأجاب الترى كاشفا عن أسنانه :

- أنا بواب ، واسمى بواب •

- أأنت فى هذا المنزل منذ زمن طويل ؟

- نعم منذ زمن طويل •

- هل صاحب بيتى بورجوازى ؟

- هو بورجوازى اذا كان يقول ذلك •

- ماذا يعمل ؟

- انه مريض ، يعيش ، ويصلى ... هذا كل شيء ...

- وهذه المرأة زوجته ؟

- أى امرأة ؟

- المرأة التى تعيش معه ؟

- هى زوجته اذا كان يقول ذلك • وداعا يا سيدى !

قال الترى ذلك ملامسا طاقته ودخل بينه •

عاد أوردينوف الى مسكنه • فتحت له العجوز الباب وهى تتمتم ببعض الكلام ، ثم أقفلته بالمزلاج ، ورجعت تستقر على المدفأة حيث تكمل حياتها • كان الليل يهبط • مضى أوردينوف يعجى بنور ، فلاحظ أن باب صاحبي البيت مقفل بالفتاح • نادى العجوز • كانت العجوز تحديق اليه من فوق المدفأة مسندة رأسها الى كوعها وكأنها تتسائل ما عساه يستطيع أن يفعل قرب القفل من غرفة صاحبي البيت • ودون أن تقول له شيئا ، رمت اليه علبة كبريت •

رجع الى غرفته ، وأخذ للمرة المائة يرتب أنسياءه وكتبه • ولكنه شيئا فشيئا ، دون أن يدري ماذا يحدث له ، رأى نفسه يجلس على المقعد ، وخيل اليه أنه ينام • وكان يثوب الى نفسه فى بعض اللحظات ، فيدرك أن نومه ليس نوما ، بل هو نوع من غيبوبة مرضية أليمة • سمع الباب يُفتح ثم يثقل • فقدر أنهما صاحبا البيت عائدان من صلاة الغروب • فخطر بباله ان عليه أن يذهب اليهما ليحجى من عندهما بشيء • فنهض عن مكانه يريد أن يذهب اليهما ، ولكنه ترنح وسقط على كومة من حطب كانت المرأة العجوز قد ألقتها فى وسط الغرفة • وعندئذ أغمى عليه تماما • فلما أفاق بعد فترة وفتح عينيه لاحظ مدهوشا أنه راقد على نفس المقعد الطويل العتيق ، مرتد نيابه كاملة ، وأن وجه امرأة بارع الجمل ، مبتلا بدموع عذبة حلوة كدموع أم ، كان يميل عليه حانيا عاطفا شديدا لاتباه • وشعر أن مخدة توضع تحت رأسه ، وأنه يُدثر بشيء دافئ ، وأن يدا رقيقة تمسح جبينه المحترق • أراد أن يقول شكرا ، أراد أن يتناول هذم اليد الرقيقة ، أن يقربها من شفثيه الجافتين ، أن يبللها بدموعه ، أن يقبلها

الى الأبد ... أراد أن يقول أشياء كثيرة أيضا ... ولكن ماذا ؟ انه لا يدري هو نفسه • أراد في تلك اللحظة أن يموت ... كانت يدها كالرصاص ثقلا ، وظلتا ساكنتين جامدتين لا تتحركان • وخيّل اليه أنه أصبح أخرس • لكنه يحس بدمه يتدفق في جميع شرايينه تدفقا قويا كأنه يريد أن ينهضه عن مرقد • ناوله أحد ماء ... ثم أغمى عليه •

استيقظ في الصباح ، في الساعة الثامنة من الصباح • كانت الشمس ترسل أشعتها الذهبية من خلال الزجاج الضارب الى الخضرة ، الوسنج ، زجاج نوافذ غرفته • ان احساسا عذبا يسرى في جميع أعضاء المريض • كان هادئا ساكنا سعيدا غاية السعادة • وخيّل اليه أن أحدا كان منذ برهة ساهرا عليه • استيقظ باحثا من حوله عن ذلك الانسان الذى لا يراه • كان يود لو يستطيع أن يعانق صديقا ، أن يقول لأول مرة «صباح الخير، صباح الخير ، يا صديقى ، •

قال صوت امرأة عذب رقيق :

ـ نمت نوما طويلا •

فاستدار أوردينوف • ان وجه الجارة الجميلة يتسم ابتسامة فاتنة ، مضيئة كالشمس ، ويميل عليه •

قالت :

ـ طال مرضك • كفالك هذا • انهض الآن • لماذا تعذب نفسك هذا التعذيب ؟ ان الحرية أشهى من الخبز ، وأبهى من الشمس • انهض يا صديقى انهض ...

تناول أوردينوف يدها ، وشد عليها شدا قويا • خيّل اليه أنه ما يزال يحلم •

- انتظر • لقد أعددت لك شايًا • هل تريد قليلا من الشاي؟ اشرب شيئا من الشاي • سينفعك شرب الشاي • أعرف هذا ، فقد مرضت أنا أيضا •

- نعم نعم ، استقنى شيئا •

كذلك قال أوردنوف بصوت منطفيء •

ونهض • كان لا يزال ضعيفا جدا • ان تشعريرة تسرى في ظهره •
وانه يحس بأوجاع في جميع أعضائه ، كأن جميع أعضائه مكسرة محطمة •
غير أن في قلبه نورا ، وأشعة الشمس تنعشه وتبث في روحه فرحا رائعا •
انه يشعر أن حياة جديدة ، قوية ، خفية عن الأبصار قد بدأت فيه •
وكان يشعر بشيء من دوار •

قالت المرأة الشابة :

- هل اسمك فاسيلي ؟ لعلني أخطأت السمع ، ولكن رب الدار سماك بهذا الاسم أمس •

- نعم ، فاسيلي • وأنت ما اسمك ؟

قال أوردنوف ذلك وهو يقترب منها ولا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه •

وترنح ، فأمسكته من يده وضحكت ، ثم قالت له وهي تحدق الى عينيه بعينها الزرقاوين الصافيتين :

- أنا ؟ كاترين •

وتماسكا يدا بيد •

سألته أخيرا :

- هل تريد أن تقول لى شيئا ؟

فأجابها أوردینوف بقوله :

- لا أدري •

واظلم بصره •

- ألا ترى الحالة التى أنت فيها ؟ • • حسبك هذا يا طائرى ،

حسبك • لا تعذب نفسك مزيدا من التعذيب • اقعده هنا ، أمام المنضدة ،

قبالة الشمس • امكث هنا هادئا ، ولا تتبغنى (أضافت قولها هذا اذ لاحظت

أن الفتى يهم أن يتحرك ليمسك بها) • سأعود فورا • سترانى كثيرا •

وعادت بعد دقيقة تحمل الشاى ، فوضعت الشاى على المائدة ، وقعدت

أمام أوردینوف •

قالت :

- خذ • اشرب • هل بك صداع ؟

- لا • زال الصداع الآن • لا أدري • قد يكون بى صداع •

لا أريد • • • كفى كفى ! لا أعرف ما الذى بى •

قال ذلك مضطربا أشد الاضطراب بعد أن استطاع أخيرا أن يتناول

يد كاترين • • • وأضاف يقول لاهنا من فرط الحماسة ، وكأنه ينتزع

كلامه من قلبه ، بينما يملأ النسيج حلقه :

- على عينيَّ غشاوة • • • عيناى مبهورتان • • • اتنى أنظر اليك

نظرتى الى الشمس •

- يا صديقى ، أنت اذن لم تعيش فى كنف انسان شهم • أنت

وحيد ، وحيد • أليس لك أقرباء ؟

— ليس لى أحد • أنا وحيد • ليس لى أحد • آ • • • تحسنت حالى
الآن • أنا الآن بخير •

قال أوردینوف ذلك هاذيا ، وكان يرى الغرفة تدور من حوله •
قالت بعد لحظة صمت :

— أنا أيضا ظلمت وحيدة عدة سنين • ما أغرب نظرتك الىّ ! • • •
— ماذا فى نظرتى ؟

— انك تنظر الىّ نظرة من تحييه رؤيتى وثبت الدفء فى قلبه !
هل تعلم ؟ انك تنظر الىّ نظرة من يشعر بحب • • • أما أنا فقد خفقت
قلبى لك منذ أول كلمة • اذا مرضت فسوف أعنى بك • ولكن لا تمرض •
لا لا ، حين ستشفى من مرضك سنعيش أخا وأختا • هل تريد ؟ صعب
أن يصبح للمرأة أخت اذا لم يكن الرب قد وهب له أختا • •

قال أوردینوف بصوت واهن :

— من أنت ؟ من أين أنت ؟

— أنا لست من هنا ! ولكن فيم يعنك هذا ؟ هل تعلم ؟ يحكى أن
اثنى عشر أخا كانوا يعيشون فى غابة مظلمة • • • وحدث أن ضلت فتاة
فى هذه الغابة • • • فوصلت الى منزلهم ، فرتبت كل شىء فيه ، وشملتهم
بحبها جميعا • عاد الاخوة ، فعرفوا أن أختا مرت بمنزلهم فى النهار • •
نادوها • جاءت اليهم • سموها جميعهم أختا • فكانت لا تفرق بينهم ، بل
تعاملهم معاملة واحدة • هل تعرف هذه الحكاية ؟

أجاب أوردینوف بصوت خافت :

— نعم أعرفها •

- الحياة متعة • أيسرك أن تحيا ؟
- نعم نعم •• أن أحيا طويلا •• طويلا ••
كذلك أجاب أوردينوف • فقالت كاترين ساهمة :
- لا أدرى • اننى أتمنى الموت أيضا • الحياة متعة ••• ولكن •••
أواه ! ما لوجهك يشحب لونه من جديد ؟
- بى دوار !
- انتظر • سأجيئك بفراشى • انه خير من هذا • وسأجيئك بمخدة
أخرى ، وسأهيم سريرك • وسوف تنام ، فترانى فى نومك ، فيذهب
مرضك ••• عجوزتنا مريضة هى أيضا •••
كانت تقول هذا الكلام وهى تهيم السرير ، وتلقى من فوق كفها
نظرة على أوردينوف من حين الى حين •
قالت وهى تدفع صندوق الكتب :
- عندك كتب •
واقتربت من أوردينوف ، فتناولت يده اليمنى ، وقادته نحو
السرير ، فأضجعتة ، وأحاطت به • قالت وهى تهز رأسها واجمة ساهمة :
- هل تحب قراءة الكتب ؟
- نعم •
قال أوردينوف ذلك وهو لا يدرى أنائم هو أم يقظ ، قال ذلك •
وهو يشد على يد كاترين شدا قويا ليحقق من أنه ليس بنائم :
- عند سيدى كتب كثيرة أيضا • يقول انها كتب رائعة • انه يقرأ

لى دائما فى أحد هذه الكتب • سأريك هذا الكتاب بعد ، فنقول لى ماذا فيه ...

– نعم سأقول لك ...

قال أوردینوف ذلك وهو يتفرس فيها •

سألته بعد صمت قصير :

– هل تحب الصلاة ؟ أتعلم ؟ اتنى أشعر بخوف ، أشعر بخوف من

كل شىء ، دائما ...

لم تكمل كاترين جملتها ، ولاح عليها أنها تفكر فى شىء ما •

حمل أوردینوف يدها الى شفتيه •

– لماذا تقبل يدي ؟

قالت ذلك وقد احمر خذاها قليلا •

ثم أضافت ضاحكة وهى تمد اليه يديها كلتيهما :

– هيا ... قبلهما •

ثم سحبت احديهما ووضعتها على جبينه المحترق • ثم أخذت تلاعب

شعره • ان حمرة وجهها تشتد • وأخيرا قعدت على الأرض قرب السرير •

وأسندت خذاها على خد الفتى • ان أنفاسها الحررى تهب على وجهه ...

ونسر أوردینوف فجأة بدموع سخية تسقط على خده ثقيلة

كالرصاص • كانت كاترين تبكى • أخذ أوردینوف يزداد ضعفا ووهنا •

أصبح منذ الآن لا يستطيع أن يرفع يديه • وفى هذه اللحظة دوت

خربة فى الباب • وصر المزلاج • استطاع أوردینوف أن يميز صوت

رب المنزل آتيا من الغرفة المجاورة • ثم سمع كاترين تنهض فتناول كتابها دون تعجل ودون اصغاء ، وراها بعد ذلك ترسم عليه اشارة الصليب وهي تنصرف • أغمض عينيه • وفجأة أحس بقبلة حارة طويلة تحرق نفثته ، وشعر كأن طعنة سكين تنفذ في قلبه • أطلق صرخة ضعيفة ، ثم أغمى عليه •

بعدئذ بدأت بالنسبة اليه حياة غريبة عجيبة •

ففى بعض اللحظات ينبع فى فكره شعور غامض مبهم بأنه قد حُكم عليه أن يعيش حلما طويلا لا نهاية له ، مليئا باضطرابات غريبة وصراعات وآلام عقيمة ؛ فيشعر بذعر شديد ، ويحاول أن يتمرد وأن يشور على هذا القدر الذى ينقل صدره • ولكن حين يبلغ الصراع أشد لحظاته حدة وضراوة ، يحس بقوة مجهولة تضربه من جديد ، فيدرك ادراكا واضحا كيف أنه يفقد ذاكرته مرة أخرى ، وكيف أن ظلاما رهيبا ، لا مخرج منه ، ينتشر أمامه من جديد ، فيندفع اليه صارخا صرخة قلق ويأس • وفى لحظات أخرى يشعر بسعادة عنيفة مسرفة فى العنف ، سعادة ساحقة ؛ يحدث ذلك حين تزداد الحيوية فى الكيان الانسانى كله الى غير حد ، حين يصبح الماضى أوضح وترجع أصداء انتصار الفرح ، حين يحلم المرء بمستقبل مجهول ، حين يهبط على النفس أمل رائع كالندى المنفس ، حين يشتهى المرء أن يصرخ من فرط الحماسة ، حين يحس أن الجسد عاجز أمام كثرة الأحاسيس وغزائنها ووفرتها ، حين ينقطع خيط الوجود ويعلو فى الوقت نفسه هتاف التهليل لانبعاث الحياة الجديدة •

وكان أوردنوف يرتد فى لحظات أخرى الى خدره ، وعندئذ فإن كل ما حدث له فى الأيام الأخيرة يمر فى خاطره من جديد مرور زوبعة • ولكن المنظر يعرض له حينذاك فى مظهر غريب سرى •

وكان فى بعض الأحيان ينسى أثناء مرضه ما حدث له ، ويستغرب أن لا يجد نفسه فى مسكنه القديم عند صاحبة البيت القديمة ؛ ويدهشه أن لا يرى العجوز تقترب ، كما اعتادت أن تفعل ذلك دائما ، من المدفأة شبه المنطفئة التى تثير بضائها الضعيف المهتز المترجح كل الركن المظلم من الغرفة ، وأنها لا تدفئ يديها المعروقتين المرتجفتين على الموقد الذى خبت ناره ، كما ألفت أن تفعل ذلك دائما ، ملقية من حين الى حين نظرة دهشة على نزيلها العجيب الذى كانت تعده مجنونا بعض الشيء من طول ما يكب على القراءة •

وكان فى لحظات أخرى يتذكر أنه أبدل مسكنه ، ولكن كيف تم ذلك ؟ انه لا يدرى كيف تم ذلك ، رغم كل ما يبذله من جهود عنيفة عنيدة فى سبيل أن يفهمه ••• أما أين وماذا وما هذا الذى يعذبه ويلقى فى نفسه هذه النار التى لا تطاق ، هذا اللهب الذى يخنقه ويحرق دمه فذلك ما لم يكن فى امكانه أن يعرفه • وها هو ذا يعود الى النسيان من جديد ، فلا يتذكر شيئا البتة • وكثيرا ما كان يقبض قبضا شرها على طيف من الأطياف • وكثيرا ما كان يسمع وقع خطوات خفيفة قرب سريره ، ودمدمة أصوات عذبة مهددة رقيقة كأنها موسيقى • وهذه أنفاس لاهثة رطبة تمر على وجهه ، فيهتز كيانه كله حبا • وهذه دموع محرقة تسيل على خديه الملتهبين ، وهذه قلة طويلة رقيقة تنصب فجأة على شفتيه • ان حياته كلها تنطفئ عندئذ فى عذاب لا نهاية له ؛ ويبدو له أن الوجود كله ، والكون كله يتوقفان من حوله ، يموتان من حوله قرونا برمتها ، وأن ليلا طوله ألف سنة يمتد عليه •••

وهو فى بعض الأحيان يعيش مرة أخرى السنين الحلوة من طفولته الأولى ، بأفراحها الصافية وسعادتها التى لا حدود لها ، بأولى مشاعر

الدهشة الفرحة ، بجمهرة الأرواح المضيئة تخرج من كل زهرة يقطعها ،
وتمضي تلعب معه فى السهل الأخضر المشب أمام البيت الصغير الذى
تحيط به أشجار الأكاسيا ويتسم له عند بحيرة البلور التى يقضى على
شاطئها ساعات طويلة مصغيا الى خرير أمواجها ؛ ومصيحيا بسمعه كذلك
الى اصطفاق أجنحة تلك الأرواح التى تنشر على مهده الصغير أحلاما
زاهية الالوان كقوس قزح بينما تكون أمه ، الحانية على هذا السرير ،
تقبله وتتوّمه مغنية له أغنية حلوة عذبة حلوة فى اللبلى الهادئة الساكنة .
ولكن انسانا يظهر له من جديد فيقلقه أشد القلق ويرعبه بفزع ليس كفزع
الأطفال ، ويسكب فى نفسه أول سم بطيء من سموم الالم والدموع . انه
يشعر شعورا مبهما بأن الشيخ المجهول يقبض بسلطانه على جميع سنيه
المقبلة ، فما هو ذا يرتعش أمامه ولا يستطيع أن يحول عنه بصره . ان
الشيخ الحبيث الشرير يلاحقه فى كل مكان ويطارده أينما يذهب . يظهر له
ويطل عليه ويهدده برأسه من فوق كل دغل فى الغابة الصغيرة . يضحك
مقهقها ويعاكسه ويناكده ؛ يتجسد فى كل دمية من الدمى التى كان يلعب
بها ابان طفولته ؛ يكسّر له ، ينفجر ضاحكا فى يديه ، كجنى خبيث
شرير من الجن التى تسكن جوف الأرض . ينبثق من كل كلمة من
كلمات كتاب النحو الذى يقرأ الصبى سطورره ، ينبثق مصعرا وجهه عن
أسنانه . . . فاذا نام الصبى جلس الشيخ قرب سريره . . . يطرد أسراب
الأرواح المضيئة التى ترفرف حول مهده بأجنحتها التى هى من ذهب
وياقوت . وهو يدفع عنه ، الى الأبد ، أمه المسكينة ؛ ويظل ليلة بكاملها
يهمس له بقصة رائمة لا يفهمها قلب طفل ، ولكنها تبث فيه اضطرابا ورعا
وهولا ، وتشعل قلبه بهوى جامع كيس كهوى الأطفال . والشيخ الشرير
لا يسمع نحيبه ونشيجه ، ولا يصنى الى رجائه ودعائه ، ويمضى يحدثه
ثم يحدثه الى أن يغمى عليه .

ويستيقظ الطفل رجلاً • لقد انقضت سنين طويلة دون أن يدرك ذلك • وفجأة يعرف وضعه على حقيقته ، ويفهم أنه وحيد وغريب عن الكون كله • وحيد بين أناس أشرار ، أناس مقلقين ، أعداء يتجمعون ويتهايمسون في أركان غرفته المظلمة ، ويومثون برءوسهم الى العجوز القاعدة قرب النار تدفئ يديها الواهيتين العجافين ، وتومئ هي لهم اليه • ان نفسه مضطربة أشد الاضطراب ، يريد أن يعرف ما هؤلاء الناس ، ولماذا هم هنالك ، ولماذا هو في غرفته • ويقدر أنه وقع في مغارة لصوص من قطاع الطرق ، وأن قوة جبارة مجهولة هي التي قادته الى هذه المغارة ، قبل أن يفحص هؤلاء السكان هؤلاء الناس • تستبد به الحسنة منذ الآن • وفجأة ، في وسط الليل ، في الظلام ، يعود يسمع القصة الطويلة بصوت خافت • هي امرأة عجوز تتكلم برفق ، هازئة رأسها الأبيض على حزن ، أمام النار التي تنطفئ • ويقبض عليه الهول والرعب من جديد • الحكاية تشتد حميّاها أمامه ، وهذه وجوه وصور تتضح ليصره • وهذا هو يرى أن كل شيء ، تهاويله المبهمة في أيام طفولته ، أفكاره وأحلامه جميعها ، ما عرفه من الحياة كلها ، ما قرأه في الكتب كافة ، ما نسيه منذ زمن بعيد ، ذلك كله ينبعث الآن ويتجسد ويتصب أمامه صوراً ضخمة ، ويسير ويرقص حلقة حوله • جنائن بديعة تثبت أمام بصره ، مدن برمتها تنهاوى خرائب وركاما ، مقابر ترد اليه موتاهها أحياء يسعون • أمم وشعوب بأسرها تظهر وتكبر وتموت على مرأى منه • كل فكرة وكل حلم يتجسد الآن حول سريريه ، سرير المريض ، تجسده حين ولد ؛ فهو لا يحلم الآن بمكان من غير لحم ودم ، بل بعوالم بأسرها • وهو نفسه الآن يجرفه اعصار ، كذرة غبار ، في هذا العالم اللانهائي ، هذا العالم الغريب ، الذي لا مخرج له • وهذه الحياة كلها ، باستقلالها

التمرد ، تدفمه دفعا ، وتلاحقه بسخريتها الأبدية الحقود التي لا يشفى لها غليل •

أحس أنه يموت ، أنه يتهاوى ترابا ، الى الأبد ، بغير انبعاث ممكن • أراد أن يهرب ، ولكن ليس في الكون كله ركن يخفى فيه • ويستولى عليه أخيرا ذعر رهيب ، فيصرخ ، ويستيقظ •••

ان عرقا باردا كالثلج يغطي جسمه • ومن حوله يخيم سكون كسكون الموت في ليل عميق • ومع ذلك يترامى له أن حكايته العجيبة ما تزال مستمرة في مكان ما ؟ وأن صوتا أجش يشرع في حديث طويل عن الموضوع الذي يعرفه • انه يسمع كلاما عن غابات مظلمة ، ولصوص خارقين ، وعن فتى باسل شجاع يشبه أن يكون ستكا رازين* نفسه ، وعن سكارى مرحين فرحين ، وعن رجال يجرون المراكب ، وعن فتاة جميلة ، وعن نهر الفولجا • أهذا حلم ؟ أهو يسمع هذا حقا ؟

وظل راقدا مدة ساعة ، مفتح العينين ، لا يحرك عضوا ، غارقا في خدر رهيب • وأخيرا نهض محاذرا ، فأدرك على فرح أن المرض الفظيع لم يجهز على جميع قواه • تبدد الهذيان • وبدأ الواقع •

لاحظ أنه ما يزال مرتديا ثيابه كما كان أثناء حديثه مع كاترين ، فقدّر أنه لم ينقض اذن وقت طويل على تركها اياه • ان نار العزيمة تجري في عروقه • وانه لكذلك اذا بيده تلمس ، عرضا ، مسمارا كبيرا مفروزا في الحائط الذي وضع سريره حذاءه • أمسك المسمار وتعلق به بكل جسمه ، فوصل بذلك الى شق يتسلل منه الى غرفته شعاع ضئيل من نور • وضع عينه على هذا الشق ، وحبس أنفاسه ، وأخذ ينظر •

في ركن من الغرفة الصغيرة التي يسكنها صاحب البيت ، كان هنالك

سرير ، وأمام السرير مائدة فُرشت بسجادة • وعلى المائدة كتب كثيرة من حجم كبير وشكل قديم ، كتب مجلدة تذكر بكتب الطقوس الدينية • وفي زاوية من الزوايا أيقونة معلقة لا تقل قدما عن الغرفة ، وأمام الأيقونة سراج مشتعل • كان الشيخ مورين ، المريض ، راقدا على السرير • كان يبدو عليه أنه يعاني آلاما شديدة • انه صاحب شحوب ميت • وكان مدترا بغطاء من فراء ؟ وعلى ركبتيه كتاب مفتوح • وكانت كاترين مستلقية على مقعد قرب السرير ، محيطة صدر الشيخ باحدى ذراعيها ، مسندة رأسها على كتفه • كانت تحدد اليه بعينين متبهرتين ، طفوليتين ، مدهوشتين • وتبدو مصغية بشراة شديدة ونهم غريب الى ما كان يقصه عليها مورين • وفي بعض اللحظات يعلو صوت القصاص ، وينتفش وجهه الشاحب • ويتقطب حاجباه ، وتسطع عيناه ، فيصفر وجه كاترين خوفا وانفعالا • فيظهر في وجه الشيخ عندئذ شيء يشبه الابتسام ، فاذا بكاترين تأخذ تنسم في هدوء ورفق هي أيضا • وترفرق في عينيها دموع أحيانا • فيأخذ الشيخ يلاعب رأسها عندئذ كما يلاعب رأس طفلة ، فتعاقبه بمزيد من القوة بذراعيه العارية الناصعة كالثلج ؟ وبمزيد من الحب أيضا تميل على صدره •

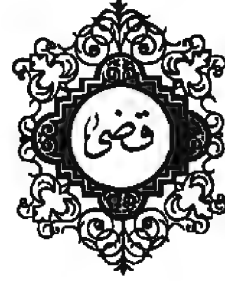
تساءل أوردنيوف أليس ما يراه الآن تنمة حلمه ؟ بل لقد أيقن من ذلك • غير أن دمه ازدحم في رأسه ، وأخذت شرايينه وصدغاه تنبض • نبضا يبلغ من القوة أنه أوجعه •

أرخی المسمار ، ونزل عن السرير ، وتقدم يسير مترجحا كمن يمشى في نومه ، لا يفهم هذا الاحتياج الذي اشتعل كحريق في دمه • فلما وصل الى باب غرفة رب المنزل دفعه دفعا قويا عنيفا ، فسقط المزلاج

الصدى ؟ وفى غمار هذه الجلبة وهذه الضجة وجد أوردينوف نفسه فى وسط الغرفة •

ورأى أوردينوف كيف ارتعشت كاترين فجأة ، وكيف التمعت عينا الشيخ تحت حاجبيه العاسين المقطبين التماعا شريرا ، وكيف شوه الحلق والفيظ وجهه تشويها على حين بغنة • ثم اذا بالشيخ يتناول بيده المرتجفة البندقية المعلقة بالجدار ، فيرى أوردينوف أنبويها ساطعا تسدده الى صدره يد مترددة راعشة غضبا • • وتنطلق الطلقة • • فتجاوبها صرخة وحشية لا يكاد يكون فيها شيء انساني • • حتى اذا تبدد الدخان ، رأى أوردينوف منظرا مروعا فظيما •

أخذ جسم أوردينوف يرتعش من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، ومال على الشيخ المتهاوى على الأرض وقد تشنج وجهه وأخذ الزيد يخرج من بين شفتيه المكشرتين • أدرك أوردينوف أن الشيخ المسكين قد انتابته نوبة صرعة • فهب يسعفه مع كاترين •



أوردينوف ليلة سيئة • فلما طلع الصباح خرج
من المنزل رغم ضعفه ورغم الحمى التي لم تزاوله •
فالتقى في الفناء بالبواب مرة أخرى • ما ان رآه
الترى من بعيد حتى نزع قبعته يحييه ، وينظر
اليه مستطلعا ؟ ثم لم يلبث أن تناول مكنسته ، وأخذ يكنس الأرض ملقيا
من حين الى حين نظرة سريعة على أوردينوف الذي كان مقبلا بخطى
بطيئة •

سأله أوردينوف :

— هيه ! ألم تسمع شيئا هذه الليلة ؟

— بلى ! سمعت •

— ما هذا الرجل ؟ من هو ؟

— أنت استأجرت ، فأنت تعرف • أما أنا فأجنى •

فصاح أوردينوف خارجا عن طوره وقد استبد به هياج مرضى :

— أترأك ستتكلم في يوم من الأيام ؟

قال البواب :

- ولكن ماذا فعلت أنا ؟ انها خطيبتك • أنت أرعيتهم • صانع التوايت ، تحت ، أطرش • ومع ذلك سمع كل شيء • وامراته ، وهى طرشاء ، سمعت كل شيء أيضا • وحتى فى الفناء الثانى ، البعيد مع ذلك ، سُمع كل شيء • هذا ما وقع ••• سأذهب الى مفوض الشرطة •

- بل أذهب اليه أنا •

قال أوردينوف ذلك واتجه نحو باب الفناء •

- لك ما تشاء ••• ولكنك أنت الذى استأجرت ! سيدى ، سيدى !
انتظر !•••

نظر أوردينوف الى البواب الذى لمس طاقيته احتراما •

سأله أوردينوف :

- ماذا ؟

- اذا كنت ذاهبا الى مفوض الشرطة ، فسأخبر المالك •••

- ثم ؟

- الأفضل أن تغادر هذا المنزل •

- ما أنت الا غبى أحمق !

أراد أوردينوف أن ينصرف •

- سيدى ! سيدى !

كذلك هتف البواب وهو يضع يده مرة أخرى على طاقيته ، ويظهر أسنانه ابتساما من قبيل التودد • وأردف يقول :

- سيدى ! لماذا طردت انسانا مسكينا ؟ ان طرد انسان مسكين اثم
لا يرضى عنه الرب •

- اسمع ••• خذ هذا ••• من هو هذا الرجل ؟

- من هو ؟

- نعم •

- سأقول لك من هو ، حتى دون أن تنقدنى مالا •

تناول البواب مقشته ، فكس بها كنستين ، ثم توقف ، فنظر الى
أوردنيوف بانتباه مصطنعا خطورة الشأن :

- أنت طيب ياسيدى ، ولكن اذا كنت لا تريد أن تعيش مع انسان
صالح ، فلك ما تشاء ••• ذلك ما أقوله لك •••

قال الترى ذلك وألقى على أوردنيوف نظرة تفيض بمزيد من
التعير ، ثم طفق يكس كأنه غاضب • وأخيرا اصطنع هيئة من أنجز أمرا
هاما ، اقترب من أوردنيوف كمن يريد أن يفضى اليه بسر ، وقال معبرا
بحركة من وجهه :

- هو هكذا ! ••

- ماذا ؟ ما معنى هذا ؟

- ليس له عقل !

- ماذا ؟

- نعم • ذهب عقله •

كذلك ردّد الترى بלהجة فيها مزيد من السر أيضا • ثم أضاف :

- انه مريض • كان يملك سفينة كبرى ، وسفينة ثانية ، وثالثة •
كان يطوف نهر الفولجا • أنا من الفولجا • وكان يملك مصنعا أيضا •
ولكن الحريق التهم كل شيء • ففقد الرجل عقله •••

- أهو مجنون ؟

قال الترى ببطء :

- لا •• لا •• ليس بمجنون •• هو انسان روحانى •• يسرف
كل شيء •• قرأ كتباً كثيرة •• وهو يتنبأ للناس بالحقيقة كاملة : يجيئه
أحدهم ، فينقده روبلين ، ويجيئه آخر فينقده ثلاثة روبلات ، أو أربعين
روبلا ، فيقرأ هو فى الكتاب فيرى الحقيقة كلها • ولكن على شرط أن
توضع الدراهم فوق المائدة ، أما بدون دراهم ، فلا شيء •

وهنا أطلق الترى ضحكة فرحة ، بعد أن أوغل فى الكلام على
مشئون مورين •

قال أوردينوف :

- ماذا ؟ أهو اذن ساحر ؟

قال البواب وهو يهز رأسه :

- هم •• انه يقول الحقيقة • انه يصلى •• يصلى كثيرا •• وأحيانا
تصبيه لونة •••

وكرر الترى حركة رأسه المعبرة •

وفى هذه اللحظة نادى أحدهم البواب فى الفناء الآخر ، ثم ظهر
شيخ قصير القامة يرتدى معطفا من جلد الخروف • كان الشيخ يسير

بخطى مترددة وهو يتحنح مطرقا الى الأرض مدمما ببعض الكلام • كان الشيخ القصير يبدو مرتدا الى الطفولة •

— المالك ، المالك !

كذلك همس البواب بسرعة ، وأوماً لأوردينوف بحركة طفيفة من رأسه ، ثم اندفع مقبلا على الشيخ خالما طاقيته •

خيّل الى أوردينوف أنه سبق أن رأى هذا الوجه منذ فترة قصيرة فى مكان ما • ولكنه اذ لم ير فى ذلك ما يستغرب ، خرج من الفناء ، وهو يشعر أن هذا البواب رجل وغد دنيء من أحقر طراز • قال لنفسه: « يا للنذل ! انه يساومنى ••• الله يعلم ماذا يجرى هنا ! » •

حين قال أوردينوف هذه الكلمات كان قد وصل الى الشارع • وشيئا فشيئا احتكرت ذهنه أفكار أخرى • ان نفسه تفيض بمشاعر أليمة • النهار أشهب بارد • الثلج يتساقط • وأحسن القنى بالحمى تنهشه من جديد • كان يشعر أيضا بأن الأرض تنسل تحت قدميه • وفجأة سمع صوتا معروفا له ، صوتا من مقام التينور متصنع العذوبة ، مرتجفا ، مزعجا، يحيه قائلا : نهارك سعيد •

هتف أوردينوف :

— ياروسلاف ايلتش * !

كان أمام أوردينوف رجل فى نحو الثلاثين من العمر ، قوى البنية أحمر الخدين مربع القامة له عيان صغيرتان مخضلتان ، شهبوان ، باسمتان •• يرتدى •• ما يرتديه ياروسلاف ايلتش دائما • وهذا هو يمد يده لأوردينوف بتودد كبير •

كان أوردنوف قد عرف ياروسلاف ايلتش منذ سنة على وجه الضبط، معرفة عارضة تماما ، فى الشارع تقريبا . ومما سَهّل هذا التعارف ، عدا المصادفة ، ما يتصف به ياروسلاف ايلتش من ميل قوى الى البحث فى كل مكان عن أناس طيبين نبلاء ، مثقفين خاصة ، تجعلهم مواهبهم وآدابهم على الأقل ، جديرين بالانتماء الى المجتمع الراقى . ورغم أن ياروسلاف ايلتش قد وهب له صوت من مقام التينور متصنع العذوبة جدا ، حتى فى حديثه مع الحميمين من أصدقائه ، فلقد كان ينبعث فى صوته شيء خارق الوضوح ، قوى ، يفرض نفسه ، ولا يطبق أية معارضة ، ولعله ليس الا نعمة العادة .

صاح ياروسلاف ايلتش يقول فرحا أشد الفرح متحمسا أصدق الحماسة :

— كيف ؟ ماذا جاء بك الى هنا ؟

فقال أوردنوف :

— اننى أسكن فى هذه الجهة .

فتابع ياروسلاف ايلتش يسأل بلهجة ماتفتك تعلقو مزيدا من اللطو :

— منذ زمن طويل ؟ ثم لا أعلم أنا بذلك ؟ ... نحن اذن جيران .

اننى أعمل هنا ، فى هذه الدائرة . عدت من اقليم ريازان منذ شهر .

ها ... لقد قبضت عليك يا صديقى القديم النبيل !

قال ياروسلاف ايلتش ذلك وانفجر يطلق ضحكة لطيفة أنيسة .

ثم صاح منتفضا يخاطب شخصا آخر :

— سيرجييف ! انتظرى عند تاراسوف ، وقل لهم ان لا يمسوا

أَكياس القمح قبل وصولي ... واشحذ همة بواب أولسوفيف قليلا .
مره أن يأتني الى المكتب فورا . سأكون في المكتب بعد ساعة ...

فلما انتهى ياروسلاف الرقيق من اصدار أمره هذا مسرعا ، تأبط
ذراع أوردینوف وقاده الى أقرب مطعم . قال :

– لن أكون راضيا قبل أن تتبادل بضع كلمات على انفراد ، بعد
فراق طويل كل هذا الطول .

وأضاف بلهجة تشبه أن تكون احتراما وهو يخفض صوته خفصا
غريبا :

– ماذا تعمل الآن ؟ أما زلت تعمل في العلوم ؟

أجاب أوردینوف وقد راودته فكرة طيبة جدا :

– نعم ، كما كنت دائما .

فقال ياروسلاف ايلتش وهو يصافح أوردینوف بقوة :

– هذا عظيم يا فاسيلي ميخائيلوفتش ، هذا نبيل . ستكون زينة
جماعتنا ... أسأل الله أن يفرش طريقك بالسعادة ! رباه ! ما أشد
سعادتي بلقائك ! لطالما فكرت فيك ! لطالما قلت لنفسى : أين صديقنا الطيب
النبيل الروحاني فاسيلي ميخائيلوفتش ؟

قعد الرجلان في حجرة خاصة بالمطعم . أمر ياروسلاف ايلتش
بمشهيات ومقبلات ، وأمر بخمرة ، ونظر الى أوردینوف منفعلا كل
الانفعال ؟ ثم بدأ يقول بصوت خجول ، صوت فيه شيء من المداراة
والمراعاة :

– لقد قرأت كثيرا منذئذ . قرأت بوشكين كله .

كان أوردنيوف ينظر اليه ذاهلا •

أضاف ياروسلاف ايلتش :

- ما أروع وصفه لأهواء الانسان • ولكن اسمح لي قبل كل شيء
أن أعرب لك عن شكرى وامتنانى • لقد أحسنت الى احسانا كبيرا بنيل
الهامك ، وروعة أفكارك ...

- العفو ...

- لا .. اسمح لي .. أنا أحب الانصاف • واننى لفخور بأن هذا
الشعور على الأقل لم ينطفىء فى نفسى •

- العفو .. أنت لا تنصف نفسك ! أما أنا فالحقيقة أننى ...

- لا بل اننى منصف تماما • ماذا أنا بالقياس اليك ؟

كذلك اعترض ياروسلاف ايلتش بحرارة شديدة •

- العفو ...

- نعم ...

وأعقب ذلك صمت •

واستأنف ياروسلاف ايلتش يقول بلهجة خجولة مادية :

- لقد انتفعت بنصائحك فقطعت صلاتى بكثير من الأشخاص التافهين •
وأنا أقضى فى المنزل أكثر أوقات الفراغ التى يدعها لى عملى فى الوظيفة •
فأقرأ فى المساء ، أقرأ كتابا جيدا ، و ... ليس لى من رغبة يا فاسيلي
ميخائيلوفتش الا أن أكون نافعا لوطنى بعض النفع ...

- لقد عددتك دائما انسانا نبيلًا جدا يا عزيزى ياروسلاف ايلتش •

— ستظل أنت العطر الفواح ... أيها الشاب النيل •

قال ياروسلاف ايلتش ذلك وهو يشد على يد أوردنوف شدا قويا •

ثم أضاف يلاحظ بعد أن هذا بعض الهدوء :

— أراك لا تقرب •

— لا أستطيع • أنا مريض •

— مريض ؟ أجد ما تقول ؟ أمتد زمن طويل ؟ كيف مرضت ؟

هل تريد أن أقول لك ... أى طيب يعالجك ؟ هل تريد أن أخبر طبيينا ؟

سأذهب اليه بنفسى • انه حاذق جدا ...

لم يقل ياروسلاف ايلتش ذلك الا وكان قد تناول قبعته يهم أن

ينهض للبحث عن الطبيب •

قال أوردنوف :

— لا ... شكرا • ليس يعالجنى طيب ، أنا لا أحب الاطباء ...

قال ياروسلاف ايلتش متوسلا :

— ما هذا الذى تقول ؟ أهذا الكلام معقول ؟ ثم انه طيب حاذق

جدا ، منذ مدة ... اسمع لى أن أقص عليك هذا يا عزيزى فاسيلي

ميخائيلوفتش ... منذ مدة جاءه قفّال فقير ، فقال له : « لقد وُخزت

أصبعى بأداة من أدواتى ، فعالجنى واشفىنى » ، فلما رأى سيميون بافتوتتش

أن المسكين مهدد بالفنجرين قرر أن يبتز العضو المصاب • ففعل ذلك

بحضورى ... فعمله بحذق يبلغ من النبل ، أقصد يبلغ من المهارة اننى

أؤكد لك أن رؤية العملية كان يمكن أن تكون متعة كبيرة ، من قيل حب

الاطلاع على الأقل ، لولا ما يشعر به المرء من شفقة انسانية ... ولكن أين وكيف مرضت ؟

- مرضت على أثر تبديل مسكني ... ولم أنهض الا منذ قليل ...

- ولكنك ما تزال ضعيفا جدا ، وما كان ينبغي لك أن تخرج .
اذن لقد انتقلت من مسكنك القديم ؟ ولكن ما الذي دعاك الى ذلك ؟

- صاحبة البيت الذي كنت أسكنه غادرت بطرسبرج .

- دومتا سافيشنا ! أهذا ممكن ؟ يا لها من عجوز طيبة ، نبيلة حقا !
هل تعلم أنني كنت أشعر نحوها باحترام يشبه أن يكون احترام الابن
أمه ؟ كان في حياتها المنتهية شيء من تلك الروعة الباقية من زمان أسلافنا
القدامى ، فاذا نظر اليها المرء رأى ماضيها القديم يحيا مرة أخرى أمام
عينيه ، رآه بكل ما فيه من عظمة ! .. أقصد .. هل ترى .. شيء
شعري ...

بذلك ختم ياروسلاف ايلتش كلامه ، وقد اشتد خجله فجأة ،
واحمر وجهه حتى الأذنين .

- نعم لقد كانت امرأة شهمة .

- ولكن هل تسمح لي أن أعرف أين تسكن الآن ؟

- هنا .. غير بعيد .. في منزل كوشماروف *

- أعرفه .. شيخ مهيب . أستطيع أن أقول أنني أكاد أكون صديقه

المخلص . شيخ نبيل .

قال ياروسلاف ايلتش ذلك وهو يكاد يرتش فرحا وحنانا . وأمر

بكأس أخرى من الخمر ، وبغليون .

- لقد استأجرت شقة اذن ؟
- بل استأجرت غرفة •
- عند من ؟ لعلنى أعرف أيضا ...
- عند مورين ، شيخ طويل القامة •
- مورين ، مورين ... اسمح لى ... أهو ذلك الذى يسكن فى
الفناء الداخلى فوق صانع التوابيت ؟
- نعم ، نعم •
- أأنت مرتاح هنالك ؟
- لم أسكن الا منذ برهة قصيرة •
- "هيم" ... أردت فقط أن أقول ... هيم ... ألم تلاحظ شيئا
خاصا ؟
- لاحظت •
- أقصد ... أنا واثق أنك سترتاح اذا كنت راضيا عن مسكنك ..
- لم أقصد هذا ... ولكننى لمعرفتى بطبعك .. كيف وجدت هذا العجوز
البورجوازى ؟ ...
- يخيل الى أنه رجل مريض ...
- نعم ... مريض جدا ... ولكن ألم تلاحظ شيئا خاصا ؟ هل
كلمته ؟
- قليلا جدا ... انه لا يحب معاشره الناس كثيرا ... وهو سريع
التعب ...

- هيم ...

كذلك قال ياروسلاف ايلتش سادرا مفكرا • ثم أردف يقول بعد لحظة صمت :

- انه رجل تعيس شقى جدا •

- هو ؟

- نعم • تعيس شقى جدا • وهو فى الوقت نفسه غريب الاطوار ••
طريف كل الطرافة • على كل حال ، اذا كان لايزعجك ••• معذرة اذا
كنت أتكلم فى مثل هذا الموضوع ••• لقد نار حب الاستطلاع فى نفسى •
- الحق أنك أثرت فى نفسى حب الاستطلاع أيضا ••• وددت
لو أعرف من هذا الرجل ! ثم اننى أسكن فى بيته •••

- يقال انه كان فى الماضى على جانب كبير من الثراء • كان تاجرا ،
ولعلك سمعت عن ذلك • ولكنه فقد ثروته على أثر ظروف تيسرة
مختلفة : غرقت له بواخر أثناء عاصفة • وكان يملك مصنعا عهد بإدارته
الى قريب من أقربائه يحبه كثيرا ، فدمر المصنع بحريق ومات قريبه فى
الحريق • لا شك أنك تعترف أن هذه خسارات جسيمة رهبة ! وعندئذ
انهار مورين فيما يقال ، حتى أصبح الناس يخشون على عقله أن يذهب •
وبالفعل ، فانه أثناء مشاجرة قامت بينه وبين تاجر آخر يملك بواخر على
الفولجا أيضا تصرف فجأة تصرفا يبلغ من الغرابة والشذوذ أن الناس
عزوا ذلك الى جنون متأصل • وأنا أميل الى تصديق هذا أيضا • لقد
سمعت الناس يتحدثون عن غرائبه ••• وأخيرا حدث فى يوم من الأيام
شئ • يبلغ من الشذوذ أن المرء أصبح لا يستطيع أن يعلله الا بأن الرجل
قد أفقده القدر القاسى الحائق صوابه •

— ما الذى حدث ؟

— يقال انه أثناء نوبة جنون مرضى حاول قتل تاجر شاب كان يحبه حتى ذلك الحين حبا كبيرا • فلما تاب الى رشده بلغه هوله من فعلته انه أراد أن يتحرر • ذلك ما يروى على الأقل • لا أدري على وجه الدقة ماذا حدث بعد ذلك • ولكن من المحقق أنه عاش عدة سنين فى «العقوبة» * • ولكن ماذا بك يا فاسيلى ميخائيلوفتش ؟ ألم تتبك قصتى البسيطة هذه ؟

— لا ، لا ، أرجوك ••• تقول انه عاش معاقبا ••• ولكنه ليس وحيدا •••

— لا أعلم ••• يقال انه كان وحيدا ••• نعم لم يدخل أحد فى هذه القضية • على كل حال لم أسمع شيئا عما جرى بعد ذلك ••• ولكننى أعرف •••

— تعرف ماذا ؟

— أعرف أنه ••• ولكن ليس ثمة شيء ذو بال أضيفه ••• كل ما أريد أن أقوله هو أن عليك ، اذا لاحظت فيه شيئا غريبا يخرج عن المألوف ، أن لا ترد ذلك الا الى المصائب التى نزلت به واحدة بعد أخرى •••

— نعم ••• انه تقى ، بل هو مسرف فى التقوى •

— لا أظن ذلك يا فاسيلى ميخائيلوفتش ••• لقد تألم كثيرا ••• ويخيل الى أنه صافى القلب •••

— ولكنه ليس مجنوننا الآن ••• انه معافى •••

— نعم نعم ، هذا محقق ، أستطيع أن أؤكد أنه أحلف عليه •••

انه يتمتع بجميع ملكاته العقلية . كل ما هنالك أنه كما أشرت أنت الى ذلك عرضا غريب الأطوار جدا و ... متدين متعبد ... انه عاقل جدا ... حسن الكلام جرى القول ولا يخلو حديثه من مكر . وما تزال تلاحظ في وجهه آثار حياته الماضية المليئة بالعواصف والاعاصير . رجل طريف . وقد قرأ كثيرا .

- يبدو لي أنه يقرأ دائما كتباً مقدسة .

- نعم ، هو انسان متصوف .

- كيف ؟

- متصوف ... ولكنني أقول لك هذا سرا . واليك سرا آخر : لقد ظل هذا الرجل مراقبا مدة طويلة ... كان له سلطان كبير على من يجئون اليه .

- أى سلطان ؟

- لن تصدق ما سأرويهِ لك ... اسمع ... فى ذلك الوقت لم يكن يقطن فى هذا الحى ... جاء اليه فى يوم من الأيام ألكسندر اجناتيفتش ، وهو رجل محترم جدا ، على المقام ، ينعم باعتبار جميع الناس ، جاء اليه من قبيل حب الاطلاع ، مع رجل آخر هو ملازم فى الجيش . وصل الرجلان الى منزله ، فاستقبلهما فأخذ هذا الانسان الغريب ينظر اليهما باتباه شديد ، متفرسا فى وجهيهما . تلك عادته فى النظر الى الناس متفرسا فى الوجه اذا هو ارتضى أن يفيدهما فى شئ . أما اذا لم يرتض ذلك ، فانه يطرد زائريه ، بل يقال انه يطردهم شر طردة ، بغیر لباقة ولا أدب ولا تهذيب . سألهما : « ماذا تريدان أيها السيدان » ، فأجابه الكسندر اجناتيفتش بقوله : « موهبتك كفضيلة باطلاعتك على ما نريد

دون أن نذكره لك .» فقال : « ادخلا معي الى الغرفة الثانية » ، وهناك عين الشخص الذي كان في حاجة اليه . لم يقص ألكسندر اجناتيفتش على أحد ما جرى بعد ذلك . ولكنه خرج من منزل الرجل أبيض الوجه كمنديل ... وقد وقع هذا الأمر نفسه لسيدة عظيمة من المجتمع الراقى : خرجت من عنده تاجبة كأنها ميتة ، غارقة في دموعها ، مشدوهة العقل من تنبؤاته ومن فصاحة كلامه ...

— غريب ... ولكنه الآن لا يعنى بهذه الأمور ؟

— ممنوع منا باتا . هناك حالات خارقة تناقل الناس روايتها ... دخل عليه في يوم من الأيام شاب ضابط كان معقد رجاء أسرته الارستقراطية ومناطق أملها ومحل اعتزازها وافتخارها ، فلما ابتسم الشاب حين نظر الى الرجل ، قال له هذا غاضبا : « ما الذي يضحكك ؟ لن تمضي ثلاثة أيام الا وتكون هكذا ، قال ذلك مصالبا ذراعيه ، ممثلا بهذه الحركة شكل جثة ...

— وبعد ذلك ؟

— لا أجرؤ أن أصدق ما حدث ، ولكن يقال ان النبوءة تحققت ، فمات الشاب بعد ثلاثة أيام فعلا . انه يملك هذه الموهبة يا فاسيلي ميخائيلوفتش . أراك تبسم لقصتي . أنا أعلم أنك أثقف مني . ولكنني أؤمن بالأمر . ليس الرجل بدجال . ان بوشكين نفسه يتكلم عن شيء من هذا القبيل في كتبه .

— هم ... لا أحب أن أكذب ما تقول ...

— يخيّل الى أنك قلت منذ برهة انه لا يعيش وحيدا ؟

- لا أعلم ... أظن أن ابنته تعيش معه ...

- ابنته ؟

- نعم ، أو ربما زوجته • أعرف أن امرأة تعيش معه ... رأيتهما
عرضا ... ولكننى لم أنعم النظر •

- هم ... غريب •

عاد الفتى يفكر ساهما • ورفقت عواطف ياروسلاف ايلتش • تأثر
قلبه من لقيا صديق قديم ، ومن أنه قص على هذا الصديق القديم أمورا
شائقة بهذه الطريقة الجميلة • كان قاعدا على كرسيه يدخن غليونيه ولا
يحول نظره عن فاسيلي ميخائيلوفتش ، ولكنه انتفض فجأة ، وتهايا
للنهوض على عجل • قال :

- انقضت ساعة كاملة ، وأنا ناس ... مرة أخرى أشكر للحفظ
يا فاسيلي ميخائيلوفتش أنه جمعنا ، ولكن يجب على أن أذهب • هل تسمح
لى بأن أزورك فى منزلك الكريم ، منزل العلم والادب ؟

- سيكون هذا فضلا منك ... سيسعدنى هذا كثيرا • وسأجىء
إليك أنا أيضا متى استطعت ذلك •

- أهذا ممكن ؟ انك لتفدق على اذن فضلا لا نهاية له • لا تستطيع
أن تتصور مدى سرورى بلفياك •

خرج الرجلان من المطعم ، فرأيا سرجيف يقبل عليهما راكضا •
ثم يبلغ ياروسلاف ايلتش مسرعا أن فيليم ايميليانوفتش * سيمرُ نوا •
وفعلا ظهر فى الشارع فرسان يجران مركبة جميلة جدا ، ويجريان خيّا
ويلفت أحدهما النظر بروعة خاصة •

شد ياروسلاف ايلتشى على يد صديقه الحميم شداً قويا كما تشد
كلابه ، ورفع رأسه الى قبته فلامسها محبباً ، واندفع الى داخل العربة .
وفيما كانت العربة تسير به التفت مرتين الى وراء يسلم على أوردينوف
بحركة من رأسه .

كان أوردينوف يشعر بتعب شديد واعياء كبير فى جميع أعضائه حتى
ليكاد يعجز عن جر ساقيه . فلم يستطع أن يصل الى المنزل الا بعد لأى .
والتقى مرة أخرى عند مدخل المبنى بالبواب الذى كان قد راقب تحيات
الوداع بينه وبين ياروسلاف ايلتشى مراقبة دقيقة ، وأوماً الى الفتى من
بعيد ايماءة دعوة ، ولكن الفتى مرّ دون أن يتوقف . وعند باب المسكن،
اصطدم بشخص قصير القامة أشهب الشعر كان خارجاً من عند مورين
خافض العينين . فقفز الرجل جانبا بمرونة كبيرة بينما كان يدمم قائلاً :

— يارب يارب ، اغفر خطايى ، اعف عن ذنوبى يارب .

فقال أوردينوف :

— هل أذيتك ؟

— لا ... شكراً ... يا رب ، يا رب ...

هبط الرجل القصير على السلم ببطء وهو يتأوه ويدمدم بعض
الكلام بين أسنانه ؛ انه صاحب العمارة الذى يخشاه البواب تلك الخشبة
كلها . عندئذ فقط تذكر أوردينوف أنه كان قد رآه أول مرة هنا عند
مورين يوم انتقاله الى هذا المسكن .

كان أوردينوف يشعر باحتياج واضطراب . وكان يعلم أن خياله
واحساسه متوتران الى أقصى حدود التوتر ، فقرر أن لا يستمرسل فى
مشاعره ، وأن لا يركن اليها . وشيئا فشيئا هوى الى نوع من الحذر .

كان يجثم على صدره شعور اليم مقلق • وكان قلبه موجعا كانه جريح ،
وكانت نفسه تفيض بدموع مخنوقة لا ينضب معناها •

واردتمى من جديد على سريريه الذى كانت قد أعدته له كاترين ،
ومن جديد أخذ يتنصت مصيخا بسمعه مرهقا أذنيه • سمع تنفسين :
أحدهما شاق أليم مرضى متقطع ، والثانى رفيق هادى ، ولكنه متفاوت
مضطرب أيضا ؛ فكأن اندفاعا واحدا وهوى واحدا يحملان القلبين كليهما
على هذا الحلقان ، هناك فى الغرفة المجاورة • • وكان يسمع فى بعض
الاحيان حفيف ثوبها ، وانزلاق خطسواتها الرفيعة انزلاقا خفيفا ، بل
كان يسمع صوت قدمها يترجع فى قلبه عذابا أصم لكنه ممتع • وأحس
أخيرا أنه يسمع نشجات بكاء ، ثم أصوات صلاة من جديد • كان يعلم
انها الآن راکعة أمام الأيقونة ضامة ذراعيها احدهما الى الأخرى فى حزن
شديد ويأس رهيب • من هى هذه المرأة ؟ لمن تدعو الله ؟ أى هوى يأس
يبعث هذا الاضطراب فى قلبها ؟ لماذا يتألم قلبها هذا الألم كله ، لماذا
ينفجر دموعا محرقة يائسة الى هذه الدرجة ؟

وأخذ يستعيد ذكرى أقوالها • ان كل ما قالت له ما يزال يترجع
فى أذنيه ترجع موسيقى ؛ وان قلبه يستجيب لكل ذكرى ، لكل كلمة من
كلماتها التى رددتها على مسمعه كترتيل صلاة ، ان قلبه يستجيب لكل
هذا حبا قويا ، وخفقة صماء موجة أليمة • • • وفى لحظة من اللحظات
التمع فى ذهنه كل ما قد رآه فى الحلم • ولكن قلبه كله ارتجف حين
عاد الى خياله احساسه بأنفاسها الحارة وبكلماتها وبقبلتها • أغمض أودينوف
عينه ، واستسلم للنسيان • • • دقت ساعة فى مكان ما • • • لقد انقضى زمن
طويل • • • الليل يهبط •

وفجأة خيل اليه أنها تميل عليه من جديد ، انها تنظر الى عينيه

عينها العذبتين الوضائتين كقبة السماء اللانهائية فى ساعة المظهر الدافئة •
ان وجهها ينيره هدوء رائع ، وان ابتسامتها تشيع فى نفسه سعادة كبيرة ،
وانها تميل على كتفه بعطف عظيم ، فما يملك لهذا كله الا أن تخرج من
صدره الموهن أنه سعادة •

كانت تريد أن تكلمه • وها هى ذى تسرُّ اليه بأمر ما ، حانية عليه
متلطفة معه ... فتترجع فى أذنيه موسيقى نافذة مؤثرة من جديد ،
ويتنفس صدره الهواء الدافئ الذى تلهبه أنفاسها القريبة ، يتنفسه بشراهة
ونهم • وها هو ذا يمد يديه قلقلًا ويتأوه ويفتح عينيه •

كانت كاترين أمامه حقًا ، ماثلة على وجهه ، شاحبة اللون هلعا ،
غارقة فى دموعها ، مرتجفة أشد الارتجاف من فرط الانفصال • وكانت
تقول له شيئًا ما ، ضارعة اليه وهى تضم يديها وتعضهما • أخذها بين
ذراعيه • فلبثت على صدره وجسمها كله يرتعش •

الفصل الثاني

١



أورد بنوف وقد صحا صبحوا تاما وما يزال يضمها
بين ذراعيه الملتهمين ضما قويا :
- ماذا هنالك ؟ ماذا بك ؟ ماذا بك يا كاترين ؟
ماذا بك يا حيتي ؟

كانت تنسج في رفق ، غاضة طرفها ، مخبئة وجهها المحترق في
صدر القى • وليت على هذه الحال زما طويلا لا تستطيع أن تكلم ،
وترتجف كأنها خائفة •

قالت أخيرا بصوت ضعيف لا يكاد يُسمع :

- لا أدري •

كانت تَحْتَقِق ، ولا تكاد تقوى على التطق بهذه الكلمات •

وأضافت :

— لا أدري كيف جئت الى هنا ، الى عندك •

وشدت جسمها اليه بمزيد من القوة ؛ وكأن عاطفة لا سبيل الى مقاومتها قد هزتها هزا قويا ، فاذا هي تقبل كتفيه ، وذراعيه ، وصدره • وأحست أخيرا بانهايار ، فخبأت وجهها فى يديها ، وأسقطت رأسها على ركبتيها •

فلما استطاع أوردينوف ، وقد استبد به قلق شديد ، أن ينهضها وأن يجلسها قربه ، كان وجهها يحترق خجلا وحياء ، وكانت عينها تضرعان ملتصتين العفو والصفح ، وكانت البسمة التى تبدو ضعيفة على شفتيها تحاول أن تغالب القوة الهائلة التى لاسيل الى مغالبتها ، قوة شعورها الجديد • ولاح عليها مرة أخرى أنها خائفة من شيء ما : فها هي ذى تدفعه عنه بيدها ، ولا تكاد تنظر اليه ، وتجنب على أسئلته ، خافضة الرأس ، بكلمات متقطعة ، وهمس وجل •

سألها أوردينوف :

— أتراك رأيت فى نومك حلما ثقيلا ، أو رؤيا مفزعة ؟ قولى ...
هل هو أفزعك ؟ ... انه يهذى ، انه لا يملك عقله ... أترأه قال أشياء ما كان ينبغى أن تسمعها ؟ ... هل قال شيئا من هذا القليل ؟
نعم ؟

أجابت كاترين وهى تكبح انفعالها بكثير من الجهد والعنف :

— لا ... لم أتم ... لم أستطع الى النوم سيلا • وضمت هو طول الوقت • لم ينادنى الا مرة واحدة • اقتربت منه • ناديته • لم يسمنى •

- حالته سيئة جدا • أعانه الله • وعندئذ استبد به قلق شديد، قلق رهيب •
- صليت طول الوقت ، صليت بلا توقف ، ثم فجأة ذهلت عن نفسي •••
- كفى يا كاترين ، كفى يا حياتي ••• أمس انما اعتراك الخوف •
- لا لم أخف أمس •
- أ يحدث هذا أحيانا •
- نعم يحدث •

كانت ترتجف من قمة رأسها الى أخمص قدميها ، وراودها الهلع والفرع من جديد ، فشدت نفسها اليه كطفل •

قالت وهى تعبس تشجياتها :

– هأت ذا ترى اذن أنتى لم أجيء اليك بغير سبب •

ثم ردّدت تقول وهى تصافحه عرفانا بالجميل :

- لم يصعب علىّ أن أبقي هناك وحدى الا لسبب • كفاك سكب الدموع حزنا على شقاء الآخرين • احتفظ بدموعك ليوم تعذب فيه وحدك ، ليوم لا يكون معك فيه أحد • اسمع ••• هل سبق أن أحيت ؟
- لا ••• لم أحب قبلك ؟
- قبلى ؟ وتنادينى حبيبتك ؟

قالت ذلك وهى تنظر اليه مدهوشة على حين فجأة • وأرادت أن تقول شيئا ، لكنها صمتت وغضت طرفها • ثم احمر وجهها بغثة ، ومن خلال الدموع التى ما تزال حارة ، الدموع المتسبة على أهدابها ، سطعت عيناها • كان واضحا أن هناك سؤالا يحرك شفقتها • نظرت اليه مرتين، نظرة مأكرة ، ثم خفضت عينها فجأة من جديد • قالت :

- لا ... لا يمكن أن أكون أول حب لك •

ثم رددت تقول وهى تهز رأسها ساهمة ، بينما كانت تضىء وجهها
ابتهامة جديدة :

- لا .. لا ..

وقالت أخيرا وهى تنفجر ضاحكة :

- لا ... لست من يمكن أن تكون حبيبك !

ثم نظرت اليه • غير أن حزنا رهيبا قد طاف بوجهها عندئذ على حين
فجأة ، وخوفا يائسا قد ارتسم على جميع قسماها ، فشمز أوردينوف بشفقة
غريبة ، شفقة لا تفهم ، شفقة مرضية ، شعر بعطف قوى على شقاء
مجهول ؟ وبعباب لا يغالب نظر إليها • قالت بصوت يضىء الى القلب ،
وهى تشد على يدي أوردينوف بين يديها ، وتحاول أن تخلق نشجاتها :

- اسمع ما سأقوله لك • اسمع جيدا • اسمع يا فرحتى ! سيطر
على قلبك ، وكف عن حبي اذا كنت تحبني الآن • ذلك خير لك • فان
استطعت أن تكف عن حبي أصبح قلبك أخف وأفرح ، وتحاشيت عدوا
رهيبا ، وكسبت أختا حنونا • سأتى اليك ان شئت • وسأدعبك ، ولن
أخجل من البقاء قربك • لقد بقيت قربك يومين حين كنت مريضا جدا !
فاتخذني أختا • لقد دعوت لك العذراء دعاء حارا ، وما فعلت هذا عبثا ؟
لن تجد أختا أخرى مثلى • لو طفت الكون بأسره ، فلن تجد حبا كحبي ،
اذا كان قلبك ينشد الحب • سأحبك بقلبي كله ، كما أحبك الآن ،
وسأحبك لأن روحك صافية ، مضيئة ، شفافة ، لأننى حين نظرت اليك
أول مرة ، رأيت فيك على الفور نزيل مسكنى ، النزيل الذى أريده ،
فليس من باب المصادفة أنك جئت إلينا • أحبك لأن عينيك محين متظران ،

تجبان وتخطبان من أعماق قلبك • وحين تخطبني عينك أدرك فوراً كل ما تفكر فيه وكل ما يجول في خاطرك • لذلك أريد أن أهب لجسك حياتي وحرיתי • لسوف يحلو لي أن أكون عبدة من وقع عليه قلبى ••• ولكن حياتي ليست لي • انها لانسان آخر ، وحرיתי سجينه • ولكن أقبلي أختا ، كن أختي ، خذني لقلبك متى استبد بي الخوف والقلق من جديد • افعل ما من شأنه أن لا يجعلني أخجل من المجيء اليك والبقاء قربك ليلة طويلة • هل سمعتي ؟ هل فتحت لي قلبك ؟ هل فهم عقلك ما قلته لك ؟

وأرادت أن تقول شيئاً آخر أيضا • ولكنها نظرت اليه ، ووضعت يدها على كتفه ، ثم ارتمت على صدره مهددة القوى • توقف صوتها في شجرات محبومة ولهي • ان صدرها يملو ناهدا ، وان وجهها يصطنع بحمرة كحمرة الشفق عند غروب الشمس •

دمدم أوردينوف يقول وهو يشعر بفشاوة تحجب عينيه ، ويحس بأنفاسه تتوقف :

— حياتي •••

واذ أصبح لا يعرف ماذا يقول ، ولا يفهم ماذا يقول ، واذ أصبح يرتجف مخافة أن يدمر بنسمة هذا الذي يحدث له فيحسبه رؤيا أكثر مما يحسبه واقعا من فرط ما أصبحت الأمور غامضة مبهمة أمام بصره ، قال :

— فرحتي ••• لا أعرف ••• أنا لا أفهمك ••• لا أتذكر ما قلته منذ هنية • عثلي أظلم • قلبى يتألم ••• مليكتي •••

وخفق الهياج صوته • شدت جسمها الى جسمه بمزيد من القوة • نهض • فقد صبره • سقط على ركبتيه محطما طائش اللب من الانفعال •

وانطلقت من صدره أخيرا نشجات • ان صوته الذى يصدر من القلب
رأسا ، يهتز اهتزاز جبل على مدى حماسة عظيمة وحب مجهول • قال
وهو يحاول أن يخفق نشجاته :

— من أنت ؟ من أنت أيتها الحبيبة الغالية ؟ من أين جئت يا حمامتى ؟
من أى سماء هبطت ؟ لكأن حلما يلفنى ، فما أستطيع أن أصدق وجودك
•• لا تلومينى •• دعينى أتكلم •• منذ مدة طويلة أريد أن أتكلم ••
من أنت ؟ من أنت يا فرحتى ؟ كيف وقعت على قلبى ؟ قولى ••• أأنت
أختى منذ زمن طويل ؟ قصى على كل شئ عنك • أين كنت الى هذا
اليوم ؟ قولى لى ما اسم المكان الذى عشت فيه • ما الذى أحبيته هنالك ؟
بماذا كنت سعيدة ، وما الذى كان يجعلك حزينة ؟ أكان الهواء دافئا ثم ؟
أكانت السماء صافية ؟ ••• ما هى الموجودات التى كانت حبيبة الى قلبك ،
أثيرة فى نفسك ؟ من أجبك قبلى ؟ الى من اتجهت نفسك هنالك أول
ما اتجهت ؟ أكانت أمك معك ؟ أكانت هى التى تهدهدك وتلاعبك وتداعبك
حين كنت طفلة ؟ بماذا كنت تحلمين ؟ فيم كنت تفكرين ؟ ما هى أحلامك
التي تحققت ، وما هى أحلامك الأخرى ؟ قولى لى كل شئ ••• من هو
الانسان الذى خفق له قلبك البكر أول ما خفق ؟ من هو الانسان الذى
وهبت قلبك أول ما وهبت قلبك ؟ قولى لى ••• ما هو العطاء الذى يجب
أن أقابل به عطاءك قلبك ؟ تكلمى يا حبيبتي الغالية ، يا ضيائي ، يا أختى !
قولى لى كيف أستطيع أن أستحق حبك ؟

توقف صوته من جديد ، وخفض رأسه • ولكنه حين رفع عينيه
تجمد هولاء ورعبا ، وانتصب شعر رأسه هلما وجزعا •

كانت كاترين قاعدة ، شاحبة الوجه كميت •

انها ساكنة جامدة ، شاخصة بصرها الى الفضاء • شفتاها مزرقتان

كشفتى جثة ، وعيناها تفيضان بألم أخرس رهيب • وها هي ذى تنهض
ببطء ، فتخطو بضع خطوات ، ثم ينطلق من صدرها نجيب حاد ، وتسقط
أمام الأيقونة ••• ان كلمات موجزة ، مضطربة ، تخرج من بين شفتيها •
وأغمى عليها • فأسرع أوردينوف ينهضها مروعا ، ويرقدها على السرير •
لبث واقفا أمامها لا يتذكر شيئا • وبعد دقيقة فتحت عينها ، وجلست على
السرير ، ونظرت حولها ، وأمسكت يد أوردينوف • جذبته نحوها ،
تمتعت بشيء بين شفتيها الصفراوين ، ولكن صوتها لم يسعفها • وأخيرا
تدفقت دموعها غزيرة تحرق يد أوردينوف الباردة كالثلج • وأخيرا قالت
هلعنة :

— ما أشد هذا الألم ••• ما أشده ! •• حانت ساعتى الأخيرة •

أرادت أن تقول شيئا آخر ، ولكن لسانها لم يطاوعها • كانت عاجزة
عن النطق بكلمة واحدة • انها تنظر يائسة الى أوردينوف الذى لا يفهمها •
مال أوردينوف عليها ، ازداد دنوا منها ، أصفى اليها ، فسمعها تنطق بهذه
الكلمات واضحة :

— أنا مسحورة •• سحرونى •• ضيعونى ••

رفع أوردينوف رأسه ونظر اليها مدهوشا • ان فكرة فظيعة تبرز
فى رأسه • رأت كاترين تقبض وجهه • أردفت تقول :

— نعم سحرونى • رجل شرير سحرونى •• انه هو • هو قاتلى •
لقد بعته نفسى •• لماذا ، لماذا تكلمت عن أبى ؟ لماذا أردت أن تعذبنى ؟
جازاك الله !

وبعد برهة أخذت تبكى فى رفق • ان قلب أوردينوف يخفق خفقانا
قويا ، ويعانى قلعا قاتلا :

همست تقول بصوت محبوس ، عجيب :

- يقول انه سيأتى يأخذ روحى اذا مات ... اتى له • لقد يعث
نفسى • عذبنى • قرأ فى الكتب • انظر ... هذا كتابه • اليك كتابه •
يقول اتنى ارتكبت اثما قاتلا .. انظر .. انظر ..

آشارت الى كتاب • لم يكن أوردينوف قد لاحظ الكتاب ، ولا عرف
كيف وجد فى هذا المكان • تناول الكتاب بحركة اليه • هو كتاب من
طراز الكتب القديمة التى يقرؤها فداسى المؤمنين والتى أتبع له ان يرى
مثلها قبل الآن • ولكن أوردينوف لا يستطيع الآن أن ينظر • ان اتباهه
منصرف الى شيء آخر اتصرفا كاملا • سقط الكتاب من بين يديه • ضم
كترين ضمنا رفيقا ، محاولا أن يردّها الى صوابها • قال لها :

- كفى كفى ... لقد روعوك • أنا مملكت • تقى بى ، يا حبيبتى
الغالية ، يا ضيائى ...

قالت وهى تشد على يديه شداً قويا :

- أنت لا تعرف شيئا ، لا تعرف شيئا • أنا دائما هكذا ... خائفة
من كل شيء •

ثم قالت بعد لحظة ، وهى تلهث لهاثا شديدا :

- حسبك ، حسبك ، لا تعذبني مزيدا من التعذيب ، والا ذهبت
اليه • انه كثيرا ما يخيفنى بأقواله ... أحيانا يتناول كتابا ، هو أكبر
الكتب ، ويأخذ يقرأ الى فيه ... انه يقرأ دائما أشياء قاسية جدا ، أشياء
رهبة فظيمة ! لا أعرف ماذا يقرأ ، لا أفهم جميع الكلمات ، ولكن الخوف
يعتربنى ؟ وحين أسمع صوته ، فكأنه ليس هو الذى يقرأ ، بل شخص

شرير لا سبيل الى ترويضه ، ولا يمكن تأنيسه وتلطيفه • عندئذ ينقبض
قلبي حزناً ••• عندئذ يحترق قلبي ••• شئ مروع ، فطبع ! •••

قال أوردنوف وهو لا يكاد يفهم كلماتها :

- لا تذهبي اليه ! لماذا تذهبين اليه ؟

- لماذا جئت اليك ؟ اسأل هذا السؤال •• أنا نفسي لا أعرف • وهو
يقول لي طول الوقت : « صلى لله ، صلى » أحياناً انهض في الليل المظلم
البهيم ، فاصلي مدة طويلة ، ساعات كاملة • وكثيراً ما أكون نسي ولكن
الخوف يمنعني من النوم فاضل يقظي ، ويخيل الى عندئذ أن الساعة
تهياً حولي ، أن هذا سيحمل الى الأذى ، أن الأشرار سيمزقوني ،
سيقتلونني ، أن القديسين لن يسمعوا صلواتي وضراعاتي ، وأنهم لن
ينقذوني من العذاب الرهيب ••• نفسي تنهشم ، كأن الجسم كله يريد
أن ينوب دموعاً ••• أستأنف الصلاة ، وأظل أصلي الى أن تنظر الى
السيدة العذراء - في الأيقونة - بشئ من الحنان • وأنا مأجناً أحياناً على
الأرض ، ساجدة أمام الأيقونة • ولكن يحدث أيضاً أن يستيقظ ، فيناديني ،
ويأخذ يلامسني ويواسيني ، فأشعر عندئذ بتحسن ، وأصبح خفيفة فرحة
قادرة على احتمال أى شقاء • متى كنت معه ، لا أشعر بخوف • كلامه
عظيم •

سألها أوردنوف وهو يعرض على يديه المأ ويأساً •

- ولكن ما هو الشقاء الذي ألم بك ؟

امتقع لون كاترين امتقاعاً رهيباً • نظرت اليه نظرة من حكم عليه
بالاعدام ولا أمل له في عفو • قالت :

- الشقاء الذي ألم بي أنا ؟ أنا ابنة لمتتها أمها ••• أنا أمت أمي •

أحاطها أوردنوف بذراعيه دون أن ينبس بكلمة •
شدت جسمها اليه • شعر بقشعريرة تسرى فى جسم المرأة الشابة
وخيل اليه أن روحها تنفصل عن جسدها •
قالت مضطربة الذكريات ناظرة الى ماضيها :

— لقد دفتها ... أردت أن أتكلم منذ مدة طويلة • ولكنه يمنعنى
من الكلام بالصلوات ، والملاحظات ، والتهديدات ... وفى بعض الاحيان
يضرم هو نفسه خوفاً كما يمكن أن يفعل أعدى عدو لى ... والآن
توافينى هذه الأفكار كلها فى الليل ... اسمع ، اسمع ... حدث ذلك
منذ زمن بعيد ، بعيد جدا • أصبحت لا أتذكر الآن متى حدث ، ولكن
كأنه حدث أسس ... كأنه حلم رأيته أسس فكان يأكل قلبى • والقلق
يضاعف طول الزمان ... اجلس هنا ، اجلس قربي ، فسأقص عليك
قصة ألى كله • لا يهمنى أنتى لُعننت ... سوف أروى لك حياتى كلها •

أراد أوردنوف أن يمنعها من ذلك ، ولكنها ضمت يدها احديهما
الى الأخرى ضارعة اليه أن يسمع كلامها • ثم أخذت تتحدث من جديد ،
باضطراب ما ينفك يزداد • قصتها مفتة • فى أقوالها تهمهم عاصفة
نفسها • ولكن أوردنوف كان يفهم كل شىء ، لأن حياتها كانت قد أصبحت
حياته ولأن ألىها كان قد أصبح ألىه ، ولأن عدوه كان قد انتصب أمامه ،
يضخّم فى عينيه عند كل كلمة جديدة تقولها ، ويجثم على قلبه بقوة كأنها
لا تنضب ، ضاحكا من غضبه ، مستهزئا بخنقه • كان دمه يزدحم فى
قلبه ، ويعتم أفكاره • ان الشيخ الشرير الذى رآه فى المنام (كان
أوردنوف يعتقد أنه رآه فى المنام) هو الآن أمامه فعلا •

بدأت كاترين كلامها :

« كان ذلك فى ليلة تشبه هذه الليلة لكنها أعصف منها • الريح تهب فى العابة هبوبا لم أشهد مثله حتى الآن •• أو لعلى أظن ذلك لأن تلك الليلة هى الليلة التى تم فيها ضياعى ! •• تحت نافذتى تحطمت شجرة سنديان •• لقد أكد لنا شحاذ ، وهو شيخ أبيض الشعر تماما كان يأتى الينا ، أنه رأى هذه الشجرة حين كان طفلا ، وأنها كانت فى ذلك الحين لا تقل ضخامة منها يوم حطمتها الريح ••

« وفى تلك الليلة نفسها - انتهى أتذكر كل شئ كأنه حدث بالامس - حطمت العاصفة سفن أبى ، فذهب أبى الى الشاطئ فوراً ، رغم انه كان مريضاً ، منذ هرع الصيادون يلفونه النبا عندنا فى المصنع • بقينا أنا وأمى وحدنا • كنت وسنى •• وكنت حزينة أبكى بكاء مرا •• أعرف لماذا ••• كانت أمى قد مرضت منذ قليل ، وكانت شاحبة الوجه ، وكانت تردد على مسامعى فى كل لحظة ان على أن أهيب لها كفنها • وفجأة طرق باب منزلنا • قفرت من مكانى • ازدحم الدم فى قلبى • صرخت أمى •• لم أنظر اليها •• كنت خائفة • حملت المصباح ، ومضيت افتح الباب بنفسى •• كان هو • خفت • كنت دائماً أخاف حين يأتى الينا • كان ذلك شأنى منذ أبعد عهد أتذكره من طفولتى •• ولم يكن شعره أبيض فى ذلك الحين • كانت لحيته سوداء كالقار ، وكانت عيناه تلمعان لمعان الفحم ، ولم ينظر الى نظرة حنان مرة واحدة •• سألتى هل أمى فى البيت • أغلقت الباب ، وأجبت بآن أبى ليس فى البيت • قال : « أعرف » ، ونظر الى على حين فجأة نظرة خاصة • تلك أول مرة ينظر الى فيها هكذا • انصرفت • ظل ساكناً لا يتحرك • قلت لنفسى : « لماذا لا يجىء ؟ » • ودخلنا الغرفة • سألتى : « لماذا أجبتنى بأن أباك ليس فى المنزل حين سألتك هل أمك فى المنزل ؟ » • صمت •

« كانت أمى فى دعر • ارتمت عليه ••• لم يكن ينظر اليها • كنت

أرى كل شيء • كان مبللا يرتجف • لقد لاحقته العاصفة عشرين فرسخا •
من أين كان آتيا ؟ لم تكن نعرف ذلك ، لا أنا ولا أمي • اتنا لم نره منذ
تسعة أسابيع • خلع طاقيته ونزع قفازيه • لم يصل للأيقونات ، ولا حيا
أهل المنزل ••• فقد قرب النار •••

أمرت كاترين يدها على وجهها كأن شيئا كان يخفها • ولكنها
رفعت رأسها بعد دقيقة وتابعت تروى قصتها :

« اخذ يكلم امي ، باللغة السرية • كانت امي تعرف هذه اللغة •
أما أنا فلم أفهم كلمة واحدة • كانا في بعض الاحيان يصرفاني اذا جاء
••• أما الآن فان امي لم تجرؤ ان تقول شيئا لابتها • الشيطان يشتري
نفسى ، وانا انظر الى امي مسرورة • رأيت أنهما ينظران الى ، انهما
يتحدثان عني ••• أخذت أمي تبكي ••• أمسك سكينه • سبق أن
حدث عدة مرات أن أمسك سكينه أثناء مخاطبته أمي • نهضت وتشبثت
بحزامه • كنت أريد أن أنتزع من يده السكين • صر بأسنانه ، وصرخ ،
وأراد أن يدفعني عنه ••• لطمني على صدرى ، ولكننى لم أراجع •
قدرت أننى سأموت فى مكانى ••• غشيت عيني سحابة • سقطت على
الأرض دون أن أقول كلمة واحدة ••• ونظرت ما وسعنى أن أنظر وأنا
على هذه الحال ••• خلع حزامه ، وشمر كم اليد التى لطمنى بها ، وتناول
السكين فأعطانيها ، وقال لى : « ابترى يدي ، افعل ما تشائين ، ما دمت
قد أسأت اليك ، وأنا ، أنا المتكبر ، سوف أخرج ساجدا أمامك ••• أعدت
السكين الى غمدها ••• كنت أختنق ••• أبيت حتى أن أنظر اليه •
أذكر أننى تبسمت دون أن أباعد شفتى ، وأننى ألقيت نظرة قاسية على
عيني أمي الحزبتين ••• كانت أمي جالسة ، شاحبة الوجه كهيئة •••»
كان أوردينوف يصفى باتباء شديد الى هذه القصة المشوشة • وشيئا

فشيئا تبدا اضطراب كاترين . أصبح تدفق كلامها أهدأ . كانت الذكريات تستدرج المخلوقة البائسة ، وتبتر قلقها على صفحة الماضي العريض .

• تناول طاقيته وخرج دون ان يحس . حملت الصباح من جديد لأرافقه ، بدلا من أمي التي أرادت أن تشيعه برغم انها مريضة . وصلنا الى الباب الخارجى . كنت صامتا . فتح الباب وطررد الكلاب . نظرت اليه . خلع طاقينه وانحنى أمامى انحناء كبيرا . رأيته بعد ذلك يضع يده فى جيب صدرته فيخرج منها علبة صغيرة مفروشة بمخمل أحمر . فتح العلبة . نظرت . انها لآلىء ضسخة . قسم الى اللآلىء قائلا : « لى جبلة غير بعيدة من هنا . كنت أحمل هذه اللآلىء اليها ، ولكنى لن أعطيها اياها . خذها أنت يا حلوتى ، زينى بها جمالك ؟ أو اسحقها بقدميك اذا شئت ، ولكن خذها » . أخذت اللآلىء . ولكنى لم أسحقها بقدمى . تناولتها تناول حية ، دون أن أعرف لماذا تناولتها . عدت الى الغرفة ، ووضعت اللآلىء على المائدة أمام أمى .

• لبست أمى برهة لا تنطق بكلمة ، شاحبة شحوبا شديدا ، كأنها تخشى أن تكلمنى . ثم قالت : « ما هذا يا صغيرتى كاترين ؟ » ، فأجبتها : « لك انما جاء هذا التاجر بها . . . أنا لا أدري . . . » . نظرت اليها . أجهشت باكية . قالت : « لا . . . ليست لى يا كاترين ، ليست لى أينها البنت الشريرة . ليست لى . . . ما زلت أتذكر مدى الحزن الذى لاح فى وجهها وهى تنطق بهذه الكلمات . لكان قلبها كان يطمئن طمنا . رفعت عيني . . . أردت أن أرتدى على قنعيها . ولكن الشيطان وسوس لى فجأة أن أقول : « اذا لم تكن لك ، فلعلها اذن لأبى . سأعطيها اياها متى عاد . سأقول له ان تجارا جاءوا الى هنا وتركوا هذه البضاعة . . . » . عندئذ أجهشت أمى باكية متعجبة ، وقالت : « سأذكر له بنفسى من هم التجار

الذين جاءوا الى هنا ، ومن أجل أية بضاعة جاءوا ... سأقول له من أنت يا ابنة الزنا ! ... ما أنت بنتى بعد الآن ! أنت أفعى ! أنت ابنة لعنتها أمها ! » . سكت . كانت عيناى بلا دموع ، كان كل شيء قد مات فى نفسى ! ذهبت الى غرفتى ، ولبثت الليل كله أنصت الى العاصفة وأفكر ...

انقضت خمسة أيام . وفى مساء اليوم الخامس وصل أبى ، مقطب الحاجبين ، حائق الوجه . ولكن المرض كان قد حطمه فى أثناء الطريق . نظرت فرأيت ذراعه مضمة . فهمت ان عدوه قد لقيه فى طريقه . وأنا أعرف ماذا كان عدوه . كنت أعرف كل شيء . لم يقل لأمى شيئا . لم يسأل عنى . واستدعى جميع العمال . أمرهم بوقف العمل فى المصنع ، وبان يحرسوا المنزل من العين الخبيثة . قال لى قلبى فى تلك اللحظة ان نازلة تهدد منزلنا . لبثنا ننتظر . انقضى الليل . ليلة أخرى تملؤها الصواعق . كان الاضطراب يغزو قلبى . فتحت نافذتى . كان وجهى يحترق ، وكانت عيناى تفيضان دموعا ، وكان قلبى يشتعل بنار . كان جسمى كله أشبه بجمرة . كنت أود لو أمضى الى بعيد ، الى آخر العالم ، الى حيث تولد الصاعقة . ان صدرى يتفتح ... وفجأة ، فى ساعة متأخرة ، بينما كنت نائمة ، أو قل غافية نصف اغفاء ، سمعت طرقا على نافذتى وصوتا يهتف : « افتحى . » . نظرت . ان رجلا قد تسلق بواسطة جبل حتى وصل الى نافذتى . عرفته فورا . فتحت النافذة وتركت له أن يدخل غرفتى . انه هو . لم ينزع طاقته . جلس على مقعد من المقاعد ، يلهث لهاثا قويا ، ولا يكاد يستطيع أن يتنفس ، كأن أحدا كان يطارد . لطوت فى ركن . أحسست أن وجهى يشحب ...

قال : « هل الأب فى البيت ؟ » قلت : « نعم » . قال : « والام ؟ » ،

قلت « والأُم أيضا • » • قال : « اسكتي الآن • هل تسمعين ؟ » قلت :
« أسمع • » • قال « ماذا تسمعين ؟ » قلت : « الريح تحت النافذة • » • قال :
« طيب يا جميلتي ، هل تريدان أن تقتلي عدوك ، أن تنادي أباك ، أن
ترهقي روحي ؟ أنا أخضع لمشيتك • اليك هذا الحبل ، فأوثقيني به ، إذا
كان قلبك يهيب بك أن تنتقمي للإساءة • » • سكت • قال : « هلا تكلمت
يا فرحتي ؟ » • قلت : « ماذا يجب ؟ • • • » • قال : « يجب عليّ أن أبعاد
عدوي ، وأن أودع حبيتي القديمة ، وأن أنحنى لك أنت أيتها الفتاة
انحناء كبيرا من قبيل التحية • • • » • أخذت أضحك ، ولا أدري أنا نفسي
كيف نفذت هذه الكلمات الموبوءة الى قلبي • • • • قال : « دعيني اذن
يا جميلتي أنزل الى تحت وأحيي رب المنزل » • ارتعشت من قمة رأسي
الى أخمص قدمي ، واصطلكت أسناني ، واشتعل قلبي نارا • • • مضيت
أفتح الباب ، وأدع له أن يدخل البيت • ولكنني قلت عند العتبة : « استرد
لأثك ، ولا تُهد الى شيئا بعد الآن » • ورميت له العلبه الصغيره • • •
توقفت كاترين عن الكلام لتتنفس قليلا • كانت ثارة ترتعش
وتسحب ، وثارة يزدحم الدم في وجنتيها • ففي اللحظة التي توقفت فيها
عن الكلام كان وجهها مشتعلا ، وكانت عيناها تلتصقان من خلال الدموع ،
وكانت أنفاسها الثقيلة ترعش صدرها • ولكنها لم تلبث أن اصفرت فجأة ،
ثم استأنفت تقول بصوت يفيض حزنا :

« لبثت عندئذ وحدي ، وكنت أحس أن العاصفة تهمهم حولي • • •
وفجأة سمعت صرخات • • • ان عمال المصنع يركضون في الفناء • • •
ويصيحون : « المصنع يحترق » • اختبأت في ركن • هرب الجميع من
المنزل • • • بقيت وحيدة مع أمي • كنت أعرف أن الحياة تغادرها : انها
راقدة على فراش الموت منذ ثلاثة أيام • كنت أعلم ذلك ، أنا البنت التي

لعتها أمها ! وانطلقت فى غرفتى على حين بفتة صرخة ضعيفة ، كصرخة
طفل يخاف من الليل . ثم هداً كل شيء . نفخت على الشمعة . كنت
متجمدة كالجليد . خبأت وجهى فى يدى . خفت أن أنظر . وفجأة
سمعت صرخة على مقربة منى . كان أناس يهرعون من المصنع . ملت
من على النافذة رأيت أبى ميتا يحملونه الى البيت . وسمعت الناس
يقولون : « لقد سقط من السلم فى مرجل الماء الغالى ، كأن الشيطان دفعه
اليه ! » . شددت جسمى الى السرير . انتظرت . لا أدري من انتظرت ،
لا أدري ماذا انتظرت . أتذكر الآن أن رأسى أصبح ثقيلًا عندئذ دفعة
واحدة . وكان الدخان يخز عيني ، فيسعدنى أن ضياعى أصبح قريباً .
وفجأة شعرت بأن أحداً ينهضنى من كنفى نظرت ما أمكننى أن
انظر انه هو ! انه محترق . ثيابه ساخنة ، تفوح منها رائحة الدخان .
قال : « جئت آخذك يا جميلتى . فقدت روحى من أجلك ، فى سبيلك .
مهما أصلت ، فلن تخفر لى هذه الليلة الملعونة ، اللهم الا اذا صلينا معا ! » .
وضحك ، ضحك الملعون ! قال : « دلينى على الطريق الذى يمكن أن
نخرج منه دون أن يرانا أحد . أمسكت يده ، وقדתه . اجتزنا الدهليز .
كانت المفاتيح معى . فتحت الباب الاحتياطى ، ودلته على النافذة . ان
النافذة تطل على الحديقة . تناولنى بذراعيه القويتين ووثب من النافذة
... أخذنا نركض . ركضنا مدة طويلة . لمحا غابة كثيفة مظلمة . . .
أصاح بسمعه . قال : « انهم يلاحقوننا يا كاترين . انهم يطاردوننا ! انهم
يطاردوننا يا جميلتى ؟ ولكن ليس هذا أو ان الاستسلام . قبلينى فى سبيل
الحب الأبدى ، والسعادة الأبدية ! » . قلت له : « لماذا فى يدك دم ؟ »
قال : « دم ؟ يا عزيزتى لأننى قتلت الكلاب التى كانت تتبع . هيا
بنا . » . واستأنفنا الركض . وفجأة رأينا فى الطريق حصان أبى . كان
الحصان قد انتزع رسنه وهرب من الاسطبل لينجو من المهب . قال :

« اركبى معى يا كاترين ، لقد أرسل الله إلينا نجدة ! » • صمت • قال :
« ألا تريدین ؟ أنا لست وثياً ، ولا شيطاناً ، سأرسم إشارة الصليب اذا
شئت • • • رسم على نفسه إشارة الصليب • جلست على الحصان ، واذ
شدت جسمى الى جسمه ، ذهلت عن نفسى على صدره ، فكأنتى فى
حلم • • • حتى اذا ثبت الى رشدى ، كنا قد اصبحنا قرب نهر عريض ،
عريض • • • أنزلنى عن ظهر الحصان ، ثم ترجل ، ومضى نحو شجيرات
القصب على شاطئ النهر • كان قد أخفى هنالك قاربه • قال : « وداعا
يا حصانى الشجاع ، ابحت لنفسك الآن عن صاحب آخر • أصحابك
القدامى تركوك • • • ارتمت على حصان أبى أقبه بخان • ثم ركبنا
القارب • تناول المجذافين ، فسرعان ما غاب عنا الشاطئ • فلما ابتعدنا
هذا الابتعاد ترك المجذافين وأخذ يجيل نظره فيما حوله • قال : « سعد
يومك أيها النهر ، يا مرضع العالم ويا مرضعى ! فل لى هل
احتفلت برزقى فى غيبتى ؟ هل بضائى سليمة لم يمسه أذى ؟ » •
صمت وخفضت عينى • كان وجهى قد اصطبغ بالحمرة من الحجل •
قال : « خذ كل شىء ان شئت ، ولكن عدنى أن تصون وأن تحب
لؤلؤتى التى لا تقدر بثمن • • • قولى كلمة واحدة على الأقل يا جيلتى !
أضيئى وجهك بابتسامة ! كما تطرد الشمس الليل المظلم البهيم • • •
قال ذلك وابتسم • أردت أن أقول كلمة • • • كنت خائفة • صمت •
قال يجب على فكرى الوجل الحجل « لك ما تشائين ! ما من شىء يمكن
الحصول عليه عنوة • حفظك الله يا حمامتى ! أرى أن ما تحملينه لى من
كره هو الأقوى • • • • • كنت أصغى إليه • اعترانى غضب • قلت له :
« نعم أكرهك لأنك لطختنى فى تلك الليلة المظلمة ، وما تزال تسخر من
قلبي قلب الفتاة • • • • • قلت ذلك ولم أستطع أن أحبس دموعى •
بكيت • وصمت • لكنه نظر الى نظرة لم أملك معها إلا أن أرتعش ارتعاش

ورقة فى مهب الريح • قال لى وعيناه تسطعان سطوعا رائعا : « اسمى يا جميلتى ! ان ما ساقوله له ليس لغوا ، بل هو عهد عظيم : ما ظلمت تهين لى السعادة فساكون سيدا ، ولكن اذا انقطعت عن حبى فى لحظة من اللحظات ، فلا حاجة بك الى الكلام ، بل تكفى اشارة من حاجبك ، يكفى أن تلقى على نظرة من عينك الكحلأ حتى أرد اليك حبك والحرية • ولكن اعلمى ، أيها الجمال الشامخ ، أن ذلك اليوم سيكون آخر أيامى ! ، جسمى كله ابتسم لدى سماع هذه الكلمات » •

هنا قطع الانفعال قصة كاترين • فتنفست ° ، حتى اذا همّت أن تتابع حديثها التقت نظرتها الملتمة بنظرة أوردنوف المشتعلة تحدّق اليها ، فارتعشت ، وأرادت أن تقول شيئا ما ، ولكن الدم صعد الى وجهها • خبات وجهها فى يديها ، ودفتته فى المخدات • كان أوردنوف مضطربا اعمق الاضطراب • ان انفعالا اليما لا يحدد ولا يطلق ، كان يسرى فى جميع أسجة جسمه سريان السم ، ويكبر ويعظم عند كل كلمة جديدة من قصة كاترين • ان رغبة لا يشفعها أمل ، وهدى جامحا شرها ، كانا يملكان عليه كل أفكاره ويثان الاضطراب فى عواطفه ، وان حزنا عميقا لا نهاية له كان فى الوقت نفسه يجثم على صدره بمزيد من الثقل شيئا بعد شيء • كان يريد فى بعض اللحظات أن يصرخ مناشدا كاترين أن تصمت ، كان يريد أن يرتقى على قدميها ، ضارعا اليها والدموع فى عينيه ، أن تعيد اليه آلامها السابقة وعاطفتها الصافية القديمة • كان يشعر بالشفقة على دموعها التى جفت منذ مدة طويلة • كان قلبه يتألم ويتعذب • لم يفهم كل ما قالته كاترين ؟ كان حبه يخاف من العاطفة التى تهز المرأة الشقية • لمن فى تلك اللحظة هواء • ان هذا الهوى يخنقه خنقا ، وهو يشعر بما يشبه الرصاص يجرى فى شرايينه بدلا من الدم •

استأنفت كاترين كلامها تقول فجأة وقد رفعت رأسها :

- آه ... ليس شقائي فيما قصصته عليك حتى الآن • ليس هذا عذابي • لا يضيرني ان تلعنى أُمى فى ساعتها الاخيرة ! اننى لا آسف على حياتى الذهية السالفة ! ولا يضيرني ان آكون قد بعث نفسى للانم وان احمل الخطيئة الابدية من أجل لحظة سعادة ! لا ... ليس شقائي فى هذا ، ليس عذابي فى هذا ! ... لا ... وانما الذى يؤلنى ويمزق قلبى تمزيقا هو أن أكون له عبدة ملوثة ، أن يكون عارى عزيزا فى نفسى ، أن يجد قلبى لسذة ومتعة فى تذكر ألمه كما لو كان هذا الالم فرحا وسعادة • ذلك هو شقائي : أن لا استطيع ان أغضب وأن أحقد للاساءة التى نالتنى ، والاذى الذى الحق بى ! ...

كانت أنفاس حمرى لاهنة تحرق شفتيها • كان صدرها يهبط هبوطا عميقا ويعلو علوا كبيرا ، وكانت عيناها تسطمان بحنى مسعور ... ولكن فتنة رائعة كانت تنتشر على وجهها فى تلك اللحظة ، فتكتسب كل قسمة من قسماتها جمالا يبلغ من القوة أن جميع الأفكار السود المظلمة التى غزت أوردينوف أخذت تبدد بما يشبه السحر • ان قلبه يرنو الى ضم قلبها ، انه يصبو الى أن ينسى نفسه معها فى عناق مجنون جامع حتى ليموتا معا • التقت عينا كاترين بنظرة أوردينوف المضطربة ، فابتسمت له ابتسامة أجبرت فى قلبه تيارين من نار يحرقانه ، وهو لا يكاد يدرك ذلك • همس يقول لها حابسا صوته المرتجف :

- ارحمىنى ... رفقاً بى ! ...

مالت كاترين عليه متكئة بأحدى ذراعيها على كتفه ، ونظرت اليه من قرب حتى اختلطت أنفاسهما •
- لقد ضيعتنى ! لست أعرف أملك ، عصفت بقلبي ... ماذا يهمنى

أن أعرف أن قلبك يبكي ؟ قولى لى ما الذى ترغيبين فيه ، فأفعله • تعالى
معى • هيا بنا • لا تقتلنى ! لا تودى بحياتى ؟ ...

نظرت اليه كاترين ساكنة لا تتحرك ، وقد جفت الدموع على
وجنتيها المحترقتين • ارادت ان تقاطعه ، ان تمسك بيده ، أن تقول له
شيئا ، ولكن الكلمات لم تسعفها •

وهذه ابتسامة غريبة تظهر بطيئة على شفتيها ، ثم هذه ضحكة تخرج
من الابتسامة •

وتابعت أخيرا تقول :

— لم اقص عليك كل شئ • • • • • ساحكى لك أمورا أخرى • ولكن
هل تراك تصفى الى كلامى ؟ اصنع الى حديث اختك • • • • • اريد ان اروى
لك كيف عشت سنة مع • • • لا • • • لن افعل هذا • • • » انقضت سنة • • •
سافر مع رفاقه فى النهر • وبقيت انا مع أمه أنتظر • انتظرت شهرًا ،
فشهرًا اخر • وفى ذات يوم ، التقيت بتاجر شاب • • • نظرت الى التاجر
الشاب • • • فتذكرت السنين الخوالي • • • قال لى التاجر الشاب بعد كلمتين
من حديث معى : « صديقتى الغالية • • • أنا ألكسى ، خطيبك السابق •
لقد خطب أهلونا أحدا للآخر منذ كنا طفلين • هل نسيتهنى ؟ تذكرى • •
أنا من قريتك ! » • قلت : « ماذا يقولون عنى هناك ؟ » • أجاب ألكسى
ضاحكا : « يقول الناس انك نسيت خفر العذارى ، وتعلقت ببلص من قطاع
الطرق • • • قلت : « وأنت ماذا كان رأيك فى ؟ » • قال : « هناك
أشياء كثيرة كنت أريد أن أقولها (اضطرب قلبه) • • • كنت أريد أن
أقول أشياء كثيرة • • • أما وأنتى رأيك الآن ، فقد ضمت • خذى روحى
يا جميلتى ، دوسى قلبى ، اهزئى بحبى • أنا الآن يتيم • وأنا سيد نفسى •
نفسى ملكى لم أبعها لأحد • • • • • أخذت أضحك • وكلمنى مرات

أخرى أيضا • وبقي في القرية شهرا بكامله ••• ترك تجارته ، صرف
عماله ، وبقي وحده • اشفت على دموعه ، دموع اليتيم • قلت له :
« الكسى ، انتظرني عند الجسر متى هبط الليل • سنذهب الى منزلك •
سنت الحياة هنا • » • جاء المساء ، وأعددت حقيتي ••• وحانت مني
التفاته ، فاذا انا ارى مولاي راجعا على حين فجأة • قال : « يومك سعيد •
هيا بنا • ستهب العاصفة • يجب أن لا نضيع الوقت • » • تبعته • وصلنا
الى ضفة النهر • نظرنا • راينا هنالك زورقا وربانا ••• لكانه كان ينتظر
احدا ••• « يومك سعيد يا الكسى • أعطاك الله العافية ! ماذا ؟ هل تأخرت
في المرفأ ؟ ••• انك ستسارع للحاق بالسفن ••• فخذنا معك ، أنا
وزوجتي ••• لقد تركت قاربى هناك ، ولا أستطيع أن أذهب اليه
سباحة ! » • قال الكسى : « اجلس » • شعرت بألم يحتاج نفسى كلها
حين سمعت صوته • « اجلس انت وزوجتك • الريح مواتية لنا جميعا ،
وفى منزلى مكان لكما • » • جلسنا • أظلم الليل • اخفت النجوم ،
وهبت الريح ، وأخذت الامواج تعلو • كنا قد ابتعدنا عن الشاطئ مسافة
فرسخ • لزمنا الصمت نحن الثلاثة • قال مولاي : « يا لها من عاصفة !
ان العاصفة تنذر بشر • ما رأيت فى حياتى عاصفة كهذه العاصفة على
هذا النهر ! زورقنا متقل ••• لن يستطيع أن يقلنا نحن الثلاثة ! » •
قال الكسى : « نعم ، لن يستطيع أن يقلنا نحن الثلاثة ••• واحد منا زائد
اذن عن طاقة الزورق • » • كان صوته يرتجف ارتجاف جيل • « اسمع
يا الكسى ، لقد عرفتك طفلا صغيرا جدا ، وكنت لأبيك كالاخ • قل لى
يا الكسى : هل تستطيع أن تصل الى الشاطئ سباحة ، أم تراك تهلك اذا
حاولت ذلك ؟ » • قال الكسى : « لا ••• لن أستطيع الوصول الى
الشاطئ ، وسأهلك فى النهر • » • « اسمعى أنت يا كاترين ، يا لؤلؤتى
التي لا تقدر بشئ • اننى أتذكر ليلة كهذه الليلة ، مع فرق واحد هو

أن الأمواج لم تكن تعلو كما تعلو الآن ، وكانت النجوم تتلألأ في السماء ،
وكان القمر يرسل أشعة في الفضاء ... أريد أن أسألك هل نسيت تلك
الليلة ؟ • • • قلت : « بل أذكرها • • » قال : « اذا كنت لم تنسها ،
فأنت لم تنسى اذن الوعد المقطوع أيضا • • • لم تنسى كيف علم الفتى
الشجاع حبيته الجميلة ، الطريقة التي يجب أن تعتمد اليها من أجل أن
تسترد حريتها • • • هه ؟ • • • قلت : « لا • • • لم أنسى ذلك أيضا ؟ • • »
قال : « لم تنسى ذلك ؟ اذن • • • فانظري الآن • • • المركب مقل بنا •
وقد حان أجل واحد منا • تكلمي يا حمامتى • قولى لى كلمتك
الحلوة • • • »

همست كاترين تقول لأوردينوف :

— ولم أفلها • • •

ولم تكمل كلامها ، فهذا هو صوت أصم يدوي مناديا على حين
فجأة :

— كاترين !

ارتعش أوردينوف • كان مورين واقفا عند الباب ، لا يكاد يرتدى
شيئا غير غطاء من فراء ألقاء على جسمه ، وكان شاحب الوجه كميته •
انه يحدق اليهما بعين تشبه أن تكون مجنونة • أخذت كاترين تنظر اليه
وهي تزدد شحوبا وكأنها منومة :

قال الشيخ بصوت لا يكاد يسمع :

— كاترين ، تعالى الى •

وخرج من الغرفة •

ظلت كاترين ساكنة ، تنظر في الفضاء كما لو كان الشيخ ما يزال

ماتلا أمامها • ولكن الدم لم يلبث أن تدفق في وجهها فجأة ، فجعل
خديها الشاحين حمراوين بلون الارجوان • تذكر أوردينوف لقاءهم
الأول •

قالت وهي تبسم :

— اذن الى الغد يا دموى • الى الغد • تذكر الى أين وصلنا من
القصة • • • اختارى أحد اثنين يا جميلتى : من الذى تحينه ومن الذى
لا تحينه • • لا تنسى أن تذكر أننا وصلنا من القصة الى هنا •

ثم أضافت تقول وهي تضع يديها على كفى أوردينوف وتنظر اليه
في حنان :

— سوف تنتظر ليلة كاملة •

تمتم أوردينوف يقول وهو يرتعد خوفا عليها :

— كاترين ، لا تذهبي اليه ، لا تضعي نفسك • انه مجنون •

ونادها الصوت من وراء الحاجز :

— كاترين !

قالت كاترين لأوردينوف تسأله ضاحكة :

— ماذا ؟ أتخسب أنه سيقتلني ؟ نعمت مساءً يا قلبى ، يا طائرى ،
يا أخى •

قالت ذلك وهي تسند رأسها على صدره ، بينما أخذت دموع تطفرف
من عينيها فجأة •

أضافت تقول :

– هذه آخر الدموع • ثم يا عزيزى • ستستيقظ غدا للفرح •

وقبلته قبلة محبومة •

ركع أوردینوف أمامها محاولا أن يثبثها عن الذهاب اليه ، قائلا :

– كاترين ، كاترين ، كاترين !

استدارت كاترين وهى تحييه بحركة من رأسها وتبسم له ، ثم

خرجت من الغرفة •

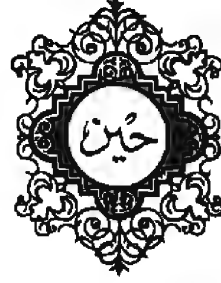
سمعها أوردینوف تدخل على مورين • حبس أنفاسه وأنصت ، ولكن

لم يصل الى سمعه شيء •

كان العجوز صامتا ، أو لعله قد أغمى عليه من جديد •••

أراد أوردینوف أن يذهب اليها ، ولكن ساقه كانتا تترنحان •••

أحس بوهن شديد ، فجلس على السرير •



استيقظ ، لبث برهة طويلة لا يدرك في أية ساعة
هو من الليل أو النهار ! أهذا هو الفجر أم هو
الشفق ؟ ما تزال غرفته ظلماء • لم يستطع أن
يحدد المدة التي قضاها نائماً ، ولكنه يحس أن

نومه كان نومَ مريض • مسح وجهه بيده ، كأنما ليترد الاحلام ورؤى
الليل • ولكنه حين أراد أن يضع قدمه على أرض الغرفة أحس أن جسمه
كله كان محطماً تحطيمًا • ان أعضائه المتعبة ترفض أن تطاوعه ، وان في
رأسه صداعا ، وان كل شيء من حوله يدور • جسمه يرتعد من البرد
تارة ، ويحترق تارة أخرى • ثم عاد اليه وعيه ، وعادت اليه ذاكرته ،
فاختلج قلبه حين عاش بخياله تلك الليلة كلها مرة أخرى • بلغ قلبه من
شدة الخفقان حين تذكر تلك الليلة ، وبلغت احساساته من القوة والحدة
والنضارة والطراوة أنه خيّل اليه أن كاترين لم تتركه منذ ساعات طويلة ،
بل منذ دقيقة واحدة • لمّا تجف عيناه بعد ، أو لعل هذه الدموع جديدة
تندفق من ينبوع في روحه الحارة ! والشئ الغريب أن آلامه كانت عذبة

فى نفسه ، رغم شعوره بأنه ما كان لكيانه كله أن يحتمل صدمة كهذه الصدمة • وفى لحظة من اللحظات اعتراه ما يشبه الشعور بالموت ، فكان مستعدا لأن يستقبله استقبال زائر حبيب • كانت أعصابه تبلغ من شدة التوتر ، وكان هواء يبلغ من قوة الغليان والاندفاع ، وكانت روحه تبلغ من فرط الحماسة أن الحياة وقد أهاجها هذا التوتر تبسّدوا كأنها توشك أن تنفجر فتفنى فى لحظة وتزول الى الأبد •

وفى تلك اللحظة نفسها تقريبا ، ترجّع ذلك الصوت المعروف ، جوابا على قلعه ، جوابا على ارتعاش قلبه ، ترجّع ترُجع تلك الموسيقى الداخليه التى تغنى فى نفس كل انسان فى ساعات فرحه وسعادته • انه صوت كاترين الرزين ، الرّتان كالفضة ، فعلى مقربة منه ، عند موضع رأسه تقريبا ، بدأ ذلك الصوت ينشد أغنية رخيمة حزينة فى أول الامر • • يعلو تارة ، ثم ينخفض وينطفئ تارة أخرى ، ثم يرتفع بهوى عارم ويعتد بحرا من حماسة وسيلا من أنغام قوية لا نهائية ، كالدقائق الأولى من سعادة الحب • ان أوردینوف يميز كلمات الاغنية أيضا : هى كلمات بسيطة ، رقيقة ، خنونة ، قديمة ، تعبّر عن عاطفة ساذجة بريئة هادئة صافية مضيئة • ولكن أوردینوف كان يغفل عن الكلمات ، فلا يسمع الا الإنغام • ثم هو يسمع من خلال الكلمات الساذجة التى يصدح بها الغناء كلمات أخرى ، كلمات يغلى فيها كل ما يضمه قلبه من صبوة ، وكل ما ترنو اليه روحه من شوق وتوق ، كلمات تلبى هواء ، وهى تارة آخر أنه من أنات قلب أضناه الحب ، وهى تارة فرحة الحرية ، فرحة الروح التى حطمت أغلالها وطارت وضاءة حرة طليقة فى الخضم اللانهائى ، خضم الحب ، هى تارة أولى العهود تقطعها الحببة على نفسها ، مع صلواتها ودموعها وهمسها السرى الخجول ، وهى تارة شهوة امرأة سكرى خلعت

العذار مبكرةً فرحةً بقوتها ، فلا حجب ولا سرّ ، تبختر أمام عينيه
النشوى ***

نهض اوردينوف عن سريره دون أن ينتظر ختام الأغنية • فسرعان
ما توقف الصوت عن الغناء وناداه قائلاً :

– نعمت صباحاً يا حبيبى • انهض • تعال إلينا • استيقظ للفرح
الوضاء • نحن نتظرك ، أنا ومولاي • نحن أناس فضلاء *** وقد خضنا
لمشيئتك • اطفئ الكره بالحب *** قل كلمة عذبة حلوة ! ***

خرج اوردينوف من الغرفة مستجيباً للنداء ، ومضى يذهب الى
جيرانه كأنما على غير شعور • انفتح الباب أمامه ، وسطعت ابتسامة صاحبة
البيت الجميلة نيرةً كالشمس • لم يرفق تلك اللحظة ولا سمع الا
كاترين • ان حياته كلها وفرحته كلها قد انصهرت فى قلبه على الفور
صورةً وضاءةً هى صورة كاترين •

قالت وهى تصافحه :

– فجران انقضىا على لقائنا • الفجر الثانى ينطفىء الآن • أنظر من
النافذة ***

ثم أضافت ، مبتسمة :

– فجران كفجبرى الحب عند فتاة : الأول يصبغ خديها بحمرة
الخجل ، حين يأخذ قلبهما يخفق وحيداً ، والثانى يحرقها كاللهب ، بعد
أن تسى خجلها الأول ، فهو ينهد صدرها ويصعد الى وجنتيها دماً قانياً •
مالك تلبث على عتبة الباب ؟ أهلا بك وسهلاً • مولاي يحبك ***

قالت ذلك وضحكت ضحكة رنانة كموسيقى ، ثم تناولت يد
أوردينوف وأدخلته الغرفة • استولى الخجل على قلبه • ان اللهب الذى
كان يحرق صدره منذ قليل يبدو كأنه ينطفىء الآن • خفض عينيه محتاراً
• كان يخاف أن ينظر إليها • لم ير كاترين قبل الآن على مثل هذه

الحال • ان الضحك والمرح يضيئان وجهها لأول مرة ، وقد جفَّ الدموع
الحزينة على أهدابها السود • يدها ترتجف في يده • ولو رفع بصره
لراى كاترين تحدّق بعينها المشرقتين الى وجهه الذى جهّمه الاضطراب
والهوى ، مبتسمة ابتسامة الظفر •

وقالت أخيرا :

— هلاّ نهضت أيها الشيخ ! هلا قلت لضيفنا كلمة ترحيب ؟ ...
الضيف كالآخ • • • فانهض أيها الشيخ المتكبر • • سلّم على الضيف • •
تناول يده البيضاء وأجلسه الى المائدة !

رفع أوردينوف عينيه • لكانه يشعر لأول مرة بوجود مورين • كانت
عينا الشيخ تحدقان اليه وكان الخوف من الموت قد أطفأهما • انقبض صدر
أوردينوف حين تذكر هذه النظرة ، التى سبق أن رآها تلتمع كالتماعها
الآن تحت الحاجبين الطويلين المقطبين احتياجا وغضبا • شعر ببعض دوار
• • نظر حوله ، فأدرك عندئذ فقط كل شئ • ان مورين ما يزال راقدا
فى سريره • وهو مرتدّ يبابه كلها تقريبا ، كأنه كان قد نهض وخرج
فى الصباح • عنقه محاطة بوشاح أحمر هو الوشاح الذى كان على عنقه قبل
ذلك • وفى قدميه بابوجان • واضح أن ألمه كان قد زال ، ولكن وجهه
لا يزال رهيب الشحوب والصفرة • جلست كاترين قرب السرير مسندة
ذراعها الى المائدة ، تنظر الى الرجلين صامتة • الابتسامة لم تفارق شفتيهما
وكان كل شئ كأنما تمّ بأمرها •

قال مورين وهو ينهض جالسا على السرير :

— نعم • • • هو أنت • • • نزيل بيتى • • • أنا آثم فى حقك أيها
السيد • • • لقد أسأت اليك مؤخرا حين عبثت بالبندقية • • • ولكن من
ذا الذى كان يعلم أنك تصاب أنت أيضا بنوبات صرعة • • • هذا يحدث

لى أنا ... (كذلك أضاف يقول بصوت أجش ، مرضى ، وهو يقطب حاجبيه ويشيح ببصره) • الشقاء ينزل على الانسان دون أن يطرق الباب مستأذنا بالدخول ، انه يتسلل تسلل اللصوص • ولقد أوشكت أن أعمد سكيناً فى صدرها هى (قال ذلك وهو يومئ الى كاترين) • أنا مريض ، وكثيراً ما تعترينى النوبة • اجلس • أهلاً بك !

كان أوردنيوف ما يزال يحدق اليه ويتفرس فيه • صاح الشيخ نافذ الصبر :

— لماذا لا تجلس ؟ اجلس ... ما دام هذا يناسبها هى • لكننا من سروركما عشيقان ...

• جلس أوردنيوف •

تابع الشيخ يقول ضاحكاً كاشفاً عن صفين من أسنان بيضاء سليمة

— أرايت الى هذه الاخـت التى لك ! ... امرحاً يا صديقى • • قل لى أيها السيد : هل أختك هذه جميلة ؟ قل • • • أجـب • • • انظر الى تـألؤ وجنتيـها • لماذا لا تنظر ؟ أعجب بالحلوة الجميلة • • • أظهر أن قلبك يتألم • • •

قطب أوردنيوف حاجبيه ، ونظر الى الشيخ حانقاً • فارتعش الشيخ لهذه النظرة • ان غيظاً أعمى يغلى فى صدر أوردنيوف • ان غريزة صادقة كغريزة الحيوانات تجعله يحزر أنه أمام عدو رهيب • لكنه مع ذلك لا يدرك ما الذى يجرى فى نفسه • لم يسعفه عقله •

قال صوت وراء أوردنيوف :

— لا تنظر •

التفت أوردینوف • قالت کاترین ضاحكة :

— لا تنظر • قلت لك لا تنظر • اذا كان الشيطان هو الذى يحرضك،
فارحم حیيتك !

وفجأة تسمرت وراءه ، وعصبت عینیه بیديها • ولكنها لم تلبث أن
سحبتهما ، وغطت بهما وجهها • ان حمرة خديها تظهر من خلال أصابعها •
نزعت يديها وحاولت ، وقد احمرت احمرارا شديدا ، أن تواجه ابتسامتهما
ونظراتهما المستطلمة مواجهة جريئة بغير تحرج • ولكن الرجلين ظلا
ساكتين یرنوان الیها : فأما أوردینوف فهو یرنو الیها بدهشة الحب كأن
هذا الجمال الرهيب ینفذ الى قلبه لأول مرة ، وأما الشيخ فیرنو الیها
بانتهاء وبرود ، لا یعبر وجهه الشاحب عن شيء ، وانما تختلج شفاه
المزرقتان اختلاجا خفیفًا •

اقتربت کاترین من المائدة وقد كفت عن الضحك • وأخذت تنضد
الكتب والأوراق والمجبرة وكل ما كان على المائدة ، ثم تحملها جميعا الى
المنضدة الصغيرة عند النافذة • لقد أصبحت أنفاسها سريعة متقطعة ،
وأصبحت فى بعض اللحظات تستنشق الهواء عميقا ، كأن قلبها یختنق •
ان صدرها یملو ویهبط بطیثا كموجة • وخفضت عینيها وتلألأت أهدابها
السود فوق خديها کأبر دقيقة •

تتمم الشيخ :

— ملکه !

ودمدم أوردینوف وهو یرتجف من رأسه الى قدمیه :

— حیيتی !

ولكنه ناب الى رشده اذ أحس " بنظرة الشيخ تنصب علیه • لقد

سقطت هذه النظرة خلال ثانية سطوع برق : شرهة خبيثة باردة مزدورية • أراد أوردينوف ان ينصرف ، ولكنه أحس انه مسممر في مكانه بقوة لا ترى • جلس من جديد • انه يشد في بعض اللحظات على يديه ، ليتأكد من انه في يقظة ، لانه يحس ان كابوسا يجثم على صدره ويخنقه ، وانه ألوبة في يد حلم أليم مرضى • ولكن الأمر الغريب انه كان لا يريد أن يستيقظ من هذا الحلم •

نزع كاترين عن المائدة غطاءها العتيق ، ثم فتحت صندوقا ، فأخرجت منه مفرشا مطرزا بالحريز والذهب ، فغطت به المائدة • ثم تناولت من الخزانة آنية فضية لحفظ الخمور ، كانت لجد جدها ، فوضعتها في وسط المائدة ، ثم أعدت ثلاثة أقداح من الفضة ، واحد للضيف ، وواحد لرب البيت ، وواحد لها • وبعد ذلك نظرت الى الشيخ والى أوردينوف مفكرة ساهمة • قالت :

— من منا يحب من ؟ اذا كان واحد منا لا يحب آخر ، فهذا الآخر أنا أحبه وسيشرب قدحه معي • اننى أحبكما كليكما ، حب القريب للقريب • فلنشرب معا للحب والسلام !
قال الشيخ بصوت أشوه :

— فلنشرب ، ولنفرق في الخمرة أفكارنا القائمة • صبي يا كاترين !
سألت كاترين وهى تنظر الى أوردينوف :
— وأنت ، هل تريد أن أصب لك ؟
فقدم أوردينوف قدحه دون أن ينطق بكلمة •
قال الشيخ وهو يرفع قدحه :
— انتظري ... اذا كان لأحد رغبة ما ، فلنحقق هذه الرغبة !

تلاطمت الكئوس وشرب الثلاثة •

قالت كاترين متجهة بكلامها الى رب البيت :

- والآن فلنشرب نحن الاثنين • فلنشرب اذا كان فى قلبك حنان
علىّ وحب لى • لنشرب تحيةً للسعادة التى عشناها ... تحيةً للسنين
الماضيات ، تحيةً للهناء والحب ! مرئى اذن أن أصب لك اذا كان قلبك
يحترق هياما بى !

قال الشيخ ضاحكا وهو يمد قدحه من جديد :

- خمرك قوى يا جميلتى ، ولكنك لا تزيدى على أن تبلى به
شفقتك بلا •

- سأشرب قليلا ، أما أنت فأفرغ قدحك حتى الثمالة • لماذا
تعيش مع أفكار حزينة يا شيخى ؟ ذلك لا يزيد على أن يعذب قلبك !
الأفكار تنشأ من الألم ، والألم ينادى الأفكار ، فإذا كان الانسان سعيدا لم
يفكر قط ! اشرب اشرب أيها الشيخ ، أغرق أفكارك فى الخمر •

- حزنك عظيم يا حمامتى البيضاء ، وأنت تريدى أن تتخلصى منه
دفعة واحدة • انتى أشرب معك يا كاترين • وأنت ، أيها السيد ، أتأذن
أن أسألك هل فى قلبك حزن ؟

تمتم أوردينوف يقول دون أن يحول بصره عن كاترين :

- نعم ، ولكننى أخفيه فى اعماق نفسى •

قالت كاترين :

- هل سمعت أيها الشيخ ؟ لقد ظللت زمنا طويلا لا أعرف نفسى ،

ولكننى عرفت بعدئذ كل شيء ، تذكرت كل شيء ، عشت الماضى كله من جديد .

قال الشيخ مفكرا :

— نعم ، انه لشيء حزين أن يتذكر المرء الماضى ، ما مضى فهو كالخمر الذى 'شرب' ... ما نفع السعادة الماضية ... متى بلى الثوب وجب أن 'يرمى' ...

قالت كاترين ضاحكة " بينما تدلت على أهدابها عبرتان كبيرتان تشبهان الماس :

— لا بد عندئذ من ثوب جديد . هل فهمت أيها الشيخ ... أنظر لقد دفنت فى كأسك دموعى .

قال أوردينوف متهدج الصوت من الانفعال :

— وسعادتك ، هل اشتريتها بحزن كثير ؟

قال الشيخ :

— لعل عندك ، أيها السيد ، سعادة " كثيرة " تريد أن تباعها ! ما هذا الذى تتدخل فيه ؟

قال الشيخ ذلك وانفجر يضحك ضحكا خبيثا على حين فجأة ، وينظر الى أوردينوف غاضبا .

قالت كاترين :

— اشتريتها بما اشتريتها به ... فبعضهم يرى الثمن باهظا وبعضهم يراه بخسا ... واحد يريد أن يبيع كل شيء وأن لا يخسر شيئا ، وآخر لا يعد بشيء ، ولكن القلب المطواع يتبعه ... وأنت دعك أنت من الملامات

(أضافت ذلك متجهة الى أوردنيوف بنظرة حزينة) • صب في كأسك خمرأ أيها الشيخ • واشرب تحيةً لسعادة ابنتك ، لسعادة عبدتك الرقيقة العذبة الطيعة ، كما كانت حين عرفتك أول مرة ••• ارفع كأسك !

قال الشيخ وهو يتناول الخمر :

— لك ما تشائين ! واملئي كأسك اذن •

— انتظر أيها الشيخ ، لا تشرب بعد ، دعني أقول لك شيئاً قبل أن

تشرب •••

كانت كاترين مسندةً ذراعيها الى المائدة ، تحديق الى الشيخ بعينين محمومتين • ان عزيمة غريبة تسطع في نظرتها • حركاتها جميعا هادئة ، اشاراتها متقطعة ، سريعة ، غير متوقفة • انها كمن يحترق بنار • ولكن جمالها يعظم بالانفعال والانتعاش • وشفتاها المنفرجتان تكشفان عن صفين من أسنان بيضاء كاللآلى • وطرف صغيرتها المقتولة حول رأسها ثلاث مرات متهدل على أذنها اليسرى باهمال • وعرق قليل يخضّل صدغيها •

— اقرأ هنا يا صديقي ، اقرأ في راحة يدي قبل أن يظلم فكريك • اليك يدي البيضاء فاقراً في راحتها • ما أخطأ الرجال في بلدنا حين سموك ساحراً • أنظر في يدي أيها الشيخ وحدثني عن حظي الحزين • ولكن حذار أن تكذب ! قل : هل ستكون ابنتك سعيدة ؟ أم تراك سوف لا تغفر لها ، وسوف تدعو عليها بسوء الطالع ؟ هل سيكون لي ركن دافئ ، أعيش فيه سعيدة ، أم سأظل حياتي كلها كالطائر المهاجر أبحث لي عن مكان بين الناس الاخيار ؟ قل لي من هو عدوي ، ومن الذي يحبني ، ومن يهينني لي الضر ؟ ••• قل لي هل سيظل قلبي الفتى الحار يحيا وحيدا ، أم أنه سيجيد القلب الذي يخفق معه للفرح ••• الى أن يحل شقاء

جديد ؟ ... قل لى : فى أية سماء زرقاء ، وراء اى بحر ، وسط اية غابة ، يقيم صقرى ؟ أهو ينتظرنى مشتاقاً نافذ الصبر ، أهو يحبنى كثيراً ، ام تراه سيكشف عن حبيب قريباً ؟ ... هل سيخدعنى ويخوننى أم لا ؟ وقل فى الوقت نفسه ، قل لى آخر مرة أياها الشيخ ، هل سبقى معامدة طويلة فى مسكننا البائس هذا نقرأ كتباً شيطانية ؟ ... قل لى هل ستحين اللحظة التى أودعك فيها شاكرة لك انك أطعمتني وحكيت لك قصصاً .. ولكن حذار ثم حذار ... قل الحقيقة كلها ، ولا تكذب ! لقد آن الآوان •

كانت حميّاها تزداد على قدر امعانها فى الكلام ، ولكن الاحتياج لم يلبث أن حطم صوتها ، كأن زوبعة عصفت بقلبها • عيناها تسطمان ، وشفتها العليا تختلج قليلاً • مالت على الشيخ من فوق المائدة ، وأخذت تحددق الى عينيه المضطربتين بانتباه نهم •

سمع أوردنيوف دقات قلبها حين توقفت عن الكلام... أطلق صرخة حماسة وهو ينظر اليها ، وأراد أن ينهض عن المقعد • ولكن النظرة السريعة العابرة التى ألقاها عليه الشيخ سمّرتة فى مكانه من جديد • ان مزيجاً غريباً من الاحتقار والسخرية والقلق والبرم ، ومن الاستطلاع الخبيث الشرير الماكر فى الوقت نفسه ، كان يسطع فى تلك النظرة الحاطفة السريعة التى كانت تُعرّش أوردنيوف فى كل مرة ، وفى كل مرة كانت تملأ قلبه غيظاً وغيظاً عاجزاً •

كان الشيخ ينظر الى كاترين مفكراً مستطلماً محزوناً • انه مصعوق القلب ، ولكن ما من عضلة فى وجهه تختلج • فلما أنهت كلامها لم يزد على أن ابتسم • ثم قال :

— تريدن أن تعرفى أشياء كثيرة مرة واحدة ، يا طائرى الصغير

الذى لم يكده يخرج من العنق ! صبى لى اذن بمزيد من السرعة فى هذا الكأس العميق • ولنشرب أولا تحية للسلام ••• والا فان عينا سوداء معتكرة ستفسد علينا أمنياتنا ••• ان الشيطان قوى قدير ! •••

رفع الشيخ كأسه وشرب • فكلما أمعن فى الشراب أمعن وجهه فى الشحوب والاصفرار • عيناه حمراوان كالجمر • ان بريقهما المحموم ، وان ازرقاق وجهه يندران بأن نوبة جديدة توشك أن تعتريه •

وكان الخمر قويا ، فكل كأس جديدة يشربها أوردنيوف ، كانت تزيد عينيه زيفانا • ان دمه المحموم المشتعل لا يطبق احتمال مزيد من الخمر • كان عقله يضطرب ، وكان قلقه يشتد •

صبَّ أوردنيوف لنفسه خمرا وجرع جرعة ، لا يعلم ماذا يفعل ولا يدري كيف يهدى • هياجه المتزايد • ان دمه يجرى فى شرايينه بمزيد من السرعة أيضا • كان كمن يهدى ، فهو لا يكاد يستطيع أن يدري مايجرى حوله رغم شدة اهتمامه به وانتباهه اليه •

قرع الشيخ كأسه بالمائدة فى صخب ، وهتف يقول :

— صبى يا كاترين ، صبى أيضا أيتها البنت الشريرة ! املئى الكأس الى آخره • نوّمى الشيخ حتى الموت ! صبى أيضا صبى يا جميلتى •• وأنت لماذا لم تشرب الا قليلا جدا ؟ ••• أتصحب أنتى لم ألاحظ ذلك ؟

أجابته كاترين بكلام لم يسمعه أوردنيوف ••• لم يدع لها الشيخ أن تكمل كلامها • أمسك يدها ، كأنه أصبح لا يقوى على أن يجلس فى صدره كل ما كان يثقل صدره • ان وجهه شاحب ، وان عينيه تظلمان تارة ، وتسطعان بهريق قوى تارة ، وان شففيه الصفراوين تختلجان • قال بصوت يسمع المرء فيه فرحا غريبا فى بضع اللحظات :

- هاتى يا جميلتى ، هاتى . سأقول لك الحقيقة كلها . أنا ساحر
يا كاترين . ما أخطأ ظنك : قلبك الذهبى ألهمك الحقيقة . غير أن هناك
أمرا لم تفهميه : هو أنى ، أنا الساحر ، لست بمن يعلمك العقل . ان
رأسك نعان ماكر ، رغم أن قلبك مليء بالدموع . سوف تهتدين الى
طريقك بنفسك ، سوف تتسللين بين الشقاء . فأحيانا تتغلين بالعقل ، فاذا
لم يكف العقل ، بهرت بالجمال . تثيرين الفكر ، تحطمين القوة ، فاذا
القلب ينشق ولو كان من برونز وتسالين : هل ستزل بك مصائب .
هل سيلم بك شقاء وعذاب ؟ ان العذاب الانسانى أليم ، ولكن الشقاء لا يلم
بالقلب الضعيف . وشقاؤك يا جميلتى سيكون مثله كمثله خطي على رمل:
فسرعان ما تفسله الامطار ، وتجفقه الشمس ، وتمحوه الريح ! انتظري
. . . سأقول لك مزيدا من القول . أنا ساحر . من ستحييه ، ستكونين له
عبدة . أنت نفسك سترهنين حريتك ثم لا تستردينها ولكنك لن
تستطيعي أن تكفى عن الحب لحظة يحين الأوان . سوف تبذرين بذرة ،
فيجنى الذى أغواك السبيل كله يا طفلى الحلو ، يا رأسى الذهبى ،
لقد خبأت فى كأسى عبرة من عبرائك تشبه لؤلؤة ، ولكنك أسفت عليها !
ثم سكبت مائة عبرة ! ولكن ما ينبغى لك أن تأسفى على هذه العبرة ، على
هذا الندى السماوى . لأنها ستعود اليك ، ثقيلة مزيدا من الثقل ، تلك
العبرة التى تشبه لؤلؤة ، ستعود اليك فى ليلة غير ذات نهاية ، ليلة عذاب
مر ، حين توافيك فكرة عكرة فتأخذ تأكلك أكلا وعند ذاك ، من أجل
تلك العبرة ، ستسقط على قلبك المحترق ، عبرة شخص آخر ، عبرة من
دم ، حارة حرارة رصاص منصهر . سوف تحرق هذه العبرة تحرق
الأبيض حتى تصل منه الى الدم ، والى أن يطلع نهار كالح حزين قائم
جهم ، ستظلين تتقليين على فراشت تاركة لدمك القانى أن يسيل ، ولن
تبرئى من جرحك النازف الى الفجر التالى . صبي يا كاترين ، صبي

أيضا يا حمامتى ، اسقيني جزاء ما أسديت اليك من نصائح وما انت
فى حاجة الى معرفة المزيد ولا خير فى تدير الكلام سدى بنفسير
طائل

كان صوته يضعف ويرتجف • وكان نشيج بهم أن يخرج من
صدره • صبّ خمرا ، وأفرغ فى جوفه كاسا اخر شربه بشراهة • وقرع
المائدة بالكأس مرة أخرى • وعادت نظرتة المضطربة تسطع من جديد •
هتف يقول :

— عيشى كما تريد ان تعيشى ! ما مضى فقد مضى • صبّى أيضا ••
صبّى حتى يسقط رأسى ، حتى تفنى روحى كلها ••• صبّى حتى أنام
ليالى طويلة ، وحتى افقد الذاكرة فقدانا تاما •• صبّى صبى ايضا
يا كاترين !

ولكن يده التى تمسك الكأس تبدو كأنها مخدّرة ، فهى لا تتحرك •
كان يتنفس تنفسا ثقيلًا ، كان يتنفس بمشقة • مال رأسه ••• ومرة
اخيرة القى على اوردينوف نظرة كابية • وحتى هذه النظرة لم تلبث ان
انطفأت • وسقط حاجباه أخيرا ثقلين كالرصاص • وشاعت فى وجهه
صفرة كصفرة الموتى • واحتلجت شفتاه بضع لحظات أيضا ، وارتجفتا
كأنه يبذل جهدا من أجل أن يقول شيئا • وفجأة رثيت دمة كبيرة تتعلق
بأهدابه ثم تسقط وتسيل بطيئة على خده الشاحب •••

لم يطلق أوردينوف صبرا • فنهض ، وسار نحو كاترين مترنح
الخطى • تناول يدها • ولكنها لم تنظر اليه ••• حتى لكانها لا تراه ولا
تعرف من هو •••

كانت هى أيضا كمن فقد وعيه ، وكان يبدو أن فكرة واحدة

تسفلها ، فكرة واحدة • ارتمت على صدر الشيخ الوسنان ، وأحاطت عنقه
بذراعيها ، وثبتت فيه نظرتها المشتعلة حتى لكأنهما أصبحا كائنا واحدا ••
كان يبدو أنها لا تشعر بأن أوردینوف ممسك يدها • وأخيرا التفتت نحو
الفتى ، وألقت عليه نظرة طويلة نافذة ، كأنها فهمت أخيرا • فظهرت على
شفيتها ابتسامة حزينة الیمة • وتمتمت تقول :

— اذهب • أنت سكران وشرير • أنت لست صديقي •

وعادت تلتفت نحو الشيخ ، وثبتت فيه بصرها • لكأنها ترصد كل
خفقة من خفقات قلبه ، وتهدهد بنظرتها نومه ، وتخشى أن تنفس ،
وتحضن قلبه المتأجج ••• وكان فى كيانها كله من الاعجاب العاشق الموله،
ما جعل أوردینوف يستبد به اليأس والحنق والفضب على حين فجأة •

ناداها وهو يضغط يدها بعنف :

— كاترين ! كاترين !

ان الألم الذى يشعر به أوردینوف ينعكس فى وجهه • التفتت
كاترين ، وألقت على أوردینوف نظرة تبلغ من التعبير عن السخرية
والتحقير أنه أحسن بساقيه تشيان تحته • ثم أومأت الى الشيخ النائم ،
ونظرت الى أوردینوف مرة أخرى نظرة باردة مزدرية •

قال لها أوردینوف حائقا أشد الحنق :

— ماذا ؟ لسوف يقتلك ! •••

وكان جنيا وسوس له أنه فهمها • فقال :

— سأشتريك من مولاك يا جميلتى ، اذا كنت فى حاجة الى روحى !

لن يقتلك •

ان الابتسامة الصامتة التي كان تجعد أوردينوف لا تحول عن وجه كاترين • وبدون أن يعرف ماذا يفعل ، أخذ يتلمس يديه فيترع من الجدار خنجرا يملكه الشيخ • ظهرت الدهشة في وجه كاترين ، ولكن الغضب والاحتقار لاحا في عينيها في الوقت نفسه وقد ازدادا عنفا وقوة •

شعر أوردينوف بألم وهو ينظر اليها ••• ان قوة غامضة تدفع يده • اخرج الخنجر من غمده • ان كاترين تتابعه بنظراتها ساكنة حاسية انفاسها •

نظر أوردينوف الى الشيخ •

فخيل اليه في تلك اللحظة أن الشيخ يفتح عينيه ببطء ، وينظر اليه مبتسما • التقت أعين الرجلين • حذق أوردينوف الى العبور بضع دقائق ساكنا لا يتحرك •• وفجأة تراءى له أن كل وجه الشيخ يضحك ، وأن هذا الضحك الشيطاني ينفجر مدويا في الغرفة آخر الامر • وهذا خاطر اسود ، كريبه ، يتسلل في رأسه تسلل أفعى ••• ارتجف ••• أفلت الخنجر من يديه ، وسقط على أرض الغرفة مقرعما •

أطلقت كاترين صرخة ، كأنها تستيقظ من كابوس قاتم أليم ••• نهض الشيخ عن سريريه ببطء وقد اصفر اصفرا شديدا • ركل الخنجر بقدمه الى ركن من الغرفة غاضبا حائقا ••• كانت كاترين شاحبة ساكنة كأنها ميتة ••• ان ألما رهيبا لا يطاق يرتسم على وجهها • وها هي ذى ترتدى على قدمي الشيخ وهي تصرخ صرخة تشق النفس وتكاد تسقط مغشيا عليها •

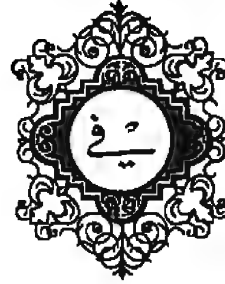
- ألكسى ! ألكسى !

كذلك انطلقت هاتان الكلمتان من صدرها المخنوق •

حضنها الشيخ بذراعيه القويتين ، وشدها الى صدره شدا قويا • أخفت رأسها فى نحر الشيخ ، فأطلق الشيخ عندئذ ، بكل قسماات وجهه ، ضحكة تبلغ من قوة التعبير عن الطفر والانتصار ، وتبلغ من شدة الهول أن النعر استولى على أوردينوف • المكر ، الحساب ، الطفيان البارد المستبد الفيور ، السخرية بقلبه الممزق ، ذلك كله سمعه أوردينوف فى تلك الضحكة • دمدم يقول وهو يرتجف خوفا :

ـ « مجنونة »

وولى هاربا •



الساعة الثامنة من صباح الغد كان أوردينوف
 يطرق باب ياروسلاف ايلتش شاحب الوجه مهتاج
 النفس • لما ييل من اضطراب الليلة البارحة •
 لو سألته لماذا جاء الى ياروسلاف ايلتش لما عرف
 بماذا يجيبك • فما ان فُتح له الباب حتى تقهقر من الدهشة ، ثم تسمر
 في مكانه عند العتبة جامدا ، اذ رأى مورين في الغرفة • كان الشيخ أشد
 شحوبا من أوردينوف أيضا ، لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه ، مهدود
 الجسم من المرض • ومع ذلك كان يرفض أن يقعد رغم أن ياروسلاف
 ايلتش يكرر دعوته الى الجلوس سعيدا بزيارته كل السعادة •
 تهلل ياروسلاف ايلتش مبتهجا حين رأى أوردينوف ، ولكن فرحه
 تبدد في تلك اللحظة نفسها تقريبا ، واستبد به نوع من الضيق فجأة ،
 عند منتصف الطريق بين المائدة والكرسي المجاور ، فهو لا يعرف ماذا
 يقول ولا ماذا يفعل • ولقد أدرك أنه من غير اللائق أن يدخلن الغليون
 في مثل هذه اللحظة ، ومع ذلك ظل من فرط اضطرابه يدخلن ما استطاع ،
 بل يدخلن بشيء من الحذقة أيضا •

دخل أوردنيوف الغرفة أخيراً • وألقى نظرة خاطفة على الشيخ • طاف في وجه الشيخ شيء يذكر بالابتسامة الخيثة التي رآها أوردنيوف في وجهه أمس ، والتي تثير ذكراها فيه الارتعاد والحق • ولكن كل تعبير عن العداوة ما لبث أن زال ، وعاد الى وجه الشيخ هدوءه وسكونه الذي لا يمكن التنازع اليه • وسلم على أوردنيوف بانحناء كبيرة •

هذا المشهد كله أيقظ أخيراً شعور أوردنيوف ، فحذر الى ياروسلاف ايلتشس يريد أن يفهم خطورة الموقف • اضطرب ياروسلاف ايلتشس وشعر بحرج •

قال أخيراً :

— ادخل ، ادخل يا صديقي العزيز فاسيلي ميخائيلوفتشس • أفرحني بزيارتك وشرف بحضورك جميع هذه الأشياء التافهة •••

قال ياروسلاف ايلتشس وهو يشير الى ركن في الغرفة • انه أحمر الوجه كقرنفلة ، وقد بلغ من الاضطراب والحرج أن الجملة المتفخمة التي بدأها انقطعت فجأة ، وها هو ذا يجبر كرسيه الى وسط الغرفة ، فيحدث ضجة كبيرة •

— ألا أزعجك يا ياروسلاف ايلتشس ؟ كنت أريد ••• دقيقتين لا أكثر •••

— ما هذا الذي تقوله ؟ أنت تزعجني يا فاسيلي ميخائيلوفتشس ؟ هلاً ؟ قبلت قدحاً من الشاي من فضلك ••• من يخدم هنا ؟ أنا واثق أنك لن ترفض فنجاناً ثانياً •••

أضاف الجملة الأخيرة متجهاً بها الى مورين ، فأوما مورين برأسه

معبراً عن موافقته على شرب قدح آخر •

دخل شرطى ، فأمره ياروسلاف ايلتش بلهجة قاسية أن يحضر ثلاثة أقذاح من الشاي ، ثم أقبل يجلس قرب أوردينوف • ظل بضع دقائق يدير رأسه يمنة ويسرة كقطعة من خبز ، متجها الى مورين تارة والى أوردينوف تارة أخرى • كان واضحاً انه يريد أن يقول شيئاً هو فى نظره حرج كل الحراجة بالنسبة الى أحد الرجلين على الأقل ، ولكنه رغم كل جهوده ظل عاجزاً عن أن ينطق بكلمة •••

وكان يلوح على أوردينوف أنه فى ضيق وحرج هو أيضاً • وجاءت لحظة فاذا بالرجلين كليهما يأخذان بالكلام معاً فى آن واحد ••• أما مورين الصموت ، الذى كان ينظر اليهما بكثير من حب الاستطلاع ، فقد انفتح فمه ببطء ، كاشفاً عن كل أسنانه •••

قال أوردينوف مخاطباً الشيخ :

— جئت لأقول لك اننى على أثر ظروف مزعجة جداً أرانى مضطراً الى ترك منزلك ، و •••

فقاطعه ايلتش صائحاً :

— شئ غريب جداً ••• لقد طار عقلى من الدهشة حين أبلغنى هذا الشيخ المحترم قرارك فى هذا الصباح ولكن •••

سأله أوردينوف مدهوشاً وهو ينظر الى مورين :

— أبلغك قرارى ؟

كان مورين يلاعب لحيته ويتشم •

قال ياروسلاف ايلتش مؤكداً :

- نعم .. بل لعننى مخطئى... ولكننى أستطيع أن أحلف لك
بشرفى أن أقول هذا الشيخ المحترم لم تتاولك بأى سوء .

احمر ياروسلاف ايلتش ولم يستطع أن يسيطر على انفعاله الا
فى غناء .

وكأنما ضاق مورين ذرعاً بعدم المبالاة باضطراب رب البيت ، فتقدم
خطوة الى أمام ، وبدا يقول وهو يحيى أوردينوف بأدب :

- اليك المسألة يا صاحب السيادة . انك تعلم بنفسك يا سيدى
أنا أنا وزوجتى كان يمكن أن نسعد من أعماق قلبنا ، وكان يمكن أن
لا نتجراً على قول كلمة واحدة... ولكنك ترى بنفسك كيف تجرى
حياتى... انك ترى أتنى أكاد أحتضر .

قال مورين ذلك وعاد يلاعب بأصابعه لحيته .

شعر أوردينوف بأنه يوشك أن يهوى على الأرض .

- نعم... نعم... لقد سبق أن قلت لك ذلك . انه مريض .
تلك نازلة أملت به . أردت أن أقولها بالفرنسية . ولكن اعذرنى . ان
لسانى لا يجرى طلقاً بهذه اللغة... يعنى...

- نعم... نعم ، يعنى...

حيّاً كل من أوردينوف وياروسلاف ايلتش صاحبه تحية صغيرة ،
وهما جالسان على كرسييهما ، ثم استأنف ياروسلاف ايلتش كلامه يقول:

- ثم اتنى سألت هذا الرجل الشريف عن الأمر تفصيلاً ، فقال لى
ان مرض هذه المرأة...

وهنا ألقى ياروسلاف ايلتشن ، المرفف الشعور ، نظرة سائلة على
مورين •

– أقصد أن مولاتنا •••

ثم لم يلع مزيدا من الالحاح ، بل عاد يخاطب أوردينوف فيقول :

– نعم ••• ان صاحبة البيت ••• أقصد صاحبة البيت الذي تقيم
أنت فيه وستركه ••• امرأة مريضة • هو يقول انها تضايقت في أعمالك
••• وأنت نفسك ••• لقد أخفيت عني أمرا هاما جسدا يا فاسيلي
ميخائيلوفتش •••

– ما هو هذا الأمر ؟

أجاب ياروسلاف ايلتشن بهمس تقريبا ، وبصوت يُسمع فيه شيء
من العتب الى جانب التسامح :

– أمر البندقية •

وأسرع يستأنف كلامه فيقول :

– أنا أعرف كل شيء • حكى لي كل شيء • لقد كنت أنت نبلا
كل النبل حين غفرت له جريمته في حقك ، وهي جريمة لم يتعمدها ولا
أرادها ••• أحلف لك ••• لقد رأيت دموعا في عينيه !

احمر وجه ياروسلاف ايلتشن من جديد • والتمعت عيناه • واضطرب
على كرسيه منفلا أشد الانفعال •

قال مورين مخاطبا أوردينوف ، بينما أخذ ياروسلاف يحدق اليه
وقد تخلص من اضطرابه :

— أنا ... أقصد ... نحن يا سيدى ، أنا ومولاتى ، ندعو لك الله دائما . ولكنك تعرف بنفسك يا سيدى أنها امرأة مريضة ، حمقاء ... وأنا امرؤ لا أكاد أستطيع التماسك ...

قال أوردینوف وقد نفذ صبره :

— ولكننى مستعد ... كفى ... أرجوك ... فوراً اذا أردت .

— كلا يا سيدى . نحن مقتبطان بوجودك جداً (قال مورين ذلك وهو ينحنى انحناءة كبيرة) . أنا يا سيدى ... كنت أريد أن أقول لك الأمر كله فوراً . هى ، يا سيدى ، قريبة لى ... تمت الى بشىء من قريبى ... قريبى بعيدة ... انها كذلك منذ الطفولة ... رأس تعصف به الأهواء .. لقد نشأت وترعرعت فى الغابة .. كفلاحة .. بين الرجال الذين يجرون المراكب ، والعمال الذين يعملون فى المصنع ... وفجأة احترق منزلهم ... هلكت أمها فى الحريق ، وهلك أبوها أيضا ... أقصد من يقال له أبوها ... انها مستعدة لأن تروى لك هذه الحكايات .. أنا لا أتدخل فى هذا الأمر ... ولكن يجب على أن أقول لك ان أطباء من موسكو قد فحصوها ... أعنى يا سيدى ... هى مجنونة تماماً ... هذه هى المسألة . أنا وحيدى معها ، وهى وحدها معى . نعيش ، نصلى .. ونأمل ... ولكننى لا أعارضها فى يوم من الأيام ...

كان وجه أوردینوف مضطرباً أشد الاضطراب . وكان ياروسلاف ايلتش ينقل بصره بين الرجلين ، فينظر الى هذا تارة والى ذاك تارة أخرى .

استأنف مورين كلامه وهو يهز رأسه فى وقار :

— ولكن لا .. يا سيدى .. هى كذلك .. رأسها يبلغ من الجنون

أنها فى حاجة دائمة الى حبيب ، الى انسان تناديه حبيبى ... وأنا يا سيدى
رأيت ... اغفر لى أقوالى الحمقاء ... (أضاف مورين ذلك وهو يحبى
صاحبه ويمسح لحيته) ... رأيت كيف كانت تذهب اليك ، ورأيت كيف
أردت ، سيادتلك ، أن تربط مصيرك بمصيرها ...

احمر وجه ياروسلاف ايلتش حتى صار بلون الأرجوان ، ونظر
الى مورين عاتبا . أما أوردينوف فقد كان لا يستطيع الاستقرار على
الكرسى .

— لا يا سيدى ... أعنى .. ليس هذا هو الأمر .. أنا ياسيدى ...
أنا فلاح بسيط .. نحن عبيدك (أضاف ذلك وهو ينحن الى الارض) ،
ونحن ندعو لك الله دائما ، أنا وزوجتى . نحن يكفيننا أن يكون لدينا
ما نأكله ، وأن تكون صحتنا بخير ، هذا وحده يرضينا ... أنت تعرف
ذلك بنفسك يا سيدى ... فارجعنا يا سيدى ... وما عسى أن يحدث
إذا أصبح لها عشيق جديد ؟ اغفر لى هذه اللفظة البشعة ... أنت رجل
مهذب يا صاحب السعادة ... انت رجل ذو كبرياء ، وذو حمية ... أما
هى ، ياسيدى ، فهى طفلة ، طفلة بغير عقل ... سرعان ماتقع فى الانهم ...
هى قوية البنية ، وأنا مريض دائما .. ولكن ماذا تريد ! ... ان الشيطان
يتدخل فى الأمر .. انا اقص عليها حكايات ! .. نعم يا سيدى . اتنا
أنا وزوجتى ندعو الله لك بالخير ، لا نكف عن ذلك . هى جميلة ، نعم ،
ولكنها ليست آخر الأمر الا فلاحه ، الا امرأة بسيطة ... انها لا تحسن
غسل جسمها ... وهى حمقاء ، تصلح لى أنا الفلاح .. أما أنت ياسيدى
فلا تصلح لك .. وما أكثر ما ندعو لك الله بالخير ! ..

هنا انحنى مورين انحناءة كبيرة ، وفل على هذه الحال من الانحناء
مدة طويلة ، دون أن ينتصب ، ماسحا لحيته بكفه .

لم يعرف ياروسلاف ايلتشس ماذا يجب عليه أن يفعل •
قال مضطربا كل الاضطراب :

- نعم ، ان هذا الرجل الشهم قد حدثنى عن شىء من سوء التفاهم
وقع بينكما فيما يظهر • لا اجرؤ ان أصدق ، يا فاسيلي ميخائيلوفتش ...
سمعت أنك ما تزال مريضا (كذلك قطع ياروسلاف كلامه بسرعة ، منفعلا
جدا ، حين لاحظ اضطراب أوردينوف) •

ألقى أوردينوف على مورين هذا السؤال فجأة :
- كم لك على ؟

- ما هذا الكلام يا سيدى ... ما نحن بباعه المسيح ! ... لماذا
تهيننا يا سيدى ؟ هلا خجلت من مثل هذا السؤال ... هل أسأنا اليك ،
أنا أو امرأتى ؟ ... عفوك ...

- ولكن هذا أمر غريب يا صديقى ... لقد استأجر غرفة عندكم
... أفلا تشعر أنك برفضك هذا انما تهينه ؟ ..

بهذا الكلام تدخل ياروسلاف ايلتشس ، معتقدا أن من واجبه أن
يبين لمورين أن فعله هذا غريب خال من اللباقة ...

- ولكن عفوك يا سيدى ... ما هذا الكلام يا سيدى .. أأخطانا
فى حقلك ؟ لقد قمنا بكل شىء فى سبيل أن نهيب لك الراحة والمسرة ..
أرجوك يا سيدى .. ماذا ؟ أنحن أناس لا نعرف الوفاء ؟ .. لأن يعيش
بيننا ، ويقاسمنا طعامنا ، طعام الفلاحين ، فهنيئاً مريثاً ... ما كان لنا أن
نقول شيئا فى هذا .. ولكن الشيطان تدخل فى الأمر .. أنا مريض ،
وزوجتى مريضة أيضا .. فما العمل ؟ كان يمكن أن يسعدنا وجوده معنا
كل السعادة ... ولكننا سندعو لك الله بالخير ، أنا وزوجتى ! ...

مرة أخرى انحنى مورين انحناء كبيرة * وظهرت في عيني
ياروسلاف ايلتش دمة ، ونظر الى أوردینوف في حماسة وقال :

— ما أنبل هذه السجایا ! ما أعظم روح الضیافة المقدسة هذه التي
يحتفظ بها الشعب الروسى *

نظر أوردینوف الى ياروسلاف ايلتش نظرة غريبة من رأسه الى
قدميه * قال مورين :

— وأنا يا سيدى .. نعم .. هذه هى المسألة ... روح الضیافة ..
هل تعلم ؟ اننى أقدّر الآن أن من الخير أن تبقى عندنا يوما آخر (قال
ذلك مخاطبا أوردینوف) * لا اعتراض لى على ذلك البتة .. ولكن زوجتى
مريضة .. آه لو لم تكن عندى زوجتى ! آه لو كنت وحيدا ... اذن
لرأيت كيف أغتشى بك .. اذن لرأيت كيف أشفيك من مرضك ! اننى
أعرف وصفات طيبة .. حقا .. لعلك تبقى عندنا يوما آخر مع ذلك *

قال ياروسلاف ايلتش :

— فعلا .. أليس هناك دواء ما ؟

ولكن ياروسلاف ايلتش لم يتم كلامه *

كان أوردینوف ينظر اليه من قمة الرأس الى أخمص القدم حانقا
مدهوشا *

لا شك أن ياروسلاف ايلتش انسان من أشرف الناس وأنبلهم ،
ولكنه فهم الآن كل شىء * يجب أن نعرف أن وضعه حرج جدا * أراد
لو ينفجر ضاحكا كما يقال * ولو كان فى خلوة مع أوردینوف ، أى فى
اجتماع بين صديقين كهذين الصديقين ، لما استطاع أن يضبط نفسه ،

ولأخذته نوبة من مرح شديد لا قصد فيه ولا اعتدال ، ولكن ضحكه هذا ضحكا نبيلًا على كل حال ، حتى إذا انتهى الضحك صافح أوردينوف مصافحة ودية ، وحاول أن يقنعه مخلصًا بأن احترامه له قد ازداد ولم ينقص ، وأنه يقدره على كل حال ، لأن هذا في طبيعة الشباب .. ولكن ياروسلاف ايلتش في وضع حرج الآن ، بسبب رهافة شعوره ، وشدة أدبه .. انه في وضع حرج جدا ، لا يدري ماذا يفعل .

قال مورين وقد اتعش لسؤال ياروسلاف ايلتش :

— دواء ؟

ثم تابع يقول وهو يتقدم خطوة الى أمام :

— أنا يا سيدى ، أنا الفلاح الغبى .. أقول .. أقول انك تسرف فى قراءة الكتب يا سيدى .. أقول انك أصبحت أذكى مما يجب . المثل عندنا يقول : تجاوز عقلكم العقل يا فلاحون .

قال ياروسلاف ايلتش بقسوة يقاطعه :

— كفى !

قال أوردينوف :

— أنا ذاهب . شكرا يا ياروسلاف ايلتش .

وأضاف يقول واعدة بتلبية دعوة ياروسلاف ايلتش الذى لم يستطع أن يتنبه عن الانصراف :

— سأجىء اليك حتما . الوداع . الوداع ! ..

— وداعا ، سيادتك ... وداعا سيدى ! لاتنس .. زرنا أحيانا ..

لم يسمع أوردينوف مزيدا • وخرج كالمجنون •
لقد نفذ صبره ، وأصبح لا يطيق أن يخطر أكثر مما احتمال •
كان كالميت • تجمد شعوره • أحس بالمرض يخنقه خنقا • ألا أن يأسا
باردا كالتليج كان يستولى على نفسه • أصبح لا يحس الا ألما أصم يخنقه
ويعزق صدره • ودَّ في هذه اللحظة لو يموت • اثنت ركبتاه تحتاه ،
فجلس قرب صف من الأشجار لا ينتبه لا الى الناس الذين يمرون أمامه ،
ولا الى الجمهور الذى أخذ يتحلق حوله ، ولا الى نداءات وأسئلة من
يحيطون به • ولكن أوردينوف يسمع بين هذه الأصوات صوت مورين
على حين فجأة • فينهض رأسه • كان الشيخ قد شق طريقا اليه بعد عناه •
ان وجهه الشاحب رصين واجم • ليس هو الآن ذلك الانسان الذى كان
يضحك عليه بفضفاضة عند ياروسلاف ايلتش • نهض أوردينوف • تناول
مورين ذراعه وأخرجه من بين الجمهور •

قال مورين وهو ينظر اليه من جانب :

— أنت فى حاجة الى أخذ أمتعتك •

ثم هتف يقول بعد ذلك :

— لا تحزن يا سيدى • أنت فى ريعان الشباب ، وما ينبغي أن.

تأس ...

لم يجب أوردينوف بشيء •

— أأنت مستاء يا سيدى ؟ واضح أنك زعلان ... ولكنك مخطئ ...

ان من حق كل انسان أن يحافظ على ما يملك ...

قال أوردینوف :

— أنا لا أعرفك ، ولا أريد أن أعرف أسرارك ... ولكن هي ... هي ...

نطق أوردینوف بهذا ، وتدفقت دموع غزيرة من عينيه ، فمسحها بكمه • ان حركته ، ونظراته ، وارتجاف شفاهه المزرقين ، ان كل شيء يشعر من يراه بأنه جن •

قال مورين مقطعا حاجبيه :

— لقد قلت لك الأمر ... هي مجنونة ... أما لماذا وكيف أصبحت مجنونة ، فذلك شيء لا حاجة بك الى معرفته البتة ... كل ما هنالك أنهاء وهي على ما هي عليه ، لي أنا • اتنى أحبها أكثر من حياتي ، ولن أهبها لأحد •

برق لهيب في عيني أوردینوف • وقال :

— ولكن لماذا • • لماذا أحس أنا بأننى كمن فقد الحياة ؟ لماذا يتألم قلبي ؟ لماذا عرفت كاترين ؟

ابشم مورين وأطرق يفكر ، ثم قال :

— لماذا ؟ لا أعلم • • النساء • • ليست النساء كقاع البحر ... يمكن أن يفهمن أخيرا • • لكنهن ماكرات • صحيح يا سيدى أنها أرادت أن تتركنى لتذهب معك (كذلك أضاف يقول ذاهلا) ... لقد ضاقت بالشبح ... أخذت منه كل ما استطاعت أن تأخذ ! وقد أعجبت بك فورا ... ولكن سواء أكنت أنت أم كان غيرك ... أنا لا أعارضها • لو طلبت منى لبن المصفور لهيأته لها ... أصنع بنفسى عصفورا يدر لبنا ، اذا لم يكن

فى الكون عصفور كهذا ••• وهى مغرورة تحب الظهور ، وتحلم بالحرية
ولكنها لا تدري هى نفسها مصدر عذاب قلبها ••• الأفضل أن تبقى الامور
كما هى ••• هيه يا سيدى ! انك ما تزال شابا فى ريعان الصبا ! قلبك
ما يزال حارا متوقدا •• اسمع يا سيدى •• ليس فى طاقة انسان ضعيف
أن يضبط نفسه وحده • لو أعطيته كل شيء ، لجاء من تلقاء نفسه يرد كل
شيء ، حتى لو أعطيته نصف الكون • لو وهبت الحرية لانسان ضعيف ،
لأوتقها بيديه ، وأعادها اليك • لا قيمة للحرية عند قلب ساذج ••• ولا
يستطيع المرء أن يعيش مع طبع كهذا الطبع ••• أقول لك هذا كله لأنك
شاب فى ميعة العمر ••• ما أنت عندى ؟ لقد جئت ثم ذهبت ••• سيان
أنت وغيرك • كنت أعلم منذ البداية ما سيقع • ولكن ما ينبغي أن أعارض
••• ليس على المرء أن يعترض أى اعتراض اذا أراد أن يحتفظ بسعادته
••• كل شيء يمكن أن يقع (كذلك تابع مورين تفلسفه) • حين يفضب
المرء يتناول خنجرا ، بل لقد يهجم أعزل اليدين من السلاح محاولا أن
يمزق عنق عدوه ••• ولكن يكفى أن يوضع فى يدك خنجر ، وأن
يكشف لك عدوك عن صدره ، حتى تتراجع •••

دخل الرجلان فناء المنزل • رأى الترى مورين من بعيد ، فخلع
طاقية احترامها • ورشق أوردينوف بنظرة خبيثة •

صاح مورين :

— هيه ••• هل الأم فى البيت •

— نعم فى البيت •

— قل لها أن تساعد فى نقل الأمتعة ••• وعاون أنت أيضا •

صعدا السلم • جمعت العجوز التى تخدم فى بيت مورين ، وهى
فى الواقع أمُ البواب ، جمعت أمتعة المستأجر وجعلتها فى حزمة •

- انتظر • سأتيك أيضا بشيء بقى هناك ، وهو لك •

قال مورين ذلك ومضى الى غرفته • وعاد بعد دقيقة يمد الى
أوردينوف مخدة مطرزة هى المخدة التى جاءت به كاترين حين كان
مريضا ، ويقول له :

- انها هى التى ترسل اليك هذه المخدة • والآن هيا انصرف ،
وحذار أن تعود الى هنا (أضاف ذلك هامسا) ، والا ساءت الأحوال ...

كان واضحا أن مورين لم يقصد أن يهين الرجل ، ولكن حين ألقى
عليه نظرة أخيرة ، فقد ارتسم على وجهه ، بالرغم منه ، تعبير عن الغضب
والاحتقار ؟ ثم أغلق الباب وراء أوردينوف باشمئزاز تقريبا •

وبعد ساعتين كان أوردينوف يستقر عند الألماني سيس • ان تينيش
لم تملك أن صاحت « آه » حين رأتة داخلا • ثم لم تلبث أن استفسرت
عن صحته ، فلما علمت بمرضه ، أسرعته تعالجه •

وأظهر الألماني العجوز لصاحبه ، متباهيا ، أنه كان يتهاى لوضع اللقطة
عند باب العمارة ، لأن مدة الايجار المدفوع سلفا انما تنتهى فى هذا اليوم •
كان العجوز لا يفوّت فرصة تنجح له أن يشيد بالدقة الجرمية ، وبالأمانة
الجرمية •

مرض أوردينوف فى ذلك اليوم نفسه • فلزم سريره ولم يغادره
الا بعد ثلاثة أشهر •

عادت اليه عافيته شيئا فشيئا وأخذ يخرج • ان الحياة فى منزل

اللامائية رتيبة هادئة تجرى على وتيرة واحدة • لم يكن طبع الألماني صعبا • وكانت تينيش الحلوة على خير ما يتمنى المرء أن تكون • ولكن الحياة فى نظر أوردینوف كانت تبدو فاقدة لونها الى الأبد • أصبح أوردینوف حالما ، سريع الاحتياج ، واصبحت حساسيته مرضية ، وشيثا فثسيا اخذت تسيطر عليه كآبة خطيرة جدا ، كآبة خبيثة •••

اصبح لا يفتح كتبه اسابيع كاملة • وأصبح المستقبل يبدو له مظلما • وكانت موارده تشارف على نهايتها ، وهو لا يعمل شيئا ، ولا يحفل بالعد • ولئن كانت حماسه القديمة للعلم وحميته السابقة والصور التى خلفها للماضى تعود الى الظهور أحيانا ، فانها كانت لا تزيد على أن تخفق طاقته • اصبحت الفكرة لا تستحيل عنده الى فعل • توقف الخلق • كأن تلك الصور جميعها كانت تتخذ فى أحلامه أبعادا ضخمة عن صمد ، لتسخر من عبز صاحبها نفسه • وكان فى ساعات حزنه يشبه نفسه ، على غير ارادة منه ، بتلميذ الساحر* ذلك الذى سرق من أستاذه الكلمة السحرية التى تأمر المكسبة بتفجير الماء ، فاذا هو يفرق فى الطوفان لأنه نسي كيف يقول : كفى •

ترى هل ستستيقظ فى نفسه فكرة أصيلة ، كاملة ؟ ترى هل سيصبح علما من أعلام العلم ؟ لقد كان فى الماضى يؤمن بذلك على الأقل • والايمان المخلص الصادق ضمانة المستقبل • أما الآن فكثيرا ما يسخر من نفسه ومن ثقته العمياء ، وهو لا يتقدم خطوة •

كان منذ ستة أشهر قد خلق وألقى على الورق مخطط كتاب كان يعقد عليه آمالا لا حدود لها • كان هذا الكتاب يتناول تاريخ الكنيسة ، وقد خرجت من قلم أوردینوف نتائج جريئة • ها هو ذا الآن يعيد قراءة هذا المخطط ، ويفكر فيه ، ويعدله ، ويدرسه ، ويبحث ، ثم يرميه أخيرا

دون أن يبنى على أنقاضه شيئا • غير أن شيئا يشبه الصوفية أخذ يفزو نفسه • كان المسكين يحس الامة ويسأل الله أن يشفيه منها • لقد حكّت خادمة الالمانى ، وهى امرأة عجوز روسية تقية جدا ، ان الساكن كان يصلى ويبقى راكعا عند عتبة الكنيسة ساعتين كاملتين •

ولم يكن أوردنيوف يقول لاحد كلمة واحدة عما حدث له • ولكن العاصفة كانت تهب فى نفسه الجريحة أحيانا ، ولا سيما ساعة الشفق ، حين يذكره صوت النواقيس بأول لقاء له معها ، انه يتذكر عندئذ العاطفة التى كان يجهلها حتى ذلك الحين ، والتى هزت صدره حين ركب قربها لا يصغى الا الى خفقان قلبها الوجيل ، ولا يحس الا دموع الحماسة والفرح تنتشر على الأمل الجديد الذى يبرق فى حياته • عندئذ كان عذاب الحب يحرق صدره من جديد ، بينما يعانى قلبه ألماً مرأ محموما ، وكأن حبه يزداد بازدياد حزنه •

وكثيرا ما كان يبقى فى مكان واحد ساعات بأسرها ، ناسيا نفسه ، ذاهلا عن حياته كلها ، غافلا عن كل شئ فى العالم ، وحيدا حزينا ، يهز رأسه يأسا وحسرة ، وينتم قائلًا : « كاترين ، حمامتى العزيزة ، أختى الوحيدة ! » •

وهذه فكرة رهيبة مروعة تأخذ تعذبه ، وتحاصره مزيدا من المحاصرة يوما بعد يوم ، ثم تستحيل عنده الى يقين فواقع ؟ وهو أن عقل كاترين سليم ، ولكن ما وصفها به مورين من أنها قلب ضعيف ، هو وصف صادق • أصبح يلوح له أن هناك سرأ يربط كاترين بالشئخ ، ولكن كاترين ، الجاهلة بالجريمة ، قد أصبحت فى قبضة يده خاضعة لسلطانته كحمامة بريئة • من هما ؟ ان أوردنيوف لا يعرف جوابا لهذا السؤال • ولكنه يرى أن طغيانا فظيما لا مهرب منه يجثم على صدر هذه المخلوقة

الشقية التى لا تملك أن تحمى نفسها ، فيشعر أوردينوف من ذلك باضطراب فى قلبه ، وتمتلئ نفسه ألماً عاجزاً • كان يتصور كآثرين إنسانة وضموها على عينيها غشاوة ، واخذوا يخيّلون اليها غادرين انها تسقط وتهوى : انهم يعذبون قلبها المسكين « الضعيف » تعذيب الشهداء ؛ يصورون لها الحقيقة على ما يريد لهم هواهم زورا ، يبقونها فى العماوة عامدين ، ويتملقون بالمكر قلبها العارم المضطرب ، فيقصون بذلك ، شيئا بعد شيء ، جناحي نفس تتطلع الى الحرية ولكنها عاجزة عن التمرّد ، عاجزة عن الانطلاق الى الحياة •

أصبح أوردينوف يزداد توحشا يوما بعد يوم • ويجب أن نعرف بأن أصحابه الامان كانوا يراعون توحشه ويحترمونه • وكان يؤثر لنزهاته ساعة الشفق ، والاماكن البعيدة المقفرة • وها هو ذا ، فى ذات مساء حزين ممطر ، يلقي ياروسلاف ايلتش فى زقاق ضيق موحش •

كان ياروسلاف ايلتش قد انحل جسمه كثيرا • ان عينيهِ الملتصتين قد أصبحتا كابتيتين ، وان شخصه كله يدل على انه فقد اوهامه • كان يرلّص لعمل من الاعمال لا يطيق تأخرا • وكان مبللا متسخا وكانت قطرة من المطر تتدلى فى صورة عجيبه على أنفه الدقيق الذى ازرق الآن ازرقا شديدا • وكان عدا ذلك قد أرخى لحيته عارضيه •

دُهِش أوردينوف من اللحيتين ، ودَهِش مما ظهر فى صديقه من انه يريد تحاشيه والهروب منه • شيء غريب • ان أوردينوف قد جرح هذا الأمر قلبه الذى لم يكن قبل الآن فى حاجة الى عطف أحد • ان الشخص الذى عرفه أوردينوف قبل الآن بسيطا طيبا ساذجا - بل قل اذا شئت الصراحة غبيا ، ولكن على غير ادعاء - ان هذا الشخص يبدو الآن لأوردينوف أحب الى نفسه وأحلى فى نظره • والانسان ، فى مقابل ذلك ،

ينفر من الشخص الغبي اذا رأى هذا الشخص الغبي ، الذى لعله أحبه
لغباوته نفسها ، اذا رآه يصيح ذكيا على حين فجأة • ولكن الحذر الذى
عبر عنه وجه ياروسلاف ايلتش حين نظر الى أوردينوف نظرة أولى لم
يلبث أن امحى ، ثم اذا هو يجرى مع أوردينوف حديثا فيه كثير من
الصدقة • قال له فى اول الامر ان هناك اعمالا كثيرة ينبغي له أن يقوم
بها ؛ ثم قال له انهما لم يلتقيا منذ زمن طويل ؛ ولكن سرعان ما جرى
حديثهما مجرى غريبا على حين فجأة • أخذ ياروسلاف ايلتش يتحدث
عن زيف البشر عامة ، وعن شرور هذا العالم ، وعن أن كل شيء باطل •
وتحدث عن بوشكين بغير اكترات ، ثم قال فى حق بعض الأصدقاء كلاما
يدل على مرارة فى قلبه • وأشار أخيرا الى كذب أولئك الذين يزعمون
أنهم أصدقاء ، على حين أن الصداقة الحقة لا توجد ولم توجد فى يوم من
الأيام • الخلاصة أن ياروسلاف ايلتش قد أصبح ذكيا أكثر مما يجب •
لم يعترض أوردينوف بشيء ، ولكن حزنا كبيرا استولى على نفسه ،
كما لو كان يدفن خير صديق من أصدقائه •

صاح ياروسلاف ايلتش يقول فجأة ، كمن تذكر أمرا هاما جدا :
- آه •• تخيل •• كدت أنسى أن أحكى لك •• هناك جديد •••
أفضى اليك به سرا ••• هل تذكر المنزل الذى سكنت فيه ؟

ارتعش أوردينوف واصفر وجهه •

تابع ياروسلاف ايلتش يقول :

- تخيل أننى اكتشفت فى هذا المنزل مؤخرا عصابة من اللصوص ••
أقصد من المهربين والمحتالين وسائر أنواع اللصوص • فاعتقل بعضهم ،
وما يزال بعضهم الآخر ملاحقا ••• أصدرت أوامر مشددة ••• وهل

تصدق ؟ أتذكر صاحب العمارة ، ذلك الشيخ المعجوز جدا ، الوقور ،
الذى يدل مظهره على النبيل ...

— هه ؟

— هل تؤمن بعد الآن بالإنسان ؟ انه هو رئيس العصاة كلها !
كان ياروسلاف ايلتش يتكلم بحماسة ، ويتخذ من هذه الواقعة
المتبدلة حجة للحكم بالسوء على البشر جميعا . لقد كان هذا فى طبعه .
سأله أوردینوف بصوت خافت جدا :

— والآخرون ؟ ... ومورين ؟ ...

— مورين ؟ لا .. هذا شيخ محترم .. نبيل .. ولكن اسمح لى ..
ان سؤالك هذا يلقي ضوءا جديدا ..

— ماذا ؟ أیكون واحدا من أفراد العصاة ؟

وثب قلب أوردینوف استطلاعا .

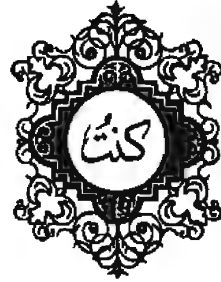
قال ياروسلاف ايلتش وهو يرمق أوردینوف بعينيه المنطقتين علامة
التنكر :

— ولكن .. لا .. ما هذا الكلام ! .. ان مورين لا يمكن أن يكون
واحدا منهم ... لقد سافر مع زوجته الى بلده قبل الحادث بثلاثة أسابيع
... علمت ذلك من البواب ... هل تتذكره ، ذلك الترى القصير ؟

المهزج

١٨٤٨

« المهرج* » (Polzouunkov)، كتب
دوستويفسكى هذه القصة سنة
١٨٤٧ ، ونشرت في مطلع سنة
١٨٤٧ في « المجلة المصورة » التي
كان يصدرها باناييف وتكراسوف .



أنظر الى الرجل • ان فى هيئته من الغرابة ما يدفع
المرء الى ضحك لا سبيل الى مغالبتة متى نظر
اليه ، وهذا ما حدث لى فعلا • ملاحظة أخرى :
ان عيني هذا الرجل الصغيرتين ما تنفكان تدوران
فى جميع الاتجاهات بغير انقطاع أو توقف ؛ وانه ليبلغ من التأثير المغناطيسى
بنظرات الغرباء أنه كمن يحزر بفريزته الانتباه الذى ينصب عليه ، فاذا
هو يلتفت بسرعة ويحدد الى الشخص المزعج قلعا • ان حركته الدائمة
تجمله أشبه فعلا بصفيحة المعدن التى تدل حركتها على اتجاه الريح •

أمر غريب حقا : انه كمن يخشى السخريات ، رغم أنه مدين
لاستهزاءات الناس بأضمن وسائل معيشته ، فهو مهرج لهم جميعا ، ومهمته
الأساسية هى أن يتلقى اللطعات ، المعنوية وحتى الحسية ، تبعاً للمجتمع
الذى يكون فيه •

والمهرجون الذين يهرجون للناس طواعية واختيارا لا يشيرون فيك
الشفقة • ولكننى لاحظت أن هذا الرجل المضحك لم يكن بهلولا محترفا ،
وأنه ما يزال فيه شيء من رفعة ؛ فما يلوح فى وجهه من حرج وانزعاج

وخوف دائم مرضى مسيطر ، كل ذلك يمكن ان يدرا عنه تهمة الخسة
والحقارة •

وقد خيل الى أن رغبته في أن يخدم الناس تنبع من طبيعة طيبة ،
وانها هي التي تتحكم فيه أكثر مما تتحكم الحسابات المادية • كان يسره
بعض الشيء أن يسخر منه ، وأن يُستهكم عليه ، ولكنني مستعد لأن أحلف
أن قلبه يمكن أن ينزف دما لو تصور أن سامعيه يضحكون ضحكا شريرا
لا مما يقصه عليهم بل من شخصه نفسه ، من قلبه ، من عقله ، من
مظهره ، من لحمه ودمه •

وأنا على يقين من أنه كان في تلك اللحظات يشعر بكل ما في موقفه
من فظاعة ، ولكن كل احتجاج كان يموت في حلقه ، رغم أن المرء يشعر
في كل مرة أن هذا الاحتجاج قد نبت في نفسه نبلا كريما • وأقول مرة
ثانية انني مقتنع بأن التضاد ناشئ عن بقية باقية من كرامة وحساسية عميقة
خفية لديه ، لا عن توقعه أن يطرد ركلا بالأرجل ، وأن لا يستطيع أن
يستعطي سامعيه بعض المال : والحق أن الرجل كان يستعطي دائما ، فهو
يطلب ، بغير حياء ، أجر ما يقوم من تكشيرات وما ينزل اليه نفسه من
وضاعة • انه يشعر أن من حقه أن يفعل ذلك ، ولا تهدف أضحايكه الى
غير هذا الهدف الوحيد •

ولكن يا له من استعطاء ! وباللهيثة التي كان يعتقد أنه مضطر الى
اصطناعها في سبيل ذلك ! ••• ما كان في وسعي أن أتصور ، قبل أن
أراه ، أن مساحة ضيقة كمساحة وجهه هذا المتجمد المتكسر الزوايا
المخرب يمكن أن تكون مسرحا لكل هذه التصويرات المختلفة ، ولكل هذه
الاحساسات الغريبة والمشاعر اليائسة في الوقت نفسه • أي شيء لا يراه
المرء في هذا الوجه ؟ انك ترى الحجل والحياء ، وترى الفطرسه الكاذبة ،
وترى الغضب وما يصحبه من احمرار ، وترى الخوف والوجل ، وترى

طلب الغفران من الناس عن ازعاجهم ، وترى الاقتناع بأنه ذو قيمة وبأنه ليس بذى قيمة *** هذا كله تراه يطوف بوجهه سريعا كومض البرق •

انه لم يستطع ، بعد ست سنين من محاولته الحصول على مركز فى هذا العالم فى كنف الرب ، ان يصل الى ان يشكل لنفسه هيئة تليق بالاحظات الشائقة التى يجرى فيها الاستعطاء • وواضح أنه ما كان له أبدا ان يسرف فى التذنى وان يضع نفسه ، فان فى قلبه من الحرارة والحركة ما لا يسمح له بذلك ؛ بل أزيد على هذا فأقول : انه كان انسانا من أشرف خلق الله وانبلهم ! هناك ضعف واحد كان يدنيّه : انه مستعد ، لدى أول اشارة ، لان يرتكب حقارة صغيرة ، عن طيب قلب وبغير حساب ، لا لشيء الا أن يسر الآخرين • فاذا شئت أن تستعمل الكلمة الدارجة على ألسن العامة فقل انه كان كخرقة رخوة ••

وأبعث ما فيه على الضحك أنه كان يرتدى ثيابا كتياب سائر الناس ، لا أحسن منها ولا أسوأ ، ثيابا نظيفة دائما ، على شيء من تأنيق ، هذا عدا ميل الى الظهور بمظهر المثانة والوقار •

فهذا المفلهر الخارجى ، وهذا الخوف الداخلى الذى يبدو أنه يعذبه فى الوقت نفسه ، وهذه الحاجة الى المذلة بغير انقطاع ، ذلك كله كان يؤلف تضادا يبعث على الضحك وعلى الشفقة فى آن واحد معا • فلو كان مقتنعا - وهذا ما كان يحدث له فى كثير من الأحيان رغم تجاربه - بأن جميع سامعيه أناس طيبون ، قادرون على أن يضحكوا الا من أنفسهم أو من قصة هزلية فى ذاتها ، لا من شخصه هو ، لكان يسره أن يخلع رداءه فيلبسه مقلوبا ، ويمضى يتجول فى الشوارع على هذه الصورة ، لا لشيء الا ليضحك هؤلاء الناس الذين يعيلونه ويحمونه ، وليحمل الى قلوبهم المسرة والبهجة •

وثمة سمة أخرى من سمات طبيعه : كان هذا الرجل المضحك لا يخلو من حب الذات والشعور بالكرامة ، بل انه فى بعض الأحيان ، حين لا يكون مهددا بأى خطر ، لا يخلو من كبر وعظمة . ليتك تراه كيف كان يستطيع أن يؤدب حتى واحدا من معيبيه و « حماته » حين يتجاوز هذا الحدود المباحة . صحيح أن ذلك ما كان يحدث الا نادرا ، ولكن الرجل لم يكن يراعى شيئا أو يدارى أحدا متى حدث شيء من ذلك ، حتى لقد كان يظهر عندئذ شيئا من البطولة حقا .

وخلاصة القول ان الرجل كان شهيدا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، لكنه شهيد بغير طائل ، وهو لهذا نفسه مضحك تماما .

ولقد أتبع لى بعد قيام مناقشة عامة أن أرى هذا الرجل المضحك يصعد فجأة على طاولة مسرعا ، فيصبح طالبا الى الناس أن يعودوا الى الصمت ، سائلا اياهم أن يستمعوا الى كلامه :

قال لى صاحب البيت :

— استمع اليه ... انه يقص فى بعض الأحيان أشياء شائقة ... هل يروقك هذا ؟

فأغضت رأسى بعلامة الموافقة ، وانضمت الى الجمهور .

ان منظر هذا السيد الحسن الهندام ، الذى يصبح من على طاولة معمولا قد أثار دهشة البعض وأثار ضحك البعض الآخر .

صاح المهرج يقول :

— أنا أعرف تيسودوز نيكولايفتش ! أعرفه أكثر من أى انسان فاسمحوا لى أن أقص على مسامعكم قصة خارقة ! ...

– قص علينا ، قص علينا يا أوزيب ميخائيلوفتش !

– عليكم بالاصغاء اذن • هأنذا أبدأ أيها السادة • انها قصة خاتمة

حقا ***

– عظيم *** عظيم ***

– قصة مضحكة ***

– عظيم *** ممتاز *** هيا •

– هي قصة فترة من حياة خادمكم الوضيع ***

– فلماذا تقول اذن انها قصة مضحكة ؟

– وهي فوق هذا قصة محزنة •

– آه

– خلاصة القول ان هذه القصة هي التي هيأت لكم حظ الاستماع

الى في هذا اليوم • فبفضل هذه القصة انما أوجد الآن في حفلكم الطريف

هذا •

– دعك من الغمز !

– هذه القصة ***

– أما لهذا التمهيد من نهاية ؟ *** هلا بدأت القصة ! *** لا شك

أن هذه القصة تكلف شيئاً ***

كذلك صاح يقول سيد أشقر شاب ، ومد يده الى جيبه فأخرج منها

محفظة نقوده ، متظاهرا بأنه يبحث عن متديله •

– هذه القصة يا سادتى قد منعت نجاح زواجى •
– زواج ! ••• زوجة ! ••• بولزونكوف أراد أن يتزوج ؟
– اعترف لكم بأنه كان يسرنى ان ارى مدام بولزونكوف •
– أتاؤذنى لى أن أسألك ما اسم تلك التى كان يمكن أن تصبح مدام
بولزونكوف ؟

بهذا هتف شاب كان يحاول الاقتراب من القصاص •
– اليكم يا سادتى الفصل الاول من قصتى : ومع ذلك منذ ست
سنين ، فى الربيع ، فى اليوم الواحد والثلاثين من شهر اذار (مارس) •
احفظوا التاريخ ••• انه عشية •••

– عشية الأول من نيسان (ابريل)

– حضرت ••• انك لشاطر حقا ••• كان ذلك فى المساء • الفللمان
تتكأف فوق مدينة ن ••• الصغيرة ، ولكن القمر يظهر من حين الى
حين ••• الخلاصة أن كل شىء كان شعريا على ما تحبون ••• فى ذلك
الوقت ، ابان الغسق المتأخر ، خرجت من مسكنى الصغير ، بعد أن ودعت
جدتى ••• جدتى الحبيسة (اعذرونى اذا أنا استعملت فى وصفها هذا
التعبير الذى سمعته منذ هنيهة فى منزل نيكولا يقتش ، والحق أن جدتى
كانت حبيسة تماما ، فهى عمياء خرساء صماء بلهاء ••• وكل ماتشاون) •
ويجب أن أعترف أنني كنت أرتعد ارتعادا شديدا ، لأننى كنت أنهيا
لمواجهة مسألة كبرى ، للقيام بصفقة ضخمة • كان قلبى يخفق خفقانا قويا
كقلب قطعة صغيرة رفعتها يد معروقة من جلد رقبتها •

– عفواً يا سيد بولزونكوف ، ماذا تريد ؟

— أرجوك أن توجز ، وأن تروى القصة ببساطة •

قال بولز ونكوف وهو ظاهر الانزعاج :

— تحت أمركم ... دخلت منزل تيودور نيكولايفتش • وكان هذا الرجل زميلى ، بل قولوا انه كان رئيسى • ابلغوه وصولى ، وادخلونى الى غرفته التى ما زلت أراها فى خيالى حتى الآن • كان الظلام يسود الغرفة ، ولم يأتنى أحد بشمعة • ونظرت ، فاذا أنا أرى تيودور نيكولايفتش يدخل الغرفة • وبقينا كلانا فى الظلام • وعندئذ ، أيها السادة ، وقع بيننا شئ غريب • أقصد • لا • لم يكن فى الأمر غرابة • • فهذا ما يحدث فى الحياة : أخرجت من جيبي لفة أوراق • ولكن أوراقه هو كانت أوراقا مالية •

— أوراقا مالية ؟

— نعم ، وتبادلنا الاوراق : أعطانى أوراقه وأعطيته أوراقى •

— أراهن على أن المسألة مسألة تهديد بالتشهير • أراهن على ان الصفقة صفقة سكوت عن فضيحة • •

كذلك قال سيد شاب أنيق الهندام •

— تهديد يتشهير ؟ سكوت عن فضيحة ؟ آه يا سيدى ... لو أتبع لك يوما أن تعمل فى وظيفة بادارة من ادارات الدولة لرأيت كيف 'يسمح لك بأن تدفىء يدريك على موقد الوطن • الوطن أمنا ونحن أبناءها ، لذلك فنحن تشبث بشديها الذى يدر اللبن ما وسعنا التشبث •

ما ان سمع الناس هذا الكلام حتى امتلأت الغرفة قهقهات !

وتابع القصاص يقول بصوت عالٍ وهو يرشق الجمهور بنظرة شك وحذر :

صدقوني مع ذلك يا سادتي اذا قلت لكم اننى لم أقبل رشوة فى يوم
من الأيام •

وهنا انفجرت قهقهات جديدة غطت أقوال بولزونكوف •

— أؤكد لكم ذلك أيها السادة •

وتوقف عن الكلام ينظر الى ساميه • كان تعبير وجهه غريبا : لاشك
أنه قد خطر بهالى أنه ، بين أفراد هذا الحفل الشريف الامين ، خسة
شرف وسوء أمانة • ومع ذلك ظل وجهه رصينا الى أن هدأت القهقهات •
فاستأنف يقول :

— اننى لم أقبل رشوة فى يوم من الايام • لكننى فى هذه المرة
قبلت المال الذى أعطانيه رجل ألف هذه الطريقة فى تسوية بعض الامور
وحل بعض القضايا • كنت أملك أوراقا ترضى سمعة تيودور نيكولايفتش
للخطر ، وتهدهه بأذى •

— تقصد أنه اشترى منك هذه الاوراق •

— نعم •

— وكم أعطاك ؟

— أعطاني ... أعطاني ما لو أعطاه لأى واحد منكم أيها السادة
لأشترى به ضميره فى جميع صوره وأشكاله • • اذا كان هذا الضمير
يساوى شيئا ويستحق أن يشتري أصلا • ومع ذلك شعرت فى تلك
اللحظة بأننى كمن 'صب' على رأسه ماء يفلئ ... أؤكد لكم اننى أصبحت
عندئذ لا أعرف ماذا يجرى فى نفسى ، فأنا أقرب الى الموت منى الى
الحياة : ساقى تصطكان ، وشفقائى ترتجفان ، وأنا أهم أن أستغفر وأن

أطلب العفو والصفح من فرط شهورى بالذنب والاثم أمام تيودور
نيكولايفتشس •

— وهل غفر لك أخيرا ؟

— لم أستغفره ••• وانما ذكرت لكم الآن ما جرى فى نفسى ، لئلا •
ان لى قلبا يفيض حرارة كما ترون • وكنت أرى أنه ينظر الى •

قال لى رئيسى :

— أأنت لا تخشى الله القوى الجبار يا أوزيب ميخائيلوفتشس ؟

ماذا كان فى وسعى أن أقول ردا على هذا السؤال ؟ لذلك لم أزد
على أن باعدت ذراعى اصطناعا ، ولويت رأسى على كتفى ، وقلت له فى
مشقة وعناء :

— لماذا تتصور أننى لا أخشى الله يا تيودور نيكولايفتشس ؟

أعود فأقول لكم اننى فعلت ذلك اصطناعا ، أما فى قرارة نفسى فقد
تمنيت لو أغور تحت الأرض •

— أبعد أن كنت صديق أسرتنا هذه المدة الطويلة كلها ، أبعد أن
كنت بمثابة ابن ، ولا يدري الا الله ماذا كان يمكن أن تصبح أيضا ، أبعد
كل هذا يا أوزيب ميخائيلوفتشس تنجى ، فتهددنا بأن تشى بنا ؟ فبمن تشق
بعد الآن وعلى من تتكل •

هذا ما قاله لى ثم طفق يتحدثنى فى الأخلاق قائلا :

— قل لى يا أوزيب ميخائيلوفتشس : ماذا يجب أن يكون رأى فى
الناس بعد اليوم ؟

وقلت لنفسى أنا أيضا : « حقا ماذا يجب أن يكون رأى فى الناس
بعد اليوم ؟ » • وشعرت باحتقان فى حلقى ، وأخذ صوتى يرتجف • واذ
كنت أعرف ضعف ارادتى ، فقد أسرعت أتناول قبعتى تأهباً للخروج •

— ما هذا يا أوزيب ميخائيلوفتش ؟ الى أين تذهب ؟ هل يُقبل أن
تظل تلاحقنى بكرهك وبغضك ؟ ماذا صنعت بك ؟ ماذا فعلت لك ؟ •••

— تيودوز نيكولايفتش ، تيودوز نيكولايفتش !

— كنت قد أصبحت رخوا كقطعة من سكر ذائب ، وثلاث حزمة
الاوراق النقدية قد ثقلت فى جيبى ، ثقلت على ضميرى حتى لكانها تصيح
بى قائلة : « يالك من لص ! يالك من انسان عقوق لعين ! » ••• وكان هذه
اللفة الصغيرة قد أصبح وزنها خمسة أرطال (آه ••• ياليت وزنها كان
خمسة أرطال حقا ! ••• » ♦

قال تيودوز ميخائيلوفتش :

— اننى أرى وألاحظ أنك نادم ••• أنت تعلم أن غدا هو •••

— عيد ماريا المصرية * •••

— كفكف دموعك • هيا ••• لقد أخطأت ثم ندمت • هيا ••• لعلنى
أستطيع أن أردك الى سواء السبيل ••• بل لعل مسكنى المتواضع أن يشيع
شيئا من الحرارة فى قلبك الذى ضلّ ولا أقول قسا ! •••

قال ذلك وأمسك يدى أيها السادة ، فقادنى الى وسط أسرته •••
شعرت ببرد يسرى فى جسمى • أخذت أرتعش حين تساءلت بأى وجه
أقابل ••• ذلك أن على أن أعترف لكم أيها السادة أن المسألة حرجية
جدا •••

- أهنا لك كانت توجد مدام بولزوتكوف ؟

كذلك سأله أحد الساخرين •

- بل هنالك كانت توجد ماريا تيودوزيفنا • لم 'يقسم' لها أن تحمل الاسم الذى ذكرته ، لم يكتب لها هذا الشرف • يجب أن أذكر لكم أيها السادة أن تيودوز نيكولايفتش كان على حق حين قال اننى كنت أعد فى منزله بمثابة ابن • كان هذا صادقا الى ستة أشهر خلت ، حين كان ميشيل مكسيموفتش دفيجايلوف ما يزال حيا • ولكن مشيئة الله العليا قد اختصرت إقامته فى هذا العالم قبل أن يتسع وقته لكتابة وصيته •

- هو •••

- نعم ••• وبقيت أنا لا أملك فى جيبي الا صفرا ••• ذلك أن السيد المتوفى (رغم أنهم ما كان لهم أن يسمحوا لى بدخول بيته) كان على جانب عظيم من التراء ، وكان يعذبني كابن له ، وهو فى ذلك على حق •••

- آ آ ••• آ •••

- نعم ، كذلك كان الامر ••• وهذا الحادث الذى كان كارثة لى هو السبب فى أن الأنوف فى منزل تيودوز ميخائيلوفتش قد شمخت لى الى غير حد ، وأنهم أصبحوا لا يعاملوننى فى رفق كما كانوا يعاملوننى قبل ذلك •

لاحظت ذلك كله محاولا أن أظهار بأننى لا أباليه ولا أحفل به حين نلهر فى مدينتنا ، لسوء حظى (أو ربما لحسن حظى ، فمن يدري؟) ضابط من سلاح الفرسان • والضابط الذى ينتمى الى هذا السلاح انما مهنته أن يركض بغير انقطاع ، هى مهنة فارس كما تعلمون ، لا تسمح

لصاحبها ان يستقر فى مكان • ومع ذلك ففسد بلغ من التصاقه بأسرة
تيودوز نيكولا يقتنص ان ذلك أحزننى أشد الحزن •

وعلى عادتي ، عمدت الى طرق ملتوية واساليب غير مباشرة فى مواجهة
هذه المسألة امام حصى المقلب ••• قلت له : « كذا وكذا ، كيت وكيت ••• »
وقلت له : « لماذا تريد ان تعذبني هذا التعذيب يا تيودوز نيكولا يفتش ،
مع أنتى أكاد اكون صهرك منذ الآن ؟ » • وعندئذ أجابني يا سادتي •
وكان جوابه جوابا حقا ••• كان جوابه قصيدة طويلة مؤلفة من اثنتي
عشرة أغنية من شعر لو سمعه أحدكم لسمعه فافئرا فاف افتسنا • • وقفت
امامه مشدود السمع كاهله ، مع انه كان يجرى ويتلوى كتبان الماء • تلك
هى موهبته ، ايها السادة ، موهبته •••

وعندئذ بدأت حياثي مع الفتاة • أخذت أجيبها بقصائد مؤثرة ،
ومربيات طيبة المذاق • وحاولت أن أظهر لها بمظهر الرجل المسلي المضحك ،
فأردوى نكتا قائمة على الجنس ، وأطلق من صدرى آهات ، وانول لها ان
قلبي ينوب حيا وهياما ••• وأدرف الدموع حرتي ، وأبذل اعترافات
الحب فى سخاء ما بعد سخاء ••• حقا ان حماقة الرجل لا حدود لها ••
وأتم تعرفون هذا بأنفسكم من غير شك ••• اننى لم أنظر فى شهادة
ميلادى ، ونسيت أننى كنت قد بلغت من عمري الثلاثين ••• كان واضحا
أنهم يسخرون منى ويضحكون على •

واستبد بى الغضب آخر الأمر ، فقررت أن لا أدوس بينهم بعد
ذلك • وتذكرت بعض الوقائع ، وخطرت ببالي بعض الاقوال • وفكرت ،
فراودتنى تلك الفكرة ، فكرة الوشاية والتشهير • اعترف لكم بأن ذلك
كان منى صفارا • غير أن تقريرى الصغير كان يشتمل فى الواقع على
ابصاحات دقيقة ، بل على براهين قاطعة •

وهذا التقرير الذى أخذت ثمنه أوراها نقدية جاءنى بالف وخمسائة روبل فضة •

— ولكن هذا ابتزاز مالٍ عن طريق التهديد بالتشهير والفضيحة •

— نعم ، هو كذلك اذا شتم • ولكننى ، كما قلت لكم ، انما عمدت الى استعمال هذه الوسيلة مع شخص يحسن استعمالها ، وقد أُلِف استعمالها • وعلى هذا الاساس استطع ان أقول بصراحة ان فعلتى لم تكن جريمة • على كل حال ، دعونى أكمل القصة • وهأنذا أكملها :

— لا شك أنكم تتذكرون أن تيودور نيكولايفتشى قادنى الى الصالون وأنا أقرب الى الموت منى الى الحياة • وها هى ذى الاسرة كلها تهب الى لقائى وقد فاضت وجوها حزنا شديدا ، ان لم يكن غضبا كبيرا • كانوا يبدون جميعا مصعوقين ، ومع ذلك كان يرسم على وجوههم شيء من رصانة •• عاطفة تشبه أن تكون عاطفة الآباء نحو ابنهم : لكن دخولى عليهم كان عودة الابن الضال يرجع الى حظيرة الاهل • أجلسونى الى مائدة الشاى •• أما أنا يا سادتى ، فكان فى نفسى شيء كغليان الماء فى السماور ، بينما كانت قدماى متجمدتين صقيعا •• شعرت أنني صغير جدا ، تبس جدا ••• وها هى ذى زوجة رئيسى النبيلة توجه الى الكلام مخاطبة اياى بصيغة المفرد من قبيل رفع الكلفة فتقول : « يخيل الى من يراك أنك نحلت أيتها الفتى المسكين » ، وهأنذا أجيبها بقولى : « نعم يا ماريا فومينشنا ، ان صحتى ليست جيدة » • كان صوتى يرتجف ، وكأن المرأة الماكرة كانت لا تنتظر الا هذه اللحظة ، فاذا هى تقول : « واضح أن ضميرك هو الذى يعذبك يا عزيزتى أوزيب ميخائيلوفتشى ! لا شك أن وجبات الطعام التى تناولتها عندنا تنقل الآن على قلبك • ان دموع الدم التى أذرفها هى التى تتساقط على ضميرك • • هذا ما قالته لى أنقله لكم نقلا أمينا ! وقد قالته

وهى تصب الشاي • وكانت هادئة كل الهدوء ، رقيقة كل الرقة ، عذبة كل العذوبة : فلو رآها أحد فى تلك اللحظة لما استطاع أن يتصور أن هذه المرأة بعينها هى التى تصيح فى السوق كما لا تصيح أشد النساء عياطلا وشياطلا • كذلك كانت هذه الناصحة العزيزة أيها السادة •

ومن سوء حظى ان ماريا تيودوزيفنا ، الفتاة ، هى التى جاءت بعد ذلك بريثة كل البراءة ، شاحبةً بعض الشحوب ، محمرة العينين • وقد ظننت ، أنا الابله ، أنني سبب ما ذرفته من دموع • ثم علمت فيما بعد ، انها قد بكت طويلا ، فى الواقع ، غير أن بكاءها كان لهذا السبب الآخر البسيط ، وهو ان الضابط التابع لسلاح الفرسان قد أطلق سايه للريح ولم يظهر بعد ذلك أبدا ! ثم علم الاهل بعد ذلك بخفايا القضية ، فأرادوا أن يكتفوا بالقصة وأن يخفوها ، رغم أن الاسرة أصبحت مهددة بأن يزيد عدد أفرادها ♦♦

ما ان رأيت الفتاة حتى تمنيت لو تبلعنى الارض ، ثم بحثت بنظري عن قبعتى ، ولكن أحدا كان قد أخفاها ، فوددت لو أهرب عارى الرأس ، ولكنهم كانوا قد احتاطوا للامر فأوصدوا الباب • وبدأت بعد ذلك ضحكات وصداقات وغمزات انتهت بتهدة خاطرى قليلا • وجلست محبوبتى الى البيانو فغنت أغنية عاطفية عن الفارس الذى سيذهب * وقال لى تيودوز نيكولايفتش : « هيا هيا يا عزيزى • نسيت كل شىء • تعال الى • تعال الى ذراعى » • • • • • فهرعت اليه خفيف القلب وطفقت أبكى فى صدرته • « أبتاه ! أيها المحسن الى » • كذلك هتفت أقول والدموع المحرقة تسيل على وجهى كله • رباه ! ليتكم رأيتم هذا المشهد ! لقد كان يبكى هو أيضا • وكانت امرأته تبكى كذلك • وكانت حبيبتى الصغيرة ماريا تبكى مثلما كان يبكى سائر أفراد الاسرة ♦♦♦ حتى لقد كان هنالك فتاة مشرقاء

صغيرة ، لا أدرى من اين أنت ، أخذت تبكى كسائر الباكين ومن
جميع الاركان كان يخرج صبية صفار ويطفقون يبعطون ما أكثر
ما ذرف من دموع ! ما أكثر ما ظهر من عواطف الحنان هو الابن
الفضال عاد الى اهله تائبا ، او الجندى رجع من ميدان المعركة الى ذويه
سالما

ثم كان استقبال حافل حقا : جىء بالفطائر والحلوى وقامت
بين الحضور ألعاب وتسلية * « آه شىء يوجعنى » . كذلك قالت
.. فسألتها : « ماذا يوجعك ؟ » فأجابت : « قلبى » . واحمرت المسكينة
خفرا وحياء . وشربنا أنا والمجوز خمرا .. وطابت نفسى ..
فلما عدت الى جدتى كان رأسى يدور سكرًا . أيقظت جدتى المعجزة .
وحكى لها قصة سعادتى فرحا كل الفرح . سألتنى جدتى : « هل أعطاك
اللص مالا » فقلت : « أعطانى يا جدتى السعادة تطرق بابنا
يا جدتى ! »

وأخذت أنام ، ثم عدت فاستيقظت أفكر فى هذا الفرح الجديد كله
.. قلت لنفسى : غدا أول نيسان (أبريل) ما أجمله يوما مسليا
مضحكا وفكرت ثم فكرت فخطر على بالى فكرة مضحكة ، فنهضت
وأشعلت شمعة ، وجلست الى مكتبى ضاحكا وحدى . هل تعرفون
يا سادتى الى أين يمكن أن تؤدى بالانسان سعادته ؟ ستعرفون هذا
الآن . لقد كان فرحى سببا فى اسراعى الى هوة الشقاء منمض العينين ،
وفى غوصى بالوحد حتى الركبتين . يا لطبى ما أرداه ! لقد سرقوا منى
كل شىء تقريبا ، ثم أعطيتهم الباقي من تلتقاء نفسى ! صفنى على احد
الخدنين ، ثم مددت له الخد الأخرى . قدم الى 'طعما' كما 'يمد'
'طعم' الى كلب ، فاذا أنا أهرع أقبل جميع الناس . تماما كما يحدث
الآن : أنتم تسخرون منى وتهكمون على وتتهامسون عنى ، انى أرى ذلك

كله رؤية واضحة ، أفتح لكم قلبي فستهزئون بي ، ومع ذلك ، ورغم علمي بذلك ، أقص عليكم المزيد ، علما كل العلم ، برغم هذا ، أن احدا لا يكرهني على أن أفعل ، ولكنني أعدكم كاخوتي ، كأحسن أصدقائي
... هه ! ...

ان الضحك الذي كان يتصاعد شيئا فشيئا قد غطي الآن صوت القصص الذي يبدو الآن أنه يحس بنشوة كبرى تملك عليه نفسه . . وتوقف القصص عن الكلام ، وطاف ببصره على الحضور ، ثم اذا هو يحرك يده بإشارة الاستسلام ويأخذ يضحك كسائر الناس كأنما تجره زوبعة أو يدفعه اعصار ، ربما لأنه أحس أن وضعه مضحك حقا . ثم استأنف حكايته :

— لم أستطع أن أنام تلك الليلة . فهل لكم أن تحزروا ما الذي اخترعته كذبةً لأول نيسان (أبريل) أيها السادة ؟ انني أستحي الآن أن أعترف به ؟ لقد لبثت الليل كله أكتب ، وأنا سكران قليلا . . . فيالحماقة ما كتبت !

وفي الصباح ارتديت ثيابي ، وجعدت شعري ، وتدهنت بالطيب ، وتزينت بأبهى حلة عندي ، ومضيت الى منزل تيودور نيكولايفتش ، حاملا ورقتي في يدي . استقبلني بنفسه ، وعانقني في صدرته الأبدية . أما أنا فقد تراجعنا خطوة الى وراء ، برصانة ورزانة . كان الموقف يضحكني في أعماق نفسي . قلت للرجل : لا . . . ياتيودور نيكولايفتش . . . اقرأ هذه الورقة أولا . . .

— هل تعرفون ماذا كان في تلك الورقة ؟ كان فيها استقالتي من الوظيفة ، مذيلةً بتوقيعي مع ذكر جميع رتبتي وألقابي . ذلكم ما اخترعته كذبةً لأول نيسان (أبريل) . ما كان يمكن أن أجد كذبةً أذكى من هذه

الكذبة • قلت لنفسى : هذا أول نيسان (أبريل) ، سأنتظره بأننى مازلت غضبان ، سأفهمهم اننى أصبحت لا أريد ابنتهم زوجة لى ، وان المال الذى فى جيبى يغنىنى عن كل شئ ، ويضمن مستقبلى ، وأننى لذلك أقدم استقالتى ، واننى اذ أصبحت لا أحب أن أعمل تحت امرة رئيس كهذا الرئيس ، فسأنتقل الى مصلحة أخرى ، وسأقوم هنالك بوشاية جديدة (كانت فكرتى هى أن أمثل دور شخص حقير) • هل فهمتم يا سادتى : لقد نفذت أسس الى قلوبهم ، وبسبب ذلك أردت اليوم أن أطلق لنفسى العنان فيما أحسبه مزاحا مع أهل لا كلفة بينهم ... كنت أريد أن أعبت قليلا بالقلب الأبوى ...

فما ان قرأ ما فى الورقة التى قدمتها اليه حتى تغير وجهه فجاء ، وسألنى : « ما هذا يا أوريب ميخائيلوفتش ؟ » ، فما كان منى - آه ما أغبانى ! - الا أن قلت له : « هى كذبة نيسان ياتودوز نيكولايفتش ... » . قلت لكم اننى كنت أشبه بطفل .. تماما كما لو اختبأت وراء مقعد جدتى ، وعويت أريد أن أرفعها ... حقا اننى لأخجل أن أقص هذه الحكاية •

- هيا ، هيا ، أكمل ...

- هكذا ارتفعت أصوات من كل جهة من الجهات تحته على اتمام قصته •

- أثار هذا فيهم ضجة كبيرة ياسادتى • أخذوا يصيحون قائلين اننى عفریت ، واننى سبى شيطان ، اننى أخفتهم وروعتهم • ما كان أرقهم وأشد خانهم وأعرق صداقتهم أيها السادة ! ... حتى لقد شعرت من فعلتى بخجل ، وقلت لنفسى : « كيف يمكنهم أن يقبلوا خاطئا مثلى فى مكان مقدس كمنازلهم • • • »

وصاحت السيدة زوجة المستشار تقول فجأة :

— روعتني يا عزيزي ، وما زلت أرتعش خوفا الى الآن ، وقد
هرعت مسرعة الى ماريا فقلت لها : « أنظري ، ما فعل صاحبك أوزيب ! »
« وندمت على انني استقبلتك ذلك الاستقبال السيئ أمس ، وأحزنتني
ذلك حزنا شديدا »

كدت أركع أمامها • وعادت الدموع ، وعادت القبلات ، وعادت
الامازيج ، الى غير نهاية • وأراد تيودوز نفسه أن يشارك في العيب ، وان
يهيئ لنا كذبة من كذبات نيسان (أبريل) على طريقته فقال : « طائر
من ذهب وصل بمنقار من ماس ، وبهذا المنقار كان يحمل رسالة • • »
« كان يضحك مني • وأخذ الجميع يضحكون ، وعمّ الفرح والمرح •••
بف ••• اني لأشعر بالعار من سرد هذه القصة •

والآن تشارف قصتي على نهايتها أيها السادة • لقد عشنا على هذا
النحو يوما ، ويومين ••• وأسبوعا • كانوا يعدونني خطيبا للفتاة • حتى
لقد أوصوا على خاتمي الخطبة ، وأوشكوا أن يعينوا يوم الزفاف ، ولكنهم
لم يشاءوا أن يشهروه فورا ، لأنهم كانوا ينتظرون وصول مفتش من
بطرسبرج • واذ كان هذا المولف يؤخر سعادتي فقد كنت أنتظر وصوله
بصبر نافذ وشوق محموم مسعور ، وأقول لنفسي : « آه ••• متى
نتهي ؟ » •••

واستفاد تيودوز نيكولايفتش من اضطرابي هذا فعهد الى بجميع
أعماله : من حسابات ، وتقارير ، ومراجعات دفاتر ، واجراء عمليات
جمع • كانت الفوضى في المحاسبة رهية • ففي كل موضع أخطاء ،
وثغرات ، ونواقص • فكان يقول لي : لا بأس ••• ساعد حماك قليلا •
وكان الرجل يبدو مريضا ، وكان يلوح أن اعتلال صحته يتفاقم يوما بعد

يوم • أما أنا فقد أصبحت من فرط هزالي أشبه بعود ثقاب لكثرة ما أقوم به من عمل بغير راحة ولا مهادة •

وأنجزت أخيرا كل شيء فى موعده ، حتى اذا جاء اليوم المشئوم رأيت رسولا يصل الى مسكنى فجاءه ، فيقول لى : « تعال حالا ، فان نيودوز نيكولايفتش فى حالة سيئة جدا • • • » فأسرعت أركض ، حتى اذا وصلت رايت نيودوز نيكولايفتش ملففا بكل أنواع الملابس ، ورأيتهم يضمون على رأسه أضمة مبللة بالخل ، ورأيتهم يصيح : آه • • • آواه • • •

قال لى حين أبصرنى :

— ايه يا عزيزى • • • ما عسى نصير اليه من مصير ؟ سوف أموت ، فلمن أدع أسرتى كلها وجميع أطفالى ؟

وكانت امرأته موجودة هنالك مع الاطفال ، وكانت ماريا تبكى • • فلما رأيت هذا المشهد أخذت أبكى أنا أيضا • فطلب اليهم عندئذ أن يخرجوا جميعا ، وأمرنى أن أغلق الباب ، ولبثنا معا على انفراد • قال :

— لى رجاء عندك •

— ما هو ؟

— اسمع يا بنى العزيز • أريد وأنا على فراش الموت أن أبوح لك باعتراف : ان الخزنة ناقصة بعض المال ، وقد سددت بعض النقص من مالى أنا • انى لأنألم كثيرا حين أتذكر أن أناسا أشرارا اتهمونى لديك زورا وبهتانا • • • لقد غشوك يا عزيزى ، فاقض شعرى منذ ذلك اليوم حزنا وكمدا • وسيصل المفتش قريبا ، والخزنة التى يقوم عليها هذا المسكين ماتفايف ناقصة سبعة آلاف روبل • وسأطالب أنا بسداد المبلغ ،

اذ ما الذى يمكن أن يجدوه لدى مائفايف ؟ انه تعيش بائس بدون هذا ،
وليس فى وسعنا أن نطالبه بشىء اذا أردنا الانصاف ... وانى لأوثر أن
أكون مسئولاً عن الأمر وحدى •

قلت لنفسى :

... يا لهذا الرجل ما أنبل نفسه !

وأضاف يقول :

— ولست أريد أن آخذ مالا من ابنتى ، لأن بائنتها شىء مقدس ما
ينبى أن تمتد اليه يد • وانى لأملك بعض المال ، ولكنه ليس فى حوزتى
نقدًا جاهزًا ، فما عسانى صانعا لأرتق الفتق بأقصى سرعة ممكنة ؟

لم أستطع أن أكبح جماح نفسى مزيدا من الكبح ، وهأنذا أركع
أمامه قائلاً :

— ايه يا من أحسنت الىّ وأنعمت علىّ ! ... لقد جهلت حقيقتك ،
ولم أقدرك قدرك • وسوس لى بعض الاشرار أن أكتب تلك الوشاية
اللعيئة ، فاغفر لى ، وسامحنى ، واليك مالك أردته اليك معتذرا •

فنظر الى والدموع فى عينيه ، وقال :

— هذا ما كنت أتوقعه منك يا بنى • وهذا ما أحب أن أعرفه فيك •
لقد غفرت لك قبل الآن حين رأيت دموع ابنتى ، أما الآن فان قلبى كله
يعفو عنك • لقد شفيت جروح نفسى ، وانى لأباركك الى الابد !

— لقد باركنى يا سادتى • وركضت أنا الى البيت أحمل المال لأعيد
اليه • قلت له :

- خذ يا أبتاه ! المبلغ كامل الا من خمسين روبلا انفقتها فى بعض حاجاتى •

فقال لى :

- لا بأس ... فاكذب اذن طلبا مؤرخا بتاريخ سابق ، تلتمس فيه سلفةً على راتبك بمقدار خمسين روبلا • فأقوم أنا بما يجب أن أقوم به تجاه الرؤساء ، قائلا اننى أعطيتك هذا المبلغ سلفةً على راتبك •
ما رأيكم يا سادتى ؟ لقد كتبت له هذا الطلب •

سأله أحدهم :

- فكيف انتهى الأمر كله بعد ذلك ؟

فأجاب المهرج يقول :

- انتهى بالموافقة على ما تضمنته تلك الورقة اللعينة التى كتبته كذبةً لأول نيسان (أبريل) • ففى الغداة تلقيت جوابا رسميا مختوما بالخاتم الرسمى وفيه يقال لى ان استقالتى قد قبلت ، وان على أن أهيم بحساباتى وأن أعيدها الى المصلحة وأن أذهب الى حيث أشاء أن أذهب •

- كيف ؟

- وأنا أيضا صحت يومئذ قائلا : كيف ؟ لقد أخذت أذناى تطنان ، وأخذ قلبى يرتجف ، ثم أسرع الى تيودوز نيكولايفتش • ولم يلبث الحديث أن جرى بيننا على الفور •

سألته :

- ما هذا كله ؟

- ماذا تعنى ؟

- قبول الاستقالة •

- أى استقالة ؟

- اليك ما تلقينه الآن •

- فعلا ••• لقد 'قبلت' استقالتك •••

- ولكننى لم أقدم استقالة فى يوم من الايام ••

- كيف ؟ ألم تقدمها مؤرخة فى أول نيسان (أبريل) ؟

يا لحماقتى !! ••• كنت قد تركت له الورقة التى دبهجت عليها كذبة
أول نيسان (أبريل) •••

قلت :

- تيودوز نيكولايفتش ••• أأنت أنت من تراه عيناي الآن ؟

- أنا ؟ طبعا ! ثم ماذا ؟ يؤسفنى جدا يا سيد أنك قد راودتك الرغبة
فى ترك العمل بالمصلحة بهذه السرعة • كان يجدر بشاب مثلك أن يحب
الاستمرار فى العمل ، أما أنت أيها السيد فان رأسك تميل مع كل ريح ،
وان آراءك تتقلب من ساعة الى ساعة • على كل حال ، كن مطمئنا من
ناحية الشهادة التى سأعطيها لك • سأكتب لك شهادة جيدة : فلقد فعلت
كل ما يجب من أجل أن تستحقها •

- ولكنها كانت مزحة يا تيودوز نيكولايفتش ، ولئن أعطيتك تلك
الورقة لقد كان ذلك كله عبثا لم أقصد منه الا أن أضحكك •

- ها ••• مزحة ؟ منذ متى يمزح الناس فى شئون العمل وأمور

الخدمة ؟ اعلم أيها السيد أن مزحات من هذا النوع يمكن أن تؤدي بك يوما الى سيريا • والآن وداعا أيها السيد • ليس في وقتي متسع للحديث معك • لقد وصل المفتش ، وواجبات العمل هي في المقام الأول ؛ فإذا كنت أنت تحب المزاح ، فأنا مشغول بالعمل • وأعود فأقول لك انك تستطيع أن تعول على شهادة حسنة في حقك ••• ها ••• وأحب أن أبلغك اننى قد اشتريت منزلا ••• وسنجهزه قريبا ••• فأرجو أن لا أراك على بابي • أتمنى لك سفرا ميمونا أيها السيد •

ركضت الى مسكني ، فوصلت الى جدتي وأنا أصرخ : « لقد ضعنا ••• يا جدتي • » • فأخذت جدتي تعمل دون أن تعرف ما النبأ • وفي الوقت نفسه رأينا خادما تيودور نيكولايفتش يصل حاملا قفصا يتوابع فيه زرزور : هو هدية كنت قد أهديتها الى خطيبتى • لقد أعادوه إلينا مع بطاقة كتب عليها : كذبة نيسان (أبريل) •

— وما حدث بعد ذلك ؟

— ماذا تتوقعون أن يحدث ؟ لقد لقيت تيودور نيكولايفتش فى أحد الأيام ، وكنت مستمدا كل الاستعداد لأن أعلن له رأيي فيه صريحا ، وأن أعيب عليه صفاته •••

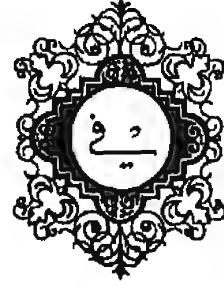
— هل فعلت ؟

— لم أستطع •

السارفة الشريف

١٨٤٨

«السارق الشريف (Tchestny vor)
كتب دوستويفسكى هذه القصة في ربيع
١٨٤٨ ، ونشرت في مجلة « حوليات
الوطن » ، نيسان (ابريل) ١٨٤٨ ، هـ
٥٧ ، تحت عنوان « الفاضل شيخ عابر
سبيل » ، وكانت تضم قصتين : ١ -
« الجندي المتقاعد » ، ٢ - « السارق
الشريف » . ولكن دوستويفسكى حين أعد
طبعة أعماله الأولى سنة ١٨٦٠ حذف القصة
الأولى التي لم يكن راضيا عنها ولم يبق الا
الثانية .



ذات صباح ، بينما كنت أهم أن أخرج الى مكتبي ، دخلت على آجرافينا ، طبختي وغسلتي وخادمي في آن واحد ، وأجرت معي الحديث على دهشة شديدة مني ؛ ذلك أنني حتى هذا الصباح لم أكن قد سمعت منها غير هذه الكلمات : « ماذا يجب أن أهيب للعشاء » • انها ممحوة دائما ، صموت دائما ، حتى لأستطيع أن أقول انها خلال ست سنين لم تنطق بكلمة واحدة زيادة على ذلك السؤال ، بحضوري في أقل تقدير • بدأت تقول فجأة :

- اسمع يا سيدى ••• هناك شيء أريد أن أطلبه منك • يحسن بك أن تؤجر الحجرة الصغيرة •••

- أية حجرة صغيرة ؟

- الحجرة الصغيرة القريبة من المطبخ • أنت تعرف أى حجرة أعنى •

- لماذا يحسن بى أن أؤجرها ؟

- لأن هناك أناسا آخرين عندهم مستأجرون • واضح لماذا •

- ولكن من يستأجرها ؟

- من يستأجرها ؟

- ولكن يا ماتوشكا ليس فى هذا الركن متسع حتى لسرير •
فمن ذا الذى يستطيع أن يعيش فى هذه الحجرة ؟

- هل يجب على من يستأجرها أن يعيش فيها ؟ يكفى أن يكون له
فيها مكان للنوم ••• ثم هو يعيش قرب النافذة •

- أية نافذة ؟

- أية نافذة ؟ كأنك لا تعرف أن هناك نافذة ! نافذة حجرة المدخل •
يقيم الساكن هناك ليخيط أو ليعمل شيئا آخر • وقد يجلس على كرسي •
ان عنده كرسي وطاولة وكل شيء •

- ولكن من هو هذا المستأجر ؟

- رجل طيب • رجل رأى كثيرا • وساعد له وجبات طعامه •
وسأكنفى منه بثلاثة روبلات للسكن والطعام جميعا •

وأخيرا • بعد جهود كثيرة • علمت أن هناك رجلا • متقدما فى السن •
قد أقنع أجرافينا بأن تسمح له بالعيش فى المطبخ مستأجرا •

وكانت أجرافينا • اذا استقر فى رأسها رأى • لا يمكن أن يخرج
منه شيء • وكنت أعلم أنها لن تدعى هادئا ما لم تحصل على ما تريد
الحصول عليه • ومتى أصبح أمر من الأمور لا يجرى على ما تحب •
أصبحت كثيرة الوجوم شديدة الكآبة والحزن • وكانت تبقى على هذه
الحال أسبوعين أو ثلاثة أسابيع • وفى أثناء هذه الفترة يهمل المطبخ
ويضيع الغسيل • ولا تنظف الأرض • ويسير كل شيء فى المسكن مقلوبا •
وكنت قد لاحظت منذ زمن طويل أن هذه المرأة الصموت لا تستطيع أن

تتخذ قرارا ، ولا أن تلبث على رأى نابغ من ذاتها • ولكن اذا اتفق
عرضا أن نبت فى دعاها الضعيف شئ يشبه أن يكون رأيا أو قرارا ،
فان الحيلولة دون تنفيذ هذا الرأى أو هذا القرار يقتل روحها قتلا الى
حين غير قصير • لذلك ، ولما كنت أضغ هدوئى فى المقام الأول ، فقد
وافقت فورا • قلت لها :

— هل عنده أوراق على الأقل ، هل عنده جواز سفر أو شئ من هذا
القييل ؟

— كيف لا ؟ ••• لا شك أن عنده كل ما يجب • هو رجل طيب ،
رأى كثيرا • وقد وعد أن يدفع ثلاثة روبلات •

وفى الغداة ، ظهر فى مسكنى ، مسكن الرجل العازب ، مستأجر
جديد • والحق أن هذا لم يسؤنى ، حتى لقد سررتى • لقد كنت على
وجه العموم أعيش فى عزلة تشبه أن تكون كاملة • فليس لى أصدقاء ،
وقلما أخرج ؛ وأنا أحيا منذ عشر سنين حياة ناسك ، حتى ألفت العزلة
والاعتكاف • ولكن من الواضح أن عشر سنين أو خمس عشرة سنة من
هذه العزلة نفسها ، مع أجرافينا نفسها ، فى هذا المسكن نفسه ، مسكن
العازب ، من الواضح أن هذا كله يجعل الحياة باهتة لا لون لها • ولذلك
فان مجيئ انسان آخر ، انسان مسالم ، هو فى مثل هذه الظروف هبة من
السماء •

ولقد صدقت أجرافينا • فالمستأجر الجديد كان انسانا رأى كثيرا
بالفعل • ان جواز سفره يشير الى أنه جندى مسرّح • على أنه كان فى
امكانى أن أحزر ذلك حتى دون النظر فى جواز السفر • فما أسهل أن
يقدر المرء ذلك •

كان جاردى الجديد آستافى ايفانوفتش انسانا طيبا حقا ، فسرعان ما

تفاهمنا • والشئ الذى أمتعنى فيه بخاصة هو ان آستافى ايفانوفتش كان يجيد رواية القصص اجادة مدهشة ، ولا سيما المغامرات التى شارك فيها • وواضح أن قصاصا من هذا النوع هو فى حياة فقيرة رتيبة كحياتى يمكن أن يعد كنزا ثميناً • ولقد قص على ذات مرة قصة من هذا الطراز أثرت فى نفسى تأثيرا كبيرا • واليكم المناسبة التى روى لى فيها هذه القصة •

كنت فى يوم من الأيام وحدى بالمسكن ، بعد أن خرج آستافى وخرجت أجرافينا لبعض شئونهما ؟ فإذا بى أسمع ، وأنا فى غرفتى ، وقع أقدام شخص يدخل البيت • لا شك أن الداخل كان شخصا غريبا • فمضيت أرى من الداخل ، فإذا أنا فعلا أمام رجل فى حجرة المدخل ، رجل مربوع القامة لا يرتدى الا سترة برغم برودة جو الشتاء •

— ماذا تريد ؟

— هل الموظف ألكسندروف هنا ؟

— لا أعرف • مع السلامة •

— كيف ؟ لقد قال لى البواب انه يسكن هنا •

كذلك قال الزائر وهو يشحج محاذرا نحو الباب :

— اذهب يا صاحبى اذهب •

وفى النداء ، بعد العشاء ، بينما كان آستافى ايفانوفتش يجرب على ردنجنوتا كان يخطئه لى ، دخل أحد " حجرة المدخل من جديد ، ففتحت الباب • فإذا أنا أرى الشخص الذى جاء بالأمس يتساول معطفى من على المشحج بهدوء ، ويضممه تحت ابطه ويندفع خارجا بسرعة • كانت أجرافينا تنظر اليه فاعرة الفم من الدهشة دون أن تفعل شيئا لتمنع هذه السرقة •

وركض أستافى ايفانوفتش يلاحق السارق ، ثم عاد بعد عشر دقائق
لاطنا ، صفر اليدين • لقد استطاع السارق أن يهرب • قال أستافى
ايفانوفتش :

- لم يسعنى الحظ *** على كل حال ، الحمد لله على أنه ترك لى
معطفى ، والا لبقينا من غير شىء *** ولكن « دبّرنا » تماما *** هذا
اللعس •

وقد بلغ أستافى ايفانوفتش من الانصاف لما حدث أننى حين نظرت
اليه نسيت السرقة • ولم يستطع أستافى ايفانوفتش بعد ذلك أن يفيق
من هول الصدمة • فهو يدع عمله فى كل لحظة ويأخذ يديء ويعيد
متحدثا عما وقع ، متسائلا كيف وقع ، قائلا : أليكون السارق أمام أعيننا ،
على بعد خطوتين منا ، ثم يستطيع أن يسرق المعطف ، ثم يعرف كيف
يهرب فلا نقبض عليه ؟ ويسكت أستافى ويستأنف عمله ، ولكنه ما يلبث
أن يدعه من جديد ، ليعود الى الكلام فى الموضوع مرة أخرى • وأخيرا
مضى الى البواب يعيد سرد القصة له ، ويقرّعه على أن أمورا كهذه تقع
فى فناء المنزل الذى يحرسه • ثم عاد الى أجرافينا ، فقرّعها وأنبها هى
أيضا • ثم استأنف عمله وهو يدمدم بين أسنانه متسائلا كيف أمكن أن
يقع هذا • « كان هو هنا *** وكنت أنا ههنا *** وعلى مرأى منى ،
وعلى بعد خطوتين منى ، استطاع أن يأخذ المعطف *** » ، النخ • الخلاصة
أن أستافى ايفانوفتش قد اضطرب أشد الاضطراب ، وغضب أشد
الغضب •

قلت له فى المساء وأنا أقدم اليه قدحا من الشاي :

- لقد عرف السارق كيف « يدبرنا » يا أستافى ايفانوفتش •
وكنت أريد من ذلك أن أجعله يعيد سرد حكاية المعطف المسروق ،

هذه الحكاية التى أصبحت مسلية مضحكة من كثرة ما أعيد سردها ، ومن عمق الصدق الذى كان يتجلى فى كلام راويها •

– لقد « دبرنا » يا سيدى • وأنا زعلان جدا ، رغم أن السارق لم يسرق معطى أنا • لا شىء يثير حنفى كما يثيره لص يا سيدى • غيره يقترض منك ، أما هو فيسرق ثمرة عملك وجهدك وعرفك ووقتك • أف ... أصبحت لا أطبق التفكير فى هذا الموضوع من فرط ما يفيطنى ... ولكن قل لى يا سيدى : كيف لا أراك غضبان ؟ أتراك لا تأسف على ضياع رزقك ؟

– بلى يا يا أستاذى ايفانوفتش • ان المرء ليؤثر أن يحرق أشياء بنفسه على أن يدعها لسارق • حقا ان الانسان لا يجب أن ..

– لا يجب ماذا ؟ ومع ذلك هناك لص ولص ... هناك سارق وسارق ... فأنا يا سيدى قد اتفق لى أن وقعت على سارق شريف ... كيف يكون سارق شريفا ؟ هل يمكن أن يكون سارق شريفا ؟ – طبعاً يا سيدى • صحيح أنه ليس هناك لص شريف ... ولكننى أردت أن أقول انه كان يلوح لى أن ذلك الرجل كان شريفا وقد سرق • ان المرء يرثى لحاله • – كيف حدث ذلك ؟

« وقع هذا منذ سنتين يا سيدى • فى ذلك الوقت لبثت بلا وظيفة خلال ما يقرب من سنة بكاملها • وكنت فى وظيفتى الأخيرة قد انعقدت صلة بينى وبين انسان تيمس ، بائس ، انسان منهار ... التقينا ذات يوم فى خمارة • كان مدمنا ، عاطلا ، كسلان ... عمل خلال فترة من الوقت فى مكان ما ، ثم طرد من عمله منذ مدة طويلة بسبب ادمانه على السكر • لقد كان انسانا شقيا بالسا ، رث الثياب ، يرتدى أسمالا بالية وأطمارا

لا يمكن أن أصفها لك ... ان المرء ليتساءل حين يراه : ترى أهو يلبس تحت معطفه قميصا ؟ كل ما كان يقع بين يديه كان ينفقه في شرب الخمر . ولكنه لم يكن صاحبا عريدا ... كان حلو الطبع دمث الخلق طيبا هادئا كل الهدوء ، حتى لقد كان يشعر بخجل دائم ، فهو شديد الحياء . كل ما هنالك أن المسكين كان يحب أن يشرب ، والناس تلاحظ فيه ذلك فتصدق عليه . وعلى هذا النحو انما انعقدت الصلة بيني وبينه . أعنى أنه تعلق بي وتشبث باذيالى ... وأنا من جهتي كان يستوى عنده أن يكون سكيراً او أن لا يكون سكيراً ... المهم أنه ارتبط بي ارتباط كلب بصاحبه ... أذهب الى هنا فيتبعني ... وأذهب الى هناك فيمشي ورائي ... ولم تكن قد التقينا الا مرة واحدة ! في أول الأمر اضطررت أن آذن له بالمبيت عندي ليلته . كان يحمل جواز سفر سليمان قلت لنفسي : طيب ... لا بأس ... فليت عندي هذه الليلة . وفي الليلة التي بعدها اضطررت أن أسمع له بالمبيت عندي أيضا ... وفي اليوم الثالث بقي النهار كله واقفا الى حافة النافذة ... حتى اذا جاء المساء لبث للمبيت . قلت لنفسي : « لقد تعلق بي الرجل ... وسيكون عليّ أن أقدم له الطعام والشراب عدا المبيت ... أنا رجل فقير ، وهذا رجل عاطل كسلان يتعلق بي ! ... »

« وقبل أن يتشبث بي كان قد فعل هذا الشيء نفسه مع أحد الموظفين . أنشعب فيه ، فكأنا يشربان معا . ولكن ذلك الموظف مات لا أدري بأي مرض .

« كان اسم الرجل ايمليان ، ايمليان ايلتش . فكرت وفكرت ... ثم قلت لنفسي : ما العمل معه ؟ أطرده ؟ ذلك أمر قاس ، فالرجل فقير بائس . ان وضع الانسان المنهار يحز في النفس كثيرا . وكان هو صموتا

لا يطلب شيئاً ، بل يظل جالسا يحرق فيك كما يحرق كلب . أنظر ماذا يستطيع أن يفعله الادماني على السكر بالإنسان ! وفكرت مزيدا من التفكير . تساءلت : كيف أقول له اذهب يا إميليان ، فليس لك ههنا مكان ، لأنك لم تقم حيث يجب أن تقم ، فأنا امرؤ فقير لن ألبث أن يعوزني ما أسد به رمقي ، فلا أستطيع والحالة هذه أن أعيلك ؟ ... ثم فكرت مزيدا من التفكير أيضا ، فتساءلت : ما عساه يعمل إذا قلت له هذا الكلام ؟ وتصورت النظرة التي سيلقيها علي حين يسمع هذا مني ؟ وتصورت كيف سيقبني جالسا زمنا طويلا دون أن يفهم شيئا ؟ وتصورته ناهضا عن حافة النافذة بعد أن فهم معنى ما قلته له ، متناولا منديل الذي ما زلت أراه إلى هذه اللحظة ، وهو منديل ذو مربعات حمراء ، ممزق ، كان يحمله دائما معه ويضع فيه لا يدرى إلا الله ماذا ، وتصورته يعدل معطفه على جسمه ليستقر فيه استقرارا مريحا ، وليتقي به البرد مخفيا ثقبه ، لأنه إنسان حساس ... وتصورته يفتح الباب ويخرج إلى السلم وقد فاضت عيناه دموعا ، فقلت لنفسى : لا ... ما ينبغي أن يضيغ الرجل ... لقد أشفقت عليه ، ورثيت لحاله .

« ثم فكرت مزيدا من التفكير ، فتساءلت : « وماذا أفعل أنا ؟ ثم قلت له : « انتظر يا إميليان . انك لن تبقى طويلا عندي ... فقريبا أسافر من هنا ، ولن تجدني إذا عدت . » . وسافرنا يا سيدي . قال لي مولاي الكسندر فيلمونوفتش - الذي مات بعدئذ يا سيدي ، رحمه الله - « أنا راض عنك جدا يا أستاذي . وحين تمود ، فلن ننساك . سوف نستبقيك عندنا . وكنت أنا أعمل لديهم رئيسا للخدم . لقد كان رجلا شهما طيبا . ولكنه مات في تلك السنة نفسها . فلما دفناه ، أخذت أمتعتي وبعض المال وقلت لنفسى : « الآن سأستريح » . وسكنت لدى امرأة عجوز . استأجرت عندها ركنًا هو الركن الوحيد الذي كان خاليا . كانت المرأة العجوز قد

عملت مربية للأطفال ، وهى تملك الآن ريعا صغيرا • قلت لنفسى : « طيب •
« وداعا يا ايميليان ، يا صديقى ، لن تجدنى بعد الآن • • • » فهل تصدق
يا سيدى ؟ لقد عدت الى البيت فى ذات مساء من زيارة رفيق من رفاقى ،
فماذا رأيت ؟ رأيت ايميليان ! كان قاعدا على صندوقى ، واضعا منديلَه ذا
المربعات الحمراء قربه • وكان يرتدى معطفا ، وينتظر • • • ومن أجل أن
يطرد الملل كان قد استعار من العجوز كتابا من كتب الادعية والصلوات
أمسك به مقلوبا وجعل ينظر • • • فإذا هو يرانى ! سقطت يدائى من فرط
الدهشة • قلت لنفسى : « اذن لا مفر • • • لماذا لم أطرده طردا من أول
مرة ؟ » وأسرعت أقول له : « هل جئت بجواز سفرك يا ايميليان ؟ » •
« وجلست يا سيدى ، وأخذت أتساءل هل يضايقنى وجود هذا
الأبله كثيرا ؟ • • • وبعد تفكير طويل ، وبعد تقليب الأمر على وجوهه
المختلفة ، انتهيت الى أن وجوده لن يزعجنى ازعاجا شديدا • قلت لنفسى :
هى كسرة خبز فى الصباح ، وحتى تبدو له مشهية يمكن شراء قليل من
الثوم • وفى الظهر خبز ونوم أيضا • وفى العشاء نوم مع قليل من خمر
الكفاس ، فإذا أضيف الى ذلك شئ من حساء الملفوف كان هذا عيدا لنا
كلينا • وأنا لا أكل كثيرا • ومن المعروف أن من يشرب كثيرا لا يكاد
يأكل شيئا • فما هو فى حاجة الى غير البىذ أو الحمرة • وقلت لنفسى
عندئذ : « ولكنه سيدمرنى بالشرب » • غير أن فكرة أخرى راودتني
فجأة يا سيدى ، واستولت على عاطفة جديدة استيلاء تاما • قلت لنفسى :
لو ذهب ايميليان ، لما طقت الحياة • • • لذلك قررت أن أكون له بمثابة
أب ، بمثابة محسن اليه منعم عليه • وسوف أنقذه ، سوف أمنعه من
الدمار ، سوف أحمله على الإفلاع عن ادمان السكر • قلت بيني وبين
نفسى : « انتظر يا ايميليان • • • سوف ترى • • • » • ثم أضفت أقول
له : « طيب يا ايميليان • • ابق • • ولكن عليك بعد اليوم أن تطيعنى • • »

وعدت أقول لنفسى : « سوف أبدأ بتعويده العمل • ولكن على مهل •
يجب فى أول الأمر أن يتسلى قليلا ••• وسوف ألاحظه ، فأعرف أى
نوع من أنواع العمل يستطيع أن يمارسه • • » وأنت تعرف يا سيدى
أنه لا بد ، فى أى نوع من أنواع العمل ، أن يكون المرء قادرا عليه ،
مؤهبا له • لذلك بدأت بملاحظته ومراقبته ودراسته • ولكن جميع
أوهامى ما لبثت أن تبددت • لقد بدأت فى أول الأمر يا سيدى أقول له
كلأما طيبا : « اسمع يا ايميليان ايلتش ••• فكر قليلا ••• عليك أن
تعمل شيئا ما ••• كفالك كسلا ••• أنظر الى الاسمال الرثة والاطمار
البالية التى تلبسها ••• ان معطفك يكاد يكون كالمصفاة من كثرة ثقبه •
لقد آن لك أن تحاول تغيير حالك ! » •

« وكان ايميليان جالسا مطرق الرأس يصفى الىّ دون أن يقول
شيئا • انه لا يعرف أن يقول كلمة معقولة • أصنى الى طويلا طويلا
طويلا ، ثم تنهد •
سألته :

— مالك تنهد ؟

فأجاب :

— لا شيء يا أستاذ ايفانوفتش ••• لا تقلق • هل تعلم يا أستاذ
ايفانوفتش ؟ لقد تضاربت امرأتان اليوم فى الشارع • كانت احدهما
قد قلبت للأخرى سلة العنب التى كانت تحملها ••• قلبتها عرضا •

— طيب ؟

— وعندئذ ثارت ثائرة الاخرى فقلبت لها سلة عنبها وأخذت

تدوسه •

– وبعد ذلك يا ايميليان ايلتشى ؟

– هذا كل شيء يا أستاذ ايفانوفتشى ... هذا ما حدث .

– هذا ما حدث ! ولكن ما قيمة هذا ؟ ...

وقلت لنفسى : « مسكين ايميليان ! ... » .

– وهناك أيضا سيد سقطت منه ورقة نقدية على رصيف شارع
جوروخوفايا ... لا بل شارع سادوفايا ... ورأى ذلك فلاح فقال :
هذا من نصيبى ... ولكن فلاحا آخر كان قد رأى ذلك قال : « بل هو
نصيبى أنا ... لقد رأيته قبلك » .

– وبعد ذلك ؟

– بعد ذلك تضارب الفلاحان يا أستاذى ايفانوفتشى . فأخذ الشرطى
الورقة النقدية وردّها الى صاحبها ، وهدّد الفلاحين بسوقهما الى قسم
الشرطة ...

– طيب ، ما قيمة هذا ؟ أى شأن وأية خطورة فى هذا كله ؟

– لا شيء ... يا أستاذى ايفانوفتشى ... لقد ضحك الناس كثيرا .

– آه يا ايميليان ... لقد بعت روحك بقرش ... هل تعلم ماذا
سأقول لك ؟

– ماذا يا أستاذى ايفانوفتشى ؟

– سأقول لك ان عليك أن تشغل نفسك بعمل من الاعمال . حقا
... يجب عليك أن تعمل شيئا ما ... قلت لك مائة مرة : ارحم
نفسك .

- ولكن أى عمل أعمل يا أستاذى ايفانوفتش ؟ لست أعلم ما الذى أستطيع أن أعمله ؟ وما من أحد يريدنى •

- ولماذا طردت من الخدمة ؟ هه ؟ لماذا طردت من وظيفتك يا ايميليان ؟ لأنك تشرب •••

- بالمناسبة يا أستاذى ايفانوفتش ••• ان فلاس ، الحازن قد استدعى اليوم الى المكتب •

- لماذا استدعى ؟

- لا أعلم يا أستاذى ايفانوفتش • ولكن ما دام قد استدعى فهذا يدل على أنه كان يجب استدعاؤه •

قلت لنفسى : « آه ••• لقد ضعنا كلانا يا ايميليان ••• ان الله هو الذى يعاقبنا على خطايانا ••• ما عسى يفعل المرء بانسان كهذا الانسان ؟ »

« على أن ايميليان كان فتى ماكرا ••• كان يعصى الى ، ولكنه يضجر فى آخر الامر ، لذلك كان اذا رأى متعكر المزاج يتناول طعامه ويغيب فلا أرى له أثرا • ويظل يتسكع طول النهار فى مكان ما ، ثم يعود فى المساء وقد أخذ منه السكر كل مأخذ • أما من الذى كان يهب له مالا ليشرب ، أما من أين كان يأتى بالمال ليشرب ، فذلك أمر لا يعلمه الا الله ••• وليس الذنب ذنبى •••

« قلت له فى ذات يوم : ايميليان ايلتش ، كفالك سكرًا ، هل تفهم ؟ واذا عدت الى البيت اليوم سكران ، فستقضى الليل كله على السلم ، ولن أدعك تدخل » • •

« وفى الغد مكث ايميليان فى البيت • وكذلك فعل غداة غد • ولكنه

عاد فغاب فى اليوم الثالث • وانتظرتة ، وانتظرتة طويلا ، فلم يعسد •
فاخذت أشعر بقلق والحق يقال ، وأشفقت عليه • ساءلت نفسى : « ماذا
فعلت ؟ لقد أخففته ، فأين ذهب المسكين ؟ لعله لن يعود أبدا • يا رب ! »
« وانقضى الليل ولم يعد • فلما استيقظت فى الصباح ذهبت الى
الدهليز ونظرت فاذا هو نائم هناك • كان نائما هنالك ، مسندا رأسه على
الدرجة الاولى من درجات السلم ، ويكاد يكون متجمدا من شدة
البرد •

— ماذا دهاك يا ايميليان ؟ ما هذا يا رب ! أين كنت يا ايميليان ؟ لماذا
أنت هنا ؟

— لقد غضبت منى فى ذلك اليوم يا أستاذى ايفانوفتش ، فقلت انك
ستدعنى أنام فى الدهليز ••• لذلك لم أجرؤ أن أدخل ، ونمت هنا ••
« كنت أعلى من شدة الحرق وشدة الشفقة فى آن واحد •
قلت له :

— ولكن كان فى وسعك يا ايميليان أن تجد لنفسك عملا آخر غير
حراسة السلم •

— أى عمل يا أستاذى ايفانوفتش ؟

قلت مفتافا أشد الغيظ :

— ولكن أيها الشقى ••• لو أنك تعلمت الخياطة مثلا ••• أنظر
الى معطفك ! انه ثقب لا أكثر ••• لو تناولت ابرة فأخذت تصد هذه
الثقوب ••• ويل لك أيها الشقى ، أيها السكير •••

« فلما قلت له ذلك يا سيدى تناول ابرة • وكنت قد قلت له ذلك

مازحا • ولكنه خاف وأطاعنى • فاذا هو يخلع معطفه ، ويأخذ يحاول
ادخال الخيط فى سم الابرة • وطبيعى أن عينيه لا تبصران جيدا •
لقد كانتا محمرتين احمرارا شديدا ••• وكانت يدها ترتعشان • دفع
الخيط ، ثم دفعه فلم يدخل الخيط فى سم الابرة ••• وطرف عينيه ،
وبلل الخيط بريقه ، وقتله بأصابعه ••• ولكن جهوده كلها ذهبت عبثا •
فعدل عن المهمة ونظر الى •

— ماذا تفعل يا ايميليان ؟ لقد قلت لك ذلك من أجل أن أشعرك
بالخجل ••• كان الله فى عونك ••• ابق عندى • ولكن دعك من
الحماقات • لا تتم بعد اليوم على السلم ••• لا تهنى •••
— ولكن ماذا أستطيع أن أفعل يا أستاذى ايفانوفتش ؟ أنا أعلم أننى
دائما سكران ، وأننى لا أصلح لشيء • ولكن يحزننى أن أغضبك أيتها
المحسن الى •••

« وفجأة أخذت شفتاه الحائلتان ترتعشان ، وجرت على خده الاسفر
دمعة • وارتجفت هذه الدمعة لحظة على لحيته الشبيهة ، ثم أخذت
العبرات تتساقط من عينيه سيلا غزيرا ••• مسكين ايميليان ••• شعرت
عندئذ كأن خنجرأ قد أغمد فى قلبى •••
قلت فى نفسى :

— مسكين يا ايميليان ، لن تصلح لشيء يوما • وسوف تضيع
نفسك •

« ولا داعى يا سيدى لأن أطيل قصتى ، فان القصة كلها تافهة ،
بائسة ••• لا تستحق أن يطنب المرء فى سردها ••• أقصد يا سيدى
أنك غير مستعد لأن تشتريها كلها بقرشين ، أما أنا يا سيدى ، فأننى
مستعد لأن أدفع مبلغا كبيرا من المال ، لو كنت أملك هذا المبلغ ، فى
سبيل أن لا يقع ما وقع •••

« كان عندي يا سيدي سروال ... لعنه الله من سروال ...
سروال جيد أزرق ذو مربعات ... كان قد أوصاني عليه ملائكة من
الآرياف ، ثم رفض أن يأخذه بحجة أنه ضيق جدا ، فبقى السروال
عندي . قلت لنفسى : « هو شيء نمين ، لو بتمه فى سوق الثياب القديمة
لجاءنى بخمسة روبلات . على كل حال أستطيع بتمه أن أصنع سروالين
لسيدين من سان بطرسبرج ، وصديرة أيضا ... » . وأنت تعلم يا
سيدي أن كل شيء حسن لرجل غبي تافه من أمثالا . ولكن حدث فى
ذلك الوقت أن ايمليان وقع فى حالة من الهمود والخمول . نظرت
فرأيتة لا يشرب يوما ، ثم لا يشرب فى اليوم الذى يليه ، فإذا جاء اليوم
الثالث كان منهارا انهيارا كاملا . ان المرء ليشفق عليه ، وتأخذه به
رحمة . قلت أخاطبه بنى وبين نفسى : « لعلك يا عزيزى ستعود الى
جادة الصواب ، والى طريق الرب . . لعلك قد سمعت صوت العقل ،
فقلت لنفسك : كفى ! » .

« ذلك يا سيدي ما كنا قد وصلنا اليه من حال . ويومئذ حلَّ عيد
كبير . وذهبت الى الكنيسة لصلاة الغروب . . فلما عدت الى البيت
وجدت صاحبي ايمليان قد جلس الى حافة النافذة وهو كاليت سكرأ .
انه جالس هناك يتهزئ . قلت : ها ... ها ... مرحى ... يافتى !»

ومضيت أبحث عن شيء فى الصندوق . . ونظرت فاذا أنا لا أجد
السروال . وبحثت عن السروال فى كل مكان فما وجدته . وبعد أن
نشرت البيت كله ، أيقنت انه مفقود ، فكأن خنجرأ قد نفذ فى قلبي .

أسرعت الى العجوز وأمطرتها بوابل من اللوم . ولكننى لم أقل
شيئا لايمليان رغم أن حالة السكر التى هو فيها تشير الى أنه هو الجانى .

قالت لى العجوز :

- لا ياسيدى سامحك الله ماعسانى صانعة بسروالك
هل فى وسعى أن ألبسه • ومنذ مدة سرق لى رجل تنورة على كل
حال أنا لا علم لى بشيء عن السروال •

سألتها :

- من جاء الى البيت ؟

فقالت :

- لا أحد • كنت هنا طول الوقت • وخرج ايميليان ايلتشى ثم عاد
• ها هو ذا ، فأسأله •

قلت له :

- ايميليان ، أثراك أخذت سروالى الجديد السروال الذى
تعرفه السروال الذى خطته للملائكة ثم لم يرض أن يأخذه ؟
- لا يا أستاذ ، لم أخذه •

قلت لنفسى : « ما هذا الأمر • ثم طفقت أبحث من جديد • لم أعر
على شيء • وما يزال ايميليان حيث كان ، جالسا فى مكانه يترجىج •
وجلست أمامه يا سيدى ، هكذا ، على الصندوق • ونظرت اليه على حين
غفلة • فرأيتنى أقول لنفسى : « انه هو » • كان قلبى يحترق • واحمر
وجهى • وفى تلك اللحظة نظر الى ايميليان هو أيضا • قال :

- لا يا أستاذى ايفانوفتش • لم آخذ سروالك • لملك تظن أنتى
.... أنتى ولكنى لم أخذه •

- ولكن أين ذهب اذن يا ايميلان ايلتش ؟

- لا يا أستاذى ايفانوفتش ، لم أره

- ماذا تقول يا ايميلان ايلتش ؟ هل يمكن أن يفقد من تلقاء

ذاته ؟

- ربما يا أستاذى ايفانوفتش

وبعد ذلك نهضت واقتربت منه وأشعلت المصباح وشرعت أعمل •
كنت أحضر صديرةً لموظف يقطن تحت بيتنا • وكان قلبى يخفق •
وكان صدرى يحترق احتراقاً • وأحس ايميلان الغضب قد استولى
على • وأحس أن الشر آتٍ من بعيد • كما يحس الطائر فى السماء
بهبوب العاصفة •

قال ايميلان بصوت مضطرب :

- هل تعلم يا أستاذى ايفانوفتش ؟ لقد تزوج آتيب بروفوروفتش
اليوم بامرأة الحوذى الذى مات منذ مدة قصيرة

« نظرت اليه • ربما فى شيء من غضب • ففهم • ونهض • واقترب
من السرير • وأخذ يبحث عن شيء ما • كنت أراقبه • ظل ينبش مدة
طويلة • ويدمدم فى الوقت نفسه قائلاً : لا أجِد شيئاً • فأين اختفى
السروال اذن ؟ سأرى » واندس ايميلان تحت السرير • فلم أعد أطيع
صبراً • فقلت :

- ماذا دهالك يا ايميلان • مالك تجر نفسك هذا الجراً على

ركبتك ؟

- أبحث عن السروال فلعله يكون تحت السرير لعله

سقط تحت السرير •

– ولكن يا سيدى (قلت له يا سيدى من شدة الحلق) ، لساذا
تحمل نفسك كل هذا العناء فى سبيل انسان مسكين مثلى ، وتعب
ركبتك ؟

– ولكن يا أستاذى ايفانوفتش *** أنا *** ما *** لا شىء •
لعلنا واجدوه فى مكان ما اذا نحن أحسننا البحث والتنقيش •
قلت :

– اسمع يا ايميليان ايلتش •

– ماذا يا أستاذى ايفانوفتش ؟

– أغلب ظنى أنك سرقتى وانتهى الامر ، كما يفعل لص أو سارق ،
لنشكرنى •

« الى هذه الدرجة غضبت يا سيدى حين رأيته يزحف نفسه على
ركبته فوق أرض الغرفة •

– لا يا أستاذى ايفانوفتش •

« وظل راقدا تحت السرير • لبث هنالك زمنا طويلا • ثم خرج
• نظرت اليه • فاذا هو مصفر الوجه اصفرارا شديدا • ونهض فجلس
على حافة النافذة ، وظل على تلك الحال قرابة عشر دقائق • ثم قال :

– لا يا أستاذى ايفانوفتش •

ونهض فجأة ، حزينا كخطيئة ، ودنا منى (ما أزال أراه فى خيالى
الى الآن) ، وقال لى : لا يا أستاذى ايفانوفتش • لم آخذ سروالك • وكان
يرتجس ، وكان يلطم صدره ، وكان صوته يختلج متهدجا • أخذت حاله
تخيفنى • قلت :

- طيب يا ايميليان ايلتش • لا تحدثن في هذا الامر بعد الآن •
سامحنى اذا كنت قد عاتبك خطأ ، ووجهت اليك اللوم كما يفعل غيبى
أحمق • سحقا للسروال • لن نموت من ضياع السروال • ان لنا ، والله
الحمد ، أذرا تعمل ، فلن نسرق ، ولن نستعطى صدقة من غريب ، من
انسان مسكين ، وسنكسب رزقنا بكده يميننا وعرق جبيننا •••

• كان ايميليان يصنى الى واقفا أمامى • ثم جلس • ولبت على هذه
الحال طوال السهرة لا يتحرك • وقد رقدت على سريرى حين كان
لا يزال جالسا فى ذلك المكان نفسه لايتزحزح عنه • وفى الصباح فقط
انما رأيت أنه كان قد تمدد على الأرض العارية متلفعا بمعطفه وحده •
لقد أبى حتى أن يضطجع على السرير •

• ومنذ ذلك الحين يا سيدى أصبحت لا أحبه • حتى انتهى فى
اليوم الاول قد كرهته • لكأن ابنى قد سرقنى ، بل وأهاننى وشتمنى •
كنت أقول لنفسى : « ويل لك يا ايميليان ! » • أما هو ، يا سيدى ، فقد
ظل أسبوعين كاملين لا ينقطع عن الشراب • صار كالمسعود ادمانا • فما
أن يطلع الصباح حتى يخرج ، ثم لا يعود الى البيت الا فى الليل • ولم
أسمعه ينطق بكلمة واحدة خلال هذين الاسبوعين • لعل الالم كان
يحز فى نفسه ، فهو يشرب ليطيش عقله ويعرق ألمه • وأخيرا انتهى
الامر • انقطع ايميليان عن السكر • لعله أنفق كل ما كان معه • وهاموذا
يستقر على حافة النافذة • أذكر أنه ظل جالسا صامتا ثلاثة أيام بأسرها !
وكيف كانت عيذه أشبه بينوع يا سيدى ، حتى كأنه لا يشعر هو
نفسه بتدفق دموعه • ما أشد ما يؤلم نفس المرء يا سيدى أن يرى رجلا
مسننا ، شيخا مثل ايميليان ، يبكى حزنا وألما •

قلت له :

— ما بك يا ايميليان ؟

كان يرتعش من قمة رأسه الى أخمص قدميه • لم أكن قد خاطبته
بكلمة واحدة منذ افتقاد السروال •

قال :

— لا شيء يا أستاذي ايفانوفتش •

— كان الله في عونك يا ايميليان ! ليضع كل ما يمكن أن يضيع ،
ولكن لماذا أنت جالس هذه الجلسة كيوم •
» لقد آلمنى وضعه •

قال :

— هكذا يا أستاذي ايفانوفتش +++ ليس الامر هذا +++ وانما
أريد أن أجِد عملاً ما +++

— أى عمل يا ايميليان ايلتش ؟

— لا فرق عندي +++ لعلنى أجِد وظيفة ما ، كما كنت فى الماضى •
لقد ذهبت الى فيدوسى ايفانوفتش +++ ليس يحسن أن أكون عالةً عليك
يا أستاذي ايفانوفتش +++ ولعلنى أرد اليك كل شيء اذا أنا وجدت
عملاً +++ نعم سأرد اليك كل شيء +++ حتى ثمن الخبز سأرده
اليك +++

— كفى يا ايميليان ، كفى ! +++ قد مضى ما مضى فلا تتحدثن فيه
بعد الآن • ولنعش كما كنا نعيش من قبل •

- لا يا أستاذي ايفانوفتش ... ربما كنت أنت ... ما تزال ...
ولكنني لم آخذ سروالك *

- طيب * اتفقنا * كان الله معك يا ايميليان ...

- لا يا أستاذي ايفانوفتش ... طبعاً لم يعد في امكاني أن أعيش
عندك ... يا أستاذي ايفانوفتش ...

قلت :

- ولكن من ذا الذي يطردك من هنا يا ايميليان ، حرسك الله ؟ أنا
طردتك ؟

- لا ... ولكن لا يليق أن أعيش عندك كما أعيش الآن يا أستاذي
ايفانوفتش ... الافضل أن أنصرف ..

» ذلك ما قاله حزينا يهين نفسه ... وظل يردد هذا الكلام نفسه
... ثم اذا هو ينهض فعلاً ويأخذ يرتدى معطفه *

- ولكن الى أين تذهب يا ايميليان ؟ اسمع يا ايميليان ! الى أين
عساك تذهب ؟ ...

- لا يا أستاذي ايفانوفتش * وداعا * لا تحاول أن تبقى عندك *
أنا ذاهب يا أستاذي ايفانوفتش * أنت لست الآن كما كنت من قبل *
قال ذلك وقد طفق يبكي من جديد *

قلت :

- لماذا تظن أنني لست الآن كما كنت من قبل ؟ أنا لم أتغير ...
أنت الذي تغيرت فأصبحت غيباً كطفل * اذا عشت وحدك فستهلك
يا ايميليان ايلتش *

— لا يا أستاذي ايفانوفتش ... أنت الآن تقفل صندوقك حين تخرج . وأنا أرى هذا فأبكي . لا ... دعني أنصرف . ذلك أفضل يا أستاذي ايفانوفتش . وسامحني اذا كنت قد أسأت اليك .

« وانصرف يا سيدي . انتظرت يوما ، فيوما آخر ... وقلت لنفسي : لا بد أنه عائد هذا المساء . » ولكنه لم يعد . وانقضى اليوم الثالث ، ولم يعد أحد . خفت . استبد بي القلق . أصبحت لا أشرب ولا أكل ولا أنام . انهارت نفسي تماما . ومضيت في اليوم الرابع أبحث عنه . لم أذع خمارة الا وذهبت أبحث عنه فيها . وسألت أترابه تاه ! وقلت لنفسي : « لعله سقط ميتا في مكان ما من فرط السكر ، فهو يرقد الآن جثة تشة ! » . وعدت الى البيت مضطربا لا أنا بالحى ولا أنا بالميت . وقررت في الغداة أن أمضى باحثا عنه . ولعنت نفسي لأننى تركت هذا الاحمق ينصرف من بيتي بارادته . ولكن عند الفجر تقريبا من اليوم الخامس (وكان اليوم يوم عيسى) صرَّ الباب ... فنظرت فاذا ايميليان يظهر ... انه هو الذى يدخل ! كان مزرق اللون ، متسخ الشعر ، كأنه نام في الشارع ، وكان هزيلا ضامرا كمسمار .

« خلع معطفه ، وجلس على صندوقى ونظر الى ... كنت سعيداً بعودته ، الا أن نوعا من القلق والخوف كان يخلق نفسي أكثر من ذى قبل . أقصد يا سيدي أنه لو وقع لى أنا أمر من هذا القليل لأثرت أن أفتس كما يفتس كلب على أن أعود هذه العودة . أما ايميليان فقد عاد . لا شك أنه يؤلم المرء أن يرى انسانا على مثل هذه الحال . لذلك أخذت أواسيه ، وأعزيه ، وأدله . قلت :

— هيه يا ايميليان . يسعدنى أنك رجعت . ولو تأخرت قليلا لمضيت أبحث عنك اليوم أيضا فى الخمارات . هل أكلت ؟

— أكلت يا أستافى ايفانوفتش •

— حقا ؟ اسمع يا صديقى ••• لقد بقى بعض الحساء من أمس •
انه مرق • واليك خبزنا وثومنا ، فكل ، وما هذا كله بكثير •

« قدمت له الطعام ، فلاحظت عندئذ أنه لم يأكل شيئا منذ ثلاثة أيام ، وذلك من شدة اقباله على الطعام وشراسته فى التهامه • معنى هذا أن الجوع هو الذى اضطره الى الرجوع • رقى قلبى له ، ورأفت به • نظرت اليه وقلت لنفسى : « سأذهب الى خمارة فأجيئه بقليل من الخمر ، ثم تنصالح » • وقلت له : كفى يا ايميليان ••• لم يبق فى نفسى شئ من زعل •

وجثته بالخمر ، وقلت له :

— هاك يا ايميليان ••• فلنشرب قليلا بمناسبة العيد ••• هل لك بقليل من الخمر ؟ بقليل من الخمر تصح الابدان !

فمد يده يتناول القدح بشراهة • ها هوذا يمسك القدح ، ويهم أن يفرغه فى جوفه • ولكنه ما يلبث أن يتوقف على حين فجأة • كان القدح يرتعش فى يده ••• وها هو ذا يرد القدح الى المائدة ••

— ماذا يا ايميليان ؟

— لا ••• يا أستافى ايفانوفتش •••

— ماذا ؟ ألا تريد أن تشرب ؟

— ولكننى ••• يا استافى ايفانوفتش ••• لن أشرب بعد اليوم
قط •••

— ماذا ؟ أتريد أن تنقطع عن الشراب تماما أم تريد أن تنقطع عن الشراب اليوم فحسب ؟

« صمت ايميليان • ونظرت اليه ، فرأيته يضع رأسه بين يديه •
قلت :

— ماذا بك يا ايميليان ؟ أنت مريض ؟

— نعم ••• أحس بأنى مريض •

« أرقدته على السرير • ونظرت • كانت حالته سيئة حقا • ان
رأسه محترق بالحمى • ولبثت قربه طول النهار • وازدادت حاله سوءا
أثناء الليل • صنعت خليطا من خمرة الكفاس والزبدة والثوم ، وأضفت
الى الخليط قطعا صغيرة من الخبز ، وقلت له :

— اليك هذا يا ايميليان • حاول أن تأكل قليلا ••• فلعل ذلك أن
ينفعك •

هزّ رأسه رافضا وقال :

— لا •• لن أكل اليوم •

« وحضرت له شيئا من الشاي • كانت المعجوز متعبة • لم يتحسن
حاله • قلت فى نفسى : « عبث ••• ان حالته سيئة • » •

« ومضيت فى اليوم الثالث أبحث عن طبيب • كنت أعرف طبيبا
اسمه كوستوبرافوف • عرفته حين كنت أعمل عند أسرة يوسامياجين •
وكان قد عالجنى من مرض ألمّ بى • جاء الطبيب ، فبعد أن فحص
المريض قال : « نعم ، ان حالته سيئة ••• ولم يكن ثمة ما يدعو الى
احضارى ••• على كل حال يمكن أن نصف له سفوفا ••• » •

والحق أننى لم أجرّعه السفوف ••• وكنا فى اليوم الخامس •
« انه راقد هناك ، أمامى ، يشارف على النهاية من حياته • وكنت

جالسا على حافة النافذة أخيط • أشعلت الميجوز المدفأة • كنا نحن
الثلاثة صامتين • وكان قلبي ينفطر ألما حين أنظر اليه • وكنت أعلم انه
ينظر الى ••• كنت أحس منذ الصباح أنه يريد أن يقول لى شيئا
ولكنه لا يجرؤ ••• وأخيرا نظرت اليه أنا أيضا • فقرأت فى عيني
المسكين قلعا رهيبا • انه لا يحول بصره عني • ولكنه حين لاحظ أننى
نظرت اليه أشاح بعينه •

— أستافى ايفانوفتش !

— ماذا يا ايميليان ؟

— اذا بيع معطى مثلا ، فهل يجي • بمن كبير ؟

— لا أدري يا ايميليان • قد يباع بثلاثة روبلات •

« كذلك قلت له يا سيدى • ولكن الواقع أن المعطى لا يمكن أن
يباع بقرش واحد • ولو عرضت على احد أن يشتريه لظن أنك تضحك
عليه وتسخر منه وتحقره • اذ تريد أن تبعة قاذورة كهذه القاذورة •
وانما قلت لايميليان ان المعطى قد يباع بثلاثة روبلات مواساة له لا أكثر
••• وأجابنى ايميليان قائلا :

— لقد قدّرت يا أستافى ايفانوفتش أنه سيباع حتما بثلاثة روبلات •

ذلك أنه من جونغ يا أستافى ايفانوفتش • فكيف تقول انه • قد • يباع
بثلاثة روبلات ••• كيف تشك فى أنه سيباع بثلاثة روبلات قطعا ؟ ••

قلت :

— لا أدري يا ايميليان ايلتش • ولكن اذا أردت أن تبعة • فيجب

أن تطلب ثمنا له ثلاثة روبلات على الأقل ••• حتما •••

« وبعد صمت قصير • نادانى ايميليان مرة أخرى :

— أستاذى ايفانوفتشى !

— ماذا يا ايميليان ؟

— حين أموت عليك أن تبع معطى • فليس من الضرورى أن أدفن به • سأتبقى بدون ••• ان للمعطف قيمة ••• ان من الممكن أن يستفاد منه •••

« انقبض قلبى يا سيدى انقباضا لا أستطيع أن أصغه لك • رأيت الخوف الذى يسبق الموت • وصمتنا من جديد • وانقضت ساعة كاملة على هذه الحال ••• ونظرت الى ايميليان ، فرأيتة ينظر الىّ هو ايضا • فلما التقت نظراتنا خفض عينيه من جديد •

— هل تريد أن تشرب قليلا من الماء يا ايميليان ايلتشى ؟

— نعم ••• اسقنى ماء يا أستاذى ايفانوفتشى ••• بارك الله فيك ••
ناولته ماءً ، فشرب وقال :

— شكرا يا أستاذى ايفانوفتشى •

— ألا تريد شيئا آخر يا ايميليان ايلتشى ؟

— لا يا أستاذى ايفانوفتشى ••• لا شئ ••• ولكن •••

— ماذا ؟

— ولكن •••

— ماذا يا ايميليان ؟

— شئ واحد أريد أن أقوله ••• السروال ••• أنا أخذت السروال
يا أستاذى ايفانوفتشى •••

— طيب يا ايميليان ... عفا الله عنك أيها المسكين ، ولتتم هادىء
البال مطمئن النفس ...

« كان صدرى أنا يخنق يا سىدى ... وسالت على خدىء
دموع • وتحولت ببصرى عن ايميليان ...

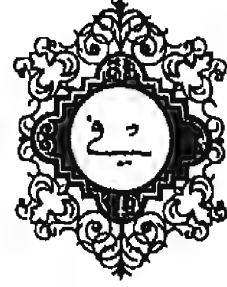
— أستاذى ايفانوفتش ! ...

هكذا نادانى ، فنظرت اليه ، فرأيت أنه يريد أن يتكلم • انه يبذل
جهداً ويحرك شفتيه ... وفجأة احمر احمراراً شديداً ونظر الى • فما
هى الا لحظة قصيرة حتى اصفر اصفرارا شديداً ، شديداً ، شديداً ...
ورمى رأسه الى وراء ، وتنفس تنفساً عميقاً ، وردّ روحه الى الله ...

البطل الصغير

١٨٤٨

« البطل الصغير » (Malen'ki gheroi)
كتب دوستوفسكي هذه القصة
سنة ١٨٤٨ ، بينما كان معتقلا في
قلعة بتروبا فلوفسكايا بسان
بطرسبرج ، ونشرت في مجلة
« حاليات الوطن » في شهر آب
(أغسطس) ١٨٥٧ باسم مستعار
هو : م. ي.



ذلك العهد ، كنت فى نحو الحادية عشرة من
عمرى • أذن لى أن أسافر لاقامة قصيرة فى
الريف فى شهر تموز (يوليو) عند أحد الأقرباء
فى قرية يملكها • كان قد اجتمع فى القرية
خمسون مدعواً من المدعوين • الجو مرح صاخب ، وكان الاحتفال
لا يريد أن ينتهى أبدا • وكان المضيف كان قد آلى على نفسه أن يبذل
بأقصى سرعة ثروته الواسعة ، وقد نجح أخيراً فى البر يمينه ، فبذل أمواله
حتى آخر قرش • ان موسكو قرية ، وهؤلاء زوار جدد يصلون فى كل
لحظة ، فالذاهبون يحل محلهم القادمون ، والاحتفال ما ينفك يعظم •
المتع تتلاحق والألعاب لا تنتهى ، فتارة هى جولات على صهوات الخيل
فى البرية ، وتارة هى رحلات الى الغابات والى النهر ، أو هى نزعات أو
مآدب غداء فى الحقول أو ولائم عشاء على الشرفة الواسعة من المنزل
الاقطاعى العريق ، وهى شرفة تحف بها ثلاثة صفوف من نواذر الأزهار
تطر بشذاها طراوة الليل • والاضاءة الساطعة المتلألئة تسكب على
سيداتنا الجميلات مزيداً من السحر والفتنة ، فوجوههن منتشرة ، وأعينهن
ملتزمة ، وأحاديثهن مريحة ، وضحكاتهن رنانة كصوت أجراس صغيرة •

وثمة موسيقى ورقص وأغان ، فإذا تلبدت السماء بالغيوم ، أخذوا يلعبون ألعابا شتى ، فمن لوحات حية ، الى اللقاء الاحاجى ، الى تبادل الامثال • وقد شكلوا فرقة مسرحية ، فكان عدة مدعوين يمثلون الدور الأول فى المسرحيات • وطبيعى أن النعائم والأقاويل كانت تجرى فى طريقها • فلولاها لقلت البهجة فى هذا المجتمع ، ولتعطل انطلاقه ، ولما من الضجر ألوف الأشخاص • ولكننى ، وأنا فى الحادية عشرة من عمرى ، لم أكن أدرك ذلك ، لأن ذهنى كان ينصرف الى غير هذا • وانما أتبع لى فيما بعد أن أتذكر بعض الامور • كان المظهر المتألى للوحة يستطيع وحده أن يخطف بصرى ، بصر الطفل ، وكانت هذه الحركة الحية الشاملة وهذا اللألاء وهذا الصخب الجديدان اللذان لا عهد لى بهما من قبل ، كان كل ذلك يبلغ من ادهاشى واذهالى فى الأيام الأولى أننى كنت منصعقا مبهوتا ، حتى لكان رأسى مقلوب •

أعود فأقول اننى كنت فى الحادية عشرة من عمرى • ولا شك أننى لم أكن الا طفلا ، لم أكن أكثر من طفل • وكانت هاته السيدات الجميلات لا يخطر ببالهن أن يسألن عن سنى وهن يداعبنى ويلاعبنى • ولكن الأمر الغريب أننى منذ تلك السن كانت تبتاحنى عاطفة لا تعليل لها فى نظرى • كان شئ مجهول لا عهد لى بمثله يمس قلبى ويحرقه ، ويحمله على الحفقان خوفا ، ويلهب خدى بحمرة مباغثة • وكان يخرجنى بل يهدنى هدا ما كنت أتمتع به من ميزات يتمتع بها الأطفال • وكنت فى بعض الأحيان أعتزل المجتمع بتأثير حزن مبرح يملككنى على حين فجأة ، محاولا بذلك أن أسترده أنفاسى وأن أتذكر شيئا لا أدرى ما هو ، شيئا أكون قد ظننت أننى فهمته ثم اذا بى أنساه فجأة ، ولكنه لا غنى عنه لحياتى ووجودى •

وكنت أحس أننى أخفى شيئا لا أستطيع أن أكاشف به أحدا ،

لأننى أشعر منه بالحجل والعار الى حد ذرف الدموع • ولم ألبث أن شعرت بعزلتى ووحدتى وسط هذا الاعصار الذى يحيط بى • وكان نمة أطفال آخرون ، ولكنهم جميعا أصغر منى كثيرا ، أو أكبر منى كثيرا ؛ على أننى لم أكن أحفل بذلك كثيرا • وطبعى أنه لم يقع لى شئ فى هذا الظرف الذى كنت أتمتع فيه بميزات خاصة • كنت فى نظر جميع هاته السيدات طفلاً يحين أن يلامسنه ملاعبات كما تلامس عروس من عرائس الأطفال • وكانت واحدة منهن خاصة ، وهى شقراء لذينة ذات شعر رائع لم أر له نظيراً منذ ذلك الحين ، يبدو انها آلت على نفسها أن لا تدعنى وشأنى مطمئن البال • كان واضحاً أن الضحكات التى كانت تثيرها حولنا تصرفاتها الغريبة التى تشبه تصرفات تلميذة فى المدرسة تحدث لها أكبر متعة • وكان هذا يبعث فى نفسى الحيرة والاضطراب • كانت جميلة جداً رائعا باهرا • ولم تكن تشبه فى شئ تلك الشقراوات الصغيرات اللواتى يتصفن بالحياء والخفر والرهافة كبيضات الفئران ، أو كبسات الرعاة • انها أميل قليلا الى الامتلاء ، وليست بالطويلة كثيرا ، ولكن قسمات وجهها الدقيقة كانت أخاذة فائقة • ان فى هذا الوجه لسطوعا يخطف البصر ، حتى وكأنها كلها لهب سريع خفيف • فعيناها الواسعتان تومضان كالبرق وتلتزمان التماع الماس • اللهم انى لا أبادل مثل هاتين العينين الزرقاوين بعينين سوداوين من عيون حسناوات الأندلس ! ان شقراوى هذه لتساوى حقا تلك السمراء الجميلة الشهيرة التى تغنى بها فى شعر رائع شاعر كبير أقسم أنه مستعد أن يموت اذا سمح له أن يلمس بطرف أصابعه خمار حسناؤه • أضف الى ذلك أن حسناوى أنا كانت بين حسناوات العالم بأسره أشدهن مرحا وأكثرهن ضحكا رغم انقضاء خمس سنين على زواجهما • كانت البسمة لا تبارح شفيتها النصيرتين ، كأنها كم من أكمام الورد الأرجوانى العطر التى لم تكد

تفتتح عند أول شعاع سقط عليها من أشعة الشمس والتي لا تزال
تخضلها أنداء الصباح •

اتذكر انهم اقاموا حفلة تمثيلية غداة وصولي • كانت القاعدة ملأى •
ولم يكن هنالك مكان واحد خال • فاضطرت ان البث واقفا ، لاننى
جئت متأخرا • واذا أغرثنى التمثيلية المسلية فقد تقدمت متسللا الى
الصفوف الاولى ، الى أن تجمدت فى مكان مستندا الى مقعد كانت تشغله
احدى السيدات • انها شقراى التى لم أكن قد عرفتها بعد • وما هو ذا
بصرى يتلبث مصادفة على كتفيها المدورين الرائعين الفاتنين البضين كأنهما
رغوة الزبد • والحق ان هذا المنظر لم يهزنى أكثر مما هزنى منظر
قبة ذات أشرطة حمراء كانت تغطى الشعر الأبيض من رأس سيدة
محترمة جالسة فى الصف الأول • والى جانب الشقراء كانت تجلس
آنسة مسنة هى فيما لاحظته بعد ذلك واحدة من تلك العوانس تساير
ركب النساء الشابات الجميلات اللواتى يحيط بهن الشبان • فلما لاحظت
هذه العانس نظرتى ، مالت على أذن جارتها ودمدمت لها بوضع كلمات
ضاحكة ، فالتفتت الشقراء ، فاذا بشعل من نار ترمى بها عيناها فى هذا
الجو الذى يشبه الظلام ، واذا أنا أتنفض من الدهشة مدعورا كمن
أصابه حرق • ابتسمت الحسناء ، وسألتنى وهى تلقى على نظرة مأكرة :

— هل يعجبك التمثيل ؟

— نعم •

بذلك أجبتها وأنا أتفرس فيها مبهوتا • ولاح عليها أن ذلك سرها •

قالت :

— ولكن لماذا تبقى واقفا ؟ لسوف يتعبك الوقوف • أليس لك

مكان ؟

— كلا ••• فالمقاعد كلها مشغولة •

قلت لها ذلك وأنا أهتم بنفسى فى هذه المرة أكثر من اهتمامى بعينيهما
الساطعتين • وقد أفرحنى حقا أن أجد آخر الأمر قلبا طيبا يذهب عنى
الملل •

— تعال الى هنا واجلس على ركبتى •

قالت ذلك بسرعة • وكان واضحا أنها تخضع لأية فكرة مجنونة
تنبجس فى رأسها الطائش • فقلت متحيرا ذاهل اللب :

— على ركبتيك ؟•••

سبق أن ذكرت للقارىء أن الامتيازات التى كنت أتمتع بها قد
أخذت تهيننى ، وأخذت توقظ فى نفسى وساوس • وأضيف الآن الى
ذلك أن هذا الامتياز الجديد الصادر عنها استخفافا واستهزاء قد تجاوز
جميع الحدود • ثم اننى وأنا الصبى الحجول الكثير الحياء قد أصبحت الآن
شديد الخشية مع النساء • لذلك بلغ اضطرابى أقصاه •

— نعم على ركبتى • لم لا ؟

كذلك أُلحْتُ تقول ، وهى تنفجر ضاحكة مقهقهة ، لا يدرى الا الله
لماذا ! لعلها قد سرها اكتشافها كما سرها اضطرابى الشديد الذى حاولت
أن تثيره •

احمر وجهى وأنا أجيل طرفى محاولا أن أهرب • ولكنها سبقتنى •
فأسكت يدى لتمنعنى من الهروب وجذبتنى اليها ، وأخذت تشد على يدى
بأصابعها الصغيرة الفارحة التى لا ترحم • فكدت أصرخ من الألم • ولكننى
كظمت صرختى مصعرا وجهى تصعيرات لا شك أنها كانت مضحكة كثيرا •
وقد أحزنتنى كل الحزن بل أرهبنى أن أرى سيدة تبلغ من الغرابة والحُب

ما يجعلها تقول افوالا حقاء للصية الصغار ، وتقرصهم على مرأى من الناس دون اى داع الى ذلك • ولا شك ان هيتى قد عبرت عن فرط حيرتى واضطرابى • ذلك أن هذه الشيطانة كانت تضحك امام أنفى مقهقهة ، وقد هزها فرح شديد لنجاحها فى ادخال الاضطراب والارتباك الى قلب صبي مسكين • أصبحت فى حالة يرئى لها من الكرب واليأس • ذلك أن جميع الناس قد التفتوا الينا ضاحكين ، فكنت أحترق شعورا بالحجل والعار • وكانت تستبسل فى عقف أصابعى لتحملنى على الصراخ ، ولكنى لحصى على تفادى جرسه لا مخرج لى منها ، كنت قد قررت أن أتحمل الألم كاسبارطى • واشتدت بى الحما فى آخر الأمر حتى بلغت أقصى حدودها ، فأخذت أجاهد محاولا سحب يدى ، ولكن خصمى كان أقوى منى ، فلما أصبحت لا أطيق أن أحتمل الألم مزيدا من الاحتمال صرخت ، وكانت هى لا تنتظر الا هذا ، فلم تلبث أن تركت يدى وتحولت عنى كأن شيئا لم يكن ، مثلها كمثل التلميذ الذى كان يلطم بقدمه رفيقا له أضعف منه من وراء ظهر المعلم ، فما ان هرع المعلم نحو مصدر الضجة كالعقاب حتى تحول المعتدى عن ضحيته ساخرا ، واصطنع هيئة من لم يفعل شيئا ، وعاد الى كتابه مستغرقا فيه •

ومن حسن الحظ ان انتباه الجمهور كان مشدودا فى تلك اللحظة الى صاحب الدار الذى كان يمثل الدور الرئيسى فى مسرحية هزلية من تأليف سكريب • وكان الجمهور يصفق للممثل ، فاتهزت أنا هذه الفرصة وتسللت الى خارج الصف ، واعتصمت وراء عمود فى الطرف الآخر من القاعة ، أرمى الحساء المأكرة بنظرات مروعة • كانت لا تزال تضحك مغطية فمها بمنديلها ، باحثة عنى بنظرها • لاشك أنها كانت نادمة على أن معركتنا المفاجئة المجنونة قد انتهت بسرعة ، ولا شك أنها أخذت تفكر منذ ذلك الحين بأمازيح جديدة •

هكذا تعارفنا • وأصبحت منذ ذلك المساء لا تدعنى وشائى لحظة ،
بل تظل تلاحقنى وتمذبنى • وكانت أمازيحها تقوم على محاولة احراجى
وادخال الاضطراب فى نفسى باعلان شغفها بى وجنونها تولها بحبى •
وكنت أنا صييا متوحشا حقاً ، فكان يؤلمنى ذلك اشد الايلام ، ويدفعنى
الى البكاء • حتى لقد أوشكت مرارا أن أتماسك بالايدي مع صاحبتى
القاسية المعجبة بى الهائمة بفرامى • ويبدو أن اضطرابى كان يشجعها على
الامعان فى مناكذتى ، لا تاخذها بى رحمة ؟ وكنت لا أعرف كيف أهرب
منها • وكان الضحكات التى كانت تثيرها حولنا كانت تشحذ قريحتها فهى
ما تنفك تبتكر المزيد من أنواع الجنون • على أن الناس قد أخذوا
يلاحظون ان امازيحها قد اصبحت مسرفة • والواقع أن فى امكان المرء
أن يقول انها كانت تسمح لنفسها بالافراط فى هذه الامازيح مع صبي
منى •

غير أن طبعها كان كذلك • لقد خلق منها زوجها طفلة مدللة حقاً •
كان زوجها هذا رجلاً قصيراً شديد السمنة شديد الحمرة غنياً كثير الأعمال
دائم الحركة لا يطيق أن يستقر فى مكان فهو يذهب الى موسكو كل يوم
لأعمال ، وربما ذهب فى اليوم الواحد مرتين • انه ليصعب على المرء أن
يجد وجهاً كوجه هذا الرجل بشاشة جذلى وطيبة مضحكة ، على شرف
واستقامة دائماً • وكان حبه امرأته يجعله من الضمف بحيث يشفق عليه
المرء حين يراه • كان يحبها حب العابد معبوده •

وكان لا يضايقها فى شئ • ان لها طائفة من الأصدقاء والصواحب •
اذ أن الذين لا يحبونها قلة • فلم يكن طيشها يدفعها الى التشدد فى اختيار
سدقاتها ، رغم أنها فى حقيقة الأمر أكثر استقامة ورسانة مما قد يترامى
للمرء بعد الذى ذكرته عنها • وكان بين صاحباتها امرأة شابة كانت
تؤثرها حسناؤنا بالحلب على غيرها ، وهى تمت اليها بقربى بعيدة وكانت

هذه المرأة الشابة موجودة معنا أيضاً . ان رابطة مرهفة رقيقة العاطفة كانت تجمع بين هاتين المرأتين ، رابطةً يبعدها المرء أحياناً بين طبعين متعارضين تعارضاً واضحاً أحدهما أقل صرامة ونقاءً من الآخر ، فهو يخضع للتأني خضوعاً ذليلاً ، ويعترف بتفوقه عليه ويمتلئ قلبه صداقة له . فمن جهة أولى نرى عاطفة رغبة الصدر متسامحة الى أبعد الحدود ، ومن جهة أخرى نرى عاطفة يمازجها احترام يمضي الى حد الخوف من فقدان الاعتبار في نظر الشخص الذي يحظى بالاعجاب كما تمازجها رغبة قوية في النفاذ مزيجاً من النفاذ الى الصميم من قلب هذا الشخص .

والصديقتان في عمر واحد . ولكن جمال الاولى يختلف عن جمال الثانية كل الاختلاف . ان في جمال السيدة م . . . شيئاً خاصاً يميزها عن جمهرة حسان النساء . ان قسماً وجهها تجذب اليها القلوب جذبا لا سبيل الى مقاومته ، وتوقف في نفس كل انسان نوعاً من الاهتمام بها والاحترام لها . ان هنالك وجوها وهبت لها الطبيعة هذه النعمة : يحس المرء حين يجالسها بأنه قد ارتفع على ذاته ، فهي توقف في النفس شعوراً بالحرية والعذوبة . ومع ذلك فان عينيها الواسعتين الممتلئتين نارا وقوة حزنتين ، وان نظرتها نظرة خجلى فلفة ، حتى لكانها في خوف دائم من وقوع خطر أو نزول مصيبة . ان هذا الخوف الغريب يسكب على وجهها الهادئ هدوء عذراء ايطالية ويضفي عليه أسمى وكأبة يملنان من القوة أن الحزن يسرب الى نفس من ينظر اليها ويتأملها . ان الجمال الكامل الطاهر في هذا الوجه الشاحب الناحل يوحى بصورة الطفولة التي ما تزال قريبة جداً ، يوحى بها واضحة كل الوضوح كما يوحى بطمأنينة هادئة وثقة كبيرة وربما بسعادة بريئة . وان بسمتها المترددة تجذب اليها جذبا رفيقا وتدافع عنها ، وترفع قدرها ولو رأيتها من بعد . ولكن هذه الفتاة الفساة كانت تبدو صموتا مغلقة رغم أن من المستحيل على المرء أن يجد انسانا

أكثر منها تجاوبا مع آلام الآخرين وأكثر منها انتباها الى عذاب الناس •
ان فى هذا العالم نساء يعشن حياة راهبات من راهبات المحبة والاحسان ،
فمن كان يتألم استطاع أن يقبل عليهن جريئا بنير تردد فائض القلب أبداً
لا يخفى عنهن شيئا ولا يخشى ان يضقن ذرعا بأقباله عليهن • وقلما
يعرف الناس كنوز الحب الصابر والشفقة والغفران التى تنطوى عليها
قلوب أمثال هاته النسوة الطاهرة النقية الجريحة هى نفسها فى كثير من
الأحيان ، لأنها كلما أمعت حبا أمعت ألماً ، على اخفائها عذابها عن عيون
الناس • ان الالم العميق يصمت ويتخفى • وان أمثال هذه المخلوقات
لا تأذن لنفسها أن تشتمز أو أن تنفر من الشر مهما يكن بشعاً ومهما
يبلغ من العفونة • ان من يقاربهن يجد لديهم عونا وسندا وكأنهن على
كل حال انما خلقن للحب البطولى •

كانت السيدة م • • • فارعة القامة مرنة الجسم ممشوقة القد • وكانت
حر كأنها بطيئة متسقة بل فخمة تارة ، ومنطلقة حية عنيفة كحركات
الأطفال تارة أخرى ، على كونها متواضعة خجلى حتى لكأنها عزلاء ، دون
أن يبدو مع ذلك أنها تطلب حماية أو تسأل نجدة •

سبق أن قلت ان المناكدات الظالمة التى كانت تعاملنى بها الشقراء
الماكرة توقعنى فى كثير من الضيق والحرَج والانزعاج وتجرحنى أعمق
الجرح • وكان لهذا سبب آخر ، سبب خفى غريب كنت أحرص على
كتمانهِ حرص البخيل على ماله ، سبب كان مجرد التفكير فيه يجعلنى ألُهِث
قلقا وخوفا فى ركن قائم لا تتسلل اليه النظرة الفاحصة أو الساخرة التى
تلاحقنى بها امرأة وغدة زرقاء المينين حين أدخلو الى نفسى مضطرب
الرأس قلق البال • لقد كنت عاشقا ! لكم أن تقولوا ان هذا مستحيل
ولكننى أسألكم عندئذ لماذا اذن كان هنالك وجه وحيد بين جميع الوجوه
التي تحيط بى يلفت انتباهى ، ولماذا كنت وأنا الصبى الذى لا يسعى كثيرا

الى صحبة النساء أتابع ذلك الوجه بصرى دون انقطاع ، اتابعه وحده دون سواء ؟ ولقد كان ذلك يحدث فى المساء خاصة ، حين تجسنا رداة الجو فى غرفنا ، فاعتصم عاطلا فى ركن من القاعة ، واذ لم يكن احد باستثناء مضطهدتى يكلمنى الا نادرا ، فلقد كنت اشعر بضجر رهيب . كنت اثناء ذلك ادرس الوجوه واصفى الى الاحاديث التى لم اكن افهم منها كلمة واحدة فى كثير من الاحيان ، ففى تلك اللحظات كانت النظرات العذبة والابتسامة الحلوة والجمال اللتان فى السيدة م . . . (فى التى عشقتها !) تسحر انتباهى المفتون لا يدري الا الله لماذا ، وتحدث فى نفسى اثرا غريبا لذيذا لا يمحي . . . كنت لا استطيع ان احول نظرى عنها ساعات برمتها ، فعرفت جميع حركاتها وسكناتها ، وجميع اهتزازات صوتها الفضى ، المحجب قليلا مع ذلك ! والشئ الغريب ان هذه الملاحظات كانت تبعث فى نفسى قدرا غريبا من حب الاستطلاع ، فكأنتى امضى وراء سر أحاول اكتشافه .

وكانت السخريات تؤلمنى أكثر ما يكون الألم وتهيننى أشد ما تكون الاهانة اذا شهدتها السيدة م . . . فاذا اتفق أن انطلقت فهههات الجمع ضاحكة منى فشاركته فيها السيدة م . . . على غير ارادة منها ، هربت من عدوتى الظالمة المستبدة وأنا فى ذروة الكرب والكمد ، ومضيت أقضى بقية السهرة معتزلا منفردا متوحشا لا أجرؤ أن أعود الى الظهور فى القاعة . على أننى كنت لا أفهم أنا نفسى بعد شيئا من هذا الحجل والانفعال الذى أعانيه . فقد كانت هذه العواطف جميعها تجرى تحت سطح الشعور من نفسى ؛ ولم أكن بعد قد تخاطبت بكلمتين مع السيدة م . . . وذلك من قلة جرأتى . ولكن ، فى ذات مساء ، بعد نهار كان ثقيلا الوطأة على نفسى ، تخلفت عن الموكب أثناء النزهة ، ثم تسللت أسير فى الحديقة وقد أخذ التعب منى كل مأخذ . وفيما كنت أمشى فى طريق معزول تحف به الأشجار ، لمحت

السيدة م جالسة على مقعد . كان رأسها مائلا على صدرها ، وكانت تشد منديلها بحركات آلية على غير شعور منها ، وكانت غارقة فى تأملاتها فلم تسمع وقع خطواتى .

فلما لمحتنى ، نهضت عن المقعد بسرعة قوية ، وحولت وجهها : فرايت انها كانت تبكى . ثم ابتسمت لى بعد ان جففت دموعها ، وسرنا معا نحو البيت . لا اذكر الموضوع الذى دار عليه حديثنا ، ولكننى اعلم انها كانت ترسلنى فى كل لحظة ، متعلقة بألف حجة وحجة ، فهى تارة تسألنى أن أقطف لها وردة ، وتارة تطلب منى أن أمضى لأرى من ذا الذى يعدو على صهوة الجواد فى طريق الأشجار المجاور . وكانت منى ابتعدت عنها تقرب منديلها من عينيها لأن دموعها المتمردة التى تتجس فى قلبها كانت تغرق عينيها بالبائستين . كان واضحا أن صحبتى لها تثقل على نفسها . لقد أدركت أننى شهدت 'ألمها' . ولكنها لم تكن قادرة على السيطرة على نفسها . وقد غضبت من نفسى أشد الغضب ، ولغنت خرافتى وقلة تبصرى . وعينا حاولت أن أبتعد عنها دون أن يدل هذا الابتعاد على أننى قد رأيت دموعها ، فكنت أسير الى جانبها مرتبكا أشد الارتباك ، حزينا لأجد ما أقوله لها .

لقد هزنى هذا اللقاء فظلللت ألاحظ المرأة الشابة طوال السهرة ، مبالغا فى الاستطلاع والتوصل لا أحول عنها بصرى لحظة من اللحظات . وقد أدركت هى ذلك فابتسمت لى وكانت تلك الابتسامة هى الوحيدة التى افتر فمها عنها فى ذلك المساء . كان الحزن لا يبارح وجهها الذى أصبح الآن شاحبا شديد الشحوب . وكانت تتحدث مع سيدة طاعنة السن هى عجوز خبيثة الطبع حادة المزاج لم يكن أحد يحبها ، ولكن كان جميع الناس يخشونها ، بسبب هوسها فى التجسس على

الجميع ، وبسبب لسانها الذى لا ينقطع عن تليفق الاقاويل والنمايم ، فهم مضطرون جميعا الى مداراتها ومراعاتها شاعوا أم أبوا .

فى نحو الساعة العاشرة من المساء ، ظهر السيد م . . . فلاحظت كيف ارتجفت السيدة م . . . حين ظهور زوجها هذا الظهور الذى لم يكن فى الحسبان ، وازداد شحوبها حتى صار اشد بياضا من بياض منديلها . ولاحظ اخرون غيرى هذا ايضا . وسمعت الى جانبي شذرة من حديث افهمنى ان الامور لا تتجرى كلها على ما تحب السيدة م . . . المسكينة . قالوا ان زوجها غيور عليها غيرة عظيم ، وان غيرته هذه ليس مبعثها الحب بل الغرور . انه قبل كل شئ رجل اوربى ، رجل عصرى ، محشو الرأس بأفكار جديدة يباهى بها ويدل بها على الناس . وهو طويل القامة ، قوى البنية ، اسود الشعر ، له لحيتان صغيرتان على الخدين . . . يعتبر وجهه الدموى عن الاكتفاء بالنفس . وأسنانه بيضاء كالسكر ، وحركاته ومشيته ومظهره تنطبق كلها على ما يتميز به من يوصف بأنه « جتلمان » كامل . وكان يقال عنه انه رجل « ذكى » ، فهذه الصفة انما يوصف فى بعض الاوساط نوع " من البشر يسمنون على حساب الآخرين ولا يقومون بعمل البتة بل يقضون أوقاتهم فى فراغ ولهو ويملكون فى مكان القلب قطعة من شحم . ان هؤلاء الناس يؤكدون أن مصائب معقدة غاية التعقيد قد « أضنت عقريتهم » ، وهم يبدلون هذه الجملة المتنفخة التى أصبحت من طول الاستعمال ومن فرط ما يعتمد اليها أصحابنا السمان هؤلاء تظاهرا بنبل العواطف ، يبدلون لكل قادم جديد كأنها « كلمة سر » . ولأن هؤلاء السخفاء لا يجدون عملا يقومون به ولا يبحثون من جهة أخرى عن عمل يقومون به ، فانهم يريدون أن يوهمو الناس بأن قلوبهم تنطوى على أشياء عميقة جدا (والحق أن أمهر الجراحين وأبرعهم ما كان لهم أن يعرفوا هذه الاشياء العميقة على وجه

(الدفه) • ان امثال هؤلاء الناس يستعملون جميع ما أوتوا من غرائز ليستخفوا بالآخرين وليسخروا منهم ، فاحكامهم عمياء وصلفهم مفرط لا حدود له • انهم لا يزدون على رصد اخطاء من حولهم ، ومراقبة ما فيهم من جوانب الضعف • واذا كانت طبيعتهم لا تفوق طيبة محاربة من محار الماء فان معاشرتهم للآخرين يحكمها الحذر ويسيطر عليها حب التروى والتبصر • وهم بذلك فخورون • وانهم لا تتاعهم بان البشر كافة باستثنائهم اناس حمقى يستطيعون هم عند الحاجة ان يعصروهم كما تمصر برتقالة أو اسفنجة ، فانهم يحسبون انفسهم سادة العالم ، ويحسبون العالم مدينا لهم مرهوناً بهم متوقفاً عليهم • وانهم يعتبرون هذا الوضع ثمرة ما يملكون من ذكاء وما يتصفون به من خلق قوى وارادة صلبة وطبع فذ • وهم فى سلفهم هذا الذى لا حدود له لا يسلمون بان لهم عيوباً او اخطاء •• انهم يشبهون أولئك الأوغاد أمثال تارتوف أو فالستاف الذين ينتهون الى الاقتناع من فرط ما خادعوا ومكروا وغشوا بأن من حقهم أن يظهروا مخاتلين ، ثم هم من فرط ما أقنعوا الآخرين بذلك أصبحوا يعتقدون مخلصين بأنهم أناس شرفاء مستقيمون • انهم لا يملكون الوسائل الضرورية لامتحان ضميرهم امتحاناً صادقاً كريماً ، ولنقد أنفسهم بأنفسهم نقداً نزيهاً نبيلاً • ان جلودهم أسمك وأغلظ من أن تتقبل مثل هذا الامتحان أو مثل هذا النقد • ان شخصيتهم الفذة وذاتهم المتفوقة هما فى نظرهم أشبه باله العموميين «مولوك» أو اله الفينيقيين «جمل» • فما وجدت الطبيعة العظيمة ولا وجد الكون كله الا ليكون مرآة خلقت ليستطيع الاله الصغير أن يرى نفسه فيها فيعجب بها • وهذا يمنهم من أن يروا كل ما ليس عداهم ، وذلك هو السبب فى انهم يرون جميع الاشياء من جانبها الكريه البغيض • ان هؤلاء الناس يملكون لكل مناسبة من المناسبات جملة مهياة جاهزة هى عدا ذلك على « الموضة » ، وتلك عندهم

قمة البراعة • ويكونون قد اسهموا هم في خلقها ناشرين في جميع
المفارق مزاعم لا تقوم على اساس من الصحة ، لكنهم يقدرون انها
ستصيب نجاحا ورواجا ، فهم اناس لا تموزهم الشمامة والخذاقة • وهم
ينسبون الى انفسهم هذه الجمل فيوهمون انهم صانعوها ، ويكثرون خسة
من التعيرات التي تفصح عن محبة عميقة للبشر والتعريفات التي تحدد
العطف على الانسان تحديدا يتصف بالتعقل والحكمة ، ويكثرون من
ادانة الاندفاع الرومانسى اى ادانة الجمال والحق في كثير من الاحيان ،
الحق والجمال اللذين تساوى ذرة منهما من القيمة أكثر مما تساوى
أشخاصهم الرخوة الرخصة كلها • أما البحث عن الحقيقة فانهم
يجهلونه كل الجهل ، وهم يصدون عن كل ما يتطور وينضج • كذلك
عاش الرجل السمين حياته بطرا بلا جهد يبذله ، جاهلا ما يقاسيه
الانسان من عناء في كل عمل يقوم به • لذلك فويل ثم ويل لك اذا انت
هاجمت عواطفه ، فانه لن يغفر لك ذنبك أبدا ، وسيحمل لك الحقد
مدى الحياة ، وسيشعر بأكبر المتع حين ينتقم منك • الخلاصة ان بطلنا
لم يكن أكثر من كيس ضخم منفوخ محشور جملا جاهزة وصيفا مهياة
وعناوين من جميع الأنواع •

على أن السيد م ••• كان يمتاز بخاصة تثير الالتفات ، فهو رجل
حاضر النكتة بارع الحديث ، وهو قصاص يتخلق حوله الناس في
الصالونات • ولقد كان في ذلك المساء مبتهجا مرحا مسرورا بلا سبب
ظاهر • واذا ظفر بتركيز انتباه الناس حوله فقد سيطر على الحديث •
ولا كذلك السيدة م ••• فقد كان يبدو عليها من الالم والحزن ماجملنى
أتوقع أن تختلج على أهدابها الطويلة دموع ، فكان ذلك كله يحزننى
أشد الحزن كما سبق أن قلت • وقد انصرفت حائرا طائش اللب ،
ووافانى في الليل كابوس مزعج اذ حلمت بالسيد م •••

وفي صباح الند نوديت الى التمرن على اللوحات الحية التي كنت
أشارك فيها بدور صغير . وكان موعد عرض اللوحات الحية وتمثيل
المسرحية واقامة الحفلة الراقصة بعد بضعة أيام احتفالا بعيد ميلاد الابنة
الصغرى لصاحب الدار . وكان ينتظر أن يأتي ما يقرب من مائة شخص
من موسكو والقرى المجاورة لحضور هذا العيد الذي ارتجل ارتجالا
تقريبا . ومن أجل ذلك كان المنزل مليئا بالحركة والصخب وكان علينا
أن نقوم بعمل كثير . ان التمرن على المشاهد بملابس التمثيل قد حدد
موعده ساعة مبكرة من الصباح ، لأن المخرج ، وهو الرسام الشهير ر. . .
صديق صاحب الدار وضيفه ، كان بعد أن أخذ على عاتقه لصداقته بصاحب
الدار أن يؤلف اللوحات الحية وأن يخرجها وأن يمرتنا كذلك عليها ،
كان عليه أن يسرع الى المدينة لشراء بعض الاشياء الضرورية للحفلة .
فلم يكن ثمة وقت يجوز أن يضيع ، وكانت اللوحة التي على أن أمثل
فيها مع السيدة م . . . مشهدا من القرون الوسطى عنوانه « ربة القصر
وخادمها الغلام » .

فلما اجتمعت بالسيدة م . . . شعرت باضطراب عميق . كنت على
يقين أنها فارئة في عيني الخواطر والشكوك والتخمينات التي قامت في
ذهني البارحة . وكنت أخشى عدا ذلك أن أكون قد قارفت خطيئة اذ
فاجأت دموعها وألمها ، فكنت أقول لنفسي : انها ستنتظر الى نظرة شذراء
حتما لأنني اطلعت على سرها من حيث أرادت أن تخفيه . ولكن كل
شيء قد جرى بغير نكد ولله الحمد : كل ما هنالك أنني ظلمت مهنلا لا
يفطن أحد الى . لم تكن السيدة م . . . مهتمة لا بالتمرين ولا بشخصي ،
بل كانت ذاهلة ، وكان يبدو عليها الحزن والتفكير . كان واضحا أن
همما كبيرا يملأ جوانب نفسها ، فلما فرغنا من التمرين أسرعنا أهدل
ملابسي ثم خرجت بعد عشرة دقائق الى الشرفة التي تفضي الى الحديقة .

فإذا أنا ارى السيدة م ... تخرج الى الشرفة من باب آخر . وفى تلك اللحظة نفسها كان يتقدم نحونا زوجها عائدا من الحديقة بعد أن صحب فيها طائفة من السيدات ثم عهد بهن الى « فارس مرافق آخر » . ان التقاء الزوجين لم يكن فى الحسبان فيما يبدو ، فما ان رأت السيدة م ... زوجها حتى ظهر عليها أنها ضيقة الذرع بهذا اللقاء ، وحتى حركت يدها بإشارة تدل على التملل والاسف . أما زوجها الذى كان يسير قبل ذلك صافراً غير حافل بشئ ، ملاعباً لحيته ، فانه قد توجهم وعبس وتفرس فى زوجته بنظرة فاحصة ، ثم سألها وهو ينظر الى الشمسية والكتاب الذى كان بيدها :

— أأنت ذاهبة الى الحديقة ؟

فأجابته وقد احمرت قليلا :

— بل الى الغابة .

— وحدك ؟

— بل معه .

كذلك قالت وهى تومئ الى بصوت متقطع مشن هو الصوت الذى يصطنعه المرء حين ينطق بكذبه الاولى .

— هم ... كنت منذ برهة هناك أصحب جماعة بكاملها . انهم يتجمعون فى الجناح المزهر ليرافقوا السيد ن ... انه مسافر هل تعلمين ؟ ... ان مشكلة مزعجة تحمله على السفر الى أوديسا . وابنة عمك (يقصد الشقراء) تضحك وتبكي فى آن واحد ، فلا يفهم المرء ما بها ، ثم انها قالت لى ، لا أتذكر الآن لأى سبب ، انك قد ثرت عليه ولم تشائى مرافقته ... لترهات طبعاً ؟

ـ هي مزحة •

بذلك أجاوبته السيدة م ••• وهي تهبط درجات الشرفة •

وأضاف السيد م ••• يقول وقد صعرَّ خدَّه ناظرا الىَّ من خلال
نظارة يحملها بيده :

ـ أهذا هو اذن فارسك المخلص الأمين ؟

فصمت أقول منزعجا من نظارته ومن سحريته :

ـ أنا خادمها الغلام •

قلت ذلك وضحكت أمام أنفه ثم هبطت الدرجات الثلاث بقفزة
واحدة •

دمدم السيد يقول وهو يبتعد :

ـ نزهة سعيدة •

ومنذ أن أوامات الىَّ السيدة م ••• وهي تخاطب زوجها ، فقد
اقتربت منها بطبيعة الحال ، كما لو كنت حقا الشخص الذي لا يفارقها ،
ولما لو كنت قد تمودت هذه الزهات اليومية معها • ولكنني لم أستطع
أن أفهم سبب اضطرابها وسبب كذبتها الصغيرة • وقد أصبحت لأستطيع
أن أنظر اليها وجهها لوجه ، ومع ذلك فقد أخذت أرشقها بنظرات سريعة
صغيرة مستطلعة ساذجة • غير أنها لم تكن تحفل لا بنظراتي ولا بتساؤلي
الاخرس ، كما كان شأنها كذلك أثناء التمرين • ان تعبير وجهها
واضطرابها ومشيتها ، ان ذلك كله يدل على عذاب تعانسه في أعماق
نفسها • كانت تسرع في سيرها وتحث الخطى وتلتفت نحو الحديقة
ترصد ممرات الأشجار ومنافذ الغابة الصغيرة قلقة • وكنت أنا أيضا
أثوقم شيئا ما • وفجأة دوَّت وراءنا أصوات وقع حوافر الخيل • انها

جماعة من الفرسان والقارسات يرافقون السيد ن . . . الذى يتركنا فجأة على غير توقع .

وكانت بين السيدات تلك السيدة الشابة الشقراء التى أشار السيد م . . . منذ قليل الى دموعها الهائلة ، ولكنها كانت عندئذ تضحك على عاداتها كصبية صغيرة ، وهى تعدو على سهوة حصانها الجميل الاكمت . رفع السيد ن . . . قبعتيه ، ولكن دون أن يتوقف ودون أن يخاطب السيدة م . . . بكلمة واحدة . وسرعان ما غاب الراكب عن أبصارنا . ونظرت الى السيدة م . . . فكدت أصرخ من فرط الدهشة : لقد كانت متجمدة شاحبة كمنديلها ، وكانت تترقق فى عينيها دموع كبار ، والتقت نظراتنا مصادفةً فأشاحت عنى وقد احمر وجهها وظهر عليها النغم والانزعاج . لقد كان وجودى يضايقها . ذلك واضح وضوح الشمس ولكن كيف عسانى أنسحب ؟ . . .

وفجأة غيرت رأيها ففتحت كتابها وقالت لى دون أن تنظر الى :
— أوه ! لقد أخطأت فحملت المجلد الثانى من الكتاب ، فهل لك أن تجيئنى بالمجلد الاول ؟

قالت ذلك متظاهرة بأنها لم تلاحظ هذا الا فى تلك اللحظة .
كيف لا أفهم أن دورى قد انتهى ؟ لقد كان يستحيل عليها أن تصرفنى بخشونة مباشرة ، فاحتالت على الأمر بالكتاب .
مضيت بالكتاب ثم لم أعد ، وظل المجلد الاول ساكنا على المنضدة فى ذلك الصباح .

ولكننى كنت كروح معذبة ، وكان قلبى ينبض ذعرا ورعبا .
وحاذرت أن أقابل السيدة م . . . ولكننى فى مقابل ذلك أخذت أسير

بنهم شديد وجه زوجها الذى يعبر عن الاكتفاء والثقة كأننى كنت أتوقع
أن اجد فيه الآن شيئاً خاصاً • لست افهم شيئاً من هذا النهم المضحك
الى الاستطلاع • كل ما أتذكره أن مشاعرى فى ذلك الصباح قد أسرت
نفسى واغرقتنى فى دهشة غريبة • والحق أن النهار كان فى أوله ، وقد
جاء حافلاً بالاحداث بعد ذلك فعلاً •

تناولوا طعام الغداء فى ذلك اليوم مبكرين • ذلك أنهم سيقومون
برحلة الى القرية المجاورة فى المساء نشدانا للبهجة فى عيد قروى
سيحتفل به هناك • وكان علينا أن نهيب أنفسنا لهذه الرحلة • والحق
أننى ظلمت أحلم بهذه الرحلة أياما ثلاثة ، وكنت أتوقع منها متعة كثيرة
ومباهج لا تحصى • واجتمعوا بعد الغداء على الشرفة لاحتساء القهوة ،
فحرصت على التسلل فى اثرهم واختبأت وراء الصفوف الثلاثة من
المقاعد يدفعنى الى ذلك ما كان يجيش فى نفسى من حب الاستطلاع ،
ولكننى لم أرد أن أظهر للسيدة م • • • وشاءت الصدفة أن تضغنى بجوار
شقراى الرهية التى كان جمالها فى ذلك المساء يشرق بمزيد من السناء
والضياء • كان جمالا فذا • ان هناك أمورا تقع للنساء لا أدرى لماذا ولا
أدري كيف ! ولكنها تقع فى بعض الاحيان • • • كان بيننا فى تلك
اللحظة قادم جديد يعبد شقراى ويلازمها ، هو شاب شاحب الوجه فارغ
القامة وصل من موسكو كأنما ليحل محل ن • • • الذى كانت الاشاعات
تقول عنه انه مجنون غراما بشقراى • أما هذا السيد فان العلاقة بينه
وبينها كانت كالعلاقة بين بنديكت وبياتريس فى مسرحية شكسبير « ضجة
كبيرة فى غير طائل » * •

الخلاصة أن حسناء كانت فى ذلك اليوم مشرقة المزاج منطلقة
الاسارير فأمازيحها رقيقة وهزلها رشيق مملوء ثقة بريئة وجراءة مقبولة،

وهي شديدة الاطمئنان الى اعجاب الناس بها ، على لطف وذوق وفي غير صلف ، فكان نجاحها نجاحا كبيرا حقا . كان المعجبون بها والمصفون اليها يحيطون بها وقد امتلات نفوسهم نشوة ، وكانت هي في تلك الساعة فتاة آسرة ساحرة اكثر من اى وقت مضى ، فما من كلمة تنطق بها الا وتلقف طائرة ، فتنتقل بين الناس من واحد الى واحد ، وما من دعايه من دعاياتها الا ويستمتع بها كل فرد من افراد الحفل ، وكان أحدا من هؤلاء الناس كان لا يتوقع منها كل هذا الذوق المرفه وكل هذا التألق الساطع وكل هذه البديهة الحاضرة والقريحة الحصبة والفكاهة الحلوة . ان احسن مزايا هذه المرأة كانت في الحياة الجارية تختفى وراء نزوات شاذة وبدوات طائشة فما يفتن الى هذه المزايا أحد أو تظل أمرا مشكوكا فيه مختلفا عليه ، لذلك أثار انتصارها في هذا اليوم دمة تعبر عن دهشة قوية واعجاب شديد . ولقد وقع حادث أسهم في نجاحها ، للدور الذى مثله فيه زوج السيدة م . . . فقد قررت هذه الشيطانة أن تنقض عليه بهجومها لأسباب لا شك أنها كانت تعدها هامة ، فما كان أشد فرحة جمهرة الناس ولا سيما الشباب منهم عند ذلك . أخذت تطره بوابل من ملح لطيفة وسخريات لاذعة مفحمة معا ، تصيب هدفها رأسا ولا تدع للخصم مجالا للهروب منها ، كأنها سهام تجهز على الضحية العاجزة بانارة حنقه الشديد وغيظه الفظ .

يخيل الى - دون أن أستطيع القطع بذلك - أن هذا المشهد لم يُرتجل ارتجالا بل هُيئ سلفا . وكانت هذه المباراة الحامية الوطيس قد بدأت أثناء الغداء . واذا كنت أصف المباراة بأنها كانت حامية الوطيس فلأن السيد م . . . لم يلق سلاحه ولم يستسلم الا بعد زمن . لقد استجمع كل ما يملك من حضور البديهة حتى لا يُغلب وحتى لا يقع فريسة للضحك عليه والهزاء به . وقد جرت المعركة وسط قهقهات

لا تنقطع تطلق من حناجر المستمعين والمشاركين فلم يبق وضع السيد م ... اليوم على ما كان بالأمس • وحاولت السيدة م ... عدة مرات ان تشي صديقتها الطائشة التي كانت تريد في اغلب الظن ولا سيما حين جعلت لى دورا فى هذه المسخرة أن تخلع على الزوج النور جميع ما عرف عن « بارب بلو » من أصباغ زائفة •

لقد حدث هذا فجأة على نحو يثير اشد الضحك : لقد اتفق فى تلك اللحظة أن كنت على مرأى من جميع الناس ، كانما على قصد ، دون أن أفكر فى سوء ، ناسيا جميع ما اتخذت من احتياطات أخيرة ، فها هى ذى تجعلنى على حين بقة فى المحل الاول من معركتها مع الخصم عدوا للسيد م ... أو غريما له مقتونا بامراته موله القلب بها • وها هى ذى الشقراء الرهيبة تحلف أنها تملك البراهين على ذلك ، وأنها فى هذا الصباح نفسه قد رأت فى الغابة ...

لم يتسع الوقت لانهاثا كلامها فسرعان ما قاطعتها فى أخرج لحظة ، وكانت هذه اللحظة مقدرة سلفا ومهيأة لأن تكون هى الخاتمة المضحكة أحسن تهيئة هزليه ، فاذا بانفجار من ضحك لا يغالب يشب تحيةً للكنكة • ورغم أن دورى أنا فى هذه المزحة لم يكن أبشع دور فقد بلغت من الاضطراب والاهتياج والذعر أننى وثبت من خلال صفى المقاعد لاهتا من شعورى بالخبجل والعار وتقدمت الى الامام وصحت أخطب جلادتى الشقراء بصوت تكسّره دموعى ويقطعه استيائى :

— ألا تستحين ؟ ... تقولين كذبة مشينة كهذه الكذبة ، جهارا ، هنا بحضور جميع هاته السيدات ؟ ... أمام جميع الرجال ... معاسهم يقولون ؟ تصرفين تصرف طفلة أنت الشخص الكبير ... أنت المرأة المتزوجة ...

لم أكن قد أنهيت كلامي بعد حين انطلق التصفيق • لقد أحدث
ردى هذا موجة عارمة من الصخب • فان برأتى وسذاجتى ودموعى
وكونى كمن يدافع عن السيدة م ••• قد أطلق ضحكا جهنميا • والحق
أننى ما زلت الى الآن حين أتذكر هذا الحادث تتأبى نوبة من الضحك
مجنون •

وهرعت أخرج متدلى الرأس مصعوق النفس مخبئا وجهى ، حتى
لقد قلبت الطبق الذى كان الخادم داخلا به على القوم فسقط من يديه على
الارض • واسرعت الى غرفتى فاتزعت المفتاح من القفل وجبست نفسى
داخل الغرفة • وسرعان ما اقبلت طائفة من جميلات النساء تحاصر
غرفتى فى تلك اللحظة نفسها • كنت أسمع ضحكاتهن الرنانة وزقزقاتهن
التي تشبه زقزقات طائر السنونو وهن يضرعن الى بصوت واحد أن
أفتح لهن الباب خالفات أنهن لا يردن بى سوءا ، وأنهن لا يرغبن الا
فى اغراقى بالقبل • وهل هنالك تهديد أشد هولاً من هذا التهديد !
لذلك ظللت معتصما بغرفتى دافنا وجهى فى المخدات محترقا من شعورى
بالعار ، لا أجيب ولا أفتح الباب ولا أحس بشيء ولا أسمع شيئا كما
يمكن أن يكون صبي فى الحادية عشرة •

ولكن ما العمل الآن ؟ ان كل ما قد حرصت على اخفائه قد انكشف
وأزيح عنه الحجاب ! لقد غمرت بالعار وتلطنح شرفى الى الابد •••
الحق أننى لم أكن أستطيع أن أحدد على وجه الدقة ما كنت أخشاه وما
كنت أود أن أخفيه • غير أن هنالك شيئا ما ، شيئا لا يعرف ولا يُحدد
كنت أخشاه وأرتعش قلما متى تصورت أن ينكشف • كنت أجهل حتى
ذلك الحين هل يجب اعتبار ذلك الشيء حسنا أو سيئا ••• هل يجب
اعتباره مدعاة فخر أو مدعاة خزي ••• هل يجب اعتباره أمرا محمودا

او امرا مدموما ... وهانذا اكشف منذ برهه على الم وعذاب ، ان هذا
الشيء مضحك ومعيب ، وشعرت فى الوقت نفسه بغريزتى ان حكما
كهذا الحكم خاطىء غير انسانى ، ولكننى كنت محطما منهسارا ، وكان
اضطراب كبير يحتاج فكرى ، وكنت عاجزا عن الاعتراض على هذا
الحكم القاسى ، بل كنت عاجزا عن التفكير اصلا . كل ما هنالك ، اننى
شعرت بقلبي طعينا مقروحا فى قسوة ، فكنت اسكب دموع العجز .
اننى مهتاج النفس اغلى استياء وغضباً لا عهد لى بمثلها من قبل ، ذلك
ان هذا الحادث كان اول حزن كبير اصابنى ... أقول هذا بغير مبالغة
... وكان أول طعنة خطيرة نالتنى فى حياتى . لقد جرحوا اول عاطفة
غامضة بريئة فى الطفل الذى كنته ، وأسأوا الى حياء طاهر جدا ،
واستخفوا ضاحكين بأول شعور عميق بالجمال . وطبعى أن هؤلاء
الهاذئين لم يكونوا يعرفون شيئا عن هذه الآلام المبرحة التى قامت فى
نفسى . ولبت مستلقيا لطريح القلق والكرب الشديد يتأبى حر " وبرد"
متلاحقان . وكان هنالك سؤالان يعيشان القلق فى روحى : ما الذى
رأته ؟ ما الذى أمكن أن تراه هذه الشقراء الخيشة الشريرة فى النابة
مما يتصل بى وبالسيدة م ... ؟ ثم كيف أستطيع بعد اليوم أن
أحتمل نظرة السيدة م ... دون أن أموت خزيا وكمدا ؟ ...

وهذه ضوضاء مفاجئة تقوم فى فناء المنزل فتوقظنى أخيرا من هذه
الحالة التى كنت فيها شبه غائب عن شعورى ، فنهضت واقربت من
النافذة . ان الفناء كله يعمج بالركبات والخيول والخدم المنهمكين فى
العمل . كان واضحا انهم يتهيئون للرحيل . حتى أن بعض الاشخاص
كانوا قد امتلوا صهوات جيادهم ، وكان بعضهم الآخر يركب العربات ،
فتذكرت ، فجأة ، الرحلة التى كانوا قد أزمعوا القيام بها ، فأخذت

ابحث بنظري عن حصاني وقد استبد بي القلق : لم يكن حصاني هناك •
واذن فقد نسوي • لم اطق أن أصبر مزيدا من الصبر ، فاسرعت أخرج
من غرفتي ناسيا عاري واللقاءات الاليمة التي ستقع لي •

وكان ينتظرنني با رهيب • ان ضيوفا جدد كانوا قد وصلوا فشغلوا
جميع الاماكن واخذوا جميع الجياد • وكان عليّ أن أذعن • وقفت على
درجات المدخل متالما من هذه المصيبة الجديدة انظر حزينا كئيبا الى
موكب العربات المتنوعة الكثيرة والى الفرسان الايقين الذين تنواب من
تحتهم الخيول القوية •

وكان أحد الفرسان قد تاخر ، فهم لا ينتظرون الا وصوله حتى
يبدأوا السير • كان حصانه يقضم لجامه ويضرب الارض بحافره ويشب
حدةً وغيطا • وكان هنالك سائسان يمسان أزمة الحصان في حذر ،
وكان جميع الحضور يقفون من الحصان على مسافة •

ان حادثنا مؤسفا هو الذي يمنني من الرحيل مع الآخرين • فقد
مرض حصانان أحدهما حصاني • ولم يسيء هذا الى وحدي • فقد
اتضح أن الرجل الشاب الشاحب كان يعوزه حصان هو أيضا • وقد
عرض عليه صاحب البيت ، تفاديا للمشاكل ، مهرا جموحا غير مروض
وأضاف يقول له ابراء لزمته ان ركوب هذا المهر أمر مستحيل ، وانه
كان عليه أن يبيعه منذ زمان طويل ، بسبب توحش طبعه ، اذا وجد من
يقبل شراؤه • فلما سمع الرجل الشاب هذا الكلام أعلن أنه مستعد
لركوب أي حصان في سبيل أن يستطيع الاشتراك في الرحلة ، وانه
فارس ألف ركوب الخيل • عندئذ لزم رب الدار الصمت • وأعلن الآن
أنني لمحت على شفتيه عندئذ ابتسامةً مليئةً بالمر • وبانتظار هذا
الفارس الواصل من نفسه المطمئن الى حسن ركوبه الخيل كان صاحب

الدار يفرك يديه احديهما بالآخرى نافذ الصبر ، وهو يلقي نظرات فى اتجاه الباب • وكان مشاعره كانت تنتقل الى خدم الاصطبل الذين كانوا يشعرون برهو شديد لانهم سيعرضون على المشاهدين حصانا قادرا على ان يقتل انسانا بغير سبب • فكانت اعينهم المحملقة تنظر هى ايضا نحو الباب الذى سيظهر منه الزائر المتهور ، وتعبّر عن معنى المكر نفسه الذى كانت تعبّر عنه عينا مولاهم • وكان الحصان نفسه كان يشعر بأن ثمة مؤامرة عليه ، فهو يبدو متكبرا متعجرفا وفحا ، وكأنه يدرك أن عشرات العيون المستعللة تراقبه ، فهو (مثله فى ذلك مثل الشرير الذى لا سبيل الى اصلاح خلقه والذى يعتز بما يقارف من أعمال إجرامية) يبدو فخورا بسمعته السيئة ، متأهبا لتحدى الجريء الذى سيحاول الاعتداء على استقلاله •

وظهر الشاب الجريء أخيرا يهبط الدرجات وهو يدس يديه فى قفازيه مسرعا ، خجلا من تأخره ، ولم يرفع الشاب عينيه الا حين أمسك عرف الحصان ، ولكنه فوجئ بوثبة الحصان هائجا حائقا ، وبالناس المذعورين يصيحون به محذرين • فيطيش له ويتراجع الى الوراء ويأخذ ينظر مذهولا الى الحصان الذى كان يرتجف كورقة فى مهب الريح ويصهل سهيل الغضب مجيلا عينيه المحتقتين دما • لقد شب الحصان منتصبا على قائمته كأنه يهيم أن يطير فى الهواء جارا حارسه •

وجم الشاب واحمر وجهه ارتباكا ونظر الى السيدات الخائفات ثم قال كأنه يخاطب نفسه :

— هذا حصان رائع جدا • واضح أن ركوبه لا بد أن يهيم للفارس متعة عظيمة •• ولكن ••• ولكننى لن أركبه •••

كذلك أكد لصاحب الدار وهو يتسم ابتسامة عريضة صريحة
تناسب وجهه اللطيف الذكي ...

فأجابه صاحب الحصان مبتهجا كل الابتهاج مصافحا يد الزائر.
بحرارة يمازجها عرفان قائلا :

— اننى اعدك مع ذلك فارسا ممتازا ... أقسم لك على ذلك ...
لأنك ادركت فوراً طبيعة الحصان الذى اردت ركوبه (اضاف ذلك
برصانة ووقار) • هل تصدق اننى أنا الذى خدمت فى سلاح الفرسان
مدة ثلاثة وعشرين عاما قد اسقطنى هذا الكسلان عن ظهره على الارض
ثلاث مرات ، أى عدد المرات التى حاولت فيها ركوبه ... يا عزيزى
تأنكرىد (اضاف ذلك يخاطب الحصان) ليس بيننا فارس من مستواك
هنا • قد يكون فارسك رجلاً مثل ايليا موروتمس * يبقى ثلاثين سنة فى
قرينه كسيحاً بانتظار أن تفقد جميع أسنانك • هيا أرجعوه الى الاصطبل!
كفى تخويفا للناس ! ما كان ينبغى اخراجه •

بذلك ختم رب الدار كلامه وهو يفرك يديه ويبدو على وجهه
الرضى •

يجب أن نذكر هنا أن تأنكرىد الذى يزدرد طعامه عند صاحب
الدار لم يكن عديم الفائدة له • فلتن فقد هذا الفارس الشيخ بفضله
ما كان يتمتع به من شهرة الفارس ، لأنه دفع مبلغاً ضخماً ثمن هذا المهر
الذى لا يصلح لشيء والذى لعله لم يكن يرضيه فيه الا جماله • • فلقد
كان سعيداً كل السعادة بأن تأنكرىد عرف كيف يحتفظ بشممه وأنه
يرعب فارساً جديداً من حين الى حين ، فيحرز بذلك مزيداً من أكاليل
الغار •

صاحت الشقراء التى كانت تحرص أشد الحرص على صفة
فارسها تقول :

- ألا تجيىء اذن ؟ أخائف أنت حقا ؟

فاجاب الشاب :

- نعم •

- أصحيح ما تقول ؟

- اسمعى ! أأنت تصرين حقا على أن 'تدق' عنقى ؟

- اذن خذ حصانى •• لا تخش شيئا ، انه طبع جواد ••• لن
يأخرنا هذا كثيرا ••• سنبادل السرجين فى طرفة عين ••• ساجرب انا
تاكريد • فليس يمكن أن يكون دائما قليل الكياسة واللباقة الى هذا
الحد •

وما ان قالت الشقراء ذلك حتى فعلت ، فاذا هى تقفز عن حصانها •

- أنت لا تعرفين تاكريد اذا ظننت أنه سيأذن لك بركوبه ، ثم
اننى لا أسمع لك بأن تتعرضى لدق عنقك ! انها لخسارة ان تدق
عنقك •

كذلك قال صاحب الدار باللهجة الخشنة القاطعة التى ألف
اصطناعها فلانا أنه يبرهن بذلك على الطيبة التى يتصف بها محارب شهم
يجب ارضاء النساء •

ذلك هوى من أهوائه الغريبة ، وتلك فكرة من فكره الأثيرة
معهودة فيه •

قالت الشقراء وقد لمحتنى :

- هيه ! أنت أيها البكاء ! ما دمت ترفب هذه الرغبة كلها فى
المجىء معنا فهلا حاولت أن تركب هذا الحصان ؟

قالت ذلك وهى تومىء الى تانكريد لتيفلنى وربما لتحقيق آخر نصر
على .

ثم أضافت تقول وهى تلفى نظرة مختلصة على السيدة م التى
كانت عربتها قريبة كل القرب :

- فأنت طبعا لست مثل أنت بطل شهير أنت تستحق أن
يستبد بك الهلع .

وحين اقتربت الشقراء الجميلة منا تنوى ركوب تانكريد كان الكرم
والحق قد اغرق قلبى ولكننى لا أستطيع ان اصف ما شعرت به
حين ألفت بوجهى ذلك التحدى . ان نظرتها الى السيدة م قد اطاشت
صوابى فاذا بفكرة مفاجئة تنبجس فى رأسى لقد تم هذا كله فى
لحظة واحدة ، لحظة قصيرة ، كانفجار بارود ، كقطرة طفيح بها الكيل .
ثارت روحى ثورة قوية ، وتعميت أن أغلب جميع خصومى دفعة واحدة ،
أن أثار لنفسى منهم جميعا على مرأى من الناس ، لأعلمهم كيف يقدروننى
حق قدرى . ترى هل حدثت معجزة فى تلك اللحظة فعلمتنى تاريخ
القرون الوسطى الذى لم أكن أعرف عنه شيئا حتى ذلك الحين ، فاذا
بفكرى المفلوب رأسا على عقب يعج فجأة بنهاويل الفرسان والمغامرين
والابطال والحسنات وقرقات السيوف وصيحات الاعجاب وتصفيق
الجماهير ، والصرخة الوجلى وسط هذه الضجة كلها تصدر من قلب
خائف أحب الى النفس المتكبرة من ظفر مجيد الحق أننى أجهل

هل مرت هذه الصور كلها بخيالى حقا ام ان الامر لا يعدو ان يكون
توجسا لما يوشك ان يقع من حماقات لا مفر منها ... المهم ان قلبى قد
وثب من مكانه فاذا انا اقفز من على الدرجات ، وأجدنى أمام تانكريد
وجها لوجه ، وأصبح مخاطبا الشقراء بلهجة متكبرة وقحة ، وقد أعمتني
الحمى وخنقني الانفعال واحترق خدائى وفاضت دموعى :

ـ أتحسبن أنك تخيفينى ؟ اذن سترين •

ـ أمسكت عرف الحصان قبل أن يتسع وقت أحد للقيام بأية حركة
من أجل صدئ عن ذلك ، ووضعت قدمي فى الركاب ، فاذا بالحصان
يرفع رأسه فى هذه اللحظة نفسها ويشب منتصبا على قائمته ثم يشبوبة
جبارة منتزعا نفسه من بين يدي الخادمين المبهوتين المتجمدين ، وينطلق
طائرا كالاعصار • ولم يستطع الضيوف الا أن يطلقوا صرخة •

الله يعلم كيف أمكننى أن أضع القدم الاخرى فى الركاب الثانى
بينما كان الحصان طائرا ذلك الطيران • والله يعلم أيضا كيف لم أرخ
اللجام • انطلق تانكريد بى من باب السور وانعطف يمنا واندفع لايحفل
بالطريق الذى يعدو فيه وسمعت ورائى فى تلك اللحظة صياح خمسين
صوتا ، فبعث هذا الصياح فى قلبى الخائف القلق من الرضى والزهو
والعجب ما يجعلنى لا أنسى تلك اللحظة من حياة طفولتى • لقد ازدحم
سيل من الدم فى رأسى فأعمانى وخنق خوفى • كنت خارجا عن طورى •
وأحسب أن ذلك كله كان فيه شئ من الفروسية حقا •

على أن هذا كله لم يستغرق الا لحظة قصيرة • ولولا ذلك لما أمكن
انقاذ الفارس • لقد سبق أن تعلمت ركوب الخيل • ولكن الحصان
الذى كنت أركبه يوم تعلمت ركوب الخيل كان أقرب الى الحمل منه

الى الحصان • ولو قد اتسع وقت تانكريد لقلبي عن السرج لسقطت
حتما • ولكن ما حدث هو ان صخرة كبيرة على حافة الطريق اربعت
الحصان فجأة • فاستدار على حين بغتة استدارة تبلغ من القوة اننى لا
افهم كيف لم اسقط على الارض مهشم العظام • واسرع تانكريد نحو
باب السور وهو يهز راسه هذا حائقا ويتواذب توابيا جامعا ، كان نمرا
كان ينشب براته وانيابه فى ظهره ، فلو قد دام الامر لحظة واحدة
لرماني على الارض • ولكن الفرسان كانوا قد هبوا الى نجدتي ، فبعضهم
مد طريق الحقل وجاء اخرا فاقتربا مني اقترابا بلغ من الالتصاق
أنهما أوشكا أن يسحقا قدميَّ وهما يضغطان الحصان بين جنبتي حصانيهما ،
واستطاعا أن يستوليا على الزمام •

أُنزلت عن السرج أصفرَ اللون مشعثَ الوجه مرتجفا كقشة ،
تماما مثل تانكريد الذي تجمد وهبط بكل جسمه الى الورا حتى لكان
حافريه قد غاصا فى الارض • وكان زفير من نار يخرج من منخريه •
انه مضطرب أشد الاضطراب ، لا ينفك عن الارتجاف والارتعاش ،
كأنما صعقته هذه الاهانة وهذه المسبة اللتين ألحقهما به صبي ، ولم
يستطع أن يعاقبه عليهما • ومن حولنا كانت تترجع صيحات دهشة وفلق
وتعجب •

وفى هذه اللحظة بينما كنت أجيل بصرى فيمن حولي التقت نظرتي
بنظرة السيدة م ••• القلقة الشاحبة • فخفضت عيني وقد احمر وجهي
احمرارا شديدا كأنما اجتأحتني لهيب قوى فخرجت واضطربت من
عاطفتي نفسها • ولكن الناس كانوا قد لاحظوا هذه النظرة • كانوا قد
أدركوها • كانوا قد تلقفوها • كانوا قد سرقوها • فالتفتت جميع الاعين
نحو السيدة م ••• التى أُخِذَت على حين غرة قاهر وجهها هى الأخرى

وهزتها انفعال قوى يرى على غير ارادة منها ، فكانت تحاول أن تخفى
احمرار وجهها ببسمة فى شفتيها .

وطبعى ان من يرى هذا المنظر لله من الخارج لا بد ان يضحك
•• غير ان نزوة ساذجة غير متوقعة قد انقضت من ضحك الناس كافة ،
اذ أسبغت على هذه المغامرة كلها لونا خاصا فان تلك المرأة التى كانت
أصل هذه البليبة كلها اعنى خصمى اللدود ، حسنائى الطاغية ، قد
أسرعت الى تعاقبى وتقبلى • انها لم تصدق عينيها حين تجرأت فقبلت
تحديها ورددت على استفزازها لحظة ألقت نظرة على صديقتها • وحين
طار بى تانكريد كانت أشبه بالميتة خوفا وندامة • وقد انتهى الآن كل
شئ ، وأدركت هى أيضا نظرتى المكدقة الى السيدة م ••• ولاحظت
اضطرابى ، ووجد رأسها الرومانسى علة خفية لموقفى فهزتها حركتى
الفروسية • انها الآن فخورة بى تشدنى الى صدرها منفعة فرحة •
وها هى ذى ترفع نحو الذين يحيطون بها وجهها صغيرا ساذجا متوحشا
ترتفع فيه دمتان صغيرتان كالبلور ، وتقول بصوت رصين لا عهد لأحد
به فيها من قبل وهى تشير الى غير متنبهة الى اعجاب الذين كانوا يتأملونها
مفتونين مسحورين :

— لا تضحكوا أيها السادة ! فالامر جد ليس فيه ما يضحك •

هذه الاندفاع السريعة وهذه الهيئة الجادة البريئة وهذه الدموع
فى العينين الضاحكتين عادة ، هذا كله بلغ من قوة التأثير أن الناس
أصبحوا من نظرتها وأقوالها الحارة وحركتها الجميلة كمن مستهم
كهرباء ، فهم الآن يحتضنونها بأبصارهم احتضانا حريصين على أن لا يفوتهم
شئ من تفاصيل هذا المشهد الملهم • حتى صاحب الدار اعترف فيما بعد

وهو يحمر احمرارا شديدا أنه كاد يقع فى غرام هذه الحسناء حينذاك •
وطييعى أنتى رقيت بعد ذلك الحادث الى رتبة فارس وبطل •

- دلورج ! توجنبرج ! *

كذلك ارتفع صياح الاعجاب من حولى • وكانوا يصفقون •
وأضاف رب الدار يقول :

- أرايتم الى هذا الجيل الجديد ! ...

وصاحت الشقراء :

- سيجىء معنا ! لا بد أن يجيىء معنا ! يجب أن نجد له مكانا • •
سيجلس الى جانبى •

ولكنها لم تلبث أن تداركت تقول ضاحكة وقد تذكرت اصطدام
الاول :

- لا • • لا • • هذه غلطة • •

ولكنها كانت وهى تضحك تلاعب يدي فى رقة وحنان من قبيل
الملاطفة •

وصاح الآخرون يقولون :

- طبعا • • طبعا • • يجب أن يجيىء معنا • • لقد استحق مكانه •

وسرعان ما 'دبر' كل شىء • فان العانس التى عرفتنى بالشقراء
الجميلة وافقت على تلبية طلب الجميع ولا سيما الشبان أن تبقى فى البيت
لتخلى لى مكانها ، وافقت على ذلك آسفة متحسرة ، وهى تبسم اخفاء
لما قام فى نفسها من غيظ مكظوم • وقالت لها صديقتى الجديدة ، أعنى
عدوتى القديمة ، قالت لها صائحة وهى تعدو على صهوة جوادها الشرس

وتضحك كطفل : انها تحسدها ، انها تقبّلها على بقائها فى المنزل ، وانها كان يسرها أن تبقى فى المنزل لأن المطر سينهمر حتما فيلننا جميعا .

وقد تحففت بنوءتها ، حتى لقد أخذ المطر يهطل مدرارا فاختفت نزهتنا واضطررنا ان تلبث بضع ساعات فى أكواخ الفلاحين ، ثم عدنا الى المنزل فى مساء رطب . وكان بى شىء من الحمى . وقد ادھش السيدة م . . . أثناء عودتنا أن رأيتى لا أرتدى الا صدره بسيطه وان رات عنقى عارية . ولكن وقتى لم يتسع حين الرحيل للاتين بمعطنى . وهاهى ذى ترفع يافة قميصى الى فوق . وتربط طرفيها بدبوس ثم تنضو وشاحها الحريري الارجوانى الصغير فتلف به عنقى لتحمينى من الزكام ، فعلت ذلك بسرعة عظيمة حتى أن وقتى لم يتسع لأن أشكر لها صنعها .

فلما وصلنا الى البيت والتقيت بها فى الصالون الصغير بصحبة صديقتها الشقراء والشاب الشاحب الذى أصبح معروفا بأنه فارس بارع ما دام قد رفض ركوب تانكريد ، مضيت أشكرها وأرد إليها وشاحها ، وكنت بعد كل هذه الاحداث التى وقعت أشعر بضيق ، وأتمنى أن أصعد الى غرفتى ، لأتأمل على مهل ، ولأرى المشاعر التى كانت تزدهم فى نفسى بشىء من الوضوح . وقد احمر وجهى على عادتى حين مددت إليها الوشاح .

قال الشاب وهو يضحك :

— أحلف أنه كان يتمنى أن يحتفظ بالوشاح . ان المرء ليقراً فى عينيه انه آسف لفراقه .

— تماما .

كذلك أضافت الشقراء ، وقد ظهرت فى وجهها حسرة واضحة .

وأخذت تهز رأسها • ولكنها لم تلبث أن سكنت حين نظرت إليها السيدة
م ••• نظرة رصينة ، لأنها لم تحب استمرار صاحبها في الهزل •

وابتعدت مسرعا • وأدركتني المرأة الشابة الشقراء في الغرفة
المجاورة فتناولت يدي بمودة ومحبة فقالت لي :

- كان في وسعك أن تحتفظ بالوشاح إذا شئت ! كان يكفي أن
تقول انك أضعته فينتهي الامر ! انك لم تحسن التصرف يا سخيف •
ولطمتني باصبعها على ذقني لطمة خفيفة • وضحكت بينما احمر
وجهي احمرارا شديدا • قالت :

- ألسنت صديقتك الآن ؟ لقد انتهى الصراع بيننا •• اتفقنا ؟

فضحكت وضغط أصابعها الصغيرة دون أن أجيب •

- ما بك ؟ لماذا أنت شاحب ؟ انك ترتعد ••• فهل بك حمى ؟

- نعم ••• انني أحس بأنني مريض قليلا •••

- مسكين أيها الصغير • هذه ثمرة المشاعر العنيفة • هيا ارقد في
فراشك دون أن تنتظر العشاء ، وغدا يصلح كل شيء • تعال !

قالت ذلك وقادتني الى غرفتي وأحاطتني بما لا حصر له من أنواع
الرعاية والعناية • ثم تركتني لأخلع ثيابي ، وهرعت تجيشني بقليل من
الشاي ، فلما رقدت حملت الى غطاء دافئا • تأثرت كثيرا • ودهشت
كثيرا من رعايتها هذه • لعل هذا كان من نتائج ذلك النهار • ولكنني
حين افترقنا عانقتها عناقا شديدا كما يعانق المرء أحب أصدقائه اليه
وأقربهم مودة عنده • وقد كدت أبكي وأنا أشد نفسي اليها من فرط
ازدحام المشاعر الاخيرة في قلبي المضنى ، فلما لاحظت صديقتي الجديدة

انفعالى ، انفعلت هى أيضا ، وهمست تقول وهى تنظر الى نظرة رقيقة
عذبة :

- أنت صبي طيب جدا • لا تغضب منى بعد الآن ، أرجوك ...
اتفقنا ؟

والخلاصة أننا أصبحنا منذ ذلك الحين صديقين وفيين يحمل كل
واحد منا لصاحبه أرق العاطفة •

استيقظت فى ساعة مبكرة • ولكن الغرفة كانت منذ تلك الساعة
المبكرة غارقة فى شمس ساطعة • وقد نلت نصيبي من الراحة ،
واسترددت قوتي وبأسى ، كأن حمى الامس لم تكن ، وشعرت بفرح
لا يوصف ، ووثبت من السرير • وحين تذكرت حوادث الليلة البارحة
ترامى لى اتنى مستعد لأن أحب كل شئ فى العالم فى سبيل أن أعانق
أو أن أقبل فى هذه اللحظة صديقتى الجديدة ، شقراءنا الحسنة ، كما
فعلت بالامس • ولكن جميع من بالمنزل كانوا ما يزالون نياما • فارتديت
ملابسى بسرعة ، ونزلت الى الحديقة ، ومضيت من هناك الى الغابة
الصغيرة متسللا عبر المواضع التى كانت فيها الخضرة أكثف ما تكون ،
وكان فيها عبق الاشجار أحفل بشذى الصنوبر ، وكانت فيها أشعة
الشمس تتلاعب مرحة فرحة سعيدة باختراق ظلال الاوراق هنا وهناك •
لقد كان صباحا جميلا •

تسللت هكذا خلال الاشجار شيئا بعد شئ ، حتى وصلت أخيرا
الى الطرف الآخر من الغابة • ان نهر موسكوبا يجرى على مسافة ما
يقرب من مائة متر عند أسفل الجبل • ورأيت الحصادين يقطعون الهشيم
على الضفة المقابلة فتلبثت أنظر الى صفوف المناجل الحادة التى تساللا
ساطعة عند كل حركة من حركات الحصادين ، ثم تخفى كأنها حيات

من نار تتوارى بين الأعشاب • وكان الهشيم الذى يجد عند جنوره
يتطاير اكدا صغيرة كثيفة تصطف بعد ذلك اخايد طويلة • لا درى
كم قضيت من الوقت فى تأمل هذا المشهد حين ثبت الى رشدى على حين
فجأة اذ ابصرت فى الغابة الصغيرة الواقعة على مسافة عشرين خطوة عند
الفسحة الممتدة بين الطريق الكبير والقصر حصانا يضرب الارض بحوافره
واقفا فى مكانه نافذ الصبر • ترى هل سمعت وصول الفارس أم أن
الضجة دغدغت أذنى زمنا طويلا دون ان تستطيع انتزاعى من استرسالى
فى الاحلام ! لا أدرى ! ولكننى أعرف أنتى شعرت عندئذ بحيرة
واضطراب ، فدخلت الغابة الصغيرة فسمعت أصواتا صغيرة خافتة • حتى
اذا أرحت فى رفق أغصان أواخر الشجيرات التى تحف بالفسحة رأيتى
أب متراجعا الى الوراء مصعوبا من الدهشة • لقد رايت ثوبا ابيض
أعرفه ، وسمعت صوتا غديا ترجع فى قلبى كألحان الموسيقى • انها
السيدة م • • • كانت واقفة قرب فارس يكلمها بسرعة من على صهوة
جواده • وما كان أشد دهشتى حين عرفت فى الفارس السيد ن • • •
الذى تركناه فى صباح أمس على حين غرة ، والذى تحدث عنه السيد
م • • • لقد قالوا انه سافر الى مكان بعيد جدا ، فلا غرابة اذا دهشت
أشد الدهشة حين رأيته بيننا فى مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح
منفردا بالسيدة م • • •

كانت شديدة الانتعاش قوية الانفعال كما لم أرها على هذه الحال
من قبل ، وكانت تلمع على خديها دموع وكان الشاب ممسكا يدها يقبلها
مائلا عليها • لقد وصلت فى لحظة الوداع • كان يبدو عليها التعجل •
وأخيرا مدَّ الرجل الى المرأة الشابة ظرفا مختوما سئله من جيبه ثم
حضرها بذراعه وقبلها قبلة طويلة دون أن ينزل على الارض • وبعد

لحفله ، لكن حصانه لكزة مفاجئة فطار الحصان كالسهم • ظلت السيدة م • • • تشيعة بنظرها الى أن غاب ، ثم اتجهت نحو المنزل مطرقة شاردة اللب حزينة ، وثابت الى رشدها بعد بضع خطوات فأسرعت تزيح شجيرات الأدغال وسارت فى طريق الغابة •

تبعثها مضطربا أشد الاضطراب مصعوقا مما رايت • كان قلبى يخفق خفقانا قويا ، وكنت مشدوها مذهولا ، وكنت على وجه الخصوص حزينا حزنا رهيبا ، ما زلت أتذكر ذلك • ان نوبها الابيض يظهر لى من حين الى حين خلال الخضرة • وكنت أمشى مسلوب الارادة دون ان أحوّل عنها بصرى رغم خوفى أن تكتشف وجودى • ووصلت أخيرا الى المر الذى يفضى الى الحديقة • وبعد لحظة سرت أنا فى هذا الطريق أيضا ، فما كان أشد دهشتى حين لمحت على الرمل الاحمر الظرف المختوم فعرفته فورا •

التقطت الظرف • انه لا يحمل أية كتابة • وهو ثقيل الوزن يبدو أنه يضم عدة أوراق من أوراق الرسائل •

ماذا يعنى هذا الظرف ؟ لا شك أنه يضم تحليل السر • • • لعله يقص ما كان السيد ن • • • لا يستطيع أن يأمل الافصح عنه أثناء لقائهما القصير • ان السيد ن • • • لم ينزل عن صهوة حصانه ، فهل تراه كان مستعجلا ، أم 'تراه كان يخشى أن 'يفتنضح أمره فى ساعة الوداع ؟ • • • الله وحده يعلم ذلك • • •

وقفت ورميت الرسالة على الارض ظاهرة للابصار عسى أن تلاحظ السيدة م • • • فقدانها فتعود أدراجها باحثة عنها فتجدها • ولكننى بعد أن انتظرت بضع دقائق دون طائل عدت فتناولت الرسالة

فوضعتها فى جيبي واستأنفت متابعة المرأة الشابة • وادركتها فى الحديقة عند الطريق الذى يحف به صفان من الاشجار • كانت تمشى بخطى سريعة شاردة اللب خافضة العينين • وكنت لا أعرف ماذا يجب على أن أفعل • آقترب منها وأمدّ اليها الرسالة ؟ • لو فعلت ذلك لكان برهاناً على أنني أعلم كل شيء ، ولفضحت نفسى منذ أول كلمة • وكيف يمكن أن أنظر اليها عندئذ وكيف يمكن أن تنظر الى ؟ لبثت انتظر عسى أن تثوب الى وعيها فتأخذ تبحث عن الرسالة الضائعة فتعود أدراجها • • • ان فى وسعى اذا حدث ذلك أن أسقط الرسالة فى الطريق دون أن تلاحظ هى ذلك • ولكن لا ، فها نحن نقرب من المنزل الى حيث نرى مقبلة • • •

وكان سكان الدار قد استيقظوا مبكرين فى ذلك اليوم كأنما على قصد ، لأنهم بعد اخفاق رحلة الامس ينوون القيام بنزهة جديدة ، وذلك ماكنت أجهله • ان الجميع يتهاون للرحيل ويتناولون طعام الافطار على الشرفة • فمن أجل أن لا يرانى أحد مع السيدة م • • • تأخرت عشر دقائق ، وقمت بجولة فى الحديقة فوصلت المنزل بعدها بمدة طويلة ، فرأيتها قلقة شاحبة الوجه تذهب وتجيء على الشرفة مصالبة ذراعيها على صدرها ، محاولة جهدها أن تتغلب على خوفها الذى كان يلوح مع ذلك فى عينيها ومشيتها وجميع حركاتها • نزلت الدرجات عدة مرات متقدمة فى اتجاه الحديقة عدة خطوات باحة بنظرة طائشة عن شيء على رمل الممرات وعلى الشرفة • لم يخامرني أى شك : لقد لاحظت ضياع الرسالة فلظنت أنها سقطت منها فى مكان قرب المنزل • نعم ! لا ريب أن الامر كذلك ، لا ريب أنها واثقة من ذلك ! وقد لاحظوا شحوبها وقلقها فكانوا يسألونها عن صحتها ، وكانت مضطرة أن تمازح ، وأن تضحك ، وأن تتظاهر بالمرح ، ثم هى تلقى من حين الى حين نظرة على

زوجها الذى كان يتحدث عند آخر الشرفة مع سيدتين ، فنتابها رعدة
ويجتأحها اضطراب ، تماما كما حدث لها مساء وصوله . وقفت بعيدا عن
الآخرين ، واضعا يدي في جيبي ممسكا بالظرف ضارعا الى القدر ان
يلفت انتباه السيدة م . . . الى . . . عسى أن اشجعها ، أن أهدي .
روعا ، ان اومى اليها بنظرة مختلسة . . . ولكن حين نظرت الى
مصادفة ارتعشت وخففت بصرى .

لم يخطئ ظنى في أنها معذبة . وما زلت أجهل سرّها الا ما رأيته
بنفسى وفصحته على القارى . لعل روايتها تختلف عما قد يفترضه
المرء لأول وهلة . لعل تلك القبلة كانت قبلة وداع . لعلها كانت المكافاة
الاخيرة الضعيفة على تضحية ارتضاها المضحى في سبيل طمأنينتها وفي
سبيل شرفها . لقد سافرن . . . وتركها ربما الى الابد ! وهذه الرسالة
التي امسكها يدي : من ذا الذى يعلم ماذا تتضمن ؟ كيف يمكن الحكم
في الامر ؟ ومن يحق له ان يدين ؟ لا شك مع ذلك ان انكشاف السر
على حين فجأة يمكن أن يكون كارثة تنزل بها وصاعقة تصيب حياتها .
ما زلت ارى وجهها في تلك اللحظة : يستحيل أن يتألم المرء ألما اقسى
من هذا الالم ! أى عذاب يمكن أن يساوى عذابها وهي تتوقع ما تنوقع ؟
أى عذاب يساوى عذابها وهي تحس وتعلم علم اليقين وتنتظر انتظار
المرء تنفيذ حكم الاعدام فيه أن تلك الرسالة ستلقط وستفص ما دام
الظرف خلوا من أية كتابة ؟ انها الآن تتصور نفسها بين القضاة الذين
سيحكمون عليها . بعد قليل ستصبح وجوههم الضاحكة اللطيفة مهددة
متوعدة لا ترحم ! ان فى وسعها أن تقرأ على هذه الوجوه السخرية
القاسية والاحتقار البارد ، ثم تقضى ليلة لا آخر لها ولا رجاء فيها . . .

صحيح أننى كنت فى ذلك الأوان لا أفهم هذه الأشياء كما أفهمها

اليوم • ولم أكن أستطيع الا أن أخمن وأن أوجس وأن أفلق • ولكن
أيا كان سرُّ هذه المرأة فإن اللحظات الاليمة التي شهدتها والتي لن
أساها ما حيت ، تكفّر عن أشياء كثيرة ، اذا كان ثمة ذنب يجب التكفير
عنه حقا •

وها هي ذى اشارة الرحيل تدوى فرحة • الضيوف يذهبون
ويجيئون ويتحركون مثرثرين ضاحكين • وبعد قليل ستفرغ الشرفة •
وأعلنت السيدة م ••• أنها مريضة ، ورفضت الذهاب مع الذاهيين •
الحمد لله على أنهم كانوا جميعا مستعجلين الرحيل ، فلم يتسع وقت أحد
منهم لمضايقتها بالقاء الاسئلة واسداء النصائح • قال لها زوجها بضع كلمات
فأجابته مؤكدة أنه لا داعى الى القلق وان صحتها لن تلبث أن تتحسن
وأنها ستزل الى الحديقة ••• معى •

ونظرت الى • هذه فرصة • احمر وجهى فرحا • وسرنا معا •

أخذت تسير فى نفس الطرق ونفس الممرات التى سارت فيها عند
عودتها الى المنزل فى الصباح ، وكانت تحاول أن تتذكر خط المسير الذى
اتبعته ، وكانت تنظر الى أمام محدقة لا تحوّل بصرها عن الارض ، ولا
تخاطبنى بكلمة ، حتى لكانها نسيت وجودى •

فلما بلغنا الموضع الذى التقطت فيه الطرف والذى ينتهى عنده
الطريق ، توقفت وقالت لى بصوت واهن شاحب انها تشعر باعباء وانها
ستقفل راجعة الى المنزل ، ولكنها ما ان وصلت الى باب السور حتى
توقفت جامدة تتأمل ، وطافت على شفتيها ابتسامة حزينة ، ثم عادت
أدراجها مهدودة القوى عازمة مدعنة ، ناسية أن تنبئنى بما عقدت النية
عليه ، فلم أعرف ماذا أعمل ، وقد مزق القلق قلبى تمزيقا •

ومضينا بل قل اننى قدتها الى المكان الذى سمعت فيه وقع حوافر
الحصان ، وما دار بينهما من حديث • وكان يوجد على مقربة من شجرة
ضخمه من اشجار الدردار مقعد مقدود فى صخرة كبيرة يلتف عليها
اللباب وينبت حولها ياسمين الحقل وزهر النسرين (كانت هذه
الغابة تنثر فيها الجسور الصغيرة والمرائش والمغاور وما الى ذلك من
مفاجات) جلست السيدة م • • • والقت نظرة ذاهلة على المنظر الرائع
الذى يمتد امامنا • فتحت كتابها ، وظلت جامدة لا تقلب الصفحات ولا
تقرا حتى لتسبه ان تكون فاقدة وعيها • بلغت الساعة التاسعة والنصف ،
وفوق راسنا فى سماء عميقة زرقاء كانت تسطع شمس رائحة كانها
منصهرة فى لهيبها نفسه • والحصادون قد ابتعدوا فلا تكاد تراهم
الابصار ، وأخاديد لا نهاية لها من الهشيم المقطوع تتبعهم ، وأبخرة عطرة
تصل إلنا يحملها نسيم خفيف ، ومن حولنا ترجع تلك الموسيقى التى
لا تنقطع ، موسيقى أولئك الذين « لا يزرعون ولا يحصدون » وانما هم
طلقاء كالهواء الذى تشقه أجنحتهم الفرحة • ان كل زهرة وكل عشبة
كانت يعطائها أشداها جميعا كأنها تعلن غببتها وهناءتها لرب السماء •
ونظرت الى المرأة المسكينة التى كانت وحدها كالميتة وسط هذه الحياة
الطافحة الفياضة • ان دمتين كبيرتين نابعتين من قلب حزين تتلألآن على
أهدابها • وكان فى وسعى أن أنعش وأن أسعد هذا القلب المسكين القلق
الخائف ، ولكننى لا أدرى كيف أقوم بالخطوة الاولى • كنت أتألم
وأحرق رغبة فى مخاطبتها ومواجهتها فكان خدائى يشتعلان كلما هممت
بذلك •

وفجأة أشرقت فى ذهنى فكرة • لقد وجدت حيلةً فاتتشت

نفسى •

قلت لها فجأة بلهجة تبلغ من الفرح أن السيدة م . . . رفعت رأسها
تجوى وحدقت فى :

— سأقطف لك باقة من أزهار . . . هل تريدین ؟

— اذا شئت !

كذلك أجابت بصوت واهن مع ابتسامة ضعيفة ثم أكبت على كتابها
من جديد •

صحت وأنا أنطلق فى البرية فرحا :

— ذلك أنه سيقطعون العشب هنا فلن تبقى بعد ذلك أزهار !

وشرعت اعمل فرحا فما هى الا برهة حتى كانت الباقه المتواضعه
مهيئة • لو فعلت ذلك فى المنزل لكان فعلى فى غير محله ! ولكن ما اشد
فرحى حين كنت أقطف الازهار ! كنت أنتزع زهر التسرين والياسمين
البرى وأنا فى مكائى • وغير بعيد منى كان ثمة حقل قمح ناضج •
كنت أعرف ذلك ، فهرعت أقطف منه أزهارا أخرى أضمت اليها سنابل
طويلة ثقيلة مذهبة • وعلى مقربة من حقل القمح عثرت على نوع آخر
من الازهار ، فكانت بافتى تضخم • ووقعت بعد ذلك على زهرات زرق
كانها الجريسات شكلا ، وعلى قرنفلات من قرنفل الحقول ، وجنيت كذلك
عددا من أزهار صفراء على حافة النهر ، وحين قفلت راجعا آخر الامر
فدخلت الغابة الصغيرة تناولت منها أوراقا عريضة ساطعة الخضرة ألف
بها الأزهار • وهنالك عثرت مصادفة على كشة كبيرة من أزهار البنفسج
الصغير ، وعلى مقربة من ذلك واتانى الحظ فاهتديت الى بنفسجات مدفونة
فى العشب فضحها شذاها الفواح ، وكانت ما تزال مغطاة بالندى • ربطت
الباقه بعشب مفتول وأخفيت فى داخلها الرسالة وغطيتها بالأزهار حتى
لا ترى •

وأحسست فى طريق عودتى الى السيدة م . . . أن الرسالة ما تزال ظاهرة فدفتها الى داخل الباقة حتى أصبح لا يرى فى البساقة شئ .
ومضيت الى السيدة م . . . فقدمت اليها الباقة . كان وجهى ملتجها كالنار ، ووددت لو أدفنه فى يدى وأهرب ، لكنها وقد نسيت أننى مضيت لآتيها بأزهار ، مدت يدها بشير شعور دون أن تنظر الى الأزهار ، ووضعتها على المقعد خافضة عينيها وكأنها فى غيبوبة .

كاد هذا الاخفاق أن يبكيني . « آمل على الأقل أن لا تنسى الأزهار ! » كذلك قلت لنفسى وأنا أتمدد على العشب مسندا رأسى الى ذراعى اليمنى متظاهرا بالوسن . ولكننى كنت أنظر اليها خلسة وأنتظر .
انقضت عشرة دقائق ، فكنت أرى السيدة م . . . تزدد شحوبا لحظة بعد لحظة ، وفجأة وقع حادث مبارك أسعفنى :

انها نحلة ذهبية كبيرة قادتها الينا الريح من حسن حظى ، فبعد أن دندنت فوق رأسى طارت نحو السيدة م . . . فهشت السيدة م . . . عليها بيدها . ولكن النحلة ظلت تتحرش بها ، فما كان من السيدة م . . . فى آخر الامر الا أن تناولت باقتى وهزتها أمامها ، فاذا بالرسالة تنزلق فى هذه اللحظة من بين الأزهار ، فتسقط على الكتاب المفتوح .

انتفضت خائفا . ولبثت السيدة م . . . صمًا من الدهشة برهة من الزمن ، تنظر تارة الى الرسالة وتارة الى الأزهار التى فى يدها ، وهى لا تصدق عينيها . وفجأة احمر وجهها ونظرت الى . . . لكننى حين لمحت نظرتها أغمضت عيني كما لو كنت نائما . ما كان فى وسعى أن أنظر اليها وجها لوجه فى تلك اللحظة بحال من الاحوال ! كان قلبى

يخفق خفقان قطاة بين يدي صبي من صبيان القرية أشعث الشعر
لا أدري كم لبثت على هذه الحال قبل أن أجرو على فتح عيني *

فلما فتحتهما أخيرا رأيت السيدة م *** تقرأ الرسالة محترقة
الخددين ملتمة العينين هادئة الوجه ، ترتش كل قسمة من قسماها
فرحا • فقدرت أن الرسالة تحمل الى قلبها السعادة • لقد تبدد ألمها
كالدخان ، واعتراني أنا احساس مؤلم عذب قبض صدرى • كان يشق
على نفسى أن أخفى عواطفى •

لن أنسى فى حياتى تلك اللحظة • ودوت أصوات تنادى من قريب
على حين فجأة :

— السيدة م *** ناتاليا • • ناتاليا ***

فأسرعت السيدة م *** تنهض دون أن تجيب واقتربت منى ومالت
على • أحسست نظرتها وارتعشت أهدابى ، ولكننى سيطرت على نفسى
فلم أفتح عيني ، وحاولت أن أتففس بمزيد من الهدوء ، بينما كان قلبى
يخفق خفقانا شديدا • ولا مست خدى زفرة " محرقة • لقد مالت على
السيدة م *** مزيدا من الميل كأنما لتمتحننى ، وتساقطت على احدى
يدى " ، على يدى التى كانت ممدودة فوق صدرى ، تساقطت قبلات
ودموع " •

— ناتاليا *** ناتاليا *** أين أنت ؟

كذلك ارتفع الصياح قربنا •

— ها *** لا

كذلك قالت السيدة م *** بصوتها الفضى المحجب الذى كان يرتش
بسبب دموعها والذى كان يبلغ من الخفوت أن أحدا غيرى لم يسمعه •

وفضحتى قلبى أخيرا فأغرق الدم وجهى • وفى تلك اللحظة نفسها
أحرقت شفتىّ قبلة حارة عذبة ، فأطلقت صرخةً ضعيفة ، وفتحت
عينى • كان هنالك شيءٌ يمننى من الرؤيا هو الوشاح الأرجوانى
الصغير مفروشا على وجهى كأنما ليحمينى من الشمس ! وما هى الا لحظة
حتى كانت السيدة م ••• قد غابت فلا أسمع الا وقع خطواتها وهى
تبتعد • كنت وحيدا ••• أمسكت بالوشاح وأغرقته قبلا وقد اضطرم فى
نفسى فرح شديد • كنت كالمجنون ••• اننى أتنفس بصعوبة ، مستندا
بيدى الى العشب • ورحت أنظر بعين ذاهلة محمدا فى الروابى التى
تبرقشها الحقول أمامى ، وفى النهر المتلوى الذى يشق طريقه من بعيد
يغمره الضياء بين الذرى والقرى ، وفى الغابات الزرق التى لا تكاد تراها
العين والتى تشبه أن تكون دخانا عند حافة السماء المتوهجة • وشيئا
فشيئا هدأ هذا الصمت العذب الذى توحى به طمأنينة المنظر الرائع ،
هدأ اضطرابى وسكن روعى • أصبحت أتنفس بسهولة ، ولكن نفسى
كلها كانت تفيض أسى شجيا ممتعا فى آن واحد • كانت نفسى تهتز
بشعور واضح ونبوءة بينة ، وترتجش فى انتظار خائف فرح معا وتنبض
نبض جريح ••• وانبعجت من عيني دموع تفيض عذوبة • ودفت وجهى
فى يدي واستسلمت بلا مقاومة لأول اكتشاف من الهام قلبى ، واستسلمت
للتنبؤ الفاضل بطبيعتى ••• استسلمت لذلك كله وأنا أرتجش ارتعاش
قشة فى مهب الريح ••• لقد انتهت طفولتى الاولى فى تلك اللحظة •

وحين رجعت الى البيت بعد ساعتين ، لم أجد فيه السيدة م ••• لقد
سافرت الى موسكو مع زوجها على أثر حادث غير متوقع ، ثم لم أرها بعد
ذلك أبدا •

قصة في تسع رسائل

١٨٤٧

« قصة في تسع رسائل »
(Romane v deviaty pismah)

كتبها دوستويفسكى في ليلة من ليالى
شهر تشرين الاول (اكتوبر) ،
١٨٤٥ ، ونشرت في مجلة « المعاصر »
في شهر كانون الثانى (يناير) ١٨٤٧

من بيتر ايفانوفتش الى ايفان بتروفتش

السيد المحترم والصديق العزيز ايفان بتروفتش

هأنذا الاحقك منذ ثلاثة أيام ، يا صديقى العزيز جدا ، لحاجتى الى التحدث اليك فى أمر هام ، ثم لا أقع لك على أثر فى أى مكان . بالامس كنا فى زيارة عند سيميون الكسيتش ، فقالت زوجتى فى حقك نكتة فكهة ، اذ شبهتكما أنت وزوجتك تاتيانا بتروفنا ، بأسرة من اليهود الضارين فى الارض ، فانه ما انقضى على زواجكما ثلاثة أشهر ، وهاتما تهملان منزلكما فلا تكادان تمكثان فيه . لقدضحكنا كثيرا ، ولكن على مودة لكما طبعاً . ولكننى أقول لك جادا يا صديقى العزيز ان أمرى يقلقنى كثيرا . قال لى سيميون الكسيتش : لعله فى الحفلة الراقصة بنادى « الجمعية المتحدة » . فتركت زوجتى عند سيميون الكسيتش وطررت الى النادى . ان فى الأمر ما يضحك ويبكى فى آن واحد . تصور وضعى : لقد ذهبت الى النادى وحدى غير مصطحب زوجتى . وهذا ايفان آندريتش يلقانى فى الدهليز ، فما ان يرئى وحيدا حتى يستنبح من ذلك . ياله من شقى ! أننى

أحب حفلات الرقص جدا جارفا • فيمكننى من ابطل محاولا أن يقودنى الى أحد المراقص ، قائلا ان « الجمعية المتحدة » لا مكان فيها لرقص ، وان رائحة العطر قد صدعت رأسه • لم أجدكما لا أنت ولا تاتيانا بتروفنا • ويحلف لى ايفان أندريتش أنكما ذهبتما الى مسرح ألكسندريسكى لمشاهدة تمثيلية « شقاء العاقل بعقله » * •

وطرت الى هنالك • فلم أجدكما أيضا • وقدرت فى هذا الصباح أن ألقاكما عند تشستوجانوف • فخاب ظنى مرة أخرى • ويرسلنى تشستوجانوف الى بريالكين ، فما عثرت لكما على أثر كذلك • الخلاصة أن البحث عنكما قد أرهقنى • لذلك أكتب اليك ، فما من سبيل آخر • وليست القضية قضية أدب مع ذلك (أنت تفهمنى !) • ان من المستحسن أن تتصارع بوضوح وبأقصى سرعة ممكنة • من أجل هذا أرجوك أن تجيء الى مع تاتيانا بتروفنا لتناول الشاي • ولسوف تسر عزيزتى آنا ميخائيلوفنا بزيارتكما سرورا عظيما • وبالنسبة ، يا صديقى العزيز جدا ، فانتى أحب ، ما دمت أكتب اليك ، أن أذكرك بشئ • اننى مضطر أن أعتب عليك قليلا يا صديقى المحترم • لقد دبرت لى مزحة طائشة بعض الطيش ... أيها الشيطان ! فى حوالى منتصف الشهر الماضى جئتى بأحد أصدقائك ، أو جين نيقولايتش ، وزكيتة لى يكشير من الحرارة ، وتلك عندى أقدمس تزكية ، فأبهجنى كثيرا أن أسرك ، ففتحت لصديقك ذراعى وبيتى • ولكننى لم أكن أعلم ما معنى أن يوضع جبل فى عنقى ... يا لها من قضية جميلة ! لا يتسع وقتى الآن لأن أشرح لك الأمر كله ، وهذه على كل حال أمور لا تكتب فى رسالة • ولكننى أرجوك ، يا صديقى الخبيث ، أن توحى الى صديقك الشاب ، بلباقة ونعومة ، كأنك تذكر الأمر عرضا ، كأنك تمر به مرورا عابرا ، أن توحى اليه ، همسا فى الأذن ،

وشوشة ناعمة ، أن فى العاصمة بيوتا أخرى كثيرة غير بيتى • لقد طُفح
الكيل يا عزيزى ! انتى أركم لك ضارعا يا عزيزى ، على حد تعبير صديقنا
سيمونيفتش ••• ليس معنى هذا أن الفتى قليل الأدب ، كثير العيوب ،
لا ••• انه شاب لطيف محبب • ولكننى سأشرح لك الأمر حين نلتقى
فنستطيع الكلام • وبانتظار ذلك ، أتوسل اليك ، يا عزيزى المحترم ، اذا
أنت رأيته ، أن تهمس فى أذنه أن ••• أنت تعلم ماذا ، يا صديقى المحترم
جدا • كان يمكننى أن أتولى ذلك بنفسى ، ولكنك تعرف طبعى : لم أستطع
أن أعزم أمري ••• ثم انك أنت من قدمه الى • على كل حال سأشرح
لك التفاسيل هذا المساء • والآن ، الى اللقاء • وأظن ••• النج •

حاشية : ابنى الصغير مريض منذ ثمانية أيام ، وحالته تسوء مزيدا
من السوء • ان أسنانه تنبت • زوجتى لا تتركه لحظة • وهى حزينة •
تعال اذن • سيسرنا بمجيئك كثيرا يا صديقى العزيز جدا •

٢

من ايفان بتروفتش الى بيتر ايفانوفتش

السيد المحترم جدا بيتر ايفانوفتش

تلقيت رسالتك أمس ، فقرأتها فدهشت أشد الدهشة • لقد بحثت
حتى يعلم الله أين ، بينما كنت أنا فى بيتى منتظرا ايفان ايفانوفتش
تولوكونوف حتى الساعة المباشرة من المساء • ما ان وصلت رسالتك حتى
ركبنا عربة أنا وزوجتى ، باذلين فى ذلك مالا كثيرا ، فوصلنا اليكم فى نحو

الساعة السادسة والنصف • لم تكن فى بيتك • استقبلتني زوجتك •
انتظرتك حتى العاشرة والنصف • ثم مضيت مع زوجتى ، فاستأجرت
عربة ، بأذلا مالا جديدا • أوصلت زوجتى الى البيت ، ومضيت الى منزل
بيربالكين آملا أن أجده هناك • ولكن خاب ظنى • عدت الى بيتى ؛ لم
أستطع أن أغمض جفنى طول الليل ، من شدة القلق • وفى صباح الغد
طرقت بابك ثلاث مرات ، فى الساعة التاسعة ، ثم فى الساعة العاشرة ، ثم
فى الساعة الحادية الحادية عشرة • دفعت أجر ثلاث عربات •

حين قرأت رسالتك كان من حقى أن أدهش • انك تحدثنى عن
أوجين نيكولايتش ، وتطلب منى أن أوحى اليه ••• ولكنك لا تذكر
شيئا عن الأسباب • اننى أجده حذرك ، ولكن ليس كل الورق سواء ،
وما أنا بالرجل الذى يعطى زوجته أوراقا لتستعملها فى شأن من شئون
المنزل • اننى لا أفهم معنى رسالتك • ثم لماذا تفحصنى فى هذا الأمر ؟
اننى لا أحشر أنفى فى كل شأن من الشئون • كان فى وسعك أن توصد
دونه بابك • يجب أن تتصارع تصارحا حاسما • اننى لا أملك من الوقت
ما أضيعه سدى • أضف الى ذلك أننى فى ضيق ، ولا أدري ماذا يمكن
أن أضطر اليه اذا أهملت التزام الشروط التى اتفقنا عليها • ليست الرحلة
طويلة • ولكنها تكلف نفقات كثيرة • زوجتى تشكو : انها تريد معطفا
من المخمل على الموضة •

أما عن أوجين نيكولايتش ، فاننى أسارع فأبلغك أننى سألت عنه
بافل سيمينتش بيربالكين ، فعرفت أنه يملك خمسمائة نفس * فى اقليم
ياروسلاف ، وأنه سيرث عن جدته ثلاثمائة نفس أخرى • لا أعرف مقدار
ثروته على وجه الدقة • أقدر أنك تعرفه • أرجوك أن تحدد لى موعدا

ثابتا • لقد التقيت أمس بايفان أندريتش فزعم لك أنني كنت مع زوجتي
في مسرح الكسندرسكى • كذب ! •••
يشرفنى أن •••

حاشية : امرأتى حامل • انها عصبية ، وهى فى بعض الأحيان
سوداوية • يتفق أحيانا أن تطلق على المسرح طلقات بندقية ، أو أن
تسمع أصوات رعود مصطنعة ، لذلك أحاذر أن آخذها الى المسرح حتى
لا تجزع • لعلك تدرك ذلك • ثم اننى لست من هواة المسارح على كل
حال •

٣

من بيتر ايفانوفتش الى ايفان بتروفتش

صديقى المحترم جدا ايفان بتروفتش !

أعتذر ثم أعتذر ثم أعتذر ألف مرة • ولكننى أبادر فأبرىء نفسى •
أمس ، فى نحو الساعة السادسة ، كنا بصدد الحديث عنك (بمجة ومودة) ،
فاذا برسول من عمى ستيفان ألكسيثش يصل مسرعا ليلفنا أن عمى فى
حالة سيئة • فمن أجل أن لأرعب زوجتى أسرع أذهب الى عمى دون
أن أقول شيئا • فوجدت عمى لا تكاد تنفس ، على أثر سكتة أصابها
فى الساعة الخامسة تماما ، وهى ثالث سكتة تصاب بها فى غضون سنتين •
وقد صرح كارل فيدورتش ، طبيب الأسرة ، أنها قد تموت فى تلك الليلة
نفسها • فانظر أيها الصديق العزيز جدا كيف صار حالى • قضيت الليل

كله واقفا قلقا ينهش الحزن قلبي • وفي الصبح ، وقد هدنى التعب ههنا
وتحطمت جسما وروحا ، تمددت على ديوان ، دون ان يخطر ببالي ان
أبول لاحد ان يوقظنى فى ساعة مبكرة من الضحى ، فاذا انا اظل نائما
حتى الساعة الحادية عشرة والنصف • كانت عمى قد تحسنت حالها •
فذهبت الى زوجتى • مسكينة ! كانت يائسة من رؤيتى • تناولت لقمة
طعام عجلا ، وقبلت ابنى ، وطمانت زوجتى ، وخففت اليك : لاأحد...
الا أوجين نيكولايتش • عدت الى بيتى ، وتناولت القلم ، وأخذت أكتب
اليك هذه الرسالة التى بين يديك • لا تزعل منى يا صديقى العزيز •
عدنى مذنباً ، ولكن لا تحقد على • أخبرتى زوجتك أنك لا بد أن تذهب
فى هذا المساء الى أسرة سلافيانوف • سأكون هنالك قطعاً • وسأنتظرك
نافد الصبر • وأظل ... الخ •

حاشية : ابنا الصغير يحزننا كثيرا • لقد وصف له كارل فيدورثش
دواء • انه يئن ويتأوه • وظل طوال نهار أمس لا يعرفنا • بدأ اليوم
يسرود وعيه ، ولكنه لا ينقطع عن الدممة : بابا ... ماما ... بيو ...
قضت امرأتى الصباح كله غارقة فى دموعها •

٤

من ايفان بتروفتش الى بيتر ايفانوفتش

السيد المحترم جدا بيتر ايفانوفتش ..

أكتب اليك من منزلك ، فى غرفتك ، على مكتبك • أنا فى انتظارك
منذ ساعتين ونصف • اسمح لى أن أعلن بصراحة ، يا بطرس ايفانوفتش ،
رأى فى مسلكك • من رسالتك الأخيرة استنتجت أن أسرة سلافيانوف

كانت تنتظرك وقد دعوتنى ان اجدى الى هناك ، فجلت ، ولبت خمس ساعات ، ثم لم تظهر . . . انا مهرج ؟ قل لى . . لا . . لا . . اسمح لى يا سيد . . . وجلت اليك فى الصباح املا ان اجدك ، لم افعل كما يفعل « بعضهم » حين يبحثون عن الناس لا يدرى الا الله اين ، بدلا من ان يجيئوا الى بيوتهم فى ساعة مناسبة . لم تكن فى بيتك . لا ادرى ما الذى يمنعنى ان اقول لك حقائقك كلها . انك تسوف وتتماطل فى تنفيذ بعض ما اتفقنا عليه ، ولا تستطيع بعد تقليب الامر على وجوهه المختلفة الا ان الاحظ ان فيك ميلا خارقا الى المكر والحيلة . اننى ارى اليوم هذه الحقيقة واضحة : لقد برعت فى احكام الحيلة . وحسبى برهانا على ذلك ما يلى : فى الاسبوع الماضى استرددت منى استردادا غير مشروع الرسالة التى تعترف فيها ، ولو اعترافا غامضا جدا ولا شك ، بما تم الاتفاق عليه بيننا فيما يتصل بظروف تعلمها انت حق العلم . انك تخشى الادلة فتزيلها . ولكننى لا اسمح لك ان تعدنى غيا احمق . وأنا ما زلت اعد نفسى كذلك ، والناس جميعا من رأى . اننى أفتش عيني . انك تريد ان تهرب من الموضوع بحكاية أوجين نيكولايتش تلك ، فاذا حاولت أن ألقاك ، بدعوة منك أنت ، حددت لى مواعيد كاذبة واختفيت . أترك تأمل أن أمل وأكل آخر الأمر ؟ لقد أردت أن تكون لك على منة تقديم خدمات لم تنسها اذ زكيتنى لعدد من الأشخاص ، وعندئذ أدخلت الأمور بعضها فى بعض وعقستها حتى بلغت هدفك فاقترضت منى مبالغ طائلة دون أن تعطينى وثيقة باقتراضها . . . ذلك منذ ثمانية أيام . . . ثم اختفيت عن الأبصار فما يقع أحد لك على أثر . أترك تعول على أننى مسافر قريبا الى سميرسك ! أترك تقدّر أن تظل تهرب الى أن يحين موعد سفرى ، فأسافر قبل أن تنتهى الى حل ؟ ألا فاعلم اذن - أقول لك جهارا وأقطع على نفسى عهدا - أننى مستعد أن أبقى فى

بطرسبرج شهرين آخرين ... ولكننى ساعثر عليك ... انقسم لاعثرن عليك . اختتم رسالتى هذه مبلغا اياك انى ، اذا لم تلب مطلبى فى هذا اليوم ، كتابه اول الامر ، وحديثا بينى وبينك بعد ذلك ، اذا لم تذكر فى رسالتك الشروط الرئيسيه التى اتفقنا عليها ، واذا لم تشرح لى مافى ذهنك من خواطر بصدد اوجين نيكولايتش ، فساؤطر الى اتخاذ اجراءات ستسوءك كثيرا ، ولست احبها أنا أيضا ...
واسمح لى أن أظل .. الخ ...



من بيتر ايفانوفتش الى ايفان بتروفتش

١١ تشرين الثانى (نوفمبر)

صديقى العزيز جدا المحترم جدا ايفان بتروفتش !

لقد أحزنتنى رسالتك حزنا عميقا . ألا تستحى ، يا صديقى العزيز الظالم ، أن تتصرف هذا التصرف مع انسان هو أخلص الناس لك ، متعجلا هذا التعجل ، لا تشرح الاسباب ، ولا تخشى أن تجرح كرامتى ؟ ولكننى أبادر فأرد على اتهاماتك . واذا كنت لم تجدنى بالأمس ، يا ايفان بتروفتش ، فلأننى نوديت فجأة الى بيت عمى التى كانت تحتضر . ولقد ماث فى الساعة الحادية عشرة والنصف من الليلة البارحة . وأجمع الرأى على اختيارى لرؤس الاحتفال بالجنائز . فلم أستطع من كثرة العمل لا أن أراك فى هذا الصباح ولا أن أكتب اليك سطرا . وانه ليؤسفنى حقا أن يقع بيننا سوء التفاهم هذا . أما ماقلته عن اوجين نيكولايتش عرضا على

سبيل المزاح فقد بالغت كثيرا في الاهتمام به • فليست المسألة على هذا القدر من خطورة الشأن • وتحدث عن المال وعن القلق الذي لعله يساورك بصدده • ولكنني مستعد لأن ألبى رغباتك الخشنة الفظة • ولأقل عابراً أن الثلاثمائة روبل التي أخذتها منك في الأسبوع الأخير ليست من باب الاقتراض ، يجب أن أذكرك بهذا ، ولو كانت قرصاً لوقعت لك ايصالاً من غير شك • أما الأمور الأخرى التي جئت على ذكرها في رسالتك فلا أحب أن أسفّ إلى حيث أناقشها أو أرد عليها • وما ذلك كله إلا سوء تفاهم مرده إلى سلوكك المألوف وتصرفك المعتاد ، وإلى صراحتك الطبيعية أيضاً • أنا أعلم أن طبيعتك المنطلق لا يطبق أى تردد ، ولسوف تكون البادى بمد يدك إلى •

لقد أخطأت يا إيفان بتروفتش ، أخطأت خطأ فادحاً •

اننى مستعد لأن أجىء إليك معتذراً رغم أنك جرحتنى • ولكن المتاعب والهموم قد بلغت من إرهاقها منذ أمس أننى أكاد أموت تعباً ، ولا أكاد أستطيع الوقوف على قدمي • ومما زاد شقائي أن زوجتي مريضة راقدة في سريرها • اننى أخشى أن يكون مرضها خطيراً • أما صغيري فقد تحسنت صحته ولله الحمد •

ولكننى أدع الآن القلم • ان الاعمال تتادبنى وهى كثيرة •• واسمح لى يا صديقى العزيز جداً أن أظل ••• النح •••

من ايلان بتروفتش الى بيتر ايلانوفتش

١٤ تشرين الثاني (نوفمبر)

السيد المحترم بيتر ايلانوفتش !

صبرت ثلاثة أيام ، محاولا ان انتفع بهذا الوقت . لكننى ، وأنا أحس أن اللطف والآدب والوداعة هى أولى واجبات الانسان المتمدن ، تحاشيت منذ رسالتى التى بعثتها اليك فى اليوم العاشر من هذا الشهر ، أن أذكرك بنفسى ، أولا لأدع لك الوقت اللازم للقيام بواجباتك المسيحية تجاه المرحومة عمتك ، وثانيا لانصرف الى بعض التأملات والتحريرات بصدد قضية ملحة مستعجلة . وهأنذا أصارحك الآن مصارحة حاسمة .

أعترف لك بلا موارد ولا مخاتلة أننى عند قراءتى رسالتيك الأوليين ظننت أنك لم تفهم نياتى ، لذلك حاولت أن أراك لأشرح لك الأمر صراحة . قلت لنفسى : ان القلم خداع ، فلعل تعبيرى كان غامضا ، فأخطأت فهمه . أنت لا تجهل أننى امرؤ لا يجيد تكلف الآداب ، وأننى أتعجب التظاهر الأجوف والتصنع الكاذب . لقد علمتلى تجربة طويلة أن المظهر يضل ، وأن الأقمى كيرا ما تختبئ تحت الازهار . ولكنك فهمتلى فى حقيقة الأمر ، ولئن لم تحب بما كان ينبغى أن تعجب به ، فلقد كان ذلك منك نفاقا ورياء ، لأنك قد صممت سلفا على أن لا تفى بعهد الشرف الذى قطعته على نفسك ، ولو أدى ذلك الى قطع علاقات الصداقة بيننا . ولقد برهنت على هذا بسلوكك المشين معى ، وهو سلوك يسئ الى مصالحى وما كنت لأتوقعه منك قط . كنت لا أريد أن أصدق هذا ، الى أن جاء اليوم الذى نحن فيه ، ذلك أننى ، وقد فتنت عن حقيقة

علاقتنا فى أول الامر بمظاهرك الرقيقة وحديثك الأنيق وحسن فهمك للأعمال والمصالح ، كنت أظنك صديقا وكنت أعدك رفيقا حقا • ولكننى أدرك الآن أن كثيرا من الناس يخفون وراء مظاهر الادب الكاذب المنافق المرائى ، صفات رديئة وخصالا مسمومة ، فهم يستعملون كل ذكائهم فى ايقاع أكبر أذى فى الآخرين • انهم يخشون الورق والقلم ، ويضرون بمن يتعافدون معهم بدلا من أن يسعوا الى نفع الوطن ونفع أقرانهم •

ان سوء نيتك يتضح ، أيها السيد ، من الوقائع الدامغة •

فأولا ، بينما كنت أصف لك وضعى بلغة واضحة دقيقة ، أيها السيد ، وبينما كنت أسألك عن معنى غمزاتك فيما يتعلق بأوجين نيكولايتش ، لزمّت أنت الصمت ، ونهرت من كل ايضاح ، مضيفا الى ذلك اغاظتى واحناقنى بشكوك مسيئة وشبهات مهينة •

وبعد لجوئك الى وسائل من هذا القيل لا يحصى عددها ، كتبت تقول لى ان ذلك كله يحزنك • وأخيرا ، بينما كانت الدقائق والثوانى ثمينة عندى الى أقصى حد ، سادك أن أمضى باحثا عنك فى كل مكان بالعاصمة ، وأخذت تكتب الىّ ، تحت ستار الصداقة ، رسائل تنهرب فيها عامدا من الكلام فى موضوعنا ، وتروح تثرثر تضليلا فى كل أمر من الأمور ، متحدثا عن مرض زوجتك الغالية ، وعن اهتمام الطبيب بمعالجة ابنك الذى تنبت أسنانه ، مصراً على العودة الى هذه التفاصيل فى كل رسالة من رسائلك اصرارا لا حياء فيه •

طبعا ، أنا أسلّم بأن آلام الابن تؤلم قلب الأب • ولكن فىم التحدث عن هذه الأمور ، بينما هنالك أمر أخطر شأننا وأهم منزلة يجب أن تكتب الىّ فيه ؟ وكنت أصمت ، وكنت أنتظر • أما وقد انقضى الوقت فان واجبى يقضى علىّ أن أشرح ما بنفسى • وأخيرا فانك وقد عبثت بى اذ

حددت لى مواعيد كاذبة عدة مرات ، قد جعلت منى مهرجا لك ودمية بين يديك . وذلك ما أرجو أن تعتقد أتنى لا أرتضيه قط .

لقد حددت المواعيد واحدا تلو اخر ، ثم لم تف بأى موعد منها ، متعللا بالسكته التى أصيبت بها عمتك ، متخذا منها ذريعة لم تستح أن تسمى استعمالها . وقد علمت أثناء هذه الأيام الثلاثة أن عمتك قد أصيبت بالسكته فى مساء اليوم السابع من الشهر ، قيل منتصف الليل ، واذن فأنت لم تتورع عن تدنيس العلاقات العائلية باتخاذها ذريعة لمخادعة غريب ! هذا وان عمتك لم تمت فى الوقت الذى ذكرته كذبا بغير حياء ، بل ماتت بعده بأربع وعشرين ساعة .

ولو شئت أن أحصى مخادعاتك لما فرغت من احصائها. وأنت تسمينى صديقك العزيز ! بغية ان تخدعنى ما فى ذلك ريب .

وأصل الآن الى مخادعتك الكبرى ، الى هذا السكوت العنيد عما يتصل بمصالحنا المشتركة ، الى سرقتك المشينة للمرسالة التى كنت قد شرحت فيها ، ولو شرحا غامضا جدا ، ما تم الاتفاق عليه بيننا بشأن ذلك القرض الذى آكرهتني عليه ومقداره ثلاثمائة وخمسون روبلا أخذتها منى بغير ايصال ؛ وكذلك الى تلك الوشايات والنمائم التى تذيعها فى الناس عن صديقنا المشترك أوجين نيكولايتش . واضح أنك أردت أن توهمنى أنه امرؤ لا يمكن الحصول منه على شيء ، وأنه من هذه الناحية لا خير فيه البتة . ولكننى أعرف أوجين نيكولايتش ، وأعده شابا جم التواضع ممتاز السلوك ، يستحق الاحترام الشامل . أنا أعرف أنك كنت فى كل مساء ، خلال خمسة عشر يوما ، تربح منه عشرات الروبلات بل ومائة روبل أحيانا فى المقامرة بالورق . وأنت اليوم تنكر هذا كله ، ثم لاكتفى بنسيان العناء الذى لقيته من أجلك ، بل تنتصب أيضا مالى ، مضللا اياى

بوعود مقاسمتى الارباح ، معنيا نفسك من الاعتراف بفضلى ، لا يمنك
عن هذا حرص على الاستقامة والوفاء ، بل تعمد الى الكذب والافتراء
أيضا لتقدح فى انسان أدخلته منزلك ؟ مع أنك تزعم أنت نفسك أنه أول
أصدقائك وأنتك تحله بينهم فى منزلة الصدارة ، رغم وضوح نياتك ،
ورغم أن كل انسان يعرف ما قيمة صداقتك !

أختم الآن رسالتى ، معتقدا أن هذه الشروح كافية • وإليك
الخلاصة : اذا وصلتكم رسالتى هذه ، فلم تبادر على الفور الى دفع
الثلاثمائة وخمسين روبلا ، بالإضافة الى المبالغ الاخرى التى هى من حقى
باعترافك ووعودك ، فسألجا الى جميع الوسائل الممكنة التى تكفل استرداد
مالى ، ولو اضطررت أن أعمد فى سبيل ذلك الى القوة • وأنا أعلن لك
أننى أملك وثائق يستطيع خادمك المطيع أن يستعملها فيلحق باسمك
ضررا بالغاً وأذى لا دواء له ولا بر • منه •

واسمح لى أن أبقي ... الخ ••

٧

من بيتر ايلمانوفتش الى ايلمان بتروفتش

١٥ تشرين الثانى (نوفمبر)

ايلمان بتروفتش !

حين قرأت رسالتك الغريبة التى لا تصدر الا عن فلاح ، خطر
بألى أول الأمر أن أمزقها اربا اربا • ولكننى قررت بعدئذ أن أحفظ بها

من باب الطرافة • ثم اننى آسف أسفا صادقا لما وقع بيننا من سوء التفاهم •
وقد أردت أن لا أرد على رسالتك ، ولكن الضرورة تجبرنى أن أفعل •
يجب أن أصرح لك انه سيسوءنى جدا أن أراك بعد اليوم فى منزلى •
وان امرأتى تشاركى هذا الشعور : فصحتها مضطربة ، ورائحة القار
تتبع رثها • وهى ترد الى زوجتك الكتب التى أعادتها اياها : « دون
كيتشوت دو لامايش » ، مع أجزل الشكر • أما حذاءك (الكاوتشوك)
فيؤسفنى أن أقول لك اننا لم نثر عليهما فى أى مكان • لقد بحثنا عنهما
طويلا فلم نجدهما • سأشتري لك حذاءين عوضا عنهما •

ومن جهة أخرى ، يشرفنى أن •• الخ ••



(فى اليوم السادس عشر من شهر تشرين الثانى - نوفمبر - تلقى
بتر ايفانوفتشن بالبريد رسالتين • فلما فض الطرف الاول وجد فيه بطاقة
مطوية عدة طيات ، من ورق وردى اللون طرى ، مكتوبة بخط زوجته ،
موجهة الى أوجين نيكولايتش ، مؤرخة فى ٢ تشرين الثانى • والطرف
لا يضم شيئا غير تلك البطاقة • وها هو ذا يقرأ البطاقة) •

« عزيزى أوجين • لم أستطع أمس • ان زوجى لم يغادر البيت طول
السهرة • تعال غدا فى الساعة الحادية عشرة تماما • زوجى مسافر الى
تسارسكوى فى العاشرة والنصف ، ولن يعود قبل منتصف الليل • ظلت
مناظرة حائقة الليل كله • أشكر لك ما تزودنى به من حكايات وما تبعه
الى من رسائل • ما أكثرها قراطيس ! أمى التى تكتب اذن كل هذا ؟

الكتابة جميلة الاسلوب على كل حال • شكرا • أرى أنك تحبني •
لا تزعج بسبب الليلة البارحة • وتعال ناشدتك الله ! »

• آ •

(ويفض بيتر ايفانوفتش الطرف الثاني ، فيقرأ :)

بيتر ايفانوفتش !

ما كان لي ، من تلقاء نفسي ، أن أضع قدمي في بيتك • لقد كان من
غير المفيد تسويد كل تلك الصفحات من الورق في سبيل ذلك •

سأسافر في الاسبوع المقبل الى سميرسك • ويبقى لك صديقك
العزیز جدا ، المحترم جدا ، أوجين نيكولايتش • أتمنى لك السعادة !
أما عن حذاءي ، فدع عنك هذا الهم •

٩

(في اليوم السابع عشر من شهر تشرين الثاني - نوفمبر - تلقى
ايفان بتروفتش بالبريد رسالتين • فلما فض الاولى أخرج منها بطاقة
مكتوبة على عجل • الكتابة بخط زوجته ، والرسالة موجهة الى أوجين
نيكولايتش ، مؤرخة في ٤ آب - أغسطس - • ولا يضم الطرف شيئا آخر
غير تلك الرسالة • ويقرأ ايفان :)

وداعا يا أوجين نيكولايتش ، وداعا ! أسأل الله أن يموضك خيرا •
كن سعيدا • أما أنا فحظي رهيب • لتكون مشيئة الرب • لولا عمتي لكنت
كلى لك • لا تضحك مني ولا من عمتي • سأزوج غدا • لقد سرَّ عمتي

كثيراً أن 'وجد شاب طيب يقبل أن يتزوجني بلا مهر أقدمه • لقد
أنعمت النظر اليه اليوم أول مرة • يبدو لي أنه انسان طيب القلب • انهم
يستعجلونني • وداعا وداعا يا حبيبي الغالي ! تذكرني ••• تذكر من لن
تساك مدى الحياة • وداعا • هأنذا أوقع رسالتى هذه كما وقعت رسالتى
الأولى •• هل تتذكر ؟

ثانيان

(وفى الرسالة الثانية يجد ايفان بتروفتش ما يلى :)

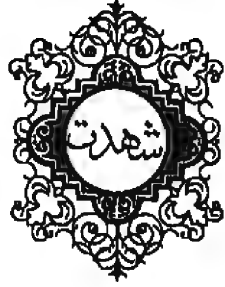
ايفان بتروفتش ! غدا يصلك خدامان جديدان (من المطاط) ليس
من عادتي أن آخذ من جيوب الآخرين أى شئ • لا ولا أريد أن ألمّ
من الشوارع أوراقا بالية •

يسافر أوجين نيكولايتش الى سمبرسك * فى غضون أيام • فان
أعمال هامة تناديه هنالك • وقد رجاني أن أبحث له عن رفيق يصحبه فى
رحلته : هل تريد أن تصحبه ؟

شجرة عيت الاميلاد والازواج

١٨٤٨

« شجرة عيد الميلاد والزواج »
(Iolka i svadba) ، كتبت سنة
١٨٤٨ ، وظهرت في « حويليات
الوطن » ، ايلول (سبتمبر) ١٨٤٨»
« الزواج »
مج ٦٠ ؛ بعنوان « شجرة عيد الميلاد



فى هذه الأيام الأخيرة زواجا، لا بل سأحدثكم عن
شجرة عيد الميلاد • صحيح أن حفلة الزواج التى
رأيتها منذ قليل كانت رائعة وقد أعجبت بها اعجابا
شديدا ولكن الحفلة الاخرى حفلة عيد الميلاد
كانت شائعة أكثر منها أيضا وسترون من قراءة هذه القصة لماذا ذكرنى
هذا الزواج بشجرة عيد الميلاد •

منذ خمس سنين تقريبا شهدت حفلة أقامها أصحابها بمناسبة عيد
الميلاد • ان الشخص الذى دعانى الى حضور هذه الحفلة رجل كبير من
رجال الاعمال يملك رساميل ضخمة وتحميه شخصيات كبيرة وله علاقات
كثيرة حتى لأستطيع أن أقول ان هذه الحفلة التى أقيمت للأطفال لم تكن
الا عذرا اصطنعه الاباء ليجتمعوا فيتناقشوا فى شؤون تتصل بالمصالح كأنما
على صدقة وبغير ميعاد •

واذ كنت غريبا عن الاعمال وشؤونها فقد قضيت سهرتى بعيدا عن
هذه المناقشات بعض البعد مهتما بالنظر والملاحظة خاصة •

لذلك لم ألبث أن لاحظت مدعوا آخر كان يبدو عليه انه قد وقع

مثلى فى وسط هذه الحفلة وقوعا فى غير محله ولا زمانه ، انه شخص
فارغ القامة نحيل الجسم كثير البجد أنيق الملبس ومع ذلك كان يبدو بعيدا
عن كل فرحة لأنه سرعان ما انتحى ركنًا وكف فمه عن الابتسام وقطب
حاجبيه السوداوين الكثيفين تقطيا يدعو الى القلق •

وكان واضحا أنه لا يعرف أحدا فى الصالة عدا صاحب البيت وانه
رغم سأمه وضجره كان قد قرر أن يمثل حتى النهاية دور رجل سعيد •

وقد علمت فيما بعد انه رجل من الريف قد جاء الى المدينة لعمل
ضخم من الأعمال • واذ كان يحمل الى رب المنزل كتاب توصية فقد
كان رب المنزل يحميه ويرعاه دون أى نوع من المبالغة مع ذلك ، وقد دعاه
الى هذه الحفلة التى أقامها للأطفال من باب اللطف والادب •

لم يلعب الحضور بالورق ولم يقدم اليه أحد سيكارا ولا خاطبه أحد
بحديث (لعلهم عرفوا الطائر من ريشه) لذلك اضطر صاحبنا حتى يظهر
بمظهر الوقار والأبهة أن يأخذ بتمليس لحيته فى غير توقف أو انقطاع
وهما لحيتان جميلتان حقا على كل حال ولكنه قد بلغ من البجد والاجتهاد
فى هذا التمليس أن من يراه يتصور أن اللحيتين قد وجدتا فى هذا العالم
أولا ثم عين هذا السيد لتمليسهما بعد ذلك •

وفى عدا هذا الشخص الذى كان يشارك هذه المشاركة فى فرحة
صاحب الأعمال الكثيرة بأسرته التى تتألف من زوجة وخمسة صبية صغار
أصحاء الجسم من وفرة الغذاء ، تثبت انتباهى على سيد آخر من نوع
مختلف كل الاختلاف •

انه شخص وقور كانوا ينادونه باسم جوليان ماستاكوفس وكان
واضحا من أول نظرة انه يعامل معاملة ضيف ذى قيمة خاصة وشأن كبير:

كان أهل المنزل ما ينفكون يغمرونه بألوان الرعاية وضروب المراجعة فهم 'يعنون به أشد العناية ويقدمون اليه الشراب ويحيثونه بكثير من الناس يعرفونه بهم • حتى لقد لاحظت أن رب البيت قد ذرف دموع الفرح حين تفضل جوليان ماستاكوفتش فقال انه منذ زمن طويل لم يقض لحظات ممتعة كهذه اللحظات التي قضاها في هذه الحفلة •

يجب أن أعترف بالخوف الذي شعرت به من وجودى وجهها لوجه مع شخصية تبلغ هذا المبلغ من خطورة الشأن وعلو المقام لذلك رأيتى بعد أن أعجبت بالأطفال أنسحب الى صالون صغير واعتصم وراء كتلة من النباتات كانت تشغل نصف الحجرة تقريبا •

وكان لا يبدو على الأطفال أنهم يولون توصيات مربياتهم ونصائحهن أية قيمة فهم لا يريدون قطعا أن يشبهوا الكبار فى شىء من الاشياء • وقد وجدتهم لطافا محبين الى قلبى وما هى الا بضعة دقائق حتى كانوا قد جردوا الشجرة كلها مما علق بها من أنواع السكاكر وضروب الحلوى ثم شرعوا يخربون اللعب فى همة ونشاط حتى قبل أن يعلموا من صاحب كل لعبة من هذه اللعب •

كان بين الأطفال صبى صغير أجعد الشعر اسود العينين مال اليه قلبى ميلا خاصا وقد قرر أن يقتلنى ببندقته الخشبية مهما كلف الامر فطاردنى حتى مخبئى غير أن أخته التى تبلغ من العمر احدى عشرة سنة هى التى لفتت انتباهى أكثر من سائر الأطفال : انها جميلة جمالا رائعا وهى صامتة شاحبة ذات عيين واسعتين حالمتين • وأغلب الظن أن أحد الأطفال قد ضايقها لأنها وقد لجأت الى الصالون الصغير الذى كنت فيه قد اعتصمت

بركن من أركانه تعنى بعروستها ولا تحفل بشيء عداها • وكنت قد سمعت بعض المدعوين يصفون آباها بأنه تاجر واسع الثراء وسمعت أحدهم يقول ان بائنتها تبلغ ثلاثمائة ألف رروبل • وفيما كنت أنظر الى الجماعة التى اهتمت اهتماما خاصا بهذا النبأ الاخير وقع نظرى على جوليان ماستاكوفتش فرأيتة واضعا يديه وراء ظهره مائلا برأسه الى جانب يصنى الى ثرثرة هؤلاء السادة بانتباه شديد ولم يسعنى فيما بعد الا أن أعجب أشد الاعجاب بحكمة صاحب المنزل فى توزيع الهدايا على الاطفال فان البنية التى تملك منذ الآن بائنة قدرها ثلاثمائة ألف رروبل قد تلقت أجمل عروس من المرائس الموزعة على الاطفال وهكذا دواليك - فقيمة اللعبة التى تعطى لكل طفل من الاطفال تنقص بمقدار نقصان ثراء أبويه • وكان أتسى الاطفال حظا صبيّ فى العاشرة من عمره نحيل الجسم أحمر اللون مبقع الوجه فقد كان نصيبه من الهدايا كتابا لا قيمة له يتحدث عن عظمة الطبيعة ويتكلم عن الدموع والمواطف وما الى ذلك ولا يضم أية صورة •

وسرعان ما علمت أن الصبى الصغير هو ابن معلمة أولاد صاحب الدار وهى أرملة فقيرة لم يكن لها الا هذا الصبى الوجمل المبهوت •

كان يرتدى قميصا صغيرا فقيرا من نسيج فطنى أصفر اللون فلما أخذ هديته لبث يطوف زمنا طويلا حول اللب الأخرى وكان واضحا أنه يحب أن يتسلى مع سائر الأطفال ولكنه لا يتجرأ أن يفعل ذلك لشعوره بأنه دونهم •

اننى أحب ملاحظة الأطفال كثيرا وأرى أن أهم ما يلفت النظر فيهم هو هذه المظاهر الاولى من حياتهم المستقلة • لقد لاحظت أن هذا الصبى الاحمر الذى ألهب حماسه منظر اللب التى أهديت الى الاطفال الآخرين وخاصة المسرح الذى لعله كان يحب أن يمثل عليه دورا قد عزم أمره

على أن يرتكب بعض الدنايا الصغيرة فيها هو ذا يتسهم وينادى الأطفال الآخرين ويعطى تفاخته لصبي سمين كان يحمل منديلا مليئا بأنواع الحلوى وما هو ذا بعد ذلك لا يأبى أن يكون دابةً يركبها واحد من رفاقه لالشيء، إلا أن لا يرى نفسه مبتدأ عن المسرح ولكنه رغم هذه التنازلات لم يلبث أن تلقى اللطمة من صبي أكبر منه ، ومع ذلك لم يجرؤ أن يبكي لأن أمه المعلمة قد وصلت فأمرته أن لا يمنع الأطفال من اللعب فإذا هو يلطو عند الباب زمنا ثم يلحق بالبت الصغيرة التي لا شك أنها طيبة جدا لأنها لم تطرده وأخذ الاثنان يعملان جادين في الباس العروس الصغيرة .

ظللت معتصما بمكاني وراء كتلة النباتات زهاء نصف ساعة أضفى الى حديث الصبي الصغير والبنية ذات البائة التي تبلغ ثلاثمائة ألف روبل واني لكذلك اذا بي أرى جوليان ماستاكوفتش يدخل على حين فجأة . لقد انتهر فرصة المعركة التي شبت بين الأطفال في الصالون الكبير فلدجا الى الصالون الصغير وكنت قد رأيته منذ برهة يتحدث حديثا طويلا مع والد عروس المستقبل الغنية ورأيتة يفكر تفكيرا عميقا وكأنه يعد على أصابعه مدمدما .

- ثلاثمائة ... ثلاثمائة . احدى عشرة سنة ثلاث عشرة سنة ... ست عشرة سنة ! المجموع خمس سنين . فاذا حسبنا الفائدة على أساس أربعة في المئة فضرربنا خمسة في اثني عشر كان لدينا ستين ولنفرض أن المبلغ كله سيصبح أربعمائة ألف ... نعم ... ولكن هذا الوغد لا يقرض حتما بفائدة أربعة في المئة بل بفائدة ثمانية بل بفائدة عشرة اذن سيصبح المبلغ على الأقل خمسمائة ألف عدا الكسور . فلما انتهى الرجل الوجهه من حساباته مخط وأراد أن يترك الحجرة لكن بصره

وقع فجأة على الفتاة الصغيرة وأغلب الظن أن النباتات كانت تخفينى وراءها
اخفاء تاما لأنه لم يبصرنى ولكننى سرعان ملاحظت اضطرابا خاصا يرتسم
على قسما وجهه • ترى هل كان ذلك بتأثير الحساب أم كان نتيجة شيء
آخر غير هذا تماما ؟ ومهما يكن من أمر فقد فرك يديه راضيا مسرورا
وحين ألقى نظرة حاسمة على خطيبة المستقبل ازداد اضطرابه •

وقبل أن يتجه الى المكان الذى كان فيه الطفلان ألقى نظرة فاحصة
خاطفة على ما حوله ثم اقترب منهما سائرا على رؤوس الاصابع كأنه يشعر
بأنه يقارف انما ثم انحنى وهو يتسهم ابتسامة متكلفة اللطف أشرق بها
وجهه المدور لطبع قبلة رقيقة على رأس البنية •

فاذا بالبنية التى لم تكن تتوقع هذا الهجوم المفاجئ تطلق صرخة من
فرط الدهشة •

قال هامسا :

— ماذا تفعلين هنا يا حلوة ؟

وتلفت حواليه مرة أخرى ثم لامس خد الصبية •

قالت :

— نلعب •

فرشق جوليان ماستاكوفتش الصبى بنظرة خالية من البشاشة •

وقال لها :

— معه ؟

ثم التفت الى الصبى وقال له بلهجة خشنه :

— عليك أن تذهب الى الصالون أيها الصغير •

فلما رأى جوليا ماستاكوفتش ان الصبي ظل صامتا لا يحول عنه بصره ، نظر الى ما حوله من جديد ثم مال على الفتاة وقال لها :

- هذه عروسة أليس كذلك يا طفلتى الصغيرة ؟

- نعم عروسة •

هكذا أجابت البنية التى كان واضحا انها متضايقه •

- وهل تملين يا طفلتى العزيزة من أى شيء صنعت عروستك ؟

أجابت الفتاة خافضة رأسها :

- لا لا أعلم •

- لقد صنعت بقطع من قماش يا عزيزتى الصغيرة •

وهنا رمى جوليان ماستاكوفتش الطفلَ بنظرة قاسية مرة أخرى وقال له :

- عليك أن تذهب الى رفاقك •

التصق الطفلان أحدهما بالآخر : كان واضحا أنهما لا يريدان أن يفترقا •

سأل جوليان ماستاكوفتش الفتاة بصوت أشد خفوتا :

- وهل تملين لماذا أهديت اليك هذه العروسة ؟

- أعلم •

- لأبك طفلة رقيقة جدا •

قال الوجيه ذلك وقد أصبح اضطرابه غير خاف ثم نظر حواليه وزاد فى خفض صوته الذى أصبح الآن يرتعش :

- هل ستحييني أيتها الطفلة الصغيرة العزيزة اذا جئت أזור
أهلك ؟

وأراد جوليان ماستاكوفتش أن يقبل البنية مرة أخرى ولكن الصبي
الصغير الأحمر حين رأى البنية توشك أن تبكى أمسك بذراعيها وأخذ
ينشج باكيا هو نفسه ، شفقة عليها •

عندئذ احمر وجه صاحبنا الوجيه احمرارا شديدا من فرط الغضب
وصاح يقول للفتى :

- اذهب من هنا أيها الولد الغليظ • اذهب الى رفاقتك •

فصرخت الفتاة تقول من خلال دموعها :

- لا ما ينبغي له أن يذهب • اذهب انت • دعه • دعه •••

سمع جوليان ماستاكوفتش ضجة على الباب فانتفض ثم نهض • ولكن
الصبي الصغير كان أشد ذعرا منه فكان يحاول أن يبلغ الباب ومضى يمشى
فى رفق ملاصقا للجدران وارتأى صاحبنا الوجيه ان من المستحسن أن
يترك الصالون الصغير هو أيضا حتى لا يوقف حوله شبكات • كان وجهه
احمر بلون القرمز فلما نظر الى نفسه فى المرآة عابرا ظهر عليه اضطراب
شديد • أترأه استحي من تمجله ؟ انه وقد أغراه الحساب الذى أجراه
على أصابعه قد تصرف تصرف طفل محاولا مواجهة موضوع أحلامه التى
لن يمكن أن تستحيل الى واقع الا بعد خمس سنين •

وتبعت الرجل المحترم الى قاعة الطعام • فرأيت مشهدا غريبا : رأيت
جوليان ماستاكوفتش محمر الوجه من الغضب يحاول تخويف الصبي
الصغير الذى لا يعرف أين يختبئ •

— ماذا تعمل هنا يا غليظ ؟ امض ... امض ... يا تافه • أسرق
الفاكهة ؟ ها امض يا ساقط ، أقول لك امض •

كان الصبي في حالة رعب شديد فقرر أن يقوم بعمل يائس : حاول
أن يختبئ • تحت المائدة ولكن صاحبنا الذى يلاحقه أخرج من جيبه منديلا
ملويلا واخذ يهزه تحت المائدة •

يجب علينا أن نلاحظ هنا أن جوليان ماستاكوفتش كان رجلا ممتلئ
الجسم من حسن الغذاء مصبوغ الوجه بحمرة زاهية قصير القامة ذا كرش
مدور فوق فخذين سمينتين جدا •

فكان العرق يتصبب من وجهه وكان يلهمث لهاثا قويا ويتحرك بغير
طائل • ثم أصبح كالمسحور من شدة الشعور بالغضب أو ربما من شدة
الشعور بالغيرة ، من يدرى !

ولم أستطع أن أكظم ما بنفسى فانطلقت بضحكة قوية هومرية
وعندئذ انما فطن جوليان ماستاكوفتش الى وجودى فشرع بحرج شديد
ظهر واضحا فى وجهه رغم وقاره لا سيما وأن رب الدار ظهر عبر الباب
المقابل فى تلك اللحظة وخرج الصبي من تحت الطاولة يمسح ركبتيه أما
جوليان ماستاكوفتش فقد أسرع يحمل الى أنفه المنديل الذى كان يمسكه
بيده •

دهش المضيف من رؤيتنا نحن الثلاثة على هذا الوضع الغريب فألقى
علينا نظرة قلقة لكنه وهو الرجل الذى يعرف الحياة سرعان ما انتهرز
الفرصة ليتقرب الى الوجيه • قال وهو يومئ الى الصغير الاحمر :

— هذا هو الصبي الصغير الذى تشرفت بالتحدث اليك فى شأنه •
— ها ... ها ...

كذلك قال جوليان ماستاكوفتش وهو لما يتخلص من انفعاله بعد •

وتابع الآخر يقول بلهجة التوسل :

— انه ابن معلمة الأولاد وهي أرملة فقيرة مات عنها زوجها الذى
كان موظفا شريفا لذلك أرجوك يا جوليان ماستاكوفتش اذا كان فى
وسعك ...

فقاطعه الرجل القصير المدور يقول بحدة :

— لا .. لا .. اعذرني يا فيليب اليكسيفتش • هذا مستحيل • لقد
سألت • لا يوجد مكان • واذا كان ثمة مكان فهناك عشرات يستحقون
أكثر منه • متأسف جدا ... متأسف جدا ...

قال صاحب الدار :

— خسارة ! انه صبي لطيف صموت مطواع •
أجاب جوليان ماستاكوفتش وقد عقف فيه ساخرا :
— بل هو ولد سيئ قدر •
ثم أضاف ينهر الولد قائلا :

— اذهب • ماذا يبقيك هنا ؟ الحق برفاقتك •
ثم لم يستطع أن يضبط نفسه فرماني أنا بنظرة قلق •

فشعرت بأن من المستحيل على أن لأبالي فضحكت فى وجه الرجل
المدور ، فلما رأى ذلك منى التفت الى صاحب الدار يسأله عن هذا الفتى
الغريب من هو •

ودمدا يضع كلمات فيما بينهما ثم خرجا •

وعدت الى الصالون أنها أيضا •

فرأيت الرجل العظيم يحيط به صاحب الدار من جانب وصاحبة الدار من جانب آخر ويتحلق حوله الاباء والامهات وهو يتحدث فى همة وحرارة الى سيدة جاموا به اليها • كانت هذه السيدة ممسكة يد الفتاة الصغيرة التى جرى بينها وبين جوليان ماستاكوفتش قبل ذلك بعشرة دقائق المشهد الذى اسلفنا وصفه • انه الان يطنّب ثناءً على جمال الطفلة وعلى مواهبها النادرة وتربيتها الفذة والأم تسمع كلامه مخضلة العينين بالدموع ورأيت الأب كذلك ترتجف شفتاه بابتهامة يشيع فيها التأثر ورأيت صاحب الدار يعجز عن اخفاء فرحه العظيم بما يسمع من هذا الكلام الجميل وانضم الضيوف أنفسهم الى هذه الحماسة وكانت ألحاف الأطفال قد انقطعت حتى لا تعكر هذا الحديث وشاع جو الاحترام حتى فى هواء الصالة •

وسمعت أم الطفلة وقد تأثرت الى أعماق نفسها بألوان النساء التى كملت لابنتها سمعتها تدعو الرجل العظيم بألفاظ مختارة وجمل أنيقة أن يتفضل بأن يسبغ على أسرته شرف صداقته الثمينة • فأجاب جوليان ماستاكوفتش بانفعال صادق وسرعان ما أخذ جميع المدعوين يزجون النساء بغير حدود لصاحب الدار وصاحبة الدار والتاجر وزوجته وابنتهما ولا سيما لجوليان ماستاكوفتش •

— هل هذا السيد متزوج ؟

كذلك أسرعت ألقى هذا السؤال على واحد من الضيوف كان أقربهم من جوليان ماستاكوفتش •

فاذا بالرجل المدور الذى لا شك أنه سمع سؤالى يلقى على نظرة خبيثة تشغلنى شغلاً •

— لا •

بهذا أجبني جارى مستاء من هذا السؤال أشد الاستياء لأنه يعده
سؤالا فظا ليس على شيء من اللباقة أما أنا فكنت قد أُلقيت هذا السؤال
عامدا عن قصد *

منذ بضعة أيام مررت أمام الكنيسة فلفت انتباهي حشد كبير من
العربات * رأيت جمهرة من الناس متجمعة فى الميدان تتحدث عن زواج
عظيم * كان جو النهار قائما وكان الثلج يهطل ضعيفا * وتملكنى حب
الاستطلاع فدخلت الى المعبد باحثا بنظري عن العريس لأراه : انه رجل
قصير مدور سمين ذو كرش ناتئ ، على صدره أوسعة كثيرة * كان
يسرع الحطى ويتحرك من مكان الى مكان ويصدر الأوامر تلو الأوامر *
وسرت أخيرا فى الجمهور دممة : وصلت العروس *

استعملت كوعى فاتخذت لى مكانا فى الصف الأول ووقع بصرى
على جمال رائع فى فجر ربيع * كانت مع ذلك شاحبة اللون حزينة *
وكانت تطوف بنظرتها الذاهلة على من حولها وتراعى لى أن عينها حراوان
من البكاء * ان ما فى قسعات وجهها من طهارة ونقاء يذكران بجمال
تماثيل القدماء من أهل اليونان ، يضافى على حسنها أبهة لا تغالب * غير
أن شيئا من طفولة ، شيئا من سذاجة لا حدود لها كانت تمازج هذه
القسوة وهذا الحزن وكأنها تستنجد * وسمعت الناس يقولون انها لم
نكد تبلغ السادسة عشرة من عمرها *

حين نظرت الى العريس عرفت فيه صاحبى الطيب الشهم جوليان
ماستاكوفتش الذى لم أره منذ خمس سنين ثم التفت ببصرى نحو الفتاة
و ***

يا رب ! ... لم أحاول أن أرى مزيدا بل هرعت نحو الباب
لأخرج ، تلاحقني دمدمة غامضة تصدر عن الجمهور •

وسمعت أحدهم يقول :

... ان بائنة العروس خمسمائة ألف روبل ... عدا الكسور •

فلما صرت في الشارع قلت لنفسى :

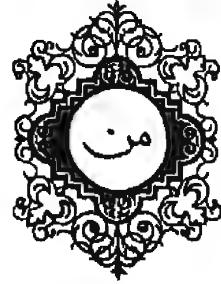
— صدق الحساب •

زوجة آخر، وزوج تحت السرير

١٨٤٨

ظهر القسم الأول من قصة « زوجة آخر وزوج تحت السرير »
Tchoujaia i mouje pod krovatiou في شهر كانون
الثاني (يناير) ١٨٤٨ ، في مجلة « حوليات الوطن » بعنوان
« زوجة آخر » (وهو القسم الذي يتضمن مشهرا في
الشارع) . أما القسم الثاني فكان عنوانه « الزوج القيود » ،
ولم ينشر في تلك المجلة نفسها الا في شهر كانون الأول
١٨٤٨ ، مج ٦١ ، ولكن المؤلف جمع القصة تحت عنوان
واحد في طبعه ١٨٦٠ .

الفصل الأول



فضلك يا سيدي ، هل أستطيع أن أسألك ؟
ارتعد الشاب الذي كان سائرا في الطريق حين
سمع هذا السؤال ، وصدق بشيء من الخوف الى
الشخص الذي يرتدى معطفا من فراء والذي
خاطبه على هذا النحو بسرعة وسط الشارع في الساعة الثامنة من المساء .
وأنتم تعلمون أنه حين يتجه أحد من سكان المدينة بالكلام ، في الشارع ،
الى ساكن آخر من سكانها لا يعرفه ، فإن الثاني لا بد أن يجزع .

ارتعد الشاب اذن ، وألم به ذعر .

وتابع الرجل ذو المعطف كلامه يقول :

— معذرة اذا أزعجتك .. ولكنني .. في الحقيقة .. أجهل ..
لا شك أنك ستغفر لي .. أظن أنك أدركت أن عقلي مضطرب بعض
الاضطراب .

لاحظ الشاب الذي يرتدى سترة ، لاحظ عندئذ أن مخاطبه الذي

يرتدى معطفا كان غريب الهيئة شاذا بعض الشيء . ان وجهه المقطب
شاحب ، وان صوته مرتعش ، وان أفكاره تائهة حتما ، وان أقواله متعثرة
مرتبكة لا تخرج من حلقه الا فى غناء . كان واضحا أنه يصيب عليه
كثيرا أن يتقدم برجاء ذليل الى شخص غريب لعله أدنى منه شأنا ، سواء
من ناحية الرتبة أو من ناحية الطبقة . ولكن كان لا بد له حتما من أن
يتوجه اليه بهذا الرجاء . ولا شك أن هذا الطلب من جانب بورجوازي
يلبس معطفا أنيقا هذه الأناقة ، ويرتدى « فراكا » جميلا هذا الجمال
بلونه الأخضر القاتم الذى تزينه سلسلة من الأوسمة ، لا شك أن هذا
الطلب شيء غير لائق ، وفعل طائش غريب . ولقد كان واضحا أن الرجل
كان غير راض عن نفسه بسبب أناقة رداءه . ومع ذلك سيطر على
اضطرابه وثاب الى صوابه بجهد ارادى ، وقرر أن يختم ، على أكرم نحو
ممكنا ، هذا المشهد الكريه الذى أثاره ، قال :

- اعذرني ... اننى خارج عن طورى ... صحيح أنك
لا تعرفنى .. اغفر لى الزاحى اياك .. لقد عدلت عن رأيى ...

قال ذلك ورفع قبضته محييا ، وابتعد بخطى سريعة .
قال له الآخر :

- ولكن يا سيدى ..

غير أن لابس المعطف كان قد غاب فى الظلام ، تاركاً صاحب السترة
مشدوها مذهولا . فقال هذا لنفسه : يا له من نموذج عجيب !

وزال انشدهاه أخيرا ، وعاد مسيدا نفسه ، وتذكر سبب تجوله ،
فأخذ يذرع الرصيف ذاهبا آيبا ، لا يحول بصره عن باب منزل من المنازل
ذى عدة طوابق . كان الضباب يتكاثف ، فكان الشاب يرتاح الى ذلك

ويسر به ، لأن الضباب سيخفي ذهابه وإيابه عن أعين الناس ، الا عن
عيني حوذى كان مرابطا في ذلك المكان نفسه فقد يراه •
- معذرة ألف مرة !

ارتعد الشاب من جديد • ان مخاطبه هو ذلك الشخص نفسه الذى
يرتدى معطف الفراء • وها هو ذا يبدأ كلامه :

- أعود اليك مرة أخرى •• فمعذرة •• ولكنك •• ولكنك •••
حتما •• رجل صاحب قلب نبيل - لاتحسبني رجلا رفيع المنزلة الاجتماعية
••• ثم انتى أعرف ••• ولكن انظر الى الزاوية الانسانية •• أمامك
يا سيدى رجل مضطر ان يتقدم اليك برجاء ذليل ••

- ما حاجتك ••• اذا كان فى وسعى •••

- لعلك ظننت أننى سأطلب مالا !

كذلك قال الرجل المجهول الغريب • وانعقت شفثاه واصفر وجهه
وأطلق ضحكة هستيرية •

- العفو •

- لا •• واضح أننى أزعجتك •• معذرة •• أنا نفسى حمل ثقيل
على نفسى •• لاحظ انك ترائى فى حالة اختلال •• فى حالة تشبه أن
تكون جنونا فلا تستنتج من ذلك •••

أجاب الفتى وقد نفذ صبره :

- حقا حقا أنت فى هذه الحالة •

ومع ذلك أوما برأسه يشجعه •

– ما أشد ما تتغير الأمور ... شاب فى مِعة الصبا يذكرنى بما أنا عليه ، كأنتى طفل مهميل ... لقد فقدت عقلى حتما • قل لى بصراحة كيف أبدو لك وأنا على هذا الوضع من المذلة والهوان ؟ ••

احمر وجه الشاب ولزم الصمت •

– اسمح لى بسؤال صغير : هل رأيت سيدة ؟ ... ذلك طلبى كله •

هكذا قال أخيرا لابس المعطف بصوت قاطع •

سيدة ؟

– نعم سيدة •

– مرت سيدات كثيرات •

قال الرجل الغريب وهو يتنسم ابتسامة مرة •

– طبعاً ... هأنذا أهدر كثيرا ثم لا أسألك عما أريد ... عفوك ! أردت أن أعرف هل رأيت سيدة ترتدى معطفا من فراء الثعلب وقبعة من المخمل القاتم اللون مع خمار اسود •

– لا لم أر سيدة كهذه ... لا أظن أنتى رأيت سيدة بهذه الأوصاف ...

– معذرة اذن •

أراد الشاب أن يسأل الرجل المجهول ولكن هذا غاب من جديد تاركا مخاطبه كالمصعوق مرة أخرى •

« شيطان يأخذه » ! كذلك قال الشاب بينه وبين نفسه ، وقد ظهر الحق فى وجهه واضحا • ورفع ياقة سترته مقتاظا ، واستأنف سيره على

الرصيف ذاهبا آيبا ، مارا أمام باب المنزل ذى الطوابق الكثيرة ، ولكن على حذر • كان الغضب يحتاج نفسه ، وتساءل :

« لماذا لا تخرج ؟ تو شك الساعة أن تكون الثامنة » • ودقت الساعة الثامنة فى البرج فعلا •

« آه شيطان يأخذك أخيرا » •

— عفوك •••

— عفوك انت أيضا ! لقد اندسست بين ساقى اندساسا أرعبنى •

كذلك قال الشاب وهو يقطب حاجبيه ، واعتذر مرة أخرى •

— ها قد عدت اليك ! لا شك انى أبدو لك قلقا شاذا •

— أرجوك ! كفى كلمات لا فائدة منها ! اشرح ما بنفسك بسرعة •

اننى مازلت أجهل ما تريد •

— أنت مستعجل ؟ اسمع : سأقص عليك كل شيء صادقا مخلصا

دون أقوال لا طائل تحتها ولا فائدة منها • ما العمل ؟ ان الظروف تجمع أحيانا بين أناس تختلف طباعهم اختلافا كبيرا • ولكننى ألاحظ أن نفاذ الصبر يستولى عليك أيها الشاب ••• لذلك فهأنذا ••• على أننى لا أعرف كيف أقول •• اننى أبحث عن سيدة •• اذن لن أخفى شيئا •• ما أريده هو أن أعرف أين ذهبت هذه السيدة ••

أما من هى فما أظن أنك فى حاجة الى معرفة اسمها أيها الشاب •

— طيب •• كمّل •••

— طيب •• ولكن لهجتك معى •• معذرة •• لعلنى أذيت شعورك

حين ناديتك بقولى أيها الشاب • ولكننى لم أكن أنصور أنك •• الخلاصة

إذا كنت تستطيع أن تقدم لى خدمة كبرى فالسألة هى .. انها سيدة ...
أقصد .. سيدة شريفة من أسرة ممتازة تربطنى بها صداقة .. كلفنى
أحدهم .. هل تفهم ؟ .. أنا لست متزوجا .
- ماذا أيضا ؟

- ضع نفسك فى مكانى أيها الشاب . آه ! معذرة هأنذا أعود فأنا ديك
بقولى أيها الشاب ... ان جميع الدقائق ثمينة .. تلك المرأة هى ...
ولكن ألا تستطيع أن تقول لى من يسكن هذا المنزل ؟
- هو .. يسكنه ناس كثير .
- طبعا ! أنت على حق تماما .

كذلك قال السيد الذى يرتدى معطفا وهو يضحك قليلا حفاظا على
المظاهر ، وتابع يقول :

- أنا أحس أننى مرتبك قليلا .. ولكن لماذا تتخذ فى مخاطبتى
هذه اللهجة ؟ أنت ترى اننى أعترف صادقا مخلصا واننى أوغل ...
فاذا كنتَ اسانا متكبرا فقد رأيت من مذلتى ما فيه الكفاية . أنا أتكلم عن
سيدة شريفة السلوك .. أقصد خفيفة .. معذرة .. اننى أوغل ..
كأننى ألقى قصة مما يكتبه الادباء ! هل فهمت ؟ شئ من نوع قصص
بول دو كوك ... والبلاء قد جاء من بول دو كوك هذا . تلك هى
المسألة .

ألقى الشاب نظرة مليئة بالشفقة على الرجل الذى يرتدى معطفا من
فراء والذى كان زائغ العينين تماما يحدق اليه ويتسم له ابتسامة بلهاء
ممسكا حافة معطفه بيد مرتعشة دون سبب .

سأله الشاب وهو يتراجع قليلا الى وراء :

- تريد أن تعرف من يسكن هنا ؟
- قلت ان السكان كثير •
- اعرف أن صوفيا أوستافينا خاصة تسكن هنا •
- نطق الشاب بهذه الكلمات مدمدا وكأنه يشعر بشفقة •
- هل رأيتَ أنك على اطلاع أيها الشاب ؟
- لا ... أبدا .. أؤكد لك اننى لست أعرف شيئا •
- لقد علمتُ من الطباخة منذ هنيهة أنها تأتي الى هنا ، ولكنها لا تأتي الى صوفيا أوستافينا ... انها لا تعرفها •
- لا تعرفها ؟ معذرة اذن •
- طبعا ، ذلك كله لا يعنيك أيها الشاب •
- كان الرجل الغريب يتكلم بسخرية مرة •
- قال الشاب متمتماً :
- اسمع ! أنا أجهل فى الواقع سبب حالتك الراهنة • ولكن أغلب الظن أن امرأة تخونك ! تكلم بوضوح !
- فابتسم الرجل مؤمناً على كلام الشاب •
- قال الفتى :
- الآن سنستطيع أن نتفاهم •
- وبدا كأنه يحرك رأسه بنصف تحية لطيفة •
- لقد أصبتَ مقتلئ ؟ ومع ذلك ذلك أعترف لك .. هذه هى المسألة •

ولكن من ذا الذى لا يقع له هذا ؟ ان تجاوبك قد أثر فى نفسى تأثيراً عميقاً .. أنت تعلم أن هذا الأمر شائع بين الشباب ... أنا لست شاباً طبعاً ... ولكنها العادة ... حياة الزوجة ... الأمر شائع بين الكهول العازبين .

— شائع طبعاً .

— ولكن فى أى شىء أستطيع أن أساعدك ؟

— هبها تتردد الى صوفيا أوستايفنا .. على كل حال أنا لا أعلم بعد على وجه اليقين الى اين ذهبت هذه السيدة ، كل ما أعلمه أنها الان فى هذا المنزل . ولكننى اذ لاحظت ذهابك واياك مراراً بينما كنت انا اذرع الرصيف الثانى ذهاباً واياباً أيضاً .. قلت لنفسى .. الخلاصة .. اننى أنتظر هذه السيدة .. وأنا على يقين انها هنا ، وأود لو ألقاها فأشرح لها سوء هذا السلوك وحقارته .. أنت تفهمنى ، أليس كذلك ؟

— ثم ؟

— أنا لا أفعل هذا من أجل نفسى .. لا يذهبن بك الظن الى ان .. هى زوجة رجل آخر .. وزوجها ينتظر هناك على جسر فوزنيسسكى .. ان رغبته هى أن يقبض عليها متلبسة بالجرم ولكنه لا يعزم أمره وهو ما يزال لا يصدق ، كسائر الأزواج على كل حال . (وهنا ابتسم الرجل صاحب المعطف ابتسامة خفيفة) وأنا صديقه وأنا رجل محترم ولا يمكن أن أكون الشخص الذى تظن

— طبعاً .. طبعاً .. وبعد ؟ أنا أصغى اليك

— اننى أراقبها بغير انقطاع ، أنا مكلف بهذا ! يا للزوج المسكين !

•• ولكننى اعلم أن السيدة الشابة مأكرة • ان كتب بول دو كوك *
موجودة دائما تحت مخدتها • وأنا واثق انها ستجد مهربا ما فتسل خفية
دون أن يراها أحد • أعترف لك أن الطباخة هى التى أبلغتني عن زيارتها
هنا • لقد وثبت كالمجنون حين علمت ذلك • أريد ان أقبض عليها • وأنا
أشتبه فيها منذ زمن طويل • لذلك أردت أن أسألك ••• كنت أنت تسير
هنا • هل أنت •• هل أنت •• كيف أقول ؟

— ولكن ماذا تريد أخيراً ؟

— نعم •• اننى لم أشرف بمعرفتك ، ولا أتجرأ أن أكون كثير
الفضول • من أنت ؟ لتعارف على كل حال •• اذا سمحت •• هى فرصة
ممتعة ! •••

قال الرجل ذلك منفعلًا انفعالا شديدا ثم صافح الشاب مصافحة
حارة وأضاف يقول :

— كان ينبغي أن أفعل هذا منذ البداية • ولكننى نسيت اللباقة •

وبينما كان يقول هذا الكلام كان يلقي نظرات قلقة حوله ويمضى
يمنة ويسرة بخطى قصيرة ويمسك يد محدثه فى بعض اللحظات كأنسان
ضائع •

وتابع يقول :

— أردت أن أتجه اليك كما يتجه صديق الى صديقه ••• اغفر لى
هذه الحرية التى سمحت بها لنفسى ••• وددت لو أرجوك أن تسير فى
الجهة الأخرى ••• فى جهة الشارع الصغير •• هنالك مدخل الخدمة ••
سأتجول أنا هنا حول المدخل الرئيسى وبذلك لن تستطيع أن تفلت منا •
كنت أخشى أن لا أستطيع القبض عليها وحدى •• وأنا لا أريد أن

أخطئها • فمتى رأيتهما فاستوقفها ونادى •• أوه ! أنا مجنون • الان فقط
أدرك حماقة هذا الاقتراح ، وأدرك انه غير لائق •

— لا •• لك ما تشاء ••

— سامحنى •• اننى خارج عن طورى ، تائه كما لم أكن كذلك فى
يوم قط • اننى أحسن كأننى أمام قضاء • وهأنذا أعترف لك صريحا
صادقا أيها الشاب بأننى ظننتك فى أول الامر عشيقها •

— بتعبير آخر بسيط •• انت تريد أن تعرف ماذا أفعل هنا !

— أيها السيد المحترم ! سيدى العزيز ! حاشا أن أعتقد أنك
عشيقة •• أنا أرفض أن أوسخ نفسى بمثل هذا الشك ، ولكن •• هل
تحلف لى بأنك لست عشيقها ؟

— ما دمت تريد ذلك فأنا أحلف لك اننى العشيق ، ولكننى لست
عشيق زوجتك ••• ولو كنت عشيقها لما رأيته فى الشارع ، ولكنك
الآن معها •

— زوجتى ! من قال لك انها زوجتى أيها الشاب ؟ أنا عازب • أقصد
اننى أنا العشيق •

— لقد قلت لى ان زوجها ينتظر تحت جسر فورتسنسكى •

— طبعاً •• آه •• اننى أخلط كل شىء ، هنالك روابط أخرى •••
ثم يجب أن تعترف أيها الشاب أن شيئاً من خفة الطبع وضعف الارادة ،
أقصد •••

— طيب •• طيب •• أكمل •

— بتعبير آخر أنا لست زوجها أبداً •

— أصدقك • ولكن اذا شئت الصراحة ، فانى أتيتك الآن عن
عزمك ، لأننى أريد أن أهدأ أنا نفسى • ومن أجل هذا انما ترانى صريحا
معك هذه الصراحة كلها على أى حال • لقد ضايقتنى • انك تخرجنى •
أعدك بأن أناديك ، وأتوسل اليك مع ذلك أن تترك لى هذا المكان ، وأن
تبتعد • انا نفسى أنتظر •

— اتفقنا • لك ما تشاء • سوف أبتعد ، مراعى نفاذ الصبر فى قلبك
الملتهب • أنا أفهم هذا أيها الشاب • ما أكثر ما أفهمك الآن !

— طيب • • • طيب

— الى اللقاء • • • ومعذرة أيها الشاب على كل حال • • • هناك كلمة
أخيرة • • • لا أعرف كيف أقولها • • • احلف لى مرة أخرى بشرفك انك
لست المشيق •

— آه يا رب •

— سؤال أخير • هل تعرف اسم زوج عشيقتك ، أقصد زوج السيدة
التي تحبها •

— أعرفه طبعاً ، وهو ليس اسمك ، حسبك هذا •

— فكيف عرفت اسمى ؟

— اسمع ! دعنى وشأنى ! انك تضيع وقتك ! سيتسع وقتها للهرب
الف مرة • ماذا دهاك ؟ ان السيدة التي تبحث عنها ترتدى معطفاً من فراء
الثعلب ، وقبعة من مخمل • أما المرأة التي أنتظرها فهي ترتدى معطفاً ذا
مربعات وقبعة من قطيفة زرقاء • ماذا تريد أكثر من ذلك ؟ ماذا تريد
أيضاً ؟

— قبعة من قطيفة زرقاء ؟ انها ترتدى هى أيضاً معطفاً ذا مربعات
وقبعة زرقاء •

كذلك صاح الرجل الذى كان مصراً على أن لا يُعْتَرَقَ الآخر •
وعاد أدراجه •

- شيطان يأخذك ! أأنت تجهل اذن أن هذا يمكن أن يقع ؟ ولكن
لماذا احتاج ؟ ان صاحبتى لا تمر بهذا المكان •

- أين صاحبتك اذن ؟

- ما شأنك انت ؟

- اعترف لك بأننى ما زلت ...

- ألا تستحي ؟ ان لصاحبتى أصدقاء هنا فى الطابق الثانى المطل
على الشارع .. هل يجب علىّ أن أطلعك على أسماء الناس ؟

- غريب ! أنا أيضاً لى أصدقاء فى الطابق الثانى تطل نوافذ بيتهم على
الشارع .. انه جنرال •

- جنرال ؟

- جنرال • ولماذا أخفى عنك ؟ انه الجنرال بولو فتشين •

- ها .. طيب • ليس أصحابى أصحابك .. هو ! شيطان يأخذهم
جميعا •

- ليسوا هم أنفسهم ؟

- لا •

وصمت الرجلان وحدث كل منهما الى الآخر مذهولاً •

- لماذا تنظر الىّ هكذا ؟

كذلك صاح الشاب متناظراً وهو يحاول أن يهز حالة الحلم والذهول
التي كان فيها •

اضطرب الآخر •

- أعترف •••

- لا •• هذه المرة اسمع لى •• اسمع لى •• يجب عليك أخيراً
أن تنظر الى الامور نظرة عاقلة • فضيتنا مشتركة ••• اشرح لى من هم
الذين تعرفهم هناك ؟

- تقصد من هم الأصدقاء ؟

- نعم الأصدقاء •

- أنت ترى اننى أحس من عينيك أننى حزرت •

- لا •• لا •• أأنت أعمى ؟ أما هنا بالقرب منك ولست بالقرب
منها • ماذا يهمنى على كل حال • تكلم ••• أو لا تقل شيئاً ••• افعل
ما يحلو لك •

دار الفتى مرتين على كعبيه غاضباً وهز ذراعه •

- أرجوك ! ما هذا بشىء ذى بال • سأقص عليك كل شىء بصدق
وأمانة • فى أول الامر كانت زوجتى تجىء وحدها الى هنا • انها قريبتهم •
ولم يكن لدى أية شبهة • وأمس التقيت بصاحب المعالي الجنرال فأبلغنى
انه غير مسكنه منذ ثلاث أسابيع و ••• لا ••• انها ليست زوجتى ، بل
زوجة شخص آخر ••• زوجة الشخص الذى ينتظر على جسر
فونسنسكى •• هذه السيدة قالت أول أمس انها ذاهبة اليهم فى هذا المسكن
نفسه • أما الطباخة فقد حكّت لى ان شاباً اسمه بوبينستين قد استأجر
المسكن من صاحب المعالي الجنرال •

- يا للاسم اللعين !

- سيدى العزيز .. أنا خائف ... أنا خائف ..

- ما شأنى بمخاوفك ؟ اسمع ! هذا شخص قد مر من هناك .

- أين ؟ أين ؟ ما عليك الا أن تصيح : ايفان أندريفتش ، فأهرع
مسرعا .

- طيب اتفقنا . يا للاسم اللعين !

صاح الشاب :

- ايفان اندريفتش .

- ها آنذا ! هه ... من ؟ ماذا ؟ ...

كذلك هتف ايفان اندريفتش وهو يعود أدراجه لاهتا :

- لا ، لا شيء وانما أردت أن أعرف ما اسم هذه السيدة ؟

- جلالة ...

- جلافيرا ؟

- لا ليس هكذا تماما . اعذرني ... لا أستطيع أن أقول لك
اسمها .

شعب وجه السيد المحترم شحوبا شديداً وهو ينطق بهذه
الكلمات .

- طبعاً ليس اسمها جلافيرا ... أنا أعلم ان اسمها ليس جلافيرا .
والاخرى ليس اسمها جلافيرا أيضا . ولكن من الذى معها ؟

- أين ؟

- فوق .. شيطان يأخذك •

قال الشاب ذلك وقد جن جنونه حنقاً فهو لا يطبق صبراً على
الاستقرار فى مكانه •

- كيف عرفت انها تسمى جلانفيرا ؟

- وبعد ؟ ألن أخلص منك اذن أبداً ؟ ألم تقل لى منذ هنيهة ان
صاحبك ليس اسمها جلانفيرا ؟

- لهجتك يا سيدى العزيز ...

- دعك من لهجتى الآن • أهى زوجتك أم لا ؟

- أنا لست متزوجاً • على أننى لا أسمع لنفسى بما تسمع لنفسك
به من اهانة رجل محترم ومن ذكر اسم الشيطان فى مخاطبة انسان مؤدب
مهذب جدير بكل احترام • انك ما تنفك تكرر قولك يا للاسم اللعين ..
شيطان يأخذك .. شيطان يأخذك •

- هذا أنا ! افهمنى جيداً ! شيطان يأخذك .. أعود فأقولها •

- الحق يعميك .. وهأنذا أسكت ... رباه ... ما هذا ؟ ماذا
أسمع ؟

- أين ؟

سُمت فى تلك اللحظة ضجة وقهقهات • هما فتاتان تهبطان درجات
المدخل • هرع الرجلان مقبلين عليهما •

هتفت الفتاتان متعجبتين : « لا ! انظرى اليهما ! ماذا تريدان ؟ »

— ماذا دهالك ؟

— ليستا هما •

— ها ... حسبتماننا غيرنا ! يا حوذى !

— الى أين أنت ذاهبة يا آمنة ؟

— الى بوكروف •• اصعدى يا آنموشكا ، سأوصلك •••

— انتظرى •• سأجلس فى هذه الجهة • هيا يا حوذى •• وحاذرا

أسرع ما استطعت الاسراع •

مضى الحوذى •

— من أين كاتتا آتيتين ؟

— ما رأيك فى أن تصعد ؟

— الى أين ؟

— الى بيت بويينيسين •

— لا •• لا يجب ••

— لماذا ؟

— كان يمكن أن أصعد ، ولكنها قادرة على أن تبرىء نفسها •••

على أن تلف وتدور ••• اننى أعرفها ! لسوف تؤكد أنها جاءت الى هنا

عامدةً من أجل أن تضبطنى مع أخرى •• فأكون فى آخر الأمر أنا

المذنب • ولكن لا أدري •• ما رأيك أن تصعد أنت الى الجنرال ؟

— ولكنه انتقل من هذا المنزل •

- هذا لا يهم ! ألا تفهم ؟ لقد ذهبت هي الى هناك • فما عليك الا أن تفعل مثلها ، هل فهمت ؟ اخترع •• كأنك تجهل أن الجنرال انتقل من هذا المنزل •• وكأنك جئت تبحث عن زوجتك فى منزله ، الخ •••
- ثم ؟ اننى لا أعرف من الذى يجب أن أضبطه عند بوينتسين •••
ليس لدى أية فكرة عن هذا الشخص الغب •••

- طيب ••• ولكن أية فائدة تجنيها من ضبط المجرم متلبساً بالجريمة ؟ هلاً فكرت فى هذا الامر •

ما هذا الذى تقوله يا رجل ؟ ما هذا الذى تقوله ؟ دعنا •• دعنا •• عجيب ! أتراك لا تخجل ولا تستحى أيها الرجل المضحك الغبى ؟

- لست أفهم حرصك على ••• أأنت تريد أن تعلم ؟

- أعلم ماذا ؟ ماذا ؟ اذهب عني •• لا أريد أن أراك •• هياً اغرب عن وجهى ، اذهب عني ، دعنى وشأنى !

- أيها السيد العزيز •• انك تكاد تنسى نفسك •

كذلك صاح لابس معطف الفراء وقد تملكه كرب شديد •

قال الشاب وهو يركز أسنانه ويتقدم حائفاً نحو لابس المعطف :

- وهبنى أنسى نفسى ••• ماذا يهمك هذا ؟ وأمام من أنسى نفسى ؟

نطق الشاب بهذا السؤال الاخير ممولاً وهو يرفع قبضتى يديه •

- ولكن اسمح لى يا سيدى العزيز •

- من أنت ؟ أمام من أنسى نفسى ؟ ما اسمك ؟

- لماذا يجب على أن أجيبك أيها الشاب ؟ ما أنت فى حاجة الى

معرفة اسمى ... لا أستطيع أن أذكر لك اسمى ... هيّا ... افعل
ما يحلو لك ... أنا مستعد لكل شيء .. ولكن ثق أننى أستحق أن أخطب
مخاطبة أكثر أدباً وتهذيباً • ما ينبغي للمرء أن يفقد هدوء أعصابه ، حتى
ولو كان فى ذروة الألم • انك ما تزال شاباً !

- ماذا يهمنى أن تكون أنت عجوزاً ! أنت أول عجوز فى هذه
الحياة ؟ اذهب عنى ! ما الذى يجعلك تجرى هنا ؟

- أنا لست عجوزاً أبداً ! أين ترى أننى عجوز ؟ لعلك ظننت ذلك
من رتبتى ؟ ثم اننى لا أجرى •

- هذا واضح • ولكن هيا اذهب من هنا !

- لا لن أتركك • ليس من حقك أن تمنعنى من البقاء معك • ان
لى صلة بالقضية مثلك • اننى معك أ ...

- اخفض صوتك ... اخفض صوتك ... اسكت !

اجتاز الرجلان درجات المدخل ، وصعدا الى الطابق الثالث • كان
السلم مظلماً •

- انتظر ! هل معك ثقاب ؟

- ثقاب ؟ أى ثقاب ؟

- هل تدخن سيجارا ؟

- طبعاً ... معى سيجار ، معى سيجار ... انظر ! انتظر ...

اضطرب لابس المعطف •

- آ ... يا للغف ... هذا هو الباب فيما أظن ...

— هذا •• هذا •• هذا ••

— هذا هذا •• لماذا تقول ؟ اخفض صوتك !

— يا سيدى العزيز •• على مضض انما أ ••••• انك لشخص وقع وكفى •

اشتعل عود الثقاب •

— وصلنا • هذه هى البطاقة النحاسية • أقرأ عليها اسم بوينستين •
هل رأيت ؟ بوينستين ؟

— رأيت ، رأيت •

— اخفض صوتك • هيّا بنا • لقد انطفأ •
انطفأ ؟

— هل يجب أن نقرع الباب ؟

— طبعاً يجب •

كذلك قال لابس المعطف •

— اقرع الباب •

— لا •• لماذا أنا ؟ اقرع انت •

— جيان !

— أنت الجيان !

— هلاًّ ذهبت عنى !

— أكاد أندم على أننى أفضيت اليك بسر •• أنت ••

— أنا ؟ قل : أنا ؟

- أنت استغللت حيرتى واضطرابى *** لاحظت حالة القلق الشديد
الذى أنا فيها ***

- هلاً سكت أخيراً ! أرى أن الأمر كله سخيـف وكفى •

- ماذا تصنع هنا اذن ؟

- وأنت ، ماذا تصنع أيضاً ؟

- يا لهذه الأخلاق !

كذلك قال لابس المعطف •

- أمثلك يتكلم عن الاخلاق ؟ أنت لا تستطيع أن ***

- ولكن هذا الأمر غير أخلاقى •

- أى أمر هو غير أخلاقى ؟

- فى رأيك أن كل زوج تخونه امرأته فهو أبله •

- أأنت اذن زوجها ؟ ألم تقل ان زوجها ينتظر على جسر

فوزنسكى ؟ ما لك ولهذا الموضوع اذن ؟ لماذا تحشر نفسك فيه ؟

- أظن أنك أنت الشقيق •

- اسمع • اذا ظلمت تعزف على هذا الوتر ، فسأجذبني مضطرا لأن

أعترف بأنك أنت الأبله •

- تقصد اننى أنا الزوج •

كذلك قال لابس المعطف وهو يتراجع كمن تلقى صفعه •

- هس •• اسكت ! •• هل تسمع ؟

– انها هى •

– لا •

– الظلام شديد •

وساد صمت شامل ، ثم سُئمت ضجة صادرة من مسكن
بوينستين •

قال لابس المعطف هامساً :

– لماذا نهين نفسنا يا سيدى العزيز ؟

– ولكن أألس أنت الذى أردت ذلك ، أألس أنت الذى أوقمت
نفسك يا غبى ؟

– أنت حمستنى •

– اسكت •

– انك ما زلت شاباً جداً ، اعترف بذلك •

– هلاً سكت !

– لا أستطيع الا أن أوافقك : الزوج فى هذه الحالة أبله •

– سوف تسكت أم لا ؟

– ولكن لماذا هذا الاستهزاء الشرير بزواج تيمس ؟

– انها هى •

فى تلك اللحظة انقطعت الضجة فى المسكن •

– هى ؟

- هي ، هي ، هي • ولكن لماذا تضطرب أنت ؟ انها ليست زوجتك •

قال لابس المعطف مدممًا منتحياً :

- سيدى العزيز ، سيدى العزيز •• طبعاً انا فى حالة غير عادية ••
لقد لاحظت مذلتى بما فيه الكفاية • الان ليل ، ولكن غدا ••• على اننا
قد لا نلتقى غدا ، رغم اننى لا اخشى ان نلتقى •• ولكن الزوج ليس أنا
على كل حال ، الزوج صديقى الذى ينتظر على جسر فورنسكى •••
نعم ، هو الزوج • انها زوجته هو ، انها زوجة رجل آخر غيرى • رجل
تميس ، أؤكد لك • اننى اعرفه حق المعرفة • واذا شئت رويت لك كل
شئ • أنا صديقه كما أمكنك أن تلاحظ ذلك • كم من مرة قلت له :
لماذا تتزوج يا عزيزى ؟ ان لك مركزاً ، وأنت فى يسر ، وأنت رجل
محترم ، ولسوف تعرض كل شئ للخطر فى سبيل امرأة مغناج ! أليس
كذلك ؟ فكان يجيبني بقوله : بل سوف أتزوج • فلا شئ كسعادة الأسرة
•• فانظر الى سعادة الأسرة التى كان يحدثني عنها ! بالأمس كان هو
الذى ينبت للأزواج قروناً ••• واليوم يكال له الصاع صاعين ••• معذرة
اذا قلت هذا ••• ولكن الضرورة هى التى انتزعت منى هذا الشرح •
انه شقى • انه يشرب الصاب الآن •••

ما كاد الرجل يفرغ من هذا الكلام حتى فاضت عيناه بالدموع • ولم
تكن ذلك تمثيلاً ! ••

- نعم ••• شيطان يأخذكم جميعاً •• ما أكثر هؤلاء الحمقى • ولكن
أنت ، من أنت ؟

كان الفتى يصرفُ بأسنانه حنفاً وهو يلقي هذا السؤال •

- هيّا اعترف بنفسك بعد هذا كله •

... لقد كنت صريحا ونبيلا معك ... على حين أن طريقتك ...

... ما اسم أسرتك ؟

... لماذا تريد أن تعرفه ؟

... أوه !

... لا يمكننى أن أذكر لك اسم أسرتى ...

قال الفتى :

... هل تعرف شابين ؟ شابين !!

... ماذا ؟ أى شابين ؟

كان يبدو أن الفتى يستهزئ بالسيد لابس المعطف •

... هل فهمت ؟

أجاب لابس المعطف مذهولاً :

... كلا • • كلا • • لم أفهم شيئاً البتة • هو رجل محترم على كل

حال • اننى أغفر لك قلة أدبك التى مردها الى عذاب النيرة •

... انه رجل خدّاع ، انه انسان مرتشٍ ، هو سارق لص • وسوف

يُحكم عليه قريباً •

قال السيد لابس المعطف وقد اصفر وجهه اصفرارا شديدا :

... عفوك • انك لا تعرفه أبداً • الآن أرى أنك تجهله تماماً •

... صحيح أنتى لم أره يوماً • ولكننى أعرف أناساً قريبين منه ...

هذا الرجل الذى هو ينبوع ...

- ينبوع أى شيء يا سيدى العزيز ؟ انتى مضطرب أشد الاضطراب
أنت ترى ذلك ♦

- انه أبله ، غيور ، عاجز عن مراقبة امرأته | هذا هو ... اذا
شئت أن تعرف ذلك ♦

- اسمح لى أن أقول لك انك مخطئ أشد الخطأ أيها الشاب ♦

- آه ... ♦

- أوه ... ♦

وجاءت ضجة من مسكن بوينستين ♦ وكان الباب قد أخذ يُفتح ♦
وسُمت أصوات ♦

قال لابس المعطف :

- لا .. ليست هى ♦ الآن عرفت كل شيء ♦ ليست هى ♦

وكان ممتقع الوجه كأنه ميت ♦

- اسكت ♦

وأسند الشاب ظهره الى الحائط ♦

- أنا منصرف يا سيدى ♦ انها ليست هى ♦ أنا سعيد جداً ♦

- عظيم ♦ امض ♦ امض ♦ انصرف ♦

- لماذا تبقى أنت ؟

- وأنت ؟

وفتح الباب ، فلم يطلق لابس المعطف صبراً ، ولم يستطع أن يسيطر
على نفسه ، فهرول يهبط السلم ♦

ومرّت أمام الشاب سيدة يصحبها رجل ، فشعر الشاب بقلق يخفق قلبه .. سمع صوت المرأة التي يعرفها ، ثم سمع صوتاً أجش ، صوت رجل شعر شعوراً غامضاً بأنه يعرفه •

قال الصوت الأجش :

- لا ضير .. سوف آبر بأن تتقدم العربى •

- حسن جداً •

- ليس المكان بعيد .. هى لحظة فحسب •

وبقيت السيدة وحيدة •

هتف الشاب لابس السترة يقول وهو يمسك يد السيدة :

- جلافيرا ! أين عهدك ؟

- آه .. ولكن من أنت ؟ لملك تفجوروف ! ماذا أنت صانع هنا ؟

- مع من كنت ؟

- مع زوجى .. هياً اذهب ، انصرف ... سوف يرجع حالا ..

كنا عند .. عند أسرة بولوفستين • اذهب ، انصرف ، ناشدتك الله ...

امض ...

- لقد انتقلت أسرة بولوفستين من هذا المنزل منذ ثلاثة أسابيع •

أنا على علم بكل شىء •

- آه ...

وأسرعت السيدة تنزل نحو المدخل • فأدركها الشاب •

قالت السيدة :

- من أنباك بذلك ؟

- زوجك يا سيدتى ، ايفان أندريفتش ، هو الآن هنا ، انه مائل
أمامك يا سيدتى ♦♦

وكان ايفان اندريفتش قرب درجات المدخل حقا ♦

هتف السيد لابس المعطف ، وهو يهرع نحوها متظاهرا بالفرح :

- أوه ! هذه أنت يا جلافيرا ♦ رباه ! يا لها من مصادفة ! كنت عند
أسرة بولوفستين ، تصورى ♦♦♦ أنت تعلمين أنهم يسكنون الآن قرب
جسر اسماعيلوفسكى ♦ قلت لك ذلك ♦ ألا تتذكرين ؟ وهناك استأجرت
عربة ، فثارت ثائرة الخيل ، فأسرعت تعدو عدواً مجنوناً ، فتحطمت
العربة ♦♦♦ فسقطت على مسافة مائة متر من هذا المكان ♦♦♦ وقد أوقف
الحوذى ♦ وكنت خارجاً عن طورى ♦ ومن حسن الحظ أن السيد
تفجوروف ♦♦♦

- كيف ؟

كان الشاب لابس 'السترة أقرب' الى تمثال صخر منه الى السيد
تفجوروف ♦

- رآنى السيد تفجوروف هنا وتفضل باصطحابى ♦ ولكنك الآن
موجودة ، ولم يبق علىّ الا أن أعبر لك عن شكرى وامتنانى يا ايفان
ايلتش ♦

مدت السيدة يدها للفتى المشدوه ، وصافحت يده ، بل وقرصتها ♦

- يا سيد تفجوروف ، لقد سبق أن سررنا بلقائك فى الحفلة

الراقصة التى أقامتها أسرة سكورلوبوف • أظن اننى حكيت لك ذلك ،
أترك نسيته يا حبيبى ؟

تمتم الرجل الذى خاطبته السيدة بقولها : يا حبيبى ، نعم يجب :
ـ طبعاً ما نسيت ••• اذا صدقت ذاكرتى ••• سعيد جداً بمعرفتك
•• سعيد جداً •

قال ذلك وصافح يد السيد تفوجوروف •
ـ من معك ؟ ما معنى هذا ؟ اننى أسمع •••
لقد سُمع الصوت الأجنس •
وهذا رجل طويل القامة جداً يقف أمام الثلاثة ، وهذا هو يضع
نظارة على عينه ويحدثك الى الزوج •
تمتمت السيدة تقول :

ـ أوه ••• سيد بوبينستين ! من أين أنت آت ؟ يا لها من مصادفة !
تصور أن الخيل كادت تقتلنى منذ دقيقة ••• أقدم لك زوجى ، جان !
ـ السيد بوبينستين ••• فى الحفلة الراقصة عند أسرة كاربوف •
ـ سعيد جداً ••• ولكن يا صديقتى سأخذ عربة على الفور •
ـ خذ عربة يا جان • ما زلت أرتعش الى الآن • أخشى أن أمرض •
اليوم ، فى الحفلة الراقصة التكرية (قالت ذلك مخاطبة تفوجوروف) •
الى اللقاء ، الى اللقاء يا سيد بوبينستين ! لعلنا نلتقى غدا فى حفلة أسرة
كاربوف ••

ـ لا •• معذرة •• لن أكون هنالك غداً ، ما دامت الأمور تعجزى
هذا المجرى اليوم • غداً •

وجمجم السيد بويتسين يقول كلمات غير مفهومة ، وحيًا وهو يحدث صريخاً بحذائيه ، وركب عربته ، وانصرف . اقتربت المركبة : فجلست السيدة . توقف لابس المعطف ، وبدا كأنه لا ينسوى التحرك ، وشخص ببصره الى لابس السترة مصعوقاً . أما هذا الاخير فقد ابتسم ابتسامة أقرب الى البلاءة .

— لا أردى ...

— معذرة ... سعيد بمعرفتك .

كذلك قال الشاب محيياً .

— سعيد كل السعادة .

— ولكن ألم تفقد أحد حذائك المطاطين ؟

— أنا ؟ فعلاً ... أشكرك ، شكراً ... فى نيتى شراء غيرهما منذ

مدة طويلة .

قال الشاب مبرراً عن أشد التعلق :

— القدمان تمرقان دائماً فى أحذية المطاط هذه !

— ألا تستطيع يا جان أن تسرع قليلاً .

— حقاً ... القدمان تمرقان . فوراً ، حالاً ، يا عزيزتى . حديث

شائق . تمرقان فعلاً ، كما لاحظت . ولكننى .. معذرة .

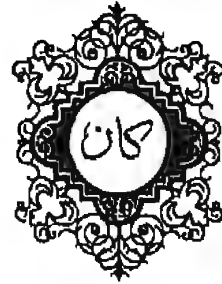
— العفو !

— سعيد جداً بمعرفتك ...

ركب السيد لابس المعطف المركبة ... وتحركت المركبة . وبقي

الشاب كالتسمّر فى مكانه ، يرشق العربى بنظرات مذهولة .

الفصل الثاني



هنالك حفلة في مساء الغد تقدمها الأوبرا الإيطالية *
دخل ايفان أندريفتش الى القاعة دخول قبلة •
لم يكن في يوم من الأيام شغوقاً بالموسيقى هذا
الشغف • كان من عادة ايفان أندريفتش أن يغط

في النوم ساعة أو ساعتين في حفلات الأوبرا الإيطالية • حتى لقد كان
يقول لأصدقائه أحياناً ان النوم أثناء الفناء ممتع لذيد • غير أن أشهراً طويلة
قد انقضت على آخر موسم ، والآن ، وا أسفاه ! ان ايفان أندريفتش
لا يستطيع النوم حتى في بيته • ومع ذلك فقد دخل القاعة الخاصة
بالمشاهدين دخول قبلة • حتى أن الفتاة التي توصل الداخلين الى مقاعدهم
ارتعشت خائفة حين رأيته ، بل انها ألقت نظرة ثابتة على أحد جيوبه وهي
على مثل البقين من أنها ستري قبضة خنجر • يجب أن نذكر في هذه
المناسبة أنه كان قد تشكل حزبان يتعصب كل منهما لمغنية يعدها المغنية
الأولى ، فالأول الحزب الاول فهو حزب البورييسين ، وأما الحزب الثاني
فهو حزب الفريزولنين • وكان الحزبان يبلغان من حب الموسيقى أن

الفتيات اللواتي يوصلن الداخلين الى مقاعدهم أصبحن يخشين وقوع ما لا تحمد عقباه بين افراد الحزبين حول كل ما يتصل باحدى المغنيتين جمالاً وسموا . لذلك تذكرت الفتاة حين رأت هذه الحماسة كلها لدى رجل أشيب الشعر مشرف على الخمسين من عمره ، أصلع جاد ، تذكرت رغم ادارتها الكلمات الرفيعة التي نطق بها هاملت * ، الامير الدنمركى قائلاً :

واذا الكهولة أرعدت

ما القول فى عهد الشباب !... .

قلت ان الفتاة ألقت نظرة مواربة على الجيب الجانبي من رداء الرجل وهى تخشى أن يقع بصرها على خنجر . ولكن لم يكن فى الجيب الا محفظة ، ولا شيء عداها .

حين وثب ايفان آندريفتش داخلاً الى المسرح ، شمل جميع شرفات البلكون الثانى بنظرة سريعة ... ويا للهول ! لقد أحس أن قلبه يوشك أن يتوقف عن الخفقان : كانت زوجته هنالك . وكان مكانها فى احدى الشرفات ، مع الجنرال بولوفتسين وامراته وأختها ، وكذلك مساعد الجنرال ، وهو شاب شاطر جداً . وكان هناك رجل مدنى أيضاً ... ركن ايفان آندريفتش كل انتباهه ، وكل حدة بصره . ولكن الرجل المدنى لم يلبث أن اختبأ وراء مساعد الجنرال ، وليث فى الظلام .

انها هناك ، مع أنها كانت صرخت بأنها لن تجىء .

هذا المكر الذى أصبح يظهر لدى جلافيرا منذ زمن ، كان يعذب ايفان آندريفتش . وكان هذا الشاب المدنى قد أخذ يلقي ايفان آندريفتش الى هوة الكرب والكمد . وتهالك ايفان آندريفتش على أحد المقاعد طائش اللب .

يجب أن نذكر أن مقعد ايفان أندريفتش كان يقع تحت ينسوار ،
وأن الشرفة اللعينة التي في البلكون الثاني كانت فوق هذا الينوار ؛ بحيث
أن المسكين كان لا يستطيع أن يرى شيئا قط مما يجرى فوق رأسه .
لذلك كان في ذروة القلق والغم ، وكان يغطي غليان الماء في السماور .
ظل غائبا عن وعيه شارد اللب طوال الفصل الاول ، عاجزا عن سماع أى
نعمة . يقال ان للموسيقى ميزة هي أن المرء يستطيع أن يجعل التأثيرات
الموسيقية منسجمة مع أى احساس يحسه . فمن كان فرحا ادرك في
اصوات الموسيقى فرحا ، ومن كان حزينا ادرك فيها حزنا وآلاما .
فكذلك كانت الموسيقى في اذان ايفان اندريفتش زوابع واعاصير تصصف .
ومن تمام الشقاء ان صرخات رهيبية كانت ترتفع امام ايفان اندريفتش
ووراءه وعلى جانبيه ، وكانت هذه الصرخات من القوة بحيث ان ايفان
اندريفتش احس بقلبه يوشك ان ينفجر . وانهى الفصل اخيرا . ولكن
في اللحظة التي اسدلت فيها الستارة ، وقع لبطلنا حادث لا يستطيع أى
قلم ان يصفه .

انه ليحدث في كثير من الاحيان أن تسقط ورقة برنامج الحفلة من
البلكونات . فاذا كانت التمثيلية مملة ، وكان المشاهدون يتشاءمون ، فان
سقوط الورقة يحدث لهم لذّة كبيرة ، فاذا هم يتابعون في كثير من الشوق
والاهتمام تطايرها الهين وترنحها المترجّع هابطة من أعلى الى المقاعد .
ولا بد لهذه الورقة أن تسقط حتماً على جمجمة لم تكن تتوقع ذلك .
وانه لمن الشائق حقاً أن يلاحظ المرء كيف تحمر هذه الجمجمة عندئذ ،
لأنها تحمر حقاً . لذلك فأننى أخاف دائما من المناظير التي تضعها السيدات
في كثير من الأحيان على حافة الشرفات ، ويتراعى لى أنها تهم أن تسقط
أيضا من لحظة الى أخرى على رأس من الرموس . ولكن هأنذا أتحدث عن
حوادث مفعجة ليس هذا أو ان الحديث عنها . لذلك أنصح بها لقصص

الجرائد التي تأخذ على عاتقها ان تجنبا جميع الاكاذيب ، وتقينا من جميع الشرور ، وتبعدنا عن جميع ضروب السام الذي يستبد بنا في بيوتنا •

ولكن الحادث الذي وقع لصاحبنا ايفان اندريفتش لم يسبق أن وصف في اى مكان • ان الشيء الذي سقط على راسه الاصلع لم يكن ورقة برنامج الحفلة • وانى لا اعترف بأننى أشعر بالحجل - أليس الأمر مخجلاً حقاً - حين أذكر ان راسه المحترم كان عارياً ، أى يكاد يكون خالياً من الشعر كل الخلو • وعلى هذا الرأس ، رأس ايفان اندريفتش ، النور الغاضب الحائق ، انما سقط ذلك الشيء الذى ليس فيه حشمة ، وهو رسالة غرامية رقيقة معطرة • لذلك فان ايفان اندريفتش المسكين الذى لم يكن متأهباً لوقوع حادث مزعج الى هذا الحد ، ارتعش ارتعاش من أحس بوجود فأرة أو حيوان صغير مقترس على جمجمته •

لا يمكن للمرء أن يخطئ في ادراك المضمون الغامى لهذه الرسالة • انها بطاقة معطرة ، تشبه كل التشبه تلك البطاقات التي تصنفها الروايات ، وهى مطوية طياً يمكن من دخولها في قفاز سيدة • ولقد سقطت البطاقة على رأس ايفان اندريفتش مصادفة ولا شك ، وذلك لحظة مدّها لصاحبها • لعل صاحبها كان قد طلب ورقة برنامج الحفلة ، ولعل البطاقة أخفيت في ورقة البرنامج ببراعة ، فالبطاقة قد مدّت اذن لبيدين معروفين ، ولكن ها هى ذى حركة غير مقصودة من مساعد الجنرال (الذى سارع يعتذر عن خرقته بلباقة) تسقط البطاقة من اليد الصغيرة المرتعشة اضطراباً ، فاذا الشاب المدنى الذى كان يمد يديه نافذ الصبر ، يستلم ورقة برنامج الحفلة التي لا ينتظرها ، بدلاً من البطاقة التي ينتظرها على أحر من الجمر •

حادث غريب ، مزعج ... ذلك أمر لا جدال فيه ... ولكن لاشك
فى أنه أشد ازعاجاً لايفان آندريفتشس .

تمتم ايفان آندريفتشس يقول وقد بلّله عرق بارد وأخذ يكرمش
البطاقة فى راحتي يديه :

ـ مقدّر ، مكتوب ! ... الرصاصة تبحث عن الجاني ... على
الجاني تدور الدوائر .. ولكن لا .. فيم أنا جان ؟ .. ليس هذا هو
القول الماثور الذى يصدق على حالتى .. هنالك قول ماثور آخر : « على
الشقى ماكار ... الخ الخ .. » .

ما أكثر الخواطر المتفرقة المتنوعة المتناقضة التى تجرى وتشابك
وتتداخل فى الراس فى مثل هذه الحادثة المفاجئة . لبث ايفان اندريفتشس
مسمّراً فى مكانه ، متجمداً ، لا هو حى ولا هو ميت كما يقولون . كان
مقتنعاً بأن القاعة كلها على علم بشقائه ، مع أن الحماسة للمغنية التى كان
الجمهور يستبدها الغناء كانت فى تلك اللحظة نفسها تبلغ حد الهذيان .
ان ايفان آندريفتشس لا يجرؤ أن يرفع عينيه ، وان وجهه كالأرجوان
احمراراً من شدة الاضطراب .

التفت نحو رجل أنيق مضحك جالس على يساره ، فقال له :

ـ لقد غنت غناءً رائعاً .

فلم يزد الرجل الأنيق الذى كان كالمجنون حماسةً والذى كان
يصفق بيديه ويضرب الأرض برجليه ، لم يزد على أن رماء بنظرة سريعة،
ثم عاد يصفق تصفيقاً شديداً ، ويسول منادياً باسم المغنية . فارتاح ايفان
آندريفتشس الذى لم يسمع قبل ذلك يوماً مثل هذا الصراخ ، ارتاح الى
ذلك أشد الارتياح وسُرَّ به أكبر السرور . قال لنفسه وهو ينظر الى

وراء : « انه لم يلاحظ شيئاً » . ورأى عندئذ مشاهداً ضخماً ، كان جالساً خلفه ، رآه ينهض ويدير له ظهره وينظر الى الشرفات . فقال لنفسه مطمئناً :

- لا شك أن كل شيء يجرى مجرى حسناً .

وكان واضحاً أنه ما من أحد أمامه قد لاحظ شيئاً . وألقى نظرة مواربة ، خجلى ، ملأى بالامل ، على أقرب بينوار من مقعده ، فرأى سيدة أنيقة جداً قد وضعت منديلاً على فمها ، وانقلبت على ظهر المقعد ، وراحت تضحك ضحكاً مجلجلاً .

جميعهم ايفان آندريفتش يقول :

- أوه ... يا لهؤلاء النساء !

وهرع نحو المخرج سائراً على أقدام المشاهدين .

وانتبه أترك الآن للقراء أن يحكموا على ايفان آندريفتش هل كان على حق في تلك اللحظة فعلاً ؟ انكم تعلمون أن « المسرح الكبير » يضم أربعة طوابق من الشرفات ورواقاً . فلماذا التسليم يقيناً بأن هذه البطاقة قد وقعت من إحدى الشرفات ، ومن شرفة بعينها ؟ أليس في الطابق الخامس سيدات أيضاً . ولكن الهوى أعمى ، والغيرة أشد الأهواء عماوة على الاطلاق .

أسرع ايفان آندريفتش الى صالة الاستراحة ووقف أمام أحد المصابيح ، وفض الرسالة فقرأ ما يلي :

« حالاً » بعد انتهاء الحفلة فوراً ، في شارع ج . . . ، عند ناصية الطريق المسدودة « . . . سكني » ، منزل ك . . . ، الطابق الثاني ، على يمين السلم . تعال حتماً ، ناشدتك الله ! » .

لم يتعرف ايفان آندريفتش خط كاتب الرسالة ، ولكن لم يكن نمة
مجال للشك : هو ضرب موعد ! « يجب عليه أن يفاجئ العشيقين ،
يجب عليه أن يضبطهما ، أن يستأصل الشر من جذوره . » تلك كانت
الفكرة الأولى التي راودت ذهن ايفان آندريفتش . حتى لقد خطر بباله
أن يضبطهما في هذا المكان نفسه فورا في الشرفة . ولكن كيف
يفعل ؟ صعد ايفان اندريفتش الى الطابق الثاني ، ولكن الحكمة لم تلبث
أن أنزلته . واذ لم يعرف حقا ما عساه صانعا بشخصه ، أسرع نحو
الجهة المقابلة ، ونظر من خلال الباب المفتوح من شرفة خالية الى الشرفات
التي تواجهها . وماذا رأى ؟ كانت الشرفات بكاملها في الطوابق الخمسة
ملئية بسيدات شابات ورجال شباب . فمن الممكن ان تكون البطاقة قد
سقطت من اى طابق من هذه الطوابق . ولكن ما من برهان كان يمكن ان
يحمل ايفان اندريفتش على تسيير رايه . ظل يركض من ممر الى ممر
طوال الفصل الثاني ، دون ان يستطيع سيلا الى الهدوء والسكينة
والطمأنينة . حتى لقد خطر بباله ان يذهب الى فاطم التذاكر في المسرح
املا ان يعلم من هذا الرجل اسماء الاشخاص الذين يحتلون شرفات
الطوابق الاربعه ، ولكن شبك قطع التذاكر كان قد اغلق . واخيرا عاد
الصباح الشديد والتصفيق المسمور . لقد انتهت الحفلة . واستعيدت
المغنية ، وسمع صوتان في الرواق هما صوتا رئيسي الحزبين . ولكن بال
ايفان آندريفتش كان مشغولا بشئ آخر . كان قد اتخذ قراره فيما يتعلق
بالسلوك الذي ينبغي له أن يسلكه . لبس معطفه وطار متجها صوب شارع
ج . . . لسوف يكتشف فيه الشخصين فيقبض عليهما متلبسين بالجرم ،
ولسوف يكون في هذه الليلة أقوى ارادة وأصلب عودا مما كان في الليلة
البارحة على كل حال .

لم يجد ايفان عناء في الاهتمام الى المنزل . وفيما كان يجتاز درجات

المدخل اذا بشخص اتيق مضحك ، لابس معطفاً ، يندفع فجأة فيسبقه
 فى دخول باب العمارة ، ويصعد درجات السلم أربعاً أربعاً حتى الطابق
 الثالث . فاعتقد ايفان أندريفتش أنه تعرف فيه ذلك الرجل المدنى الذى
 كان فى شرفة المسرح ، رغم أنه كان يستحيل عليه أن يميز وجه الرجل
 الأتيق فى المسرح تميزاً واضحاً . انقبض صدر ايفان . ووصل الرجل
 الأتيق الى الفسحة الثانية من السلم . وسمع ايفان أندريفتش الباب يفتح
 وهو على هذه الفسحة الثانية . ان الشخص لم يقرع الجرس ، فلا شك
 انهم كانوا ينتظرون قدومه . وغاب الرجل الأتيق فى البيت . ووصل
 ايفان الى الفسحة الثالثة قبل اغلاق الباب . فخطر بباله فى اول الامر أن
 يمكث فى العتبة يفكر فيما يجب عليه أن يعمل ، وأن يتأمل ملياً ، وأن
 يعزم أمره أخيراً على القيام بفعل حاسم . ولكنه سمع فى هذه اللحظة
 نفسها جلبة عربة على باب مدخل العمارة . وفتح الباب الكبير فى قرعة
 كبيرة ، وسمعت أصوات أقدام ثقيلة . كان الرجل الذى نزل من العربة
 ودخل العمارة يسعل سعالاً شديداً ، ويتنفس بصعوبة . فلم يتردد ايفان
 أندريفتش ، فدفع الباب ، فاذا هو فى داخل البيت وقد بدت عليه أهبة
 الزوج المهان . أقبلت عليه خادمة مضطربة أشد الاضطراب ، ثم ظهر
 خادم آخر . ولكن احجام ايفان أندريفتش عن المضى فى سبيله كان أمراً
 مستحيلاً . فيها هو ذا ينتقل من غرفة الى غرفة كالقنبلة . فبعد أن اجتاز
 حجرتين مظلمتين دخل فجأة الى غرفة النوم ، فاذا هو يرى نفسه أمام
 امرأة شابة رائعة الجمال تحدق اليه مروعة مذعورة . كان يبدو عليها
 أنها أصبحت لا تفهم ما يجرى من حولها . وهذه خطوات يُسمع وقعها
 منذ الآن فى الدهليز المجاور . كان أحد يتجه قدماً نحو غرفة النوم .

- يا رب ! انه زوجى .

كذلك صاحبت السيدة وهي ترفع ذراعيها • واصفر وجهها اصفراراً شديداً •

ادرك ايفان اندريفتش انه ضل طريقه • لقد تصرف كطفل ، كغبي ابله • كان عليه ان يفكر مزيداً من التفكير وان يتروى مزيداً من التروى وهو على السلم • ولكن ليس في وسعه الان الا ان يذعن • وفتح الباب ، ودخل الزوج الذى لا بد انه كان رجلاً ضخماً ما دام تقبل الخطي • لا ادرى ما الذى فاله ايفان اندريفتش فى حق نفسه فى تلك اللحظة • ولا ادرى ما الذى منعه من ان يتقدم نحو الزوج راساً ، فيعترف له بخطئه ، ويعتذر اليه ، وينصرف • صحيح ان ذلك ما كان ليم على نحو مشرف مجيد ، ولكنه لو فعل لاستطاع على الاقل ان يعرب هروباً نيلاً سريعاً • ولكن ايفان آندريفتش لم يفعل ذلك ، بل تصرف مرة اخرى كطفل ، كانه يحسب نفسه دون جوان أو لوفلاس ! فما هو ذا يختبئ أولاً وراء ستارة السرير ، ثم ها هو ذا يشعر بخوف يخنقه خنقاً ، فيتهاوى على الارض ويزحف متسللاً تحت السرير كقارة • لقد أثر فيه الخوف أكثر مما أثر فيه العقل • ان ايفان آندريفتش الذى هو زوج مخدوع أيضاً ، أو زوج يمد نفسه مخدوعاً ، لم يطلق أن يتحمل هذا اللقاء بزواج آخر • ها هو ذا اذن تحت السرير ، لا يفهم كيف جرت الأمور • ولكن الشيء الذى أدهشه أكثر من أى شيء آخر هو أن السيدة لم تظهر أية معارضة • فلا هى صرخت حين ظهر لها هذا الشخص الغريب المسن ، ولا هى احتجت حين رآته يختبئ فى غرفة نومها • الحق أنها بلغت من الدهشة أنها فقدت القدرة على استعمال الكلام •

دخل الزوج وهو يندب ويشخر ، فألقى على زوجته تحية المساء بصوت متعب ، وتهاوى على مقعد كأنه كان قد حمل كيساً من حطب • ثم

سعل سعالاً طويلاً أبىح . أما ايفان أندريفتش الذى تحول من نمر ضار الى حمل وديع ، واصبح خائفاً هادئاً ساكناً كفارة صغيرة أمام هرة ، فانه اصبح لا يكاد يستطيع التنفس من شدة الرعب . وكان فى وسعه مع ذلك أن يدرك من تجربته الشخصية أن الأزواج الذين تسمى اليهم زوجاتهم ليسوا يعضون جميعاً . ولكنه لم يفكر فى هذا ، سواء لضعف خياله او لأى ضعف آخر . وحاول ، فى رفق وحذر وتلمس ، أن يستقر تحت السرير على نحو يوفر له أكبر قدر ممكن من الراحة . فما كان أشد دهشته حين لامس شيئاً ما ، وحين أحس بهذا الشيء يتحرك ويمسكه من ذراعه هو أيضاً . لقد كان هنالك رجل آخر محتبى . تحت السرير .

دمدم ايفان أندريفتش يسأل :

من أنت ؟

فقال الرجل الغريب بصوت خافت جداً :

— لا تظن أننى سأذكر لك اسمى . ارقد ، واصمت ، ما دمت قد أصبحت هنا . . .

— ولكن . . .

— اسكت !

قال الرجل الزائد ذلك (وهو زائد لأن رجلاً واحداً تحت السرير كان يكفى كل الكفاية) ، وضغط ذراع ايفان أندريفتش ضغطاً بلغ من القوة أن ايفان أوشك أن يصرخ من شدة الألم .

— أيها السيد العزيز ! . . .

— هُسن . . .

- لا تضغط هذا الضغط الشديد والا صرخت !

- أتمدك أن تصرخ ... حاول ...

احمر ايفان أندريفتش خجلاً • كان الرجل المجهول حائفاً قاسياً .
لعله انسان تلقى ضربات من القدر مرارا ، ومرت به مواقف محرجة هذا
الاحراج احيانا كثيرة • أما ايفان أندريفتش فانه غر ، وهذه الامور
جديدة عليه ، لذلك كان يشعر باختناق في صدره • وكان الدم يغلي في
عروقه وينبض في سدغيه • على أنه لم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً ،
فلا بد له من البقاء على هذه الحال مضطجماً على صدره جاعلاً وجهه في
الأرض • كان لا بد لايفان أندريفتش من الخضوع • فسكت •

بدأ الزوج يخاطب زوجته ، فقال لها :

- يا حبيبتي الصغيرة ، يا كنزى الجميل ، لقد كنت عند بافل
ايفانوفتش ، وقد أخذنا تبادل ال • • • كبح كبح (وهنا وافت العجوز نوبة
سعال) • • أخذنا • • كبح كبح • • ان ظهري • • كبح كبح • ما هذا
السعال ؟ كبح كبح كبح .

وظلل العجوز يسعل سعالاً شديداً مدة طويلة •

ونتمتم أخيراً يقول والدموع في عينيه :

- ان ظهري يؤلمني • • يا لهذه البواسير اللعينة ! • • لا أطيق وقوفاً
ولا قعوداً • • يستحيل عليّ أن أجلس • • كبح كبح • •

وكان يبدو أن نوبة السعال هذه كانت تريد أن تستمر مدة أطول
من عمر الشيخ نفسه • فلما لاح أنها سكنت ، أخذ الشيخ يجمعهم بكلام
غير مفهوم البتة •

- سيدى العزيز ، ناشدتك الله ... ابتعد قليلا •
- كذلك قال الشقى ايفان آندريفتش هامساً •
- الى أين تريد منى أن أذهب ؟ ليس فى المكان متسع •
- ولكن يستحيل علىّ أن أبقى على هذا الوضع • هذه أول مرة فى حياتى أجدنى على هذه الحال الصعبة •
- وأنا أيضا .. هذه أول مرة فى حياتى أجدنى مع جارٍ مزعج الى هذه الدرجة من الازعاج •
- ومع ذلك أيها الفتى ..
- اسكت !
- أسكت ؟ ان سلوكك غير مهذب على كل حال ، أيها الشاب •
- لا بد أنك شاب ، اذا لم يخطئ ظنى ... أنا أكبر منك سناً •
- اسكت •
- أيها السيد ، انك تنسى نفسك ، انك لا تعرف من تخاطب ...
- أخاطب رجلاً مختبئاً تحت سرير •
- نعم ولكن المفاجأة والخطأ هما اللذان قادانى الى هذا المكان ...
- أما أنت فان اللا أخلاقية هى التى قادتك الى هنا ...
- ذلك ما تخطئ فيه •
- أيها السيد ، أعود فأقول لك اتى أكبر منك سناً •
- أيها السيد ، اعلم أننا هنا متساويان ... أطلب منك أن لا تمسّ وجهى •

- سيدى العزيز •• انى لا أميّر شيئاً • اعذرني • المكان ضيق •

- لماذا أنت سمين هذه السمنة كلها •

- يا رب ! اننى لم أوجد طوال حياتى فى ظرف ذليل الى هذا

الحد •

- نعم ••• ولكن يستحيل عليك أن تكون أحسن حالا •

- سيدى العزيز ، سيدى العزيز ••• أنا لا أعرف من أنت ، ولا

أفهم كيف أمكن أن يقع هذا كله ••• ولكن الخطأ هو الذى جاء بي

الى هنا •• وأنا لست من تظن •••

- ما كنت لأظن فيك شيئاً لولا أنك تتحرك كل هذا التحرك ،

وتضطرب كل هذا الاضطراب ، فاسكت اذن ، ولا تقل شيئاً •

- سيدى العزيز ، اذا لم تتعد قليلا ، فلسوف تصينى نوبة قلبية ••

وسوف تكون مسئولاً عن موتى ، أحلف لك • أنا رجل محترم ، رب

أسرة • حقاً ليس فى وسعى أن أبقى على هذه الحال •

- ولكنك دسست نفسك بنفسك • فماذا تريد ؟ طيب •• تقدم •

هنا اذا أفسح لك مكاناً • يستحيل أن أفعل أكثر من ذلك •

- أيها الفتى النبيل ، سيدى العزيز • الآن أرى اننى أسأت الظن

فيك والحكم عليك •

كذلك قال ايفان !ندريفتش شاكرأ لصاحبه أنه أفسح له مكاناً •

وتمطى محركا أطرافه المتخدره • وأضاف يقول :

- أنا أفهم أنك محصور فى مكان ضيق جداً ، ولكن ما العمل ؟

واننى لألاحظ أنك ترى فى رأياً سيئاً .. فاسمح لى أن أغسل سمعى
أمامك ، اسمح لى أن أقول لك من أنا ... اننى جئت الى هنا رغم ارادتى ،
ولم أجبى الى هنا للغرض الذى قد تتصوره ... اننى خائف خوفا رهيبا .
- هلاً سكت أخيراً ؟ ألسنت تدرك اذن أن الأمور ستفسد اذا هم
سمعونا ؟ هشت .. انه يتكلم .

وفعلا كانت نوبة سعال الشيخ قد انتهت .

استأنف الشيخ كلامه يقول بصوت شاكٍ :

- يا كنزى الغالى ، يا عزيزتى .. لقد .. كح كح ... آه ...
يا للشقاء ! ... ان فيدوسى ايفانوفتش يؤكد أن على أن أشرب مغلى
حشيشة الجرح ، أن على أن أجرب هذا العلاج . هل تسمعين
يا عزيزتى ؟

- اسمع يا صديقى !

- قال لى اذن ان على أن أشرب مغلى حشيشة الجرح . فأجبتة :
نقد جربت العلق . فقال لى : لا يا الكسندر دميانوفتش ... حشيشة
الجرح أفضل ، فهى تهدى السعال ، تؤكد لك ... أحلف لك .. كح
كح .. أوه .. يا رب ! .. ما رأيك يا عزيزتى الغالية ؟ كح كح ..
يا رب .. كح كح .. اذن هل تعتقدين أن مغلى حشيشة الجرح أفضل ؟
كح كح .. آه .. كح كح .

قالت الزوجة :

- أظن أن شرب هذا المغلى لن يضررك .

- طبعاً لن يضرنى . وقد قال لى : لعلك مصاب بالسل . ولكننى

أجبتة : بل هو شيء من التهييج في المعدة • ما رأيك أنت يا عزيزتى ؟ كبح
كبح •• هل تظنين أننى مصاب بالسل ؟

— ما هذا الكلام الذى تقوله ؟

— نعم •• السل •• ولكن يا عزيزتى •• عليك أن تخلعى ملابسك
•• يجب أن تنامى •• كبح كبح •• وأنا اليوم •• كبح كبح •• مصاب
بزكام ••

قال ايفان أندريفتش :

— هوف •• ناشدتك الله •• ابتعد قليلا أيضا •

— حقا ان أمرك ليدهشنى •• ماذا دهاك ؟ ألا نستطيع أن نترقد
ساكنًا ؟

— أنت حاقد على حقدًا قاتلاً أيها الشاب ••• لقد أهنتى الآن ••
اننى أرى هذا •• لا شك أنك عشيق هذه السيدة •
— اسكت •

— لن أسكت • لن أسمع لك بأن تصدر الى أوامر • انك أنت
العشيق حتما • فاذا اكتشف أمرنا ، فلن أكون مجرما فى شيء • اننى
أجهل الأمر جهلا تاما ، اننى غريب عنه فلا صلة لى به •••

قال الشاب وهو يصصر بأسنانه :

— اذا لم تسكت فسوف أقول انك أنت الذى جئت به الى هنا •
وانك عمى تدمر نفسك وتبدد مالك ••• وبهذا لن يظن أحد أننى أنا
عشيق هذه السيدة •

– سيدى العزيز .. انك تسخر منى وتستعزى بى .. لقد أنفدت

صبرى •

– هشت .. اتنى أجبرك على الصمت • أنت كارثة نزلت على ..

قل لى ما الذى جاء بك الى هنا ! .. لولاك لكان فى وسعى أن أبقي على
هذه الحال حتى الصباح ، ثم أستطيع أن ألوذ بالفرار •

– ولكننى لا أستطيع أن أمكث مضطجعا هذا الاضطجاع حتى الند

.. اتنى رجل عاقل .. ولى علاقات كثيرة .. ما رأيك ؟ هل تظن أنه
سيقضى الليلة هنا ؟

– من ؟

– هذا الشيخ ؟

– حتما • ليس جميع الأزواج يشبهونك • ان منهم من يبيت فى

بيته •

صاح ايفان آندريفتش وقد تجمد رعباً :

– سيدى العزيز .. سيدى العزيز .. ثق اننى لا أبيت فى غير

بيتى .. هذه أول مرة يقع لى فيها هذا الامر • يا رب ! ولكننى ألاحظ
أنك تعرفنى • من أنت أيها الشاب ؟ قل لى فوراً ، أضرع اليك ، باسم
الصداقة البريئة ، قل لى من أنت ؟

– اسمع .. سأستعمل معك العنف والقوة ..

– ولكن اسمح لى ، اسمح لى أن أروى لك ، أيها السيد العزيز ،

اسمح لى أن أشرح لك كل هذه القصة المشثومة ..

– لن أسمع أى شرح ، لا أريد أن أعرف شيئاً • اسكت ، والا ..

- لا أستطيع ، حقا لا أستطيع ...

وأعقبت ذلك معركة صغيرة تحت السرير ، وصمت ايفان
أنديفتش •

- يا كنزى الغالى ، لكأن ههنا قطعاً توشوش ...

- قطع ؟ ما هذه الاختراعات ؟

كانت السيدة لا تعرف ماذا تقول لزوجها • انها لم تستطع بعد أن
تنوب الى رشدها ، وأن تتخلص من الدهول الذى استبد بها • ومع ذلك
فقد ارتعشت وأصاحت بسمعها •

- أية قطع تعنى ؟

- قطع ، يا حمامتى الصغيرة • لقد دخلت فى أحد الأيام الى
غرفتى • فاذا أنا أرى فاسكا * جالسة تموء : مياو • مياو • مياو •
وتشخر • قلت لها عندئذ : ما بك يا فاسكا ؟ فعاتت فاسكا تموء : مياو •
مياو • مياو • وظلت كذلك طول الوقت كأنما هى تدمدم • قلت عندئذ
لنفسى : « آه • • يا أجدادى ! أتراها تتبألى بالموت ؟! » • •

- ما هذه الترهات التى تقولها اليوم ؟ ألا تستحي ؟

- طيب • ليس هذا بشئ • لا تزعلى يا عزيزتى • • أنا أرى أنك
ستشقين اذا مت ، ستكونين نعيمة • • لا تزعلى ! • • أوه • • ما قلت هذا
الا لأقول شيئاً ما • • عليك يا صغيرتى أن تخلصى ملابسك وأن ترقدى •
وسأملك أنا هنا أثناء رقادك • •

- فى الوقت متسع ، أرجوك •

- طيب • لا تزعلى • ولكن أؤكد لك أن ههنا فئراناً •

- هذا ما كان ينقص .. فتران وفطط • لا أدري حقا ما الذى
دهاك !

- أنا .. سخافات .. حماقات .. اننى لا .. كح كح .. لا ..
كح كح .. كح كح .. آه .. يا رب ! كح كح ..
دمدم الشاب يقول :

- هل سمعت ؟ لقد أحدثت من الصخب ما جعله ..
- ليتك تعلم ماذا جرى لى ! ان أنفى ينزف •
- طيب فلينزف أنفك ولتسكت أنت • انتظر انصراف الشيخ •
- أيها الفتى ، ضع نفسك فى موضعى .. اننى لا أعرف من
الشخص الذى أنا راقد قربه •

- لن تتحسن حالك اذا عرفت من هو • هل تعلن أننى أحرص على
أن أعرف اسمك ؟ طيب .. ما اسمك ؟

- وفيم أقول لك اسمى ؟ .. ان ما يهمنى هو أن أشرح هذه
الطريقة السخيفة التى بها ..

- هشت .. لقد عاد يتكلم •

- أؤكد لك يا حبيبى أن ههنا فترانا .. ألا تسمعين همهمة ؟

- لا .. هو القطن قد وضعت فى أذنيك مقلوبا •

- بمناسبة القطن ، هل تعلمين أن هناك ، فوق .. كح كح ..
فوق .. كح كح ...

دمدم الفتى يقول :

- فوق ؟ كنت أظن أننا فى الطابق الأخير .. نحن اذن فى الطابق الأول ؟

قال ايفان أندريفتش وهو يرتعش ارتعاشا شديدا من قمة رأسه الى أخمص قدميه :

- ماذا تقول أيها الشاب ؟ قل لى ، أرجوك ، لماذا تهتم هذا الاهتمام كله .. أنا أيضا كنت أظن أننا فى الطابق الأخير . قل لى ناشدتك الله هل هناك طابق آخر فى العمارة .

قال الشيخ وقد انقطع سعاله أخيراً :

- أحلف لك أن أحدا يتحرك .

تمتم الشاب وهو يقبض على يدي ايفان أندريفتش :

- هشت .. هل سمعت ؟

- أيها الشاب ! انك توجع يدي . اتركني .

- هشت ! ...

وساد الصمت من جديد بعد صراع قصير .

قال الشيخ :

- صادفتُ اذن امرأة جميلة شابة ...

- ماذا ؟

- ألم أقل لك من قبل اننى صادفت على السلم سيدة جميلة شابة ؟

ها ... لعلنى أغفلت أن أذكر لك ذلك ... ان ذاكرتى ضعيفة ... هى
حشيثة الجرح .. كح كح ..
- ماذا ؟

- علىَّ أن أشرب منلى حشيثة الجرح ... يؤكدون لى أن صحتى
ستحسن اذا أنا شربته .. كح كح كح .. ستحسن صحتى ..
قالت الزوجة :

- قلت انك صادفت امرأة جميلة اليوم ..
- هه ؟

- امرأة جميلة ؟
- من قال لك ذلك ؟
أنت ..

- أنا ؟ متى ؟ ها .. نعم ..
دمدم الشاب يقول ساخراً من ضعف ذاكرة الشيخ :
- انه لموميا !

- سيدى العزيز ، اننى أرتعد رعباً . يا رب ! ما هذا الذى أسمعته ؟
هى قصة الأمس تماماً ، قصة الأمس بعينها ...
- هشت ...

- ها نعم نعم تذكرت ! يا لها من مأكرة ... وكانت عيناها صغيرتين
... وكانت تضع على رأسها قبعة زرقاء ..

– قبعة زرقاء •• أوه •• أوه ••

– انها هي • هي تضع على رأسها قبعة زرقاء • يا الهى !

كذلك صاح ايفان آندريفتش •

سأله الفتى بصوت خافت وهو يضغط يديه :

– هي ؟ من هي ؟

فقال ايفان آندروفتش بدوره آمراً :

– هشت ! •••

– آه ! يا رب ! يا رب !

– على كل حال يمكن أن يضع كل انسان على رأسه قبعة زرقاء ••

واذن •••

وتابع الشيخ كلامه يقول :

– ويا لها من امرأة فاجرة ! انها تأتي الى هنا لزيارة أصدقاء لا أدرى

من عساهم يكونون ! •• ليتك ترين ما تنصف به من رقة وعذوبة

فى نظراتها ! وهناك أصدقاء آخرون يصعدون الى بيت أولئك الاصدقاء ••

قاطعته السيدة تقول :

– ما هذا الكلام الممل • فيم تعنيك هذه الأمور ؟

– طيب طيب • لا تزعلي • سأسكت ما دمت تريدین ذلك • يبدو لى

أنك معتكرة المزاج فى هذا المساء ••

كذلك قال الشيخ بصوت شاك حزين •

قال الشاب :

- ولكن كيف درست نفسك هنا ؟

- أرايت ؟ أصبح الأمر يهملك الآن بعد أن كنت لا تريد أن تسمع كلامي .

- على كل حال ، لا تقل شيئاً إذا شئت !

- لا تزعج أيها الشاب ... لقد أصبحت لا أعرف ماذا أقول ...
كل ما هنالك أنني .. لا شك أن ثمة شيئاً خفياً يجعلك .. ولكن من
أنت أيها الشاب ؟ شيء مجهول طبعاً .. ولكن من أنت ؟ رباه ! أصبحت
لا أعرف ماذا أقول ..

قاطعه الشاب قائلاً :

- أوه .. كفاك ! أرجوك !

- سأروي لك كل شيء ، كل شيء . قد تظن أنني لن أقصّ عليك
شيئاً ، وأنتى حاقد عليك . لا . كل ما فى الأمر أنني حزين ... ذلك
كل ما فى الأمر . ولكن ناشدتك الله قل لى كل شيء أنت أيضاً ، من
البداية : كيف وقعت هنا ؟ بأية معجزة ؟ أما أنا فلن أغضب ، أحلف لك .
هذه يدى تعاهدك ؟ ولكن يوجد غبار كثير هنا ، وقد اتسخت يدى ، على
أن هذا لا ينفى صدق عواطفى نحوك .

- دعنى من يدك ! يستحيل على المرء أن يتحرك أية حركة . انه
يزعجنى بيده .

قال ايفان أندريفتش فى نوبة من مذلة حزينة بائسة :

- سيدى العزيز ، انك تكلمنى كما لو كنت ... كما لو كنت نعلًا
باليه ...

وكان صوت ايفان آندريفتش متضرعًا • وأردف يقول :

- كن أكثر أدبًا وتهذيبًا • كن أكثر لطفًا ومودة ... وسأقص
عليك كل شيء • أنا مستعد أن أدعوك الى تناول طعام العشاء فى بيتى •
حقا أنا مستعد لذلك • وسوف نكون أصدقاء • ولكن يستحيل أن نبقى
كلانا راقدين هنا • انك مخطئ • أيها الشاب • انك تجهل •

ثأنا الشاب يتساءل وقد بدا عليه الاضطراب :

- متى صادفها يا ترى ؟ لعلها تنتظرنى الآن ... هى فى انتظارى
حتمًا • يجب علىّ أن أخرج من هنا ...

- هى فى انتظارك ؟ من هى فى انتظارك ؟ يا رب ! عمّن تتكلم أيها
الشاب ؟ أنت تقدر أن هناك ، فوق ، فى الطابق الأعلى • • • يا رب !
يا رب ! ماذا فعلت حتى أعاقب هذا العقاب ؟!

وحاول ايفان آندريفتش أن ينقلب على ظهره من قبيل الحزن
والألم •

- لماذا يعنيك أن تعرف من هى ؟ يا الله • • ألا فليحدث ما يحدث !
• • أما أنا فساأسحب ...

- أيها السيد العزيز ، ماذا تفعل ؟ وأنا ، وأنا ؟ ما عسانى صانعًا ؟
كذلك همس ايفان آندريفتش وهو يتشبث مستميتًا بأطراف سترة
جاره •

- ما شأنى بك ؟ سوف تبقى وحدك • • فاذا لم تشأ ذلك فساأقول

انك عمى ... عمى الذى بدد ماله ... وعندئذ فلن يظن الشيخ اننى
عشيق امرأته .

- مستحيل أن آكون عمك أيها الشاب ، هذا غير طيعى . لن
يصدقك حتى طفل صغير هكذا ...

همس ايفان أندريفتش بهذه الكلمات يائساً .

- اذن لا تترنر بعد الان ، واليـث ساكنا كميـث . امكث على هذه
الحال طول الليل، وفى الصباح تخرج بطريقه من الطرق . ولن يلاحظك
عندئذ أحد .. اذا هرب واحد فلن يتصور أحدا أن هناك آخر مختبئاً .
لسنا هنا عشرة . على انك تساوى وحدك اننى عشر رجلا ... تقدم أو
أخرج .

- أنت لا تحفل بى أيها الشاب ... فما رأيك اذا سعلت ؟ يجب
على المرء أن يتنبأ بكل شئ ...

- هشت ...

- ماذا هنالك ؟ يخيل الىّ اننى أسمع جلبة فوق ...

كذلك تتمم الشيخ يقول ، وكان قد بدا لحظة أنه غفا .

- أسمع أنت ؟

- فوق ؟

- أنت تسمع أيها الشاب ، ان الجلبة فوق ...

- نعم أسمع .

- يا رب ! سوف أخرج أيها الشاب .

- ليكن لك ما تريد • أما أنا فأبقى • سيان عندي • هل يهمني أن
يفسد كل شيء • اسمع • اننى أقدر أنك زوج تخونه امرأته • تلك هى
القصة كلها •

- ما هذا الكلام السيئ ؟ أنت تفترض هذا حقاً ؟ ولكن لماذا ،
لماذا تتصور أننى زوج • أنا لست بمتزوج ••

- لست بمتزوج ؟ يا سلام ! •••

- ربما كنت العشيق !

- العشيق ؟ حلو •••

- يا سيدى العزيز ، يا سيدى العزيز •• طيب •• سأقص عليك
كل شيء • سوف تفهم بلائى وحزنى • لست أنا الزوج • أنا غير متزوج •
أنا عازب ، مثلك • ولكنه صديقى ، هو رفيق من رفاق الطفولة ••• قال
لى : « اسمع •• أنا شقى •• لقد شربت الصاب •• » فقلت له : « ولكن
لماذا تشبه فيها ؟ » • لماذا لا تصنى الى كلامى ؟ هلاًّ أصغيت الى ما أقصه
عليك ؟ قلت له : « ان الغيرة شيء مضحك ، الغيرة آفة » ، فأجاب يقول
لى : « أنا انسان شقى تيمس ! لقد شربت الصاب ! هل فهمت ؟ •• » •
عندئذ قلت له : « لقد كنت رفيق طفولتى • وقد قطعنا أزهار الملذات
معا •• » • رباه ! أصبحت لا أعرف ماذا أقول • انك تضحك أيها الشاب •
انك تفقدنى صوابى •

- بل لقد فقدت صوابك وانتهى الأمر • أنت مجنون •

- كنت أحس أنك ستقول هذا الكلام •• اضحك •• اضحك أيها
الشاب • أنا أيضاً كانت لى غزواتى فى أيام الشباب ، وكنت أعرف الاغراء
والاغواء •• أوه ! لسوف يحقن دماغى أخيراً •

- ولكن قولى لى يا عزيزتى ... يخيّل الى أننى أسمع عطساً فى بيتنا ! أأنت التى تعطسين يا حبيبتى ؟

بذلك تتم الشيخ يسأل امرأته •

فقدمت الزوجة تقول متعلملة :

- أوه .. ما هذا يا رب !

و'سمع تحت السرير صوت :

- هشت ..

فقال الزوجة مذعورة :

- لا شك أنهم يخطون فوق •

والحق أن الضجة قد ازدادت قوة تحت السرير •

قال الزوج موافقاً :

- حقا .. فوق .. قلت لك ان ذلك الشاب المتأنق .. كبح كبح ..

ذلك الشاب المتأنق ذا الشاربين الصغيرين • آه .. يا رب ! ظهرى ! ..

لقد صادفت ذلك المتأنق ذا الشاربين الصغيرين ...

- أهو ذو شاربين صغيرين ؟ لعلك اذن أنت ذلك الشاب !

كذلك دمدم ايفان آندريفتش •

- أى شاب ؟ يا رب ! صاعقة تنزل عليك .. اننى هنا بقربك !

فكيف يمكن أن يكون قد صادفنى ؟ هلاً تركت وجهى وشأنه !

- لا شك أن نوبةً قلبية ستصيبنى • هذا مؤكد •

وفى تلك اللحظة سُمعت جلبةً صادرة من الطابق الأعلى فعلاً •

همس الفتى سائلاً :

- ما هذا ؟

- سيدى العزيز ... اتنى أموت ذعراً ... أموت رعباً ...
أنجذنى •

- اسمعى يا عزيزتى ، انها جليلة "حقاً... جليلة جهنمية ... وهى
فوق غرفة نومك تماماً • ما رأيك فى أن نرسل أحداً ينهبهم ؟
- لا ينقصنا الا أن نفعل هذا •

- أوه ... كما تشائين • انك عصبية جداً فى هذا المساء •

- يا رب ! الأفضل أن تمضى الى سريرك فتمام •

- ليزا ... لقد أصبحت لا تحييننى •

- بل ما زلت أحبك • ولكننى متعبة جداً •

- طيب طيب ... سأمضى •

- لا .. لا .. لا تذهب .. بل اذهب .. اذهب .. اذهب ..

كذلك صاحت الزوجة تقول لزوجها الشيخ •

- ولكن ماذا بك حقاً ؟ اذهب .. لا تذهب ! كبح كبح ... على
كل حال ، سوف أمضى أنا • كبح كبح .. يا لبنيات بانافيدى هاته ..
كبح كبح .. هاته البنيات .. كبح كبح .. لقد رأيت عند احدى الصغيرات
عروسة ، لعبة من نورنبرج .. كبح كبح ..

- وصلنا الى الحديث على المرائس ، على اللعب ...

- كبح كبح .. عروسة حلوة جداً .. كبح ..

همس الشاب يقول :

- انه يودّع • ألا فلينصرف ، لنهرب على الفور • هل تسمعني ؟
افرح اذن !

- أسأل الله أن يستجيب لأمنيّتك !

- هذا درس نافع لك •

- أيها الشاب ، أى درس تعنى ؟ اننى أحزر ما تعنيه ••• ولكنك
ما تزال شاباً • ولا تستطيع أن تلقى على درساً •

- مع ذلك سألقنك درساً •• اسمع ••

- آه •• سوف أعطس •••

- اياك ، حذار أن تعطس •••

- ما حيلتى ؟ الرائحة رائحة فأرة •• حقاً لا أستطيع ••• اسحب
مندبلى من هذا الجيب ، ناشدتك الله •• يستحيل علىّ أنا أن أقوم بأية
حركة • يا رب ! يا رب ! ماذا فعلت حتى أعاقب هذا العقاب ؟

- إليك مندبلك • وسأقول لك الآن سبب العقاب الذى تلقاه • أنت
غيور • استندت على أسباب لا أدري ما هى ، فجعلت تركض كمن مسّه
جن ، ودخلت حائقا كالمجنون لدى غرباء ، وسببت فضيحة !

- أنا لم أسبب أية فضيحة •

- أمسكت !

- أيها الشاب ، ليس من حقت أن تلقى علىّ مواظ و أن تسدى الىّ
بنصائح • ان سلوكي خير من سلوكك •

- اسكت •

- أوه ! يا رب ! يا رب !

- انك تسبب فضيحة ، انك ترعب سيدة قد يصيبها من ذلك مرض •
وانك لتلقى الى القلق والاضطراب شيخا محترما يعذبه السعال ، ويحتاج
الى الهدوء أكثر من اى شىء آخر • • ولماذا كل هذا ؟ لانك تصورت
سخافات لا يدري الا الشيطان ما هى ، فجعلت تركض هنا وهناك يمنة
ويسرة • • هل فهمت ؟ هل ادركت الى اية قصة سيئة هويت ؟ أنت
تشعر بذلك ؟

- أشعر بذلك يا سيدى العزيز ، ولكن ليس من حقك أن • • •

- اسكت • لا قيمة للحق هنا • هل تدرك أن هذا كله يمكن أن
ينتهى الى مأساة ؟ هل تدرك أن هذا الشيخ الذى يحب زوجته يمكن أن
يفقد عقله حين يراك تخرج من تحت السرير ؟ ولكن لا • • • انك لن
تستطيع أن تحدث مأساة ! واذا خرجت من هنا فلن يزيدوا حين يروك
على أن ينفجروا ضاحكين مقهقهين ! وددت لو أراك فى ضوء الشموع !
لسوف يكون منظره مضحكا حقا !

- وأنت ؟ أنت أيضا مضحك جداً فى هذا الظرف • وددت لو أراك
أنا أيضاً •

- ما سيلك الى ذلك ؟

- لا شك أيها الشاب فى انك امرؤ خالٍ من الاخلاق !

- أوه • • أتتكلم عن الأخلاق ؟ وأنى لك أن تعرف سبب وجودى
هنا ؟ ان الخطأ هو الذى قادنى الى هذا المكان ، لقد ضللت طريقي الى
الطابق الذى كنت قاصداً اليه • ولا أدري لماذا سُمح لى بالدخول الى

هنا • أغلب الظن أنها كانت تنتظر أحدا هي أيضا - ولست أنت من كانت تنتظره حتماً • واختبات تحت السرير حين سمعت خطواتك الغبية ورأيت الذعر في وجه السيدة • ثم ان الظلام كان سائدا • ولكن فيم أبرد نفسي أمامك ؟ أنت عجوز غيور مضحك ••• أما لماذا أبقى تحت السرير ، فلملك تظن أنني خائف أن أخرج ! لا يا سيدى ، لو أردت ذلك لفعلتته منذ مدة طويلة ، ولئن كنت لا أتحرك فما ذلك الا شفقة عليك ورحمة بك • فلو خرجت أنا لأصبحت أنت كالحطبة أمامهم لا تعرف ماذا تقول •

- لماذا أكون كالحطبة ؟ لماذا تشبهنى بحطبة ؟ كان فى وسعك أن تجد تشبيها آخر أيها الشاب ! ولماذا لا أعرف ماذا أقول ؟ لسوف أظل محتفظاً برأسى على كفى •

- أوه •• هذا كلب أخذ ينبح •

- انك لم تقطع عن الثرثرة فأيقظت الكلب الصغير من نومه • هذه هى الكارثة •

وفعلا ، فان الكلب الصغير الذى تملكه السيدة والذى كان حتى ذلك الحين نائما فى ركنه على مخدة ، قد استيقظ فجأة • وأخذ يتشمم وجود غرباء ، وهرع يمضى تحت السرير نابحاً •

دمدم ايفان أندريفتش :

- يا رب ! يا لهذا الكلب من غبى •• لسوف يفضح أمرنا • هذه لعنة •

- طبعاً •• ذلك يمكن أن يحدث من فرط خوفك •

صاحت ربة البيت تنادى كلبها :

- آمى .. آمى .. هنا .. آمى .. آمى .. هنا *

ولكن الكلب الصغير لم يطع سيده ، ومشى قدماً نحو ايفان
آندريفتش *

قال الشيخ مخاطب امرأته :

- ماذا يجرى يا كنزى القالى ؟ لماذا ينبع آميشكا ؟ لا شك أن هنالك
فئراناً * أو لعلها قطتنا فاسكا ! فهمت .. لقد خيل الى طول الوقت
اننى أسمع أحداً .. كأن هناك أحداً يعطس .. يظهر أن قطتنا فاسكا
مصابة بركام اليوم ..

قال الشاب بصوت خافت جداً :

- اياك أن تتحرك * لا تلتفت * لعله يسكت عن النباج آخر الأمر .
- سيدى العزيز ، سيدى العزيز ، اترك يدى * لماذا تمسك
يدى ؟

- هشت ! ... اسكت ! ...

- أيتها الشاب ! ... انه يعض أنفى * هل يرضيك أن أصبح بنير
أنف ؟

وناضل ايفان آندريفتش حتى استطاع أن يخلص نفسه * وكان
الكلب ينبع نباحاً مسجوراً * وفجأة صبت ، ثم أطلق شهقة *

قالت السيدة :

- أو ..

دمدم الشاب يقول :

— ماذا فعلت أيها اللص ؟ لسوف تضيعنا • لماذا تقبض عليه ؟ يا رب !
انه يخنقه ! لا تخنقه • دعه •• اتركه •• اتركه ايها الشيطان •• أنت
تجهل اذن ما يمكن أن تفعله سيدة اذا قتل كلبها ! لسوف تسلمنا كلينا اذا
أنت قتلت كلبها •

ولكن ايفان أندريفتش أصبح لا يسمع شيئاً • لقد استطاع أن
يقبض على الكلب الصغير ، واستطاع بفعل دفاع مشروع أن يمسك
بخنقه ، فما كان من الكلب الا أن صرخ صرخة شاكية ، ثم لفظ روحه •

همس الشاب يقول :

— لقد ضعنا !

وصاحت المرأة تنادى كلبها :

— آميشكا ، آميشكا ! يا رب ! ماذا فعلوا بعزيزي آميشكا ؟
آميشكا ! هنا ! آه من اللصوص ، آه من الهمج ! يا رب •• انى ليغنى
على •••

صاح الشيخ وهو يثب عن مقعده :

— ماذا هنالك ؟ ما الذى يجرى ؟ ما بك يا كنزى الغالى ؟ آميشكا !
تعال هنا ! آميشكا •• آميشكا •• آميشكا ! (نادى الكلب وهو يصفق
أصابعه) ••• الى هنا يا آميشكا ! الى هنا ! يستحيل أن تكون القطعة فاسكا
قد أكلته ! يجب جلدها ، هذه القطعة ، يا حبيبتى • يا لها من قطعة رغاء !
انا لم نجلدها منذ أكثر من شهر ؟ ما رأيك ؟ سوف أستشير غداً
براسكوفيا زاخاريفنسا • ولكن ماذا بك يا عزيزتى ؟ انك شاحبة الوجه
ممتعة اللون ! أوه ! •• ناس •• ناس !

وقام الشيخ يركض فى الغرفة •

وأعولت السيدة تقول وقد تهالكت على أريكة :

- لصوص •• شياطين ••

فهتف الشيخ يسألها :

- من ؟ من ؟

- هناك ! هناك ! يوجد أشخاص ••• يوجد غرباء ! هناك تحت السرير • آه ! يا رب ! آميشكا •• آميشكا ! ماذا صنعوا بك يا آميشكا ؟

- يا رب ! أشخاص ؟ آميشكا ! أيها الخدم •• أيها الخدم ! تعالوا تعالوا •• مَنْ هنا ؟ من هنا ؟ أيها الخدم ! •••

وأمسك الشيخ شمعة ومال تحت السرير •

- مَنْ هنا ؟ مَنْ هنا ؟ أيها الخدم ! أيها الخدم !

لبث ايفان أندريفتش ساكناً فى مكانه قرب جثة الكلب الصغير لا هو بالحى ولا هو بالميت ! ولكن الشاب كان يتابع ببصره أيسر حركات الشيخ • ودار الشيخ فجأة حول السرير ، وانحنى قرب الحائط • فما هى الا ثانية واحدة حتى خرج الشاب من تحت السرير ، واندفع يهرب ، بينما كان الزوج يبحث عن ضيوفه فى الجهة الأخرى من فراش الزوجية •

دمدمت السيدة تقول حين رأت الشاب :

- يا الهى ! من أنت ؟ لقد ظننتك •••

فأجابها الشاب بصوت خافت :

- الشيطان ما يزال هناك • هو الذى قتل آميشكا •

هتفت المرأة :

- أوه ! ...

ولكن الشاب كان قد هرب *

- أوه ! يوجد أحد هنا * اننى أرى حذاء *

كذلك صاح الشيخ وهو يمسك قدم ايفان أندريفتش *

صرخت السيدة :

- قاتل .. قاتل .. سفاح .. سفاح .. قاتل .. قاتل ..

وصرخ الشيخ وهو يضرب الأرض بقدميه :

- اخرج .. اخرج .. اخرج ! من أنت ؟ قل من أنت ! يا رب !

يا رب ! ما أغرب هذا الشخص !

- الهم لصوص *

هتف ايفان أندريفتش وهو يخرج من تحت السيرير :

- ناشدتك الله .. ناشدتك الله يا صاحب المظلي ، لا تناد رجالك !

لا تستدع أحداً يا صاحب المظلي ! ليس لهيبذ أية فائدة ! لا داعي إلى

ذلك ! لن يكون عليك أن تطردنى ! أنا لست ذلك المزعج ! أنا انفسان

طبعي جدا * لقد وقع هذا كله خطأ يا صاحب المظلي ! سأشرح لمالك

كل شيء فوراً *

قال ايفان أندريفتش ذلك ، وشخر وأجهش باكياً * ثم أردف

يقول :

- هي المرأة .. لا أعنى زوجتى .. لا .. بل زوجة رجل آخر

.. أنا لست بمتزوج ! ولكن الزوج صديقى ، هو رفيق من رفاق الطفولة ...

صرخ الشيخ يقول وهو يضرب الأرض بقدميه :
- أى رفيق من رفاق الطفولة ؟ أنت لص ، جئت هنا سارقاً ! ما من رفيق من رفاق الطفولة !

.. لا .. لست بلص يا صاحب المعالي * أنا حقاً رفيق من رفاق الطفولة .. ذلك خطأ عارض .. لقد وصلت الى هنا مصادفة من المدخل الآخر *

- ولكننى أرى أيها السيد من أين خرجت الآن !

.. يا صاحب المعالي * أنا لست ذلك الرجل * أنت مخطئ * أكرر أنك ترتكب خطأ قاسياً يا صاحب المعالي * انظر الى تفهم من بعض الملائم والامارات أنتى لست بلص * يا صاحب المعالي ، يا صاحب المعالي (كذلك أخذ يصيح ايفان آندريفتش ضامناً يديه احديهما الى الأخرى) وأنت يا سيدتى ، افهمينى ... أنا الذى خنقت آميشكا ... ولكننى لست مذنباً . أحلف لك اتنى لست مذنباً . ان زوجتى هى المذنبه * أنا رجل تيمس .. لقد شربت الصاب *

- ولكن اسمع : فيم يهمنى أن تكون قد تجرعت كأساً .. ولعلك قد تجرعت كئوساً عدة لا كأساً واحدة ؟ هذا ظاهر من حالتك * ولكن كيف أمكنك أن تدخل الى هنا ؟

هكذا صرخ يقول الشيخ مضطرباً مرتعشاً ، ولكنه مقتنع مع ذلك بأن ايفان آندريفتش لا يمكن أن يكون فى الواقع لصاً * وأردف يسأله :
- اننى أسألك : كيف دخلت الى هنا دخول لص ؟

- لست لصاً يا صاحب المعالي • أحلف لك اننى لست سارقاً •
ذلك كله ثمرة غيرتى • سوف اقصر عليك كل شيء يا صاحب المعالي •
سوف اروي لك كل شيء أميناً صادقاً • كما يروى ابن لاييه ••• فانت
فى سنٍ يمكن أن تجعلك بمثابة أبى ؟

- ما هذا الذى تقول ؟ أى سن ؟

- لعلنى اسات اليك يا صاحب المعالي ا سيدة شابة فى ميعه الصبا ••
ورجل فى عمرك •• حقاً انه منظر يسر العين يا صاحب المعالي • ان المرء
ليفتبط حقاً حين يرى اتحاداً كهذا الاتحاد •• فى زهرة العمر • ولكن
لا تستدع رجالك •• ناشدتك الله • لا تناد أحداً ••• انهم لن يفهموا
شيئاً • أنا أعرفهم •• أقصد •• لا أريد أن أقول ان علاقاتى المعتادة هى
علاقات بالخدم • أنا أيضاً عندى خدم يا صاحب المعالي • وهم لا ينفكون
يسخرون ويستهزئون •• هؤلاء الحمير ! •• يا صاحب السمو ••
لا أظن أننى أخطأت •• أعتقد أننى أخاطب أميراً •

- لا يا سيد • لست تتخاطب أميراً •• أنا ما أنا • أرجو أن لا تحاول
استمالتى بالتملق قائلًا « يا صاحب السمو » هذه •• كيف اندسست هنا
أيها السيد ؟ كيف اندسست ؟

- يا صاحب السمو • أقصد يا صاحب المعالي ••• عفواً ••• كنت
أظن أنك صاحب سمو •• لقد أخطأت •• هذا يحدث • انك تشبه شيئاً
كبيراً الامير كوروتكوخوف الذى تشرفت بلقائه عند صديقى السيد
بوزيريف • هانت ذا ترى أننى أعرف أمراء أيضاً • لقد صافحت يد أمير
عند صديقى • فلا تستطيع أن تحسب أننى من تظن •• لست بسارق •
لا تناد أحداً يا صاحب السعادة •• اذ ما الذى يمكن أن يحدث لو فعلت ؟
- ولكن كيف جئت الى هنا ؟ من أمت ؟

هكذا صرخت السيدة • فثنى زوجها على سؤالها قائلاً :

– نعم ، من أنت ؟

ثم التفت الشيخ الى زوجته يقول لها :

– ألا ما كان أغباني يا كنزى الغالى ! لقد تصورت أن قطننا فامسكا
هى التى كانت تعطس تحت السرير ، بينما كان هذا الرجل هو الذى
يعطس ! ...

ثم عاد الشيخ يسال ايفان وهو يضرب الارض بقدميه :

– من انت ؟ هلا تكلمت !

– لا استطيع ان اتكلم يا صاحب المعالى • انتظر ان تنتهى من كلامك
• • اننى اصغى الى امازيحت الفكاهة الطريفة : اما فيما يتعلق بى ، فذلك
حكاية مضحكة جدا يا صاحب السعادة • ساقص عليك كل شئ • • لاستدع
الناس • عاملنى معاملة نبيلة • ليس بالامر الخطير أننى كنت تحت السرير ،
ولم أفقد بسبب ذلك شيئا من كرامتى • هى قصة مضحكة جدا جدا
يا صاحبة المعالى (قال ايفان ذلك ملتفتا الى السيدة الشابة بوجه ضارع
متوسل) • • لا سيما أنت يا صاحبة المعالى • • لا بد أن تضحكى كثيرا
متى عرفت القصة • تصورى رجلا غيورا على مسرح • انه أملك الآن •
هأنذا أذل نفسى ، بمحض ارادتى • صحيح أنني قتلت آميشكا • • • ولكن
• • • يا رب ! أصبحت لا أعرف ماذا أقول •

– ولكن كيف دخلت الى هنا ؟

– استفدت من الظلمة يا صاحب المعالى • • • يؤسفنى جدا أننى فعلت
ذلك • • • سامحنى يا صاحب المعالى • أسألك الصفح والمغفرة بكثير من

المذلة • ما أنا الا زوج أسى • اليه • لا يخطرنبً ببالك يا صاحب المعالى
أننى أنا العشيق • لست أنا العشيق • ان زوجتك امرأة فاضلة ، اذا سمحت
لى بأن أقول هذا • انها طاهرة بريئة •

صرخ الشيخ وهو يضرب الارض بقدميه من جديد :

- ماذا ؟ كيف ؟ ما هذا الذى تجرؤ أن تقوله ؟ هل فقدت عقلك ؟
ما هذه الجرأة فى الكلام على زوجتى ؟

وصاحت السيدة تقول وقد فاضت عيناها دموعا :

- هذا اللص ، هذا القاتل التى ختق آميشكا ! ... انه يجرؤ أيضا
أن ...

- يا صاحب المعالى ، يا صاحب المعالى ، أنا لا أقول الا حماقات !

كان ايفان آندريفتش أقرب الى الموت منه الى الحياة •

وتابع يقول :

- ما أنا الا أبله معتوه ! انظر الى نظرتك الى عقل مضطرب! أحلف
لك أنك ستخدمنى اذا فعلت ذلك • • كان يمكن أن أمد اليك يدى ولكننى
لا أتجاسر • • اننى لم أكن وحدى • • أنا العم • • أنا عمه • • أقصد انه
يستحيل أن أعدّ أنا العشيق • • رباه ! عدت أقول سخفا • • لا تزعلى
يا صاحبة المعالى (كذلك صرخ ايفان آندريفتش مخاطبا الزوجة) • أنت
سيدة • وأنت تعرفين ما هو الحب • • الحب عاطفة رقيقة مرهفة • • هأنذا
أهرف أيضا • • أريد أن أقول فقط اننى رجل عجوز ، أقصد اننى رجل
مسن لا شيخ هرم ، فلا يمكن والحالة هذه أن أكون عشيقك • ان
رتشاردسون * هو العشيق • • أقصد لوفلاس • • آه ما أغبانى ! ولكن

هانت ترى يا صاحب المعالي اننى رجل مثقف ، وأنتى أعرف الادب • انك
تضحك يا صاحب المعالي • وانتى سعيد جدا بأننى بمثت فيك الضحك
يا صاحب المعالي ! آه ... ما أسعدنى يا ضحاكك •

صاحت المرأة تقول وهى تنفجر مقهقهة :

— انه لرجل مضحك حقا •

قال الشيخ مفتتا بضحك امرأته :

— مضحك جدا • يستحيل ان يكون لصا يا حبيبتى • ولكن كيف
دخلت الى هنا ؟

— أمر غريب فى الواقع ... أمر غريب جدا يا صاحب المعالي • هى
رواية حقا • كيف ؟ فى غياهب الليل ، فى عاصمة ، رجل تحت سرير • •
أمر غريب • • أمر شائق عجيب • • من نوع رينالدو رينالدينى * من بعض
الوجوه ! ولكن ليس هذا بشئ • • • ليس هذا كله بشئ • يا صاحب المعالي
• • ساقص عليك القصة كاملة • أما أنتى يا صاحبة المعالي ، فسأترك بكلمة
صغير آخر ، كلب صغير فريد فى نوعه • • • له ورن طويل وقوائم قصيرة
• • حتى ليمجز عن السير خطوتين دون أن يتضر بوبره حين يركض فإذا
هو يسقط • ويكفيه السكر طعنا • سأجيتك به يا صاحبة السعادة ،
أحلف لك • • •

لم تتمالك السيدة عن الانفجار ضحاحكة ، فتهاوت على مقدمها
مقهقهة :

— قد قد قد ! ان نوبة عصية توشك أن تواتبنى • • • هذا مؤكد •
رباه ! كم هو مضحك هذا الرجل •

- حقا ... كح كح كح ... مضحك ومتسخ جدا ! ... كح
... كح

- يا صاحب المعالي ! اننى فى ذروة السعادة • وددت لو أمد لك
يدى مصافحا ، ولكننى لا أجرؤ يا صاحب المعالي • لقد هرقت كثيرا ، أنا
أشعر بذلك ... أما الآن فان عينى تتفتحان • أنا واثق ان زوجتى
بريئة طاهرة • لقد أسأت الظن فيها •

صاحت السيدة تقول وقد امتلأت عيناها دموعا من فرط الضحك :
- زوجته ؟ زوجته ؟

قال الزوج :

- متزوج ؟ أهو حقا متزوج ؟ ما كان ليخطر ببالي هذا أبدا •

- يا صاحب المعالي ... ان امرأتى هى المذنبه ... أقصد أننى أنا
المخطئ ، لأننى شككت فيها ... كنت أعلم أن موعدا قد ضرب هناك ،
فوق ، فى الطابق الاعلى ... كنت قد ضبطت رسالة تدل على ذلك ...
ثم أخطأت سبيلى الى الطابق الاعلى ، فاذا أنا هنا تحت السرير •

- هو ، هو ، هو ، هو !

- ها ، ها ، ها ، ها !

- هو ، هو ، هو ، هو !

لقد فهقه ايفان آندريفتش هو أيضا حتى كاد يهتق من الضحك •
لنكم تعلمون مدى سعادتى ! أوه ! ما أمتع أن أرى أننا جميعا على وفاق ،
وانا جميعا مقتبطون ! وزوجتى أيضا بريئة كل البراءة • أكاد اكون على
يقين من هذا • لأنها بريئة حقا ، أليس كذلك يا صاحب السعادة ؟

ضحك الشيخ ، ثم سعل :

— ها ! ها ! ها ! كح كح ...

واستطاع أخيرا بعد أن سيطر على ضحكه أن يقول :

— هل تعلمين من هي يا حبيبتي ؟

— من هي ؟ ها ها ها ! من هي ؟

— هي تلك الجميلة الفاتنة التي تنظر نظرات رقيقة الى ذلك الشاب

المتأنق • أراهن انها هي زوجته !

— لا يا صاحب المعالي ، انا متأكد أنها ليست هي ... متأكد كل

التأكد ...

صاحت السيدة وقد كفت عن الضحك :

— فلماذا تضع وقتك اذن ؟ هيا اسرع ، فمسالك تلتقاها الآن معا ؟

— حقا يا صاحب المعالي ، سوف أطير طيرانا • ولكنني لن أجد أحدا

يا صاحب المعالي • ليست هي • أنا أعرف ذلك سلفا • انها الان في البيت

• • أما أنا ... فما أنا الا رجل غيور أعمته الغيرة ... ما رأيك يا صاحبة

المعالي ؟ هل تعتقدين أنني سأجدهما هنالك معا ؟

— هو ! هو ! هو ! ...

— هي ! هي ! هي ! كح كح ...

قالت السيدة :

— أسرع ، أسرع ... وفي أثناء عودتك ، تعال إلينا فقص علينا

ما جرى ... أو تعال غدا ، فذلك أفضل • وجيء بها إلينا • انني أريد

أن أتعرف إليها •

— الى اللقاء يا صاحبة المعالي • الى اللقاء • سوف أجيء بها حتما ،
وانتى لسعيد بمعرفتك • يسرنى ويسعدنى أن تنتهى الامور هذه النهاية
التي لم تكن فى الحسبان ، وأن تنحل المشكلة على أفضل نحو ممكن ...
— والكلب الصغير ذو الوبر الطويل ! اياك أن تنسى الكلب الصغير
قبل كل شيء •

— سأجيئك به يا صاحبة المعالي ، سأجيئك به حتما ، سأجيئك به •
كذلك قال ايفان أندريفتش عائدا الى الغرفة بسرعة ، لأنه كان قد
انصرف بعد أن ودّع • وتابع يقول :

— سأعود بالكلب الصغير حتما • انه حلوا جدا • كأن صانع حلوى
قد صنعه من سكر • وسترين • انه يركض فيتمش بشعره فيسقط • هو
كذلك • أؤكد لك • حتى لقد كنت أقول لزوجتى : « لماذا هو يسقط
دائما على الارض يا عزيزتى ؟ » فقالت تعيبنى : « لأنه صغير جدا » • انه
من سكر يا صاحبة المعالي • اننى سعيدا جدا بمعرفتكم •

قال ايفان اندريفتش ذلك ثم حيا وخرج •

— يا سيد ، يا سيد ! انتظر ! ارجع !

هكذا نادى الشيخ صاحب ايفان أندريفتش • فعاد ايفان أندريفتش
مرة ثانية الى الغرفة •

— اسمع ! انى لم ألاخذ قطعا فاسكا ؟ ترى هل رأيتها حين كنت
تحت السرير ؟

— لا ... لم ألاخذها يا صاحب المعالي • على كل حال سأكون سعيدا
جدا ، وسيسرفنى أن أهرقها •

- هي أيضا مصابة بزركام ، وما تنفك تمطس •• يجب جلدتها •
- طبعاً يا صاحب المعالي • العقوبات التأديبية ضرورية للحيوانات
الاهلية •

- ماذا ؟

- أقول ان العقوبات التأديبية ضرورية للحيوانات الاهلية •
- طيب اذهب • بارك الله فيك • كنت اريد فقط ان •••

حين وجد ايفان اندريفتش نفسه في الشارع ، ظل ساكناً جامداً
خلال زمن طويل ، كأنسان يتوقع ان يتهاوى على الارض من لحظة الى
اخرى بسكتة قلبية • نزع قبعته ، وجفف العرق البارد عن جبينه ، وقطب
حاجبيه ، وبدأ عليه التفكير والتأمل ، ثم اسرع راكضاً في اتجاه بيته •

فما كان أشد ذهوله حين علم في منزله أن جلافيها قد عادت من
المسرح منذ زمن طويل • وكانت قد عانت آلاماً شديدة في أسنانها ،
وطلبت طبيباً ، وعالجت نفسها بعلق • وكانت جلافيها راكدة في سريرها
تنتظر ايفان أندريفتش •

لطم ايفان أندريفتش جبينه • ثم ذهب الى مخدع زوجته •

- أين تقضى وقتك يا هذا ؟ هلاً نظرت الى نفسك فرأيت في أية
حالة أنت ! يا لوجهك من وجه ! أين كنت ! أين دسست نفسك ؟ ألا
فكرت قليلاً أيها السيد ؟ امرأتك تموت وتضرب في المدينة كلها باحثة
عنك عسى أن تعثر لك على أثر ! أين كنت ؟ أكنت تريد أيضاً أن تقبض
على متلبسة بالجرم المشهود ؟ أكنت تحاول أن تمنعني من الذهاب
الموعد المضروب ؟ الموعد المضروب مع لا أدري من ! •• عيب أيها السيد
عيب ••• لسوف يشير اليك الناس بالاصابع قريباً !

قال ايفان أندريفتش :

ـ كنزى الغالى !

ولكنه كان من فرط الانزعاج والحرج أنه اضطر أن يخرج منديله من جيبه . لقد قطع جملته التى بدأها ، فلا هو يعثر على فكرة يعبر عنها ، ولا هو يجد كلمة يقولها . . . فما كان أشد ذهوله ، وذعره ، ورعبه ، حين سحب منديله من جيبه ، فاذا بالمرحوم آميشكا يسقط على السجادة . لم يكن قد لاحظ أنه حين كان يزحف تحت السرير ، وهو فيما هو فيه من كرب ، قد دس آميشكا فى جيبه . كان ايفان اندريفتش يرجو من ذلك أن يمحو كل أثر من آثار جنايته ، وأن يهدم كل دليل يبرهن على جرمه ، وأن يتفادى بذلك العقاب الذى يستحقه .

صاحت الزوجة تسأله :

ـ ما هذا ؟ كلب صغير ميت ؟ من أين جئت به ؟ ماذا فعلت ؟ يارب ! من أين هو آت ؟ ماذا صنعت ؟ أين كنت ؟ أجب بسرعة : أين كنت ؟

قال ايفان أندريفتش وهو يحس أنه ميت أكثر من آميشكا :

ـ كنزى الغالى . . . عزيزتى

ولكننا سندع بطلنا هنا للمرة القادمة . لسوف اكمل ، فى يوم من الأيام ، أيها القراء الأعزاء ، قصة النواع الشقاء وضروب المحن التى رمى بها القدر صاحبنا ايفان اندريفتش . اعترفوا على كل حال بأن الغيرة آفة لا تقتفر ، بل بليه من البلايا .

حواش

تقديم

الصفحة

- ١٠ * يعدد دوستويفسكى هنا سلسلة من الموضوعات الرومانسية :
« أرنست تيودور آميرى هوفمان » (١٧٧٦ - ١٨٢٢) : أحد كبار الشعراء الرومانسيين الألمان ؛ « ليلة سان بارتلمى » تمثل مذبحه البروتستانت فى باريز فى ٢٤ آب (اغسطس) ١٥٧٢ ، وقد صورها الشاعر بروسير ميرميه فى « وقائع عهد شارع التاسع » ؛ « ديان فرنون » : بطلة رواية والتر سكوت التى عنوانها : « روب روى » ؛ الاستيلاء على قازان من قبل حنا الرابع سنة ١٥٥٢ ؛ « كليبر موفبراى » : احدى شخصيات والتر سكوت فى روايته « امواه سان رومان » ؛ « ايلفى دينز » ؛ احدى شخصيات والتر سكوت ايضا فى « أرض ميد لوثيان » ؛ « مجمع الاحبار » الذى أمر باحراق جان هوس سنة ١٤١٥ ؛ مشهد يقظة الاموات فى اوبرا « روبير الشيطان » من تأليف مايربير (١٨٣٠) ؛ قصيدة جوته « مينا » ترجمها الى الروسية الشاعر جوكوفسكى ؛ « برندا » قصيدة رومانسية للشاعر الأعمى ايفان كوزلوف (١٧٧٩ - ١٨٤٠) ؛ الصالون الأدبى للكونتييسة الكسندرين فورونتزوفاداشكوفا (١٨١٨ - ١٨٥٦) ؛ « دانتون » أحد كبار رجال الثورة الفرنسية ؛ « كليوباتره » وغرامها « موضوع قصيدة بوشكين التى عنوانها : « ليالى مصر » ؛ « البيت الصغير فى كولومنا » : من اعمال بوشكين ايضا ، حيث يصف الشاعر انساناً فقراء الحال يعيشون فى ضاحية من ضواحي سان بطرسبرج .

فيتوتشكا

- ٢٦ * اسم نرفانوف مشتق من التعت نرفانوى ومعناه من جاء بغير دعوة . وكثيرا ما كان يطلق على أولاد السفاح .

الصفحة

- ٢٨ ★ كان كبار السراة من الروس فى القرن الثامن عشر وفى النصف الأول من القرن التاسع عشر يقيمون فى أملاكهم مسارج وينشئون جوقات موسيقية تتألف غالبا من خدم وأقنان ، وأحيانا من أحرار .
- ٣٦ ★ ياجور ، هو الشكل الشعبى لاسم جيورجى ، ياجورى .
- ٥٦ ★ ترسيت : شخصية فى الياذة هوميروس تتصف بسعة الحيلة وسلطة اللسان .

الليالى البيضاء

- ٢٧٨ ★ شارع نفسكى ، وحديقة الصيف ، والأرصعة : أماكن ثلاثة للتنزه فى بطرسبرج .
- ٢٧٨ ★ « قناة فونتانكا » تجتاز وسط المدينة .
- ٢٧٩ ★ « بالوان امبراطورية السماء » : كان اللون الأصفر هو اللون الرسمى للصين .
- ٢٨٠ ★ جزر كامنى وأبتكارسكى وبترهوف : أماكن اصطيف قريبة من بطرسبرج ، يصطاف فيها الأغنياء ، أما بارجولوفو ، فهى على مسافة خمسة عشر كيلو متراً من المدينة ، فى الطريق المؤدى الى فنلندة .
- ٣٠٠ ★ « الهة الأحلام » ، يصفها دوستويفسكى هنا بالألفاظ التى يصفها بها الشاعر الرومانسى فاسيلى جوكوفسكى (١٧٨٣ - ١٨٥٢) .
- ٣٠١ ★ راجع حاشية الصفحة ١٠ .
- ٣١٣ ★ « ايفانهويه » ، الرواية الشهيرة التى كتبها والتر سكوت ، وقد ترجمت الى الروسية مراراً .
- ٣١٤ ★ « حلاق اشبيليه » (١٨١٦) : لقد مثلت أوبرا روسيىنى هذه كثيراً فى روسيا .

الصلحة

٣١٥ * « روزين » : اشارة الى مشهد من حلاق اشبيلية ، وفي ذلك المشهد تقوى روزين نقل رسالة الى فيجارو من وراء ظهر ولي امرها .

بروخارتشين

٣٥٤ * « بروخارتشين » اسم مشتق من فعل Prohartchit ومعناه « أنفق » ؛ فيكون اسم هذا الرجل البخيل : السيد « منفق » .

٣٦٣ * فرضت الامتحانات المهنية على الموظفين الذين لا يحملون الشهادات سنة ١٨٠٩ ، من قبل الوزير سبيرانسكى ، ولكن تطبيقها أعمل بعد ذلك .

٣٦٦ * سوق تولكوتشى (ومعناها سوق التزاحم أو التدافع) .
٣٨٩ * ياروسلاف ايلتشى هو مأمور قسم الشرطة بالمى .

الجماعة

٤٣١ * ستينكا (ستيفان) رازين ، زعيم ثورة القوزاق والفلاحين سنة ١٧٦١ .

٤٣٨ * ياروسلاف ايلتشى هو مأمور قسم الشرطة بالمى .

٤٤٣ * « كوشماووف » : اسم مشتق من الكلمة الفرنسية Cauchemar ومعناها الكلبوس وقد دخلت اللغة الروسية .

٤٤٦ * « فى المقبرة » : المقصود هنا العقاب الكهربى ، فاللذين يقتلون بغير تعمد كانوا يعاقبون بهذا العقاب ، فيمنعون من تناول القربان المقدس ومن دخول الكنائس عدة سنين .

٤٤٩ * « فيليم ايميليا نوفتشى » : لعله مدير الشرطة بالعاصمة .

٥٠٨ * « تلميذ الساحر » ، أسطورة من القرون الوسطى عرفها دوستويفسكى عن طريق قصيدة جوته التى ظهرت سنة ١٧٩٧ بهذا العنوان .

المهرج

الصفحة

- ٥١٣ ★ « المهرج » (بولزونكوف) : اسم مشتق من كلمة بولزون ومعناها « مذل نفسه » ، ففي الاسم إشارة الى الصفة التي اختارها المهرج لنفسه بإرادته .
- ٥٢٤ ★ « ماريا المصرية » ، نموذج الحاطة التي غفر لها .
- ٥٢٨ ★ أولى كلمات قصيدة ك . ماتيوشكوف التي عنوانها « فراق » نظمها الشاعر سنة ١٨٦٢ ثم لحنت وأصابت رواجاً كبيراً .

البطل الصغير

- ٥٨٩ ★ بنديكت هو عشيق بياتريس في ملهة شكسبير « ضجة كبيرة في غير طائل » .
- ٥٩٦ ★ ايليا مورومتس ، بطل من أبطال الملاحم الروس ، أقوى فرسان سان فلاديمير . قضى الثلاثين الأولى من سنن عمره كسيحاً في قريته كارانشاروفو ، ثم شفثه ، بمعجزة ، ملائكة متنكرة بمظهر حجاج .
- ٦٠٢ ★ الفارس النبيل « دولورج » هو بطل قصيدة شيللر « القفاز » ، وقد ترجها الى الروسية جوكوفسكى ؛ والفارس « توجنبرج » بطل آخر في قصيدة لشيللر .

قصة في تسع رسائل

- ٦٢٠ ★ العنوان الأصلي : « الفكر يجلب الشقاء » ، وهي مسرحية شهيرة من تأليف جريبوينوف ، كتبها سنة ١٨٣٠ ، وكانت تمثل كل خريف في « مسرح الكسندرين » بسان بطرسبرج .
- ٦٢٢ ★ « خمسمائة نفس » : الى ان ألغيت الفنانة سنة ١٨٦١ كان تقدر قيمة أرض من الأراضي لا بمساحتها بل بعدد « نفوسها » ، أي بعدد الأتقان البالغين الخاضعين للضرائب .

٦٢٤ * سميرسك ، مقاطعة الفولجا ، وطن كارامازين وجوتشاروف وأوليانوف لينين ، وتسمى الآن أوليانوفسك .

زوجة آخر . . . وزوج تحت السرير

٦٦١ * روايات بول دو كوك ترجمت الى الروسية وراجت قراءتها راجا كبيرا . وكان الناقد الشهير بيلنسكى يقدر فيها اتجاهها الواقعى .

٦٨١ * كانت الأوبرا الايطالية رائجة فى سان بطرسبرج فى ذلك العصر وفى خلال فصل الشتاء من سنتى ١٨٤٧ - ١٨٤٨ حظيت مغنيتان كبيرتان بنجاح كبير فقسمتا الناس حزبين فبعضهم أنصار تيريزا جيوجلى بورسى ، وكانوا يلقبون « البورسين » ، وبعضهم أنصار ارمينيا فريزولينى وهم « الفريزولينين » .

٦٨٢ * يستشهد دوستويفسكى بأقوال هاملت بطل مسرحية شكسبير (الفصل ٣ ، المشهد ٥) وقد عرفها فى الترجمة الروسية التى قدمها نيقولاس بولفوى سنة ١٨٣٧ .

٦٩٧ * « فاسكا ، فاسنكا » ؛ من الأسماء التى تطلق على القطعة .

٧١٨ * يخلط ايفان آندرفتش هنا بين اسم المؤلف الانجليزى رتشاردسون وبين اسم لوفلاس الشخصية المغوية فى الرواية التى كتبها رتشاردسون بعنوان « كلاريا هارلو » ؛ وقد ترجمت هذه الرواية الى الروسية وقرئت كثيرا .

٧١٩ * رينالدو رينالدينى ، بطل رواية المسائية كتبها فولبيوس (١٧٦٢ - ١٨٢٧) وترجمت الى الروسية والتشرت فى روسيا انتشارا كبيرا فى تلك الآونة . والبطل يمثل رجلا كريما جوادا من اللصوص قطاع الطرق .

فهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
نيتوتشكا نرفانوف	
الفصل الأول	٢٧
الفصل الثاني	٥٨
الفصل الثالث	٨٥
الفصل الرابع	١١٦
الفصل الخامس	١٣١
الفصل السادس	١٥٩
الفصل السابع	١٩٠
الفصل الثامن	٢١٧
الليالي البيضاء	
الليلة الأولى	٢٧٧
الليلة الثانية	٢٩٢
قصة ناستنكا	٣٠٩
الليلة الثالثة	٣٢٤
الليلة الرابعة	٣٣٤
الصباح	٣٤٨
بوخارتشين	٣٥٣

الموضوع	الصفحة
الجلدة	
الفصل الأول ١	٣٩٩
الفصل الأول ٢	٤١٧
الفصل الأول ٣	٤٣٤
الفصل الثاني ١	٤٥٣
الفصل الثاني ٢	٤٧٧
الفصل الثاني ٣	٤٩٤
المهرج	٥١٣
السارق الشريف	٥٣٩
البطل الصغير	٥٦٩
قصّة في تسع رسائل	٦١٧
شجرة عيد الميلاد والزواج	٦٣٥
زوجة آخر .. وزوج تحت السرير	
الفصل الأول	٦٥٣
الفصل الثاني	٦٨١
حواش	٧٢٥

الأعمال الأدبية الكاملة

<u>المجلد الأول</u>	<u>المجلد الثامن</u>
الفقراء	الجريمة والعقاب - ١.
المثمل	<u>المجلد التاسع</u>
قلب ضعيف	الجريمة والعقاب - ٢.
<u>المجلد الثاني</u>	<u>المجلد العاشر</u>
نيتوتشكا نزلناؤونا	الأبلة - ١.
الليالي البيضاء	<u>المجلد الحادي عشر</u>
بروخارشتين	الأبلة - ٢.
الجارا	<u>المجلد الثاني عشر</u>
المهريج	الشياطين - ١.
السارق الشريف	<u>المجلد الثالث عشر</u>
البطل الصغير	الشياطين - ٢.
قصة في سبع رسائل	<u>المجلد الرابع عشر</u>
شجرة عيد الميلاد والزواج	المرامق - ١.
زوجة أخرا وزجل تحت السرير	<u>المجلد الخامس عشر</u>
<u>المجلد الثالث</u>	المرامق - ٢.
قريبة ستينا تشيكوفوفوسكانها	قصص
حلم العم	<u>المجلد السادس عشر</u>
<u>المجلد الرابع</u>	الأخوة كارامازوف - ١.
مذلولون مهانوت	<u>المجلد السابع عشر</u>
<u>المجلد الخامس</u>	الأخوة كارامازوف - ٢.
ذكريات من منزل الأموات	<u>المجلد الثامن عشر</u>
<u>المجلد السادس</u>	الأخوة كارامازوف - ٣.
في قبوي	
قصة اليممة	
ذكريات شتاء عن مشاعر صيف	
التمساح	
<u>المجلد السابع</u>	
المقامر	
الزوج الأبدي	

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة

"إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعياً يدافع عن "الفقراء" والمذلين الميائين" فاذا عالج مشكلات ما تنفك تزداد عمقا أخذ بعضهم يشتهر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعماق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."

ألكسندر ف. سولزنيف